شاهد على العصر

مذكرات محمد لطفي جمعة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

رئيس مجلس الإدارة :

د. سمير سرحان

رئيس التحرير :

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير :

وداد الجزار

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب

تقـــــديم

يسرني أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب الشيق : « شاهد على العصر » ، وهو مذكرات الأديب والصحفى الكبير المرحوم محمد لطفى جمعة ، وهو واحد من الرواد الأوائل الذين تركوا بصمتهم على الحياة الأدبية والفكرية والسياسية من موقع انتمائه الى الحزب الوطنى ، وقد ترافع فى بعض أهم القضايا السياسية التى شغلت الرأى العام ٠

وقد جمع هذه المذكرات وأعدها للنشر ابنه المستشار رابح لطفى جمعة ، وهو أكثر من رأيتهم من الأبناء وفاء لوالدهم ٠ وتشمل المذكرات التى بين أيدينا مذكرات الكاتب فى الفترة من ميلاده فى يناير ١٨٨٦ الى ديسمبر ١٩٣٧ ، وأهميتها أنها تصور عصرا بأكمله من زواياه الاجتماعية والفكرية والسياسية ، بقلم أديب صناعته الأدب ، وسياسى وطنى حظى بتقدير عصره ٠

وتتنـــاول هذه المذكرات طفولة الكـــاتب ، وتكوينه العقلى والعلمى ، ونظام التعليم فى عصره فى مراحله المختلفة ، وصداقات شبابه ٠ وقد انتقل فيها الى عمله بمهنة التدريس والصحافة ، وسفره الى فرنسا للالتحاق بكلية الحقوق بليون ، وتأسيسه جمعية مصرية للطلبة المصريين بليون ، ومعاناته فى فرنسا ، كما يسجل يوميات سنة ١٩٠٩ ، ولقائه بالمستر بلنت ، واتصـــالاته بمحمد

فريد وزعماء حزب العمال البريطانى ، وبعزيزة روشبرون ، وجون نينيه صاحب كتاب « عرابى باشا » كما تناول سياحته فى ايطاليا بوصف بديع لمدنها السياحية ، وحضوره المؤتمر الوطنى المصرى فى بروكسل سنة ١٩١٠ ٠

وقد خصص الكاتب فصلا كاملا لعمله فى المحاماة ، وذكرياته عن القضاء والمحاماة ، كما تعرض لبعض القضايا التى ترافع فيها ، وفيها قضية اغتيال السردار السير لى ستاك ٠ وقضية القنابل ، وقضية مقتل أمين عثمان ، وقدم لذلك بمقدمة عن الاغتيال السياسى وأسبابه ٠

كذلك تحدث عن انشغاله بالتفكير فى العالم العلوى وعالم الأرواح ، وأحاديثه مع الشيخ محمد عبده ٠ وتحدث عن تكوينه الفلسفى وسبب دراسة الفلسفة ، كما تحدث عن زواجه ٠ وقد استهل هذا الكتاب على يوميات الكاتب من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٧ ٠

والمذكرات سياحة شيقة فى عصر بأكمله ، تصور جوانبه الاجتماعية والسياسية والفكرية ٠ وهو جدير بالقراءة ٠

رئيس التحرير

د٠ عبد العظيم رمضان

مقـــــدمة

رابح لطفى جمعـه

تعتبر الترجمة الذاتية أو ما يعرف فى الآداب الافرنجيـة « بالاتوبيوجرافيا » ، أى ترجمة الشخص لنفسه ، من أبرز مظاهر الأدب العربى المعاصر . وليس معنى ذلك أن أدباء العرب الأقدمين لم يعرفوا هذا اللون من الكتابة ، بل ان كثيرا منهم قد تصدى للترجمة عن نفسه ، وان تكن ترجمته موجزة كياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » والشاعر الفارس أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار » ولسان الدين بن الخطيب فى كتابه « الاحاطة فى أخبار غرناطة » والحافظ بن حجر فى كتاب « رفع الاصر عن قضاة مصر » .

على أن ابن خلدون يعتبر بحق مجليا فى هذا الفن وسباقا اليه من بين مؤرخى وأدباء العرب والمسلمين بما كتبه عن تاريخ حياته فى كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا » ، وهى ترجمة مستفيضة تحدث فيها عن تفاصيل ما جرى له وما أحاط به من حوادث من يوم نشأته الى قبيل وفاته ، وتعتبر بهذه المثابة من أوليات التراجم الذاتية بالمعنى المقصود من ذلك .

وقد احتلت الترجمة الذاتية فى العصر الحديث مكانها بين فنون الأدب المختلفة وأجناسه المتعددة وكادت أن تصبح لونا قائما بذاته من ألوان الكتابة الأدبية ، وذخرت المكتبة العربية فى العصر

الحديث بالعديد من التراجم الذاتية لأدباء ورجال سياسة واجتماع ودين فى مصر،الى جانب العديد من الفصول والمقالات المنشورة بالصحف والمجلات والتى تمثل ترجمة ذاتية لكتابها ومنشئيها وأحاديث عن جوانب عديدة من حياتهم ٠

والحقيقة التى يكاد يجمع عليها الأدباء والباحثون أن من أصعب الأمور على الكاتب أن يدون تاريخ حياته وما دار فى فلكها من أحداث ، وظهر على مسرحها من شخصيات ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أنه مهما أوتى الكاتب من عدل واعتدال وصدق وحسن نية ونبل مقصد وشرف غاية ، فهو غالبا متهم بالتحيز لنفسه أو لذويه وصحبه ، ولا سيما عند معاصريه وأهل زمانه ، ومن هنا ينشأ الخوف من الانزلاق والزلل ويتولد الحرج من الصراحة والصدق مع النفس أو الغير ٠

ولأجل هذا فقد تعود الكتاب ألا يدونوا أخبارهم وترجمة حالهم الا فى أواخر حياتهم وألا تنشر الا بعد وفاتهم ووفاة المعاصرين الذين ورد ذكرهم فيها ٠

وقد احتال الأدباء فى الغرب والشرق حيلا شتى لاتقاء مجابهة المعاصرين ، من ذلك اختفاؤهم وراء شخصيات أخرى أو الرمز الى الأشخاص بأحرف من أسمائهم أو افراغ ترجمة حياتهم فى قالب القصة ٠

على أنه مهما تحايل الكاتب على تسجيل تاريخ حياته وتدوين سيرته الذاتية ، فانه من المستبعد أن يكتب فيها كل شىء ، لأن من أصعب الأمور على الانسان أن يقول عن نفسه كل شىء أو أن

يعرى نفســه بحيث يذكر مساوئها وأهواءها على نحــو واضح وصريح ، فالانسان بطبعه يرفض فكرة الكشف الكامل عن حياته وأهوائه وطباعه وأخطائه وفضائله ورذائله وكمالاته ونقائصه ٠

ومهما يكن من أمر صعوبة الترجمة الذاتية وأنها لا تعطينا كل شيء عن حياة كاتبها ، الا أنها تلقى ضوءا كاشــفا على هذه الحياة ٠

ولما كان الانسان ينشد دائما معرفة ذاته ويسعى الى معرفة أوجه الكمال والنقص فى غيره مقرونا الى ذاته ، كأنما يريد أن يطمئن الى نفسه بما يراه من صورة غيره ، فان كتب التراجــم الذاتية أو المذكرات الشخصية تعتبر من أكثر الكتب تشويقا وأمتعها الى نفس القارىء ٠

وبعـــد ٠٠٠

فهذه مذكرات محمد لطفى جمعــه تنشر لأول مرة ، وهى تنتظم أنواعا شتى من الكتابة ، منها ما يمكن أن نسميه بالترجمة الذاتية Autobiography ومنها ما يعرف باليوميات أو المذكرات اليومية Diaries ، ومنها ما يمكن أن نطلق عليه اسم تذكارات Memories .

على أن لطفى جمعه فى سياق كل من هذه الألوان من الكتابة يتحدث عن كثير من المســائل السياسية والمشــاكل الاجتماعية والأخلاقية والقضايا الأدبية والفكرية والثقافية التى كانت محل اهتمام ومثار جدل ونقاش بين رجال الفكر والأدب والســياسة والاجتماع والدين والصــحافة فى النصف الأول من هذا القرن

الشخصيات المعاصرة له ويبدى رأيه فى هذا كله بصراح

ومن هنا فاننا نستطيع أن نقول ــ بكثير من الاطم
مذكرات محمد لطفى جمعه تعتبر بحق وبكل المقاييس
صادقة على عصره بكل ما كان يموج به هذا العصر م
ويضطرب فى ساحته من أفكار وما ظهر على مسرحه من شخ

ومن هنا فقد أطلقت على هذه المذكرات عنوان « ش
العصر » ، على أن هذه التسمية ليست مستحدثة أو م
عندى ، وانما هى فى حقيقة الأمر والواقع مستمدة مما
جمعة نفسه عن هذه المذكرات ووصفها بأنها « شهادة على
فقد عبر عن ذلك أكثر من مرة فى كتاباته فقال :

« لو لم يكن من شرف التاريخ الا أن يستطيع ر
شديد الشوق الى الحقيقة شوقا محرقا اثبات صورة لعصر
لمحات خاطفة كلمحات البرق ــ لكفاه فخرا ... فم
أو خمس سنين شغلت ليل نهار بتصوير العصر الذى أ
على قدر طاقتى » .

ويقول بمناسبة حديثه عن جان جاك روسو وتع
الفيلسوف لحبه الحرية ودفاعه عن الضعفاء ونهوضه لمقا
المساواة الانسانية « أرى عند الرجوع بفكرى الى تلك ا
الأفكار تتزاحم على ، لا كطالب علم فى بلد أوربى أنا غري
ولكن كشاهد على العصر وناقد متحرق على تحقيق العدل ا
فى وطنه ، أقارن حياتنا فى بلادنا بحياة هؤلاء القوم فى
حياة العقل والخلق والجسد والروح » .

فمن هذه المقتطفات وغيرها مما كتبه لطفى جمعة ، استمددت عنوان هذه المذكرات ·

لقد حاول لطفى جمعه فى هذه المذكرات أن يعطينا بقدر الامكان صورة صادقة عن العصر الذى عاشه وأن يرسم بالكلمات بعض شخصيات هذا العصر من خلال علاقاتهم به أو علاقاته بهم ·

وان القارىء لهذه المذكرات ليشعر أحيانا ـ فى شمولها واتساع مناحيها ـ انها أشبه بالبانوراما Panorama أو اطلالة عامة شاملة نافذة لأحداث العصر وشخصياته ، وأنه يعيش هذه الأحداث ويعايش تلك الشخصيات ·

ومن هنا فقد ذخرت هذه المذكرات بكثير من الأسرار والخفايا التى تذاع أو تعرف ، ربما لأول مرة · كما تتضمن انتقادات ووجهات نظر قد تكون مريرة وأليمة ولاذعة لكثير من الأوضاع والأفكار السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية والاقتصادية فى مصر فى النصف الأول من هذا القرن · كما حفلت بالعديد من الأحداث والمواقف المثيرة والطريفة رواها لطفى جمعة بأسلوبه المتميز الذى يجمع بين السخرية اللاذعة والنقد الهادف ·

ويهمنى ـ وأنا أقدم هذه المذكرات لأول مرة للقراء والنقاد والمؤرخين فى مصر والعالم العربى والاسلامى ، أن أنبه بأن لطفى جمعة لم يعن حال حياته بجمع هذه المذكرات أو ترتيبها وتنسيقها وتبويبها ، ولكنه كتب فى بعض مذكراته المخطوطة سنة ١٩٤٤ يقول « لمن أكتب هذه المذكرات ؟ لله ولنفسى . ولا أظن أن أحدا يعرفها أو يدركها وهى مكتوبة بسرعة وتحت تأثير ضغط شديد

لأسرى عن حالتى...فعلى من يعثر عليها من أولادى أو الغرباء أن ينسقها وينشرها بعد موتى . وان مد الله فى أجلى فأنا أقوم بهذا العمل لأنه يعطى صورة ، ولو ضعيفة ، عن العصر والحياة فى مصر أثناء هذه الحرب ... » .

ولا يسعنى وأنا أختتم هذه المقدمة الا أن أدع القارىء الكريم يطالع هذه المذكرات الممتعة والذكريات الشائقة .

والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل .

القاهرة فى ١٨ يناير سنة ٢٠٠٠ م .

رابح لطفى جمعة

٢١ شارع أمين الخولى

مصر الجديدة

تقـــديم (١)

من أصعب الأمور على الكاتب أن يدون تاريخ حياته وان كان هذا التدوين من أوجب الواجبات ، بل يكاد يكون فرضا ·

انه من أصعب الأمور لأن القلم لا يكبح جماحه ، والشهوات غلابة ، وقول الحق شديد على النفوس ، وصاحب الشيء نفسه لا ينجو من أن يكون موضع الظنون ، ومهما أوتى الكاتب من عدل واعتدال ، وصدق وحسن نية ونبل مقصد ، فهو متهم بالتحيز لنفسه أو لذويه وصحبه ولاسيما عند معاصريه وأهل زمانه ، ولكن الذى يكتب ترجمة حاله يقصد فى الأغلب أن يكون قراؤه من أبناء الأجيال المقبلة ، وفى هذه الفكرة نفسها غرور مبناه أنه يلقى شهرة وصيتا ذائعا بعد وفاته حتى تكترث له الأجيال ، ولكن قد لا يخطر هذا البال بنفسه ، ويكون قصده مقصورا على الكتابة مجردة من كل غاية لأن فيها تفريجا للنفس وراحة للقلب وتصفية للعقل ووضعا للحمل الذى ينوء به وشفاء لغليل نفسه وتوضيحا لما هو مبهم فى ضميره واجتهادا فى تصوير ذاته التى يراها دائما غامضة مهما وقف أمام مرآة روحه ليراها ، ولكن الناس لا يرون رأيا من هذه الآراء لأن معظمهم محوط بالأوهام والظنون ، فهم لا يبرئونه ولا يحسنون الظن به ولا يأخذون الأمور على ظواهرها ، بل يذهبون فى تفسيرها وتعليلها كل مذهب ·

---

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل فى ٢ رمضان سنة ١٣٦٠ هجرية ·

وقد نشأت شديد الشغف بمن قرأت لهم كتبا من أى جنس كانوا ، فعندى الكاتب أهم من الكتاب ، وترجمته تلقى نورا على حياته ، ولو خيرت لقضيت حياتى فى قراءة التراجم وكتابتها .

ان تواريخ الحياة أهم من الحياة ، لأنها أصدق منها فى مجموعها ، والتراجم أقرب التواريخ الى الحقيقة ، كالخيوط قبل أن تنسج ، فهى بلونها الطبيعى وعلى قياسها الأصلى ، لم يعتورها تدخيل ولا تخليط ولا حياكة ولا حباكة ولا تعقيد .

وأحب الكتب الى مطولات المعاجم فى الأعلام ، ويتلوها فى التقدير عندى تراجم الصادقين من الرجال . ألا ترى أن الكتاب الذى شغل نصف حياتى هو سيرة محمد بن عبد الله النبى العربى ، لقد شغلت به لأنه أقرب التراجم الى الحقيقة وأول مراجعه القرآن الذى أجمع العلماء فى كل ملة وجنس ولغة على صدقه ، ومهما كتبت فى وصف شغفى بهذا النوع من الأدب ، فلا أوفيه حقه ومكانته من نفسى .

ولما قرأت شعر المتنبى — وكنت فى السادسة عشرة من عمرى — غاظنى جدا أننى لم أجد له ترجمة وافية ضافية ، وعجبت لهؤلاء الناشرين والشارحين كيف يكترثون لترتيب الديوان وشرحه ولا يعيرون تاريخ الشاعر نفسه نصيبا من عنايتهم ، وقد شرعت اذ ذاك أن أرتب له ترجمة من شعره .

وقد كان هذا الميل أشد ميولى وتخصصى لو أننى ملكت التخصص فى صغرى ، ولكن أشياء أخرى غمرتنى وغمرت معى هذا الميل وسواه ، فعشت متألما محروما من الدراسات التى كنت

أريدها ، فقد كانت الفلسفة والطب أول ما تعلقت به نفسى ، ولكن الحياة قهرتنى وأرغمتنى على سواهما ، وعندما تأملت اليهما وجدتهما لا يخرجان عن دراسة الانسان فى عقله وجسده ، ولكن الحياة الاجتماعية مصنوعة فى عصرى بحيث لا تمكن انسانا من ممارسة ما يهوى اليه فؤاده ، بل تقوده وتسوقه وترغمه على عمل ما يهيئه له ماله وقدرته الاقتصادية ، فتكون أعمار كثيرة مضيعة مضللة .

لقد ضربت بالأدب والشعر والخطابة والسياسة عرض الحائط ، ولم أرغب فى واحد منها ولم أتفرغ لفرع من فروعها ، وأحببت الطب والفلسفة من كل قلبى ، ولكنى لم أتمكن منهما الا بالاجتهاد بعيدا عن الدراسة التى حتمتها على ظروف الحياة ، فضاع كثير من وقتى ، بل معظمه فى معالجة أهل الباطل والضلال والأكاذيب لأرد باطلهم وأدمغ ضلالهم وأصحح أكاذيبهم ، وكنت أود أن أعالج أجسامهم وأفحص عقولهم وتفكيرهم وأن تكون هذه المعالجة عملى وصناعتى .

ولما شببت عن الطوق ، رأيت نفسى محاطا ببحور من الأوهام والواقعات ورأيت خيوط الحق ضئيلة هزيلة تائهة فى وسط هذه البحور الطامية لا أكاد ألمسها ، فهدتنى غريزتى الى أن التعرف على حقائق الأشخاص عن طريق تراجمهم مكتوبة أو محكية هو أضمن الوسائل لوصولى الى بعض الحق .

وكان أول ما أدهشنى فى شبابى فى كتب العرب سيرة النبى وأحاديثه التى فيها كثير من تاريخ حياته وطرائق تفكيره ، وعرضت لى تراجم نابليون بونابرت وفيها تمجيد عظيم للحروب والقوة

واحراق الدماء والتطلع الى المجد ، ثم اعتبرت قصة روبنصون كروزو قصة صادقة ، ثم وقعت لى رحلة ابن بطوطة .

واني لفى تلك الغمرة الذهنية أتحسس طريقى ، واذا بى أقرأ عن ترجمة هربرت سبنسر الفيلسوف الانجليزى كتبها بنفسه فى جزءين كبيرين ، وكان ذلك فى فجر القرن العشرين (حوالى سنة ١٩٠٣) وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ، وكان فى سنى شاب اسمه يوسف كرم يحب الفلسفة ويناقشنى ، فقرأناها معا فى صيف تلك السنة أو التى بعدها وفيها كثير ممل متعب .

وكان يوسف كرم - وهو من متخرجى مدارس الفرنسيس - يبدو لى كزاهد متعبد ، نترك المدينة ونقصد الى الحقول الخضراء ومعنا الكتب والأوراق والصحف والمجلات ، وقد اشتركنا فى الدرس والتفكير بثلاث لغات ، العربية والفرنسية والانجليزية ، وكان أعظم تمتعنا فى هذه الساعات من أطراف النهار والليل .

حدث هذا فى مدينة طنطا عاصمة مديرية الغربية على ضفة قناة اسمها « الجعفرية » ولا أعلم من هو جعفر المنسوبة اليه ، وكنا نتجول فى الحقول والحدائق ، وقد وجدنا صعوبة فى تفهم ترجمة سبنسر لأن معظمها يدور حول جهاده فى ابراز مؤلفاته الفلسفية التى قضى فى وضعها ثلاثين أو أربعين عاما وأنفق فى طبعها من أموال الصدقة التى جاد بها المحسنون فى أمريكا وانجلترا ، بينما كان هو يقاسى شظف العيش والمسغبة ، وبينما كانت ملايين الجنيهات تنفق فى الشهوات والملذات والمظاهر الكذابة ، وبينما كان الانجليز يباهون به الأمم ويقولون انه فيلسوف بريطانيا العظمى وفيلسوف الناطقين بلغتهم وعددهم

خمسماية مليون فى قارات الأرض الخمس وعلى ظهور البحار السبعة ... الخ ، كان الرجل غارقا فى الفقر لولا احسان المحسنين ، فأحدهم منحه بيتا على شاطىء البحر وآخر من أمريكا وهبه « بيانو » وتعهد بأجر العازفة عليه ، وثالث تعهد بنفقات الطب والدواء ، لأن فيلسوف بريطانيا قضى معظم أيامه ولياليه مريضا .

فعجبت وصاحبى من هذه الحال المقلوبة وتساءلنا فى غفلة الفتوة : كيف يكون أكبر فيلسوف فى هذا العصر الحديث - على حد قول أبناء جلدته - فقيرا الى هذا الحد ؟ وكيف يعيش وحيدا منعزلا لا يزور ولا يزار ؟

وكانت الفلسفة فى ذلك الوقت هى مثلنا الأعلى ، وكنا نتخيل الفيلسوف ملك الملوك جالسا على عرش ولابسا تاجا مرصعا وقابضا على صولجان ، ولم نكن نفهم أن المال له هذه القدرة العظمى ، وأن الصوت المسموع والكلمة النافذة لأرباب المصانع والمطاحن والمعاجن وللاك الأراضى الزراعية والمبانى المشيدة الذين نجحوا فى الحصول على أرزاق ضخمة تصل اليهم دون أن يعملوا أو يحركوا ساكنا سوى الحراسة والسهر على مصادر أرزاقهم بالحيلة والمكيدة والقوة واهراق الدماء ان احتاج الأمر .

كنا نظن أعظم المجد وأعظم الشرف وأعظم الطاعة للفيلسوف، وطالما مر بخواطرنا اسم المعرى وتولستوى وأرسطو وأفلاطون ولم يخطر ببالنا قط كيف عاشوا وكيف سلكوا فى سبيل الحياة المعوجة الملتوية .

وكانت حياة هربرت سبنسر خليقة بأن تفتح أعيننا الى أهمية المال لنتخذ لنا وسيلة للحصول عليه أو على الأقل لنستعد

له ، ولكنا كنا أبعد الناس عن ذلك التفكير محمولين على أجنحة من الخيال والصور الجميلة البراقــة ٠

كيف عاش سبنسر بغير أسرة ولا زوجة ولا ولد بعيدا عن الحب العائلى وعن مواساة الأهل وتشجيعهم وحيدا فريدا بين عانسين من عوانس بريطانيا العظمى ، واحدة تدق له على مفاتيح البيانو والأخرى على مفاتيح الآلة الكاتبة فى بيت صغير على شاطىء البحر فى بلدة برايتون ؟

هل خطر ببالنا الفقر وأنه ملازم للعلم والفلسفة ، وهل خطر ببالنا أن سببه انصراف ذهن الفيلسوف الى التفكير البعيد عن الجنيه والقرش والمليم ؟ هل خطر ببالنا أن نحصر تفكيرنا وهمنا فى الدرهم والدينــار ؟

لم يخطر ببالنا شىء من ذلك ، وربما داعبت أفكارنا مظنة الفقر فاستعذبنــاه فى ســبيل الفلسفة وفى سبيل الوطنية وفى سبيل المثل العليا والتحرير والتحبير والتفكير ٠

فلما مات سبنسر قرأنا فى الصحف أنه لم يدفن وقد أوصى باحراق جثته فنفذت وصيته ، وخطب على قبره كريشــنا فارما تلميذه الهندى البالغ من العمر خمسين عاما ، لأنه تبرع بمال كثير ينفق من ريعه على منصب أستاذ لتدريس فلسفة سبنسر فى جامعة اكسفورد ٠ وقد لقيت كريشنا فارما نفسه بعد ذلك بسبع سنوات فى باريس حيث كان ينشىء مجلة انجليزية باســم « الاجتماعى الهندى » يناصر فيها وطنه ويدعو الى تحريره واستقلاله ٠

بعد أن قضيت ثلاثين عاما فى المحاماة أردت أن أدون ذكرياتى فى عالم القضاء والاجتماع ولكننى ترددت كثيرا خوفا من الانزلاق

والزلل أو من الصراحة والصدق فى بلد لا يحب الصراحة والصدق ، ولأجل هذا تعود الكتاب ألا يدونوا أخبارهم الا فى أواخر حياتهم وألا تنشر الا بعد وفاتهم ووفاة المعاصرين الذين ورد ذكرهم فيها ، وهذا كله نفاق وخوف من الحقيقة ، والا فما فائدة المذكرات والتراجم بعد وفاة الذين شهدوا حوادثها ، فانها بعد موتهم تنزل الى درجة الأدب المكتوب وتحتل موضعا فى التاريخ .

وقد احتال أهل أوربا حيلا شتى لاتقاء مجابهة المعاصرين ، فمذكرات الشقيقين « جونكور » لا تزال محبوسة فى دار الكتب الوطنية بباريس مخطوطة لا يفرج عنها الا فى سنة ١٩٥٠ ، وكذلك بعض مخطوطات أوسكار وايلد ومذكراته .

ولكن من شجعان الكتاب ويلفريد سكاوين بلنت الانجليزى ، فقد نشر كل مذكراته الى سنة ١٩١٤ فى حياته وأبقى الجزء الخاص بالحرب الى ما بعد موته ، وقد توفى فى سنة ١٩٢٢ ولم يصل الى يدى كتابه الأخير ، وأرجح أنه نشر بعد ذلك ببضع سنين .

ويحتال بعضهم بالرمز الى الأشخاص بأحرف من أسمائهم خوفا من المقاضاة والمطالبة بتعويض ، فان للورثة حق المقاضاة اذا ذكر أسلافهم بشر ما لم يثبت أنه من صلب التاريخ .

ولا يسلم من يترجم لنفسه من النقد اللاذع ، فابن خلدون ترجم لنفسه فى كتاب خاص ، فقال أحد معاصريه « لم يفعل أحد قبله مثل ما فعل بتدوين ترجمة حياته ، ولكنه لم يقصد بتدوينها الا التبجح وتزكية النفس (كذا) وهذا من امارات صلفه وزهوه » .

وكان الأجدر بهذا الناقد أن يمدحه لا أن يذمه لابتكاره تلك الطريقة كما ابتكر علم العمران وعلم الاجتماع ، وقد حذا حذوه علماء الغرب وساستهم وبعض الخاملين الذين عاصروا كبار الحوادث كالثورة الفرنسية .

وقال آخر عن ابن خلدون « انه فى ترجمة نفســـه ذكر أساتذته ووصف تبحرهم فى العلوم ، يريد أن يحملنا على الاعتقاد بأنه عالم عظيم مادام شيوخه فى هذه المرتبة من العلم والفضل » . ولمزوه بأنه ذكر فى ترجمته أنه استظهر جزءا من الأغانى ثم ذكر فى مقدمته المشهورة أنه يستحيل الحصول على نسخة من الأغانى ، وهذا تناقض فى كلامه ، فهو لم يعرف من الأغانى الا الاسم ، وأنه كان متلونا فى رأيه ومودته وسياسته ، وانتقدوا فى ترجمته أنه منذ كان قاضـــيا للمالكية فى مصر ، كان شديدا قاسيا لا يقبـــل شفاعة على خلاف عادة قضاة زمانه ، مع أنه اعتذر عن عدم قبوله الشفاعات بأنه حمله على ذلك رضاء الله تعالى . وزعموا أنه كان يحب المال أشد من حبه لأولاده ، لأنه قال فى ترجمة نفسه مشيرا الى حادثة غرق أولاده وأمواله فى البحر عندما دعاهم الى مصر « فقد أصابتنى نكبة واحدة فأفقدتنى الى الأبد المال والسعادة والبنين » . قالوا : انه قدم المال على البنين فى الذكر ، وهذا يدل على أن المال يهمه أكثر من أولاده ، كأنهم نسوا قوله تعـــالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فقدم سبحانه المال على البنين .

هذا بعض ما يغمز به أصحاب المذكرات ، أو الذين يترجمون لأنفسهم ، ولذا تراهم يحجمون عن تدوينها ، وان دونوها احجموا عن نشرها فى حياتهم ، ولم يسلم من شرورهم رجل يعد من أسلم الناس قلبا وأنقاهم ضميرا وأرقاهم عبقرية وهو جان جاك روسو ،

فقد أفرغ ترجمة حاله في قالب الاعتراف ووصفها بذلك ، وكان فيها صادقا حتى انه قال يود أن يقبل بها يوم البعث والنشور في يمينه • ولكن أعداءه صاغوا من اخلاصه سهاما صوبوها الى صدره ونحره ، فأخذوا عليه كل صغيرة وكبيرة وعابوه بها ، فاتهموه بأنه زير نساء وأنه باع نفسه لشهوات الغانيات من النساء ، فلولاهن ما قامت له قائمة ، وأنه كان وضيع القلب فاقترن بخادمة اسمها تيريز ليفاسور ، يعجب هؤلاء لاستغراقها في الجهل، فكيف يرضى بها عشيرة ان لم يكن حب جسدها قد أعماه عن سخافة عقلها ، وأن قلبه قد قُدّ من صخر ، لأنه ألقى بأولاده الخمسة من حالق دير يحتضن اللقطاء ، فلم يسأل عنهم ولم ينظر في مصيرهم بعد أن أثرى ، وأنه كان سارقا ويتهم الأبرياء ويسبب شقاءهم ولا يؤنبه ضميره ، وأنه كان مصابا بأدواء خلقية شاذة ••• الخ •

وكل هذه التهم يعلم قراء اعترافه أنها مختلقة أو مبالغ فيها ، ولكن الحاسدين والمنافسين والحاقدين لا يرحمون ، بل تراهم — اذا لم يجدوا أساسا يقيمون عليه صروح باطلهم — كذبوا ولفقوا مطمئنين الى أن أكاذيبهم أبقى على وجه الدهر من الحقائق لغريزة خبيثة في الانسان ولانغماس المجتمع في النفاق وتعرض أهل المواهب لغيرة المعاصرين وأضغانهم •

وقد يحتال الكاتب لترجمة حياته بافراغها في قالب القصة كما فعل امام الأدب الفرنسي أناطول فرانس في أربعة كتب من مؤلفاته جعلها ترجمة حياته وهي على التوالي ، بيار الصغير وبيار نوزيير وكتاب صديقي وازدهار الحياة ، وترتيبها بحسب وضعها السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والأخير من كتبه،فقال : انه تحاشى ذكر الأسماء على حقيقتها لأن معظم الواردين بها مازالوا احياء عند نشرها خوفا من جرح شعورهم ولا سيما اذا كانوا ممن

يعيشون فى عزلة عن العالم ولم يتعودوا أن يروا أسماءهم منشورة ومطبوعة ، فلم يشأ أن يمس كبرياءهم أو تواضعهم •

وفى الحق أن المدح والذم يستويان فى أنظار هذه الطبقة ، فيعتريهم الانفعال اذا عرضوا لأبصار القراء وتناقلت أسماءهم ألسنة الرواة ، حتى ان والديه اللذين كانا على قيد الحياة لم يجرؤ على اظهارهما بحقيقتهما ، وان كان الذى كتبه عنهما لا يتعدى الثناء الجم وحسن الذكرى ، ولو لم يلجأ أناطول فرانس الى هذه الحيلة لأرغمته العادة والعرف على أن يكف عن كتابة ترجمته ، وقد بدأ فى تدوينها فى السابعة والثلاثين من عمره (عهد تأليف بيار الصغير (Petit Pieire) وقد استحسن هذه الطريقة ليتمكن من مدح نفسه أو ذمها والزهو بها أو الحمل عليها ، تارة مباهيا وطورا مؤنبا •

ولكن متبع هذه الطريقة ـ طريقة افراغ الترجمة فى قالب قصة ـ لا يمكنه أن ينجو من الكذب ولو قليلا حتى ولو أراد أن يجمل خلقه أو يعلم القراء ، لأن الحق لا يظهر للناس مجردا ، بل من المحال أن يبدو للعيان خاليا من الحلية أو التشويه ، والا فان الأصل يسوء القارىء ويحنقه •

ولم ينج أناطول فرانس من النقد مع ما اتخذه من أدوات الاستخفاء والتغمية ، فقد لمزه لوسيان ديكاف صديقه الحميم بأن أباه كان كتبيا فجعله طبيبا وبذا أفقده كثيرا من جمال حياته وجلال صنعته •

وقد أنف أناطول أن يصف أباه بصنعته فاختار له ما هو أرقى وأثمن وقال ان والده كان قليل الاكتراث بالمال الذى يعود عليه من البيع والشراء ، وكان شغفه بقراءة محتويات دكانه أكبر من شغفه

بالربح وقال « لم أتحد الناس كمـــا تحداهم روسو بأنهـــم شر مما يظهرون ولا يجعلونك تراهم على حقيقتهم ويتمون أن يكشفوا عن أنفسهم وهم يفعلون ما يجلب عليهم الكراهية والازدراء ، ولم أفتح بابا مغلقا الا رأيت وراءه منظرا ما يستدعي الشفقة أو الاشمئزاز أو الرعب ، فماذا أفعل ؟ لقد غلبتني رغبة الفول فقلت ، لقد أحببت الحقيقة وهويتها حبا متمكنا فهل احترمتها ؟ • قد لا أملك أن أقسم قسما لا أحنث فيه بأنني لم أحد عنها قيد شـــعرة ، ولا أدرى ان كانت اللغات البشرية قديرة على التعبير عن الحقيقة دائمـــا • لقد خرجت لغاتنا من أصـــوات الحيوان ، فهي تترجم عن العواطف والأهواء والحوائج والألم والحب والبغض ، ولكنهـــا عاجزة عن التعبير عن الحقيقة ، لأن الحقيقة لا تقطن أرواح الوحوش الضارية • الا أن علماء ما وراء الطبيعة الذين عالجوا الحقيقة قد فقدوا عقولهم ولم يسلموا من لوثة وخبال وتخليط • أقول انني حسن النيـــة وقاصد خير ، محب للحقيقة لأن الانسانية في حاجة اليها وهي في حاجة أشد الى الكذب الذى يملقها ويتزلف اليها ويخدعها ويفسح أمامها مجال الأمل :

أعلل النفس بالآمـــال أرقبهـــا
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل !

والانسانية جديرة بأن تهلك من الضجر والقنوط ان لم تدركها رحمة الكتاب أمثالي بجـــرعة من الكذب » • انتهى كلام أناطـول فرانس نقلا عن الصفحات الأخيرة من « ازدهار الحياة » •

والفطن اللبيب لا تغيب عنه لباقة الكاتب الكبير ودعابتـــه ومرارة قلبه ، الا أنه لا يحيد عن خطة فيجارو الذى يتلهى بالضحك خشية أن يقضى نحبه باكيا •

الا ترى وتسمع الى سخريته وتألمه ، ومن ذا الذى يفهم الناس ويعمل على النجاة من مخالبهم بمثل هذه الصورة الوادعة الخالية والحكمة الرائعة الرهيبة ؟ أترى رجلا مثله يلجأ الى الكذب ، وهو الذى صاغ تاريخ فرنسا منذ نشأتها الى قضية دريفوس فى كتاب واحد « جزيرة بانجوان » ؟ أم تراه يطعن رجال السياسة والعلم والأدب والدين والقضاء طعنات قاتلة فلا يهرق نقطة دم فينال منهم نيلا وهو يداعبهم ويدغدغهم ، ويلوى أعناقهم وهو يحتضنهم ، ويفرى جلودهم وكأنه يقبل خدودهم ، ويعبث بخلائقهم وكأنه يربت على أكتافهم ، وينفث فيهم سموم القذف وهو يزيل الغبار عن ثيابهم بيد من قطيفة تخفى وراءها أشد النصال وأحد السهام ؟ .

أترى هذا الرجل الموهوب الرقيق القلب البالغ الشفقة ، يرضى بالمظالم والمكايد تحاك ، والمؤامرات تدبر من الكبراء والأقوياء لاستغلال المهضومين والضعفاء وهو يسمع ويرى ، ثم يجمرهم ويحرق البخور من عود وند ومسك لتلك الأوثان الجامدة فى حضرة سدنتها الفجرة ؟! . أو تراه يموت بحسرة الصمت متلفعا بملحفة من الخوف والنفاق ، الخوف من بطشهم والنفاق خشية الاملاق الذى يجلبه السخط ؟

أتراه يغفر هذه الخطايا لعصره وكل العصور التى درسها ؟
ألا تراه يقول فى صفحة ٣٣٤ :

« لن تكون ذرية ، لن يعقبنا أخلاف ، مثلنا مثل كتاب العصر القديم البائد فى أثينا وروما ، وان أوربا الجديدة لن تختلف كثيرا عن أوربا المعاصرة التى نراها الآن تغرق بمرأى منا ومسمع ، فلا فائدة تعود علينا من الاحتفاظ بفنوننا وآدابنا ، لقد بدأت تدوين هذه المذكرات قبيل الأربعين ، لأننى لم أكن نبيا ولا أعلم

الغيب ، فلم يكشف لى عن الخراب العجل الذى تسير اليه المدنية الأوربية بخطى واسعة مجدة جاهدة نحو الهاوية (يشير الى حرب سنة ١٩١٤ وعواقبها ، فماذا كان يقول لو امتـــد به الأجـل الى سنة ١٩٤١) ٠

ان هذا الرجل لا يكذب ولا يخدع ، وقد يتحايل تحايل الصيدلى فيطلى الدواء المر بغشاء من السكر ليسهل على المريض ابتلاعه ، فكذبه طلاء السكر الذى يذوب فى الفم ، لاطلاء النحاس بالذهب الذى يخدع العين ولا يعلى قدر النحاس ، ولكن السكر يهون أخذ الدواء ولا يغير من تأثيره ولا يبطل فعله ٠

لقد حرت والله بعـــد قراءة هذه النبذة ، فليس كل كاتب بقادر على صياغة اخباره فى صورة قصة ، وما كل كاتب بقادر على فن مؤلف « تاييس » ، وما يكلف الله نفسا الا وسعها ، وان هذا الأمر ان لم يبلغ درجة من الكمال تدانى هذه الكتب فلا خير فيه ، والاضطرار الى ذكر الحقيقة المجردة على أنهـــا حقيقة ، أهون من الفشل فى النهاية ، وهو يقول « لو ان هذه الترجمة فشلت لرفع القناع عن التاريخ لكادنى ذلك كيدا » ٠

وقد استغرق أناطول فترة أربعين عاما كتب خلالها وأعاد نظره وراجع ونقح وتدارى جهـد طاقتـــه ، وقد فاق رومان رولان فى « جان كريستوف » الذى حبر عشرة مجلدات ولم يكتب سواها ، فاستنفدت جهوده واستنزفت دماء فنه ٠

وهذا الكتاب الآخر لرولان ترجمة حياة مقنعة حتى تكاد لتضع اصبعك على كل شخص من أشخاصها وتعرف اسمه بوصفه وتحليل أخلاقه وصنعته ٠ ولكن رولان جعل كتابه أمل حياته وتفانى فيه وأسهب وأحسن وأتقن ، ونال فرانس هذه الغاية وحقق الأمنية على مدى السنين ، فكان أقرب الى النجاح ٠

لم يقصد فرانس الى الشهرة ولا ايلام أحد ، ولكنه قصد الى التعليم والتهذيب وأخرج الشهد بعد أن احتضم الأزهار وكان بعضها مريرا وبعضها ساما ولكنه أخرج عسلا فيه شفاء للناس وتنوير لعقولهم .

ان من أهم الأشياء التى يجب أن نلاحظها أن وصف العصر والحياة بيد المعاصر من أصعب الأمور ولا يصل اليه الا بقدرة فائقة وتوفيق عظيم من الله .

وقد ساورتنى هذه الفكرة من الصغر فحاولتها بتدوين مذكرات ثم بتأليف قصص ثم بسرد لوصف الحياة من جملة جوانب ودراسة شخصيات مختلفة ، وكان فكرى فى هذا الطور الأول ، منصرفا الى مجرد التسجيل ، مدفوعا اليه برغبة خفية ، وكانت الوقائع والحوادث التى تلفت نظرى أكثر من سواها تتجه دائما اتجاها واحدا وهو مخالفة ما يحدث لما ينشر ويكتب ويدون سواء فى مصر التى فيها المشاهد واقعة تحت نظرى ، أو فى الخارج الذى أقرأ كتبه وصحفه ، وأن فى مصر صورة مصغرة من أوربا ، وأن الاثنين جميعا حالات مناقضة لما يجب أن يحدث ، وأن الجميع سائرون الى حالات هلاك وانحلال فى الاقتصاد والأخلاق والاجتماع والسياسة ، سواء فى الأفراد أو فى الجماعات .

ولأجل أن أنصف الحق ونفسى بدون تواضع كاذب ، **يجب أن أقول : ان فكرى اتجه مباشرة الى آن المال هو سبب هذا التدهور** ، وأنه لا شك توجد قوانين ثابتة خاصة بالوقت والعهد والزمان ، سائدة على كل حركات الأمم والعالم ، فوضعت فى كتاب « حياة الشرق » الذى طبع سنة ١٩٣١ ــ وطبعا الفته قبل ذلك بسنتين سنة ١٩٢٩ ــ شيئا سميته « القانون السبعى » بدون نظر

الى فكرة دينية أو تراثية Traditional ، فقلت : ان حياة الأمم تبلغ ٧٠٠ سنة من الحضارة والثقافة ، وكذلك الحوادث الكبرى (انظر الى هذا القانون وكيفية تطبيقه في الكتاب صفحه ٣٣ ، ٣٤).

ثم ان مسألة تأثير المال تأثيرا سيئا في حياة الأمم كانت مبهمة في ذهني ابهاما عظيما حتى كدت أسمي هذا الشر « شيطانا » أو أن المال من اختراع شيطان ، ولم يكن فكري منصبا على المال من حيث هو مال أو شيء مادي ، ولكن على القدرة التي وضعت فيه وكونه مقياسا لكل الشهوات والطلبات وقوة الاغراء ، وأن الذي يملكه يكون عنده قوة عظيمة جدا ، فاذا استعملت في الشر أو في الأغراض الشخصية كانت سبب هلاك وأسى كبيرين .

وفي الوقت نفسه نظرت الى الأمم ، فرأيت أن اليهود وحدهم هم الذين أدركوا من قديم الزمان أهمية المال وبذلوا كل ما في وسعهم للحصول عليه والسيطرة به والتصرف فيه وتسخير الآخرين أفرادا وجماعات لأغراضهم ، وأن الذين صنعوا ذلك من الأجناس الأخرى كالفينيقيين وغيرهم ــ كانت فيهم أخلاق اليهود ، ورأيت أن استيفاء هذا البحث يستغرق مجهودا كبيرا للوصـــول الى حقائق جازمة لاثبات وجهة نظري ، وفي النهاية اذا توصلت الى اثبات ذلك في كتاب ، فما الفائدة منه غير قناعتي العقلية وسروري بالوصول الى حقيقة حاسمة ، وهي لذة عظيمة أشعر بها دائما .

أما فيما يتعلق بأعمار الحضارات ، فهنا يجب أن أقول : ان أسباب انهيار الحضارات كان دائما فكرة شاغلة لذهني مشغولية كبيرة ، وهنا يجب أن أشير الى مسألة مهمة للغاية تفوت كثيرا من الباحثين ، هي أنهم يخلطون الحضارات بالشعوب ، فيتوهم كثير من الناس أن ضياع الحضارة اليونانية معناه فناء الشعب اليوناني ، وأن زوال الحضارة المصرية القديمة معناه زوال الشعب المصري ،

مع أن الحقيقة غير ذلك على خط مستقيم ، فان الحضـــــارة تزول بالتدريج وتبقى الأمم خاضعة لشعوب أخرى أقوى منها فى الغالب وهى التى جاء عليها الدور فى القوة ٠

وقد تكون الأمم القديمة قد زادت فى العدد والنماء والكثرة ، ويكون أهلها سعداء ، ولكنها اما غارقة فى الجهالة بالنسبة لماضيها ، أو عاجزة عن استرداد مجدها ٠

ولم يحدث أبدا أن دولة استردت عظمتها القديمـــة ، ولكنها تعيش على الماضى ، وان حاولت احداها العودة أو التجديد فانهـــا تفشل كما حدث لبعضها فى القرن العشرين ، أو يكون انتعاشها وقتيـــا ٠

ومن مصائب الحضـــارات أنها تفكر فورا فى السيطرة على العالم ولا تقنع بالقليل أو الوسط (روما ـ الاســكندر الأكبر ـ نابليون ٠٠٠٠ الخ) ، ولا تتخيل عظمة قومية بدون فتوح ، فتصل أحيانا الى التضخم المعجز ٠

وعلى كل حال لم أفهم أسباب زوال الحضارات ، أو أنها أسباب أيا ما تكون لاتقنعنى ، وبعضها متشابه ، وبعضها متفاوت جدا ، ولكن النتائج التى وصلت اليها هى :

١ ـ أن الحضارات لها أعمار ٠

٢ ـ أن الحضارات اما دينيه ، أى تعتقد فى اله وروح وبعث ونشور وثواب وعقاب ، واما أخرى لا تعتقد فى ذلك ، وأن الحضارات الدينية تنتهى بأن تصـــير لا دينيـــة وتتحول من روحية الى مادية ٠

٣ ـ أن الحضارات اللادينية تعيش أكثر وأقوى من الدينية أو من التى تنقلب من دينية الى لادينية ، مثال ذلك اليابان والصين ، فان هذه الأمم ـ ما عدا البوذية الطارئة على بعض سكانها والقادمة من بلاد غير بلادهم ـ عاشت طويلا وعمرت كالصين أو ما زالت قوتها فى صعود كاليابان ٠

٤ ـ ان الأديان ليست لاصلاح الانسانية وتحويلها الى الخير المحض ولكن للحد من الشر والتقليل منه على قدر المستطاع ٠

٥ ـ قد تكون الأمة قوية متحضرة ، ولكنها قانعة بالاقامة فى حدودها وليس لها مطامع خارجية اذا قنعت بأراضيها والخير الذى لديها ، كالصين والولايات المتحدة الأمريكية ٠

٦ ـ أن الأحوال المعاصرة للشخص العارف والفاهم ، تختلف بالمرة عن الأحوال الموصوفة فى الكتب أو على ألسنة الناس ، فالأحوال الموصوفة فى الكتب هى على كل حال بالاجماع استهجان الطبيعة البشرية والعجز عن هدايتها ، وان ما يسمى خيرا ليس الا مثلا أعلى Ideal يرقب ولا ينفذ ، وما يسمى شرا هو الشىء الدائم المستمر ٠

٧ ـ ان اهتمام الناس الآن بكل شىء كان اهتمامهم به من قبل شديدا ، وتحكم رجال المال فى كل شىء ، وبعبارة أخرى تحكم المال فى الرجال حتى أصبح أحد لا يبالى كيف يحصل عليه مادام يصل اليه ، وأصبح لايوجد حاجز تقف عنده شهوات الناس ومطالبهم ورغباتهم ٠

٨ ـ انى أشعر منذ بضع سنين بنوع من الشعور بزوال الحاضر وتغييره الى آخر ، ولكن ما هو ؟ ما نوعه ؟ ومتى ؟ ٠٠٠ لا أدرى ٠

لو لم يكن من شرف التاريخ الا ان يستطيع رجل مثلى شديد الشوق الى الحقيقة شوقا محرقا اثبات صورة لعصره ولو فى لمحات خاطفة كلمحات البرق ، لكفاه فخرا ! ، لان ولوعى ـ ولابد انه من نوع ولوع المساكين الذين عذبوا بنار المعرفة ـ لا ينطفىء ولا يخمد أبدا جريا وراء الحقيقة ، وهى التى عذبتنى منذ نعومه أظفارى وقضت على بالأسر وكبت العواطف وحبس الاحاسيس والمشاعر ، وقد عبرت عن هذا الولوع على قدر طاقتى فى كتـــاب « ليالى الروح الحائر » ، واننى أشعر دائما فى نومى ويقظتى وصحوى وسكرى بأننى مسوق بسياط الذع وأشد من سياط الجلد ، لاصـــل الى الحقيقة المطلقة ، فان لم أســـتطع ، فعلى الأقل الى الحقيقــة التى تقنعنى ٠

ومنذ أربع أو خمس سنين ، شغلت ليل نهار بتصوير العصر الذى أعيش فيه على قدر طاقتى ٠

أقول لو لم يكن للتاريخ شرف وفضـــل أدركهما ابن خلدون وأمثاله ولاســـيما فى الشرق المظـــلم المبهـــم ـ لكفى التاريخ فخـــرا !

انظر الآن يا أخى الى هذا العصر الذى يظن الناس أنه لم يوجد مثله ولم يســـجل ما يقرب من تسجيله ، وهذا ظن خاطىء ووهم باطل ، فان الانسان حذق شيئين ، الأول المثل الأعلى للحق والجمال والخير ، والثانى الشرور بأنواعها ، وترك الباحث فى حيرة عميقة بين ما يجب أن يكون وبين ما هو كائن بالفعل ٠

لقد عكفت منذ زمن طويل على الدرس والمطالعـة حبا بالمعرفة وشغفا بالوصول الى الحقيقة ولو كانت نسبية على قدر ما يصل اليه اجتهادى وقدرتى الانسانية فى البيئة التى نشأت فيها وهى مصر ٠

فوجدت فى سبيلى عقبات كثيرة ايجابية وسلبية ، وأهمها وأشدها خطورة عدم اهتمام الجمهور بغير الأمور المادية ، ما يتصـــل منها بالمعاش والتكاثر والتفاخر والحصول على القوة المادية ، فنأيت عنهم جانبا مع شدة الحاجة الى الاستعانة بهم ، واتجهت الى من اعتقدت فيهم بعض الميل الى المعرفة والشوق الى العلم ، فوجدتهم مفككين غير مؤتلفين ، ووجدت فيهم أزوورارا وعنتا وترفعا عن العامة والدهماء مع أن واجبهم أن يعملوا على انارتهم وتنويرهم ، ووجدت فى الناحيتين تثبيطا يكاد يكون فطريا ، فالحماسة للرفعة العقلية والتسامى الى المثل العليا والبحث فى شئون الانسانية كل هذه معدومة بتاتا ٠ وأنا لا ألومهم لأن شئون السياسة والوصول الى الحكم والوظائف ومشايعة أقوياء اليوم أو أقوياء الغد ، قد ملكت عليهم نفوسهم ٠

وهذه المثبطات لخليقة بأن تقتل الهمة وتفت فى العضد وتجرد المحارب المســتعد من سلاحه ، لم تتمكن منى لأننى كنت أشعر من حداثة سنى بواجبى فى المساهمة بنصيب مهما كان ضئيلا فى خدمة الانسانيه عامه وهذه البـــلاد المصرية خاصـــة ، فبدأت فى سن الثامنة عشرة فى التأليف والنشر واخراج الكتب وكتابه المقالات فى المجلات والصحف والخطابة والمحاضرة ، وكان ذلك فى العام الأول أو الثانى من القـــرن العشرين ، ولكثرة ما كتبت وخطبت ، يظن أكثر المعاصرين أننى أســـبقهم فى السن بكثير من العقـود لا السنوات ، ويسألنى بعضهم ان كنت أدركت جمال الدين الأفغانى وحضرت دروسه ! ، فأقول لهؤلاء الفضلاء اننى وان فاتتنى صحبته ، فلم تفتنى صحابته وقد عرفت خيرهم وفى مقدمتهم المرحوم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ولا أقول لهم اننى كاتبتــه وقابلتـــه سنة ١٩٠٣ فى داره بعين شمس، ولكننى أحمد الله على أنهم أحسنوا الظن بى حتى وصلوا بين هذا المصلح العظيم وبينى ٠

وقد شعرت من اللحظة الأولى أن هذه الأمة المصرية الكريمة أمة كلام وحديث وجدل ومصالح ومسائل شـــخصية ومحاورات

بيزنطية وآمال أفلاطونية بالمعنى الذى نفهمه ، أى أنهـــا خيالية مثالية ، أما هم فلا يعرفون أفلاطون ٠

أما كتبى التى وضعتها وسودتها وبيضتها وطبعتها ونشرتها ، فكان معظمها براءة ذمه ورغبة فى القيام بفرض عين لا فرض كفاية ، وقد عانيت فيها كثيرا وأحمد الله على أننى لم أجد منها أقل ثمرة مادية ، وقد بدأت الطبع والنشر سنة ١٩٠٣ واستمررت الى سنة ١٩٤٠ ، وفى أثناء دراستى فى أوربا اشتغلت بالتأليف فى أوقات فراغى ، وقد بينت ذلك فى الكتب نفسها وعنـــد طبعها فلا لزوم لذكرها ٠

ثم فكرت منذ بضع سنين فى وضع كتاب وجيز يكون بمثابة الخلاصة لدراستى وتجاربى ، ولا أقصد أن يكون وصية عقلية لهذه الأمة الكريمة فانها أعظم واكبر من أن تصغى الى أحد أبنائها ، وان تكن بهافضيلة لا تنكر وهى أنها تصغى للموتى وتقدرهم بعد وفاتهم وتحتفل بهم وتمجد ذكراهم مهما كانت درجة اهمالها اياهم وهم أحياء ، فكل متوفى ــ سواء أكان شاعرا أم ناثرا أم خطيبا أم مصلحا أم حكيما أم مفتيا أم فاضل الأخلاق ــ ينقلب بعد وفاته عظيما جديرا بتقدير الوطن وخليقـــا بالتكريم والحفاوة ، ومهما كانت درجـــة اهمالهم اياه فى حياته ، وكل واحد من هؤلاء الموتى المغبونين خليق فى نظرهم بأن يقام له تمثال أو يدفن فى « بانثيون » ، وخليق بأن يعاد طبع كتبه ويجمع كل ما دونه ولو بالقلم الرصاص ٠

وقد فكرت فى هذا الأمر طويلا الى أن هدانى التفكير الى أن هذا الأمر ليس مصادفة ولا خطـــأ ولا قصـــورا عقليـــا ، وانما هى « المعاصرة » ، وقد صدق من قال « ان المعاصرة حجاب » ، فهى تغشى أبصارهم عن محاسن الأحياء ، فاذا قضـــوا نحبهم أمنـــوا خطرهم ومنافستهم ، وكان يعز عليهم أن يشجعوهم فى حياتهـم ، فلا مانع من الاقرار بفضلهم بعد أن صاروا تحت الثرى !

وقد أيد هذا الرأى عنـــدى أن المصريين شـــديدو الاهتمام بالأحياء اذا كانوا أهل سلطة ونفوذ ويمكنهم أن ينفعوا ويضروا ، فهم معبودون لديهم ، يحرقون أمامهم البخور صباح مساء ، ويكادون يشيدون لهم المعابد والهياكل ، فاذا انحدر رجل وهبط درج المنصب الذى كان يخلع عليه المهابة ، أو تزعزعت مكانته المالية ، فقد لحق بالموتى ، ولكن الموتى الذين يهملون ولا يمجدون لأنه على حياته لا تخشى منافسته ولا مزاحمته ، لأن كل قيمته كانت محصورة فى منصـــبه ٠

وهذه الخلة تدل على كل حال على أنهم ينصفون الموتى من أهل الامتياز العقلى والخلقى ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تعد وقد شهدتها منذ نعومة أظفارى ومنذ اتصلت بالمطالعة والقراءة ولاسيما ما كان حادثا فى أوربا من تمجيد الأحياء وتشجيعهم والأخذ بأيديهم وابراز مواهبهم للاستزادة من منافعهم للمجتمع ، لأن الرجل النافع كالزهر اليانع ، كلما زدته ريا وعناية ، زادك عبيرا وحسن منظر ، فاذا أهملته ذوى وذبل ٠

وأحب ان أشير الى أننى منذ سنة ١٩٤٠ ـ وهو تاريخ آخر ما نشرت من الكتب ثورة الاسلام وبطل الأنبياء ـ عكفت على الكتابة والاختزان وكففت عن الطبع والنشر وجعلت هذه المخطوطات أمانة عند أولادى ، وقد أشركت بعضهم فى تحضيرها وتدوينها ، وقصدت بهذه المخطوطات ـ وهى أنواع شتى فى الفلسفة والتاريخ والأدب والقصص والمسرحيات والمذكرات ـ اشباع رغبتى ونهمى فى التدوين والانتفاع بالقدرة مادامت والاعتراف بفضل الله على بتمكينى من الدرس والتأليف ، فهذا نوع من العبادة والتمجيد لله والعرفان، وقد قال شاعر غربى « اعمل ما دمت قادرا أن ترى النور "Work while thee hast the light ، وربمـــا كـــان هذا قـــول برونـــج الانجليزى ٠٠ ولكنه قول يعجبنى ، ومادمت قادرا على القـــلم ،

متمكنا من خطامه ، فأرى فرضا على أن أعترف بفضـــل الله على بالكتابه ، وما دمت متمكنا من الكتاب ، متمكنا من جلده وصحفه ، فارى واجبا على ان أقر بكرم الله على بالقراءة ، وقد أحببت القراءة والكتابه محبه العاشق لا اصبر على فراقهما وهما النعمتان اللتان استطيع ان أستغنى عن كل شيء دونهما ، ولذا أسأل الله أن يديمهما على الى اخر نسمه من حياتى ، ولو كنت محاربا وتقلدت ســــيفى ورمحى ــ او مدفعى الرشاش على نسق اللغة الحديثة بعد الحرب ــ ما تخليت عنهما ، فالقلم والكتاب سيفى ورمحى وسلاحى فى هذه الحياة ، بل صرت اعتقد انهما سبب وجودى لأننى أصل وهما تبع ، وأرى أزلية القلم والحرف أزلية مطلقة الهية ، فهما أداة عبـــادة وتقديس وتمجيد لخالقهما والذى أقسم بهما وعلم الانسان بفضله سبحانه ثم بفضلهما ٠

اننى أعجب عندما أتذكر أننى قضيت معظم وقتى فى دراسة وقراءة كتب وصحف وتواريخ وآداب لا يعود منها نفع مادى أو مباشر مطلقا ، كنت مندفعا ــ وما أزال ــ نحو المثل العليا وتغذية الروح وتجميل العقل وادخار المعرفة من كل مصادرها دون أن أفكر فى أى نفع يعود على ، وقد أنفقت مالا طائلا فى الحصول على الكتب والمجلات والصحف فى كثير من اللغات ، وسافرت أحيانا للحصول على كتاب أو لقراءته فى مكتبة عامة ٠

قد يبدو هذا عجيبا ولكنه وقع لى ٠

وعندما أدنو من مكتبة تبـــاع فيها الكتب بأية لغة من التى أعرفها أو أطمع فى أن أعرفها أصير كالمقامر الذى يدنو من مكان لعب الميسر أو كمدمن الخمر عندما يرى حانة لا يملك أحدهما أن يعوق نفسه عن غشيانها ٠

والآن أتذكر فلا أجد الا صورا باهتة مما قرأت أو لخصت ، ولكن لذة الذكرى وحدها عظيمة جدا عندى ، انها نشوة ، انها حياة تنتعش وتعود ، انها نوع من بعث الروح ، وأظن أننى أموت وأخرج من الدنيا بالايمان بالله ثم بهذه الذكريات تؤنسنى وتعيننى فى أداء امتحانى الذى يبلغنى النجاح فيه غاية اللقاء بهذه الأرواح الطيبة ٠

لقد سافرت الى بروكسل سنة ١٩١٠ لحضور مؤتمر وطنى مصرى ولأشترى كتابا لا أحب الآن أن أذكره ٠ بروكسل مدينة جميلة غنية ، ولكنها ثقيلة الظل ، عليها سيما اليهودية الحسناء التى لا تزينها العفة ، وفيها رأيت كير هاردى ، كان شيخا وقورا فقيرا ، وكان أخطب خطباء انجلترا وأيقوسية وايرلندا فى عصره ، وهو مؤسس حزب العمال ، وكان أقرب الناس شبها وخلقا بجان جوريس وتنقصه ثقافة جوريس ، لأن جوريس كان أستاذ فلسفة ، ولكن طبيعة هاردى كانت أقوى وأسلم ، وقلبه أبسط ، وقد ذهب كلاهما ضحية الحرب العالمية الأولى ٠

كان هاردى لا يحمل نقودا ، كان متقشفا يفخر بالفقر ، ويصفع فقره غنى زعماء الشرق عدا غاندى ٠ كنا نركب سيارة ثم يتجه الى فى عظمة الأستاذ والصديق قائلا : جمعه ادفع أجر السيارة ٠ فأفرح اذ أجد فى جيبى ما يكفى ٠

وكان فى بروكسل فى تلك الفترة مدام كاما الهندية التى خطبت فى المؤتمر المصرى وقالت : « ان الحرية لا تنال الا بسفك دمائنا » ، فاضطرب المرحوم فريد بك رئيس الحزب الوطنى وقال « نحن لسنا فى مؤتمر هندى » ، فهاج عليه الجمهور وأسكتوه ٠

وكان معها هارديال ، وهو وطنى وأديب هندى كبير ونابغ فى الرياضيات والشعر ، وكان « أنموذجا » فى الفاقة والفلاكة (١) ،

---

(١) الفلاكة : الفقر ٠ وللطفى جمعة دراسة أدبية عنوانها « الفلاكة والمفلوكين فى الأدب » طبع عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩ ٠

عاش بعيدا عن وطنه وأهله ، يروح ويغدو جائعا ، ثم هاجر الى أمريكا واستغل الأمريكان مواهبه فجمع مالا ولم أسمع عنه خبرا بعد ذلك .

كنت فى ذلك الوقت اقرأ مجلة اسمها العمل Oeuvre لجوستاف تيرى ، وكان هجاء ثائرا ومتخرجا فى « الايكول نورمال » وزميلا لادوار هريو ، ولكنه كان مفلوتا ، وشتم رؤساء الجمهورية والوزراء واشتهر شهرة واسعة ، ثم أسس جريدة « الحرب الاجتماعية » وحمل فيها حملات منكرة على البورجوازية ، ولما أعلنت حرب سنة ١٩١٤ جبن وتظاهر بالوطنية ، سمعته يخطب فلم يعجبنى ، كان سبابا طالبا للمال والمنصب .

لم يعجبنى من خطباء فرنسا غير جوريس وبريان وادوار هريو ، ولكنه متأنق وليس مثلهما ، وسمعت شاعرا يخطب « جان ريشبان » من شعراء مونبارناس (المدرسة الأدبية) كان ملحدا وثائرا » ، خطب فى تياترو سلستين بليون ليلة مثلوا احدى مسرحياته الشعرية ، تكلم فى موسيقى الشعر وتفكير الشاعر فى القوافى فكان بديعا ، وهو أيضا خريج النورمال ، ولذا كان سرورى عظيما فى تلك الليلة ، فنسيت المسرحية ولم أنس المؤلف ، وتكاد صورته تشخص أمامى الآن ، وكذلك صوته وألفاظه منذ أربعين عاما .

لم أر هنرى باربوس ، ولكن قرأت كتبه « النار » ومجلته ، ومن أقواله « ان الأفكار الكبيرة تسير طويلا ثم تنفجر ويكون لها دوى عظيم » ، لقد كان شيوعيا صميما وبغيضا عند كثير من أهل فرنسا لشيوعيته ، هل كان يقصد الى الثورة الروسية أم يتكهن بالقنبلة الذرية ؟

لقد اجتمعت الاثنتان فى زمن واحد .

وبمناسبة الثورة في روسيا أذكر أنني في سنة ١٩٠٩ شهدت مسرحية عنوانها « الليلة الكبرى » وكتبت عنها فصلا في جريدة اللواء بتوقيع « قارىء ناقد » ومثلت دور البطولة فيها «فبراسيرجين». الاسم روسى والمرأة فرنسية (لعله اسم منتحل) ، لا أزال أذكر جمالها وهيبتها وقوتها عندما صرخت « صوت الدماء يرن » · ما هو صوت الدماء ؟

وهذه الفتاة التى كنت أعشقها بالعقل كأنها كائن علوى من عالم المثال ، أين ذهبت ؟ وماذا كانت حياتها ؟ وهل كان شعورها الذاتى ينطبق على فنها الرائع ؟

لقد خلقت شخصية أخرى فى مسرحية سان سيباستيان التى نظمها شعرا فرنسيا جبرائيل دانونزيو الشاعر الايطالى ، كانت تمثل فتاة مريضة ألبسوها لتشفى من الحمى كفن المسيح الذى لفوا فيه جثمانه بعد الصلب (على العقيدة المسيحية) ، وقد بقيت فى الكفن صورة الوجه العيسوى (حسب الأسطورة التاريخية) ولأجل اتقان التمثيل رسم دانونزيو بيده ذلك الوجه كما تخيله ، وتفضل على الممثلة بعد قيامها بالتمثيل باهداء الثوب اليها وعليه الصورة التى رسمها ذكرى لفنها واتقانها · تأمل ! من « صوت الدماء ترن » الى دماء المسيح نفسه ! ·· مظاهر للفن ·

ما قيمة هذه الذكريات التى سجلتها ذاكرة فتى فى العشرين من عمره فى بلد غريب وفى طور التعليم فى الجامعة الفرنسية ؟ وكيف فكرت فى أن هذه الحياة تؤهلنى للجنة أى لنعيم الروح والعقل والاجتماع بالأرواح العليا واجتياز امتحان الفردوس ؟

اننى لم أفكر قط فى المال ولا فى المنصب ولا فى أمجاد الدنيا ولا فى العشق المحلل أو المحرم ، فى تلك الفترة كنت على الفطرة مدفوعا الى الحق والجمال والخير ، ولم اظفر بما يملأ يدى

من سعادة لها علاقة بالحواس أقرأ الكتب وأســتمع الى الدروس والخطب وأنشد الجمال والفكر ، وأتمنى مستقبلا سعيدا للانسانية ولوطني ، والدليل على ذلك أفكارى التى أودعتها فى كناشات عشرين وجمعتها فى مخطوط بدأته فى بيتى بمدينة ليون سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٠ ثم وقفت العمل فى تسجيلها (١) .

كانت بداية رحلتى بل حجتى الى كعبة الحقيقة .

وكيف انتهت تلك الحجة ؟

تلك الثورة الروسية التى رأيت شررا من نارها الكبرى قد اشتعلت ــ وليس لى فيها غرض ولا ميــل ، قد أســـفرت عن قوى متضاربة ، وتلك الأفكار التى كانت تغلى وتفور فى ســنة ١٩١٠ انفجرت عن حربين عالميتين جلبتا الشــقاء على العالم ومازلنا نخشى حربا ثالثة !

ولم يتحقق من آمال الخير والحق والجمال شيء ، بل جاءت النقائض على أنقاض الحضارة التى آلت الى السقوط والانهيـــار وانقضت وليس صحيحا أنها تريد أن تنقض بل انقضت فعلا .

وأنا نفسى وجدت فى وطنى عجائب وغرائب ، فهذا الشعب يعيش فى القرون الوسطى المظلمة ، وبعضه يعيش فى عصور ما قبل التاريخ بعقولهم وعواطفهم ، وهذه المثل العليا التى كنت أنشدها ، وتلك الأمانى التى كانت تداعبنى ، وتلك المعارف التى هويتهـــا وحشدتها وامتلأت بها لا تصلح لتلقين أحد ، لأن الذى بينى وبين بنى عمى مختلف جـــدا ! ، بل الذى بينى وبين أخى وأبى وأمى وابنى وزوجتى وتلميذى وأستاذى مختلف جدا جدا جدا .. الخ .

---

(١) أطلق لطفى جمعة على هذه الأفكار عنوان « خطرات افكارى ، تجاريب الشباب فى الشرق والغرب » ، مخطوط تحت الطبع .

ففيم يا صاح كان كل ذلك الجهاد والتعب والسهر والتحرير والتحبير والدرس الطويل ؟

وفيم كان استحقاق الجنة ؟

* * *

مما لاريب فيما أن كتـــابة الخواطر والأفكار التي تدور في النفس وتجـــول في الضمير تعين صـــاحبها على توضيحها وتصفيتها وعلى الشعور برفع عبئها عن كاهله ، وهذا الذى دعاني في السنة الرابعة بعد الخمسين من عمرى الى الكتابة في هذه الناحية (١) ، وكنت أظن أنها من أصعب النواحي وما أزال أعتقد أن أصعب الأشياء لدى الانسان أن يحلل عناصر حياته ، سواء التي في نفسه أو التي تحيط به ٠

ومن هنا كنت أعتقد أن كتابة التاريخ المعاصر من أشق أعمال الأدب ، ولكن الذى أكتبه هنا لأضع عبئا عن كاهلي ولأتبين حقيقة خطتي في الحياة ، ليس أدبا ولا فنا ، ولذا أكتبه خاليا من كل تصنع أو تزويق أو تجمل ، ويمكن لي أن أقول ان التصنع وتعمد اخفاء الحقيقة أو تغميتهـــا ليس من دأبي في كل ما أعمله أو أقوله ، وما كان من ذلك في أى قول أو فعل فليس الا نتيجة المعيشـــة في المجتمع وليس الا ما أحسبه ضرورة تقتضيها العشرة التي تحتاج في العهد الأخير الى كثير من المجاملة ، والا فانني أشعر في كثير من الأحوال أنني لست من أهل هذه الأجيال أو أن قرابتي لأهل العصر « قرابة بعيدة » ٠

---

(١) كتب لطفي جمعه هذه النبذة من هذه المذكرات في يوم الاثنين ١٨ أغسطس سنة ١٩٤١ ٠

وان الذى بينى وبـين بنى أبى
وبـين بنى عمى لمختلف جـدا

نعم ان الرجل الذى ينظر فى مجتمع متحرك رجراج كالزئبق ، وهو كان يؤمل الثبات والاستقرار ـ لخليق بأن يعتبر نفسه غريبا فى وطنه ، ويحن الى معانقة المعرى حبا فى قصيدته الهمزية التى استفتح بها ديوان اللزوميات :

أولو الفضل فى أوطانهـم غرباء
تشذ وتنأى عنهـم القربـاء !

كنت ألقى أديبا رواية وهو المرجوم صادق عنبر ، فكان يشكو ويتألم وينتقد ، وأنشدنى يوما هذه الأبيات الأربعة :

قدر الله أن أكون غريبـا
بين قوم أغدو مضيعا لديهـا

ورمتنى الأقدار بعد دمشـق
فى بلاد أسـاق كرها اليها

وبقلبى مخـدرات معـان
حين تبدو تختال عجبا وتيها

صرت ان رمت كشفها فأراها
نزلت آية الحجـاب عليهـا

وهذه الأبيات المتوسطة تحوم حول فكرة الاغتراب فى الوطن وهى عجيبة حقيقة ، لأنك ما تزال تلقى رجالا ـ ولا سيما من أهل العلم والأدب ومكارم الأخلاق ـ يعتبرون أنفسهم غرباء فى أوطانهم ، واذا رجعنا الى التاريخ القديم ، عثرنا على أسماء فطاحل فى كل علم وفن أساء اليهم مواطنوهم حتى أخرجوهم من ديارهم ، فلقوا كرامة

فى أوطان أخرى ولقوا نجاحا وتوفيقا ، وكان الاخراج بأحكام النفى السياسى لسنين معدودة وتحريم الاقامة أولا ثم العودة .

ويظهر أن جنس الانسان شديد الغيرة والحسد لأهل الحق أو أصحاب المواهب وعدو لدود للصراحة ، فكل من كان منسوبا لأحد هذه الأنواع الثلاثة لابد أن يلقى وبالا قبل أن يصل الى شىء من النجاح ان لم يلق حتفه فى هذا السبيل ، ولست فى حاجة الى تعديد الأشخاص من طبقة الأنبياء والزعماء والعلماء والمصلحين والأدبـاء .

لمن أكتب هذه المذكرات ؟

لله ولنفسى . ولا أظن أن أحدا يعرفها أو يدركها ، وهى مكتوبة بسرعة وتحت تأثير ضغط شديد لأسرى عن حالتى ، وهى ــ كما يقال ــ نفثة مصدور ، فان رأسى كالمرجل الذى يغلى ، وصدرى يكاد ينفجر مما أرى وأسمع فى هذا الوطن الأسيف .

فعلى من يعثر عليها من أولادى أو الغرباء أن ينسقها وينشرها بعد موتى ، وان مد الله فى أجلى فأنا أقوم بهذا العمل ، لأنه يعطى صورة ولو ضعيفة عن هذا العصر وعن الحياة فى مصر أثناء هذه الحرب ، ويقينى أن كل مجهود فى مصر ضائع وأن سادتها يعملون لمصلحتهم ولا يراعون الله ولا الضمير .

المهم عندى فى هذه المذكرات الاشـــارة الى المسائل العامة السياسية والاجتماعية فى مصر والعالم وتدوين أخبار العظماء الذين يلحقون بربهم ، والاشارة الخفيفة الى حياتى الخاصة وتتبع النضال المســـتمر بين الأحزاب المصرية التى أوشكت على الهلاك بفعلها ، وانتظار نهاية الحرب التى طالت وأوشكت على تمام السنة السادسة منذ اشتعالها فى سنة ١٩٣٩ ، أما فيما يتعلق بعملى وصحتى فاننى أكتب الأقل .

ان وظيفة الكاتب الحقيقية هى تسجيل الحياة كما هى ، وقد يكون هذا التسجيل ملونا ببعض شخصية الكاتب ، وهذا هو العمل الفنى فى أصح معانيه ، فليس عليه أن يسعى للنقد أو للاصلاح ، فهذا عبث ، ولكن الوصف نفسه يعمل أكبر عمل ويحدث أعظم أثر «كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع النـــاس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب اللـه الأمثـــال » صدق الله العظيم ٠

(محمـد لطفى جمعة)

الطفـــولة

(١)

المولد والعائلة (*)

ولدت في ١٠ ربيــع الثاني سـنة ١٣٠٣ هجرية الموافق ١٨ يناير سنة ١٨٨٦ مسيحية فى مدينة الاســكندرية فى منزل لا يزال قائمـا فى أحــد الاحيــاء التى تسكنها الطبقة الوسطى (حى كوم الدكة) ، من والدين من تلك الطبقة ، وكان ميلادى فى فصل الشتاء بعد العشاء أو أثناء أذانهـــا ، وكانت ولادتى عسرة ولم أستطع الرضاع الا بعد ثلاثة أيام حتى كدت أهلك لولا أن جارة أشــارت بتغذيتى بقطــرات من ماء الورد المحلى • ولما كان لبن أمى شحيحا ، فقد عثروا على مرضع مصابة بالتهاب فى الجفون وضعف فى المصران ولم يجدوا سواها فأرضعتنى (١) وأورثتنى هاتين الحالتين ، فبرئت من الأولى ولازمتنى الثانية ، ولعلى لم أرضع من أمى بعد ذلك الا بعد بضعة أشهر •

أما المنزل الذى ما يزال قائما على حالته ، فهو بناء مرتفع فى شكل مستطيل وليس فيه شئ من الجمال سوى نخلة يتيمة فى فنائه ، والبيت محصور بين منازل أخرى لا يدخله الا قليل من النور والهواء ، وقد شهدت الغرفة التى ولدت بهـــا ، فاذا هى واطئــة

(*) كتب لطفى جمعة هذا الفصل فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩ •

(١) هى السيدة ملوك والدة الموسيقار سيد درويش •

يغطى أرضها بلاط قاتم وقد رأيتها فى الأربعين من عمرى وهى خالية من الأثاث ، ورأيت موضع كرسى الولادة الذى وصف لى والنافذة الصغيرة التى كانت أمى تنظر اليها كلما ازدادت عليها أوجاع المخاض التى استمرت يومين وليلة • وقيل اننى ولدت عند الأذان بينما كان المؤذن يقول « محمد رسول الله » ونادى شخص فى الطريق باسم ولقب فجعلوهما للمولود الجديد تفاؤلا واستحسانا ، وكان والدى يجلس بعتبة البـاب الخارجى باب الدار ، فقد طلقت أمى بعـــد الحمل بى ، فجاء الرجل فى ساعة الميلاد يعلن أنه لم يجىء مصالحا ولا مجاملا وانما ليستقبل ابنه الذى سيولد فى هذه الليلة وهذه الساعة ، فعجبوا لدقة حسابه وصدق تقديره ولكنهم أخفوا خبر حضوره عن الوالدة لأنها لم تكن تميل الى مطلقها كل الميل •

وكانت خالة لى صغيرة فى السن قد أعدت لى ثيـابا ولفائف وطاقية من أقمشة قديمة لتكون طرية لينة على بدنى الصغير • كانت هذه الصبية تعين أمى وتساعدها وهى شقيقتها كلما اشتد مخاضها قبل الطلق •

وقيل اننى ولدت مستورا فى غشاء جلدى رقيق اختلسته الداية ، ولكننى ولدت ضعيفا كأننى هيكل عظمى فى كيس من الجلد أظهر ما فيه تجاعيد جسمه وعنقه وخفوت صوته ثم صراخه عندما بحث عن الثدى فلم يجد ، حتى هبط صوته ، وصار كأنه نزع لا عويل وحشرجة لا استغاثة الى أن أدركته عناية الله بمشورة الجارة التى أفتت بتعليله بالماء المحلى •

كانت مجموعة من النســـاء المختلفـات سنا وعقلا هى التى استقبلت الطفل ، يقوم عليهن رجل واحد زوج احداهن وهو كهل شبه ميســـور محافظ ذو تقاليـــد يتعاطى التجارة اســـمه (حسن الطويل) ، كان ربعـــة أســـمر اللون أنيقا فى ثيـابه

الاسكندرانية من سراويلات وصـــدرية وحزام وحذاء « كونترة » وطربوش مغربى تحته طاقيه بيضاء لا يبين منها الا نصف قيراط ، ولحيته بيضاء وهو يتكلم بلهجة « أهل بحرى » التى كأنها تقتلع الحروف اقتلاعا وتبالغ فى الجيمات المعطشة وغير المعطشة ، مع سماحة وبشــاشة وميل للخير وعقيدة دينية هائلة ، كان شـعاره « رأس الحكمة مخافة الله » ، يحب الحلال ويتحراه ويكره المحرمات ويحاربها ويقسو على نفسه وعلى من معه ، وكان تاجرا فى الغـلال « بميناء البصل » وفى « الميدان » ، وكان يحوطه لون من البطولة ، كان محترما ومحبوبا وفصيحا ولكنه لا يفهم المزاح ولا يشـجعه ، كان واســع العينين ، كبير الرأس ، نافذ الكلمـــة ، قوى الارادة ولم يكن يكيده الا حرمانه من النسل وقد صنع المستحيل ليولد له ولد ذكر فلم يصبه ·

كان خفيف الروح حازما شهما يتحمل أشد الصعاب وكريما لا يبخل بماله على الأقرباء والغرباء ، وها هو ذا قد رأى مولودا يولد لبنت زوجته التى يعدها بنتا له منذ غيبت الأقدار والدها ، وزاده غبطة أنه هو الذى اختار الزوج الذى أعقب هذا الولد وان لم يكن الزواج قد نجح لاختلاف الخلق بين الوالدة الفتية والزوج الذى اختاره لتقواه وصلاحه ، فظن التقوى مبررا والصلاح صلاحية فكذبته الحوادث ، اذ وقعت الفرقة قبل ميلاد الطفل وشيكا ·

كان حسن الطويل يعطف على الأم وأختها وهما ابنتا زوجته كأنهما ابنتاه وعلى سيدة ثالثة هى أم زوجته ويسميهم « كوم لحم » ، وقد كان شهما لأنه عندما قامت الثـــورة العرابيـــة وأرغم أهل الاسكندرية على الهجرة ، رحل بهذا الكوم اللحـــم من النســاء — ولم أكن قد ولدت — من مقرهم ومسكنهم الى حجر النوتية سائرا على رجليه ، بينما كانت النساء محمولات على دواب أو على مركبة يجرها حصان ضعيف حتى تمكن هذا الكهل من ملازمة ركابهن كأنه جمال

أو حارس وهو يجر حمل ثيابه من سراويلات وقباء وحزام « سلنبد »
وعلى رأسه ذلك الطربوش الضخم ذو الزر الثقيل فى وهج شمس
يوليو وتحت أشعتها المحرقة وهو لا يمت لاحداهن بصلة الرحم
أو الدم وان يكن زوجا لاحداهن ، فكانت نخوته ومروءته تقضى أن
يحافظ عليهن وهن ثلاثة أجيـــال مجتمعة ، مباركة والدة جدتى
وفاطمة جدتى وخديجة والدتى وحميدة خالتى ، ثم أقام بهن فى
خيام ما شاء القدر أثناء ضرب المدينة بالقنابل واطفاء النيران بعد
احتراقها ، ثم عاد بهن فى هذا الموكب الحزين عودة المهاجرين الى
بيوتهم ، فهل وجدوا بيتهم وأثاثهم ؟ . لقد أخذوا معهم ما خف وغلا
ولكن ما تركوه لا يستهان به .

لقد كان الرجل تاجر غلال ولكنه لم يربح أرباحا طائلة ، لأن
الأقوات لم تقل والخبز لم يعدم من السوق ولو أنه وجد فرصة
الاغتناء على حساب الشعب الجائع ما فعل ، لأنه تقى ورع لا يدخل
فى وهمه أن الرجل يربح المال من دماء أمته فى أحرج أوقاتها .

عـــادوا وهن يروين له وصـــف مرور القنـــابل على رؤوسهن
اذ صعدن على سطوح المنازل يشهدنها وهى تدوى وتصفر كالأفاعى
حتى جعل العوام لها أسماء نسائية فهذه « الحاجة فاطمة » وتلك
« الشيخة عيشة » بحسب حجمها وقوة انطلاقها وسرعة انفجارها .
وقد رأينا بأعيننا بعض هذه القنابل مطمورة فى أراض زراعية بين
ترعة المحمودية وخط باب سدرة بعد رميها بخمس عشرة سنة وقد
أكلت الرطوبة والسبخ غلافها الظاهرى .

بعد هذه الحوادث بأربع سنوات أو خمس ولدت وما زالت
صورة الثورة وأهوالها مرســـومة فى ذهن أمى وخالتى وجدتى ،
وما يزلن يذكرن الأقمشة البيضاء التى أمرن بوضعها على أذرعتهن
علامة التسليم وجلب الأمان ، لأن من لم يضعها يعرض لحسبانه

ثائرا أو محاربا حتى ولو كان امرأة أو فتاة ! ..

والدى واســـمه جمعه أبو الخير ينتمى الى عيلة نزحت من الوجه القبلى قبل عشرين أو ثلاثين عاما وتخلف بعضها لأســـباب لا اعلمها فى قرية « الدلجمون » بجوار كفر الزيات ، والســـيدة واسمها « خديجة بنت محمود السنباطى » وكانت سن كل منهما عند مولدى حوالى منتصف العقد الثالث .

وأعرف يقينا أن عيلة الزوج الذى صار والدى كانت مؤلفة من اخوة وأخوات وقد عاش أحد هؤلاء الاخوة الى السبعين من عمره فى قرية الدلجمون ورزق أولادا رأيت بعضـــهم يطلب العـلم فى الازهـــر .

اما الأخوات فقد رأيت منهن عددا وفيرا وهن يحملن الأسماء الآتية بسيونيه ونوارة وســـيدة ، وكن متزوجات ومرزوقات بنين وبنات ولا يزال نسلهم على قيد الحياة ، وكانت أواصر القرابة بينهم وبين والدى شديدة متصلة حتى لا يمضى يـــوم أو ليـــلة دون أن يجتمعوا فى بيت أحدهم فى حى من الأحياء التى يقطنونها ، ومن تلك الأحياء التى رأيتهم فيها حى العطارين وحى باب سدرة وحى ميناء البصل وحى كرموز وحى بوالينو ، وقد ملك بعضهم عقارا حسنا وادخر بعضهم مالا حتى بعض نسائهم الا والدى الذى كانت غريزة الملك ضعيفة فى نفسه والميل الى الادخار أضعف ميوله على الرغم من انه كان يعتبر رئيسا لهذه الأسرة رياسة روحية ، فما يبرمون شيئا او ينقضونه الا برأيه . وقد صار بعض أصـــهاره ولا سيما أزواج بنات أخواته من أرباب المال وقد صحبهم فى مدارج حياتهم وتعهدهم حتى نموا ونما معهم أولادهم وأموالهم .

وقد مات هذا الوالد في شهر أغسطس سنة ١٩٣١ بمدينة الاسكندرية ودفن في مقبرة العيله بمدافن عمــود الســوارى (سيرابيوم) وكانت سنى عند وفاته ستا وأربعين سنة ، مات فى السبعين من عمره ، فى حين أن والدتى سبقته الى العــالم الاخــر فى سنة ١٩٠٣ أى أنه عاش بعدها ثمانى وعشرين سنة تزوج خلالها أكثر من عشر مرات على التوالى ومات عن الأخيرة منهن وهى سلمى ، وكان عمرى عند وفاة أمى سبع عشرة سنة وكنت أطلب العلم فى السنة النهائية فى المدرسة الخديوية التجهيزية بدرب الجماميز ، وكانت وفاتها فى السادس من شهر أكتوبر من تلك السنة المشؤومة بالنسبة لى والى ما أصابنى من الآلام التى لازمتنى •

كان والدى رجلا قصير القامة قوى البنية أبيض اللون مشربا بحمرة لين الصوت حاد البصر شديد الصبر على المكاره ، قنوعا الى درجة الزهد يعمل فى الحياة ليستطيع العيش والعبادة ، وقد قضى الشطر الأكبر من شبابه فى صــحبة الشيخ حسنين الحصــافى المتصوف المدفون فى دمنهور (١) ، وكان يصحبه فى ســياحته ورحلاته وحله ، ولا يزال أولاد الشيخ ومنهم عبد الوهاب على قيد الحياة ، وكانوا يقطنون بيتا كبيرا فى قصر الشوق بالحى الحسينى • وكانت صلة والدى ببيت الحصافى قوية حتى انه كان ينزل وزوجته سلمى فى بيتهم عندهم بعد زيارتى وكنت أعجب لذلك • وعبد الوهاب الذى حل محل أبيه فى شياخة هذا الحزب الدينى رأيتــه للمرة الأخيرة فى ربيع سنة ١٩٣١ فى بيت بشارع فاطمة النبوية بالعباسية منفردا عن بقية اخوته وأخواته •

---

(١) ولد الشيخ حسنين الحصافى سنة ١٢٦٥ هـ فى الحصافة مركز شبين القناطر وانتسب اليها كعادة اكثر العلماء وحفظ القرآن ثم ارتحل الى القاهرة حيث التحق بالأزهر ومال الى طريق الصوفية فهجر الأهل والأوطان وساح فى البلاد والقرى • وكانت له طرق صوفية عديدة ولكنه اشتهر بالطريقة الشاذلية =

لقد كان والدى متعبدا الى درجة بعيدة ، وكان حريصـــا فى المعاملات وان لم تكن ظروفه نسمح له بالاستفادة من حرصه ، وكان شديد التحمس لكل ما يمس الشريعة ٠

كلما رجعت بذهنى الى الفترة الأولى من تاريخ حياتى أرى نوعا من المقارنة المحتمة ، فقـــد كانت أسرة أمى مكونة من جدى محمود السنباطى الذى اشتغل بتجارة العطارة واعمال العمارات وتجارة الخشب ، وكان رجلا معتدل القامة أبيض اللون سريع الغضب يدمن تدخين الطباق الشديد ، وله لثغة تعوقه عن سرعة الكلام فربما سبق فعله قوله ٠ وكان أبوه يقرأ القرآن وقد انتهى بأن هاجر هذا الجد الى أرض الحجاز بعـد أن أقام أمدا فى بعض مدن الوجـــه القبلى ، وقد وافقت هجرته وجود أختين له فى المدينة المنورة ، وقد مات بلا شك فى البلاد المقدسة ٠

(٢)

من ذكريـات الطفولـة

ان القصـد من هذه المذكرات تسجيل خلجات النفس التى تشعر بادراك وظيفة العقل عند شخص مدرك ابان نضج الحيـاة الفكرية فى حرية تامة بغير محاباة ولا طابـع ذاتى ، وتدوين كل ما يصح تدوينه باخلاص تام وتطويع اللغـة على قدر المسـتطاع

= والطريقة المحمدية التيجانية ٠ وكان الشيخ الحصافى يكثر التردد على دمنهور لزيارة ضريح الشيخ ابو الريش وضريح السائح تلميذى ابى الحسن الشـاذلى ثم يسافر منها الى الاسكندرية او كفر الزيات او دسوق الى ان توفى سنة ١٣٢٩ هـ ودفن بدمنهور والحق بضريحه مسـجد ٠

التعبير عن خفايا النفس الانسانية وما ينتابها من عواطف ومشاعر وأفراح وآلام .

خلقت ميالا الى الحب المطلق الذى يقترن دائما بالمودة وحسن الظن بالناس وبالدنيا ، ولذا كانت خيبة الأمل فى حب أو صداقة من أكبر الصدمات التى تصيبنى .

فقد بدأت حياتى بحب طفلة شعرت نحوها بحنان عظيم وربما كان السبب أننى ولدت وحيدا بغير اخوة وأخوات ، فكان تعلقى بهذه الطفلة مظهرا أو مصرفا لهذا الحب . وقد بقيت صورتها وقصتها فى دخيلة نفسى عشرين عاما فسجلت ذكراها فى كتابى « ليالى الروح الحائر » فى فصل بعنوان « نرجس العمياء » ، ولم تكن عمياء ولم أكن أقصد الى اخفاء شخصيتها ولكن الحزن الذى ساور نفسى عند فراقها طبع فيها صورة قاتمة فأخرجتها كما وردت .

وللمذاكرة فى هذه السن المبكرة — على الأكثر أربع أو خمس سنين — شأن عجيب ، فمن ذلك أننى أذكر بعد خمسين سنة حوادث صغيرة لا تمتاز عن غيرها من حادثات الحياة ، ولكنها ثابتة لا تتزعزع .

فمن الذكريات الفعلية أننى كنت أبغض جنسا أجنبيا معينا ولا أطيق رؤية أفراده ، وكان أحد أقاربى يحملنى على كتفيه ويجعلنى أعتمد بين رأسه وساقاى على صدره ، فلما أشرفت على فرد من أفراد هذا الجنس ، وكانوا يلبسون ثيابا حمرا ، قلت لحاملى « خبينى من هذا ال ... لأنى أخشاه وأكره أن أراه » ،

ولم يكن حاملي ليملك تخبئتي ، فاذا دنا هذا الشخص البغيض ارتعدت فرائصي وأغمضت عيني حتى يمر بي ونترك البقعة التي لاقيناه فيها فيطمئن روعي ، وكان رعبي وانزعاجي وبغضي بسببه ما يصيب القط عند رؤية قط غريب ، يعلو ظهره وينتفش شعره ويزوم متحفزا للهجوم أو الدفاع ، وكان حاملي لا يدرك سرا لهذه الحال التي تنتابني كلما صادفنا فردا من هذا الجنس . وقد **لازمني هذا الكره طول حياتي ولكن تشكل بأشكال تلائم تقدمي في العمر وحصول الظروف والملابسات .**

وانني أذكر هذه الحالة بالتفصيل لأنها تثبت عندي أن الحب والبغض بالغريزة وأنهما لا يمكن تعليلهما ، ولكن عند بعض الناس تأتي حوادث المستقبل بتأييدهما كما في هذه الحالة التي تأيدت تأييدا كليا ، **لأنني عندما ظهرت عندي غريزة كره هذا الجنس — وهم الانجليز — لم أكن أعرف شيئا ولم أسمع ولم أتأثر بشيء بخصوصه .**

وقد درجت على هذا بعد في حياتي فيما يتعلق بالأفراد والحوادث ، فأشعر في أغلب الأحيان بانجذاب أو نفور من الأشخاص ، ويحدث دائما أنني كنت أقاوم هذا الشعور وأكذبه . فتأتي الحوادث بتصديق الشعور الأول ان خيرا وان شرا ولو بعد سنين طويلة ، وقد يخطيء ظني أحيانا ولكن هذا نادر جدا .

ومن الحوادث التي تعيها الذاكرة بوضوح ، وان كانت تافهة ، أنني كنت أسير يوم شتاء ماطر بشارع كبير في الاسكندرية في صحبة أحد أقاربي ، وكنت حافيا وشعرت في وقت ما بالألم

من المشى والبرد ومن اضطرارى لملاحقة الشخص الكبير وهو بحكم كبره اسرع واوسع خطى منى ، وبينما كنت أفكر فى الشكوى وكنت كثير الاحتمال ، كان هناك نوبى كهل جالسا على باب احدى العمارات فوقف وجهر بالقول والتأنيب لقريبى قائلا « مش حرام عليك تخلى ولد صغير كهذا صفته كيت وكيت يمشى حافيا على الأرض فى البرد ده ؟ أنت مش فى قلبك رحمة ؟ لازم ده مش ابنك » ، وكان هذا هو الواقع فخجل قريبى وحملنى واعتذر بأن لى حذاء فى البيت وأننى رفضت انتعاله • فأحببت هذا النوبى وأدركت أنه أشفق على من قريبى هذا ، وأدركت بعد ذلك أن هذا النوع من الامر بالمعروف ، ولما كبرت اتخذت هذه العادة بغير خجل وهى أن أدافع عن الأطفال والضعفاء مهما كلفنى ، وكلما نهتنى نفسى أو انتظرت جوابا لئيما ممن أخاطبه فى شأن الطفل أو الضعيف،أتذكر صنيع هذا النوبى الكريم • وما أزال حتى الآن أتعرض للآباء والأمهات الذين يسهدون أطفالهم فى سبيل ملذاتهم مثل السهر فى الملاهى ويجرون الصغار الآخذ منهم النوم والتعب كل مأخذ وتعريضهم للبرد واستنشاق هـــواء الطريق المشبع بالتراب والجراثيم فى أوقات يجب أن يكون فيها الطفل يغط فى نومه تحت غطاء مدفأ ، وكثير من هؤلاء الوالدين يبدو عليه الغنى والتعليم والفهم ، وبعضهم يقول ان تعريضه لقليل من التعب خير من تركه بمفرده فى الدار أو فى رعاية خادم خائن أو مهمل ، وهذا حق كل الحق وحجة ناصعة لا يمكن الرد عليها ، وان الأم التى تحتجز نفسها طول حياتها فى البيت تمل وتسأم وقد تبغض الطفل والحياة !

وقد سهرت ليلة بطولها فى مولد الدسوقى فلم أنسها ولم يبرأ قلبى من الغيظ على من سبب لى السهر ونمت ضيفا فى بيت أسرة ربها لا يعرف الشفقة •

ولكن بعد هذا الحادث بأعوام قليلة تعلقت بالموسيقى ولم يكن امامى الا سماع المغنين فى الأفراح والمنشدين فى الأذكار ، وهناك كنت اقاوم النوم مقاومة الجبابرة لأنصت الى المغنى الكبير وآتمنى لو يستمر السماع الى ما لا نهاية له من زمن ، ولكن هذا الميل الشديد الى الموسيقى الذى لازمنى منذ الطفولة لم يدفعنى يوما الى محاولة تعلم العزف على احدى الآلات ولا تعلم أى شىء له ارتباط بالفن الموسيقى وان كنت اشتريت كثيرا من المزامير والنايات والكمنجات فلم أوفق الى اخراج نغمة أو شبه نغمة لا بصوتى ولا بيدى ·

وقد رأيت فى الرابعة عشرة من عمرى أحد رفقائى فى المدرسه وقد نبغ فى القانون والغناء نبوغا نادرا ثم تدرج الى الضرب على بقية الآلات وهو المرحوم عثمان الفندى ، ومن معاصرى النابغين من هذا النوع حسن أنور وعلى صفر وفؤاد المرابط ومحمد فتحى وبعضهم فطاحل فى فن التلحين وعلم الموسيقى ، ولكننى بعد أن تتبعت الموسيقى الأوربية ولا سيما فى نوع « الأوبرا » ، أيقنت أن الموسيقى العربية — فيما عدا المرحومين سيد درويش أخى فى الرضاع ومحمود صبح وقبلهما عبده الحمولى ومحمد عثمان — نوع من العبث واللهو الذميم ، وقد صارت فى أفواه بعض مدعى التجديد دعوة فاضحة لأحط الشهوات والنزول بالنفس الى الحضيض لفظا ومعنى وتلحينا ، وأما الذى وصفوه « أوركسترا مصرية » فمهازل ومخزيات وفى أحسنها مما يقوم به معهد الموسيقى أخلاط وسرقات ، وليس فى الموسيقى الشرقية مما يشرفها غير الموسيقى التركية التى هى على نسق واحد ونظام جميل ·

* * *

التـكوين العقلى والعلمى

ـ ١ ـ

التعليم الابتـدائى

نشأت مبغضا للاستظهار وحفظ الدروس عن ظهر قلب ، وسببه أننى أنفر من غير المعقول ، فلم أكافـأ فى المدرسـة أبدا لأننى برعت فى المحفوظات ، ولم أعرف أبدا أوزان الشعر ، وكان رضاء الأستاذ مصدره انتاجى على ضعفه ، لا ما أعيده من أقوال الآخرين ، وكان نظام التعليم فى عهد طفولتى وصـباى مشوبا بداء الحفظ فى الكتب والكراسات ، وكان أنبغ التلاميذ هم الذين يحفظون دروسهم ، والغريب أن بعض هؤلاء صاروا قضاة ومحققين ومستشارين،ولكن الذين كانوا لا يستظهرون هم الذين نبغوا فيما درسوه من العلوم العليا .

دخلت الكتاتيب أو المكاتب المعدة لتعليم الصبيان ، وكشفت حيل الصبيان على الفقى الضرير وعرفت نفسية العريف ، وعهدت الجريدة والزخمة من أدوات تعذيب لا تهذيب الأطفال ، وهربت من الكتـــاب مرات لا تعـد ووضعت طرف ثوبى على نار الكانون لأنهى حياتى بغضا فى الكتاب وبقيت مدة معطلا عن التعليم لخلو القرية التى كنت فيها من معاهد العلم غير ذلك الكتاب التعس .

ولما دخلت مدرسة الأقباط فى طنطا ، كانت الفرق فيها مزدحمة والتلاميذ مهملين ، كان فيها عريف ضرير لتعليم اللغة القبطية لكل التلاميذ بغير تمييز حتى بين المسلمين واليهود .

لم أتعلم شيئا فى مدى سنة أو سنتين ولم أعرف فى تلك المدرسة الا الظلم والتعسف وعجزت عن جدول الضرب وعن الخط الأفرنجى وعن النحو وعن كل شىء .

وفى ذلك الوقت كانت لى جدة عجوز فصيحة اللسان تحفظ كتبا عن ظهر قلب عن طريق السماع والتلقين ، فقرأت لها ومعها كتبا دينية كأجزاء من البخارى دون أن أعلم معانيها وبعض القرآن وشعرا كثيرا وقصصا كألف ليلة وسيف بن ذى يزن وبعض الجرائد اليومية ، وهى التى روت لى قصة ابراهيم الخليل وزوجته سارة وابراهيم بن أدهم وكان هذا أول درس لى فى التصوف .

هذه هى الثقافة البيتية التى تلقيتها بشوق وشغف ، وانى أرجع الى جدتى السيدة « مباركة بنت ترك ومنصور الوكيل » الفضل على فى حب القراءة والتطلع الى المعرفة دون سواها من خلق الله ، وان كانت ابنتها فاطمة لازمتنى وخدمتنى بشيخوخة مباركة وبنية قوية وقلب كريم ومحبة فائقة منذ حداثتى الى وفاتها ولم تجعل لها فى الحياة هما غير رعايتى .

وأذكر الآن أننى لو لم أرزق هذه الجدة المباركة التى أرشدت عقلى فى خطواته الأولى ووجهتنى الى حب القراءة وسماع الحديث ، فماذا كانت تكون حياة فكرى ؟ . كانت معلمتى الأولى والأخيرة ، فاننى لم أستفد من امرأة سواها .

عشت فى المدن والريف ، وفى المساجد والكنائس وفى المدارس والكتاتيب وفى الموالد وخيام الذكر وفى سرادقات الأفراح والمآتم وشهدت سامران الحواة ومقاهى القصاص والمنشدين على الرباب وغشيت ملاعب « البهلوان » وكانوا يسمونها تجاوزا «تياترو» وشهدت ألعاب الخيل والفيلة والكلاب والثعابين وسمعت الحاكى (الفونوغراف) عند أول اختراعه ، وشهدت رقص الخيل وضرب الرصاص فى أفراح البدو ومنازلة النبوت ومصارعات الفتوات ، وسمعت مشاهير القراء والمنشدين ، وحضرت بعض دروس العلم فى الجامع الأحمدى وحظيت باللعب الغالية وشغفت بالأسلحة ، وشهدت التمثيل العربى فى روايات من التاريخ القديم ، وشهدت خيال الظل والقره جوز ... كل هذه المسرات والويلات لا بستها ولامستها قبل بلوغى عشر سنوات ، وأشدها ألما وأثبتها ذكرى شهودى جلسات المحاكم وسماع مرافعات المحامين فى قضايا كبيرة فى قاعات مزدحمة بالمتفرجين ، وشهدت مواكب الحاكم واستقبال الخديو وأفراح الرعية وسمعت صوت « أفندينا يتحدث الى مستقبليه ويمزح مع قريب أحد الموظفين « بالمعية » ، ورأيته يجوس خلال مقاعد الفصل المدرسى ويتناول كراسات التلاميذ ويحيى بيده الصغيرة المشايخ والأفندية ونحن نصيح ونهتف « أفندمز جوق يشا » بالتركية ولا نفهم معناها وما أزال أجهلها الى الآن ، كل هذا قبل « يحيا » و « يعيش » .

وفى أحد أيام يناير سنة ١٨٩٢ ذهبت لشراء طعام من بقال يونانى يحسن الكلام بالعربى وبيده جريدة ، فلما باع قال لى : أفندينا مات فى الليل ، وعجبت لأن الرجل رآنى على حداثة سنى أهلا لأن ينعى الى أمير البلاد وتذكرت ذلك الخديو منذ كان يمر بالبلد فى قطار فخم ويحشد التلاميذ والأعيان للقائه فى محطة طنطا ، فلما نعى الى هذا الرجل كان أول خاطر مر بى أن هذا

الرجل لن نراه فى القطار الفخم ، ولم أدرك أن له خلفا ، ونهيأت لى ظروف السفر الى القاهرة مع شخصين أو ثلاثة من أهلى لنشهد الجنازة الخديوية ، وأتذكر وصولنا الى القاهرة ، وخوضنا غمار الزحام الشديد ، زحام أعيان ورجال متشحين بالسواد والطرابيش الحمراء ، فكانت دهشتى لكبر المدينة دهشة عظيمة جدا ، وقد كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها القاهرة ولأول مرة أحتك بجماهير القاهرة الصاخبة الطلقة المرحة فى كل شئ حتى فى تشييع الموتى ولو كانوا ملوكا . يا لها من فرجة ويا له من يوم غريب !

كل هذا شهدته قبل بلوغ سن العاشرة ، لقد كان نوعا من الفوضى والعماء والمصادفة والمخاطرة ساعدت على تكوين عقلى فى جو مضطرب بطبيعة الأشياء ، فلم أدرك معنى لحياة الطفولة الهادئة المطمئنة ، ولكن أدركت الحياة القلقـة المضطربة المنوعة المنبهة للعواطف والغرائز والميول .

ولكن أشياء معينة لفتت نظرى ونبهت ذهنى ، القرآن الكريم عندما حفظت جزء « عم » لضرورة الامتحان فى ليلة قمرية على سطح منزلى ، فتعودت السهر لأشهد النجوم وأسبح فى عالم التخيل الذى يملأ فكر الأطفال . وتتبعت حروب الترك واليونان ومصر والسودان فتعلمت قراءة الصحف والاهتمام بالأخبار ، وبدأت أدرك ما يسمى بالسياسة الداخلية من قراءة المجلات الهزلية مثل « الأستاذ » لعبد الله النديم « وأبو نظارة زرقا » لصنوع اليهودى الوطنى المصرى « وحمارة منيتى » ، وكانت هذه المطبوعات أكثر حرية من الجرائد كالمؤيد والأهرام .

وقرأت مقــالات لا أزال أذكرها مثــل مصرع فليكس فور وفهمت الفرق بين حكومة الجمهوريــة والملـكية والامبراطورية

بمناسبة موت هذا الرجل ، كما قرأت مقالات فى الوطنية المصرية . وشهدت تولية الخديو عباس ورأيت أصحاب الجلاليب الزرقاء يحيطون بمركبته وهم يهتفون له « ربنا ينصرك يا أفندينا » وهو يأمر من حوله بتهدئة السير اشفاقا على الحفاة الذين يجرون خلفه !

وتكونت فى ذهنى صورة مشوشة عن حياة الحكام والمحكومين ، ولم يكن للحكومة مظهر فى ذهنى غير « الضابط » و « العسكرى » و « الغفير » و « شيخ الحارة » ولم أعلم العلاقة بينهم وبين المحكمة والمدير الا بعد بضع سنين ، وكنت أمر بمقر الشرطة « الضبطية » عند الذهاب الى المدرسة والعودة منها ولا أدرك ما يحدث وراء جدرانها الى أن شهدت ذات ليلة جنودا يحيطون برجل مكبل بالحديد وقد شهروا أسلحتهم ... وسألت نفسى اذا كان هذا الرجل مكبلا ومقيدا ثم انه لا يحمل سلاحا فلم يحيط به عشرة رجال من الشرطة بأسلحتهم مشهرة ؟

ووقع فى نفسى أول معنى للشرطة وهو الارهاب وادخال الرعب فى النفوس ولا تزال فكرة « الضبطية » مقترنة فى ذهنى بفكرة هذا الرجل .



— ٢ —

نظام التربية والتعليم فى المدارس المصرية

أذكر فى ذلك العهد أيضا أن أعظم ضرر يلحق بالتلاميذ لا يرجع الى استعدادهم الفطرى ، ولكن يرجع الى سوء اختيار

الاساتذة وسوء طرق التعليم ، فقد كان معظم الاساتذة فى تلك المدرسة الابتدائية (مدرسة الأقباط بطنطا) جماعة من انصاف الجهال الذين لم ينالوا اجازة فى علم من العلوم واشتغلوا بتلك المهنة اضطرارا وفرارا من الفاقة ، أمثال أستاذ الانجليزية الذى قضى فى تعليم الأطفال الصغار احدى خرافات « ايزوب » ستة أشهر ، وأستاذ الحساب الذى حتم على أولاد الخمس والست سنين حفظ جدول الضرب والا فليركعوا على الحجر ساعة أو ساعتين ، ومثل الشيخ الذى كان يجمع بين تلقين الحساب وأدب الطالب فى حق أستاذه على الطريقة الآتية فيقول لفرقة التلاميذ : كم يكون مجموع تسعة وتسعة ؟ فيقولون : ثمانية عشر . فيقول لا ! سبعة عشر !! فيقولون : لا . فيقول : أنا حينئذ كاذب ؟ فيقولون : كلا نحن كاذبون ! ، وذلك خشية أن ينسبوا اليه الكذب ، ولا أدرى أى الأمرين أعظم شأنا فى نظر العلم . صدق الأرقام أو وصف الأستاذ الذى يخطىء تلاميذه عمدا بالكذب !

ومن الظلم الذى رأيته فى تلك المدرسة عندما صمم شيخ اسمه أبو الشدائد أن يعاقبنى بالضرب مائة مرة على كفى لأننى ضحكت عندما سمعت للمرة الأولى لفظ « كان وأخواتها » فتنبهت فى حاسة ادراك النكتة ودهشت أن يكون للألفاظ أخوات كبنى آدم ، فنفذ الشيخ القاسى تهديده حتى ورمت يداى !

كانت فترة اقامتى فى تلك المدرسة فترة سوداء مظلمة أظهر ما فيها الاضطهاد والفوضى وجهل الأساتذة والفروق الكبيرة بين عمر « سن » التلاميذ وتعلم اللغة القبطية على عريف اعمى يخبط بعصاه رءوس التلاميذ خبط عشواء والركوع على البلاط البارد فى الشتاء لتقصير طفيف فى استظهار جدول الضرب والسب باللغة الفرنسية !

كنت فى الفترة الأولى التى انتهت بسن التاسعة خاملا فى كل شىء له مساس بالتعليم ، فلم احفظ القرآن ولا قواعد اللغه العربيه ولا قواعد الحساب ، ولم أتقن الخطين العربى والافرنجى ، ولم افهم معنى الجغرافيا ، وقد حكم على جميع الأساتذة بالخيبة فى فروع العلوم كلها ولم يحسن بى الظن الا أستاذ « علم الأشياء » الذى قضى نصف عام فى وصف الحمار !!

لقد كان عقلى مضطربا لفقر الأساتذة فى طرق التعليم المثلى ، فلم يسعدنى الحظ فى تلك السنين الأولى بأستاذ يعرف ما هو التعليم ما عدا رجلا فاضلا ألقت به الأقدار على شاطىء تلك المدرسه كأنه بقايا سفينة غارقة ، كان هذا الأستاذ محمود عمر من المهذبين الذين وصل اليهم شعاع من نور العلم الحديث قد سافر الى مؤتمر المستشرقين فى استوكلهم ، وقد ألف فى وصف رحلته كتابا وكذلك ألف كتابا فى الأمثال العامية وآخر فى المواويل وأوشك أن ينتهى من كتاب فى « علم الركة » ، فأقبلت على مؤلفات هذا الفاضل وقرأتها بمزيد السرور فكانت أول ما تغذى به خيالى المتعطش . قرأت فى كتبه وصف عواصم أوربا وعرفت أسماءها وأدركت وجود عالم وأقوام آخرين غير الذين أراهم فى السكة الجديدة ودرب الأثر وحارة الكنيسة وكفر اسكاروس ، وتلوت أمثال العوام وتفسيرها ومواضع الاستشهاد بها ، وحفظت بعض المواليا أو المواويل وأدركت معناها . وقد أيقنت بعد سنين أن هذا الأستاذ كان عالما بالفطرة وأخصائيا فيما يسمى عند الأفرنج « بالفولكلور » أى علم حياة الشعوب (١) ، ولكنه لم يجد من يشجعه أو يأخذ بناصره .

---

(١) للطفى جمعة مجموعة مقالات فى الفولكلور جمعت فى كتاب عنوانه « مباحث فى الفولكلور » ، طبعة أولى سنة ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب ، ثم طبعة ثانية سنة ١٩٩٩ فى سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية ، رقم ٣٤ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة .

هذه السنون العشر الأولى قضيتها فى جهالة تامة ومحاولات خائبة فى سبيل ادراك مبادىء الأشياء ولكنى لم أوفق الى شىء أكثر من فك الخط ، ولم يكن قصورى عن التقدم فى الدروس المدرسية راجعا الى غباء أو عجز فطرى ، ولكن كان نتيجة جهل الأساتذة وفوضى الحياة المدرسية وعدم ادراك المعلمين نفسية الطفل التى أصبحت فى أوربا محورا تدور عليه سائر نظريات التعليم منذ ظهور مدام مونتسيورى الشهيرة .

أما الضرب فى المدارس ، الضرب الموجع المؤلم الذاهب بالكرامة والمولد للأحقاد بين الأساتذة والتلاميذ ، فقد كان قاعدة عامة الى درجة احداث العاهات المستديمة كالصمم وفقد احدى العينين ، وقد أسفرت المباحث الحديثة فى التربية والتعليم عن خطأ هذه الطرق .

كل هذا وقع وجرى وحدث قبل بلوغى عشر سنوات .

وفى ختام العشر تغير وتبدل فى لمحة عين ، كل هذه الفوضى انتهت سنة ١٨٩٦ بدخولى مدرسة ابتدائية حكومية ، وكان كل ما بذلته فى الماضى فى المكاتب والمدارس الحرة لم يعوض على الا تعليم السنة الأولى ، فبدأت بالسنة الثانية .

الحمد لله ! لقد نجونا من الفوضى العقلية وخرجنا من كهوف الظلم والجهل المنظم وودعنا المهلهلين والممزقين والجهلاء الذين لم يعرفوا قيمة الأمانة التى عهدت اليهم وهى عقول صغار التلاميذ وقلوبهم .

كانت مجموعة الأساتذة فى المدرسة الأميرية أرقى من السابقين بمدرسة الأقباط ، ووسط التلاميذ أفضل من غيره ، ولكن كان بعض الأساتذة مصابين «بالساديزم» أى التلذذ بتعذيب التلاميذ على الرغم من تحريم الضرب ، فكان أحدهم يهيج أحيانا

على الفرقة بأسرها فيتناول حاملة الخرائط الجغرافية ويصول بها ويجول ضاربا على الرؤس والأوجه والأكتاف والأعناق كأبطال الحروب حتى يفر الجميع من وجهه ويستغيثوا بناظر المدرسة ، وتحملنا سفالة اخلاق بعض التلاميذ ، وتحملنا امارة المفتشين الأجانب وشهدنا ارتجاف النظار والأساتذة عند حضورهم ، ولكن وقع هذه المتاعب كان أخف على أنفسنا من حوادث المدارس السابقة ٠

فى أول السنة الحادية عشرة من عمرى شعرت بالتبعة والمسئولية وأدركت أن الحياة جد ونظام وأن عهد الطفولة الذى لم أخرج به الا بسنة واحدة من التعليم قد انتهى فعلا وحكما ، واتجهت اتجاها آخر عندما وجدت فراغا كبيرا للقراءة فى غير كتب المدرسة ، فمن الشهر الأول اقتنيت كتبا كثيرة ، وبدأت أقرأ هذه الكتب بغير نظام ولا ترتيب وأسهر الليل فيها بعد اتمام واجب المدرسة وكان تافها بالنسبة لما فى هذه الأسفار الضخمة ، وعندئذ فكرت فى تكوين مكتبة ،**وشعرت بميل لدراسة أخبار الرجال التى عرفت بعد أنها « التراجم » ولا سيما ما كان منها مكتوبا باقلام أصحابها ٠**

ثم ملت الى ما له علاقة بالفكر والعقل والروح والموت والبعث ، ولم تكن عندى فكرة خاصة بالدين الا من ثلاثة أشياء ، أقارب لى ذكور واناث يقيمون الصلاة ويصومون ويحتفلون بمولد النبى وليلة القدر ، وقارىء يتلو القرآن فى البيت فى كل يوم يقرأ ربعا أو عشرا أو سورة صغيرة،وحفظ بعض السور (جزءى عم وتبارك) فى المدرسة ، ولم يحاول الأساتذة تعليم الدين ٠٠ كأنهم كانوا يتحاشون ــ تنفيذا لبعض الأوامر ــ أن يعرضوا علينا بضاعتهم ، وكان جلهم من متخرجى الأزهر ودار العلوم ٠

لم اسمع – وأيم الحق – كلمة ايمان أو عقيدة من أحدهم ... لم يقولوا ولم ينطقوا طوال ثماني سنوات قضيتها فى التعليم الابتدائي والثانوى كلمة فى الوطن أو الدين أو الأخلاق أو التاريخ الصحيح ، ولم يحاول أحدهم – عفا الله عنهم وطيب ثرى من مات منهم – أن يرفع الغشاوة عن أبصارنا ولو تلميحا ، كانوا يخافون شبح دنلوب والمفتشين الانجليز والنظار والمنافقين والدساسين والجواسيس ، فقنعوا بالمرتبات والثياب الجديدة والطرابيش الحمراء عن أداء الواجب نحو التلاميذ ، وبعد فترة الشهادة الابتدائية التى قطعتها بسرعة ، فبروا دروس التاريخ المصرى القديم وبدأوا تاريخ الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتيه وأوربا فى القرون الوسطى والحروب الصليبية ، وعلمونا العلوم كلها بالانجليزية من رياضيات وكيميا وطبيعة الى جغرافيا وتاريخ ولم ينقص الا أن يعلمونا اللغة العربية بالانجليزية !!

وكان المعين على هذا البلاء والغدر دوجلاس دنلوب ويعقوب أرتين وجميع نظار المعارف أمثال فخرى باشا ، فكان من المستحيل على تلميذ أن ينبغ فى اللغة العربية التى أعان رجالها على الحط من قدرها بالكتب الزرية الحقيرة التى ألفوها فى النحو والصرف والبلاغة ، فكان تعليمنا يؤهلنا للعبودية للأجانب ويحصر أرزاق التلاميذ بين أيدى أساتذتهم من الانجليز فى دواوين الحكومة .

الحق أننا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الى سنة ١٩٠٨ كنا مسرعين الى الدمار العقلى بخطوات واسعة ،ولم ينقذنا الا الله بحادثة دنشواى ، فيالها من نعمة فى صورة نقمة ، ويالها من موقعة دموية رن فيها صوت الدماء رنينا موقظا منبها ، ثم صار مطربا لذيذا .

اننى لا انكر فضل اللغات الأجنبيه على التعليم ، ولكن انكر الشروع فى قتل اللغه العربيه والقضاء على التاريخ القومى وتعويد التلاميد على العبودية للانجليز من النظار والاساتذة وتعليمهم الخضوع من سن الرابعة عشرة الى العشرين .

أقول اننى قضيت فى تلك المدرسة الاميرية من سنة ١٨٩٦ حتى سنة ١٩٠٠ ، فتعلمت فيها بالمشاهده والملاحظه أكثر مما تعلمت من علوم المدرسة ، اذ ليس فى العلوم المدرسيه شىء جدى يفاد ، فبرامجها محدودة ومناهجها مقصورة على القشور ، والأخلاق فيها لا تقوم والدين فيها لا يعلم . والتلاميذ متروكون فوضى لأهليهم واجتهادهم ، وغاية الغايات حفظ النظام بين جدرانها واداء الامتحانات بما يشرف اسم المدرسة ، ولكن الذى تعلمته من المراقبة وفهم الطباع وتعليل الواقعات وضرورة تعديل نظام التعليم كان أكثر .

ولكن اقول وأشهد أن مجموعة الأساتذة فى مدرسة ابتدائية ريفية فى أواخر القرن الماضى كانت أرقى من مجموعة أساتذة فى مدرسة عليا أو جامعة فى أواسط هذا القرن العشرين . كانوا رجالا كل الرجال وكانوا أهل مروءة ونخوة بين بعضهم بعضا وبينهم وبين تلاميذهم ، كانوا ينظرون الى أنفسهم نظرة المعلم المحترم والينا نظرة الآباء الى الأبناء ، كانوا أساتذة راشدين مرشدين ، وكان المشايخ منهم متدينين والأفندية مستقيمين .

وأنا هنا لا أشير الى أحد ولا أنتقد أحدا من أساتذة هذا الجيل الحاضر ، فلم أعاشرهم ولا أعرفهم الا من آثارهم وتربية أولاد هذا الجيل ، اننى مع احترامى لبعض القائمين على أمورهم فى المدارس والكليات ، أندب حظ التعليم والثقافة والأخلاق ، ولا يخالفنى فى ذلك حتى الرؤساء أنفسهم .

لقد تحول التيار من نزعه الخير المعنوى الى الرغبه الشديدة فى المال والوظيفه و « العلاوات » و « الدرجات » و « المرتبات ». وتحكم الحسد فى النفوس والتطلع الى الغير ، واتسعت ابواب المطامع وانصرفت الأفكار عن العلم الى النفع الذاتي ، وعميت القلوب والاعين عن الواجب ، وتضخمت كلمه « الحقوق المكتسبه » والفوائد المرتقبة ، وطغت المحسوبية على كل اعتبار حتى لهجت الألسنة بأن انقطاع دابر المراقبين الأجانب قضى على النظام ورجع القهقرى بالتعليم والأخلاق ، وأن وزارة المعارف لا تصلح الا بادارة حازمة غريبة عن موظفيها ، وساءت النتائج الختاميه والوسطى ، وأصبحت الامتحانات المزدوجة (الدور الاول والدور الثانى) بلاء ومهازل وعمت البلوى وضربت الفوضى أطنابها ، هذا ما يقال وكثير منه صحيح .

والدليل على ذلك ما تراه من الفروق بين متخرجى هذا الجيل ومتخرجى الجيل السابق عليه مثل جيلنا ، وليس المجال مجال تفاخر ومقارنة ، بل مجال بكاء وعويل على مستقبل البلاد !

لم نعرف الخمر ولا السموم البيضاء والسوداء ولا اللهو ولا الغزل ولا البطالة ، ولم نعرف غش الآباء وخداع العائلات ، ولم نعرف الرسوب المتكرر ولا الرحلات المضللة ، ولم نعرف فساد الأخلاق ولا فضائح الأخلاق ولا المباهاة بالأهل والأقارب ، وكذلك كانت مدارس البنات نماذج للفضيلة .

لم نعرف قراءة الروايات الغرامية ولا التردد على دور الصور المتحركة ولا الحانات ولا التسكع فى أركان ونواصى الشوارع ولا دخول أقسام البوليس ولا خطف حقائب السيدات ، بل كنا نلقى أساتذتنا فى الطريق فنخجل ونحييهم ونسير فى طريقنا متسحبين ، ولم نمازحهم ولم يمازحونا .

حتى هؤلاء البسطاء فى مدرسة الاقباط الذين قست قلوب بعضهم لا نزال نحمل لهم تجلة واحتراما ، لأننى عرفت بالخبرة أن شدة الجانب وغطرسه المعلم وجفاء طبعه أسلم عاقبه فى حياة التلميذ من لين العريكه والتساهل ودماثة الخلق ، لأنها مغرية بالرذيلة وهذا كلام يعرفه كل خبير بالأخلاق ·

فالى هؤلاء جميعا ، أحياء وأمواتا والى أولادهم وأحفادهم أبعث أطيب تحياتى وأعمق عرفانى بالجميل ، واعتذارى عن سوء التقدير أو الخطأ فى التعبير فيما كتبته بنية حسنة وأودع هذه الفترة من الحياة التى كنا نظنها تعذيبا وهى منطوية على الرحمة والهناء ، ولكننا لم ندركها لقصور عقولنا بحكم الشباب ·

كنت فى تلك الفترة السابقة على انتقالى الى القاهرة للالتحاق بالمدرسة الخديوية ، أتردد على بيئتين ، الأولى بيئة بعض الطلاب فى المدارس الأجنبية ومعظمهم من السوريين والروم وقلة منهم مصريون لنتحدث فى الأدب ، وكان بينهم بعض المصريين كالمرحوم فؤاد سليم (*) ومحمد بهجت ، وكان أولهما شاعرا والثانى اشتغل سكرتيرا خاصا للمرحوم سعد باشا زغلول فى وزارة المعارف ·

---

(١) فؤاد سليم : ولد بطنطا فى ١٨ ديسمبر ١٨٨٣ · جركسى الأصل · كان يجيد الفرنسية والانجليزية واليونانية وكان شاعرا ويجيد العزف على بعض الآلات الموسيقية ، الى جانب أنه رسام وخطيب : عرب روايات تمثيلية مثل لوكريس بورجيا ومارى تيدور ، والكابورال سيمون ، وروايات قصصية مثل وفاء الزوجين وعشيقة الملك · ومثل فى فرقة جورج أبيض روايات كثيرة منها رواية نابليون ورواية لويس الحادى عشر وغيرهما ·

والى هذه البيئة فى هذه الفترة المبكرة يرجع كثير من معرفتى بتاريخ الثورة الفرنسية وترجمة نابليون وشعر هيجو وكتاب البؤساء ، فلما شاءت الأقدار بعد ذلك بثمانى سنوات أن أقصد الى فرنسا لاتمام دراسة الحقوق ، لم أجد نفسى غريبا كل الاغتراب عن الأفكار والمبادىء والمعقولية الفرنسية وان كنت أجهل اللغة الفرنسية جهلا تاما مطبقا .

اما البيئة الثانية فكانت مزيجا من المشايخ والأفندية الذين يجلسون بالصيدليات وهى مجالس وسط بين المنازل والمقاهى ، وبعضهم كانوا ضباطا حضروا مواقع الثورة العرابية يذكرون أسماء الخونة ويصفون معركة التل الكبير وصف شاهد عيان . كنا نتحدث فى السياسة وفى حرب البوير وحروب السودان لقرب عهدنا بها وحروب تركيا واليونان وسكة حديد الحجاز وعودة عرابى من منفاه ونعجب لقسوة شوقى عليه بقصيدته البائية :

صغار فى الذهاب وفى الاياب
أهذا كل شأنك يا عرابى !

ونقرأ العينية الكبرى التى حيا بها الكاظمى وصوله أرض مصر ونحضر مولد العارف بالله سيدى أحمد البدوى ونشهد موكب « ركبة الخليفة » و « ركبة الحاكم » ويحار ذهنى فى الدروع والخوذ التى يلبسها بعض البؤساء ويسيرون بها فى مقدمة الموكب وهم مقيدون بالسلاسل رمزا الى أن البدوى جلب الأسير من بلاده ، فلا أدرى ان كان أسير الروم فى الحرب أو أسيرنا من البلد النائى ، ونختتم مناقشتنا بأكل الحلوى والحمص ثم نتمشى على ضفاف الجعفرية وترعة القاصد متخيلين أن بلدتنا تباهى فلورنسا وبيزا فى فخامتها وجمال مناظرها !

* * *

- ٣ -

التعليم الثانوى

أول يوم فى المدرسة الخديوية الثانوية

فى السنة الاولى من القرن العشرين ختمت دراستى الابتدائيه واتفقت آراء اهلى على مواصلة تعليمى الى أن اصل الى مدرسة عليا ، ولم تتفق هذه الآراء الا بعد جهاد طويل من جهتى ، فان والدتى المسكينة انطلقة من أبى من بضع سنين لشقاق دب بينهما ، كانت كثيرة الصمت والصبر ، وكانت كذلك كثيرة الامل فى ولدها الذى كانت تعزه وترجو بكل قواها ومن اعماق قلبها أن يصير طبيبا ، ولم يكن لاختيار هذه المهنة الشريفة من سبب لدى تلك الوالدة المسكينة سوى كونها مريضة ولم ينجح الطبيب فى علاجها ، فكانت ترجو أن يصير ولدها طبيبا ليشفيها ٠

فلما صح العزم على تنفيذ هذا المشروع ، طلبوا الى قريب لهم فى القاهرة أن يصحبنى فى تقديم طلبى الى المدرسة ٠ ولا تسل عن الانفعالات الكثيرة التى جاشت بنفسى عندما وطئت قدماى لأول مرة فناء ذلك المعهد العلمى ، فان كل شىء فيه كان يؤثر فى نفسى أثرا قويا جميلا ، فمن فناء تلك الحديقة الكبيرة الى النافورة القائمة فى وسط الرواق المؤدى الى غرف الدرس ، تلك الغرف التى كانت تبدو لعينى مع شغفى بالعلم كأنها هياكل تعبد فيها منرقا آلهة الحكمة وأن نوافذها المطلة على الحديقة تكاد تطل منها رؤوس الفلاسفة والشعراء ٠

ولا غرابة فى وجود تلك العواطف فى نفس صبى عمره اذ ذاك أربع عشرة سنة دخل لأول مرة حظيرة مدرسة كبيرة مشهورة هى المدرسة الخديوية الثانوية بدرب الجماميز ·

وفى يوم من أيام شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠ ذهبت الى دار المدرسة حيث امتحننى الأساتذة امتحان الدخول ، وفى اليوم ذاته فحص طبيب شهير بطب العيون كافة التلاميذ المماثلين لى فى الصبا ، ويظهر أن الامتحان والفحص لم يكونا الا مراعاة للنظام ، فان جميع التلاميذ قبلوا فى الامتحان وفى فحص الطبيب ·

ان لأول أيام الدراسة فى مدرسة جديدة تأثيرا عظيما فى أذهان بعض التلاميذ وقد لا يزول مهما تقدموا فى السن ومهما شاهدوا من الحوادث وتتابعت الأيام بأحوالها المتقلبة ، وأظن هذه القوة فى البقاء خاصة بأيام أخر فى حياة الناس لها ما لليوم الأول بالمدرسة من السرور والدهشة والجمال أو الحزن والألم كيوم العرس وموت الوالدين ، ويمكن القول أيضا بأن بعض النفوس ــ لا كل النفوس ــ هى القادرة على الاحتفاظ بالذكرى بالقوة التى ذكرتها لشدة احساسها أو ضعفها وعجزها عن النسيان الذى هو أعظم شىء فى الحياة ، ولعله أعظم نعمة ·

ولا شك فى أن يوم المدرسة الأول كان من هذه الأيام ، ونفسى كانت من تلك النفوس ·

وبالجملة فان « يوم المدرسة » يوم تجمع فيه الأقدار شبانا وفتيانا من كل فج وعلى مختلف الدرجات من حيث الذكاء وعكسه وسمو الأخلاق وضده ، ولكن الأقدار جمعتهم بصفة دائمة وأرغمتهم على أن يصطحبوا ويتنافسوا ويتباغضوا أو يتصادقوا

فى ميدان الحياة الأول الجميل الفسيح المحفوف من الجانبين بأشجار باسقة تخفى ما أمامه وما فوقه ، ذلك الميدان الذى يسمى بأيام المدرسة !

فى تلك الفترة قابلت المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمى، لقيته مصادفة فى اجزخانة وسمعت لهجته غير المصرية فأنصت اليه فسألنى عن اسمى ، ثم سألنى ان كنت قرأت قصيدته العينية وهى التى حيا بها مصر عند وصوله الى ثغر السويس ونشرها فى صدر المؤيد ، فأخبرته بأننى قرأتها ولكننى لا أحفظها ، وافترقنا ولم أره بعد ذلك الا فى القاهرة بعد ثلاث سنين فى صحبة المرحوم حافظ ابراهيم (١) .

وسمعت بمعرض باريس فشغلت بالسفر الى باريس وكانت سنى أربع عشرة سنة ولم تكن لى أية فرصة لمثل هذه الرحلة ، ولكن كان اعتقادى حاسما جازما بأننى لابد مسافر الى باريس هذه .

وفى تلك الفترة لم يعجبنى أن أقتصر على لغة أجنبية واحدة فشاركت بعض تلاميذ مدرسة الفرير فى تعلم مبادىء الفرنسية فى كتاب « ماشويل » ، ووصل الى يدى كتاب « النقش فى الحجر » للماسوف عليه كرنوليوس فانديك ومجانى الأدب بكامل اجزائه ، وكانت هذه النعم كلها محض مصادفة ولم أبذل جهودا فى الحصول عليها .

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالكاظمى ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » تأليف رابح لطفى جمعة ، مطبعة الوزان ، سنة ١٩٩١ ، ص ١٣١ ــ ١٤١ .

وكنت فى سنة ١٨٩٩ قد سافرت الى صفط الملوك احدى قرى البحيرة وأقمت فى بيت أحد أصهارى حتى مللت الاقامة فى الريف وعزمت على التمارض للفرار لأنه كان منتظرا أن اقيم ثلاثة أشهر ... ولكن حدث أمر فتننى واستبقانى وسمر أقدامى بأمراس كتان الى جنادل تلك الحياة التى مللتها ، وهذا الشىء هو الغرفة المهجورة وكانت فى آخر البيت مظلمة مغلقة وقد فقد مفتاحها ، فصممت على فتحها فوجدت بها كنزا ثمينا أغلى مما وجد علاء الدين ، كانت الغرفة ملآنة من أرضها الى سقفها بالكتب والجرائد منذ عهد الوالد الكبير ... فأقبلت عليها وأخذت اذنا بالنظر فيها فلم يكتفوا بالاذن لى بل وهبونى اياها وأباحوا لى نقل ما شئت منها لأنها عديمة القيمة والفائدة لديهم .

فما كان أسعدنى فى ذلك اليوم ! لقد تغير كل شىء فى نظرى وأصبحت العزبة روضة من الجنة ونسيت نشاط الحقول وركوب الخيل وأطعمة الريف الدسمة وخضرة الحقول النضرة وناى الشاعر وأنين الساقية واتجهت الى الغرفة المسحورة .

كانت فيها كتب وصحف من عام ١٨٨٦ تاريخ مولدى ولا سيما الأهرام والبصير ولسان العرب والمقتطف .

أما الكتب العربية التى تصيدت أسماءها وتربصت حتى اشتريتها وتكبدت المشقات حتى قرأتها فلم تتجاوز فى سن المراهقة خمسة أو ستة هى تهذيب الأخلاق لمسكويه والعقد الفريد لابن عبد ربه ومقدمة ابن خلدون وكليلة ودمنة ولزوميات المعرى ، وبدأت اتصل بالعقول العالمية الكبرى ، وأسدى الى صديق فضلا كبيرا بتاريخ ابن رشد وابن سينا وبكتاب صغير فى المنطق وآخر فى الفلك .

يا لها من ليال سعيدة تلك التى عرفت فيها اسم الفلسفة وموضوعها وتاريخ بعض رجالها فى الشرق والغرب ٠

ولكن لفت نظرى فى المدرسه شعر شكسبير وبعض قصصه وكتاب فى فلسفه افلاطون واخبار عن داروين ، فودعت دروس المدرسه وجعلت لها أضيق حيز وعكفت على مجنه المجلات الانجليزيه وعلى تاريخ الاسلام بتلك اللغـة من تاليف بول ، وزارنا الدوارد براون وعلمنا علاقته بالشـيخ محمد عبده (١) ، وسمعنا باسـم الافغانى فتحررت وجدى دون غيرى من التلاميذ ٠

وبدا خوجـات الانجليز يناصـبوننى العداء ويضـطهدوننى ويوقعون على مختلف العقوبات مثـل غداء الخبز بغير أدام ظهرا وكنت طبعا لا آكله ، وجمباز الصباح فى الساعة السادسة شتاء والحجز بعـد ظهر الخميس ولم أكن بعد تكلمت فى حب الوطن أو التعلق بالدين ، ولكن هؤلاء الجواسيس الماكرين يدركون الامور فى بواكيرها ويتقون الحوادث قبل الحاجة لعلاجها وكانوا ينفذون خططا مرسومة باحكام ٠

ومن كل هذا الجيل الذى عاصرنى لم يتحرر أحد غيرى لأننى عاندت أهلى وأعرضت عن كل نصح ولم أقبل الخضوع مطلقا ، ولم يثر أحد من التلاميذ وقبلوا كل المظالم كأنها أمور واقعة لا مفر منها تحت تأثير آبـائهم الذين كان معظمهم من الموظفـين أو من الفلاحين الخاضعين للموظفين ٠

---

(١) مستر ادوارد براون أستاذ اللغـات الشرقية بجامعة كمبردج وقد حضر لزيارة مصر سنة ١٩٠٢ واقترح تدريس اللغة العربية فى جامعة كمبردج ووافقه كرومر على ذلك ، وكان يدرس اللغـة العربية بها فى حين كان مرجليوث يقوم بتدريسها فى جامعة اكسـفورد ٠

كان الكلام عن الوطن أمرا مجهولا لديهم ، كل هـذا بعـد الثورة العرابية بعشر أو خمس عشرة سـنة فقط ، وكان معنـا بالمدرسة الخديوية الثانوية على فؤاد طلبة أحد أبناء تلك الثورة ، خاضعا وديعا محبوبا من الانجليز لأنه ولد ونشأ فى سيلان وتعلم لغتهم، لقد عرف الانجليز كيف يسيطرون على عقول الشباب فى الخديوية والتوفيقية ورأس التين ، ولم تكن هناك مدارس ثانوية سواها وكبلونا بسلاسل من الجهل والخوف ٠

ولم يثر أحد من الأساتذة سوى اثنين هما المرحومان طنطاوى جوهرى وعلى فوزى ، الأول شـذ فى تعـليمه فهجر النحـو والصرف والبـلاغة وأخذ يلقى علينـا دروسـا من احياء العلوم للغزالى والرسالة القشيرية ، والثانى ثار لظلمه فى مرتبه وارهاقه فى العمل ، فتحملوا الأول بعد أن أنذروه وتهددوه ، وأغدقوا على الثانى المال ورقوه ، وأما البقية فكانت ترعى برسيم الحياة الحكومية فى أمان !

فأى خير كان ينتظر من هؤلاء حيال عصـابة قوية متينـة معتزة بسلطتها الجنسية والسياسية فى البلاد ؟

بئست هذه الفترة ! التفت حولى فلا أجد واحدا من رفقاء صباى تحرر من أغلال ماضيه وقد خرجوا جميعا كأقماع السكر على وتيرة واحدة ، وكانوا ينظرون الى التلميذ الذى يخالفهم فى الفكر أو الرأى أو العزيمة كما تنظر الغربان الى الطاووس يمشى

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالشيخ طنطاوى جوهرى ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٩٤ ـ ١٠٢ ٠ وعن على فوزى كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » ، ص ١٧٤ ـ ١٨٠ ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨ ٠

مستقيما لا اعوجاج فى خطواته ، ليس هذا فحسب ، بل لقد قتلت هذه البيئة عاطفتى الثقة والصداقة بين الأولاد وقسمتهم شيعا وطبقات .

لم تفلح الحرية أو المبادىء العليا أو الكفاح القومى أو العلم العالى أو الاكتشاف المغرى أو الأدب الرفيع أو الفنون الجميلة أن تجذب احدا من أبناء هذا العصر ، لأن قوة المحتلين وضعف الخاضعين تضافرا على افساد عقول مطبوعة بفطرتها على الأنانية وحب المال والشهوات والنساء والمقامرة والخمر والحسد والأحقاد ، أضف الى هذا كله اختلاط الأجناس أجدادا وأولادا وأحفادا ، وأضف اليه أيضا دينا مهملا وفضيلة مزدراة ورذيلة ممجدة وطبقة محدثة النعمة ومحدثة السلطان ، وأجانب ودخلاء ، ومثل سفلى فى الحياة الخاصة والعامة ، ينتج حاصل الجمع أو الضرب تلك الأصفار على الشمال التى تكونت منها الطبقة المتعلمة ، ومن هؤلاء مخاليق المحسوبية والوساطات والاستثناءات ، ومن هؤلاء الذين نبذوا النبغاء والنبهاء أو أعانوا على نبذهم واضطهادهم وحسدوهم ليسودوا وحدهم دون سواهم ، فهبط مستوى الأمة وتمت غاية الفاتح المستعمر !



ـ ٤ ـ

دوجلاس دنلوب وسياسة التعليم فى مصر

لم تكن المدارس الثانوية فى أوائل القرن العشرين الا أداة من أدوات الحكم البريطانى فى مصر ، غايتها تخريج طبقة من

الأفندية ليشغلوا الوظائف الصغرى فى دواوين الحكومة وليعملوا فى طاعة وهدوء تحت اشراف السادة الانجليز الذين يشغلونه المناصب العليا الادارية على مثال الحكم المدنى الهندى .

وقد حشدوا لأجل اتمام هذا العمل جيشا من الشباب الانجليز المتخرجين حديثا فى جامعتى اكسفورد وكمبردج بدرجة بكالوريوس آداب ، يعينونهم أساتذة للمدارس الثانوية ومعظمهم يدرسون علوما غير التى تخصصوا لها ! ، وغايتهم من ذلك وضع كل شىء فى أيدى غير الأكفاء حتى تأتى النتائج معكوسة ، وقد أثمرت هذه الغاية فكان معظم الذين تخرجوا فى ذلك العهد جهالا ومعدومى الكفاية والثقافة .

وقد وضعت وزارة المعارف تحت سلطة رجل واحد هو مستر دوجلاس دنلوب (١) وما زال يدرس ويترقى ويجمع الأمر بين يديه ويستخدم نفوذ الاستعمار فى قتل النفوس المصرية حتى أصبح هو الكل فى الكل فى وزارة المعارف ونجح فى تكوين بطانة من الانجليز والمصريين يسبحون بحمده وينفذون جميع أوامره وينتهون عن سائر نواهيه ويسيرون وزارة المعارف ومدارسها بحسب اشارته ، فحارب اللغة العربية وآدابها واضطهد المشايخ المخلصين وصار هو الحاكم بأمره ، ولم يكن وكيل الوزارة فى ذلك العهد الا رجلا من القش كما أن الوزير نفسه كان صنما مصابا بالصمم والبكم اللهم الا القليلون مثل سعد زغلول باشا .

---

(١) كان دوجلاس دنلوب مدرسا للغة الانجليزية بالمدرسة الخديويه الثانوية ثم اصبح مفتشا عاما لجميع مدارس نظارة المعارف فى عهد الاحتلال البريطانى لمصر ، وفى سنة ١٩٠٦ عين مستشارا لنظارة المعارف فبلغ ذروة السلطة والنفوذ .

والعجيب أن دنلوب قد أخذ الوقت الكافى لتنفيذ مخططه ولم يتعرض له أحد بأكثر من انتقاد الجرائد السيارة ، وذلك بالطبع لعدم وجود البرلمان وكان يشاع فى كل صيف أنه سيذهب الى حيث ألقت رحلها أم قشعم وانه لن يعود وأنه استقال لأنه مسلول أو مصدور ، ولكن عبثا كان انتظار تحقيق هذا الحلم ، وكان دائما يعود فى شهر أكتوبر على رأس قافلة من الخواجات وقد انتقاهم بنفسه وهم فى غاية البساطة وسلامة النية ، ثم لا يلبثون أن ينقلبوا أفاعى وأعداء لنا يذلوننا ويعلموننا الصغار ونحن فى ريعان الفتوة وفى سن الحماسة الحقة ، فيطفئون جذوتها بالتهديد والوعيد والاحتقار ، فقد وصفونا فى مكاتبنا بأننا أمة نصف متحضرة وداسوا على كل عاطفة وطنية .

كذا عمد دنلوب وعصبته الى اضطهاد كل طالب أو تلميذ يظهر عاطفة او ميلا نحو الاجتماع أو تأليف القلوب أو النداء باسم الوطن ، وهكذا بدأ نظام فظيع من التجسس فى المدارس وصار نجباء الطلاب يطردون ويطاردون ويحرمون من دخول الامتحانات العامة ليكونوا مثالا لغيرهم وليكون فى عاقبتهم موعظة وعبرة !

كذلك كل أستاذ مصرى كان لا يباح له أن يذكر عن مصر وتاريخها ومجدها شيئا . ولا يباح له أن يقرأ جريدة أو يصرح لطالب بقراءة جريدة ، وتاريخ مصر والاسلام نفسه كان يدرس باللغة الانجليزية فى بضع صفحات أولها « ان مصر لم تحكم نفسها بنفسها أبدا » ، وآخرها « وقد هزم الجيش المصرى فى التل الكبير وذبح الجنود المصريون فى ليلة ١٤ سبتمبر التى كانت قمرية كما تذبح الخراف وفر قائدهم عرابى باشا ... » .

وهكذا كان تعليم كل ما له مساس بالوطن واللغة .

فكيف تؤمل أن تنتج هذه الأجيال رجالا كالفلاسفة والمصلحين والمكتشفين والمخترعين والمشترعين وكبار الكتاب والشعراء ؟

كيف للعاقل الكامل أو العالم أن ينتظر غير هذه النتيجة من الحكم الأجنبى الذى استعان ببقاياه وأذناب الحكام السابقين من ترك وأرمن وشراكسة وألبانيين ومماليك ليكونوا واسطة بينه وبين الشعب المسكين ؟

لقد كان عند الأمة الغالبة اختبار طويل من التاريخ ومن حكم الأمم العربية والشرقية فرأوا أن الأمم تحكم بطريقتين ، طريقة العنف الملجم وطريقة اللطف المسمم .

أما الأولى فباستخدام الجيش والبوليس وهذه قل أن يلجأوا اليها الا فى الضرورة القصوى .

وهناك الطريقة الأخرى اللطف المسمم المنطوى على الظلم المنظم وهنا فى مصر الأرض خصيبة جدا وقابلة لزراعة هذا النوع، لأن الأمة فى مجموعها محبة لذاتها منقسمة على نفسها متزاحمة بالمناكب على المناصب ، متفانية فى عبادة المال والشهوات ، باقية على الوثنية الأولى من تمجيد أصنام الأشخاص الذين يقضون الحاجات .

لقد جعل كرومر وشيعته برامج التعليم مثالا يحتذى للتوافه والسفاسف ، وقيدوا التعليم بالشهادات الحكومية التى لا تبيح سواها دخول الوظائف ، وحاربوا التعليم الحر والمهن الحرة ليقتلوا الاستقلال فى العمل ويخنقوا النبوغ فى مهده .

وهكذا ضمن الانجليز الجهل للتلاميذ وحددوا المستقبل للطائعين منهم وقفلوا بابه فى وجوه المستقلين والنوابغ .

ولما فشا نظام المستشارين الانجليز ، قسموا بينهم رجال المستقبل فقالوا هؤلاء الباشوات المصريون صنيعة فلان المستشار وهؤلاء صنيعة فلان،وتبارى كل فريق فى تسييد (من السيادة) سياسة صاحبه ومولاه ، وبعبارة أخرى خلق فى مصر نظام جديد من الولاء كالولاء العربى القديم بين الأمراء والتابعين ، وانتقلت الصنيعة من الانتساب الى الأشراف والأمراء والزعماء والقواد الى الانتساب الى المفتشين والمستشارين .

وقد جعل دوجلاس دنلوب لنفسه جيشا جرارا من هؤلاء الصنائع فى نظارة المعارف وبثه فى حنايا المدارس والمعاهد والدواوين وبعث منهم جواسيس وأرصادا وألزمهم بكتابة التقارير اليه فى الليل والنهار .

هذا هو الوسط الذى تربى فيه رجال المستقبل وأمل الجيل وذخيرة مصر ورجاء الأمة وذخر الوطن .

هذه المحنة التى عانيتها فى صغرى وفى مقتبل عمرى وأوان نضجى وشدة شوقى الى المعرفة ، كابدت فيها الحرمان ، لأن الحياة العقلية مفقودة والنظام فى مصر لم يكن معدا لأمثالى أو أن أصحابه لم يعملوا لنا حسابا ، ولكن كان الحساب لطبقة الأفندية والموظفين الهادئين الذين لا يتطلعون ولا يسألون ولكن يعيشون ويترقون ثم يحالون على المعاش مكرمين معززين وقد شبعوا من المال والسلطة وكل من فتح منهم عينه ليرى أو فتح فمه ليتكلم وجب انذاره وتخويفه ثم تحذيره ثم حرمانه وطرده .

* * *

— ٥ —

ذكريات المدرسة الخديوية

قرأنا فى المدرسة الثانوية قشور العلوم لأن التعليم فى أوربا يمتد فى الثانوى الى ست أو سبع سنوات ، بينما كان فى مصر خمس سنوات ثم صار أربعا فثلاثا ، وقد حذفت من مناهج التعليم علوم كثيرة كانت تنير العقول وتعد للتعليم العالى ، ولكن أفلت من هذه القشور رغم أنف المعلمين بعض مبادىء الحق والحرية فى كتب المطالعة أو فى دروس التاريخ أو فى قصائد الشعراء ، فكانت دليلا لمثلى من محبى الاستطلاع والاطلاع .

وهذا الامر الذى كان يخشاه المدرسون والنظار والمفتشون . ولذا منعوا قراءة الكتب غير المدرسية وحرموا مطالعة الصحف السياسية ، وابتدعوا جريدة للمدرسة باسم « المدرسة » باللغة الانجليزية ، وجعل الانجليز ساعة فى كل ثلاثة أشهر للخطابة تحت اشراف أستاذ انجليزى يراقبها ويعد موضوعها ويفهم مراميها .

لقد عبث اخواننا فى البشرية من شاطىء المانش وبحر الشمال بمقدرات هذه الأمة عبثا شديدا ، وشاءت الأقدار أن تكمم أفواهنا فى الحروب العظمى ، وشاءت الأقدار التعسة أيضا أن تتطور الدنيا لا فى سبيل الحرية والخير والمساواة ، بل فى سبيل الطغيان والقوة المادية الغاشمة ، وصارت السيادة للقوة والغلظة والفظاظة ، وذهبت المثل العليا واندثرت الآمال وأصبحنا ننتظر المستقبل :

ألا أيها الليل الطويل الا انجلى

بصبح ، وما الاصباح منك بأمثل

بالجملة كانت فترة التعليم الثانوى بالنسبة لى ولأمثالى فى أوائل القرن العشرين محنة ، وان نال احد منا شـيئا من المعرفة فبمحض جهده وشغفه وتشوقه واسـتعداده ، أما الاخرون ، وكان معظمهم من الريف ، فكانوا يقبلون على التعليـم المدرسى بنية أن يأخذوا شهادة ليتوظفوا بها ، وقد نجح كثير منهم وصـاروا فى الحكومة باشوات وبكوات وأفندية وهم فى غاية الغفلة من الناحية السياسية والقومية والثقافية ، وتراهم الآن كما كانوا من قبل يدافعون عن الحكم القائم الذى صاروا بفضل كرومر وجورست وكتشنر وماكسويل من عباده ، ولم يكن ينتظر غير ذلك ٠

وبينما كان أفق تفكيرى يتسع ونفسى تتطلع الى العلم الصحيح والمعرفة الحقة والأخلاق العالية والمبادىء السامية ، كنت أختنق فى الواقع وأشعر بالضيق ، وهذه هى أعز وأغلى سنوات الشباب ذهبت هبـاء لو لم أتثقف والتقط وأتصـيد الكتب والمعلومات وأدون بقدر ما أستطيع لأن نفسى كانت منذ ذلك العهد تأبى أن أتم حياتى كما يتمها زملائى القادمون من الريف أو أبناء أعيان العاصمة الذين جعلوا التعليم جزءا من الحياة مع أن الحياة يجب أن تكون جزءا من التعليم ٠

لقد كنت غير مفهوم من التلاميذ ولكن كان لى نخبة من الأصدقاء الذين جربتهم واخترتهم أمثال أحمد مختار بخيت ومحمد المنجورى وابراهيم رمزى (١) وعلى فؤاد طلبه وحسن نشأت وحسن أنـور وعبد الرحمن الطوير وصـالح كامل الحكيم وأحمـد واصف ومحمد عبد الله صالح ومحمود السبع وعبد العزيز اسـماعيل

---

(١) للتعرف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بابراهيم رمزى ٠ راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤ — ٢٨٣ ٠

ومحمود وهبى وعبد العزيز حلمى ، ولم أزد على هؤلاء الا بعض طلاب القسم الفرنسى مثل على أيوب وعبد الرؤف حلمى واثنين أو ثلاثة آخرين لسماحه فى أخلاقهم .

كانت الوطنية غير معروفة عندنا بتاتا مع وجود مصطفى كامل وجريدة اللواء ، ولا الدين كذلك مع معاصرة الشيخ محمد عبده ، ولا الاجتماع مع وجود قاسم أمين وسعد زغلول وأمثالهما ، ولا ندرى شيئا عن الحياة العامة .

لقد أحكم الملاعين غلق الأبواب على عقولنا وأخلاقنا وضيقوا الخناق علينا تضييقا شنيعا واستعملوا « ضباطا » من الطراز القديم ليحفظوا النظام ، وهؤلاء كانوا فى غاية الذل والخنوع لا ينطق أحدهم بكلمة .

نعم كان هناك شعاعان من النور أطلا علينا رغم القيود والسدود ، الأول الشيخ طنطاوى جوهرى وهو شيخ متحرر يريد التقدم والفهم ولكن فى حدود الوظيفة ، وقد نجح معى نجاحا عظيما اذ وجهنى أو ساعد فى توجيهى الى التفكير فى الحكمة وقد استمرت علاقتى به الى أن توفى سنة ١٩٣٨ وقرأت جميع ما كتب وحاولت ترشيحه لنيل جائزة نوبل .

والشعاع الثانى صدر عن المرحوم على فوزى أستاذ الترجمة ، وذلك بأن ساعد ذوقى فى اتقان الترجمة واحسان اللغتين العربية والانجليزية ، ثم استقال ولم يخف أو يخش صولة دنلوب ، فكان لاستقالته طنة ورنة فهمت منها أنه رجل أراد أن يقاوم سلطة الانجليز التى تستغله أشنع استغلال لتشغل كل وقته فلا يجد ساعة فراغ للتفكير ، فتملقوه وزادوا مرتبه ورقوه الى ناظر مدرسة باب الشعرية الابتدائية ليسكتوه ، وقد نجحوا فى اسكاته الى أن

هاجر من مصر الى اسطمبول ثم عاد الى أرض الوطن ليموت فى سنة ١٩٣٥ أو سنة ١٩٣٦ ، ولم ينتج كتابا ولا مقالة ، ولم يلق محاضرة ولم يشتغل قط بالحياة العامه مع وفرة علمه وأدبه وسعة اطلاعه ومعرفته بست لغات أو سبع ، وهذا دلنى بعد التأمل على أن الآلة الطيبة أو الشخص المستعد ، يعروه الصدا ويتثلم كالسلاح ولا يعود صالحا للعمل •

لقد خدمتنى اللغة الانجليزية أجـــل خـدمة لأننى اطلعت بواسطتها على الكتب والمجلات والجرائد التى تطبع فى أوروبا •

ولتعلمى اللغة العربية أكثر من غيرى قصة ، فقد تحررت من كتاب النحو العقيم تاليف طموم وشركاه ومن كتاب البلاغة وقرأت كتبا أكبر مما يدرس فى الأزهر ، هدانى اليها محمد عثمان الفندى وكان صديقي واشتهر أبوه وهو محام شرعى بقضية الشيخ على يوسف وبنت السادات ، ثم اشتريت مقدمة ابن خلدون وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه والعقد الفريد لابن عبد ربه وقرأت هذه الكتب قراءة نصوص بتدقيق واتقان •

أما اللغة الانجليزية فقد حذقتها فى السنة الرابعة الابتدائيه. وحاولت ترجمة رباعيات الخيام وكنت أول مصرى اشتغل بها من سنة ١٩٠٤ •

ولتعلمى اللغة الانجليزية قصة أيضا ، ففى سنة ١٩٠٠ فى شهر رمضان المبارك كنت بعد الافطار عند رجـل يبيع التين والتمر المنقوع ، فجاء رجل آخر وهو خادم عند رجل انجليزى يحمل على كتفيه كتبا تبلغ الثلاثين أو الأربعين يريد أن يبيعهـــا للعطـارين والبدالين فى القيسارية ، فلم يقبل أحد شراءها منه بخمسة قروش، فاشتريتها منه ونقلتها الى منزلى ، فلما عدت اليها قرزتها فوجدتها

اعدادا من مجلات انجليزيه شهرية مشهورة يكتب فيها أشهر الكتاب قصصا ورحلات وادبا منظوما ومنثورا وبعض تراجم العظماء وشذرات فى السياسة ، فنظمتها وصممت على ان ابدا القراءة فيها فأحضرت القاموس والورق والقلم وبدات آقرا ، وما كان اعظم سروری عند طلوع الفجر بعد مدفع الامساك فى تلك الليلة المباركة وقد قرأت قصة كاملة فى مجلة « ستراند » .

ومن تلك الليلة لم أتهيب كتابا انجليزيا ولا مجلة ، بل شعرت بالشوق والنهم وحب الاطلاع ، ونقلت معى هذا الشوق الى المدرسة الثانوية ، فكنت ألتهم كتب المطالعة وكتب المحفوظات من نثر وشعر وحفظت قصائد بيرون فى حريه اليونان وخطب جون برايت فى حرية الصحافة وانفتحت لى كوة اثر كوة من النور ، ثم علقت شكسبير ، فكنت كلما رأيت قطعة منقولة من احدى قصصه اشتريت القصة كاملة من مكتبة ديمر وكان صاحبها المانيا وقد دامت علاقتى بهذه المكتبة ثلاثين سنة .

لقد كان فرحى عظيما عندما تمكنت من المطالعة الانجليزية . وكنت كثير التكلم بهذه اللغة فأحقد هذا بعض التلاميذ على وتألبوا على عندما رأونى أحاول أتكلم بالعربية الفصحى أيضا فأقاموا على حربا وأنذرونى بالانتقام اذا حاولت احدى الحسنيين ، اتقان لغتى وتعلم لغة اجنبية !



(٦)

الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد وقاسم أمين

كنت فى تلك الفترة يافعا ولكننى أقدر الأقوال والأعمال حق قدرها وأغضب لما أرى وأسمع وأحنق على الذين يكشرون عن أنياب اللؤم لهذه الأمة .

وكنت أظن بالمجموع خيرا وأمجد رجالا أمثال الشيخ محمد عبده (١) ومصطفى كامل (٢) وقاسم أمين (٣) وأحسن الظن بهم جدا وأكاد ألمح عجزهم عن اصلاح الأمور لقوة خصومهم وأكاد أدرك الفرق بين أسلحة الفريقين .

فان الشيخ محمد عبده أبى أن يجامل الخديو فى مسائل تتعلق بالأوقاف على أن يطلق الخديو يده فى اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ، محتجا بأن الباطل لا يكون سبيلا الى الحق ، أى أن الشيخ محمد عبده أبى ورفض أن يكون منافقا متساهلا فى حقوق المسلمين ورأى منه ذلك النفاق والتساهل من احداث خير كبير للمجموع ، وقد احتج عليه أصدقاؤه وتلاميذه وبعض أتباعه فأبى أن يسمع نصحهم أو يعمل برأيهم وفضل أن يعتزل العمل قبل أن يعزل حتى لا يقال ان الشيخ قد انطوى،ولم تجده صداقته باللورد كرومر نفعا ولم يمد اللورد يده اليه وتركه فريسة لخصومه الأقوياء ، ولعل اللورد أيضا كان يرى فى اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية خطرا على الاحتلال .

وقد مرض الشيخ أو ظهرت العوارض الأخيرة لمرض السرطان عليه وبعد خروجه من مجلس الازهر مرغما ، توفى والناس تعلم أنه تأثر بما سمع فى خطبة الخديو التى ألقاها فى قصر عابدين فى ١٧ محرم سنة ١٣٢٣ هـ على ملأ من العلماء وفيهم الحاسد للشيخ والناقم عليه والمخلص له .

وأظهر الخديو أنه يستطيع أن يقتل أعداءه بغير السيف والنطع وكيف تفقد الأمة فيلسوفا مصلحا فتتركه وحيدا لا تدافع

---

(١) ، (٢) ، (٣) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ١٧ ـ ٢٧ ، ٧٩ ـ ٨٧ .

عنه ولا تشد أزره وكيف يترك المسلمون مصلح الجيل المبعوث لاصلاح الأمة في ذلك القرن الرابع عشر الهجرى دون ان تحرك ساكنا .

وكان لموت الشيخ أثر شديد في نفسى ، فقد عرفته فى السنوات الأخيرة قبل وفاته وزرته فى داره بعين شمس بعد مكاتبات طويلة أثبتها المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا بأمر الشيخ عبده فى الجزء الاول من تاريخ حياة المفتى (١) ، وكان جواب الأستاذ الامام لى بعد أن زرته فى داره هو الاستمهال والنصح بالاستمرار فى الدرس والنظر وعدم الطفرة ، ولكنه لم يتحدث الى فى آلامه لعلمه أننى لحداثة سنى لا أفهمها ، ولكنه ألمع مرات عدة الى آلامه وغيظه من جهل المجموع ومن عدم ادراك الأمة حقائق الامور ووقوع العلماء تحت المظالم ، **وقال لى ان أخلاق الغرب فى السياسة والاجتماع أرقى من الشرق بكثير وان كل صالح من الأعمال والآراء والنظم اذا دخل الشرق فسد ، وأن الدين معناه التنور واليقظة بجانب العبادة وليست العبادة وحدها هى المقصودة لذاتها ولكنها جزء من حياة الروح لا كل شيء فى حياة الروح ، وكان الألم مرسوما على وجهه وهو يظن بالناس انهم اميل الى منافعهم المادية والى مداجاة من ينتظرون قضاء هذه المنافع على يديه وقد حرموا نعمة الاخلاص والوفاء لأسباب يطول شرحها وأنهم فطروا على حب الفتن والدسائس والنفاق .**

أما مصطفى كامل فقد لقيته والمرحوم محمد فريد (٢) بمدينة لوزان بسويسرا أثناء سياحتى فى أوربا سنة ١٩٠٦ ، فتأكدت بيننا أواصر الصداقة المتينة وانضممت الى الحزب الوطنى بارتياح

---

(١) تراجع هذه المكاتبات فى كتاب « حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصر الى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن ؟ ، عالم الكتب سنة ٢٠٠٠ م .

(٢) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بمحمد فريد ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٨ ــ ٥١ .

لاعتقادى أن مؤسسه على حق وقد استفدت من عشرته كثيرا من المبادىء السامية والاتجاهات الشريفـــة ومن بينها عدم التمرغ فى تراب الميرى والنأى جانبا عن وظائف الحكومة أو الســـعى اليها والاعتماد فى رزقى على الأعمال الحرة ٠

وكنت فى هذه الفترة (سنة ١٩٠٥) أشـــتغل بالصـحافة واشتركت مع المرحوم محمد كرد على (١) والسيد عبد القادر المغربى فى تحرير جريدة الظاهر لصاحبها محمد أبو شـــادى ، وألقيت فى يناير سنه ١٩٠٦ خطابا فى حفل عيد جلوس الخديو عباس حلمى الثانى شرحت فيه سياسة الوفاق التى بانت بوادرها بعد اتفاق انجلترا وفرنســا سنة ١٩٠٤ وأنحيت باللائمة على هــذه السياسة وطعنت فى استسلام القصر للاستعمار وانصراف الجالس على العرش الى تنمية ثروته دون الاكتراث بشئون الأمة ، فغضب على أمير البلاد وأوعز الى صاحب جريدة الظاهر باضطهادى وفصلى من عملى ووسط فى ذلك الشيمى بك الذى كان موظفا فى المعية ٠

وتركت العمل بجريدة الظاهر وانتقلت الى جريدة اللواء وعملت مع مصطفى كامل فى تحرير الجريدة ، وعندما أنشأ مصطفى كامل جريدة اجبشيان ستاندارد عيننى محررا لهـــا مع شارلس رودى وجون مالونى الانجليزيين ٠

كان النضال بين المؤيد واللواء شـــديدا والتراشق بالألفاظ الجارحة بين الرجلين قويا غير أنهما لم يتجاوزا لفظى «طاحونة الهواء» و « الهلفوت » ، قال الأولى مصطفى كامل فى الشيخ على يوسف ورد عليه الثانى بالأخيرة ، وهاتان الكلمتان تعدان من الأدب العـــالى

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بمحمد كرد على ٠ المرجع السابق ، ص ١٠٣ ــ ١٠٨ ٠

بالنسبة الى ما يقرأ فى الصحف المصرية بعد ظهور الأحزاب الجديدة فى سنة ١٩١٨ وما تلاها .

كانت الصـــحافة فى تلك الفترة ما تزال فى حدود الشرف والأمانة ، فلم تبع ذمتها لأرباب الاعـــلانات ولا للشركات الأجنبية والوطنية ولم تعتمد على الاعتمادات السرية .

هذه كانت أحداثا طفيفة بالنسبة لحيـــاة أمة شرقية محتلة محكومة بطريقة استبدادية فى عهد أمير لا يخضع للدســـتور ولم تحدث الا فى الطبقات العليا التى تأرثت عداوتها لأغراض شخصية ولم يكن المال يلعب فيها دورا كبيرا . بل كانت الخصومة السياسية والتطاحن على الجاه والسلطة .

أما قاسم أمين فقد كان وناب الذكاء شـــديد الفطنة مخلصا لدينه ووطنـــــه وجنسيته المصريه وان يكن كردى الأصـــل ، وعندى أنه فكر فى أصل البلاء فى مصر فرآه فى جهل المرأة لا فى حجابها ولا فى مكانتها التى حددتها لها الشريعة الاسلامية ، فألف كتبه راجيا أن تتحرر المرأة المسلمة المصرية من قيود الجهل قبل أن تتحرر من قيود الحجاب وأن تمارس حقوقهـــا المعترف بهـــا فى الشريعة ، ولم يقصد أبدا الى التهتك أو التحـــرر من قيود العفــة والاستقامة والطاعة والأمانة الزوجية ، ولا يوجد فى كتبه جملة أو نص يحيد عن هذا المأرب النبيل ، ولكن طبقة المتظاهرين بالغيرة والتحمس على الأخلاق والدين والآداب أرادوا أن يتخذوا الرد عليه ذريعة للشهرة بحماية الأخلاق والدين والآداب .

وانى لا أتعرض الآن فيما عاد على البلاد من مبادىء قاسم أمين وسوء فهمها أو سوء تطبيقها وعدم تحميله وزر ذلك ان كان هناك وزر ولكن أقرر ان سير الحوادث فى هذه البلاد كان سيؤدى حتما

الى ما نحن فيه خصوصا بعد الحرب العظمى الأولى ، فيعد قاسم اذن متقدما على جيله بأربع عشرة سنة ومعبرا عما كانت ستتمخض عنه تطورات الاخلاق فى بلد ممتزج بحياة الغرب كل امتزاج وخاضع لمؤثرات الافرنج فى معظم مدنه .

وبالجملة فقد تأثرت بالمفتى كثيرا كما تأثرت بمصطفى كامل وقاسم امين ، وكان كل منهم من أرباب المثل العليا ولم يكن بينهم وصولى أو مستجلب للغنيمة أو منافق أو لئيم مضع ، فاحمد الله على هذه النعمة وان كان كثير مما صادفنى من العقبات فى حياتى كان بسبب اتباعى مبادئهم السامية ، فقد حمتنى تلك المبادىء السامية ورغبة التشبه بهم من الوقوع فى فخاخ اللؤماء والمنافقين والخونة وبائعى ضمائرهم ، وعلمتنى الصبر على المكاره وتحمل الشدائد فى سبيل ما أعتقده حقا ، وان كان ثلاثتهم قد توفوا متعاقبين فى سنتين أو ثلاث لأن اتصالى بهم لم يكن الا فى ختام حياتهم ، وكل منهم توفى مغيظا محنقا وان لم يكن قانطا من رحمة الله ، ولكنه قانط من صلاح هذه الأمة فى الدين والسياسة والاجتماع .



(٧)

تأليف أول مجموعة قصصية مصرية « فى بيوت الناس »

فى هذه المرحلة كنت أتطلع للتأليف والنشر ونشر التعليم لخدمة الأمة واشباع الفقراء ــ وأنا منهم ــ ومعالجة المرض ولا أجد السبيل .

وفى صيف سنة ١٩٠٠ بدأت أقرأ بعض كتب الأدب العربى واخذت أحفظ الشعر القديم والحديث وأشتغل بتراجـــم بعض العظماء ، ونقلت بعد فترة وجيزة قطعة « ماكبث » من الانجليزية الى العربية نقلا رديئا ومثلها لفيف من تلاميذ المدارس ، وقلدت المؤلفات التمثيلية فى قصة اسمها « اللصوص الكاسرة فى الجبال المقفرة » وبقيت خجلا عشر سنوات من هذا العنوان وخاطرت بمال فى طبع هذه القصة ولكن لا أدرى أين هى ولا ما جرى لها ٠

وفى سنة ١٩٠٢ كنت أقرأ مزيجا من مؤلفات تولستوى وكونان دويل وفيكتور هيجو وشكسبير والمعرى والشيخ محمد عبده بغير مرشد ولا غاية ولا خطة مرسومة ، لأن مناهج المدارس كما ذكرت كانت قاصرة خاطئة ناقصة ، فكنت أتسقط الكتب والمجلات وأوجه نفسى توجيها حرا أساسه الشوق الشديد الى المعرفة ٠

وفى سنة ١٩٠٣ كنت فى قطار المرج فلما تركنا محطة الزيتون رأيت شارعا كبيرا محازيا لخط الحديد وفى الشارع مركبة أنيقة يقودها حوذى نظيف حسن الهيأة ، وتبينت فى المركبة سيدة حسناء تتلفت نحو القطار وكذلك الحوذى ثم اختفت المركبة والحوذى والحسناء لأن الخيل لا تدرك القطار ، فكان هذا المنظر كافيا لتوليد الفكرة التى أنتجت مجموعتى القصصية القصيرة «فى بيوت الناس» ٠

لقد اتخذت كل مركبة وكل حوذى شأنا خاصا ولا سيما اذا كان فى المركبة حسناء مضطجعة ، وأخذت الحوادث ترتســـم فى ذهنى ، وبطولة الحوذى الأنيق وغموض الحياة المحيطة بالحسناء والمركبة ، ووصلت منزلى وأخذت أكتب على الورق أسماء ووقائع قبل أن أعرف ما هى القصص ٠

وهكذا بدأت قصص « فى بيوت الناس » وهى أول قصـــة مصرية كتبت فى العصر الحديث ، وفيها قصص قصيرة فكانت جرأة

منى على طريقة لم يعرفها الكتاب ولا القراء في مصر . فهذه القصة التي ولدت في صيف سنة ١٩٠٣ فيها وصف الحياة المصرية بخيرها وشرها كما مرت بذهن شاب في نصف العقد الثاني من عمره عقيب امتحان السـنة الثانيـة الثانـوية وفى بداية عطـله الصيف المدرسية (١) ، وقد تم الكتاب بجزئيـة وطبع الجزء الأول منـه ونشر بعد ستة أشهر (يناير سنة ١٩٠٤) ، ولم أشـأ أن أضع اسمى خشية النقد ، ولكن حافظ عوض الذى أصـبح بعـد ذلك صاحب جـريدة كوكب الشرق كتب في احدى الصحف الكبرى ولعلها المؤيد يقول ان الكتاب تأليف شاب ينظر الى الحياة من نافذة المدرسة ! .

وانى اذ أرجع بذهنى الى اقاصيص هذا الكتاب أسائل نفسى : ألم يصدق هذا الناقد ؟

نعم نظرت الى الحياة من نافذة المدرسة بلا غرض معين سوى التعبير عن بعض المبادىء التى كانت تزدحم بها نفسى ولم أكن أعرف شيئا عن قواعد فن القصـه ولا طرائق التاليف الخيـالى ، ولكن أولادى الذين قرأوا قصتى منذ أربعين عاما يكتبون الآن فى قواعد فن القصة ، والذين كتبوا منهم قصة انما ترجموها أو اقتبسوها وألبسوا « جورج » طاقيه أو عمامة أو طربوشا بعد أن خلعوا عنه قبعته ، وكذلك جعلوا من « اينيل » أو « ليلى » ـ بكسر اللامين ـ فاطمة وزاهيـة وعائشـه ! ، ونقلو أحـداث « بيكاديللى » الى عماد الدين ، « وهامر سميث » الى باب الخلق ، وشارع « ريفولى »

---

(١) عن مجموعة قصص « فى بيوت الناس » ، راجع الفصل المعقود عنها فى كتاب أحمد حسين الطماوى « محمد لطفى جمعة فى موكب الحياة والادب » ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٧٥ ــ ٨٩ ، كتاب الدكتور محمد رشـدى حسن عن « اثر المقامة فى نشاة القصة المصرية الحديثة » ، هيئة الكتاب ، ص ١٥٤ .

جعلوه شــارع المغربى ، والمعادى هى « ســان كلو » و « آنيير » وهكذا !!

ثم جاء أبطال للقصة انفردوا بها واعتلوا صـهوة براقها واستعملوا المال والنوال ونفوذ الأب والعم والخال فى الدعاية لهم وترجمة حالهم وترويج خصائصهم ليربحوا شهرة محرمة بالباطل ٠

ثم جاء الرمزيون والغمازون وجعلوا لهـم طبالين وزمارين ومهرجين يكتبون فيهم المقـالات لقــاء « تعريفـة » و « مرتب » و « هدية » ويقولون فيهم ما قال أبو نواس فى الخمر ! ٠ ولعمرك انه لا يقرأ تلك الرمزيات سوى مؤلفيها ومادحيها ٠

* * *

(٨)

جليلة هـانم

منذ انتبهت لنفسى من غفـوة الطفولة ـ أى فى حـدود الثانية عشرة من سنى ، وكنت اذ ذاك تلميذا فى مدرسـة طنطا الابتدائية سنة ١٨٩٨ ـ **شـعرت بشىء من الكبرياء ٠٠ وحاولت التخلص من هذا العيب وأكثرت من تـلاوة القـرآن ، ولكننى لم أتخلص من شعور الكبرياء والتعالى وأخذت أحس ـ على رقة حالى ـ باختلافى عن بقية الناس وأننى من طبقة تخالف طبقة عشرائى ورفقاء الدرس ٠**

وما زالت هذه الحال تنمو معى ونصوننى عن الدنايا وتحفظنى من التـدنى ، فكنت أحفظ نفسى من اظهـار عواطفى لما بلغت

الرابعة عشرة من عمرى وهى سن شديدة الخطر لأنها سن المراهقة ، فحاربت عاطفة الحب فى نفسى وأخذت اقاوم الظهور بالمرح والفرح واقاوم الطيش والرعونة وهى من مقتضيات السن ، فكنت تارة أحسب أن هذه الكبرياء ميزة أرادها الله لى ، وطورا أعتبرها مرضا ابتلانى به الدهر ٠

لم يكن لى الا عدد محدود من الأصحاب ولابد ان يكون لأحدهم ميزة تسوغ صداقتى اياه ، فمنهم من كان نابغا فى اللغات ، ومنهم من كان جميل الصوت ينشدنى الألحان ويحسن توقيعها ، ومنهم من كان حسن الأخلاق جدا ومنهم من كان يناقشنى فى السياسة الخارجية وتاريخ الاحتلال الانجليزى ووجوب مقاومته حتى يخرج الانجليز من مصر ، ومنهم من كان يقرأ معى شكسبير ٠

وكنت أترك رفقائى فى الدرس وأسعى للتعرف بالعظماء فى عصرى ، فاتصلت بالمرحومين الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل والكاظمى الشاعر العراقى وحافظ ابراهيم (١) وفرح أنطون (٢) ومحمد مسعود (٣) وتعرفت بالمستر بنيامين موزلى الذى أطلعنى على كثير من خبايا السياسة الانجليزية فى مصر ، ومن لم ألقه أخذت أراسله بغير معرفة سابقة ، وكلما لقيت واحدا من هؤلاء حسبت أن بيننا مودة قديمة واتحادا فى الأخلاق والميول ولا سيما المرحوم مصطفى كامل وعبد العزيز الثعالبى (٤) ٠

وبالجملة داخلنى دلال وغرور وانخداع بالنفس ولون من التمرد ، فأفضيت بشعورى الى الشيخ طنطاوى جوهرى ــ وكان

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بحافظ ابراهيم وفرح انطون ومحمد مسعود وعبد العزيز الثعالبى ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٦٢ ــ ٢٧٣ ، ص ١٠٩ ــ ١١٩ ، ص ٢٨٤ ــ ٢٩٠ ، ص ٣١٢ ــ ٣٢٢ على التوالى ٠

يعلمنا اللغة العربية ـ فأطرق ثم قال لى « ان شـعورك بأن هذه الحـالة ميزة ينفعك وظنك أنها مرض يضرك ، وهى ليست ميزة ولا مرض بل هى مزاج واستعداد فانسخ لى ما كتبته من تفسير القرآن ينفعك الله به واقرأ الرسـالة القشيرية وكتاب الاحيـاء للغزالى » . فعملت بنصيحته ونسخت له فى تفسيره وأخذت أقرأ الرسالة والاحياء .

فى تلك الفترة حدثت لى حوادث خدمتنى فيها هذه الكبرياء ل خدمة ، فاننى سكنت فى بيت رجل شـيخ مريض متزوج من اة جميلة صغيرة السن ، وكان بينى وبين مالك الدار وهو زوج اة ، نفور شـديد ولكننى محتاج الى مجـاورته لقرب داره من رسة ، فقد كان هذا البيت فى الحلمية الجديدة على قيد خطوات باب المدرسة فى تلك الفترة .. فتقدمت لى زوجة جارى صاحب ار بألوان من الفتنة والغزل ، لأننى رقت فى عينها فظنت أن فوقها بوصفها زوجة المالك تمتد الى المستأجرين فتهوى من تشاء وتستهوى من تشاء !

وأخذت تقدم الى الهدايا وتحتال على الرغم من غيرة زوجـها ومراقبته الشديدة حتى دبرت خلوة على حين غفلة منه وعلى بغتة منى ، فأدركت فى لمحة عين أن المرأة لايقف فى سبيلها شىء وكان اسمها « جليلة » ، واتخذت السيدة الشابة حيلة حتى رأيتها أمامى مزينة أجمل زينة ومشتعلة بنار الهوى وهى فى عنفوانها وقد سئمت معاشرة زوجها الشيخ ولم تبال خطرا يقع لها أو لى .

فلما رأيتها على هذه الحال فى بيتى ، رحبت بها وقلت لها : ا تريدين يا جليلة هانم ؟ . قالت بغير خجل ولا تردد : أريد أتغدى معك وأجلس اليك لأننى راغبة فيك !

وغالبت نفسي وقهرتهـــا وقلت لها وانا أتصنع الابتســام : لا بأس ! وأنا لذلك ٠٠ ولكن أنت في بيتي وأنا في بيت زوجك وليس كل وقت صالحا للحب ٠ وقالت لي : ان زوجي يبغضـــك ويتمنى أن تخلي له مسكنك ولكنه يحب ان يقبض أجـرة البيت كل شهر وان يكن لا يحب شابا اعزب في بيته ٠ قلت لها : ان ما قدمه يجعل توقيري له أكبر وأنا لا أحب الخيانة لأي انسان وأشفق على هذا الرجل بذاته ولا أشفق عليك لأنك تخونين أمانته دون أن تعلمي ان كنت أحبك أولا أحبك ، وان كنت تحبين كما تقولين فقد أحببت مصادفة لانك وجدت شابا يجاورك ، ولكن أسأت الي لأنك سوف تجعلين حياتي جحيما ، فاما ندوم على الحب وهذا يقتضي الاستمرار في الغدروابتكار الحيلة حتى نتغلب على سلطة زوجك ، واما أضطر الى ترك البيت وأنـــا أحبه لقربه من المدرســـة وهدوء المسكن وجمال المنظر ، وكلا الأمرين شديد على نفسي ، فأنا لا أعرف الحيلة ولا أميل الى الغدر ٠

فقالت لي : هذا كله كلام كتب ومدارس ولابـــد لي منك ٠ فقلت لها : اسمعي يا جليلة هانم ٠٠ أتركيني ودعيني افكر يـــوما أو يومين ٠ فقالت لي : اذا كنت من غير تفكير تقول هذا فما بالك وماذا تكون الحـــال اذا فكرت ؟! أريدك الآن ٠٠ الآن ٠٠ هذه الســـاعة ٠

ودنت مني حتى أحسست أنفاسها ورأيت انفعالهـــا ، وانني مازلت حتى الآن وأنا في الستين من عمري أعجب للقوة التي ملكتني وحفظتني وصانتني من هذه الخيانه (١) ٠

فقلت وقلبي ينفطر : على رسلك ، ماقولك وأنا شاب ليس عندي قدرة على النساء !؟

---

(١) كتب لطفي جمعة هذا الفصل سنة ١٩٤٦ ٠

فتراجعت المرأة قليلا وقالت لى : لا غاية لى الا حديثك وسماع صوتك .. ولم افكر فى شىء آخر وانت لم تفهم مرادى فاسأت الظن بى .

ثم جلست على مقعد من فرط انفعالها وخيبة أملها ورهبة الموقف ، وفرحت ورضيت لنفسى تهمة العجز بدلا من الفضيحة ، وشعرت بقوة كبيرة فسألت لى : أرجوك ألا تخبر زوجى . قلت لها : وكيف لم تبالى من قبل ؟ قالت : لو صح الحب لنا كان السر يربطنى ويربطك ، أما الآن فقد صرت فى حل لا تبالى لو اتهمتنى وبرأت نفسك . فضحكت وقلت : لا تخافى بشرط أنك لا تحرضى زوجك على ولا تدبرى لى انتقاما . قالت : اطمئن .

وصعدت الى مسكنها ، وجلست أنا أردد بيتا من الشعر :

خرجت أجر الذيل تيها وانما
يتيه الفتى ان عف وهو قدير

وكنت أقابل الزوج بعد ذلك وكلما تحرش بى أضاحك وألاطفه وأحاسنه وهو لايدرى ما كلفنى الحفاظ على عرضه من الكبت والقهر والهوان فى عين أنثاه الجميلة جليلة هانم !

وبقينا على هذا الجوار ثلاث سنين ، ولم أغادر بيته الا لأسافر الى فرنسا سنة ١٩٠٨ ، وكانت هدايا جليلة هانم وألطافها قد انقطعت ، ونقرها على السقف من أرض غرفتها وتعمدها فتح النافذة عند مجيئى وانصرافى واخراج صوتها الرنان وأنا صاعد فى الدرج قد تلاشت ، وبالجملة كل هياج الأنثى لم يعد له أثر .

« روح يا زمن تعال يا زمن » الى سنة ١٩١٢ اذ عدت من أوربا وصرت فى الخامسة والعشرين من عمرى ، وكنت راجعا الى

داری ظهرا فی عمرة وانا متعب جدا وجائع جدا وفی بیتی من أحب من الاهل (خالتی) ٠ ولم اكد ادخل واجلس حتى دق الباب دقا عنيفا ، وفتح الباب واذا بسيدة فارعة القامة جميلة الوجه ، مهيبة الطلعة تصحبها فتاة لا تقل عنها جمالا ٠ فلما دخلت السيدة وفتاتها قلت فی نفسی هذه قضية جديدة،ولكن كيف تحضر السيدة فی هذا الوقت من النهار ؟ لعل القضية « تلبس » تقتضی السرعة ٠

وفی طرفة عين دنت منی السيدة وألقت بنفسها على صدری ، فقلت : مجنونة ورب الكعبة ! وقد وقعت فی مشكل ٠

وجاء أهل البيت وضجوا،واذا بالسيدة التی تعانقنی وتقبلنی تقول :

ــ يا حبيبی ! كبرت والتحيت وكنت أمرد ، ولكننی أحبك على كل حال ألا تعرفنی ؟ ألم يدلك قلبك علی ؟ ٠٠ انظر الى وجهی ٠٠ أنا جليلة !

لم تبال بمن فی البيت ولم تبـــال بابنتها ولم تبال بدهشتی وانما استرسلت :

ــ أنت حبيبی الأوحد وأنت حفظتنی ، أنت صنتنی ، أنت حرمت نفسك وحرمتنی لأنك أحببتنی حقا ٠ كان هذا هو الحب الصحيح ، أليس هكذا ؟ لقد اتهمت نفســـــك وصبرت ، أليس هكذا ؟

ــ جليلة ! أنت جليلة ! لله ما أجملك ٠٠ لكننی متزوج الآن ــ ولم أكن قد تزوجت بعد ــ وهذه زوجتی ولعلها تسیء الظن بی ٠

فضحكت وقالت : لا أبالی ٠٠ اذا كنت فی السابعة عشرة عفيفا وهی سن الجنون أفلا تكون عفيفا الآن ؟

وجلسنا وأكلنا معا وتحدثنا وقلت لهـــا : كنت تريدين أن تتغدى معى وأن تتحدثى الى وقد ضرب الدهر لنـــا موعدا من سنة ١٩٠٥ الى سنة ١٩١٢ ، وان الأمور مرهونة بأوقاتها ٠

فأطرقت وقالت لى : لم أنسك طرفة عين ، وقبل أن يتوفى المرحوم زوجى وأنت مسافر ، وعندما اشتد مرضه اعترفت له ، لم أستطع أن أكتم عنه ما جرى بينى وبينك ٠٠ قل لى لماذا سخرت منى ٠٠ انك طول عمرك منكبر ، هذه الكبرياء هى التى حرمتـــك لذات كثيرة وخيرات لا تحصى ، لم تكن العفة ولا الفضيلة ولا حب وجى ولا احترامه هى التى منعتك عنى ، بل كبرياؤك !

واستبقينا الأم وكريمتها ، وقضيت العصر والمغرب والعشاء ى حضرتهما ، فلما استحق الانصراف ، قامت جليلة وبكت قليلا ضحكت وقالت :

ــ لا أدرى لم تعترينى هزة وحزن شديد فى قلبى ٠

فقلت لها : لعل ذكرى المرحوم زوجك تتحرك فى قلبك ٠

وودعتها وكان هذا آخر العهد بيننا ٠

* * *

(٩)

حياة القسم الداخلى بالمدرسة الخديوية

جمعية شمس الهدى

فى سنة ١٩٠٣ حدث لى حادث عائلى هو وفاة أمى ، فاضطررت الى دخول القسم الداخلى بالمدرسة الخديوية ، وكانت محنة ليس

بعدها محنة ، ذلك النوم المختلط مع مائة ولد تحت رقابه الضابط والفراش وتلك المذاكرة الليلية العقيمة بالاجماع فى غرفة سفلى عاريه باردة تحت ادارة شاب من أهل الجهل والغطرسة ، ثم النوم والطعام والفسحه والوقوف والحمام واليقظة بمواعيد عسكرية آليمه . **وكنا فى فصل الشتاء فأردت مخرجا من هذا المأزق ، فأسست جمعية باسم « شمس الهدى » لالقاء المحاضرات ومطالعة الكتب المفيدة والاجتماع الحر فى اوقات فراغ الداخليه ، ووضعت للجمعية شارة ووساما وأغريت الأفندية اخوانى بكل الوسائل حتى انتظمت .**

وكنا نجتمع فى كل غروب بين العشاء والمذاكرة ، وكان المجدون منا موضع سخرية المهرجين والحاسدين من التلاميذ واختار أحدهم واسمه عبد الحميد عمار لنكايتنا أن يحضر انعقاد الجمعيه وهو جاثم فوق فروع شجرة فى حديقة المدرسة ليضحك علينا !

وبعد بضعة أيام وشى بنا أحد الضباط الى الناظر فاستدعانى واستعلم منى ونظر الى شزرا ، ثم بدأ عهد الاضطهاد الحقير ، فأولا أباح لنا الاجتماع مرة واحدة كل أسبوع وتحت اشراف الضابط المنوب وألا يلقى فى الاجتماع كلام دون أن نقدمه للناظر أولا بواسطة سكرتيره ولا يلقى حتى يوافق عليه الناظر « شيرمان » .

ثم أخذ الضباط يرهبون التلاميذ ويوعزون اليهم أن ينفضوا من حولى ، ثم تقصدنى الناظر بالعقوبات الدنيئة مثل « العيش الحاف » و « دريل الصبح » وهو الحضور قبل الساعة السادسة لحمل الحديد تحت امرة أحد عساكر الجيش .

كان الناظر يعطف على سالفا لاتقانى اللغة الانجليزية وظهورى فى أوائل الفرقة ولا يقبل فى لوما ولا شكوى ، فانقلب على مرة

واحدة و..رمنى من ادارة مكتبة المدرسة وهددنى بالرفت وأنا لا اعلم السبب ، فلم نكن نفهم انهم لا يريدون التلاميذ يقراون ولا يتكلمون ولا يتدربون على الخطابه والحياة العامه ، فشكوت الأمر الى المستر « فوستر سميث » ومستر « جونز » ومستر « تاتون بـــراون » اساتذة الانجليزى والتاريخ والرياضـيات وكانـــوا يعطفون على لاجتهادى فوعدونى خيرا ، ولكن الاضطهاد استمر بل زاد ، وجـــاء الى يوما مستر « جونز » بعـــد احد الدروس وعلى انفراد وقال لى بصراحه لم تدهشنى فى ذلك الوقت :

ـ ان الناظـــر والخوجـات والضباط ناقمون عليك بسبب الجمعية السياســـيه التى اسستها فى القســـم الداخلى . ونحن الانجليز للاسف يا بنى ننظر الى مثل هذا الأمر فى مصر والهند وبقيه المستعمرات (كذا) بعين الريب خشية ان تكون مقرا للثورة والتهييج ، وهذا أمر غير مرغوب فيه بتاتا وهو يعطلكم عن دروسكم ولم يئن أوانه ، فان كنت تريد أن تعود الى ســابق مكانتك فى عين الناظر فاصرف هذه الجمعية وانفض بنيانها ، لأنه لا معنى لاســـم « شمس الهدى » . هذا رأى الناظر والأساتذة ، أما رأيى أنا فهو أن هذا تقييد للحرية وكان يجب علينا أن نشجعكم وندربكم على الفصاحة والتفكير والخطابة مادام ليس فى مصر جامعة مثل اكسفورد أو كمبردج، بل مجرد مدارس فنية عالية ، فاختر لنفسك يا جمعة ما يحلو لك ، واعلم أن استمرارك سيؤدى الى رفتك من المدرسة ، وكل الخوجات ينظرون اليك بعين الارتياب وقد يكون لهذا عواقب سيئة فى الامتحان .

عندما قال لى « جونز » هذا الكلام الخصب العذب فى لهجة مؤدبة واخلاص ، أشرقت على « شمس الهدى » الحقيقية وفهمت السياسة الانجليزية ، وخرجت مطرقا مفكرا وخفت أن أطلع اخوانى على هذا الأمر فيفروا من يدى هلعا أو يبقى بعضهم معاندا ، فصممت

على الاستمرار وقلت ان الناظر يمكنـــه أن يحل الجمعية بالأمر الرسمى فليفعل هذا·وصممت من ناحيتى على ألا أستجيب أبدا لعقوبة الدريل اللعينة وألا ألبى النداء مطلقا فى الساعة السادسة ولو شنق المدرب نفسه أو بح صوت الضابط ·

كان فى سنى شاب اسمه يوسف كرم (١) يحب الفلسفة ويناقشنى فقرأناها معا فى العطلة المدرسية فى صيف سنة ١٩٠٣ أو التى بعدها بمدينة طنطا ونقلت نشاط جمعيتنا الى المدينة ووقعت على القرعة أن ألقى المحاضرة الأولى عن أبى العلاء المعرى وليوتولستوى والمقارنة بينهما ، وكان تولستوى لا يزال على قيد الحياة . فالقيتها فى ليلة من ليالى الصيف سنة ١٩٠٤ فى حديقة عامة ، ويظهر انه فلتت منى كلمة تقرب هؤلاء المفكرين المتزهدين الواهبين أموالهم وأعمارهم للانسانية من درجات النبوة أو الرسالة الربانية ، فهاج الناس وماجوا وترامت الشائعات وتحركت الأضـــغان والأحقـــاد لغير سبب ·

وفى الاجتماع الثانى للجمعية رشقنا بعض السفهاء بالحجارة وتظاهروا مظاهرة كبيرة ، وكتب بعض الجهـــلاء ومنهم المرحـــوم فؤاد سليم أحد زملائنا وابن احد الأعيان فى كفر كلا الباب فى بعض الصحف اليومية يصفون عملنـــا بالالحاد والكفر ، وكتبت جريدة يومية شهيرة مقالا افتتاحيا بعنوان « ظهور ملحد جديد » استعدى كاتبها علينا الحكومة ورجـــال الدين وطلـــب من المدير والنيابة تحقيق هذه الحادثة ، وطلب من المدير منع هذه الاجتماعات ومحاربة الكفر والفتنة ·· الخ ، فنصح لى بعض أصدقائى بالفرار

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعـة بيوسف كرم ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ – ١٨٣ ، عالم الكتاب . سنة ١٩٩١ ·

من طنطا خشية الانتقام ، فعدت الى القاهرة مندهشـــا من هذه الحوادث ٠

وقد حدثت أشياء طريفة فتحت عينى لأول مرة للنفاق ، فقد كان فؤاد سليم من أعز أصدقائنا ، ولكنه كان أول زاعق فى وجهنا من وراء ستار ، فهو الذى كتب الى الصحف والموعز الى بعض رجال الدين وأذناب الحكومة بالتحرش بنا ، وكان يلقانا قبل ذلك وبعده ضاحك السن هاشا باشا فلما سألنـــاه عمن وشى هذه الوشايه أنكر كل شيء ، وكان الذى حرض الصبيان على رشقنا بالحجارة من أصحابنا وممن يظهرون الود وقد كشفتهم لنا ألسنتهم ٠

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قاطعنى لفيف من الأصدقاء الذين لا دخل لهم فى الفلسفة والعلم ، بل كانوا يجلسون معنا فى مقهى على شاطيء النهر ، وعللوا مقاطعتهم باختلافنـــا فى الدين (كذا !!) ، وكان بعضهم ممن يشربون الخمر ولا يقيمون صـــلاة ولا يتورعون ، ولكنهم يســـتبيحون المحـــارم فعلا ولا يطيقون أن يسمعوا رأيا لايفهمونه ويكفرون صاحبة تقربا الى الله ، فكانت صورة عجيبة ٠

وقد أصـــيب يوســـف كرم بمرض بسبب هذا الحادث ، عندما انقطع ظننت أنه هو الآخر مقاطع ، فلما ابل أخبرنى انه مرض متأثرا بموجة التعصب الذى ظهر ، ولم أكن سمعت باسم التعصب ولا أفهمه فقال لى : ان أساتذة الفرير يعلمونهم أن الشرق كله متعصب ، وأن هذا التعصب يمتد الى أحرار الفكر ، وقال لى ألا ترى ماذا أصاب قاسم امين بعد كتابيه « تحرير المرأة والمرأة الجديدة ؟» ٠ فقلت له ان الذين نقدوا رأيه انما أرادوا مناقشته للوصـــول الى الحقيقة ٠ فقال لى : هذا هو التعصب بعينه ، اذ لو كانوا يريدون مناقشته لبحثوا فى فكرته لا فى عقيدته ولحصروا ردودهم فى نقده لا فى تكفيره ٠

وكان يوسف من أنور تلاميذ الفرير وكان هو من أشد الناس تعصبا لعقيدته .

أما أساتذتى بالمدرسة الخديوية ، فكانوا مزيجا من المصريين أفنـدية ومشايخ ، والانجليز والفرنسويين ، وفى مقدمة الأوائل المرحوم ادوار فانديك نجل المرحـوم كرنيليوس فانديك ، وكان يعلمنا الترجمة والعروض ويستشهد بشعر ابن الفارض ، وطالما خطا فى الفرقة خطوات موزونة على الروى الشعرى ناشـدا موقعـا « كرة ضربت بصوالجة ، فتلقفها رجل رجل » . وطالما حدثنا عن حياة والده ومؤلفاته ، وقد سلمنا الى الأستاذ على فوزى خريج كلية بوردو وكان خير أستاذ للترجمة لأنه أتقن سبع لغات وكان مثال الجد والاجتهاد والتدقيق .

ومن هؤلاء الأساتذة الشيخ طنطاوى جوهرى ، وقد بدأ من ذلك العهد البعيد بتفسير القرآن على مبدأ النظر فى خلق السموات والأرض وتطبيق العلم على العمـل والتوفيق بين الدين والمعارف الحديثة ، وكان فى شجار دائم مع المفتشين لأنه لم يعط النحـو والصرف والمبنى للمجهول والممنوع من الصرف من العناية ما أعطى للفلسفة والأدب والشعر القديم والحديث ومؤلفات الغزالى .

ولا أنسى عبد المجيـد رضـا وعبد الجواد عبد المتعـال وعبد العزيز خليل ومحمود على وأحمد سالم وفوستر سميث ، وكل هؤلاء كانوا أساتذة لى فى المدارس ، ولكن توثقت بينى وبينهـم صداقة قوية ولكل منهم على فضل افادة وارشاد وعناية ، وسببها من ناحيتى اعجاب بعلمهم وأخلاقهم ، وسببها من ناحيتهـم أنهـم أسرفوا فى حسن الظن بى وحسـبوا أنى أبلغ شـأوا فى الحيـاة ، فأرادوا باخلاص ومكرمة أن تكون لهـم عندى يـد ، فلهم الشكر منى جميعا .

* * *

صـــداقات الشباب

الحمد لله على أن الخير لم ينقطع من الدنيا ومظاهر الخير كثيرة وكلها نعم ، ومن تلك النعم توثق الصداقات بين الرجال ، والصداقة المتينة لون من الحب القوى الشريف المنزه عن الغرض ٠

وقد من الله على بالصـــداقة فى كل أطوار حيـــاتى ، فمن أصدقائى الذين لا أنساهم والذين لم يطرأ على علاقتى بهم ما يعكر صفاء المودة المرحوم الشيخ محمد عبده والمرحومون مصطفى كامل ومحمد فريد والدكتور عثمان غالب والمستر ويلفريد سكوين بلنت(١) **وادوارد لامبير (٢) وعبد المحسن الكاظمى وأحمـــد شـوقى (٣)** ومحمد حافظ ابراهيم «وجورجى زيدان(٤) **وفرح أنطون ومحمد كرد على وعبد العزيز الثعالبى وابراهيم رمزى وأمين الريحانى (٥) ، هؤلاء عرفتهم جميعا وتوثقت عـرى المودة بينهم وبينى فى أوقات متقاربة بين سنة ١٩٠٠ ، سنة ١٩٠٥ ، وقد دامت تلك الصداقة الى أن وافاهم الأجل ٠**

وكانت أسباب تلك المودة من ناحيتى الاعجاب بهم وتوافق الأمزجة وتفوقهم فى المواهب بالنسبة لى ، فكنت مع معظمهم بمثابة التلميذ للأستاذ ٠

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالمستر ويلفريد سكوين بلنت وادوار لامبير وأحمد شوقى وجورجى زيدان وأمين الريحانى ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » المرجع السابق ، ص ٥٢ ـ ٧٨ ، ص ٢٥٦ ـ ٢٦١ ، ص ٨٨ ـ ٩٣ ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٧ على التوالى ٠

وكان لى أثناء دراستى الأولى صداقات الشباب التى بقيت مخلصا لها طوال حياتى ولم يخطىء ظنى ولم يخب أملى فى واحد من رفقاء الصبا الذين أحببتهم ومنهم يوسف كرم أستاذ الفلسفة بجامعة الاسكندرية وابراهيم رمزى ومحمد المنجورى وحنا حلاج المصور من مدينة صور بسوريا وعبد الرحمن الطوير واسماعيل كامل الحكيم وأحمد مختار بخيت وطاهر محمد ومحمد عثمان الفندى، وكانت عصبة للخير لم أذكر أسماء جميع أفرادها أمثال الدكتور عبد العزيز اسماعيل وأحمد حسنين وعبد الحميد سليمان وسالم هنداوى ، كنا نجتمع على الدرس والبحث وأحيانا على التندر والسماع فى أوقات الفراغ يطربنا حسين انور وحسن على وقد صار فيما بعد من كبار الموسيقيين وأحيانا ابراهيم رمزى وقد وهب حياته للفنون ومنهم محمود السبع وقد شغفه التاريخ حبا وعلى فؤاد طلبة وكنا نتبارى فى آداب اللغة الانجليزية كتابة وخطابة وبعض أخوة وهبى ، محمود وهبى واسماعيل وهبى •

وهذه الصداقات أقواها وأمتنها وأدومها على الدهر تبدأ عند تفتح الحياة وتنمو بنمو الشباب وازدهار المواهب ، وكل حوادثها تثبت فى النفس وتنطبع فى الروح وتستقر فى الذاكرة ، فلا يعتورها نسيان ولا يزعزعها شىء من عواصف الحياة ، ومجرد التفكير فيها على الكبر وعلى تغيير ظروف الحياة لذة وحنين يسبغ عليهما الزمن ثوبا من الجمال واحساسا بالدفء يتجدد فى كل حين ، ولكن الحياة الاجتماعية فى مصر ممقوتة ، تفرق بيننا وتحرمنا دوام الاتصال فتذهب هذه الصداقات سدى ! •

ومصر وحدها هى التى يقال فيها للاعتذار بين الأحباب الذين لا يلتقون « الدنيا تلاهى » ، ما أقبحها كلمة ! وما أضعفها عذرا !

قلت لم يخب أملى فى واحد من أصدقائى ولكن خاب أملى فى الصداقة نفسها ، كنت أحسب أن هذه مقدمة لصداقة الرجولة

والكهولة ، دع عنك الشيخوخة ، فاذا بصداقة اليفوع هي وحدها التي نمت وازدهرت ثم انتهت وصارت ذكرى وكان المأمول والمرجو ان تكون أساسا لصداقة تتلوها وتقويها وتنميها وتسقيها وتتعهدها تعهد البستاني للزرع .

وأسباب هذا الفتور الطارىء على الصداقات في مصر ضعف الحياة الاجتماعية وتفكك الروابط وانصراف كل لنفعه الخاص وضعف روح الألفة ، لم تكن صداقتنا صداقة أخلاق ومبادىء ومقاصد ، بل كانت صداقة شباب وفتوة وميول متشابهة عندما مسها اختلاف الوسائل عصف بها الزمن !

وما أوفر الزمن وما أكثر الفراغ في مصر ، وانه لا يبخل علينا اذا أنفقنا بعضه في تنمية هذه الصداقة والانتفاع بها . ألست ترى الى صداقات تدوم العمر كله عند الافرنج وهي خلو من كل غرض ويكفي لحياتها تشابه المواهب والأمزجة ؟ ، ومن العجيب أن المصالح والمظالم تجمع في بلدنا هذا وفي زماننا هذا بين الرجال جمعا لا يقوى على تفريقه مفرق مهما بذل !

ان صحبة تنشأ حول مائدة طعام وشراب وقمار تدوم الف مرة أكثر من صحبة شباب وعلم وأدب وتقوى تدعمها قرابة او مصاهرة !

عندما غدر بنا الزمن أنا ولفيف من اخواني ورسبنا في الامتحان الثانوي وانقطعت بنا أسباب الحياة واشتغلنا بطلب الرزق ودخلنا صفوف المهزومين ، واتصل اخواننا بطلب العلم في المدارس العليا في أوائل هذا القرن ، نصح الى أستاذي وصديقي علي فوزي ورفيق صباي محمد النجار القاضي وابن الأديب الشاعر أن احاول الفوز في الامتحان ، وكنت اذ ذاك مترفا منعما معرضا عن العود الى العلوم الثانوية التي احتقرتها وازدريتها ، وكنت أربح من عمل

فى الصحافه بجريدة الظــاهر واللواء أضــعاف أرباح الموظفين ، فصح عزمى على تحقيق أمنية صديقى وبعض أقاربى وذلك فى أواخر الربيع وقبيل الامتحان النهائى بأسابيع تعد على الاصابع • فاتجه فكرى اول ما اتجه نحو أصدقائى الذين خانهم الزمن وقبلوا وظائف لا يزيد مرتبها على قروش أربعمائه فى وزارة المعارف لعهد دنلوب وعصبته من السكرتيريين والتراجمة ، وكان أصحابى ورفاق صباى يعانون شظف العيش فى تلك الوزارة الذميمة فى ذلك العهد ، وكان بعضهم قد تزوج ورزق أولادا وقنع بدون القليل من الرزق وانصرف عن التعليم والتعلم • فقصدت اليهم فردا فردا وفاتحتهم فى غايتى أن ينضموا الى ، وكان بينهم نوابغ فى الرياضيات واللغات ، فرحب بعضهم بالفكرة وأعرب كثير عن يأسه وهزأ البعض بالمشروع ، فما زلت بهم حتى جمعت شملهم فى غرفة من مدرسة مهجورة وجعلنا منها مدرسة ليلية ، وجمعنا أساتذة فى كل فن وبذلنا المال القليل فى المقاعد والمصابيح والنظافه واعداد الكتب ، واخفيت الأمر عن كل اصدقائى المستجدين الذين يعرفون مظهرى وأبهتى ويسارى ومجالس السمر واللهو ، ودبت بينى وبين أصدقائى الأقدمين محبة جديدة ، بل قل بعثت صداقتنا القديمـــة من مرقدها وتحمســوا لفكرتى •

كنا نبدأ العمل من السادسة مساء الى نصف الليل ، واذا عدت الى منزلى بشارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة ، واصلت الدرس حتى الثالثة ونمت غرارا الى الخامسة وواصلت العمل من الخامسة الى الثامنـــة فى بيتى ، ثم اتجهت الى عملى فى جريدتى اللواء العربى والانجليزى حتى الأولى بعد الظهر ، ومن الأولى الى السادسة كنت أخرج تائها فى شوارع القاهرة خلال أشهر ابريل ومايو ويونيو أطلب درسا خاصا فى اللغة الفرنسية بشبرا وآخر فى الرياضة فى مقهى ثم الرجوع الى دار الكتب لأجـــل التــاريخ والأدب العربى •

كانت تعرونا فترات يأس كلما دنا موعد الامتحان وهالتنا كثرة المواد ، ولكن لم يتخلف أحد وتقدمنا للامتحان صفا واحدا كالمجاهدين فى معركة حاسمة ولكن الله جبر كسر قلوبنا وكافأنا على اجتهادنا ونجحنا جميعا وفاز أحدنا بأعلى الدرجات وكان ترتيبه الخامس مع الآنسة نبوية موسى ونحن الذين نوصف بأننا تقدمنا « من منازلنا » وهم أخيب الطلاب فى نظر الممتحنين .

وفى اعتقادى أن الفضل فى هذا النجاح راجع الى فضل الله علينا ثم الى محبتنا واتحادنا وثقتنا وخشية الفشل الذى يكون قاضيا على آمالنا ، وهذه ثمرة من ثمار الصداقة والوفاء ، وقفز أحدنا من مرتب القروش الى عمادة كلية الطب وكانت مدرسة [illegible] فى عهد الدكتور كيتنج ، وكذلك وثب غيره وتغيرت حياته الى أفضل وأوسع وأرحب بسبب الحب والصداقة والاتحاد وحصر الهمة فى هدف واحد ، وكان بيننا طالب فشل قبل ذلك فى امتحان « البكالوريا » تسع سنوات ونالها معنا فى العاشرة !

ومما لاحظته فى الصداقة أنك لا تستطيع أن تجمع صديقين على كتاب أو حوار علمى او نقاش أدبى لسرعة الملل وضيق الصدر ان لم يكن المجلس للسمر وتبادل النكات وذكر الموائد والنساء . وقد صار بعد ذلك فى الدرجات والعلاوات والموظفين المنسيين وانصاف المستخدمين وشكوى الغلاء والكادر القديم والجديد والمؤهلات والرسوب الوظيفى الى آخره !!

ولكن حدث مرة أن طلبت الى أستاذى على فوزى أن يقرأ معى جمهورية افلاطون بعد الافطار فى رمضان ، فكنا نلتقى قبيل الغروب فى دكان لبيع الألبان « لهنرى دى براميد » ، فقرأنا الجمهورية بالانجليزية وبعض كتب توماس كارليل ، وكان هذا أول عهد بالاشتغال بفلسفة افلاطون ، فبدأت أترجم « المأدبة » (١) .

(١) نشرت « مائدة افلاطون » » عن مكتبة التأليف سنة ١٩٢٠ .

كذلك قرأت مع أستاذى ادوارد فانديك كتابا فى المنطق ودرست على فريق من أصدقائى منهم فؤاد سليم ومنصور فهمى (صار باشا) كتاب النقش فى الحجر ، فقرأنا فى الفلك والمنطق وسائر أجزاء الكتاب وهى سبعة من تأليف كرنيليوس فانديك ، ولكن سرعان ما ملوا ما عدا منصور فانه كان محبا للدرس ٠

ومن أحفظ هؤلاء الشباب للود من صداقات الشباب على فؤاد طلبه ابن أحد ثوار عرابى وأظن أن والدته كانت من سيلان لأنه كان يجيد العربية بقدر اجادته الانجليزية ، وهكذا جعل الانجليز من أبناء ثوارنا أبواقا للغتهم كما فعلوا بالدكتور عبد المجيد محمود الذى كان والده من أعظم رجال الحرب والمدفعية والتاريخ وهو المرحوم محمود فهمى باشا ، فعاد الابن الى مصر طبيبا يجرر أذيال زوجة انجليزية !!

لقد عرضت لهذه الصداقات التى صادفتنى فى مقتبل العمر — على قصر أعمارها وخلوها من روح البقاء والاستقرار وفراغها من المعانى التى كنت أتلمسها وأبحث عنها — لسببين :

الأول : أنها حدثت فى الشباب ، والشباب أجمل أوقات الحياة وأعمرها بالعواطف الجياشة والمشاعر المتوثبة وأملؤها بالآمال والطموحات على الرغم مما فيه من كفاح ونضال ومرارة ، ولذا كانت ذكريات الشباب أعز وأغلى الذكريات عند الرجل لأن الحياة كانت مصحوبة أثناءها بالقوة والفتوة والصحة التامة وخلو النفس من الهموم ومرارة الخبرة وامتلاؤها بالآمال فى المستقبل الذى يبدو باسما متفائلا مستبشرا ومبشرا ، فتصبغ الأعمال والأقوال بصبغة الورود والبهجة والتفاؤل ، فاذا صارت تلك الأعمال والأقوال ذكريات لازمتها هذه الألوان الزاهية وأسبغت عليها أثوابا من الجمال الذى قد يكون معظمه من نسيج الخيال ٠ فان

الانسان لا يعرف طعم الحياه ويقدر على وزنها الا فى كهولته واكتمال رجولته ولا يصدر عليها حكما الا عنـــد اشرافه على مغادرتهـــا ومفارقتها .

أما سبب خيبه آمال بعض الرجـال فى الصـــداقات التى يرتبط بها فى تلك السن من الخامسة عشرة الى الثلاثين ــ وهذه هى فترة الشباب الحقيقيه فى نظرى ــ فهو انعدام الحب بتاتا من قلوب الأصدقاء ، وهذا راجع الى سببين ، الأول عجز بعض النفوس عن المحبة شعورا وتبادلا لأن المحبة موهبة الهية ، فمن خلت نفسه من تلك الموهبة فلا يلام ولا يعتب ولا يبغض لأن الذنب ليس ذنبه بل الخطأ والنقص فى تكوينه ، وان حبك اياه لا يحـــرك شـــيئا لا وجود له عنده وأنت لا تسمع من فى القبور .

والسبب الثانى هو النفاق السائد فى المجتمع الانســـانى وبصفة أظهر وأوضح وأفجع وأفضح فى المجتمع المصرى .

فان الناس يظهرون لك الود فتصدقهم وتسرف فى الاخلاص لهم وفى حسن الظن بهم وهم لا يشعرون بك ، فان كان حظـــك حسنا لم تحوجك الحياة لامتحانهم والاطلاع على حقيقة قلوبهم ، وان كان غير ذلك فهم يتكشفون لك عند أول فرصة .

وهذا النفاق قد تغلغل فى النفس واستولى عليها وتصرف فيها وخلع على الوجوه أقنعة يخفون وراءها معالمها .

وقد أخذت أسائل نفسى عن هذه الحال ، فظننت ــ وما أزال أظن ــ أن النفاق قد يكون فطرة مثل الاخلاص فى القوة ، وقد يكون وراثة أو قدوة ، وقد يكون لمصلحة ملحة كالفقر والجهـــل ، ولكن المنافق فيهما ضعيف لأن عذره قوى ، ولكن الذى يغيظك هو النفاق الفطرى أو الذى لا تدفع اليه حاجة .

ان النفاق للأسف داء مزمن فى الشرق عامة وفى مصر خاصة ، ومن مصادره المهمه الفراغ وطول الوقت و كثرة الكلام وخلو النفس مما يشغلها من مهام الأمور ، فلا يجد المنافقون الا الكلام فى الباطل ويتأثرون به روايه منهم وسماعا من غيرهم ، فيدب الايحاء فى أنفسهم بان الباطل حق ويشعرون بالحاجه الى اخفاء الحق فيتخذون صورا جديدة فى الوجوه والحركات والسكنات والبسمات ثم تسرى عدوى الحالة التنكريه على جميع شئونهم .

قد لا أكون واضحا فى هذا القول بالقدر الذى أريده مع اننى أحب أن أجلى الحقيقة جلاء تاما .

ان مصادر النفاق متعددة ، أهمها الخوف من الأخطار الراهنة والمقبلة ، والخوف من الظالم ، والخوف على الحياة ، والخوف على الرزق ، والخوف من فقد الصديق أو الزوج ، والخوف على فرص المستقبل التى قد تعرض للمنافق فيحتاج الى معونة من يريد أن يصـــارحه ، الخوف المادى والمعنوى ، الخوف على المصلحة ، عـــدم الايمان بالله وعدم الثقة بالنفس ، الاقتناع التام ـ بحسب البيئة ـ ان الحق وحـــده لا ينفع صـــاحبه وأن الحق ينفر الناس منك ويبغضك اليهم .

ان الحياة سياسة والسياسة صنعة ومداهنة وحيلة وخديعة ، فان كنت مخلصـــا واتخذت الحيلة وســـيلة للخير ، لخير الطرف الآخر وحده فلا تثريب ، أما اذا خذت الحيلة لجلب الخير لك وحدك فتنقلب الحيلة نفاقا وشرا .

وقد وقر فى نفوس الناس أن الصراحة تضر صاحبها ، وفى هذا صدق وصحة نظر ، لأن مجابهة الناس بما يسوؤهم محرم لأنه ينطوى على أذى ، ولكن اذا كان فى تلك المجابهة ما ينفع الطرف

الاخر ، فالاعراض عنها دب ، سواء أكان حبيبا لك أو غريبا عنك . وهنا في مصر من يمسى ان تنصحه عدوا لك وان أظهر لك التسدر أو الود فهو ينافق ، ان ولدك أقرب الناس اليك ينفر منك اذا نصحته ، فما بالك بالغريب ؟!

فتصور تراكم هذه الأسباب فى الطبيعة البشرية وفى الحياة الاجتماعية وفى عهود الأحكام الظالمة منذ فجر التاريخ الى الأن ! ، ولكن هذه كلها لا تقوم أعذارا للنفاق فى نظرى ولا يمكن استنباط مبررات أو مسوغات له، لاننى عرفت رجالا صريحين صادقين نصحونى وهم لا يضمرون لى حبا فأحببتهم ، وعرفت المجتمع الأوربى فى أحسن أوقاته وهى أوائل القرن العشرين الى بداية الحرب العالمية الأولى ، فلم أجد عشر معشار النفاق الذى لمسته فى مصر فى يوم واحد وفى مكان واحد . وبالطبع لا يمكن المقارنة أو الموازنة بين أوربا ومصر ، فان فى أوربا تكوينا آخر وأخلاقا أخرى وتاريخا آخر ونزعات للفضائل أولاها الحرية والكرامة الذاتية ، وهذه الأمة المصرية بجميع عناصرها محرومة منها .

أنا لا أصف علاجا ولا أشخص داء ولا أدعى علما ولا أنعى رذيلة على أحد ، ولكننى أقرر الواقع الذى لمسته فى مجال واحد من مجالات الحياة وهو مجال الصداقة . وأعزو هذا الواقع لأسباب كثيرة قد لا تحصى ، منها الغيرة والحسد والعجز والطمع وطموح من لا كفاية عنده ، وانتشار الغيبة والنميمة واعتبارهما صفات جائزة مباحة ، وتدهور المعتقدات الدينية وانهيار صرح الأخلاق وانتشار المفاسد والمظالم وعبادة المال والمناصب وتفكك روابط الأسرة واشتعال الحروب فى العالم .

يؤلمنى أن يعرض لى موضوع النفاق عند الكلام على الصداقة ولا سيما الصداقة فى الشباب ، ويحز فى نفسى أن يقودنى قلبى الى

هذا الحزن والأسى وكنت فى أول القصد أريد أن أجعل كتابتى عن أصدقائى كالغدير الصافى والبستان المزهر والصباح الضاحى والوجه الجميل الضاحك فما حيلتى ؟

ان فى قلبى صورا كثيرة لوجوه باشة وقلوب نقية ولا سيما بين أصحاب الصبا عندما كنا نجتمع فى فناء المدرسة ونتصافح ، ونضحك ملء أفواهنا بقلوب لا تحمل هما ونفوس لا تعرف حسدا ولا غيرة ولا رغبـة فى منافسـة ، ولا تعرف نميمة ولا غيبـة ولا دسيسة ، ولا ننظر للفوارق بيننـا فى المكـانة الاجتماعية ، ولا نحقد على غنى أو ابن كبير ولو كان ناظر النظار •

تلك كانت أياما جميلة • نعم لقد تنكرت لنا بعض الوجوه وتعالت وصعرت خدودها وشمخت بأنوفها لا عن جدارة ولا عن خلق كريم ولا مجد أثيل ولا عن عظمة حقيقية ، ولكن لمجرد مال ورثوه أو لقب يتباهون به وليس لهم ولم ينله آباؤهم عن شرف أو اجتهاد ، ولكننا أثناء الدرس لم نكن نفكر فى هذا ولا فيما قد يحدث فى المستقبل •• كل هذا كان جميلا وعذبا ويشعرنا شعورا باطنا بأننا الآن نعيش عيشة راضية تبقى ذكراها فى أنفسنا الى الأبد وأننا سوف نفتقدها يوما فلا نجدها وأننا سوف نأسف عليها •

لم نكن ندخن ولا نشرب الخمر خلسة ، ناهيك عن الحشيش والأفيون والسموم البيضـاء والسوداء ، ولا نذهب الى السينما لأنها لم تخلق ولا الى المسارح ولا نجلس فى مقهى ولا نقرأ كتبا خليعة ماجنة ، ولا نتندر بأحاديث جنسية ولا نسيء الظن ولا نكتب مكاتيب حب لمعشوقة معلومة أو مجهولة ولا نخدع آباءنا وأهلنـا ولا نكذب عليهم ولا نخفى حياتنا ولا نكذب على بعضنا بعضـا ولا ننافق ولا نوارى ولا نمارى •• لم نكن ملائكة بل كنـا فتيانا أطهارا لا نعرف الا البيت والمدرسـة والفكاهة البريئة ونعرف الكرامة ونحافظ عليها ونعرف الرجولة ونعتز بها •

وقد اكتشفت بعد ذلك أن هذه الفترة بعينها كانت فترة عهد الانحلال في الاخلاق والادب في آوربا ولا سيما في الجزر البريطانيه، وكشفت أن هذا العهد نفسه هو عهد « أوسكار وايلد » وتهتك الأدباء في الأدب شعرا ونثرا ، فانظر كيف أن انجلترا وألمانيـــا حاولتا التخلص من عيوب الأخلاق ونحن الذين كنا أطهارا تدنسنا وانحلت أخلاقنا وتدهورت قيمنا فامسينا في نصف القرن العشرين نشبههم في أوله لأنهم حكموا واحتلوا وأفسدوا من أخلاقنا ما كان صـــالحا ٠

وليس معنى هذا أن نفوسنا لم تكن تشعر بالجمال والفن ٠ نعم كنا نشعر بهما عن طريق الحديث والكتب والادب ولا نعرف الدنس ، وكان الفساد مستشريا في الحيـــاة السياســية ونهض مصطفى كامل وشرع يتكلم في الوطنية ويحرك عواطفنا في جريدة اللواء ، وكنا ننظر الى مشايخنا ووزرائنا على أنهم كبار وأهل وقار وعقل وأنهم سيصلحون الفاسد ، فلنترك لهـــم هذه الأمــور حتى نتم تعليمنا ٠

لم نعرف الأحزاب ولا الرشوة ولا المشايعة للزعماء ولا الأحقاد والضغائن ، ولم نعرف العداوات ولا كراهية الأساتذة ، ولكن كنا نشعر أن في وجود الخوجات الانجليز شذوذا لم نفهم مداه ولا سببه لحداثة سننا ، وكنا نحمل لبعضهم بغضا دفينا لا لأشخاصهم ولكن لعنجهيتهم وصلفهم وكبريائهم ونفختهم الكذابة ، وقد اضطهدناهم وعاكسناهم قليلا شعورا منا بأنهم أعداء يدعون السيادة ويريدون اذلالنا ، ولكن كان لبعضنا منهم أصدقاء مخلصون ، وهم الذين تتقارب سنوات أعمارهم بنا وبعض الكبار الذين كان لهم آبناء في عمر كعمرنا ٠

* * *

(١١)

العمل بمهنة التدريس

والصحافة

أسلمتنى الحياة المدرسية الثانوية بالمدرسة الخديوية لا الى مدرسة عليا تبقية رفاقى ، بل الى الجهاد فى الحياة ، فأول ما وقعت وقعت فى مدرسة المعلمين فى درب الجماميز حيث تلقيت فنونا فى التربية وآداب اللغة الانجليزية واجتمعت بشبان شبه ناضجين وتوطدت بيننا صداقة قوية ، وقد نجحوا جميعا وصاروا أساتذة ونظار مدارس ثانوية وبلغ بعضهم قمة الوظائف التعليمية ، ولكن الكثرة الغالبية منهم كان يشوبها خنوع وأظن مرجعه الى الحاجة الى الوظيفة والشعور بأن أمرهم أصبح فى يد الخوجات الانجليز أمثال سوانسون وسميث وهاوتون وآخر درجات السلم دوجلاس دنلوب غريق الغرور والاستبداد معبود عائلات المغاربة والمراكشيين الذين احتشدوا فى ديوانه اخوة وأبناء عمومة وأصهارا وتهتكوا فى عبادته والاخلاص له ولو بالتجسس على بعضهم بعضا وعلى غيرهم وكانوا أساتذة وتراجمة ٠

فلما نلت اجازة مدرسة المعلمين قصدت صباح يوم من شهر اكتوبر سنة ١٩٠٤ الى مدرسة القربية الابتدائية ومعى خطاب التعيين لأشغل وظيفة مدرس اللغة الانجليزية والترجمة والأشياء والخط الافرنجى والجغرافيا (!!) مقابل أربعة جنيهات أتقاضاها مشاهرة من نظارة المعارف العمومية ٠

فلما دخلت المدرسة ، تقدمت الى ناظرها فى غرفته وكان رجلا فى الخمسين من عمره تبدو من كلامه طيبة القلب وسلامة النية

والاعتقاد بأن العمل الموكول اليه وهو ادارة مدرسة ابتدائية فيها نحو خمسمائة تلميذ أمر بسيط هين التدبير للغاية ، فلما لقيته ، قابلني ببشاشة ولطف ورحب بى على عادته مع كل قادم وفهمت من سياق حديثه أنه من متخرجي الأزهر الشريف وقد وضع العمامه وخلع الجبة فيمن وضعوا العمائم وخلعوا الجبب وحلقوا اللحى فى العهد الحديث ليظهروا أمام السادة الجدد بمظهر القابلين للاصلاح والسائرين مع المدنية الحديثة قدما بقدم ! ، وقال لى انه سمع عنى ثناء تبين أنه في محله وأنه يود أن أجد فى المدرســـة مجالا لعملى ونشاطى ثم افترقنا ٠

قصدت الى غرفة الأساتذة المدرسين فاذا هى أسوأ وأردأ قاعة في البناء ، دخلت فلفت دخولى نظر الجالسين اذ كنت لا أزال في مقتبل صباى لا أزيد عن ثمانية عشر عاما ، نحيفا حـاد النظر متأنقا فى ثيابى على قدر ما تسمح لى وســـائلى المادية ، وكان فى حركاتى وكلامى ما يدل على النزق والكبرياء ، ولم أكن فى الواقع نزقا ولا متكبرا ، ولكنى كنت خجولا متهيبا ومخدوعا بالمثل الأعلى فى كل شيء ٠

دخلت غرفة الأساتذة المدرسين فاذا بى فى حضرة مجمع علمى صــغير حـــوى كل صنف من أصـناف المعلمين أو « الخوجات » كما كانوا يسمون فى ذلك العهد فى المدارس المصرية ، كان معظمهم أساتذة ضرورة قضت عليهم الظروف بممارســـة مهنـــة التعليم فمارسوها مرغمين مضطرين غير حاسبين لعملهم حسابا وهم عاجزون حتما عن تقدير مسئوليتهم نحو « النظارة » التى عينتهم والأمة التى وكلت اليهم أمر تهذيب الشباب والأطفال الصغار الذين ألقت بهم حوادث الأقدار بين أيدى هذه الفئة التى يقال فى أحسنهم قصدا وأكثرهم علما انه انما يمارس عمله هذا لأنه لم يجد عملا آخر !

لذلك كانوا جميعا ناقمين غاضبين ساخطين تبدو عليهم علامات التعب والضجر ولم أجد بينهم واحدا يقبل على عمله بسرور وغبطة ، ولم أجد أستاذا منهم يطيل الوقوف معى أو يستقبلنى ببشاشة تسهل على عملى أو يقبل على شارحا ومفسرا بعض ما يحتاج المدرس المبتدىء الى شرحه وتفسيره .

صعدت الى الفصل فكانت دهشة التلاميذ لرؤيتى عظيمة اذ كنت أقل عن كبارهم فى السن والطول ، وامتاز عليهم بحسن الهيأة ، وكان التلاميذ على استعداد تام لافساد النظام واحداث الجلبة والضوضاء وابتداع الحيل المعروفة فى وسط المدارس المصرية ، لولا أن رأوا منى شيئا من المعرفة بأصول التعليم ومقدارا وافرا من البشاشة وحسن المعاملة واكتراثا عظيما بأداء الواجب ، وكنت أمنى نفسى بالفوز لأول مرة فى هذه الفرقة فأفوز فى بقية الفرق وقد حدث هذا بالفعل ، فلم تنته الحصة الأولى حتى انتشر فى المدرسة أن « الخوجة » الجديد قادر عمله ، لطيف العشرة ، سريع الادراك وأنه متنبه جدا الى حسن النظام فى العمل .

وهكذا قضيت بقية يومى فى القاء دروسى بهمة وسرور وأفرغت قصارى جهدى فى اكتساب ثقة التلاميذ . **ما أجمل وأعظم هذه الصناعة فى نظر من يحبها ويدرك حقيقتها ويسعى فى تفهم حقيقة عقل الطفل ، وما أفسح مجال العمل للرجل الكفء المخلوق بفطرته لأداء واجب التعليم اذا أقبل على تلك النفوس الطفلية يهذبها ويعلمها ويقوم اعوجاجها وهى فى طور القبول لكل الصور !**

ولكن ما أغرب حوادث الدهر التى قضت على مصر بوصول التعليم فى مدارسها ومعاهدها الى هذه الحالة التى لا يمكن وصفها ، ووضعت فى مصاف المعلمين أشخاصا لا يحبون الأطفال ولا يفهمون عقليتهم ولا يحبون صناعتهم اللذيذة الشريفة !

وفى هذه المدرســـة فهمت للأســـف أن المدارس الأميريه بكل مافيها من ترتيب محكم وادارة حسنة وبرامج ومناهج قائمـــة على قاعـــدة واحدة تنحصر فى الاجابة عن هذا السؤال : ما هى الوسيلة المثلى التى يستطيع بها ناظر المدرسة ومن معه من الأساتذة والضباط أن يحفظوا نظام المدرسة حفظا ظاهريا بدون أن يتعبوا أو ينزعجوا أو يصل اليهم أى ايلام أو توبيخ من الرؤساء ؟ وما هى أقل كمية من العمل يمكن بذلها للحصول على أكبر مقدار من التنظيم الظاهر ؟

وما عدا هذا من تهذيب التلاميذ وترقية نفوسهم وتوسيع مداركهم وتجميل الحياة فى نظرهم والبحث فى تحسين شـــئونهم وسلوكهم فى بيوتهم وتربيتهم بصفتهم رجال المستقبل أو أعضاء عاملين فى المجتمع المصرى ، كل هذا بعيد عن خاطرهم ٠

وقد خطر ببالى احداث عدة أمور فى المدرسة ، منها تكوين مكتبة للتلاميذ فيها كتب مختلفة وبعض الجرائد والمجلات ليتعودوا المطالعة الحرة فى أوقات الفراغ ، ومنها أيضا تأليف جمعيات من التلاميذ ليتعودوا الاجتماعات النافعة والخروج لزيارة الآثار والتنزه جماعات فى الجهات الخلوية ٠

وقد اخترت من تلاميذى أصدقاء واستبقيت صداقتهم ومنهم عبد الرحمن عزام وعبد القوى احمد وعبد الرحمن الساوى ، وعرفت أولاد ادريس راغب وأولاد عمر لطفى (١) وصادقتهـــم وعلمتهـــم

---

(١) كان عمر لطفى بك (١٨٦٧ ـ ١٩١١) مدرسا بمدرسة الحقوق الخديوية فوكيلا لها ، ثم تولى رئاسة نادى المدارس العليا فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥ وكان من خاصة أصدقاء مصطفى كامل ويعتبر رائد الحركة التعـاونية التى ظهرت فى مصر سنة ١٩٠٨ ، وله جملة مؤلفات فى القانون والامتيازات الأجنبية =

وأحببتهم وجمعتني الحياة ببعضهم بعد ذلك بأعوام فى أوربا ومصر ، وتكشف بعضهم عن مواهب باهرة وعن اخلاص ووفاء وحب صحيح ، وفى مقدمتهم الأستاذ عبد الرحمن الساوى عميد كليه الهندسه الى آخر سنة ١٩٤٦ وهو نموذج الرجل الكامل والصديق الوفى يكثر من ذكر عهد دراسته مع أن عشرتنا وعلاقتنا المدرسية لم تطل أكثر من سنة ، ولكنه لا ينساها وقد حباه الله جميع الفضائل من شهامة واخلاص ، وشاءت الأقدار السعيدة أن يدخل أحد أولادى ـ يحيى لطفى ـ كلية الهندسة وأن يكون للأستاذ الدكتور الساوى بك عليه فضل التعليم والتعهد والعناية الى أن تخرج ، وقال لى مرة « اننى سعيد سعادة مضاعفة لأن الله من على بأن أخدم أستاذى وابنه وأرد لك جميلك » ، فأسرنى الرجل بأدبه وكرم أخلاقه ونخوته ، ومرجع هذه المناقب والفضائل طيب الأصل ، فان حسن الأصل وطيب النشأة فى بيوت المجد هى أعظم ضمان للأخلاق .

هذه مجموعة من الأصدقاء أشعرتنى بكرامة الصداقة ومتانتها وخلوها من الأغراض فسمت الى أعلى الدرجات .

لم يطل عهدى فى التدريس بمدرسة القربية الابتدائية وانتقلت الى مدرسة حلوان الابتدائية ، وكان ناظرها رجلا ضيق الفكر فنازعنى حقى فى ترجمة بعض آيات القرآن الكريم الى اللغة الانجليزية لأنه رأى فى ذلك مساسا بالدين على حد زعمه فأقنعته بأن القرآن الكريم نفسه منقول الى اللغات الأجنبية فى عشرات التراجم بكل لغة أوربية وانه لا يوجد فى القوانين واللوائح ما يمنع من تقديم نماذج عليا فى الترجمة أو التعريب ، وبادرت بتقديم

= والتعاون وله أيضا كتاب حق المرأة وكتاب حق الدفاع (د. عبد العظيم رمضان ، مذكرات سعد زغلول ، الجزء الأول ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٧ ، هامش ٧٧٠ ، ص ٤٧٠) .

استقالتي وأنا لا أملك شيئا ولا يوجد ما أعتمد عليه الا الله ، فاتصل الرجل بنظارة المعارف بالتليفون فحضر الى المدرسة في نفس اليوم مستر سوانسون المفتش الانجليزي بالنظارة وفهم النزاع واقنع الرجل بخطئه فاسترضاني ، ولكنني تشبثت باستقالتي ، فعرض على أن ينقلني الى الديوان العام بمرتب حسن فاعتذرت له وألح فازددت تمسكا وتركت هذه المدرسة غير آسف .

لم يكن أمامي غير الاتجاه الى العمل في الصحافة فلم أقصد اليها ولكنني دعيت الى احدى الصحف فلبيت دعوتها ، ذلك أنني في مدة سابقة كنت ألقي محاضرات وخطبا في جمعية النشأة الحديثة فتعرفت على المرحوم عبد الفتاح بيهم الذى كان يعمل مترجما في جريدة الظاهر لصاحبها محمد أبو شـــادى المحامى ، فألح على بالاشتغال بالصـــحافة ، وقدم على مصر ســـنة ١٩٠٥ المرحـوم محمد كرد على والسيد عبد القادر المغربى والمرحوم عبد الحميد الزهراوى فاشتركت مع كرد على والسيد عبد القادر المغربى فى تحرير الجريدة بعد وفاة عبد الفتاح بيهم .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت أعمل في الأعمال الحرة واستمررت عليها أربعين عاما لم ألجأ خلالها الى خدمة الحكومة ولم أنظـــر الى وظيفة أو منصب لاعتبارات كثيرة قد يأتى شرح بعضها فى سياق هذه المذكرات .

وقد استمرت علاقتى بالصحافة ثلاث ســـنين ، وفى ربيع سنة ١٩٠٧ حصلت على شهادة البكالوريا « من منازلهم » على ما سبق أن ذكرت آنفا ، وأشار على المرحوم مصطفى كامل بطلب الحقوق فى المدرسة الفرنسية وخاطب الأستاذ ديروزاس فى ذلك ، ولكنى عدلت عن ذلك والتحقت بمدرسة الحقوق الخديوية لعهد ناظرها المستر

هيل خليفة الأستاذ ادوارد لامبير الذى كان قد استقال سنة ١٩٠٦ من نظارة المدرسة عقب خـلاف شديد نشب بينه وبين دوجلاس دنلوب ، وكان هيل يدرس التاريخ لنا فى المدرسـة الخديوية التجهيزية على طريقة غير وافية بالمرام ثم صـار فى بضع سـنين أستاذا بمدرسة الحقوق ثم ناظرا لها خلفا للأستاذ لامبير أستاذ تاريخ القانون فى كلية الحقوق بجامعة ليون ٠



السفر الى فرنسا لطلب العلم
وخدمة الوطن

- ١ -

كلية الحقوق بليون

فى مارس سنة ١٩٠٨ ألقيت خطبة فى ذكرى الأربعين لوفاة المرحوم مصطفى كامل أقامت المستر هيل ناظر مدرسة الحقوق الخديوية ولم تقعده ، فاضطهدتنى ادارة المدرسة وطلبت منى الانسحاب من صفوفها ، فصح عزمى على السفر الى فرنسا لأتم دراستى بكلية الحقوق بليون ٠

غادرت مصر فى ابريل سنة ١٩٠٨ والربيع فى أوج ازدهاره وسمت نضارته وكان هذا الصحو وذاك الجمال وتلك الحياة الوليدة والنور المتدفق تعيننى على تخفيف آلامى والاقلال من قوة المعركة الدائرة فى صدرى ، فقد كانت المسألة صراعا بين الحياة والموت والنور والظلام والمستقبل البسام والأمل الضاحك المستبشر وبين المستقبل العابس واليأس القاتل وخيبة الرجاء ، وأنا الوحيد الطريد الغريب الوجه واليد واللسان أهاجر فى طلب العلم والرفعة وخدمة الوطن ولا أطلع أحدا من الخلائق على سرى ولا أبوح لأحد بما انطوت عليه جوانحى ولا أعتمد على أحد ولا أنتظر معونة من أحد ٠

كنت أشعر بقوة غامضة تدفعنى وتشجعنى وتأخذ بيدى وتيسر لى الأمور المهمة فى أوقاتها ، ربما كانت غريزة الحياة ودفعة الشباب والغيظ من الظلم والغبن والكيد والأذى والغفلة المحيطة بى وموت القلوب والأرواح ٠ ان هذه الحالة النفسية لم تغادر ذاكرتى وما زلت أشعر بها فى كل الأوقات ٠

تركت أهلى وبيتى وكتبى وهى أعز الأشياء عندى وثيابى وكل ما اقتنيته وأحببته فى ثمانى سنوات من آثاث ومتاع وذكريات وأشياء ألفت رؤيتها ولمسها ، تركتها فى بيت جميل فى الحلمية الجديدة ٠

وجدت نفسى فى ثغر مرسيليا ومعى حقائبى وركبت مركبة الى محطة السكة الحديد لألحق بالقطار السريع الى مدينة ليون ٠٠ وطال السفر حتى بلغنا ليون (محطة بيراش) عند نصف الليل كانت المدينة كئيبة مظلمة ، تلك التى دعوتها بعد ذلك « ليون الزاهرة » أين أزهارك فى هذا الليل البهيم وتلك الوحدة القاتلة ؟

ولو علم العالم حينذاك أننى كنت أحمل فى كيس حزام تمنطقت به خمسة جنيهات انجليزية فقط لا غير ، لضربنى المشفقون بالسيف ! ٠٠ تلك المغامرة فى سبيل العلم والوطن والشرف لا يؤيدها سوى خمسة دنانير !!

قصدت فندق الغرباء ولم أنم فى البقية الباقية من الليل وتيقظت مع الديكة وأسرعت بالنزول وقصدت الى كلية الحقوق وسألت عن الأستاذ ادوارد لامبير فقال لى البواب « وآسفاه يا سيدى انه مسافر فى الريف ٠٠٠ ان الجامعة مغلقة لعطلة عيد الفصح » ٠ فعدت أدراجى يائسا وفهمت بالاشارة أن الأستاذ لابد أن يعود وأن الكلية سوف تفتح أبوابها بعد أيام ٠

وقصدت تحت المطر مكتبة فى ساحة بلدور وطلبت من الرجل كتابا فى القانون الرومانى واخر فى الاقتصاد السياسى وورقا وكراسات وقلما وعرضت عليه الثمن ، ففهمت أنه يمهلنى الى ان اعود لاخذ بقية الكتب بعد عطلة عيد الفصح .

وعدت الى غرفتى بالفندق وفتحت حقيبة الكتب وأخرجت قاموسا وكراسة وقلما ، وبدأت أقرأ كتاب القانون الرومانى ... انك لا تدرى مقدار اللذة النفسية والمتعة الروحية والحماسة العقلية التى شعرت بها فى ذلك المساء حتى كدت أنسى العشاء او أتهاون فى أمره لولا أننى خشيت أن صاحب المطعم يطمع فى مالى القليل فينكر ما قبضه .

وكنت أشعر بالذل وأنا أخطو بعتبة المطعم لحقارته بالنسبة الى المطاعم التى عرفتها فى مصر وفى أوربا فى سياحتى الأولى سنة ١٩٠٦ ، وقد أخبرت صاحب المطعم أنى لا أشرب النبيذ وأشرب بدله ماء فيشى أو ايفيان .

كنت فى حالة نفسية لا تسمح بالمرح وكنت طريد الظلم من بلدى ومجبرا على ترك مدرسة الحقوق ومرغما على الاغتراب ، قليل المال عديم العون ضعيف الأمل ، جاهلا بلغة البلاد مستهدفا لاضطهاد الانجليز والقصر والحكومة المصرية بعد نهاية دراستى التى لم أبدأها .

ولكن هذه الحال النفسية ذاتها سلاح ذو حدين ، فكما أنها تقصى الشاب عن الشهوات فهى خليقة أيضا بأن تغريه بالاستمتاع ولو ترويحا للنفس وانتهازا للفرص ، ولكن الذى نفعنى لم يكن المنطق ولا موازنة الأدلة ، ولكن الغريزة وحدها ، غريزة البقاء

والطموح ولوفاء مع نفسى وبغضى الظلم ورغبتى فى أن أنجو بتحقيق أملى والخلاص من شماتة الأعداء .

هذه حقيقة أقررها وقد علمت فيما بعد أن كل مرة انتصرت فيها على نفسى ازددت قوة على المقاومه كأنه تدريب على الجندية أو رياضة بدنية تقوى العضلات وتشد آزر الرجل .

فى تلك الفترة فتحت الكلية أبوابها ولقيت الأستاذ أدوارد لامبير والتحقت بالدراسة وبدأت أحضر المحاضرات مع الطلاب الفرنسيين ولم يكن فى الكلية طالب مصرى واحد لأننى كنت البادىء بالدعاية الى ليون فى مصر ، فأقبل الطلاب بعد ذلك زرافات ووحدانا ، وأنا أحتفظ لكل واحد من هؤلاء الشبان بأعمق الشكر لأنهم لبوا دعوتى وأقبلوا وسمعوا نصحى وآنسوا وحشتى وشرفوا مصر ورفعوا ذكرها عاليا .

ولم يأت شهر نوفمبر التالى (من ابريل سنة ١٩٠٨ الى نوفمبر سنة ١٩٠٩) حتى كان فى ليون أكثر من خمسين طالبا ثم تزايدوا ونموا وربوا حتى بلغوا فى سنتين نحوا من ثلاثمائة طالب فى كليات الجامعة ومدرسة التجارة العليا وبقية المعاهد .

وتأسس المعهد الشرقى خصيصا للعلوم العربية والشريعة الاسلامية واعتز لامبير بطلابه كما اعتزوا به .

فما قيمة المتاعب القليلة التى امتحننى الله بها فى سبيل هذه الثمرة الحلوة الناضجة وتلك القطوف الدانية ؟

كنت أقصد الكلية صباح كل يوم وينظر الى الطلاب الفرنسيون نظرة تعجب من الطالب الذى بدأ دروسه فى آخر السنة الدراسبة وهو فوق هذا لا ينطق الا بكلمات قليلة يتلقى

المحاضرات ويدون ما يسمع منها بأحرف عربيــة تارة وبأحرف لاتينية بنطق انجليزى تارة أخرى ، ثم اننى لم أكن ألبس ثيابا أنيقة كما يفعل معظمهم لأنهم من أبناء الأعيان . وأجلس فى ركن قريب من الأستاذ لأتلقى كلامه حرفا حرفا وأقول « اذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن أكون جبانا » .

ثم نظرت فى حالى فرأيت أن أقرأ الصحف صــباح مساء وأحضر تمثيل المسرحيــات وكان الأجر للطلاب زهيدا جدا وهو فرنك واحــد ، وأقصـــد الى الاجتماعات العامة وألتقف الكلمات وأغشى المجالس وأتكلم خطأ وأرجو محدثى أن يصــحح أغلاطى ، وأبدأ كلامى دائما ببضع كلمــات محفوظة اشـــادة بفرنســـا والفرنسويين مما يعين على نفخ أوداجهم ونفش ريشهم لأنهم ديكة أصلاء وانقلبوا رجالا ويهز المدح أعطافهم . وهكذا قليلا قليلا حتى شققت طريقى .

وأثناء ذلك مرضت مرضا خطيرا فى القلب والأعصاب وأظنه من صدمات نفسية ، الوحدة والاغتراب والفاقة والتعفف والكتمان والكبت وفقدت شهية الطعام والنوم ، ولكننى عند الصباح أجمع من ضعفى قوة تكفى لحضور الدروس . ونصحنى طــالب طب بالذهاب الى الأستاذ الدكتور « مويسيه » ، وهذا الطبيب العظيم رجــل لا أنسى فضــله ما حييت وانى مدين له بعد ربى الى علمه وعطفه وأدبه ومواساته ، فقد تفرغ لى وفحصنى فحصا كاملا وهز رأسه وقال :

ــ ليس بأحشائك الباطنة أى مرض عضوى .

ولكن قال لى : هل لك صديقة صغيرة ؟

فاستفسرته حتى فهمت منه أنه يقصد الى عشيقه من العاملات أو الطالبات أتنزه معها وأخلو بها وأغازلها واقضى منها وطرا ، فأجبته نفيا وعللت عفتى بخوفى من الامراض الجنسية ، فهز رأسه وقال :

— ان أى مرض جنسى يصيبك انا كفيل بعلاجه ، أما المرض الذى يصيبك من الكبت والحرمان فلا قبل لى بعلاجه ، فان امتنعت عن سماع نصحى فخير لك أن ترحل الى بلادك ، فان الكبت والرطوبة هنا وقيظ الصيف تصطلح عليك فتؤذيك ويعقبها مرض خطير ·

ثم وصف لى نظام طعام خاصا ومياها معدنية ·

وقد اتبعت نصيحته ولزمت عيادته طوال اقامتى فى أوربا ، أما نصيحة العشق فقد أضمرت أن أخالفها معتمدا على الله ، وكذلك العود الى الوطن فقد **صممت أن أموت بعيدا عن بلدى وألا أعود الا اذا أتممت دراستى وجاهدت ضد أعداء الوطن فى كل مكان** ، لأننى بجانب ذلك الذى وصفوه بالعفة ، كنت مصحوبا بخجل شديد ، فلا أذكر أننى تبعت فتاة فى الطريق ولا نطقت بكلمة غزل ولا شربت خمرا حتى النبيذ لم أذقه أثناء اقامتى ، وما دخنت قط ·

أما مصادر رزقى فقد فتح الله أبوابها من مراسلة جريدة اللواء وبعض مبالغ ضئيلة أخرى ، وكان مجموعها فى الشهر لا يزيد على ١٢ جنيها ، فلما نشرت فى الصحف المصرية أن نفقات الطالب لا تزيد فى الشهر على هذا القدر ، حقد على الشبان المقبلون على ليون لأننى فتحت أعين أولياء أمورهم وقالوا لهم ان فلانا هذا الذى يدعو الى التعلم فى ليون يعيش عيشة الكفاف بنفقة المحجور

عليهم ، ولم يحسب حسابا للملابس فى برد الشتاء ولا للملاهى والكتب والدروس الخاصة ورحلات الصيف والشتاء وغشيان المجتمع وتبادل الهدايا فى الأعياد والمناسبات ، فأية عيشة هذه التى يرسمها لنا ويضع ميزانيتها ويكتفى بوصف جمال ليون وانهارها وبساتينها وأشجارها وشوارعها وجسورها ؟

وأنا كنت أعلم هذا كله وأكثر منه ، وأعلم أننى ظلمتهم بنشر هذه الفكرة ، انما كنت أقصد الى تيسير الأمر على الآباء ليبادروا بارسال أولادهم أولا ثم يرغموا على تسديد مطالبهم بالاتفاق بينهم وبين لامبير ، ولكننى كتمت هذا الأمر خشية أن يحجم الآباء لأن معظمهم كان يخشى أن يضطهد أولادهم بعد عودتهم الى مصر ، **لأن ليون كان منظورا اليها بعين السخط وتعتبر الجالية المصرية فيها طلابا ثائرين وكارهين للاحتلال الانجليزى وللحكومة المصرية الخاضعة ، وقد زاد موقفنا حرجا فى سنة ١٩٠٩ بعد المؤتمر الوطنى الذى عقد فى جنيف ، ثم ان المقالات التى كنت أنشرها فى جريدة اللواء ثم جريدة العلم بتوقيع « قارىء ناقد » كانت بغيضة الى الجالس على الأريكة الخديوية والى الرجعيين المصريين .**



— ٢ —

جان جاك روسو

كان من أوائل الكتب التى اشتريتها « اعترافات جان جاك رسو » ، فقد سبق لى أن قرأت كثيرا عن هذا الفيلسوف العجيب الأطوار باللغة الانجليزية ، فأقبلت على الكتاب بشغف لأستطلع

اسرار هذا المعترف العجيب ، وجدت فى شخص هذا الحكيم المسكين شبها شديدا بينه وبينى ، فقد كان طريدا شريدا وقد علم نفسه بنفسه وألقى بذاته فى خضم الحياه وهو لا يحسن السباحه فاجتهد حتى اتقنها ، وكان على الفطرة غير متصنع ولا متكلف ، وكنت أنا كذلك ، وكان يحب الحق والصراحه وقد هاجر من وطنه الى اوطان أخرى فى سن تقرب من سنى وكان لا يحفل بالمال ان قل عنده او كثر ، الا خلة واحدة ذميمه كانت عنده أشفقت عليه منها وهى تعلقه بأذيال النساء ، وخله جميله زادتنى به تعلقا وهى حبه للحرية ودفاعه عن الضعفاء ونهوضه لمقاومه اعداء المساواة الانسانية ، وكانت الرسالة الأولى التى قدمها لأكاديميه ليون عن « أسباب التفاوت بين البشر » قنالت جائزة ، هذه الأسباب كلها مجتمعة حببت الى هذا الرجل .

لم يكتب العرب عن روسو شيئا فيه غناء لمثلى لأنه ليس مؤلفا يغريهم فهو مشهور بأنه من دعاة الثورة الفرنسية ، وكان المصريون فى أول القرن العشرين يخشون ذكر الثورة لأن الانجليز أرهبوهم وأرعبوهم ، وأعان الانجليز على الرعب والارهاب وغرس بذورهما فى نفوس المصريين ، حب الوزراء والكبراء وطبقة الباشوات للمناصب والمال وطمعهم فى المناصب واعتقادهم – وكانوا على حق – أن الانجليز وحدهم الحاكمون المطاعون ، وكانت جرائد الانجليز تسميهم « أولى الحل والعقد » و « ولاة الأمور » حتى بعد حادثة دنشواى التى لم ينهض لمقاومتها أحد غير مصطفى كامل ، وكان سعد زغلول نفسه وقتها وزيرا للحقانية (العدل) وكان أخوه فتحى زغلول وكيلا له فى تلك الوزارة ، بل كان أحد القضاة الذين كتبوا الحكم فى قضية دنشواى ومهروه بأسمائهم وهو من فريق الباشوات الذين نشأوا من طبقة الفلاحين كما كان أخوه الأكبر سعد ، ويزيد فتحى زغلول على شقيقه الذى صار زعيم مصر

بعد حادث دنشواى بعشر سنين أنه كان مثقفا ثقافة فرنسية وكان عاكفا على نقل بعض كتبهم الى اللغة العربية ولا سيما ما كان ضد حرية الامم مثل مؤلفات جوستاف ليبون ، وكانت غاية فتحى زغلول أن يقاوم النزعة الدستورية فى مصر وأن يحارب مصطفى كامل ومبادىء الحزب الوطنى ٠

وهذا أمر لم يكن منكورا فى زمنه لأن الانجليز كانوا اقوياء والمصريين كانوا جهلاء وضعفاء ولا يؤمنون بالوطنية ولا سيما الطبقة المتعلمة المنتفعة بالوظائف ، وقد أرادت هذه الطبقة أن تجعل من نفسها ارستقراطية تتحكم فى رقاب الفقراء من الفلاحين وغيرهم ، ولم تكن لديهم طريقة غير الزلفى للانجليز واتخاذهم سادة ليتمكن أفراد هذه الطبقة من اتخاذ الفلاحين عبيدا ٠

أرى عند الرجوع بفكرى الى تلك الأيام أن الأفكار تتزاحم على لا كطالب علم فى بلد أوربى أنا غريب فيه ، ولكن كشاهد على العصر وناقد متحرق على تحقيق العدل الاجتماعى فى وطنه ، أقارن حياتنا فى بلادنا بحياة هؤلاء القوم فى بلادهم ، حياة العقل والخلق والجسد والروح ٠



– ٣ –

الدفعة الأولى من الطلبة المصريين بليون – جمعية الطلبة المصريين بليون – اترك لنا شمال افريقيتنا

أقول قضيت ما بقى من السنة الدراسية من وقت وصولى فى ابريل سنة ١٩٠٨ الى أوائل يولية فى عذاب النار ، وكنت

أواصل الدرس ولا أطمع في التقدم الى الامتحان في الدور الأول، ولكنني أكافح وأكسب نفقتي بعرق جبيني بالتحرير في جريدة اللواء وأعمل كشبان أمريكا أنفق معظم ما أربح في التعليم والكتب، وكان قد وصل الى ليون عشرون طالبا بسبب دعايتي في الصحف المصرية واقتداء بي على ضعفي ، ففرحت بهؤلاء الواردين واجتهدت في جمع كلمتهم بتأسيس جمعية مصرية للطلاب المصريين (١) ، ولعلمي بحب الرياسة والتناطح عليها عند كبار الأمة وصغارها اكتفيت بايجاد الأفكار حتى اذا انعقدت الجمعية العمومية قلت لهم : أقترح عليكم أن تكون جمعيتنا بدون رئاسة دائمة بل ينتخب

(١) أرسل لطفى جمعة الرسالة التالية باسم أعضاء جمعية الطلبة المصريين بليون الى محمد بك فريد وقد نشرت في كتاب « أوراق محمد فريد ، المجلد الثاني ، المراسلات ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور مصطفى النحاس جبر ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، سنة ١٩٨٦ ، ص ٥٠ » .

سعادة الشهم الهمام محمد فريد بك رئيس الحزب الوطني .

قرأنا بمزيد السرور خبر قدومكم الى الاقطار الاوربية لخدمة الوطن العزيز ، فدعونا الله أن يمدكم بقوة من عنده لتقوموا بأعباء المهمة العظيمة التى وكلت اليكم ، وسرنا تعريجكم فى طريقكم على مدينة لوزان لزيارة جمعية مصر بها ، كما انا فرحنا باجتماعكم بأعضاء جمعية مصر الفتاة بلندرة .

وحيث قد أسسنا منذ نصف شهر تقريبا جمعية لأبناء وطننا من الطلاب فى مدينة ليون ، ولدينا مشروعات علمية ذات أهمية .

وحيث أنا نود أن نحظى بلقائكم كما حظى به اخواننا فى ذينك البلدين ، كما أنه يسر لذلك أستاذنا العلامة لامبير. وللتعرف بسعادتكم . فنرجو الا تكلفوا أنفسكم كبير عناء فى عودتكم الى الوطن المحبوب فى تعريجكم بمدينتنا الزاهرة ، لنحظى بلقائكم ولنجمع بينكم وبين العلامة الأستاذ لامبير (رئيس الشرف للجمعية) ونرجو أن تخبرونا بتاريخ قدومكم لنتحفز لمقابلتكم وتكون مراسلتنا بهذا العنوان :

Bialy, Secretaire de l'Association des etudiants Egyptiens,
= facultt de Droit, Lyon.

رئيس فى كل جلسة أو على الأكثر لمدة قصيرة لا تتجاوز شهرا ٠ قال أحدهم : ولم هذه البدعة ؟ ولم لا ننتخب رئيسا دائما مثلك لأنك صاحب الفكرة ؟ ٠ قلت : لسبب بسيط وهو رغبتى فى أن يتدرب كل واحد منا على الرياسة ولأجل أن يجود كل عقل بخير ما فيه من الأفكار ٠ ففرحوا بهذا الرأى ٠

= ولنا كبير الأمل فى أن تلبى دعوتنا ٠

تحريرا فى ٨ يونيه سنة ١٩٠٨ ٠ أعضاء جمعية الطلبة المصريين بليون كما أرسل أملاى جمعة الرسالة التالية الى محمد فريد ، وقد نشرت فى كتاب « أوراق محمد فريد » المرجع السابق ، ص ٥٥ ٠

ليون فى ١٤ يونيو سنة ١٩٠٨ ٠

سعادة الشهم المفضال محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى ٠

بلغنا كتابكم الكريم وسرنا وعدكم بالقدوم لزيارة جمعيتنا الزاهرة ٠ اما ثناؤكم علينا فقد تقبلناه شاكرين وان كنا نعتقد اننا لم نبلغ غايتنا من اداء الواجب نحو الوطن العظيم العزيز ، واننا وان كنا بعيدين عن تلك الغاية الشريفة الجليلة بمراحل ، فاننا نسير نحوها سيرا حثيثا ونعمل للوصول اليها بجد وثبات ، فكلنا مجاهدون فى هذا السبيل كما كان يجاهد فقيد الوطن مصطفى كامل باشا وكما تجاهدون أنتم الآن ٠

هذا وقد سر العلامة لامبير فى تفضلكم بزيارته ، فلعل وراء تلك الزيارة للشبيبة المصرية « خير عظيم » ، وهو لا يغادر ليون قبل ٢١ يوليو القادم ، وكنت أود من صميم فؤادى أن اكون بليون لأحظى بلقائكم ولكن ستعوقنى الظروف عن ذلك اذ عزمت فى عدة أيام على حضور دروس فصل الصيف فى مدرسة لوزان الجامعة لأشتد فى اللغة الفرنسية ولامتلك ناصية فنون آدابها ، فان كنتم تمرون بجنيف كما وعدتم أعضاء جمعية مصر بلوزان ، فاننى سأسر بلقائكم وأمتع نفسى بحديث رئيس الحزب الوطنى المصرى ٠

وتذكرون اننى بعثت اليكم بكتاب من ليون قبيل مبارحتكم القطر المصرى ووددت لو القاكم هناك ، ولكن يظهر لى أن كتابى لم يصلكم الا بعد أن مرت الفرصة ٠ =

ان هذه الدفعة الأولى التى وردت أواسط سنة ١٩٠٨ وأواخرها وأوائل سنة ١٩٠٩ قد انطوت على أنبغ الطلاب ، ومثلهم كطلائع المهاجرين من مكة الى المدينة وقد أعانهم الله على النجاح فحلقوا فى أجواء القانون والأدب والتاريخ والاقتصاد والسياسة وسائر العلوم الفرنسية باشتياق واقبال حتى حازوا أعلى الدرجات وظهر منهم نوابغ وفحول هم دعائم النهضة الحديثة التى بدأت فى أوائل القرن العشرين فى مصر ، فالحمد لله على ذلك ، وهم الذين أجابوا دعوتنا لعقد المؤتمرات الوطنية فى جنيف وباريس

= هذا وفى الختام تقبلوا تحيتى واحترامى وتكرموا بتبليغها سعادة الوطنى الدكتور عثمان بك غالب .

المخلص

محمد لطفى جمعة

طالب علم بليون

كما ارسل لطفى جمعة الرسالة التالية باسم جمعية الطلبة المصريين بليون الى محمد بك فريد ، وقد نشرت فى كتاب أوراق محمد فريد ، المرجع السابق ، ص ٥٦ :

سعادة المفضال محمد بك فريد — رئيس الحزب الوطنى .

وافانا خطابكم يوم الأحد ١٤ يونيه ، وانا لنتشكر لعزتكم هذه العواطف التى تمثلت بأجمل مظاهرها وتلك العبارات التى زففتها الينا ، تحيى بها آمالنا وتبشرنا بمستقبل مصر الجليل ، جعلكم الله خير قائد لخير شعب يتعلق بمن يجاهدون فى سبيل اصلاح احواله .

ولقد أوصلنا العلامة لامبير ما شئت من آيات الشكر والتسليم ، وسألته عما طلبته ، فأجاب بأنه لا يسافر الا فى أواخر يوليو ، وعليه فهو يستقبل حضوركم بكل سرور وترحيب ، كما نستقبله نحن كذلك بالبشر والسلام .

١٦ يونية سنة ١٩٠٨ .

أعضاء جمعية الطلبة المصريين بليون

وبروكسل ، فكانوا جيش مصر المجاهد وتلاميذ مصطفى كامل وابناءه البكر ، وهم الذين نهضوا بأعباء ثورة سنة ١٩١٩ بعد أن غرسوا بذورها وتعهدوها بالسقيا ، وهم الذين نفخوا فى رماد الأمة فأشعلوا النار المقدسة فى قلوبها .

ان التربة الفرنسية صالحة لنماء النهضات بلا ريب اذا لم تكن لفرنسا مصلحة أو فائدة فى اخمادها واطفائها كما شهدت بالتجربة . فقد حدث فى تلك الأيام أن تقدم جزائرى اسمه ابن على فخار الى امتحان الدكتوراه ونجح وقدم أطروحة فى القراض وهو نوع من المعاملات المعروفة فى الشريعة الاسلامية ، وقد تأثرت جدا بنجاحه وأردت أن أتخذه قدوة وأؤدى له تحية وأشجع المصريين ، فكتبت مقالا مسهبا فى وصف الاحتفال بأطروحته ونشره اللواء وجاء فيه عفوا قولى « **ان أهل الجزائر وشمال افريقيا عرب مثلنا ومسلمون يتطلعون الى الحرية والاستقلال ، فمتى يأتى اليوم الذى ينضم فيه شمل جميع العرب تحت لواء الحرية بعد خلع نير الاستعمار والاستبداد ؟ . اننى أرى فى الأفق وميض برق** ، وأتخيل السيد الأستاذ ابن على فخار من حملة الشعلة التى تضىء المستقبل » .

ونشر اللواء هذه المقالة فى صدره وورد فى البريد على بعض الطلاب المصريين بامضائى « قارىء ناقد » فى شهر يونيه سنة ١٩٠٨ .

وحدث فى يوم وصول البريد بهذا العدد من اللواء أننى غادرت الكلية مبكرا وقابلت ابن على فخار ولكنه لم يرنى ، ورأيت فى يده اللواء منشورا ووجهه غاضب وممتقع ولم أفهم لهذا الامتقاع سببا ، وقصدت الى منزلى ، وبعد قليل وافانى رسول من

قبل الأستاذ لامبير يطلب مقابلتى ، فاسرعت اليه فوجدت فى يده عدد اللواء ووجهه أصفر كالكركم يقطر غيظا ، فجبهنى بقوله :

— يا عزيزى لطفى انك خربت بيت ابن على فخار تحت ستار الوحدة فى الدين والعواطف ، وسوف يطرده المجلس البلدى فى ليون من وظيفته التى هى مصدر عيشه وأسأت اليه من حيث أردت الاحسان !

فقلت له : وكيف كان ذلك يا أستاذى الأعز ؟

قال : خذ ، ألست كاتب هذا المقال ؟

قلت : نعـــم ·

قال : انك تدعو الى الثورة فى الجزائر وفى شمال افريقيا، اعمل معروفا فينا واترك لنا جزائرنا وتونسنا ومراكشنا واصنع ما بدا لك فى الانجليز دفاعا عن مصر ·

قلت : اننى أمجد كلية الحقوق وأستجلب الطلاب المصريين وألوح لهم بالمجد وأعمل على جمع كلمتهم حولك وأنت حامل لوائنا ووالدنا والداعى لخيرنا ومؤسس نهضتنا وصديق مصطفى كامل وشريك جهاده فى آخر سنة من حياته ·

فلم أنل من الرجل غايتى ولم تنفع معه حيلتى ، وقال لى :

— ولو ! اصنع جميلا واترك لنا شمال افريقيتنا (هكذا) واصنع بالانجليز لأجل وطنك ما بدا لك · لقد أسأت الى شخصيا ·

فقلت له بحزم يكاد يكون يأسا :

ـ لم أعلم قبل اليوم أن تونس والجزائر وشمال افريقيا ملك لكم بل هى ملك أصحابها ٠

قال : لو رأيت رأس ابن على فخار (أى وجهه) وما عليه من الغضب والقنوط لفهمت قولى ٠

قلت : ولكن يا سيدى انه ليس كاتب المقال بل أنا ، وليس الموعز به لأنه لا يفهم شيئا ، ولو كان يفهم لعده مفخرة ، فأنا لا أبالى به ٠ ثم انك علمتنا التضحية والبذل فى سبيل الكرامة فاستقلت من منصب نظارة مدرسة الحقوق الخديوية لأجل كرامتك ولم تخضع للانجليزى دنلوب ، فكيف تعيب علينا الدعوة للحرية ؟ ٠ سلام عليك ٠

وخرجت غاضبا وصممت على أن أطلب تحويل اسمى الى كلية باريس أو بوردو أو ديجون ٠

فبعث لامبير فى أثرى بالأستاذ عزيز ميرهم وكان طيب القلب فقال لى :

ـ خير وسيلة للمخرج أن تعتذر للأستاذ لامبير وتكتب خطاب أسف لابن على فخار ٠

فلم أر جوابا على كلام هذا الرجل الطيب الا نظرة جهنمية أدركها ميرهم وأدرك ما وراءها وقال :

ـ أنا مالى ومالك ٠ قل وافعل ما بدا لك ، أنا واسطة خير ليس الا ٠

قلت : أنت تحلم يا عزيز وتتكلم كأهل الكهف . ثم اطمئن فانني عقدت العزم على مغادرة ليون الى الأبد .

فقال : كيف تترك ليون ؟ ان لامبير يبنى عليك كبار الآمال ويتنبأ لك بمستقبل عظيم .

قلت : لو كان هذا حقا ما صدمنى فى أعز شىء لدى ، ومع ذلك فالبركة فيمن دعوت من الاخوان ولبى دعوتى . السلام عليك

وعدت الى منزلى ، وبعد قليل تنازل الأستاذ الكبير ادوارد لامبير بزيارتى فخجلت واعتذرت اليه عن خلو دارى من مظاهر الفخامة والغنى ، وقلت له اعتبرنى مجاورا فى الأزهر ، فضحك ثم قال : ما هذا الذى سمعته من ميرهم ؟ انك اعتزمت على الرحيل ؟ ومن ذا الذى يتركك تفعل ما تشاء قبل أن تدخل الامتحان الأول ؟ ألا ترى لى حقا عليك أرشدك الى ما فيه الخير حتى تتم دراستك ؟ هل تكبدت كل هذه الأهوال ليشمت بك دنلوب وهيل (ناظر مدرسة الحقوق الخديوية) وقمحة (وكيلها) وكل أعداء مصطفى كامل وتزيد فيك شماتة ديروزاس (ناظر مدرسة الحقوق الفرنسية بمصر) ، ذلك الفرنسى الذى نسى وطنه ؟ . أما زح أنت ؟ ومن يقابل فريد بك عند وصوله بعد أسبوع ؟ ومن يلقى دروس الشريعة الاسلامية بالفرنسية على اخوانك فى العام المقبل ؟ أتريد أن تهجر المعسكر بعد التجنيد وتفر من خدمة وطنك ؟

فضحكت وقلت له : ان ميرهم لم يفهم قصدى ، أنا أسافر بعد زمن فى أواخر يوليه لأستريح فى سويسرا أو هوت سافوا الى نهاية العطلة المدرسية ليس الا

وفى نهاية الحديث قمت مع أستاذى وصحبته الى باب داره زيادة فى تكريمه لتنازله بزيارتى وأنا أضعف أبناء وطنى وأقلهم شـأنا ٠

***

— ٤ —

ضحك كالبكاء !

لقد قاسيت أثناء اقامتى الأولى فى ليون صنوف الحرمان بأنواعه ، وذقت ألوان المرض وشعرت بألوان من الآلام بسبب لا يدركه أحد الا اذا وقف عليه ٠ **قاسيت الحرمان فى كل شيء لا يترفع عنه من كان فى سنى** ، وقاسيت القيظ فى ليون وهو أشد من حر مصر ثلاث مرات ، وحكمت على نفسى بقصر غذائى على الخضر والفاكهة دون اللحم والنشويات ففقدت المقاومة مع الاجهاد فى الدرس ، واعتكفت فى كسر بيتى معظم الوقت لأحفظ نفسى من التبذل مع اخوانى الطلاب المصريين وكان بعضهم ينظرون الى نظرة الاعزاز والتعظيم فأردت أن أحتفظ بهذه المهابة لأخدمهم ، واكتشفت أخلاق ثيابى وتمزيق نعالى ، ولم أتعود أن أرقعها لأننى كنت فى مصر أربح ثلاثين جنيها فى الشهر وأصنع ثيابى من أجود الأصواف وكذلك أحذيتى من أفخر الجلد ٠ وقرأت فى تلك الأيام شعرا لدانتى يقول فيه : « ليس أقسى على النفس من تذكر النعيم فى أيام الشقاء » ٠

ولكننى لم أسخط ولم أغضب ولم أذرف الدمع ولم أحن الى الوطن والأهل لأننى كنت قوى الأمل وأتوهم أننى قوى الارادة ٠ وقلت لو لمأفرض على نفسى العفـة عن النساء واللحوم والخمر

والدخان ، فماذا كانت تكون حالى ؟ · لقد ألزمت نفسى الحرمان فلم أشعر بكل آلامه ·

وحدث أننى شعرت من لامبير أنه أشار من طرف خفى فى استحياء أنه مستعد لمعونتى بقرض حتى يصل المال الى يدى ، فضحكت أمامه وشكرته وعدت الى غرفتى لأبكى وألازم الفراش ثم تجنبت لقاءه ، ولم يتركنى الطلاب المصريون بألسنتهم فى تلك الفترة فاتهمونى بالتعاظم والتعالى والتعالم وغموض الحياة ، وأننى لا أقابلهم لأننى أخلو بمعشوقة غريبة الأطوار مثلى ، وذهب بهم الخيال الى وصفها كأنهم رأوها ، وترامت الى غيبتهم فعذرتهم والله وضحكت ذلك الضحك الذى قيل انه البكاء ! ·

وحدث ذات يوم أن دق جرس الباب الخارجى للخان الذى كنت نازلاً به ، ودخلت على صاحبة الخان بغير استئذان وهى تلهث وقالت : ان رجلا رسميا بالباب فى يده محفظة كبيرة وهو يسأل عنك يا سيدى ·

فقلت لها دعيه يدخل فورا ·

وبعد لحظة دخل الرجل وبيده قبعة نابليونية وحيانى بأدب جم وقال :

ـ هل أنت السيد ماهوميت (محمد) لفتى (لطفى) جوما (جمعه) الطالب بالجامعة ؟

قلت : نعم أنا ·

قال : ألديك يا سيدى وثيقة تثبت شخصيتك ؟

قلت : نعـــم ·

وابرزت له تذكرة الكلية وبها اسمى وصورتى ، فنظر فيها بغير اكتراث وقال : اشعار من بنك كريدى ليونيه ٠

وناولنى اياه فوقعت عليه باسمى ، ثم فتح محفظته وأخرج نقودا ذهبية وأخذ يعد ألف فرنك ٠ ثم أخرج اشعارا آخر فيه مائتا فرنك وعدها من أوراق البنك الفرنسوية ، ثم اخرج اشعارا ثالثا فيه مائة وخمسون فرنكا وعدها ورقا وقطعا فضية ثم قال :

ـ ألف وثلاثمائة وخمسون فرنكا ٠ تمام يا سيدى ؟

فنظرت الى النقود مكدسة على المنضدة وأنا ذاهل ، ثم طلبت منه كل اشعار على حدة لمراجعتها فى ظنه ولكن المتأكد من أنها باسمى حقيقة ٠ لأننى دهشت من وصول هذه النقود بهذه الكمية وأنا فى أشد الحاجة اليها وخشيت أن تكون لغيرى لا لى وأن البنك وعماله قد أخطأوا ، فلما تيقنت أنها باسمى ابتسمت ٠ وحيانى الرجل وخرج مسرعا لا يلوى على شىء ٠

فجلست خائر القوى لأننى ممن يدخرون الانفعال من طول ما مارسته ، جلست صامتا مذهولا ٠ كيف وصلت الى يدى هذه النقود فى تلك اللحظة ؟

لقد استغثت بطلب المدد من أهلى منذ أشهر ولم يصلنى جواب ولا رد ولا بشرى ولا انذار بهذه النعمة ! ٠٠٠ أيحدث أن كل مطالبى استجيبت فى وقت واحد ووصلت الى يدى فى هذا اليوم السعيد ؟ هل فى تعففى وصبرى سر الاستجابة ؟

لقد احتقرت المال فى هذه اللحظـة ٠٠٠ لم أرض أن أمس النقود ورأيتها كجذوة من نار ٠٠٠ اننى لا ريب مريض أو أن الحرمان والوحدة وسوء المظهر قد أصابت نفسى بعقـدة نفسـية من نوع جديد !!

من يوميات سنة ١٩٠٩

سجل لطفى جمعة أحداث العام الدراسى سنة ١٩٠٨ — سنة ١٩٠٩ فى صورة يوميات وكان قد عاد الى القاهرة لزيارة الأهل والأصدقاء قبل أن يعود الى فرنسا لمواصلة الدراسة بكلية الحقوق بجامعة ليون .

وفيما يلى مقتطفات مما سجله فى هذه اليوميات :

الاثنين ٤ يناير سنة ١٩٠٩ :

اليوم الثانى من عيد الأضحى . اجتمعنا فى نادى المدارس العليا (١) لنهنىء بعضنا بعضا وكان الجمع قليلا وحضره فريد بك رئيس الحزب الوطنى ، فخطب عمر لطفى بك وهنأ الأعضاء وحثهم على التكافل والتضامن ، وتلوته الى المنبر — وكانت هناك اشاعات عن عزم الحكومة على مصادرة النادى — فخطبت فى استحالة مثل هذا العمل وبينت خطره اذا تم وقلت : ان اغلاق نادى المدارس العليا يسبب افتتاح ألف ناد سواه فى طول البلاد وعرضها وبينت مبدأ ستيوارت ميل فى ذلك الموضوع .

الثلاثاء ٥ يناير :

ذهبت الى حلوان ... ولقيت هناك الشيخ طنطاوى جوهرى وبعض الأصدقاء ، كان حديث الشيخ طليا وتكلم عن أصل الحياة وأظهر حرية فكرية عظيمة ، وحثثته من طرف خفى على الخروج

---

(١) تأسس نادى المدارس العليا سنة ١٩٠٥ وكان احد معاقل الوطنية فى مصر وتعبيرا عن تطلع الوطنيين المصريين للتخلص من النفوذ الأجنبى والسيطرة الاستعمارية على الوظائف والمهن والصناعات ، وقد انتخب عمر لطفى رئيسا له .

من خدمة الحكومة لخدمة مبادئه الفلسفية ليلتف حوله تلاميذه ومريدوه ، ولكن يظهر لى أن الأستاذ مع فضله وعلمه وذكائه يحتاج الى شيء من العزم والشجاعة للقيام بمثل هذا العمل ، ولكننى لا أشك فى حدوثه .

الجمعة ٨ ينـاير :

لقيت فى هذا اليوم حامد العلايلى ... بعد أن افترقنا فى لوزان فى صيف هذا العام فسرنا لمشاهدة المظاهرة الكبرى التى نشرت الصحف أخبارها ، فلما بلغنا باب الخلق ... استأجرنا مركبة وزيناها بالأعلام وبلوحتين كتب عليهما « ليحيا الاستقلال والدستور » ، وقد رأينا من أصحاب المحال الوطنيـة والعـامة مساعدات غريبة عند علمهم بأن العمل وطنى وأنه فى سبيل انقاذ مصر من العدو الأجنبى ، وطفنا بالمركبة سـائر الشوارع ونحن نصيح والشعب معنا « لتحيا مصر .. ليحيا الوطن ... ليحيا الاستقلال ... ليحيا الدستور » .

وتجمهر الناس حولنا تجمهرا عظيما فى ميدان عابدين وكان كلهم طوع اشارتنا ، ودخلنا حديقة الأزبكية فجمعت الناس حولى فى لمحة وخطبت فى معنى الأعياد وقلت ان عيد الأمة أهم بكثير من أعياد الملوك والأمراء .

السبت ١٦ ينـاير :

لقيت عرضا المستر يانز محرر الاجبشيان ستاندارد سابقا فتحادثنا فى المسألة الايرلندية وأرشدنى الى أسماء كتب كثيرة يمكننى مطالعتها قبل سفرى الى ايرلندا وهو ما أنويه لأخدم الوطن المصرى فى البلاد البعيدة وأسمع الأجانب صوتنا من جديد .

الثلاثاء ١٩ ينـاير :

أوشكت معدات سفرى أن تتم وأرجو من الله أن يكون كل شىء لما فيـه الخير . عزمت على اهداء دائرة المعـارف الانكليزيه الكبرى الى المدرسة الجامعة المصرية وكتبت اليها بذلك لارسال من يتسلمها .

الخميس ٢١ ينـاير :

أعد اليوم مواد محاضرة ألقيها مساء فى نادى اللجنة الفرعية للحزب الوطنى بالسيدة زينب . ستكون المحاضرة ذات ثلاثـة أجزاء ، الأول عن الحرية ومعناها وأنواعها ، والثانى عن كيفية نيل انواع الحرية للأفراد والأمم ، والثالث عن ضرب مثل بالأمة الايطالية التى نالت الحرية بأكملها .

الثلاثاء ٢٦ ينـاير :

آخر يوم أقضيه فى القاهرة قبل سفرى ... لقيت حافظ ابراهيم فقال لى « اذهب ولا تعد الا بعد اكمال دروسك » فأثرت هذه الوصية فى نفسى سيما وأنها هى التى كانت تجول فى رأسى .

الأربعـاء ٢٧ ينـاير :

كل يوم ارى أدلة جديدة تثبت لى أن الشـيخ عبد العزيز جاويش أساء كثيرا الى القضية الوطنية بمقالته التى طعن فيها على اخواننا الأقبـاط ، فليس أقدر على الخدمة الحقيقية من القبطى الأمين .

أبحرت الباخرة شلزويج فى الساعة الثانية . هذه هى المرة الرابعة التى أركب فيها هذه الباخرة ذاتها .. كدت أبكى عند

صفير الباخرة ، ولكن الواجب والخدمة الحقيقية للعلم والوطن أعظم من حب الأهل ·

الخميس ٢٨ ينـاير :

البحر لا يزال هائجا والسفينة فى اضطراب لا مثيل له · وقد تعرفت هـذا اليـوم بالمستر بيربوهم ترى الممثل الانكليزى الشهير ، فاخبرنى أنه جاء مصر ليدرس بعض الشئون الخاصـة بتمثيل رواية « النبى الأبيض » التى وضعها « هول كين » ولكنه متردد لأنها ضـد السياسة الانكليزية على خط مستقيم ويخشى أن يضر به تمثيلها فى الدوائر العالية ، فشرحت له تاريخ المسألة المصرية وأظهرت له أن قول الحقيقة للرأى العام الانكليزى هو أعظم خدمة يمكنه أن يقدمها لانكلترا كرجل يحب وطنه وقد أقنعته بعد ذلك فاقتنع ووعدنى بحذف بعض الأمور الشخصية المتعلقة بكرومر وأن التمثيل سيكون بلندن فى شهر سبتمبر القادم ودعانى لزيارته هناك ، وتكلم كثيرا عن غمبتا وبارنل ستون وكوكلان وقد قيدت بعض الملاحظات لكتابة مقالة عما دار بيننا من الحديث ·

الاثنين أول فبراير ١٩٠٩ :

خرجت عصرا وكان البحارة يعدون الحبال والآلات للميناء ورأيت شواطىء فرنسا البنفسجية ! ·

ركبت القطار من مرسيليا الى ليون ·

فكرت بعد وصولى الى الفندق فى سياحتى فى بلاد الأندلس ومراكش والجزائر وتونس ، لابد لى من زيارة العالم الاسلامى كله لأكتب عنه كتابا ولأخطب فى أبنائه ·

الأربعاء ٣ فبراير :

شرحت لاخوانى مشروع سياحتى فى العالم الاسلامى ودعوتى أمم شمال افريقيا للاجتماع لتأليف وحدة سياسية تربطها عدة روابط أدبية ومادية ٠

الجمعة ٥ فبراير :

فى الساعة الثانية بعد الظهر ذهبت لزيارة الأستاذ لامبير فوجدته فى المدرسة وسرنا معا نتحدث فقال لى ان الحركة الوطنية فى مصر ينبغى أن تكون فى أيدى الشبيبة وأن فريد بك من الأعيان (ارستقراط) وهو بعكس مصطفى كامل الذى فهم أن الحركات الكبرى لا تقوم الا بالطبقات الوافرة العدد ، **وذكرنى بما تكهن به عن مشروع الجامعة المصرية من أنها ستكون ألعوبة فى أيدى الانكليز ، وقال : ان عيب المصريين هو ان كل واحد منهم يريد لنفسه الظهور والصيت مع أن العمل الحقيقى لا يتم بالضوضاء ٠**

قابلت على الشمسى وحادثنى عن المؤتمر المصرى فى جنيف (١) ٠

---

(١) هو مؤتمر الشبيبة المصرية الذى عقد فى جنيف فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩٠٩ لمحاولة الحصول على التأييد الدولى ازاء حصار الاحتلال البريطانى للحرب الوطنى محليا ودوليا ٠

أما على الشمسى فكان من ضمن اعضاء الحزب الوطنى وعمل مع محمد فريد اثناء هجرته ولكن فريدا كان يشك فيه لعلاقته بالخديو ، ثم انضم الشمسى بعد ذلك للوفد المصرى بعد قيام ثورة سنة ١٩١٩ واشترك فى وزارة سعد زغلول الأولى سنة ١٩٢٤ كوزير للمالية ثم وزيرا للمعارف العمومية فى وزارات عدلى يكن وثروت ومصطفى النحاس ٠

السبت ٦ فبراير :

فى الساعة الخامسة حضرت درس « الهيروغليفية » على الأستاذ لوران ووعدنى بالبداية فى الهجاء مساء الأربعاء القادم وأوصانى باسم كتاب وللحال عزمت على دعوة اخوانى غدا لمناقشتهم فى هذا الأمر .

الأحد ٧ فبراير :

قصدت نادى جمعية الطلاب المصريين بليون بشارع الجمهورية فالتقينا هناك ودارت المناقشة حول ثلاث مسائل مهمة ، الأولى مسألة الاحتفال بذكرى مصطفى كامل يوم الخميس الآتى ١١ فبراير ، وسألقى خطابا بالعربية يترجمه الى الفرنسوية فؤاد أفندى برسوم ، والمدعوون طلاب فرنسيون وبعض رجال الصحافة . **ثم اقترحت على الاخوة الاقبال على تعلم اللغة الهيروغليفية فكانت الأغلبية فى صفى ، وفى الحال قيدت أسماء ثمانية طلاب دفع كل منهم عشرة فرنكات لشراء كتاب النحو الهيروغليفى .**

أما المسألة الثالثة وهى مسألة الخطاب المتعلق بالاسلام فأجل النظر فيه الى وقت آخر .

الاثنين ٨ فبراير :

قرأت فصولا فى كتاب القانون الجنائى تأليف العلامة جارو ثم أخذت فى كتابة الخطاب الذى سألقيه يوم الخميس الآتى فى الاحتفال بتمجيد ذكرى مصطفى كامل .

الثلاثاء ٩ فبراير :

فى الساعة الرابعة قصدنا الجمعية (جمعية الطلبة المصريين بليون) ، ولما تكامل العدد تلونا الخطب كلها وقامت بعض

الاعتراضات على خطاب عزيز أفندى ميرهم لذكره الخديو ونحن لا نريد ذلك احتفاظا بحيادنا .

أدهشنى جدا خبر تعيين الأمير حسين كامل فى مجلس الشورى رئيسا لعدة أمور وسأكتب عن هذا مطولا فى مذكراتى السياسية .

وان خبر طرد طلاب الأزهر بعد قرار مجلس الجامعة الأعلى المرءوس بالخديو مهم جدا ، لأن هؤلاء الطلاب ينتشرون فى سائر القرى وينشرون أفكارهم التى تشبعوا بها .

الأربعاء ١٠ فبراير :

قصدت المدرسة الجامعة فحضرت درس القانون الادارى وخطبت فى طلاب السنة الثانية الفرنسويين داعيا اياهم للحضور غدا بنادينا لمشاركتنا فى الاحتفال بتكريم ذكرى مصطفى كامل . وقد تقبل بعضهم هذه الدعوة بسرور واحترام .

وفى الساعة الخامسة قصدت الى المدرسة الجامعة حيث كان أول درس فى اللغة الهيروغليفية ألقاه علينا الموسيو مونيت أحد طلاب مدرسة الآداب ، وكان عددنا يزيد على عشرين وقد تعلمنا الحروف وأهم المقاطع وبعض الرموز التى لا تنطق .

الخميس ١١ فبراير :

قصدت بعد الظهر غرفة الجمعية لأن الاحتفال يكون فى الساعة الثالثة والنصف وقد أم مكان الاحتفال عدد عظيم من الفرنسويين وكان على أحسن ما يرام ، وقد ألقيت خطابى الذى أعددته منذ يومين للترجمة .

تحادثت طويلا مع الموسيو مونتيه الذى يعلمنا الهيروغليفية عن تاريخ مصر القديم ، وذكر لى أن نسخة هيروغليفيــة من حكم بتاحوتب موجودة بدار الآثار بليون وقد حدثتنى نفسى بنقلها الى العربية (١) •

الجمعة ١٢ فبراير :

طالعت الفصل الأول من كتاب « موت قصر أنس الوجود » تأليف بيير لوتى وهذه أول مرة أقرأ فيها بالفرنسوية وكنت أمنى نفسى بذلك من زمن طويل • ثم تناولت كتاب الهيروغليفى وقرأت منه أكثر من عشرين صفحة تفهمت نقوشها ، ووجدت نفسى مساء أقرأ الفصل الرابع من كتاب الموتى فكدت أطير فرحا واندهاشا وسبب ذلك أننى منذ عهد طويل كنت أرجو أن أتعلم هذه اللغة وأحل رموزهـا •

السبت ١٣ فبراير :

طالعت فى القانون المدنى من كتاب بلانيول •

زارنى موسيو مونتيــه وتحادثنــا عن مصر وعن الاحتــلال فشرحت له المسألة المصرية وكسبته لجانب الوطنية المصرية ووعدنى بخدمة مصر على قدر استطاعته •

---

(١) نقل لطفى جمعة فعلا « حكم فتاح حوتب » الحكيم المصرى القديم الى اللغة العربية ونشره سنة ١٩١٢ مع ترجمة « جولستان» أو روضة الورد للشــاعر الفارسى سعدى شيرازى وكتاب « التعليم الراقى للمرأة فى اليابان » فى كتــاب واحد بعنوان « الحكمة المشرقية » •

الأحد ١٤ فبراير :

لاحظت أمرا غريبا وهو أن أغلب أيام الأحد تكون عادة ذات جو حسن وهذا من كرم الطبيعة التى تجود على الناس براحة يوم من زوابعها وأمطارها ، ولعل فى اختيار هذا اليوم للراحة سرا ·

خرجت واستلمت بعض رسائل بريدية احـداها من مدام دا مانسكى (١) ، وقصدت زيارة الموسيو لامبير فقابلنى فى مكتبه وتحادثنا ساعة قال لى فيها انه ليس لمصر ولا له أمل فى الطبقة القديمة أنصار العهد العتيق ، وانما الآمال كلها فى الشبيبة المتعلمة ، ثم **قال لى عن فريد انه يخشى ظله وأنه يخاف الانجليز جدا وأنه أساء الى الوطنية المصرية بحضوره الى أوربا كرئيس للحزب** · ثم تكلم عن مصطفى كامل فأسف لموته قبل الأوان ولا سيما فى هذه الظروف التى كان يمكنه فيها أن ينتفع بأشياء كثيرة خارجية وداخلية ، وقال ان انكلترا سعيدة الحظ بموت أشد أعدائها ·

الجمعة ١٩ فبراير :

ذكر لى عبد السلام الجندى مساء أن غدا يكون موعد القاء محاضرة عن الاسلام طلبتها منا جمعية التعليم اللاييكى (العلمانى)، **فكتبت خطبة جعلت همى فيها البحث فيما يوجه نحو الاسلام من التهم وفندتها ورمى الاسلام بالتعصب ورميه بالتأخر والتقهقر العلمى** ·

---

(١) انظر ما كتبه لطفى جمعة فيما يلى من هذه المذكرات عن الاديبة الروسية أوجستاد امانسكى وعلاقته بها ·

الجمعة ٢٦ فبراير :

وصلت المكتبة بالمدرسة واشتغلت بالقانون الجنائى الى الساعة أربعة والنصف حيث لقيت مونتيه فتحادثنا مليا عن آراء المدرستين الفرنسوية والألمانية فى مسألة الحروف المتحركة فى النحو الهيروغليفى ·

تسلمت كتابا مؤثرا من مدام دامانسكى قالت فيه انها ستسافر الى روسيا عما قريب ·

السبت ٢٧ فبراير :

لم يكن حديث المائدة (بالبنسيون الذى أنزل به) متعلقا بموضوع خاص ، ولكننا تكلمنا مليا عن الأدب الفرنسوى وذكرنا موريس باريس وجول ليمتر ··· وبهذه المناسبة ورد ذكر الموسيو هريو محافظ المدينة ، وأنا شخصيا أظن أن هذا العالم السياسى الشاب سيكون له شأن مهم فى المستقبل لا سيما اذا دخل مجلس السناتو ولا يستبعد أن يكون يوما رئيسا للجمهورية ·

الجمعة ٥ مارس ١٩٠٩ :

تحادثنا على المائدة ··· وتناقشنا فى هل نشر أخبار الجرائم والفظائع فى الصحف السيارة يشجعها ويزيدها ، وكنت ضد من يقولون بهذا الرأى وان كنت أبغض الصحف المهولة كالماتان · وفى نحو الساعة الثانية لقيت مصادفة الأستاذ لامبير فبقينا معا ساعتين نسير فى الطرق وكان معظم الوقت يحادثنى باهتمام عظيم عن مصر وأحوالها ، وقال لى انه ينوى تشغيل طلابه فى تأليف كتب للحقوق واختارنى لكتاب فى الشريعة الاسلامية

والقانون المدنى وقال لى ان حركة الأزهر تسره كثيرا لأنها حركة صـادقة (١) ٠

الاثنين ٨ مارس :

طالعت بعض أعداد اللواء ، وحوادث الأزهر تهمنى جدا لأن فيها علائم المستقبل ، لو كان فى مصر أبطال حقيقيون لا نتهزوا فرصة هذه الحركة ليثبتوا أن حياة الأمة فى اتحادها وقوتها ٠

من المصادفات العجيبة أن اللواء نشر مقالتى عن « الحكام فى الشرق والغرب » فى العدد الذى نشر فيه خبر اسـتجواب النيابة لخليل حمادة باشا ودلاور بك (٢) وكلاهما متهم بضرب طلاب الأزهر واهانتهم (راجع عدد ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٩) ٠

الأربعـاء ١٠ مارس :

وضعت هيكلا لرواية مصرية للملعب المصرى ، ان لم تمثل اليوم فغـدا ٠

---

(١) انظر عن ثورة الأزهر وأسـبابها سنة ١٩٠٩ ، مذكرات سعد زغلول ، الجزء الثانى ، تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان ، هامش رقم ٣٧٢ صفحـة ٨٩٦ ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العـامة للكتاب ، سنة ١٩٨٨ ٠

(٢) خليل باشا حمادة مدير الاوقاف منذ نوفمبر سنة ١٩٠٨ وقـد اسندت اليه ادارة الأزهر واتهم بضرب الطلبة وقدم للتحقيق ، وقد هاج الأزهر لذلك هياجا عظيما ، أما محمد بك على دلاور فقـد كان مدير الادارة والحسابات بوزارة الأوقاف ٠

(انظر الجزء ٢ من مذكرات سعد زغلول ، المرجع السـابق ، ص ٩٠٠ وما بعدها) ٠

طالعت بعض أعداد اللواء وقرأت تفصيل حوادث الأزهر فبكيت واقشعر بدنى واعترانى ذهول من الحزن . من العجيب أن تهان أمتنا مثل هذه الاهانة ونحن سكوت لا نرفع صوتا ولا نحرك يدا ، انه قد آن لنا أن ننهض مرة أخرى لنضرب ضربة قاضية ، فاما حياتنا كشعب حر شريف واما موتنا الى الأبد .

الاثنين ١٥ مارس :

طالعت فى القانون المدنى والجنائى طول الصباح وقلبت صفحات كتاب كوشرى عن مركز مصر الدولى فاعجبت به جدا وساتفرغ فى هذا العام لدرس القانون الدولى العام لتطبيقه حرفا بحرف على مركز مصر فى الوقت الحاضر ، وهذا يكون ان شاء الله أساس بحثى عن المسألة المصرية عند تقديم أطروحة الدكتوراة .

أخذت أنقل ما سودته منذ عامين من كتاب « الأمير » لميكيافللى فى دفتر جديد لأنجز التعريب والترتيب بأسرع ما يمكن (١) .

وبدأت أيضا فى تبييض « حكم نابليون » (٢) .

---

(١) ، (٢) كتب لطفى جمعة فى كناشه مؤلفاته عن كتاب الأمير ما يلى « الأمير تاليف ميكيافللى شرعت فى تعريبه من زمن طويل ولم انجزه الى الان ثم كتب « انجز فى يوليو سنة ١٩١١ بجنيف » وقد طبع هذا الكتاب ونشر فى القاهرة سنة ١٩١٢ ، كما كتب فى الكناشة سالفة الذكر عن كتاب « حكم نابليون » ما يلى « نقلتها من الانجليزية الى العربيـة عام ١٩٠٧ ولا ينقصها الا التبييض مع بضع صفحات عن حياة بونابرت بايجاز » وقد طبع هـذا الكتاب ونشر بالقاهرة سنة ١٩١٢ .

الأربعاء ١٧ مارس :

قابلت ليلا بن على فخار وتحادثنا عن تركيا ومصر والجزائر وقال لى انه سيكون مصطفى كامل الجزائر فسرنى هذا التصريح منه وقارنت بين شجاعته هذا العام وجبنه فى العام الغابر (١) ، وقال لى كلما أساء الفرنسيون لينا كان ذلك فى مصلحتنا ٠

الخميس ١٨ مارس :

كان حديث المائدة متعلقا بتهذيب المرأة المصرية وعلاقتها بالدين والتربية المنزلية ٠ **اننى أقبل كل ما تقتضيه الحرية العاقلة لأجل المرأة المصرية وان العلم يكمل أخلاق المرأة وينقص معايبها ٠**

الثلاثاء ٣٠ مارس :

وصلتنى أعداد كثيرة من الصحف العربية أخصها اللواء ومصر الفتاة ، فرأيت فيها مسألتين تشغلان الرأى العام حاليا ، مسألة الأزهر وقانون المطبوعات وهما جديرتان بالنظر ، ورأيى أن الانكليز يخدعون أمير البلاد كثيرا ويسهلون له الصعب ليوقعوه فيما يريدون له ٠

---

(١) انظر صفحة ١٣٥ من هذه المذكرات ٠

الأربعــاء ٣١ مارس :

الجرائد تصلنى مفعمة بأخبار قانون المطبوعات الذى يسعى الانكليز والخديو فى تنفيذه (١) . انهم حســـنا يفعــلون لأنهم يزيدون النار اشتعالا ويعلموننا كيف نستر أفكارنا وكيف نعمل كثيرا ونقول قليلا . **ان مصادرة الحرية فى تركيا لم تمنع الأحرار** من الثورة واعلان الدستور .

الخميس أول ابريل سنة ١٩٠٩ :

عند الظهر فاجأنى على المائدة أحمد السيد بخبر مزعج للغاية وهو اعادة العمل بقانون سنة ١٨٨١ القاضى بتقييد حرية الصحافة والمطبوعات وقد أثر فينا هذا الخبر تأثيرا شديدا ، فأسرعت حالا الى دعوة سائر أبناء الوطن المقيمين فى ليون وفى الضواحى جميعا لعقد جلسة فوق العادة للنظر فى هذا الأمر المهم بأسرع ما يمكن . وفى الساعة الثامنة كمل عقدنا فى غرفة رحيبة من غرف قهوة الأوبرا فخطبت فى اخوانى ساعة شرحت لهم أثناءها ما اتصل بنا وتكلمت عن حرية الصحافة وتاريخها ومعنى تقييدهـــا وعواقب ذلك ووضعت أمامهم ثلاثة اقتراحات نعمل بها لساعتنـــا لملاقاة الحوادث ، الأول الاحتجاج فى الصحافة اليومية ، والثانى عقد جلسة علنية نلقى فيها الخطب ، والثالث تأليف كتاب عن حرية الصحافة والمطبوعات والاجتماع وتوزيعه فى مصر بأى الوسائل ، ثم النظر بعد ذلك فى طرق عملية لمقاومة المظالم .

---

(١) جاء بمذكرات سعد زغلول يوم ١٩٠٩/٣/١٧ أن بطرس غالى وضع بمساعدة مستشارى الخديو مشروع قرار وزارى بتنفيذ بعض نصـــوص قانون المطبوعات الصادر بتاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ (مذكرات سعد زغلول ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، سنة ١٩٩٠ ، ص ٢٣) ، وللوقوف على مزيد من المعلومات عن اعادة قانون المطبوعات ، راجع كتاب محمد فريد لعبـــد الرحمن الرافعى ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٤ ، دار المعـــارف ، صفحة ١١٨ ـ صفحة ١٢٢ .

وفى منتصف الليل زرنا ادارتى جريدتين وتركنا فى كل ادارة مقالة احتجاج للنشر ٠

الجمعة ٢ ابريل :

أخذت فى جمع المواد واعدادها لأجل خطاب الغد لأننا قررنا أمس أن يكون الاجتماع غدا بمقر الجمعية الجديد ٠ ان المواد فى رأسى كثيرة أريد أن يكون الخطاب موجزا وشاملا لكل ما أريد ٠

السبت ٣ ابريل :

زرت بعض أصدقائى الفرنسويين لأدعوهم الى احتفال اليوم وأسرعت الى مقر الجمعية وألقيت خطبتى على الاخوان لأرى موافقتهم عليها فوافقوا عليها بالاجماع ٠

ورأست الجلسة رغم ارادتى وكانت الحفلة غاصة بالمدعوين الفرنسويين بينهم أربعة من محررى الصحف وبعض مندوبى جمعيات الطلاب ٠ وألقيت خطابى ثم تناقشنا فى مسائل شتى لها علاقة بالموضوع ٠

الاثنين ٥ ابريل :

نهضت صباحا وأعددت متاعى للسفر وفى الساعة السابعة تحرك القطار الى جنيف وطالعت ما كتبته جرائد ليون (البروجريه والنوفليست) عن اجتماع يوم السبت الماضى ٠

الثلاثاء ٦ ابريل :

خرجت صباحا الى شاطىء الرون وفكرت فى وضع كتاب باللغات الثلاث اسمه « مصر تتهم انكلترا » أشرح فيه المسألة المصرية شرحا عادلا ٠ ان من أعظم آمالى فى الزمن الماضى أن أكتب مهما يكون له شأن عن المسألة المصرية ٠

الخميس ٨ ابريل :

أشتغل على الدوام باعداد المواد اللازمه لكتاب « مصر تتهم انكلترا » .

الأحد ١١ ابريل :

أطالع كتاب فروست فى « الجمعيات السرية فى أوربا » وهو كتاب فى غاية اللذة ويرينا بوضوح وجلاء لا ريب فيهما **ان كل الأمم نالت حريتها بأمرين ، الأول حركة سرية تدبر من زعماء القوم المخلصين ، والأمر الثانى بمقاومة حربية أى بثورة . فان تمت الثورة بلا دماء فنعما بها ، وهذا ما رأيناه أخيرا فى تركيا ونتمنى حدوثه فى وطننا الأسيف .**

الاثنين ١٢ ابريل سنة ١٩٠٩ :

احتفلت اليوم احتفالا عقليا قلبيا بمرور عام على حياتى العلمية فى أوربا ، فانه منذ عام بالضبط فى مثل اليوم لمست قدماى أرض فرنسا بميناء مارسيليا .

الثلاثاء ١٣ ابريل :

استلمت من البريد كتاب « خطابات مصطفى كامل » وقرأتها كلها فى ليلة واحدة ، قرأت فى ليلة واحدة تاريخ رجل عظيم منذ كان طالبا فى المدرسة الى أن صار زعيما الى أن مات ، وهذا زادنى اعجابا به . ولكن لا أزال أنتقد شيئا واحدا فيه وهو التصاقه بالخديو فى أول الأمر وسعيه فى التقرب منه بعد حادثة ديفون

الشهيرة (١) . قال ابسن فى احدى رواياته على لسان رجل سيىء الحظ « لقد اكتشفت شيئا مهما وهو أن الرجل لا يكون قويا الا اذا كان وحيدا » آى يعمل بمفرده .

الخميس ١٥ ابريل :

حمل الى شاب فارسى يحضر معنا عى المائدة اسمه « غلام رضا خان » — حمل الى كتابا فارسيا عن تاريخ الحركة الدستورية فى بلاد فارس ، وقد علمت أن هذا الكتاب يدرس للتلاميذ فى مدارس الفرس الابتدائية فسرنى شرح الأفكار الوطنية لهم وهذا ما أود صنعه فى كتاب للتلاميذ المصريين ، وغرضى من هذا الكتاب أن يكون تاريخا للنهضة الشرقية الحديثة .

الأربعاء ٢١ ابريل :

طالعت فى القانون الجنائى وقد وجدت لذة عظيمة فى الأبحاث الجنائية . **أريد أن أكون محاميا جنائيا .**

طالعت فى الجرائد أخبار تقدم جنود حزب تركيا الفتاة وأرجو أن يفوزوا فى اخماد نار الفتنة التقهقرية . ان الثورة

---

(١) كانت مسألة زواج الشيخ على يوسف بابنة السيد عبد الخالق السادات محل خلاف شديد بين مصطفى كامل الذى كان يقف منها موقفا معارضا وبين الخديوى عباس حلمى الذى كان يساند الشيخ على يوسف فى هذا الزواج ، وفى لقاء مصطفى كامل بالخديو فى ديفون بفرنسا فى اغسطس سنة ١٩٠٤ ، اخذ يلوم الخديو على مداخلته فى هذه القضية ، مما دعا الخديو الى الاحتداد على مصطفى كامل ومغادرة الاجتماع ، فكانت القطيعة بينهما (مذكرات سعد زغلول ، مقدمة الدكتور عبد العظيم رمضان لها ، الجزء الأول ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، سنة ١٩٨٧ ، ص ٨٢ وما بعدها) .

التركيـة الأخيرة. أخذت شـكلا جديدا وهو ما يسمى فى فرنسـا بالثورة المضادة أى أنها ثورة ضد ثورة الصيف الماضى ، وان أعداء الشرق والاسلام يقولون ان هذا دليل على عدم صلاحية الشرقيين للنظامات الدستورية ، وأنا أقول انها دسيسة مدبرة ٠ ان السياسة القومية محتاجة الى القوة لحمايتها ٠

طالعت صحفا كثيرة فى كتاب الموسيو جون نينه عن الثورة العرابية وأهم ما فى هذا الكتاب تدبير فتنة الاسكندرية ومذبحتها التى دبرها الخـديو توفيـق ومحـافظ المدينة بايعـاز قنصـل انكلترا أو وكيلها السياسى ٠

حضرت اجتماعا فى غرفة « هاندويك » بسـاحة بلا نبليه خطب فيه برتونى زعيم الفوضويين فى سويسرا وصاحب جريدة اليقظة وقد طعن فيها على البوليس السرى وأعمال المجلس العمومى بجنيف ، وهذا الرجل مع كونه عاملا بسـيطا ـ رأيتـه خطيبـا مقتدرا ويستند فى خطبته على معلومات حقيقية وتواريخ واحصاءات وحوادث ٠

السبت ٢٤ ابريل :

أتممت مطلعة كتاب لومبروزو « الانسان المجرم » ٠ اننى أتخذ التربية الأولية والوسط الذى عاش فيه المجرم عاملا مهما من عوامل سقوطه الأدبى وكذلك حالته الصحية ، وعلى ذلك فأنا أعتقد اعتقادا لا أتحول عنه أن الاجرام مرض ينبغى معالجته لا ذنب يليق بالانسانية الانتقام من المجرم بسببه والبحث فى هذا الموضوع يطـول ٠ **لا أظننى أكون قاضـيا جنائيا لأننى سأطبق فى أغلب الأحيان قانون الرحمة وأضرب بقـانون المحاكم عرض الحائط ٠**
علموهم قبل أن تعاقبوهم واذا عاقبتموهم فكونوا بهم مشفقين ،

فمنذ أن ارتفع معدل القراءة والكتابة فى فرنسا هبط معدل الجرائم ، فهل بعد هذا برهان ؟

الأحد ٢٥ ابريل :

سررت بحوادث الأستانة وباحتلال جنود الثورة لها وانى أشدد فى خلع السلطان لأن بقاءه مجلبة للضرر ، وانه لنذل جبان حانث بيمينه ، فلو أبقوا عليه هذه المرة فانهم يقضون على أمال الشرق والشرقيين فى الحرية والدستور .

الثلاثاء ٢٧ ابريل :

اليوم أقيد بسرور عظيم خبر انتصار حزب تركيا الفتاة أو « لجنة الاتحاد والترقى » وهذا ما كان ينتظر ، لأن فتنة ابريل لم تكن فى الواقع الا دسيسة مدبرة من أنصار النظام القديم الذين لا يرون لأنفسهم نجاحا فى ظل العدل والحرية والمساواة . واننى بقدر ما كنت من أنصار ابقاء عبد الحميد على العرش بعد حركة الصيف الماضى ، أرانى الآن من أنصار خلعه وأرى فى عدم خلعه أعظم خطر يتهدد البلاد العثمانية ، ولا أرى أكثر من ذلك وهذه عادة اسلامية جعلت الأمم الاسلامية تكتفى بخلع ملك ظالم ، وهذه عادة حسنة ولكن قد يكون أثر العمل بها سيئا :

لا تقطعن ذنب الأفعى وتتركها
ان كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا

الخميس ٢٩ ابريل :

قرأت اليوم نبأ سقوط السلطان ففرحت للغاية وعلمت أن ذلك الحادث هو بدء حياة جديدة للبلاد العثمانية ، لأن أنصار العهد

القديم سوف يختفون كلهم باختفاء السلطان الاخير ، ذلك الشيخ الذى عطل الحياة الدستورية نحو أربعين عاما وذهب ببهاء البلاد الاسلامية ، ولن يكون لخلعه تأثير سيىء لأن الأمم الاسلامية فى الشرق تحققت الآن معنى الدستور ، وهو السلطان المسلم الثانى الذى تم خلعه بعد السلطان العزيز الذى أسقطه العدل ، ويبقى ثالث لابد من اسقاطه هو الظالم الغاشم شاه العجم ·

أعددت مقالة عن الحالة السياسية فى مصر لأنشرهـا فى جريدة جنيف ·

الجمعة ٣٠ ابريل :

زرت اليوم ادارة جريـدة جنيف Journal de Géneve وأعطيت رئيس التحرير المقالة التى أعددتها أمس عن حالة مصر السياسية وعن قانون الصحافة ·

السبت أول مايو سنة ١٩٠٩ :

تناولت اليوم كتابا ممتعـا تأليف بطرس أو بولس ليروا بوليو عن الشرق الأقصى وهو خاص بالصين واليابان ··· وقد استفدت كثيرا من فصل خاص بثورة اليابان ودستورها وحالتها الاقتصادية ، وآخر فى نهضة الصين البطيئة ، وانني ألخص هـذه الفصول أو أنقلها برمتها لتكون مواد نافعـة لكتابى « تاريخ نهضة أمم الشرق الحديثة » (١) ·

---

(١) لعل هذا الكتاب كان بذرة كتاب لطفى جمعة « حياة الشرق . دوله وشعوبه وماضيه وحاضره » الذى طبع سنة ١٩٣٢ بمطبعـة دار احياء الكتب العربية لعيسى البابى الحلبى ·

الأحد ٢ مايو :

خرجت فى الصباح فلقيت على الشمسى افندى من اعضاء لجنة المؤتمر (١) وقال لى ان العطار أفندى سأله هل تعتقد فى نفع المؤتمر ؟ فقال له الشمسى كيف تكون عضوا فى اللجنة وتسأل هذا السؤال ؟

وعدت الى المنزل واشتغلت بتحرير بعض المراسلات ومنها رسالة الى « شيامدجى كريشنا فارما » بباريس ·

قصدت الغرفة الوسطى Salle Centrale مساء هذا اليوم، وخطب شخص طعن فى الاسلام فلم أحتمل ذلك ونهضت وخطبت باللغة الفرنسية نحو ساعة وفندت تهمه وذكرت أن دين الاسلام دين حب وتسامح وأن النبى دعا أهل الأديان الأخرى للاخاء . وهذه أول مرة أخطب فيها بالفرنسوية ارتجالا ·

الاثنين ٣ مايو :

هذا اليوم موعد زيارتى لبرتونى زعيم حزب العمال بسويسرا وصاحب جريدة اليقظة Le Reveil التى يحررها ويطبعها وينشرها باللغتين الفرنسوية والايطالية ، وقد وصفوه بأنه فوضوى ولكنه لا يخشى المجاهرة بآرائه · لقينا برتونى باكرام وتواضع وروى

---

(١) كانت لجنة مؤتمر الشبيبة المصرية بجنيف الذى انعقد فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ مكونة من بعض الشباب الوطنيين وهم محمد فهمى وعلى الشمسى ومحمد لطفى جمعة والدكتور سامى كمال وحامد العلايلى والأمير العطار وحلمى مسلم وعثمان فايد والدكتور سيد مرعى (أوراق محمد فريد ، المجلد الثانى ، المراسلات . الجزء الأول ، تحقيق الدكتور مصطفى النحاس جبر ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٦ ، ص ١٥٦) ·

لنا تاريخ حياته وقال انه لما شب أخذ يفكر فيما حوله حتى رأى الحقيقة فى رفع الظلم عن كاهل العمال فاعطى نفسه لهذا الغرض الشريف ولا يزال يعمل لتحقيق اهدافه ، وقال ان كل الأعمال السياسية الكبرى لا تنجح الا اذا كان وراءها مجموع العمال والحركات والثورات لا تفوز الا اذا عضدها الشعب . أما ما يبقى فى يد صفوة القوم Elite فمآله الزوال والفشل ، ثم باع لنا مؤلفات البرنس كورنبكين الروسى وأهدانا عدة رسائل ومجلات اشتراكية .

الجمعة ٧ مايو :

اشتغلت صباحا بالقانون الادارى والمدنى .

وبعد الظهر طالعت فى كتاب « الاستعمار عند الأمم الحديثة »
La Colonisation Chez Les Peuples Modernes
تأليف ليروا بوليو . ان هذا الرجل المسكين يعبد انكلترا والنظامات الانكليزية ويكاد يؤله ساستهم وينصح لفرنسا أن تنسج على منوالهم . ان الكتاب يغيظنى كلما توغلت فى صفحاته،انه مكتوب للماضى لا للمستقبل ، وسبب ذلك هو أن النظريات الاستعمارية التى يضعها المؤلف كانت نظريات الاستعمار فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وأن نظريات الاستعمار فى الوقت الحاضر قد تغيرت جدا . ثم اننى اقول بكل صراحة وسرور ان الاستعمار قد زال من العالم أوكاد يزول وأنه لا يأتى آخر القرن العشرين حتى تكون كل أمة متمتعة بحريتها وحقوقها مهما كان مقدارها بين الأمم. ولى فى ذلك نظريات يطول شرحها . انظر الى القارات الخمس ، أمريكا ليس فيها الا مستعمرة واحدة وهى كندا ، وأوربا ، ايرلاندا وبولندا ، آسيا الهند وحدها وهى تحارب لأجل الاستقلال ، أفريقيا مستعمرات انكلترا فيها مستقلة استقلالا اداريا . فهل

تسمى بلاد مستقلة استقلالا اداريا مستعمرة ؛ شمال افريقيا ، مصر حرة ومحتلة احتلالا مؤقتا ، أما تونس والجزائر فنهضة الاسلام ضامنة استقلالهما . ومع ذلك فهذه بقايا النظام الاستعماري القديم وسوف تزول .

الأحد ٩ مايو :

كتبت الى أحمد شوقي بك الشاعر أذكره بالجزء الثاني من كتابي « في بيوت الناس » وأطلب اليه أن يرده الى اذا لم يكن في طوعه طبعه .

الثلاثاء ١١ مايو :

تسلمت اليوم كتابا من كريشنا فارما الزعيم الهندي المقيم بباريس يحادثني فيه عن حركة الشرق وينصح للمصريين باعداد أنفسهم للحكم الذاتي بالعلم والعمل ويقول لى : انه ينشر جريدته الهندي الاجتماعي Indian Sociologiste في لندن لئلا تصادر اذا نشرها في باريس ويدعوني لزيارته اذا مررت بباريس .

السبت ١٥ مايو :

كتبت اليوم مراسلات كثيرة منها واحدة الى الأستاذ ادوارد براون أطلب منه أن يدلني على كتب عن فارس بالانكليزية والفرنسوية أستعين بها في وضع كتاب « تاريخ نهضة الشرق » . فقد قرأت له كتابا صغيرا في تاريخ الدستور الفارسي ينفي فيه عن الشرق والاسلام تهما كثيرة عالقة بأذهان الأوربيين ورأيته يذكر كتابا يؤلفه أوفى من هذه الرسالة ، وأسأل الله الا يفرغ منه حتى يكون الفرس قد فرغوا من جهادهم المؤلم الذي تصلني

أخباره فى كل يوم عن يد غلام رضا خان أحد طلاب العلوم الأدبية بجنيف . فأين لسائر أمم الشرق برجال مثل ادوارد براون مسموعى الكلمة فى بلادهم ثم هم يقولون الحق ؟

وكتبت للشيخ طنطاوى جوهرى أطلب منه أن يدلنى على آيات قرآنية وأحاديث شريفة وكلم لفلاسفة العرب عن « الحكومة الدستورية » لما اشتهر به هذا الشيخ الفاضل من الاهتمام بالتوفيق بين العلم والدين .

الجمعة ٤ يونيه سنة ١٩٠٩ :

ذكرت للأمير العطار خبر سفرى غدا الى ليون فأسف للفراق .

عند العشاء لقيت محمد فهمى افندى رئيس لجنة الشبيبة الدائمة لأول مرة ، فاحتفى بى وحدثنى عن سياحته فى انكلترا . وسألت فهمى أفندى عن المعدات التى أعدتها اللجنة للمؤتمر (مؤتمر الشبيبة المصرية الذى يعقد فى جنيف فى سبتمبر سنة ١٩٠٩) ــ فلم يحر جوابا . فسألته عن البرنامج فقال انه لم يعد موضوعا واحدا ، فأخذت أملى عليه برنامجا وأسماء لموضوعات تامة عندى أردت تقديمها للمؤتمر (١) ، ورسمت له خطة ذلك وكان يكتب بسرور ما أمليه عليه . وتكلم عن مقابلته للخديو مع الشبان وقال ان الخديو لم يعطه فكرة حسنة كما تكلم عن على الشمسى وسفره المفاجىء الى مصر وأظهر مخاوف من انقلابه .

---

(١) تقدم للمؤتمر الكثير من الموضوعات باللغات الفرنسية والانجليزية والعربية ، والقى لطفى جمعة فى هذا المؤتمر موضوعا باللغة الفرنسية عن « نهضة الشرق ومصر» وآخر باللغة العربية « عن نهضة المصريين وواجباتهم » (انظر كتاب محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠ وما بعدها) .

السبت ٥ يونيه :

نهضت صباحا وتركت غرفتى فى المنزل نمرة ٨ شارع بونت دارف . وبلغت المحطة وتزودت منها بكتب وصحف وركبت القطار الى أن بلغت ليون ، واهتديت الى غرفة جميلة جدا .. فأخذت أرتب أعمالى استعدادا للامتحان .

الأحد ٦ يونيه :

خرجت لزيارة الأستاذ لامبير ودعانى الى العشاء بمنزله ، وقبيل ذهابى الى وليمة لامبير شربت لبنا كثيرا . قالت لى زوجته اذ رأتنى لا آكل لحما ولا أشرب نبيذا ولا قهوة « أنت ملك ! Vous etes un ange . ان حديث لامبير ينعشنى ويحيى آمالى .

الثلاثاء ٨ يونيه :

حضرت درس القانون الدولى على الأستاذ بول بيك . والدرس الثانى - وهو فى القانون الجنائى - أحب الدروس الى قلبى ، هناك الأستاذ جارو العالم الجنائى ، انه يدرس مثل علماء الأزهر الشريف ويبصق مثلهم من حين لآخر وينهض من كرسيه ويشمر ويشخط ولا ينقصه الا ولد أعمى يضرب على رأسه عند النقط المهمة مثل بعض أساتذة الأزهر ، ولكن درسه واضح جلى ومملوء بالأمثلة المقربة للذهن ، والجميل فى عمله وتعليمه أنه يسير خطوة بخطوة مع كتابه ، فنحن لا نحتاج الى تدوين مذكرات بل نفتح كتابه ونقارن بين قوله ومؤلفه .

الخميس ١٠ يونيه :

قابلت الأستاذ لامبير ويدور حديثه معى على نقطة واحدة وهى أن الاصلاح فى البلاد الاسلامية مثل مصر لابد أن تكون له

صبغة شرقية وأن خروجه عن تلك الصبغة يضربنا ويضرب لى مثل اليابان التى جعلت المدنية الأوربية يابانية • وعلى نقطة أخرى وهى أن الانكليز لا يتركوننا نفر من أيديهم بالمسالمة أو بالطرق الودية ولكن باظهار قوتنا المعنوية والعملية ، والأستاذ لامبير لا يتعب من الحديث بهذا المعنى وأنا لا أتعب من سماعه ولو طال الحديث الى آخر الدهر •

الجمعة ١١ يونيه :

اليوم يوم الاقتراع لتاريخ الامتحان منعا للشكوى ، لأن أيام الامتحان تمتد من ١٤ يوليه الى أواخره ، وقد سحبت قرعتى فكانت فى يومى ١٩ ، ٢٠ • أمامى الآن شهر وأسبوع يمكن صرفهما بغاية الاهتمام للوصول الى الغرض المطلوب ، ولا يشغلنى من جهة الامتحان شيء ولكن الذى يشغلنى حقيقة هو حيرتى المالية ، فان نقودى قليلة بل دون القليله •

السبت ١٢ يونيه :

أخبار مصر عنى منقطعة فلا أكاتب ولا أكاتب ما عدا المقالات التى أبعث بها الى اللواء ، ولكن فى اللواء أشخاصا يعاكسوننى فلا ينشرون مقالاتى ، منهم الطرابلسى أمين الرافعى والمصرى المطبعجى اسماعيل حافظ ، وقد كتب لى عبد العزيز جاويش بهذا المعنى خطابا لطيفا ويقول انه قصير الحيلة ولا يملك شيئا !

الأحد ١٣ يونيه :

نهضت صباحا وحررت خطابات الى مصر ، بدأت بالكتابة الى جريدة اللواء التى صارت شركة وقد أخلف هؤلاء القوم معى وعودهم وعهودهم ، فقد وضع لى المرحوم مصطفى كامل قاعدة وهى

أن يكون أجر كل مقالة تنشر جنيها وذلك منذ التحقت بمدرسة الحقوق ، ورغب هو الا ينقطع قلمى عن التحرير باللواء ، وهنم كل علاقتى المالية بهذه الصحيفة من أكتوبر أو نوفمبر السنة الماضية ، ولما مات المرحوم مصطفى كامل لعب مجلس الادارة بذيله فى معاملتى فلم أخاطبهم فى شئ وبقى لى طرفهم مبلغ ضخم ، ثم بعثوا الى خطابا وصلنى فى العام الماضى فى لوزان علمت منه رغبتهم فى استمرار المراسلة فراسلتهم ولكنهم منذ ذلك العهد السحيق لم يبعثوا الى ثمن المقالات التى تربو على الستين ، فضلا عن أن كتاب « تحرير مصر » (١) الذى أودعته عندهم لم يصلنى من ثمنه شئ ولا أعلم نتيجة مخاطبتى اياهم .

الاثنين ١٤ يونيه :

وصل الى خطاب من طنطا حيث توجد جدتى وخالتى .. هذا خطاب لم أفهم معناه ولكنه مملوء بتلميحات غريبة أدركت منها استدعائى ، فلما خطر ببالى هذا الخاطر وظننت امكان حرمانى من اتمام تعليمى ــ صممت على الهجرة الى تونس لأتناول عملا ما يمكننى معه اقتصاد مبلغ أستطيع الاتمام به ، وهذه فكرة يمكننى تنفيذها اذا تحتمت عودتى الى مصر .

أمجنون أنا حتى أجعل نفسى أضحوكة أعدائى فلا اكمل عملى الذى قاسيت فى سبيله الشدائد ؟ . اننى أفضل الموت على الهزيمة وأفضله أيضا على طلب المعونة من أحد .

---

(١) كتاب ترجمة لطفى جمعة عن الانجليزية ونشره بمطبعة النيل سنة ١٩٠٦ .

هذا الانسان العجيب أحمد زكى باشا سكرتير الجامعة (١) ، كتبت اليه مستنجدا لألتحق بارساليتها التى يبعثـون فيها جماعة من الجهال اكراما لأقاربهم وأصحابهم فلم يجبنى ، وهم يدعون أنهم يساعدون العلم والمتعلمين ، ولكن اظن أن افكارى السياسية هى التى تجعلنى شوكة فى حلقهم ، فالحمد لله على ذلك (٢) .

الثـلاثاء ١٥ يونيه :

اليوم دفعت رسوم الإمتحان مبلغا ضخما وهو الذي كنت أحجزه وأصونه لهذا اليوم ، دفعته ذهبا ، جنيهات انجليزية من نقود مصر التى أتيت بها ، الأمر الذى أدهشنى أن الأستاذ لامبير لقينى مصادفة وأنا أمام السكرتير أستعد لدفع الرسوم ، فأخذنى جانبا ولا طفنى ثم قال لى هكذا « يا لطفى اذا كنت فى احتياج الى نقود فأنا أدفع لك ما تريد ريثمـا تصل اليك نقـود من مصر » فشكرته من أعماق قلبى ثم لم أتمالك نفسي من البكاء من مجموعة الحوادث والأحوال المحيطة بى (٣) .

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعه باحمد زكى باشا الملقب بشيخ العروبة ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعـة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٤٤١ ـ ص ٤٤٨ .

(٢) ظهرت فى سنة ١٩٠٩ حركة فى نظارة المعـارف ونظارة الحقانية ترمى الى اصلاح نظام التعليم فى مدرسة الحقوق ، وكان من مظاهرها ايفاد وزارة المعارف فى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٩ لأول بعثة علمية من خريجى مدرسة الحقوق للجامعـات الفرنسية للتخصص فى العلوم القانونية .

(٣) انظر صفحة ١٣٩ من هذه المذكرات .

الخميس ١٧ يونيه :

اليوم تكلم الأستاذ بيك عن الحماية وسمى العهد الانجليزى فى مصر « حماية مقنعة » ، فقابلته واحتججت عليه فقال لى : اننى أشعر معك بالأسف ولكن هذا لا يمنع الحقائق الثابتة • اذا كنتم تغضبون من حكم الانجليز فما عليكم الا أن تقاوموه الى أن يزول • وقابلت لامبير وحكيت له ذلك وأظهرت له غضبى •

وحدث اليوم أيضا حادث من هذا القبيل وبيانه أن الأستاذ جونار مدرس الاقتصاد السياسى تكلم فى درسة عن حكومة مصر فسماها « الحكومة أنجلو اجبسيان » ، فاحتج عليه الطلبة وأوعزت الى على فوزى بكتابة خطاب احتجاج وارساله اليه ، وفعلا تحرر الخطاب ومعنــاه أن حكومة مصر هى مصرية محضــة وأن وجود الانجليز مخالف للقوانين ورغبة البلاد وأمضيناه جميعا وتقدم الى جونار وفيه بعض العبارات الشديدة ، فامتعض الرجل ولم يبد اعتذارا مقبولا ، وحادثه لامبير فى ذلك فأظهر نطاعة • انه بغيض لنفوسنا هذا « الجونار » ! • وقد علم الطلبة الفرنسيون بذلك وكانوا فى صفنا •

السبت ١٩ يونيه :

بلغتنى اليوم أخبار سيئة من مصر وهو خبر مصادرة الحكومة لجريدة اللواء لسان الحزب الوطنى ، واننى متشائم منذ أعادت الحكومة قانون المطبوعات المنحوس الذى احتججنا عليه • ان عهد

سعيد باشا الوزير (١) عهد القوانين الاستثنائية والرجعية وعهد سجن رجال السياسة والفكر ، يقول البعض هذا وأنا أقول ان الانجليز أنفسهم هم الذين يضيقون الخناق علينا لأن الحرية التى تركها كرومر لم تنفع فى التوفيق بيننا وبينهم ، فهم يجربون الاستبداد ، والخديو عباس متفق معهم ضدنا لأجل مصالحه الذاتية وهو أول عامل على محاربة الوطنية خوفا من الدستور الذى يقيده ، وما سعيد باشا ومصطفى فهمى قبله الا أدوات فى يد الانجليز .

الثلاثاء ٢٢ يونيه :

علمت اليوم أن ما أشيع عن غلق جريدة اللواء غير صحيح فسررت ولكن لابد من حدوث أمر أدى لهذه الاشاعة .

الخميس ٢٤ يونيه :

انني لما وصلت ليون وجدت بها مصريين اثنين فقط ، الأول عزيز ميرهم والثانى محمد صالح . وعلمت بعد ذلك بوجود اثنين آخرين وهما ناجى المحب للتصوير وأحمد طاهر . ولكن منذ

---

(١) كان محمد سعيد باشا مستشارا فى محكمة الاستئناف سنة ١٩٠٥ ثم اختير وزيرا للداخلية سنة ١٩٠٨ فى وزارة بطرس باشا غالى فأعاد احياء قوانين القمع وعلى رأسها قانون المطبوعات الذى كان قد أبطل استخدامه وهو القانون الذى يقيد حرية الصحافة ، وقد أثارت اعادة العمل بهذا القانون سخط الشعب والحركات الوطنية ، فقامت المظاهرات احتجاجا على تقييد حرية الرأى والكلمة فى ٢١ ، ٣١ مارس وأول أبريل سنة ١٩٠٩ ، ونشر الشيخ عبد العزيز جاويش مقالة باللواء عن ذكرى دنشواى فى ٢٨ يونية سنة ١٩٠٩ عدتها النيابة العامة طعنا فى حق بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة التى حاكمت المتهمين فى الحادث وفى حق أحمد فتحى زغلول أحد أعضائها وأقامت عليه الدعوى الجنائية حيث قضى عليه بالحبس ثلاثة أشهر .

حضرت وكتبت فى اللواء عن المدينــة وأهلهــا وعيشتها تواتروا وتتابعوا وقسم بعضهم أنفسهم فرقا ، فتوجد عصبة الفتوات ... وفريق لاعبى الطاولة ... وفريق الحشاشين ... وفريق القيافة والعياقة ... وفريق الفقهاء ... وفريق النصابين ، وانى أعادي كل هذه الفرق لانني لا التئم مع واحد منهــا ولا أتفق معها رأيا ولا مذهبا ، على أننى أعطف عليهم جميعا وأتمنى لهم النجاح لأنني مسئول شبه مسئولية معنوية عن وجودهم .

الأحــد ٢٧ يونيه :

نهضت فى الصباح تلبيــة لدعوة الموسيو لامبير واخوانه للاحتفال بمدينة شاربونيير بالنظام المدنى للتعليم Mission Laique فلبست أفخر ملابسى وقابلت الأستاذ على رصيف محطة سان بول وهو لا يركب الا فى الدرجة الثالثــة لأجل المبــدأ ، فلما بلغنــا شاربونيير نزلنا فقابلنا عدد كبير من المصريين المقيمين بها أهمهم فى نظرى على فوزى وعبد الحليم البيلى ، وهناك أيضا قابلنا أعضاء المجلس البلدى والموسيقى ، فتكون موكب يتقدمه تلاميذ المدرسة ثم الأعيان ثم نحن ، وكنت أسير بجوار الأستاذ لامبير ، فلما شعر بالخطوة العســكرية قال لبورت بجواره : هذا يذكرنــا بالخدمة العسكرية .

وأخيرا وصلنا الكازينو وهنــاك صعدنا الى المسرح وخطب لامبير فى فضل المدارس الحرة وفضــل انتشارها على الأمة وأن خلاص التعليم من قيود الدين وفتح المدارس لجميع الطبقات يعود منه خير على البلاد عميم ، فأوعزت اذ ذاك لعبد الحليم البيلى أنه يحمل وردا ويقدمه للأستاذ بعد القاء خطبته ففعل .

الثلاثاء ٢٩ يونيه :

الامتحان هو شغلى الشاغل بدون ريب ولا يمكننى أن أغفل عن الاستعداد له لحظة ، لأجل هذا شرعت فى تلخيص المطولات فى دفاتر صغيرة ولم أجد صعوبة الا فى تدبير ثمن الدفاتر الصغيرة فان دراهمى أقل من أن تعد !

ان مصر فى ذهنى الآن كأنها بلاد احلام سعيدة ومزعجة تربطنى بها روابط ضعيفة من ناحية أهلى وقوية من ناحية حبى للوطن الذى يخفق له قلبى .

الأربعاء ٣٠ يونيه :

لما كنت فى جنيف منذ شهرين كنت أتردد يوميا على مكتبتها الجامعة وكان همى منصرفا الى مطالعة كل ما كتب عن الشرق عامة ومصر خاصة ، وهناك نشأت عندى فكرة وضع كتاب « تحرير أمم الشرق » أو « نهضة الشرق » بمناسبة ما نراه من نهوض اليابان فالفرس فتركيا فيقظة الهند ومصر ، وقد جمعت ما استطعت من المعلومات لأسبكه فى قالب كتاب مفيد .

الخميس أول يوليه سنة ١٩٠٩ :

وصلنى أخيرا كتاب من حضرة فريد بك يقول فيه ان شركة اللواء مقصرة جدا فى حقوقى ووعد بارسال المتبقى فى ذمتهم .

السبت ٣ يوليه :

طالعت فى جريدة الديلى ميل خبر مقتل احد أصدقاء الموظفين الانكليز فى الهند واسمه السير كيرزون ويلى فى احتفال رسمى

بيد طالب هندى اسمه دنجرا وقد جاءت الجريدة بتبيان شافه لهذا العمل السياسى ، وذكرت أن القتل سياسى محض وأنه لم يكن هناك أى عداء شخصى بين الطالب والقتيل . وقد رمت هذه الجريدة الى الانتقام من الصحافى الهندى الحر شيامدجى كريشنا فارما المقيم بباريس وصاحب جريدة الهندى الاجتماعى ونسبت اليه تحريض الشبان على القتل بنشره مقالات عديدة قال فيها : انه القتل السياسى ليس قتلا بالمعنى العادى ، ثم قالت : ان أصل هذه الشرور هو البيت المسمى « انديا هاوس » الذى يقيم فيه الطلاب الهنود بلندن وينفق عليه كريشنا فارما ، وأن هذا المنزل هو مركز ثورة فى البلاد الانكليزية وطلبت من الحكومة الانكليزية مصادرته.

الاثنين ٥ يوليه :

أفتتح هذا اليوم بما يسمى « سخرية الأقدار Comédie de La destinée » . فقد وصل الى البريد وفيه خطاب كبير من أمريكا داخله شهادة باسمى تدل على أن مجمع الخالدين Academy of the Immortals قد انتخبنى عضـوا لمدة تسـع وتسـعين سنة بعد أن ثبت لهم أننى أستحق الخلود ... الـخ الـخ . فدهشت جدا من هذه الشهادة لأننى لم أفعل شيئا يدعو اليها . وضحكت من المقارنة بين استحقاقى للخلود فى نظر جماعة من الأمريكان وعدم قدرتى على الحياة المادية فى نظر الحقيقة !

الثلاثاء ٧ يوليه :

حضر الى هنا ابراهيم دسوقى اباظة وهو فرع من تلك الشجرة الأباظية الكريمة (١) ، وتحادثنا فى شئون مصر لانه من أشياع وأنصار أحمد لطفى السيد رئيس حزب الأمة ، فتكلم عن مجلس الشورى ووظيفته فى مصر .

الخميس ٨ يوليه :

وصل الى خطاب من احد الأصدقاء المصريين يخبرنى أن له علاقة بجريدة اللواء وأنه ذهب مصادفة الى البوسطة فوجد خطابا من خطاباتى لم يسلم لأن عليه ضريبة بريدية قدرها مليمان ، فامتنعت ادارة اللواء تحت اشراف الشيخ عبد العزيز جاويش واسماعيل حافظ وايحاء امين الرافعى وأخيه عن استلامه ودفع الضريبة ، فاستلمه صديقى بعد دفع المليمين فوجد به احدى مقالاتى ، ثم سأل عما اذا كان يوجد غيره فعلم أن هناك أكثر من ثلاثين خطابا على هذه الصورة ، فدفع عنها ستة قروش صاغ وهى عبارة عن ثلاثين مقالة لى حررتها فى شتاء وربيع هذه السنة ولم

(١) تحدث لطفى جمعة فى كتابه « قطرة من مداد لاعلام المتعاصرين والأنداد ، تراجم مصرية واجنبية » عمن عرفهم من الأسرة الأباظية ومنهم ساكر أباظة واسماعيل باشا اباظة وابراهيم دسوقى اباظة وفكرى اباظة وقال عنهم « كلهم أصدقاء أوفياء ولكل منهم معى مكرمة ، والأسرة الأباظية من خير الأسر فى مصر وفيها رجولة ووفاء ووطنية وعلم وأدب ، ولا أدرى ان كانوا من أصل تركى أو قوقازى أو عربى ولعلهم الى غرب آسيا أقرب ، ويعجبنى فيهم تضامنهم ونظافة أيديهم وطهارة ذممهم ووفائهم لأصدقائهم ولمبادئهم فى غير تعصب ولا حرج ولا ضيق عطن ، وهم وان كانوا جميعا فضلاء ، الا أن كل فرد منهم قد استقل بفضيلة أو خلة جميلة تميزه عن سواه » .

تنشر وكنت اظن أنها مزقت أو القيت فى سله المهملات بفضل صداقه أحبابى وأقرانى فى الجهاد الوطنى وبفضل سلامة نية الرئيس فريد بك ، فاذا بهم سلكوا طريقا آخر هو قتل تلك المقالات وهى فى المهد لتحرق بواسطة البوسطة بحجة عدم دفع مليمين !

فيا سماء ويا أرض اشهدى ! ثلاثون مقالة تعبت فيها ودونتها فى نحو خمسة شهور يهلكها زملائى فى العمل وهم يعلمون كم تكلفنى كتابتها ، كل هذا فى سبيل الوطن .

السبت ١٠ يوليه :

خطر لى هذا الخاطر صباح اليوم وهو وضع رسالة بالعربية للمصريين لتوضيح حقوقهم بعنوان « حقوق المصرى وواجباته » أعتمد فيها على اعلان حقوق الانسان الذى وضعه رجال الثورة الفرنسوية وذلك بمناسبة مطالعتى للقانون الذى نشر حقوق الانسان فى فرنسا أيام الثورة .

ولكننى لما تأملت فى الحقوق المذكورة وجدت أنها مواد أملتها روح برجوازية فيها مبادىء الاشتراكية وحرية الفكر ما يبرر اذاعتها فى مصر .

حقيقة أننا فى مصر مهضومو الجانب مغلوبون على امرنا وخصوصا الفلاح ، وحيث أن مستقبل العالم يسير فى طريق الاشتراكية الكاملة وهو ما يسمى هنا : Socialism in Legal فأنا أفتكر أن الأصلح عدم افساد هذا المثل الأعلى بتقديس المبادىء البرجوازية ، بل نترك الباب مفتوحا للمبادىء الاشتراكية، ومركز

فرنسا فى سنة ١٧٩٠ غير مركز مصر فى سنة ١٩٠٩ لأننا لا نعرف ما يخبئه القدر لوطننا السعيد الشقى بأهله وغاصبيه ! وعلى كل حال فاننى لا أستطيع أن أعطى هذه المسألة كل انتباهى قبل الامتحان .

الاثنين ١٢ يوليه :

اليوم انتهت الدراسة بالجامعة انتظارا للامتحان .

الثلاثاء ١٣ يوليه :

خرجت بعد الظهر الى الطرق فوجدت الاستعدادات قد تمت للاحتفال غدا بعيد ١٤ يوليو الشهير ، اننى لم أشهده فى فرنسا الا هذه السنة لأننى فى العام الماضى سافرت فى أول يوليو الى سويسرا . لا يمكننى وصف هذا اليوم لشدة الزحام وكثرة الزينات وأغربها ما وضع أمام منزلى فى ميدان امبير الرياضى الشهير ، فقد شاءت آداب الخلف الصالح أن يخنق تمثال هذا الرياضى بحبال من الزينة ليجعلوا لهم ساحة للرقص بحيث تمتد من رقبة التمثال حبال بها رايات وفوانيس يابانية . يظهر أن الحفلات الوطنية تفقد معناها بمضى الزمن ، فان الذى أراه الآن هو تهتك فى المسرات وقد أعدوا أماكن للشرب والرقص فى كل حى لاحياء ذكرى هدم الباستيل وأعدوا على شاطىء الرون تجاه الجامعة ألعابا نارية وكل الأحباب تواعدوا للقاء ولتحيا الجمهورية !

الأربعاء ١٤ يوليه :

خرجت عند الغروب لأجوس خلال الطرق فاذا الزحام يذكرنى بمولد أحمد البدوى مع الفارق .... رأيت مناظر فجور تقشعر

منها الأبدان، اما الرقص والعربدة والسكر والقتل بين « الأباش » وبعضهم فحدث ولا حرج !

وعند المساء حصل الطواف بالمشاعل وهى زفه عسكر بالموسيقى مثل خروج المحمل ، وهذا شىء عظيم عند الفرنسويين ·

وبعد مرور هذا الاحتفال أمامى بالمنزل نزلت لمشاهدة الألعاب النارية على شاطىء النهر ، فوجدت ليون كلها نزحت ووجدت الظلام مساعدا على الغرام بين العشاق فضجرت واشمأزت نفسى ، ان الحكومة تضحك على عقول هؤلاء الدهماء بالألعاب النارية ولتحيا الجمهورية راقصة مغنية !!

الأربعاء ٢١ يوليه :

تتوقف على هذا اليوم آمال كثيرة ·

حدث امتحانى فى قاعة « الكتبخانة » وتقدمت بقدم ثابتة وقلب خافق أمام الأستاذ فلورير فقال لى : اجلس يا سيدى ، تكلم عن الرهن وأنواعه · فتكلمت ، فقال حسن · ثم ألقى على أسئلة دقيقة لم تحز اجابتى عليها كل رضائه ، فقال لى : هذا يكفينى شكرا يا سيدى ! · ثم تقدمت الى الأستاذ اميو فألقى الى أسئلة فى البيع والتعهدات فأجبته اجابة حسنة ·

ثم تقدمت الى الأستاذ ليمير وهو رجل رحب الصدر والبطن والفكر أيضا ، فامتحننى فى القانون الدولى العام فسألنى عن مراكز المستعمرات والحمايات وقال لى ان مصر محمية مقنعة وسيرفعون قريبا هذا الحجاب عنها اذا سنحت الفرصة ، ثم سألنى عن التحكيم الدولى فأجبته وشكرنى ·

أعلنت نتيجة الامتحان فكنت بين من هنأتهم اللجنة • وفرح بى لامبير •

الخميس ٢٢ يوليه :

الأستاذ بروبيه ممن يتولوننى بعطف ومراقبة جدية منذ وضعت قدمى فى هذه الجامعة ، وقد ظهر هذا النهار اذ ألقى على أسئلة فى غاية الصعوبة من الوجهة العلمية وهى مسائل اقتصادية فرنسوية محلية محضة ، ولحسن الحظ ذكرتها لحضورى الدروس التى ألقى فيها مذكراته ولولا ذلك لعجزت •

وفى الجنائى كان حظى سيئا لأن جارو كان عنده عسر هضم فأخذ يشخط وينظر ويقول لى « تكلم لى على المسئولية المخففة واشرح لى جميع النظريات الحديثة » ، وبالرغم من اتقانى علم هذا الأستاذ فقد وجدت صعوبة فى ارضائه كل الرضا • أما الأستاذ ابلتون الصغير فقد سألنى أسئلة تقليدية فأجبته اجابات جيدة •

النتيجة نجاحى فى جميع المواد ، وقد هنأنى الأساتذة ولامبير وخرجت فرحا جدا بنتيجة الامتحان •

الثلاثاء ٢٧ يوليه :

اعداد الخطبة الفرنسوية للمؤتمر (١) (مؤتمر الشبيبة المصرية الذى انعقد فى جنيف فى سبتمبر سنة ١٩٠٩ وشارك فيه الحزب الوطنى برئاسة محمد فريد) •

---

(١) كان موضوع خطبة لطفى جمعة فى هذا المؤتمر « نهضة الشرق ومصر » •
(كتاب محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠) •

الخميس ٥ أغسطس سنة ١٩٠٩ :

سافرت صباحا الى ايكس ليبان واخترت فندقا بسيطا ٠

الجمعة ٦ أغسطس :

سافرت من ايكس صباحا أقصد قرية جراند بورنان فى هوت سافوا ، ونزلت هناك فى بنسيون اسمه « جراند هوتيل دى لافيكتوار » ، انه بنسيون غاية فى الرخص ونقودى قليلة جدا وأنا انتظر الفرج من مصر ٠

الاثنين ٩ أغسطس :

حدث اليوم حادث غير منتظر وهو أننى اذ كنت فى أشد حالات الضيق المادى ولا أملك نفقة الفندق ، صح عزمى على مفاتحة صاحبة الفندق فى حقيقة أمرى لتمهلنى أو تطلقنى بعد أن أكتب على نفسى سندا ، فشرعت أنفق الصلادى القليلة الباقية معى فى حلاقة لحيتى لأظهر أمامها بمظهر حسن فيكون طلبى أكثر قبولا ٠

وفعلا كلفت الخادم بدعوة حلاق فعاد الى بعد قليل « بشحط » طويل يلبس قبعة مثل صائدى الاسفنج بالاسكندرية وله شوارب كثة مخيفة وفى يده قفة صغيرة ، فأخرج منها موسى كأنه نصف ساطور وصابونة جافة ٠ فقلت له : هل أنت حلاق ؟ قال : لا انما أنا فران ٠ قلت ولماذا حضرت اذن ؟ قال : لأننى أشتغل فرانا شتاء وحلاقا صيفا وليس غيرى بالقرية !!

فاستسلمت له ، واننا لكذلك واذا الباب يدق ودخل على ساعى البريد يحمل الى حوالة بأربعة آلاف فرنك ، فدفعها الى

بعضها ورقا وبعضها ذهبا ووضعها على المنضدة أمامى وأمام الحلاق الفران ، ثم حوالة بألف فرنك ثم نقودا أخرى بشيك على بنك كريدى ليونيه ، فدهشت من هذا الفرج بعد الشدة ، ورأيت الحلاق الفران ــ وشغلته الحديد والنار ــ يرمقنى ويرمق الذهب وينظر الى النافذة وكانت واطئة جدا ، فخطر ببالى أنه يفكر فى ذبحى وخطف المال والفرار ، فنهضت وقلت له : أنا عدلت عن الحلاقة ، وكان قد حلق نصف ذقنى ، فدهش جدا ، وأعطيته خمسة فرنكات فكاد يجن من الفرح وأخذ ينظر الى حتى غادرنى ٠

الثلاثاء ١٠ أغسطس :

شرعت فى كتابة خطبتى التى أزمع القاءها فى مؤتمر جنيف الوطنى المصرى الذى سيعقد فى سبتمبر القادم ٠

بدأت أتكلم فى السياسة مع الأستاذ بيك فاذا هو رجل مستعمر واذا امرأته على أعظم نصيب من الجهل بكل شىء ولكنها تعرف أين الجزائر لأنها وزوجها اشتريا أو ورثا قطعة أرض هناك وينويان الانسحاب اليها بعد انتهاء مدة الخدمة ، فلما كلمتهما فى حرية الجزائر ووجوب استقلالها نظرت المرأة الى شزرا وقالت لى : هذا مستحيل لأننا سنقضى شيخوختنا هناك ٠ فقلت لها : هل يا سيدتى لأجل شيخوختك تذل أمة بأسرها ؟ فقال لى بيك : **اعمل معروفا اترك لنا جزائرنا وتكلم عن مصرك ٠**

وهذه هى عين العبارة التى سمعتها من الأستاذ لامبير لما نشرت فى العام الماضى مقالة عن الجزائر وتونس فى اللواء ٠

ان الموسيو بيك لا يوافق مطلقا على أفكارى السياسية وقال لى : لا أستطيع كيف تتصور مثل تلك النظريات ٠ والعجيب أن

هذه النظريات هى التى قضى عامه فى تعليمى اياها فى القانون الدولى العام ، فانظر بعد المسافة بين العلم والعمل !

الجمعة ١٣ أغسطس :

مللت الاقامة هنا من كل وجه وتولانى ضجر لا مثيل له وعزمت على الرحيل غدا لضعفى وتعبى من الاقامة فى الجبل ٠

السبت ١٤ أغسطس :

ركبت صباحا المركبة الحافلة وقصدنا طون Thones التى جئت عن طريقها ، وهناك ركبت قطارا الى مدينة آنسى Annecy فوصلتها فى الغروب ، ان لبعض المدن روحا مطمئنة ومن هذه المدن آنسى ، فاننى اطمأننت لها بمجرد رؤيتها وصممت أن أقضى بها يوما وأنا بلا ريب قادم على أعمال متعبة فى جنيف ٠

الاثنين ١٦ أغسطس :

سافرت صباحا من آنسى قاصدا جنيف فبلغتها ظهرا ، واذا المدينة مزدانة من أقصاها الى أقصاها بالرايات والأعلام والمصابيح والاعلانات احتفالا بمؤتمر الموسيقى الدولى ٠

الثلاثاء ١٧ أغسطس :

اجتمعت هذا الصباح بأعضاء اللجنة (لجنة المؤتمر) ولم أجد اهتماما من أحد ، فقط رأيت محمد فهمى يعلق أهمية على المؤتمر بصفته موسما فى جنيف ليس الا ، ولكن اعتمادى أنا على الشبيبة الحاضرة من أطراف البلاد ، وأبديت للجنة مزيد اهتمامى واستعدادى للخدمة بكل قوتى لأنه لا غاية لى الا خدمة وطنى بأى شكل كان ٠

الأربعاء ١٨ أغسطس :

انقطعت لتحرير خطبتي وموضوعها « نهضة الأمم الشرقية » وهي باللغة الفرنسوية ٠

الخميس ١٩ أغسطس ــ ٢٣ أغسطس :

حضور حامد العلايلي ومحادثة اللجنة معنا لدعوة المدعوين الانكليز(١)والفرنسويين لحضـــور المؤتمر وذهابنـا الى هارديال والتعرف به واعداد برنامج السفر الى باريس ولندن ٠

الثلاثاء ٢٤ أغسطس :

ركبنا قطار اكسبريس من جنيف الى باريس وودعنـا على المحطة على الشمسي ومحمد فهمي وبعض الاخوان المصريين وأقرضني الشمسي ثياب السهرة لأستعملها في بلاد الانجليز ٠

غايتي هي أنني أتمكن باكـر من زيارة أمهـات الصحف في باريس ونشر اعلان فيها عن المؤتمر ٠

نسيت أن أذكر أن هارديال الذي تعرفت به أمس حضر الى المحطة وودعنا وأعطانا جملة خطابات تعارف ومن ضمنها خطاب لمدام كاما بباريس وشدد علينا في مقابلتها ٠

---

(١) اشترك في المؤتمر من أحرار الانجليز المستر كيرهاردي والمستر بارنز والمستر كتل والمستر هازلتون من اعضاء مجلس العموم (عبد الرحمن الرافعي كتاب محمد فريد ، المرجع السابق ، ص ١٣٠) ٠

الأربعاء ٢٥ أغسطس :

وصلنا باريس السادسة صباحا وبدأنا بزيارة الجرائد المهمة فزرت جريدة « الطان » وقابلت رئيس تحرير الشئون الخارجية وذكرت له مهمتنا واسم مدام جوليت آدم لأؤثر عليه فكان جوابه أن مدام آدم لم تعد لها أهمية الآن فى فرنسا لا فى عالم السياسة ولا فى عالم الأدب وأن ذكر لجنتنا أهم وأدعى للعطف ، ووعد بنشر اعلاننا . ثم زرنا جريدة « الديبا » وقابلنا المحرر وطلبنا منه نشر النبذة المطلوبة . ثم زرنا « الجورنال » و « الماتان » و « الاكلير » وقابلنا من يحل محل ارنست جوديه ووجدنا بغرفته صورة مكبرة لمصطفى كامل ففرحت كثيرا .

وبحثنا طويلا عن عنوان مدام كاما فلم نهتد اليه للأسف .

عدنا عند المساء المحطة لنركب منها الى دييب ومنها الى « نيوهافن » .

الخميس ٢٦ أغسطس :

ركبنا القطار من نيوهافن الى لندن ولا يوجد منظر أجمل فى الطريق مما رأينا ، وأظننا كنا نقطع مقاطعة كنت Kent الشهيرة بخصبها .

وصلنا لندن الساعة السادسة صباحا .... وعكفت على تحرير منشور للأمة الانجليزية ، وفى الساعة الخامسة قابلنا ونستين فى موعد سبق أن ضربته له بتلغراف من باريس وأطلعته على المنشور فوافق عليه ونقح بعض ألفاظه من الوجهة اللغوية وكلفته بطبع ألف نسخة لارسالها لأكابر النواب والكتاب فى انجلترا .

وتوجهنا مساء للبرلمان وقابلنا كيتل فأحسن لقاءنا وأعطانا موعدا لمقابلته باكر ٠

الجمعة ٢٧ أغسطس :

حضر الينا بعض المصريين مثل توفيق دياب والشيشيني ولم يظهر أحدهما أى اهتمام بعملنا ٠

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ذهبنا كموعدنا الى مجلس العموم وكان توم كيتل العضو الايرلندى فى انتظارنا ، فأحسن وفادتنا وعرفنا بجملة أعضاء من الايرلنديين وهم « ريد موند » و « ديلون » و «هازلتون » ،وقد شجعنا ديلون بألفاظ قوية وقال انه يعرف مصر ويعرف مصطفى كامل ويدعو لنا بالنجاح ، **وقال ريد موند ان الانجليز لا يخرجـــون باللطف ولا بمقالات الجرائـد** ودعا لنا بالنجاح وهو الآن زعيم الايرلنديين فى البرلمان ٠

وقدمنا كتل الى بعض أعضاء حزب الأحرار وتحادثنا معهم وقد تكلمنا طويلا عن المؤتمر والأعضاء الذين سندعوهم ، وطبعا ليس أمامنا الا الحزب الايرلندى وحزب العمال ولا أظن أن أى حزب آخر يعيرنا أعضاءه أو يمد لنا يد المساعدة ، وقال لنا كتل انه مسافر غدا ليتزوج فى وطنه وأنه سيحضر الينا فى جنيف مع عروسه ٠

السبت ٢٨ أغسطس :

فى هذا الصباح ذهبنا لمقابلة بعض محررى الجرائد مثـل جريدة « وستمنستر جازيت » وجريدة « جلوب » وجريدة « ديلى نيوز » فقوبلنا مقابلة حسنة ٠

وفى العصر ذهبنا للبرلمان الانجليزى وقابلنا كيرهاردى لأول مرة ودعوته للمؤتمر واستعملت كل ما آتانى الله من نعمة الفصاحة والتأثير لأقنعه باجابة دعوتنا فاعتذر بأنه سبق وأعطى مواعيد ولا يستطيع اجابة دعوتنا ، فكلمته بشدة وقلت له : أنت كنت تبكى لأجل الشعب الجائع منذ عام واحد والآن شعب مظلوم يستغيث بك ولا تساعده لأنه شعب شرقى ، اذن اشتراكيتك قومية لا انسانية • فبهت وتركنا •

الأحد ٣٠ أغسطس :

تعودت أن أذهب الى البرلمان كل يوم وأجد لذة فى ذلك ، متى يكون لنا برلمان ؟ يجب أن تكون الأمم مستقلة وقوية حتى يشعر أعضاء البرلمان فيها بالقوة واللذة •

فى الساعة الثانية بعد الظهر حدث حادث عجيب لى فقد رأيت مكدونالد (سكرتير حزب العمال) ببدلة زرقاء وربطة عنق حمراء (رمز الاشتراكية) جالسا يكتب خطابا ، فجلست أمامه وكتبت خطابى اليه أستعطفه وأطلب انتداب بعض أعضاء الحزب للسفر معنا الى جنيف وكتبت العنوان على الظرف فلمحه وقال : سيدى لا أستطيع منع نفسى عن قراءة اسمى • فقلت له : هل لى شرف التحدث الى مستر ماكدونالد ؟ فقال نعم سيدى أنا هو نفسه • فأعطيته الخطاب وقرأه فورا • ثم قال لى : اننا سنعقد جمعية اليوم مساء وستكون هذه المسألة فى مقدمة المسائل التى نبحثها ووعدنى خيرا وودعنى •

وعدت الى هازلتون ورويت له كل ما جرى فهنأنى على هذا النجاح وقال لى انه أقوى رجل فى الادارة الحزبية . كما أن هاردى أقوى رجل فى النفوذ •

وعرفنـــا هازلتـون ببعض أعضـــاء الأحرار والعمل ومنهم سنودون ، وتعرفنا أيضا بفيكتور جريسون العضو الاشتراكى المتطرف وله تاريخ غريب اهتم به ستيد وألف عنه رسالة صغيرة.

الثـلاثاء ٣١ أغسطس :

فضينا فى الصباح وقتا فى ارسال الدعوة الى مختلف الجهات معتمدين على Year Book وقد خذلنا بعض المصريين أمثـال محمد توفيق موسى دياب الذى يقيم فى البنسيون ولا يظهر أى اهتمام بعملنـا .

وصل الينا فى الساعة العـاشرة تلغراف من المستر بلنت يدعونى فيه أنا والعلايلى الى العشاء وقضاء ليلة فى قصره العتيق الفخم واسمه « مقر المبـانى الجديدة » New Building Place بجوار هورشام بسسكس بجنوب انجلترا الشرقى .

سافرنا على عجل من كلايهام جنكسن وكنت فى غاية التعب والاعياء ، وفى محطة هورشام كانت تنتظرنا مركبة تجرها جياد الخيول العربية لمسافة ساعة تقريبا فى وسط الحقول والأحراش النضرة ، ولما بلغنا الدار استقبلنا رئيس الحشم وأبلغنـــا تحية السيد واعتذر لنا أنه نام بعد الظهر ليقوى على السهر معنـــا ، فصعدنا الى غرفنا ، وأخبرنا أن العشاء يكون بثياب « السموكنج » .

وفى الساعة السابعة مساء دخل علينا فى غرفة الانتظار الرحبة رجل مديد القامة نحيف ذو لحية كثة يلبس الثياب العربية من عباءة وكوفية وعقال وقفطان وبيده عصا طويلة كالعكاز ولكنها الى رقة العود أقرب منها الى ضخامة الهراوة ، فحيانا باللغة العربية

بصوت جميل رفيق كأنه صوت فتى فى مقتبل العمر وقال لنا انه يفضل أن يلبس الثياب العربية فى منزله ٠

ثم جلسنا على المائدة لتناول العشاء على ضـــوء الشموع ، وقد بهرنا ذكاء الرجل وحضور بديهته ووافر أدبه وحلو حديثه وأيقنت باخلاصه عند وقوع نظرى عليه ، وكان يتكلم أثناء الطعام عن مشاهير من عرفهم من المصريين كلاما وجيزا يدل على شدة حبه لمصر وأهلهـــــا ٠

وبعد العشاء انتقلنا الى قاعة الجلوس وهى قاعة فسيحة جدا وعالية جدا وقد زينت بأثاث قديم يدل على عراقة أصحاب القصر فى النبل والثروة ، ولها مدفأة من المرمر الملون ضخمة جدا نقلوا اليها شجيرات بأسرها للاحراق ، فكان منظر تلك الشجيرات وهى تحترق وذلك الشيخ الجليـــل العـــربى الشــوب والمنطق وهو يتكلم فى ضوء تلك النار وذكرياته القديمة الواضحة الجليلة بصدقها ودقتها ، يجعلنا نتخيل أننا فى احدى خيام أمراء العرب الكرام الذين مثلوا فى تاريخ الانسانية دورا عظيما وقد عادوا الى بيوتهم ليقضوا الأيام الأخيرة من حياتهم بعد طول الجهاد فى هدوء وسلام ويروون على خلصائهم ما يذكرون من أيام الشباب والكهولة الناضجة ٠

لقد دام هذا المجلس خمس ساعات من الساعة الثامنة الى الساعة الأولى صباحا ولا أذكر أننى قضيت أمتع منها ولا أنفع ولا أكثر لذة ، وقد كان شوقى الشديد لرؤية هذا الرجل العظيم الذى كان قطعة حية من حياة مصر العزيزة وصـــدقه فى روايته وتحمسه مع شيخوخته لكل ما فيه نفع لمصر ـ من أكبر العوامل على جعل ذلك المجلس من الذ المجالس وأمتعها وأنفعها ٠

كان الحديث عبارة عن أسئلة وأجوبتها ، أسئلة منا وأسئلة منه ، كل يريد أن يقف على الحقيقة من صاحبه فى مسائل تحيره وتهمه .

سألناه عن رأيه فى عرابى فقال لقد انقطعت المراسلات بينى وبينه من زمن طويل وآخر اتصالى به كان بشأن مراجعه ترجمته التى كتبها بيده ونقلتهــا الى كتاب « التاريخ السرى للاحتــلال البريطانى فى مصر » ، وقد أرسل الى بعد ذلك برسائل لم أتمكن من الرد عليها ، لقد كان عرابى صادقا ومخلصا فى وطنيته حقا ، ولكنه كان كثير الكلام قليل العمل ، وكان ذا استعداد خطابى عظيم ولكنه كان ضعيفا فى السياسة والحرب ، ويظهر أن لتعليمه الدينى دخلا فى تكوين حالته هذه ، لقد كنا نود جميعا أن يموت فى ساحة الوغى لأن فراره وطاعته لخادمه قد أساءت سمعته فى نظر الأجانب والمصريين معا ، ولم يكن عرابى مطلقا خائنا ولا مرتشيا ولا بائعا وطنه ، ولكنه كان شديد التردد وشديد الخوف من أوربا .

وسألناه : ماذا يجب على المصريين نحو هذا الرجل ؟ . أجاب : لايجوز لهم أن يحقروه أو يمقتوه ولا يليق بهم أن ينصبوا له تمثالا بل يكفى أن يقفوا على تاريخــه ويعذروه ، ومعاملتــه بالاحترام والتسامح أولى وأجدر .

سألناه : هل كان دخول الانجليز مبنيا على غلطة من عرابى أم أنه كان أمـــرا محتما من حيث الحــرب والســـياسة ومنطق الحوادث ؟

أجاب : الخطأ الوحيد الذى أدى الى دخول الجيوش البريطانية اقترفه عرابى بمخالفته رأى المجلس العسكرى العالى الذى عقد قبل معركة التل الكبير بأيام وهو الذى حضره أركان حــربه وعبد الله

النديم وجان نينيه المؤرخ السويسرى المحب للمصريين ، فقد اجمع رأى هذا المجلس على تعطيل قناة السويس تعطيلا ماديا يمنع الجيش الانجليزى من الوصول الى الشاطىء الغربى لها ، فارســـل عرابى تلغرافا الى ديليسبس يخبره فيه بأن الانجليز يخرقون حياد القناة وأنه مضطر لتعطيلها مادامت دخلت في ميدان الحرب ، فرد عليه فردنان ديليسبس بتلغرافه الشهير « لا تمس قناتى (؟!) بســوء وأنـــا الكفيل لك بانزال عسكريين فرنسويين مع كل عســـكرى انجليزى ! • فتمسك عرابى بهذا التلغراف ، وقال له أعضـــاء المجلس ديلسبس هذا مجنـــون وكاذب وليس فى قدرته أن يفى بوعده وليس تحت سلطته قطان فرنسويان فضلا عن الجنود وأنه لا نفوذ له في بلده وان أعمال الهندسة شيء والحرب والسياسة شيء آخر ، فلم يعمل عرابى بنصحهم وقال أنا خائف من أوربا • وفى الليلة التالية دخل الجيش بدسيسة بعض الضـــباط وبعض الباشاوات المصريين (وهنا ذكر لى واحدا واحدا) •

سألناه عن المرحوم مصطفى كامل لنقف على رأيه فيه لاننا كنا نعلم ما بينهما من الصداقة والمعونة فى خدمة مصر فأثنى عليه ثناء كبيرا وشكا من تراخى فريد بك وقال : لقد كان مصطفى كامل هذا الشاب عجيبا وكانت له حدة ذكاء ونشاط لم أر مثلهما عند كبار الأوربيين ، فقد كان عندى هنا فى سنة ١٩٠٦ (عام دنشـــواى) وكانت صـحته ضعيفة ولكنـــه بعد الغداء استمر يكتب أكثر من خمسين رسالة ومكتوبا لأصدقاء مصر باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كأحد أبنائها ، وقد أسفت كثيرا لموته قبل الأوان لأنه كان يرجى على يديه لمصر خير كبير •

وتكلم عن علاقته بالخديو فقال : انه لا يحبـــه وأن علاقته به قد انقطعت منذ بضع سنين ، وقد حـــاول سموه تجديد المودة بعد ذلك فلم تمكنه من ذلك الظروف •

وتكلم عن فريد بك فقال انني معجب به بوصف كونه رجلا مهذبا من أسرة شريفة (جنتلمان) ولكنه سيىء الحظ لأنه خلف زعيما عظيما بنفسه ولم تكن لديه مواهبه ، ان فريد بك رجل طيب فحسب وهو صادق أيضا .

وسألناه عن رأيه في بلاد العرب فقال انه ينتظر للجزيرة العربية مستقبلا عظيما ولابد أن يتحد العرب لتأسيس دوله حرة مستقلة ، وقال ان أخلاق العرب أعظم أخلاق في العالم ولهذا فهو لا يخشى عليها ضياعا ولا استعمارا .

وباحثنا في انشاء جمعية سرية على غرار جمعية الاتحاد والترقى التركية ، فقال لنا انني أعتقد أنه من العبث وضياع الوقت تحويل أو محاولة تحويل انجلترا الى فكرة الجلاء عن مصر ، فان عقول الانكليز غير مستعدة للاقتناع بذلك ، ولكن يمكن أن يتحولوا عن فكرتهم فيما لو أحسوا وتأكدوا من أن قبضتهم على مصر سوف تثير لهم الأخطار والمتاعب .

ثم سألنا عن بنيامين موزلى وظهر لنا أنه لغاية الآن لم يكن يعرفه ولم يره ولم يعلم بالدور الذى مثله موزلى في السياسة المصرية بمعونة الخديو وبعض رجال سياسة انكلترا ، فأفدناه بما نعلمه عن الرجل وحبه مصر ورغبته في اتفاقها مع انكلترا على قدم المساواة وحبه للخديو حبا شخصيا وبغضه للورد كرومر وحقده عليه (١) .

---

(١) يذكر سعد زغلول فى مذكراته أن امرأة قدمت عريضة للنيابة العمومية بأن هناك جمعية سرية تألفت من سبع سنوات لمعارضة الحكومة الانجليزية وتهييج الرأى العام فى انجلترا على ادارتها فى مصر ، وأن الخديو كان مشجعا لهذه الجمعية مع بعض الانجليز والوطنيين وأن لدى هذه المرأة أوراقا تؤيد =

ثم توسط بلنت بيننا وبين مستر روتستين على أن يدفع له ثلاثين جنيها ليسافر مندوبا عن بعض الصحف الانكليزية ليصف المؤتمر ويكتب عنه ما يجب أن يكتب خدمة لمصر لوقوفه على المسألة المصرية وقوف خبير صديق ، فوعدته بأن فريد بك يفي بدفع دين صحف الحزب الوطني لروتستين مد كان مكاتبا لهـا في لندن ، وأخبرنا بلنت أن روتستين يعد كتابا عظيما عن مصر وأنه يخدم مبدأنا بلا ريب .

كان بلنت يود أن يطيل السهر معنا ولكن صحته لا تسمح فاستأذنا في نهاية المجلس مراعاة لصحته وشيخوخته وكان يطيب لنا أن نبقى معه أياما متتالية ولم تغمض لنا عين بعد فراقه ، وكانت الغرفة التي نمنا فيها حافلة بمؤلفات حميه بيرون فقرأنا فيها حتى الصباح .

في نظري أن بلنت من أجمل الرجال وأنضلهم ونفسه طاهرة جدا وأخلاقه لم تكن تسمح بنجاحه في السياسة لأنه صريح وصادق ومحب للحق مثالي .

= دعواها ، وأن موزلي متهم فيها (مذكرات سعد زغلول ، تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان ، الجزء ٣ ، سنة ١٩٩٠ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥) .

ويذكر محمد فريد في مذكراته أن موزلي كان قاضيا بالمحاكم وكلف بالاستعفاء فاشتغل بعد ذلك بالمحاماة وأنه كان من شركاء الشيخ علي يوسف في الأمور السياسية وتوصل الى أن صار رسول الخديو لدى بعض كبار الانجليز بلندن وكان يأخذ منه مبالغ جسيمة لهذا الغرض .

(أوراق محمد فريد ، المجلد الاول ، مذكراتي بعد الهجرة (١٩٠٤ ـ ١٩١٩) ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، اعداد الدكتور عاصم الدسوقي ، سنة ١٩٧٨ ص ٥٦) .

وقد اعطانا نصائح كثيرة وخطابات توصية عديدة منهـــا الى أسرة مينيل الشاعر وزوجته الشاعرة أو الكاتبة ٠

لقد تبددت من ذهنى عند لقائه كل الشكوك والاشاعات التى كانت تمثله فى مصر أنه صنيعة الانجليز وأنه كان يعمـل لمصلحة الاستعمار ٠ هذا كذب ليس هذا الرجل من هذا النوع ، انما هو صدق وعود الانجليز وآمن بحريه حزب الأحرار لاسيما غلادستون وظاهر أن فى مصر رجالا فخانته الظروف فى الأمرين ٠

هذه حقيقة الرجـــل ، والذى نفعه وستره والذى أضر به فى الوقت ذاته هو ماله وثروته ، ان المواهب مع المال قد تموت وقد تجنى على صاحبها ٠

الأربعاء أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ :

نهضنا فى الصـــباح مبكرين وأفطرنا مع بلنت وزرنا بقيادته مربط أفراسه وكان يذكر لنا كل جواد باسمه ولقبه وسلسلة نسبه ووصفه العربى كقوله « هذا محجل اليمين » وهذا « الأغر » وهكذا ٠

وأعطانى خطابه الى المؤتمر باللغة الفرنسوية وحتم على أن أقرأه بنفسى نيابة عنه وطلب منى رده اليـــه لأنه ليس لديه نسخة أخرى منه فوعدته بذلك ٠ وزودنا بصـــورته باهدائه وهى تحمل تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ ٠

وقد علمنا منه عرضـا أنه يعيش منفصـــلا عن زوجتـــه لادى آن بلنت حفيـــدة اللورد بيرون ، وأن ابنـــه البكر مات فى السابعة عشرة من عمره وأن ليس له سوى بنت واحدة وهى التى وهبت أرضا للشيخ محمد عبده بنى بيته بعين شمس على جزء منها وباع جزءا منها وأنها عاشت فى مصر وصحبت بلنت فى أسفاره وأتقنت اللغة العربية ٠

فهمنا من بلنت أن ونستون تشرشل سيزوره ظهرا ، ولأجل هذا عزمنا على السفر قبل حضوره لأنه لا يسرنا أن نراه ولا أمل لنا فى شىء ، وعلاقة بلنت به ترجع الى صداقته بأبيه راندولف تشرشل .

وصلنا لندن بعد الظهر وذهبنا توا الى البرلمان حيث روينا لهازلتون مقابلة بلنت ، وقابلنا كير هاردى وقال لنا : انه لن يحضر المؤتمر لأنه ارتبط بمواعيد سابقة فتوسلت اليه واستعملت كل وسائل الفصاحة والاستهواء بحضور هازلتون وبارنز وحامد العلايلى فكان كلامه الرفض كما أن حزبه رفض أيضا حضور المؤتمر بكتاب أرسله الينا وقالوا انهم لا يستطيعون الاشتراك فى المؤتمر (١) .

الخميس ٢ سبتمبر :

زرنا ويلفريد مانيل فى بيته بشارع اكسفورد بلندن وتعرفنا بزوجته وابنته وهو صديق حميم لبلنت وتعشينا عندهم ، ولكن العلايلى أزعجهم بقوله انه يتمنى احتلال انجلترا بالألمان ليذوقوا ألم الحكم الأجنبى (؟!) ، فتألمت المرأة وكظم الزوج غيظه وصار مركزى حرجا ، وانصرفنا بعد أن دعوناهما للمؤتمر فرغبت المرأة واعتذر الرجل ، ولعله كان يقبل لو لم يفسد علينا حامد قلبه بفكرته .

---

(١) سجل بلنت فى مذكراته اليومية زيارة لطفى جمعة له يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٩ ودعوته لحضور المؤتمر ، كما سجل ماتلا ذلك من علاقة بينه وبين الاستاذ جمعة والرسائل المتبادلة بينهما .

(راجع :

— My Diaries, Being a personal narative of. events, 1888-1914, by Wilfrid Scawen Blunt, , P. 2, 1900-1914, London, P. 278, 282, 290, 293, 329, 332 ; 384, 410)

ثم زرنا الزعيم الهندى خابردى فى منزله وهو قادم ليدافع عن صديقه تيلاك المسجون فى الهند وأعطانا تقريرا عن القضية ، وزودنا بنصائح استفادها الهنود من طول الاحتكاك بالانكليز أهل المهارة السياسية ، وقال لنا اكتموا ما تريدون تنفيذه من الاصلاح وأعلنوا الأمور التافهة لأنكم اذا صرحتم بكل شيء تجدون من يعرقل أعمالكم .

الجمعة ٣ سبتمبر :

ذهبنا الى مجلس النواب الانجليزى وحادثنا بعض الأعضاء الايرلنديين والانجليز وقد قابلنا مستر ويلسون وأخبرنا أن حزب العمال قبل الحضور للمؤتمر ، ووصل الى يدنا تلغراف من كيرهاردى جاء فيه أنه سيحضر المؤتمر مع عضو آخر بالنيابة عن حزب العمال ، وأخذنا نتساءل عن العضو الآخر الذى سيحضر مع كيرهاردى ولكن المهم هو حضور كيرهاردى نفسه .

الثلاثاء ٧ سبتمبر :

سفرى من لوندره ووصولى باريس مساء واشتغالى بالخطبة الفرنسوية المزمع القاؤها بالمؤتمر .

الخميس ٩ سبتمبر :

سفرى من باريس مساء ووصول القطار الى محطة جنيف الساعة السابعة صباحا . لم أجد أحدا فى انتظارى على الرصيف سوى عبد الحميد سعيد فحسبت أنه حضر للقائى ولكنه سرعان ما بدد الوهم بسؤالى عن أحمد لطفى السيد بك وهل هو معى فى القطار فقلت له اننى لم أره وفهمت من حديثه أنه سمع أن لطفى السيد يحضر غدا فجاء لاستقباله . فتركته .

السبت ١١ سبتمبر :

وصلت برقيات تنبىء بوصول كيرهاردى وهازلتون وروثستين فأخبرت الجماعة (أعضاء اللجنة) وذهبنا فى المســاء الى محطة السكة الحديد لاستقبالهم ، فلما رآنى هاردى هال لأنه لا يعرف سواى ، فعرفته بالجميع ، وكان هازلتون هاشا باشا وأخبرنا أن كيتل يصل عما قريب • وقد أحدث وصول كيرهاردى الى جنيف طنة ورنة فجاء مكاتبو الصحف لمقابلته واجراء أحاديث معه ، فكنت أترجم له من الفرنسوية الى الانجليزية وبالعكس وعملت على راحته فى فندقه والقيام بكل مطالبه ورأيت محمــد فهمى يتزلف اليــه ويستعمل على الشمسى فى الترجمة له •

الأحد ١٢ سبتمبر :

اشتغلت فى الصباح قليلا فى تنقيح الخطبة وذهبت لزيارة كيرهاردى فوجدت فريد بك قد ذهب لزيارته ومعه بعض أعضـــاء الحزب الوطنى أمثال اسماعيل لبيب والشيشينى بك والدكتور منصور رفعت • ثم جاء محمد فهمى وعلى الشمسى ، فلمـــا رأونا انقبضوا وقالوا باللغة الفرنسوية بلفظ سقيم : اعملوا معروفا يا سادة لا تتعجلوا الرجل ولا تجعلوه يتأثر بأى فكرة سابقة فاننا هلكنا فى سبيل قبوله الدعوة للمؤتمر (؟!!) •

فسألنى هاردى عن أقوالهما فنقلتها اليــه مخففة فقال : أنا لا أتأثر بأحد وأتبع دائما ضميرى ولا أعرف شيئا الا الحق •

وفى المساء اجتمعت اللجنة فبدا محمــد فهمى يلقى خطبة خلاصتها أنه ساخط لمجىء الحزب الوطنى وأنه مستغن عن اشتراكهم فى المؤتمر وأن هذا المؤتمر من عمل اللجنة الدائمة فى جنيف ، ثم نظر الى وقال : « اعمل معروف يا أخى ماتخليش مبادىء حزبك

تؤثر عليك لأنك عضو فى اللجنـــه فقط ولست تمثـــل الحزب الوطنى » (١) • ولم يتكلم الشمسى لأنه متفق معه على هذه الخطة ، وكان حامد العلايلى ماكرا فى كل المسالك ويوعز الى اللجنة سرا ضدى مع أننى أنا الذى أحضرت كيرهاردى وأقنعتهم بقبوله •

الاثنين ١٣ سبتمبر :

عقد المؤتمر جلسته الأولى هذا الصباح فى قاعة كبيرة للحفلات تستعمل مسرحا •

وألقى محمد فريد بك خطبته قراءة من الورق (٢) •

وحضر المكاتبون والسكرتاريون وأرسلت الأخبار بالتلغرافات الى أنحاء العالم •

وكان عثمان غالب باشا حاضرا وكانت له هيبته كما حضر جميع المصريين الذين قدموا من مصر ومن أنحاء أوربا ، وقلقت لعدم حضور كيتل •

وعند الظهر توجهنا لتناول الغداء فى حديقة Park de Eaux Vives وجلس بجوارى لطفى السـيد بك وابتـدأ يغمز ويلمز محمد فهمى ويقول انه لا يليق لرئاسة اللجنة ، فقلت له انها رياسة اسمية والجلسات تعقد تحت رياسة رجل ممتاز بالدور •

---

(١) انظر فيما يلى خطابات الدكتور منصور رفعت والأمير العطار الى محمد فريد بشأن قرار لجنة المؤتمر بفصل لطفى جمعة من هيئة المؤتمر « لكونه جرىء وثورى وينتمى للحزب الوطنى » ، وكذلك فصل حامد العلايلى لكونه صديق لطفى جمعة « وغير مؤدب ! » •

(٢) راجع الخطبة فى كتاب « محمد فريد » لعبد الرحمن الرافعى ، ط ٤ ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٢ ــ ١٣٦ •

وحضر أثناء جلسة بعد الظهر جون كيتل وزوجته ، فرحبنا بهما وقضيت سهرتى معهما ومع هازلتون فى شرفة الفندق ٠

الثلاثاء والأربعاء والخميس ١٤ ، ١٥ ، ١٦ سبتمبر (١) :

اليوم هائل جدا ! ألقى كيرهاردى خطبته المنتظرة فى حفل حاشد لم أر أكثر منه عددا ، فانحى على مصر باللائمة ومدح كرومر والاحتلال وامتن علينا بالاصلاحات فى الرى والزراعة ، فخابت آمالنا ودهش أعضاء البرلمان وصفق له الجميع ونجح نجاحا بالغا ٠

وفى الحال نهضت وطلبت الكلمة فرفض محمد فهمى ، فرجوته أن أقول كلمة لشكر الرجل ، وهذه حيلة منى ، ولما وقفت دهش الناس الذين سكروا بكلام الزعيم دون أن يفهموا مغزاه ، فألقيت خطبة من نار ورددت عليه كل آرائه كلمة كلمة وقلت له أنت جئت تسمعنا مدحا فى كرومر ومدحا فى الاحتلال وليس هذا أملنا فيك ، هذه صورة طبق الأصل من كلام الانجليز فى مصر وأنت زعيم حزب العمال تقول الحق وتدافع عن الحرية ، وهنا لم تقل الحق ولم تدافع عن الحرية ، بل قويت ساعدهم علينا ، فنحن لا نقبل كلامك ، وإن الذين صفقوا لك لم يفهموا الانجليزية ولا يمكننى أن أترك هؤلاء الناس فى حيرتهم ، نحن نطلب الحرية والاستقلال كاملا ولا نرضى بهما بديلا ، واذا كنا نقبل النصح بالصبر والرضا فلم اذن عقدنا هذا المؤتمر ؟ وهل نسيت حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ وتقييد الصحافة وحبس الزعماء وفيهم جاويش الذى فى السجن ؟

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن مؤتمر الشبيبة المصرية بجنيف (سبتمبر سنة ١٩٠٩) ، راجع كتاب « محمد فريد » للمرحوم عبد الرحمن الرافعى ، ط ٤ ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٦ ٠

فحدثت موجة جنـون فى المؤتمر وهللوا وصفقوا وحـــدث اضطراب شديد وهرب هاردى بدعوى أنه غضبان ٠

وكاد محمد فهمى وعلى الشمسى يجنان جنونا ، **وحملنى الطلبة والأعيان على أكتافهم وطير البرق نص خطبتى الى العالم بالتلغراف ٠**

وعاد النظام بالتدريج وقام بارنز عضـــو البرلمان مع هاردى والقى كلمة هادئة عن صاحبه وقال نحن استكلنديان لا انجليزيان ٠

وخطب هازلتون وكيتل حطبا يؤيدان فيها وجهـــة نظرى ، وبالجملة فزنا دوزا عطيما وأفسدنا الخطة التى وضعها هاردى وحزبه فى الخفاء وهى انه يخطب خطبة معتدله ليحسن علاقته مع حكومته ولا تهمه السياسة الخارجية ، لأنه لو خطب خطبة حاميـــة لهاج سخطهم ، وهذه خطة دبرها ماكدونالد بعد أن ظن أننـــا نكتفى بأعضـــاء ايرلنديين وبدعـوة جريسون Groyson وهو اشتراكى متطرف ، فجاء هاردى ليحبط أعمالنا مع أنه كان يرفض الحضور ، وقد فطن هاردى الى أنه فشل وســـقط فى نظرنا وأن مجاملتـــه للسياسة الانجليزية لن تفيده فتيلا ٠

وحقيقة أننا لم نتفق معه على شيء ، ولكن كان معلوما أنه جاء لنصرتنا لا لأجل خذلاننا ، وكان محمد فهمى يتملقه وهو يوافقه مع الشمسى على هذه الخطة الخبيثة والا خرج المؤتمر من أيديهم ، وظنوا أننى عملت هذا باتفـــاقى مع فريد بك ، ومع كذب هذا فان فريد لا يفهم هذه المسائل ولا هم له الا القاء خطبته وحضور الولائم ٠

ولأجـــل هـــذا كانت دهشـــة فريد عظيمـــة حتى انه قبلنى وبكى وضمنى الى صـــدره وقال لى : أنت ابنى ، أنت خليفتى ، أنت زعيـــم ٠٠ الـخ ، ولكننى لم أكترث لكل هـــذه المســـائل وكان كل همى أننى أحضرت كيرهاردى من انجلتـــرا وتكبـــدت

مشقات ، فضميرى لا يسمح لى أن أراه يخون فكرتى ويخيب آمالنا فيه ونظرت اليه بعين الاحتقار ، ولكننى أخذت بحق أمتى ووطنى ٠

وبعد الظهر حضر الى بارنز وقال : ان هاردى عاتب عليك لأنك لم تطلعه على خطبتك وردك عليه ٠ فقلت له : أنت مازح يا مستر بارنز كيف أطلعه على خطبة ارتجلتها ارتجالا ردا على خطبة ارتجلها هو ولم أكن أعلم ما يقول ، ولو أطلعته أو أخذت اذنه لذهبت الفرصة ، واذن كان الموت أحب الى من أن أفرط فى هذا الحق ٠ فقال بارنز : أرجوك بالنظر الى سنه ومقامه أن تأخذ بخاطره لأنه اعتذر عن وليمة العشاء ، فقلت له . ان عدل خطته فأنا صديقه وتلميذه ولكن ليس قبل هذا ٠

وخطب بارنز وهارديال الهندى والهلباوى ولطفى السيد وحامد العلايلى كما خطب هاردى خطبة عظيمة جديدة مدح فيها مصر وأنذر الظالمين بعاقبة كالتى أصابت فرعون موسى لتعذيبه بنى اسرائيل ومدح الوطنية المصرية وانتهى المؤتمر وسافرت الى ليون ٠

الجمعة ١٧ سبتمبر :

لقد تعبت فى هذا المؤتمر تعبا شديدا ووجدت خيانات ودسائس حتى من صديقى حامد العلايلى الذى ناصبنى العداء منذ رآنى أعمل باجتهاد وأن أعمالى تكلل بالنجاح وقد اتهموه بانه من حزب الخديو ، بل انه مبعوث الخديو مع أنهم هم كانوا أتباع سموه والمؤتمر يعمل لحسابه سرا وقد أمدهم بأموال وأنا لا أعلم شيئا عن هذا ولم أطلع على أسرارهم ٠

كان فى المؤتمر تياران ، تيار الحزب الوطنى وتيار الخديو وأنا لا أعلم ولكننى اتبعت تيار الحق والوطن ولذا كتب الله لى التوفيق ، وأصبحت جنيف مبغوضة فى نظرى فلم أودع أحدا غير

كيتل وزوجته وهازلتون وقد أقاموا لى مع هارديال الهندى حفلة صغيرة لتكريمى وهم يعتقدون أننى قمت بعمـــل ناجح بمقـاومة كير هاردى وقد فهموا روح محمد فهمى هو ومن معه (١) •

وصلت الى بيتى فى ١٤ شارع رامبار دينى بليون وأنا مريض منهوك القوى •

الاثنين ٢٠ سبتمبر :

بداية تعريب خطبتى فى المؤتمر •

عزمى عزما ثابتـــا على تمثيـل الأمة المصرية فى مؤتمـــر « الأمم المظلومة » الذى سيعقد فى لوندره فى الشهر القادم •

الفراغ من ترتيب كتابى الحديث « نفثات الروح الحائر » •

---

(١) نورد فيما يلى خطابات الدكتور منصور رفعت والأمير العطار الى محمد فريد بتاريخ ١٨ ، ٢٠ ، ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٩ بشأن قرار لجنة المؤتمر بفصل لطفى جمعه وحامد العلايلى من عضويتها ، وقد نشرت هذه الرسائل فى كتاب « أوراق محمد فريد » ، المجلد الثانى ، المراسلات ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور مصطفى النحاس جبر ، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٦ ، صفحات ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، على التوالى •

ليلة ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠٩

سيدى العزيز فريد بك •

بعد السلام يحزننى أن أفيدكم بأن لجنة المؤتمر انعقدت بعد ظهر اليوم وطلبت حامد العلايلى ليكون ضمن الأعضاء وبعدها قررت ما يأتى :

أولا : طرد لطفى جمعة من هيئة المؤتمر بناء على كونه جرمى وثورى وينتمى للحزب الوطنى •

ثانيا : طرد العلايلى بك لكونه صديق لطفى ولأنه غير مؤدب •

الثلاثاء ٢١ سبتمبر :

وصول جواب من هازلتون. ومقالة عن المؤتمر فى الديلى نيوز بقلم روثستين ومقالة فى المورننج ليدر بقلم كيتل ومقاله ما نشستر جارديان بقلم هازلتون ·

زيارة عبد الحميد سعيد ومشروع تأسيس لجنة جديدة على شروط أحسن من اللجنة القديمة ·

= وحيث أن هذا الأمر يهمكم جدا ، فقد أسرعت بتسطيره اليكم · وقد اخرجوا العلايلى من الجلسة بعد أن طعنوا طعنا مرا على الحزب الوطنى وقالوا انهم كانوا فى غنى عنه وعن مساعدته لهم ، وأنهم لجنة دائمية منفصلين عن كل الأحزاب ، فهل هذا نتيجة مجاهدتكم وسعيكم لتدريبهم ؟ · يأسف الانسان من أمثال هؤلاء الجهلة الأغبياء وان ذلك مما يدعو لتثبيط الهمم ، وقد وعدت اللجنة بتسطيره بهذا المعنى لكل من العضوين المرفوتين وسأرسلها لكم عند الحصول عليها وبعدها تقروا الرد عليهم وفضحهم واظهار خبث نواياهم لكافة المصريين حتى ينبذوهم ويتبرأوا من أعمالهم ، وفى الحال نعقد مؤتمرا مكونا من أعضــاء جــداد ويكون مركزيا حتى نقضى على هؤلاء الأســفال ، وان كل الطلبة ناقمون عليهم ، ساخطون على أعمالهم ·

فأرجوك أن تفيدنى عن رأيك فى هذه المسألة ، وفى حالة صدور الجوابات بهذا الشكل وبهذه الألفاظ ، سأتوجه أنا والعلايلى وخالد بك الفوال الى ليون لمقابلة الشهم البطل لطفى جمعة الذى توجه أمس الى ليون ، ونطلبك بالتلغراف حتى تحضر وتقرر ما يمكن اعماله ، لأن الأوباش قرروا ارسال جوابات الرفد عند صدورها لجرائد مصر وجرائد أوربا ، فيدنى عن رأيك · وتقبل سلامى ·

منصور رفعت

عنوانى كوك جنيف

يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٠٩ ·

سيدى العزيز سعادة محمد بك فريد

أهديك سلامى ···

الأربعاء ٢٢ سبتمبر :

تلغراف من فريد بك استدعائى لباريس وسفرى الى باريس ووصولى الساعة الواحدة بعد نصف الليل ٠

الخميس ٢٣ سبتمبر :

اليوم الأول فى باريس ٠ وحديث مع فريد بك عن مصطفى كامل والخديو وغداء مع طلعت حرب ٠

مكاتبة فرح أنطون فى فندقه بباريس وزيارة عثمان غالب باشا ٠

أما مسالة عزل لطفى جمعة وحامد العلايلى فقد وقفت الآن ، حيث أن باقى اعضاء اللجنة وجدوا أن الرأى العام معضد لطفى جمعة وزميله ، ولذلك أدركوا خطأهم وارسلوا مصطفى الشمسى كى يستسمح العلايلى بك فرفض هذا طلبهم ، وللآن لم يرسلوا جوابات الرفت اليهم ، وقد نصحت الى العلايلى بأن لا يجتمع عليهم ولا يتشاكل مع أحد منهم ، وأنا ممنون جدا لأن أغلب الطلبة والزائرين ناقمين على فهمى (يقصد محمد فهمى سكرتير لجنة الشبيبة بجنيف) وشركاه ، وان كل الاحتياطات ستعمل للسير فى خطة التعقل والتروى ، وكل شىء مهم سنحيطك علما به أولا بأول سواء فى مصر أو فى باريس ٠٠٠

وتقبل اخلاصى واحترامى ٠

صديقكم المخلص
منصور رفعت

٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٩

سعادة والدنا المفضال محمد بك فريد ٠

وصلنى كتابك الكريم ، وعليه فأخبركم بأن اللجنة (يقصد اللجنة الدائمة لجمعية الشبيبة المصرية فى أوربا ومقرها جنيف) كانت قد نظرت فى احدى جلساتها فى أمر لطفى أفندى ومعه العلايلى أفندى بحضور الأخير ، وفى نهاية الجلسة =

الجمعة ٢٤ سبتمبر :

صباحا مع فريد بك ومحادثات سياسية معه ·

السبت ٢٥ سبتمبر :

صباحا مع طلعت حرب وفريد بك وآراء الأول فى المسألة المصرية ·

بحثت مع فريد بك فى شأن اللجنة الممثلة للحزب الوطنى فى باريس وتحرير جريدة « ليتندار اجبسيان » (١) ·

الأحد ٢٦ سبتمبر :

غداء مع فريد بك ومدموازيل بيبه (٢) وزيارة مدام آدم وقضاء المساء مع فرح أنطون ومحادثات لذيذة ·

= عند أخذ الأصوات ، طلبت من السكرتير أن يكتب ما أمليه عليه بخصوص العضوين المذكورين ، وعليه فرفعت الجلسة وأنا فى البدء ، ولم ترد اللجنة أن تقرر شيئا حتى تتم جميع ملحوظاتى التى أتعشم ان نهيئنا لقبول الحق والله ولى التوفيق · وفى الختام تقبل منى فائق التحية وعظيم الاحترام ·

ولدكم المحافظ
الامير

(١) تأسست فى سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لاصدار جريدتى « ليتندار اجبسيان » و « اجبشيان ستاندرد » ، الأولى تصدر فى المساء والثانية تصدر فى الصباح ، وقد صدرت جريدة ليتندار اجبسيان يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧ ·

(٢) مدموازيل بيبه : Biais سكرتيرة جمعية النساء الفرنسيات بباريس ·

الاتنين ٢٧ سبتمبر :

سفرى من باريس صباحا ووصولى ليون فى الساعة ١١ ·
حديث حامد العلايلى عن أعمال لجنة المؤتمر فى جنيف واساءتهم اليه·

الأربعاء ٢٩ سبتمبر :

تغدينا فى وليمة أولها لنا الدكتور منصور رفعت مدير سياسة اللواء فى قهوة بلكور وتحادثنا مليا فى الشئون السياسية ·

استلمت كتابا مهما من المستر بلنت عن المؤتمر وفيه نصائح نافعـــة ·

السبت أول أكتوبر ١٩٠٩ :

بعد الظهر حررت جوابات لبلنت وكتل عن المؤتمـــر الدولى ومصر كما حررت خطابا لمحمد بك فريد (١) ·

---

(١) نشر هذا الخطاب فى « أوراق محمد فريد » ، المجلد الثانى ، المراسلات ، الجزء الأول ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، وهذا نصه :

ليون فى أول اكتوبر سنة ١٩٠٩ ·

سعادة الرئيس الهمام محمد فريد بك حفظه الله ·

السلام عليكم ورحمة الله

أرجو أن تكون متمتعا بتمام الصحة والعافية وأن تكون سفرتك الى بلاد الانكليز عادت بالنفع المطلوب ·

أخرنى عن الكتابة اليك منذ فارقت باريس مرض لازمنى الى أمس وقد خفت وطأته والحمد لله ·

كتب الى مستر بلنت مفسرا لهجة روتستين بأن ادارة الديلى نيوز شوهت المقالة ، ونحن قد نقبل هذا العذر ولكن هذا لا يرد الضرر الذى وقع ، ومهما تكن الحال فلا أظن أن هذا المكاتب القديم يعود يخدم غرضنا باخلاص ، ان الأفاعى وان لانت ملامسها ··· الخ · =

الاثنين ٤ أكتوبر

لقيت مسيو لامبير فقضيت معه ربع النهـار فى محادثات علمية وسياسية فنصح الى بحث أبنـاء وطنى على تأليف جمعيات لتشجيع التعليم كما هى الحال فى فرنسا وقال ان أمل مصر الحقيقى هو فى شبابها لا فى المتقدمين فى السن ، **وتكلمنا عن الشريعـة الاسلامية فأثبت لى بالأدلة العقلية والنقلية أن ديننا هو دين تطور evolution وترقى** •

= هذا وان اقامتى معكم بباريس اكدت لى من جديد علو همتكم واخلاصكم فى خدمة متحمد مصر الشريف ، وانتى واثق أن هذه الهمة لن تضعف وذلك الاخلاص الطاهر لن يتحول ، لذا جئت من جديد مؤكدا لكم تمام موافقتى على هذا المسلك الشريف ، راجيا من الله ان يوفقنا جميعـا الى ما فيه خير الوطن •

واننى منتظر بفارغ الصبر بروجرام المؤتمر الوطنى المصرى الذى سينعقد فى مصر تحت رئاستكم يوم ٢٥ ديسمبر الآتى ، والذى سيكون ـ كما تفضلتم باخبارى شبيها بالمجالس النيابية من وجهة المناقشة ومدة الانعقاد • (عقد هـذا المؤتمر فى ٧ يناير سنة ١٩١٠ بدار اللواء تحت رئاسة محمد فريد وألقى فيه فريد خطابا جامعا تناول فيه المسائل الوطنية والديمقراطية والاقتصادية وحقوق الفلاحين وتشريعات العمال ، تراجع الخطبة فى كتاب « محمد فريد » لعبد الرحمن الرافعى ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٤ ، ص ١٣٧ ـ ص ١٤٨) •

وانى أؤكد لكم ـ يا سعادة الرئيس ـ أنه ان تم كما تريدون ونريد ، كان له أعظم تأثير ، سيما عقيب مؤتمر جنيف الذى لا يرتاب أحد فى أنه كان فوق ما أمل أصدق أصدقائنا •

أرجو تبليغ تحيتى واكرامى لسعادة الهمام الفاضل عثمان بك غالب الذى شجعنى كثيرا بنصائحه وحكمه المخلصة •

ربما مر بكم أخونا حامد العلايلى بعد يومين • نحن منتظرون قدومكم الى ليون كذلك الدكتور منصور رفعت •

تقبلوا تحيتى واكرامى •

المخلص

محمد لطفى جمعه

وصول خطاب من فريد بك وقدومه .

التلاثاء ٥ اكتوبر :

نهضت صباحا وطالعت فى تاريخ الفلسفه .

كان حديث المائدة متعلقا بالحب والطبيعة البشرية ، وأخبرتنى السيدات عن صديقنا ناجى المصرى وما يعمله من الأعمال الدالة على الجنون ، فدافعت عنه بكل قواى ، وأنا أنتظر رؤيته لأحادثه فى ذلك . زارنى الدكتور رفعت منصور وتحادثنا فى سفره الى مصر فنصحته نهائيا بالسفر الى مصر فقبل نصيحتى وقرر السفر .

الأربعاء ٦ أكتوبر :

ذهبت صباحا الى منزل الموسيو لامبير وتحادثنا عن مشروع كتاب « مقدمة لدراسة الشريعة الاسلامية » ووعدنى باعطائى بعض المعلومات النافعة ، والغرض الأكبر من وضع هذا الكتاب هو التوفيق بين العلم والدين والاثبات بطريقة نهائية أن الدين الاسلامى هو دين تقدم وترق لا تأخر وانحطاط .

بدأت بعد الظهر فى كتابة مذكراتى عن مؤتمر جنيف .

فى الساعة الخامسة وصل فريد بك ولقيه لفيف من الشباب واجتمعنا جميعا فى منزلى وأخبرنا فريد بك عن تصريحات الصدر الأعظم فى جريدة « الطان » ورده عليها ، وقررنا ارسال احتجاجات برقية للصدر وللصحف الكبرى ولمصر .

وفى الساعة ١١ مساء ودعت فريد بك وكذلك منصور رفعت . بعد أن خلونا (فريد ومنصور وأنا) قررنا سفر الدكتور منصور الى مصر .

الخميس ٧ أكتوبر :

استلمت تذكرة بعثها الى فريد بك مع الدكتور عثمان غالب من هورشام أثناء زيارتهما لبلنت كما استلمت كتابا من روثستين يشرح لى فيه سبب تشويه مقالة الديلى نيوز عن المؤتمر وتعليله غريب جدا .

الجمعة ٨ أكتوبر الى الأربعاء ١٣ أكتوبر :

كتابة مذكراتى عن المؤتمر وذهابى الى نيوفيل وسماع خطبه لامبير عن المدارس العلمانية Ecole Laique

مطالعات فلسفية .

الخميس ١٤ أكتوبر :

وصول جواب من عزيزة دى رشبرون وطلب مقالة منى لأجل العدد الأول من مجلتها واعداد مواد تلك المقالة .

الثلاثاء ١٩ أكتوبر :

انجاز مقالة « نهضة الشرق » وارسالها الى مجلة « الشرق » بباريس .

الاثنين ٢٥ أكتوبر :

اعداد كتب الحقوق للعام القادم . مشروعاتى العلمية فى هذا العام الليسانس والاعداد للدكتوراه فى العلوم الاجتماعية ودراسة الفلسفة .

الأربعاء ٢٧ أكتوبر :

جواب من أهلى بمصر فيه توبيخ شديد على اشتغالى بشئون الأمة !

السبت ٣٠ أكتوبر :

كتابة تقريرى عن المؤتمر والاستمرار فى كتابته .

تحمسى لكتابة روايات تمثيلية وشروعى فى ذلك ابتداء فى قهوة بلكور بكتابة رواية « هرماكيس » (١) .

الأربعاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٩ :

افتتاح المدرسة الجامعة بصفة رسمية وابتداء الدروس .

فراغى من كتابة كتابى عن المؤتمر .

نقلت الى اللغة العربية التقرير المنشور فى جريدة ليتنداز اجبسيان عن المؤتمر الأول وقد بعثت به الى عثمان بك غالب .

الاثنين ٨ نوفمبر :

حضرت فى الصباح درس القانون المدنى والتجارى .

---

(١) كتب لطفى جمعة بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٩٠٩ فى الكناشة المتضمنة بيانا بمؤلفاته عن هذه الرواية ما يلى « هرماكيس المصرى اسم لرواية تمثيلية فى فصل واحد وضعتها خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٠٩ وخلصت منها فى يومين ، وهى من حوادث التاريخ المصرى القديم وبطلها نبى جاء قبل موسى ، ولكنها لا تزال فى حاجة الى بعض التنقيح والتصحيح » .

وفى الساعة الخامسة توجهت لمقابلة الموسيو لامبير فلم أجده فى المدرسة فقصدت منزله فلم أوفق كذلك للفائه فتركت له ملخص الدرس الذى سألقيه غدا فى الشريعة الاسلامية ليبدى فيه رأيه ٠

وعدت الى منزلى فكتبت مقالة عن « قنال السويس » وبينت الخطرين العام والخاص اللذين يعودان على مصر من مد أجل امتياز الشركة ٠ ان الأمة المصرية اذا فازت هذه المرة فستستقل قريبا ٠

الثلاثاء ٩ نوفمبر :

قابلت الموسيو لامبير وتحادثنا مليا فى الدرس الذى سألقيه عصر هذا النهار لاخوانى المصريين ٠

اتفاق غريب ! اليوم يمر عام بالضبط على نجاحى فى امتحان السنة الأولى ، واليوم ألقى درسا باللغة الفرنسوية !!

بعد القاء الدرس حدثت مناقشة لطيفة وانتقدنى الموسيو لامبير وأرشدنى الى الطريق المثلى ٠ أريد جمع الدروس التى ألقيها على الطلاب المصريين فى مدرسة ليون الجامعة فى الشريعة الاسلامية وقد أفادنى الأستاذ لامبير بنصائحه وارشاداته كثيرا (١) ٠

الأحد ١٤ نوفمبر :

صباحا كتابة مراسلات ومنها الى هارديال بايطاليا ٠

---

(١) كتب لطفى جمعة بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٩٠١ فى الكناشة المتضمنة بيانا بمؤلفاته « أريد جمع الدروس التى القيها على الطلاب المصريين فى مدرسة ليون الجامعة فى الشريعة الاسلامية ، وقد فرغت من درس حالة العرب قبل الاسلام ، وسأدرس بعد ذلك أصول الفقه الاربعة ٠ وقد افادنى الأستاذ لامبير بنصائحه وارشاداته كثيرا ٠ هذه الدراسة علمية محضة مع المحافظة على مبادىء الدين كل المحافظة » ٠

محادثة الأستاذ جارو فى قضية ستانهيل لكتابة مقالة فى اللواء عن ذلك .

الأربعاء ١٧ نوفمبر :

دراسة الحقوق صباحا . ودرس الفلسفة بعد الظهر فى كلية الآداب على الأستاذ جوبلو ومحادثتى معه ونصيحة الأستاذ بقراءة طريقة ديكارت ، شروعى فى ذلك توا سرورى بدرس الفلسفة .

الأربعاء ٢٤ نوفمبر :

مطالعة حياة وفلسفة ديكارت .

دراسة الحقوق صباحا ودرس الشريعة الاسلامية بعد الظهر

شروعى فى وضع كتاب عن « فلاسفة العرب » (١) .

الجمعة ٢٦ نوفمبر :

لما رأيت على المنضدة كتب الفلسفة لم يقر لى حال فأسرعت الى المطالعة والى انجاز حياة الفارابى التى بدأتها واننى لا أقدر أن أقيس شيئا بسعادتى التى وجدتها عند تقييد رأى الفارابى فى

---

(١) هو كتاب « تاريخ فلاسفة الاسلام » الذى طبع ونشر بالقاهرة سنة ١٩٢٧ بمطبعة المعارف ، ثم أعيد طبعه سنة ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب ، وقد كتب لطفى جمعة عن هذا الكتاب بتاريخ ٤ ديسمبر سنة ١٩٠٩ فى الكناشة المتضمنة بيانا بمؤلفاته « فلاسفة العرب كتاب شرعت فيه فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩ لذكر تراجم فلاسفة العرب وشرح مبادئهم والمقارنة بين هذه المبادىء وبين الفلسفة الحديثة » . ثم كتب بتاريخ فبراير سنة ١٩١١ عن هذا الكتاب « نجز هذا الكتاب وهو لا يزال بدون تنقيح وكان تمامه بجنيف فى أواسط أكتوبر سنة ١٩١٠ ، وقد طرقت بابا جديدا فى تأليف هذا الكتاب وأنجزت على النمط الجديد الكلام على الكندى » .

سعادة أهل المدينة الفاضلة التى ورد وصفها فى كتاب « مبادىء الموجودات » ، فقد كنت أطير فرحا لتوافق أفكارنا ٠

قطع على أحلامى الفلسفية عبد السلام أفندى الجندى جاء يقول لى بالمفتوح ان معه الأغلبية فى الجمعية المصرية وأنه قد ترشح أربعة للرئاسة منهم هو وآخر اسمه سامى أفندى كمال وآخر اسمه محمد كمال وانا ، وأن الجمهور أقر على ألا تكون لى أغلبية وقد انحصر الانتخاب للرئاسة فيه وفي الشابين الآخرين ، وجاء يطلب صوتى ، فدهشنى ذلك لأننى مخالف على خط مستقيم لهذه النظامات الاستبدادية وقد هدمتها فى نوفمبر العام الماضى ولأن حديثه أنزلنى من سماء الفكر الفلسفي الى الأحقاد وحب الرئاسة التافهة فقلت له اننى وان كنت أحبه كصديق ، فاننى أحب مبادئى أكثر منه ٠

السبت ٢٧ نوفمبر :

اشتغال بالحقوق فى الصباح ، وبعد الظهر حديث مع مدام Melien فى الروحيات Spiritism ٠

الأحد ٢٨ نوفمبر :

فى هذا الصباح قصدت مركز الجمعية المصرية برقم ٦ شارع لابار وتكامل العدد عند الساعة العاشرة وترأس اللجنة حسن الديوانى أفندى ، وتلا سامى أفندى كمال تقريرا عن مالية الجمعية ، ثم دارت مناقشات بشأن نظام الجمعية وقلبها من دستورية بدون رئيس أبدى الى رئاسة ذات رئيس ، وهى المسألة التى قامت عليها حرب العام الماضى وتم الرأى على الانتظار لفحص هذه المسألة فى الأسبوع القادم بهيئة دستورية ٠

استلمت مكتوبا من البريد أدهشني لأنه من محمد كرد علي محررا من مرسيليا وقد التقينا في الساعة الثانية فحكى لي ما جرى له من الاضطهاد في سوريا وتهمته بالارتجاعية أولا وبالتنداء بالخلافة العربية ثانيا ، وظهر لي من الحديث أن الخطأ نشأ من تسرعه ومن وضع رجال العهد القديم في وظائف الحكومة كناظم باشا الذي كان واليا على دمشق . وكرد على في طريقه الى باريس وهو يؤمل الحكم ببراءته وقد قضينا اليوم معا وتحادثنا في شئون شتى وافترقنا قبيل نصف الليل .

ذكر لي كرد على أن رجالا ممن كانوا أحرارا ونالوا المناصب في الوقت الحاضر لاهم لهم الا الحصول على المال والنفوذ في البلاد العثمانية .

وذكر لي أن أمين الريحاني الشاعر اللبناني الأمريكي قد أنجز كتابين ، الأول رواية تمثيلية شعرية اسمها « على بن أبي طالب » بالانكليزية وقد سمعت عنها عندما كان بمصر ، والثاني عن علاقة الشرق بالغرب في قديم الزمان (١) .

الاثنين ٢٩ نوفمبر :

طالعت في الجرائد المصرية خبر الافراج عن الشيخ عبد العزيز جاويش بعد سجنه ثلاثة أشهر لسبه بطرس غالي وفتحي زغلول ومحمد يوسف ، وقرأت وصف الحفلة التي أقيمت لتقليده وسام الشعب في فندق شبرد يوم ٢٢ نوفمبر الجاري عقب خروجه من السجن وقد قالت الجرائد انها كانت فوق الوصف .

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفي جمعة بأمين الريحاني راجع كتاب « محمد لطفي جمعه وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٣٦١ — ٣٧٦ .

الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٩ :

انجاز حياة الفارابى فى كتاب « فلاسفة العرب » والشروع فى تدوين ترجمة ابن سينا وفلسفته ·

الأحد ٥ ديسمبر :

صباحا انعقدت الجمعية المصرية وانتصر الحزب الدستورى الذى يريد أن يكون تعيين الرئيس لجلسة واحدة فقط على الحزب القائل بتعيين رئيس لمدة طويلة وتمت الموافقة على ذلك بأغلبية عظمى وحدثت فوضى فى الاجتماع ·

الثلاثاء ٧ ديسمبر :

اعداد درس الشريعة الاسلامية ·

محادثة طويلة مع لامبير وطلبى منه أن يتوسط لى فى القاء محاضرة بجمعية الميسيون لاييك Mission Laique عن مصر والاسلام ·

السبت ١١ ديسمبر :

مقابلة سكرتير الميسيون لاييك وانجاز خطبتى عن الاسلام ومصر واعدادها واستلامى كتاب « الهند » تأليف بلنت وكتابة مقالة عن هذا الكتاب ·

الثلاثاء ١٤ ديسمبر :

محادثة لامبير بشأن محاضرتى التى سألقيها بجمعية الميسيون لاييك وحضور جلسة اللجنة الادارية للجمعية برئاسة هريو محافظ المدينة بصالة الموزايك فى المجلس البلدى ·

ترشيحى عضوا بمجلس ادارة الميسيون لابيك بواسطة المحافظ وانتخابى وانتخاب الأستاذ لامير والموسيو بورت وعضو آخر .

الجمعة ١٧ ديسمبر :

حزنى الشديد لاختفاء جريدة الدستور مع ما كنت أملت من نجاحها .

موت ملك بلجيكا وانهدام ركن من أركان الاستبداد الأوربى فى أفريقيا .

انهاء المحاضرة التى سألقيها فى جمعية الميسيون لابيك يوم الثلاثاء القادم .

بعد الظهر مراسلات لبلنت ودريهرست وغيرهما .

الثلاثاء ٢١ ديسمبر :

اشتغلت باعادة النظر فى بعض النقط المهمة فى الخطبة الذى أريد أن ألقيها هذا المساء .

وعند الساعة السابعة أعدت المعدات اللازمة وكان محل الاجتماع (سراى التجارة) حافلا بالمدعوين . وفى الساعة الثامنة ونصف حضر كثير من الأساتذة والأطباء والصحافيين والطلاب الفرنسويين وحضر معظم الاخوان المصريين ، قدمنى أستاذى لامير ثم خطب فى الحركة الاسلامية خطبة بليغة ثم تكلمت من الساعة التاسعة وعشر دقائق الى الساعة العاشرة الا ربعا ، ودخل ادوارد اريو عمدة المدينة أثناء الخطبة وترأس الجلسة .

اقترحت فى ختام الخطبه تاليف هيئة رعاية للطلاب الاجانب وخطب العمدة فشكرنى وعضد اقتراحى وذكر موافقة الجمعية عليه وتبرع الموسـيو بيك باشتراك جمعية الشئون الاجتماعيـة مع الميسيون لاييك للقيام بهذا العمل وقبل اقتراحه ٠

ثم خطب هريو العمدة خطبة بليغة عن التوفيق بين فرنسا وأمم الشرق ٠

وانفض الاجتماع فى الساعة الحاديه عشرة تماما ٠ وانضم المصريون الحاضرون الى عضوية الميسيون لاييك وتعهدت الجمعية بأن تقدم لهم كل الخدم النافعة التى يطلبونها ٠

انتصار عظيم لى لأنها أول مرة ألقى فيها خطبة فرنسوية الفاء بدون تلاوة وكان لها وقع حسن **وانتصار عظيم أيضا للاسـلام والشرق ومصر لأننى شرحت حالته الحقيقية لجمهور فرنسوى فتأثر واعتبر** ، وهنأنى لامبير وبيك وابن على فخار وصافحنى كثيرون ممن لا أعرفهم وشكرنى الطـلاب المصريون مع أن عملى تافه ولا يذكر وأتمنى أن يقوم الكل بعمـل واحد تظهر فيـه آثار التضامن والتكافل ٠

الأربعاء ٢٢ ديسمبر :

قابلت الأستاذ لامبير واستأذنته فى السـفر الى الجنوب لاسترداد صحتى وحيته فأذن لى مبتسما (١) ٠

---

(١) سجل لطفى جمعة رحلته فى دفترين مستقلين ابتداء من ٢٠ الى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٠٩ تحت عنوان « رحلة الشتاء الى شاطىء الذهب ، جنوب فرنسا ـ سان رفائيل ـ نيس ـ كان ـ مونتكارلو » ٠ ولكننى لم اعثر الا على دفتر واحد من الدفترين المشار اليهما ٠

اجتمعت الجمعية المصرية في الســـاعة الثامنـــة والنصف للمناقشة فيما ينبغي عمله غدا لانه يوم عيد الأضحى ، وطرحت على الأعضاء ايفادهم أثناء المسامحات (العطلات) القصـــيرة الى مدن فرنسا الكبرى لالقاء محاضرات عن الاسلام والشرق ونهضة مصر ، فقوبل اقتراحي بالاستحسان وأجل النظر فيه الى يوم الأحد .

الخميس ٢٣ ديسمبر :

عيد الأضحى المبارك ! .. هذا هو العيد السابع الذي أقضيه بحسرة وألم .. كل عيد من أعياد الأضحى أجدني في حال أسوأ من الذي قبله :

عيد بأية حال عدت يـا عيد بما مضى أم لأمر فيـه تجديد !

نشرت جريدة البروجرية في عددها الصادر اليـــوم وصفا لمحاضرة يوم الثلاثاء التي ألقيتها تحت رعاية الارسالية الفرنسوية الحرة Mission Laique وذكرت أن عدد الحاضرين يقدر بثلاثمائة وأربعين شخصا .

الجمعة ٢٤ ديسمبر :

صحتي رديئة للغاية .. ان الناظـــر الى وجهي لا يعرفني ، فانني نحيل جدا فضلا عن أن لون بشرتي كلون أديم الأرض وأسباب ذلك ثلاثة :

أولا : رداءة جوليون .

ثانيا : سوء التغذية فان مآكل البنسيون أضرت بي كثيرا .

ثالثا : وحدتي وكثرة همومي (١)

---

(١) هذا آخر ما سجله لطفي جمعة في يومياته عن سنة ١٩٠٩ .

أوجستا دامانسكى

ذكرى ١٩ مارس سنة ١٩١٠

لقد مضى على هذه الذكرى سبع وثلاثون سنة وهى تتجدد فى خاطرى وقلبى وذاكرتى وعلى رأس قلمى ، فأعدها وفاء مفروضا على وأعد مرورها بخاطرى نعمة من الله تستحق الثناء والشكر (١) ·

فى مثل هذا اليوم ـ وكان يوم الأحد ـ التقيت بمدام أوجستا دامانسكى فيليبوفنا كاتبة وأديبة عارفة باللغات والآداب وخبيرة بالفنون الرفيعة وعريقة فى تاريخ الثورة الروسية ومخلصة للجمال والحق والخير ·

التقيت بها فى بيت ريفى فى ضاحية « بيتى لانسى » بجنيف لأسرة راسين ، رأيتها فعرفتها وتجددت بيننا صداقة أحكمت المصادفة البحتة عروتها من صيف سنة ١٩٠٨ فى مدينة لوزان ، وكان اليوم السابق على اللقاء ١٨ مارس يوما مطيرا عبوسا قمطريرا مثل نفس اليوم السابق للذكرى فى هذا العام ١٩٤٧ فى مصر ·

ففى ذلك اليوم من سنة ١٩١٠ أمطرت السماء مدرارا فى ليون حيث كنت وفى جنيف عندما بلغتها واستمر انهمار المطر

---

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من هذه المذكرات فى ليل ١٩ مارس سنة ١٩٤٧ ·

طول اليوم وكنت بغير مأوى ولا صديق ولا رفيق ولا أنيس قادما من ليون مقر دراستي شبه عارب من الظلام والبرد والوحدة ، ضعيف البدن منكمش الروح منطويا على نفسي ، شاعرا بحزن عميق ٠ وان عندي الآن كتابا ما يزال جلده ملطخا بأوحال المطر والكتاب ترجمة حال يوسف متزيني الثائر الايطالي أقلبه بين يدي في مثل هذا اليوم فيحرك أشجانا مضى عليها نحو أربعين سنة وما تزال تعتلج في صدري ٠

ولما تغديت ٠٠ آنست لطفا ودعة في وجه السيدة التي قدمت الى الطعام فسألتها عن مستقر لي الى حين في ضواحي البلد فقالت لي عليك بحي « بتي لانسي » واقصد الى بيت آل راسين تجد ما يسرك ٠٠

وسرت هائما لا أدري أين أقصد وقد مال ميزان النهار ودقت الساعة السابعة ولم يبق على الغروب الا دقائق معدودة ٠٠ وفجأة رأيت نورا ينبعث من نافذة ، فلما دنوت من البيت ٠٠ أدخلوني الى قاعة استقبال ٠٠ وظهرت سيدة تتقن لقاء الضيف وأجلستني ورحبت بي ثم قالت لي : هنا بيت راسين ٠٠ هل تقصد الينا ؟ أين متاعك ؟ ٠٠ علي بالايصال لأبعث في طلبه ٠ فقدمته اليها واتصلت بالتليفون وعادت فرحة وقالت : بعد ساعة يصل اليك متاعك ٠٠ وبعد ساعة أقبل حوذي ينقل حقائبي ٠٠ وتقدمتني السيدة الى غرفة فسيحة ذات أثاث جميل ونور ساطع ومقاعد وثيرة وفراش رحب ومناضد للكتب وخزائن للثياب وتوجهت الى الحمام ٠٠ لله ما أعظم الشعور بنعمة النظافة والراحة بعد هذا اليوم الأليم المضني ! ٠

قالت لي مدام راسين بعد ذلك بأسبوع : لقد أقبلت علينا فأشفقنا من غبرة وجهك ٠ لشد ما عانيت من المطر ! ٠ وقد صدقت ٠

ودعتني السيدة الى غرفة الطعام للعشاء ، وللمرة الأولى رأيت زوجها واسمه جان راسين ولم يطل العشاء وعرفت السيدة أنني

لا آكل اللحم ولا أتذوق النبيذ ، فتضاعف تقديرها لي لأن الضيف الذي يوفر اللحم والخمر في نزل عائلي (بنسيون دي فامي) نعمة من السماء ٠

وعندما صعدت الدرج للنوم تبعتني السيدة وقالت : سوف تلقى مفاجأة سارة غدا صباحا ٠ فسألتها عن تلك المفاجأة ، أجابت في صوت خافت : ان عندنا سيدة تعرفك ! قلت : تعرفني انا ؟ لابد أن تكون مخطئة فانني لا أعرف أحدا في جنيف ٠ قالت انها تعرفك باسمك وصفاتك وقد اعتذرت الليلة عن العشاء لأنها متوعكة ٠ فقلت لها : ما اسمها ؟ ٠ قالت : غدا تعرفها لأنها لم تأذن لي بذكره ٠

وقد تعود الأرق أن يلزمني في الليلة الأولى أينما كنت كلما بدلت فراشي ولو كان في جنة الفردوس فلابد لي من الأرق ٠

ولكنني تيقظت في الصباح فرحا نشطا متفائلا مرحبا باليوم الجديد ، وقضيت ساعتين في اخراج كتبي من صندوقها وتصفيفها وعطفت خاصة على كتاب « متزيني » الذي قاسى معي برد الجو وأنهار المطر وشعرت أن مؤلفه شاركني محنتي ، فأكبرنا مات في الغربة مكافحا في سبيل وطنه وقد اقتديت به فأصدرت من ذلك البيت جريدتين للدفاع عن وطني احداهما بالعربية « صوت الشعب » مطبوعة على الحجر والثانية « مصر Egypt » بالانجليزية مطبوعة عند فيفر ، وكاتبت صحف فرنسا ولا سيما اكلير (البرق) لصاحبها ارنست جوديه ، وفيها رددت على تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة وكان قد حمل على مصر حملة شعواء في القاهرة ولندن لأن أبناء عمومته الانجليز واليهود أكرموا مثواه على حسابنا في السودان ومصر فرد تحيتهم بالطعن في الوطنية المصرية ولم يخجل هذا الرجل السخيف أن يحرض علينا الانجليز ويدعوهم

الى استعمال الهراوة فى معاملتنا ، فان لم يرغبوا فليتخلوا عن مصر لتحكمها الجمهورية الأمريكية !! (١) • وهذا الرجل هو عم روزفلت الأخير الذى توفى سنة ١٩٤٥ وكان أسوأ اعلان لاخلاق الامريكان وشر نذير لسياستهم فى الشرق والغرب وكشف المناع لنا ولغيرنا عن خليقة الأمريكان منذ أربعين سنة •

فى الساعه الحادية عشرة صباحا نزلت الى قاعه الجلوس فتلقتنى صاحبة البيت بالبشر وقدمت الى مدام أوجستا فيليوفنا دامانسكي وحيتنا وانصرفت •

ـ أين رأيتك يا سيدتى ؟ • نعم فى فيلا بيانكا منذ عامين فى لوزان فى بيت الكونت دى نافا ، ثم فى فيلا ترميدور فى ضواحى لوزان ثم فى فندق مارتان المطل على البحيرة حيث قضينا سهرة • ثم فى منتزه مونيونان وفى دكان الكتب وفى مكتب البريد ••

(١) يشير لطفى جمعة الى زيارة الكولونيل تيودور روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق لمصر عن طريق السودان فى مارس سنة ١٩١٠ والقائه خطبة سياسية بمدينة الخرطوم مجد فيها الاحتلال ودعا الى الخضوع لحكمه ، ولما وصل القاهرة القى خطبة أخرى بالجامعة المصرية عرج فيها على حركة المطالبة بالدستور التى كانت على اشدها حينذاك معارضا تلك الحركة ومؤيدا لسياسة الاستعمار ، فاثار سخط الرأى العام واستياءه ، وأرسل اليه محمد فريد برقية احتجاج نيابة عن اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى ، كما اقام الحزب اجتماعا القى فيه على فهمى كامل خطبة ردا على خطبة روزفلت ، وبعد انتهاء الاجتماع سار الحاضرون جميعا فى مظاهرة صاخبة يرفرف عليها العلم المصرى يؤمهم محمد فريد الى فندق شبرد حيث كان روزفلت ينزل به ، وهناك هتفوا بالاستقلال والدستور وسقوط روزفلت ، ولما وصل الى الاسكندرية ليستقل الباخرة قوبل فى المحطة بمظاهرة كبيرة نودى فيها بسقوطه وبحياة مصر والاستقلال • (كتاب عبد الرحمن الرافعى ، محمد فريد ، المرجع السابق ، ص ١٨٣) •

نعم ! انى سعيد برؤيتك ، تظنين أننى جئت قصـــدا اليك ؟ كنت اود ذلك من صميم قلبى ولكن كيف اعرف مقرك ؟ ٠٠ انها مصادفة باحته لعبه من القدر ٠٠ وانت تذكرين حتما أننى كنت دائما أشكرك ولا أطيل الحديث معك ٠٠ نعـــم أذكر جيـــدا والدتك وطفلك « بوريس » وقد رأيته وهو نائم وأذكر قولك حين حنـــوت عليه « ان من يمسك يد الطفل بيمناه يقبض على قلب الأم بيسراه ! » ٠٠ كنت صادقا فى تلك الليلة واظن صدقى هو الذى أخافك ٠٠ لقد قلت لك وأنا أذكر أنه كان فى الساعة الأولى بعد نصف الليـــل « يخيل الى أننا اجتمعنا فى حياة سابقه من زمن طويل جدا مثل هذا الاجتماع فى هذا المكان وهذا الوقت » (١) ، وأذكر أن القمر كان مضيئا على جبل مون بلان وعلى مياه بحيرة ليمان،وأذكر أنك نهضت فجأة وقلت لى : يا سيدى قد آن أوان الرحيل ٠٠ فنهضت وقلت لك : الرحيل رحيلى ٠ فضحكت واعتذرت ، وتيقظت وكنت شبه نائم وقلت : نعم لقد أطلت المجلس وأمك لابد تنتظرك فى الغرفة المجاورة ٠٠ طاب ليلك يا سيدتى وشكرا على الشاى الذى شربته والحديث الطلى الذى سمعته ٠٠ وقد تركت بيتك الساعة الثانية صباحا ، فلم أنم لأننى عزمت على السفر الى باريس وكتبت الى بروشيه صاحب فيلا ترميدور وقلت له سافرت لأن تلك السيدة الروسية أقلقت راحتى وأقضت مضجعى فتركت لها لوزان بمن فيها، وبعد ثلاثة أسابيع وصلنى خطاب من بروشـــيه قال لى فيه انـــك لحقت بى الى باريس وذهبت الى فندق فوياجير وهو عنوانى الذى

---

(١) سجل لطفى جمعة هذا الشعور فى مقال بجريدة الدستور فى مايو سنه ١٩٤٤ عنوانه « رجوع النفس الانسانية الى الماضى واشرافها على المستقبل » ذكر فيه ذلك الحديث الذى دار بينه وبين أوجستا فى تلك الليلة من ليالى اغسطس سنة ١٩٠٨ ، كما سجله ايضا فى روايته « الفتى العادل » التى نشرت مسلسلة فى حلقات بجريدة البلاغ اليومى سنة ١٩٣٠ ، وفى روايته الأخرى « عائدة » التى نشرت أيضا فى حلقات مسلسلة بجريدة البلاغ سنة ١٩٣٢ ، وفى روايته « سوسن هانم » التى لا تزال مخطوطة ٠

تركته لموسيو بروشيه ولم تجديني وأنك تبحثين عني ·· كل هذا علمت به مصادفة ولكنني نسيته ·· لعلك أردت أن تفسرى لى سبب ذعرك وتناقض مسلكك اذ كنت تلحين على أن أزورك وأن أشرب فنجان شاى في بيتك ثم انقلبت بعد ساعة تقولين : يا سيدى لعلك متعب حتى خطر ببالك هذا الهاجس وهو اننا التقينا قبل الليلة فى حياة سابقة فخير لك أن تؤوى الى فراشك · وأحب أن أوكد لك أننى كنت صادقا فى قولى وفى شـــعورى ولم يكن ما قلته لك مصطنعا ولا مفتعلا ولم يكن هذا هذيان محموم ولا حلم محروم ولا استدراج خبير بقلوب النساء لعذراء مفتونة ·· لا تغضبى ، ان لقاءنا هذا حل عقدة من لساني ·· ان ما قلته لك في شرفة بيتك فى لوزان كان لمحة قصيرة كالالهام الذى ينعم به شاعر أو مصور فى طرفة عين ، ولكنه يكون واضـحا وضـــوحا أليما لابد أن يعبر عنه ·· هذا كل ما أردت أن أقول لك قبل أن تنمقى لى كلمة جديدة أو تدبرى لى فتنـــة !

وكادت السيدة أوجستا تنفجر من الغيظ والغضب ·· ولكنها ملكت أعصابها وكتمت ما بهـــا وتحكمت فى لسانهـــا وعواطفها وقالت لى :

ــ شكرا لك على صراحتك التى لم أتعود مثلها الا فى وطنى ولأجل النفاق الأوربى نحن نحتقر أهل هذه البلاد كلها ، وشكرا لك على أنك لم تجاملنى لئلا كنت أفر بعد أن استقرت بى النوى فى هذه الضاحية لأكون قريبة من ولدى الوحيد ·· وما دامت الصدفة قد جمعت بيننا فاقول لك اننى أعتقد فى الأقدار ولابد أن للأقدار من غاية جمعتنا ! ·· فان كنت قادما تنتجع الصحة ففى خير مكان وقعت ولن تجد من يعكر صفاء خلوتك ، أما أنا ففى شغل شاغل أرقب تنشئة ولدى وهو فى العاشرة من عمره وأكتب للمطابع فى موسكو وبطرسبرج وستصل الآنسة « زينا » فى مساء هذا اليوم

وهى كاتبة يدى ومساعدتى فى تربية ابنى واعداد المواد لانتاجى الأدبي وهو مصدر عيشي .. انها فتـــاة طيبة القلب من الحزب الاشتراكى الديمقراطى مثل كل فتياتنا اللواتى ينتسبن للأحزاب ويفكرن فى مستقبل بلادهن قبل التفكير فى الزواج .

ونهضت السيدة الروسية وعزفت على البيانو وقطعة « حديقة تحت وقع المطر » من وضع ديبوسى وقطعـة أخـــرى من وضـــع تشايكوفسكى ثم نهضنا الى المائدة .

وامتدت تلك العشرة وطابت وان لم تطل ، ففى جنيف بضعة أسابيع ، وفى شاربونيير شهر ، وفى ايطاليا شهر ، وفى جنيف شهر وفى مصر خمسة أشهر وفى بوفريه شهر ثم فى ليون شهران ثم فى جنيف شهر ، ولم تزد هذه الفترات فى مجموعها عن عام بدأ فى مارس سنة ١٩١٠ وانتهى فى نوفمبر سنة ١٩١٠ .

واجتمعنا بضع ساعات فى يونيـــو سنة ١٩١٢ فى فيفى ثم افترقنا الى الأبد ولم نلتق الا فى رؤيا كالحقيقة .

وما زال الدهر يجد فى القطيعة بيننا حتى سنة ١٩٢٧ فجاءنى منها خطاب أهملته لسوء حظى فى الرد عليه وقد ندمت على تقصيرى ومازلت نادما ، لأن هذه السيدة ادت الى من الفضـــل والجمائل مالا يحصى وتحملت بســـببى آلاما كثيرة واستهانت فى سبيلى بما لايستهان به وادخلت الى عقلى وقلبى وروحى خواطر ومبادىء ومشاعر تركت فيها آثارا لا يمحوها الزمن ولم يكن اليها من سبيل او ذريعة غيرها ، وقد تفتحت فى ظلهـــا كل مواهبى ورغائبى ، وتجسدت كل حقائق الحياة فى نظرى بفعلها وقوتها وايمانها ، وأرشدتنى الى مطالعات ودراسات لم اكن انالها بدونها ، واعانتنى على قراءات وتحصيل علوم وسهرت على سهر الشقيقة والزوجة

والصـــديقة والأم الرءوم ، جمال المرأة وخلائها وعقل الرجـــل وحسن تصرفه ٠

ولكن حيال هذه النعم كلهـا ادنتني بفعلة واحدة من الموت المحقق لولا عنايه الله ورحمته ، فأزهدتني في الحياه احواما وأفقدت ثقتي في جنس الانسان وأخرجتني من حلم الأديب الى غيظ المنتقم فكتبت رواية « قلب المرأة » وبالغت في تسويد صفحتها وما كان ينبغي لي أن أفعل هذا (١) ٠

نعم لقد عراها الندم فترة ولكنني كنت اذ ذاك على شفا حفرة عميقة من اليأس ، التمس الشفاء فلا أجد شفاء النفس والقلب ، وأحوجتني الى الضـــلال والعربدة أياما معدودة وما كان ينبغي لي أولاها ٠

ولكن غفر الله لها ، فقد علمت أنها تألمت كثيرا ، وأشد ما آلمني منها أنها هتكت أستارا وأباحت أسرارا كنت أظنها مصونة الى الأبد٠

غفر الله لها لقد كفرت عن سيئاتها ، ولا ريب أنها قضت نحبها وقد اجتمعت بها بعد موتها مرة واحدة اجتماعا لا شـــك فيه ورأيتها في الرؤى مرات عدة ، وانني أشـــعر بها الآن بجانبي ، ولأجلها وقفت اليوم والليلة على احياء ذكراها عافيا مصافحا سامحا متسامحا ٠

---

(١) « قلب المرأة » مسرحية وضعها لطفي جمعة ومثلت بدار الأوبرا الملكية سنة ١٩١٦ ، وتدور احداثها عن « أوجستا دامانسكى ، وقد قامت بتمثيلها فرقة جورج أبيض والشيخ سلامة حجازى ، وحازت جائزة التأليف التمثيلي سنة ١٩٣٦ ٠ وقد قام الدكتور سيد على اسماعيل الأستاذ بكلية الدراسات العربيـة بجامعة المنيا باصدارها ضمن أربع مسرحيات أخرى للطن جمعه سنة ١٩٩٧ عن طريق مكتبـة زهراء الشرق بالقاهرة ٠

لقد نظرت الى الدنيا والحياة خلال شخصيتها وأدركت للمرة الأولى فضل المرأة على الرجل الناشىء فى تفتيح ذهنه وعينه وقلبه للجمال والحق والخير ، وأنه لا سبيل لبلوغ هذه الدرجة الا فى كنف قلب مخلص وروح صافية وعقل مدبر يخلق نوعا من الصداقة وسطا بين الحب والمودة وأداة لتهذيب النفس وكمالها واظهار ما كمن فيها من الخير ويعمل على تنقيتها وتطهيرها ، وليس كل النساء بموهوبات هذه النعمة المزدوجة التى يسيطر بها العقل والفكر على الجسد ، وتتحكم المشاعر العالية والعواطف السامية على ما يتطلبه البدن ، وهذا ما يطلق عليه بعض الكتاب صفة الصداقة العاشقة (٢) ٠

ليل ١٩ مارس سنة ١٩٤٧

---

(٢) كتب لطفى جمعة عن هذه الصداقة العاشقة كتابا ممتعا عنوانه « تذكار الصبا ، ذكرى ١٩ مارس » تحدث فيه عن ذكريات لقائه بالسيدة أوجستا داماتسكى وما تلاه من أحداث وسياحات معها فى ربوع ايطاليا ٠ وقد نشر هذا الكتاب سنة ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب

العام الدراسي ١٩٠٩ ـ ١٩١٠

[١]

زيارة جون نينيه ـ اصدار صحيفتي صوت الشعب ومصر ـ عيد العمال في أول مايو ـ ظهور المذنب هالي

قرأت في العام الدراسي ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ كتبا كثيرة وكتبت كثيرا وجعلت في كل يوم أربع ساعات لمواصلة مذاكرة دروسي وتلخيصها واستعرت من كلية الحقوق في جنيف كتبا ضخمة في الاقتصاد والاشتراكية وكانت جزءا من مقرر الاقتصاد السياسي ومن القانون التجاري ، وقرأت كتبا في الاستعمار تعليقا على القانون أو التشريع الاستعماري في فرنسا ، ومن هنا جاء تخصصي في مكافحة الاستعمار الانجليزي ، وواظبت على قراءة المجلات الفرنسية والانجليزية وكبريات الصحف اليومية وارتبطت ببعض المكتبات لاستجلاب المطبوعات الحديثة في كل فن .

وكان حي كاروج في تلك الفترة مقر الثوار وكنا نلمحهم في ذهابهم الى الحفلات السياسية وسماع الخطب التي يلقيها أمثال جوريس والمساجلات بين الساسة والزعماء في بيت الشعب بساحة بلانبليه ، وأصغيت الى الأوبرات للمرة الأولى وان كنت شهدتها كثيرا في مصر وباريس ولم أفهم لها معنى ولم أطرب لموسيقاها ، ولكنني سمعت لوهنجرين وطائفة من موسيقى فاجنر فرأيت عالما روحيا كان مغلقا دوني، وعجبت لمن كانوا من أهل مصر

يعرضون عن الأوبرا ويدعون أن لا فائدة فيها الا لمناظرها ويقصدون جمال النساء ورقصاتهن !

وذهبت في هذه الفترة لزيـــارة جون نينيـــه Ninet الكاتب المحارب السويسري وضيف مصر فى عهد الخديو اسماعيل ومستشار عرابى أثناء الثورة العرابية وهو الذى أفتى له عشية التل الكبير قبيل الموقعة بساعات بردم قنال السويس وعدم الثقة بوعود ديليسبس فجبن عرابى خوفا من أوربا فكان جبنه سبب نكبة مصر فى التل الكبير ، لأن القنـــال لو ردم فى تلك الليلة ما اســـتطاع الانجليز هؤلاء اللصوص الحمر الثياب والوجوه والسود القلوب والأرواح أن يصلوا الى جيشنا أو يدخلوا بلادنا كمـــا فشلوا فى كفر الدوار ٠

كان نينيه عندما رأيته فى التسعين من عمره ، أبيض الشعر مجعد الوجه مهيب الطلعة خافت الصوت أكبر من بلنت الذى زرته فى العام الماضى (سبتمبر ســنة ١٩٠٩) بخمس عشرة أو عشرين سنة على الأقل ، ولم يكن الرجل فى تمام وعيه ولكنه أدرك أننى من مصر وأننى عدو الانجليز وأننى جئت لزيارته لشكره ، وكنت قرأت كل ما كتبه عن مصر منذ سنتين «بلد الخديويين» و «اسماعيل باشا» و « عرابى باشا » و « ضياع مصر على يد أوربا » ٠ ويعد نينيه من مفاخر سويسرا وقد تأثرت كثيرا بهذه الزيارة وشربت عنده قهوة وهو مخدوم خدمة فائقة وبيته فى غاية الأناقة والجمال وقد توفى بعد ذلك ببضع سنين (١) ٠

---

(١) جون نينيه رجل سويسرى اقام فى مصر اكثر من اربعين سنة منذ ان قدم اليها فى عهد محمد على فى عمل يتصل بزراعة القطن ، وقد خالط اهل مصر من جميع الطبقات وعرف احوالها معرفة وثوق كانه من اهلها ، وقد شهد بنفسه ماساة الاسكندرية فى ١١ يونية سنة ١٨٨٢ والتى اتخذتها انجلترا ذريعة لضرب =

لم تطل هذه الفترة الأولى الا أسبوعين رحلت بعدهما الى ليون .. فزرت الكلية وحضرت بعض المحاضرات وقابلت الأستاذ لامبير ، وحاولت البقاء فى بيتى ولكننى لما شعرت بالضعف يعاودنى عقدت العزم على العودة الى جنيف ، وشددت رحلى على أن أعود فى يونيه قبل الامتحان بشهر على الأقل ، وعلى ألا أقطن ليون وأقيم بضاحية شاربونيير وهى ضاحية باسمة فيها هواء وبساتين وحمامات وملعب للتمثيل .

وفى هذه المرة أصدرت الصحيفتين اللتين ذكرتهما « صوت الشعب » و « مصر » وتوجد منهما نسخ فى كل مكتبات أوربا العامة ولكنهما صودرتا ومنعتا من الدخول الى مصر ، وبالرغم من ذلك تمكنت من ايصال بعض النسخ بطريقة سرية .

ومن أهم ما أذكره فى هذه الفترة الثانية عيد العمال فى أول مايو سنة ١٩١٠ وكان الاحتفال به فى جميع أنحاء أوربا عظيما جدا ما عدا انجلترا ، وكانت حركة العمال قد قويت فى فرنسا بتأثير جوريس وفى ألمانيا بتأثير أوجست بيبل وفى انجلترا برياسة كيرهاردى ، ولكن الانجليز لا يفهمون المظاهرات الا نادرا .

وفى هذا اليوم خرجنا الى المدينة لنشهد المظاهرة الكبرى التى اشتركت فيها جميع طوائف الشعب ولم أر مثلها الا فى مصر أثناء ثورة سنة ١٩١٩ ، وأثناء تلك المظاهرة السلمية الجميلة لم يمد البوليس يده ولا لسانه .

= المدينة بالقنابل أثناء الثورة العرابية وما تلا ذلك من أحداث الاحتلال الانجليزى لمصر ، وقد وصف فى كتاباته حادث الاسكندرية وصف شاهد عيان واورد ما دار بينه وبين عمر لطفى محافظ الاسكندرية حينذاك ولومه على موقفه السلبى من هذه الأحداث وطلبه من أدميرال الأسطول الانجليزى أن ينزل جنودا بالمدينة لان عرابى لن يقوى على حفظ الأمن فيها !!! .

ان طبقة العمال مظلومون ومغلوبون على أمرهم فى أوطانهم ويظهر أنهم يشعرون أن عدوهم المشترك هو الرأسمالية ، فهم يحتجون عليها ويجدون لهم متنفسا فى أى مناسبة ممكنة .

كانت حياتى فى تلك الفترة شبه انتصار فى معركة على الموت والمرض والخمول الذهنى واليأس والغربة ، فأراد الله لى أن أفوز فى المعركة وأن ينصرنى على عوامل الضعف والخيبة ، وقد هيأ لى أسباب النصر وعناصره ، وانى الآن - بعد نضج العمر ومذاق الحياة والوصول الى غروبها وظهور الشفق فى الأفق - لأدهش من تلك الذكريات للحوادث والأيام المواتية !

نعم . أصابتنى فى تلك الفترة صدمات تحطم القلب وتهد القوى وتضعف الجهد وتتهدد السعادة وتكاد تعصف بها .. ولكننى صمدت لها جميعا وتغلبت عليها واجتزت جميع عقباتها .

كان شهر مايو هذا من عام ١٩١٠ عجيبا ، فقد ظهر فيه مذنب هائل ورئى فى جميع أنحاء العالم وأخيرا قالوا انه سيظهر فى سماء سويسرا فى ليلة حددوها ، فسهرنا فى تلك الليلة وعولنا على ان نسير الى المرصد الفلكى من كل أهل الدار وكنت أكره أن أترك فراشى ليلا لأشهد تلك الظاهرة ، ولكننى علمت أن هذه الظاهرة لا تبدو للعيان الا فى كل ثمانين سنة مرة ، فتحملت المشقة وقمت فى منتصف الليل ، ولم أكد أخطو خارج الدار بضع خطوات وأرفع رأسى الى الأفق الأعلى ، وفى ظنى أن الكوكب لن يبدو الا بعد ساعة أو ساعتين ، واذا بى أرى منظرا فخما رهيبا لا ينسى ، وانى آسف على أن الصور المتحركة لم تكن سنة ١٩١٠ قد بلغت ما بلغته الآن لتسجل هذا المشهد الرائع الذى لا ينسى .

فجأة رأيت سباعيا من النور مكونا من عشرات الكواكب الكبيرة المصحوبة بعدد آخر أصغر حجما ومذيلة بسلسلة نورانية

وقد ملأت الأفق نورا وبهاء ، وهى تقطع أجواز الفضـــاء بسرعة عجيبة كأنها القطار السريع من الشمال الى الجنوب ، وكانت لشدة جمالها في موكبها ولغرابة المنظر وجلالته ولاعتقادك أنه لن يعود لك في هذه الدنيا ، تكاد الروح تطير شعاعا اليه ، فبقيت فى مكانى كما لو أن أقدامى شـدت الى الأرض بأمراس كتان ، مشـدوها سابحا سائحا فى عالم الجمال والدهشة !

لقد مرت بى فترة من الأزلية ولمستنى يد علوية وأظن كل من شهد هذا المنظر يذكر هذا الشعور العجيب ، لقد كان المذنب العظيم أغرب من القمر لأنك تـرى القمر ثابتـا وينتقل فى منازله ببطء شديد ، ولكن المذنب يجرى لا مستقر له ، وناهيك بهذا الكون الذى يتسع لان يذرعه هذا الجرم المزدحم بالكواكب والأقمار ويطوف ركنا من أركانه مطافا مثينيا بحيث لا يظهـــر لأهل الأرض ــ ذلك الكوكب القاتم المطفأ ــ الا فى كل قرن مرة واحدة !

وعندما عدنا الى المنزل قابلت فتاة بدرتنى بسؤالها : هل رأيت يا سيدى الكوكب ؟ • وكان وجهها مضيئا مملوءا عجبـــا واعجابا وايمـــانا ، فقلت لها : نعم وأنت ؟ • قالت : نعم رأيته ولم أعرف نعمة رؤيته الا بعد أن مرق فى الســـماء مروق السهم المخترق جوف الفضاء العلوى ، ويا حبذا لو كنت أراه مرة أخرى • طبعا لن أراه لأنه لن يظهر الا بعد ثمانين سنة أخرى وأين نكون بعد ثمانين سنة ؟ طبعا سنكون تحت التراب • قلت لها : من يدرى ؟ قالت : أترضى لى أن أعيش ثمانين عاما أخرى ؟ قلت : ربما ولكن لعلك تكونين بحيث يكون هذا الكوكب من أصغر ما تتمتع روحك برؤيته • فنظرت الى السماء وقالت : من يدرى ؟!

كنت أتسلى فى هذه الفترة بالمطالعة فى أوقات الفراغ وأغشى مجالس العـــلم واســـتمع الى محاضرات القانون وأصرف همى فى

الدرس وأروح عن نفسي بكليـــة الآداب ودراســة الهيروغليفي على الأستاذ لورتيه وكان من رفاقي في الدرس « بيير مونتيه » الذي اكتشف مقبرة « بشنس » في صان الحجر والمرحوم احمد زكي .
وكنت أحاضر في قاعات المحاضرة وأشارك لامبير وهريو في تكوين المدارس العلمانية « ميسيون لاييك » ومن بينها الليسية الفرنسية التي تأسست في مصر لمقاومة النزعة الدينية في مدارس الفرير .

ولقد عشت عيشة سعيدة ، وكنت أتسلم بريدا ضـــخما ، فاني لم أقطع صلتي بأصدقائي الايرلنديين والهنود الذين عرفتهم في مؤتمر جنيف المصري ســـنة ١٩٠٩ وكان كثير من الفضـــلاء يبعثون الى بكتبهم المطبوعة .



(٢)

فترة جديدة

جان جاك روسو — سباستيان فور — جان جوريس — برتوني — مجلة ميركوردي فرانس — الراقصة العالمية ايزدورا دنكان

غادرت بيت آل راسين في ضاحيـــة بيتي لانسي ووصلت شامبل ونزلت بفيلادي روز لصاحبتها مدام فارين ، وبــدأت فترة جديدة في حياتي ، وصار قربي من جنيف أنفع لي في الوصول الى المكتبــة الجامعية ، فان الطريق كان قصــيرا بين شامبل وساحة

بلانباليه وساحة الملعب وميدان الجنرال ديفور بطل سويسرا الوحيد مثل الميجور دافل فى لوزان ، ومن هناك الى كاروج فشارع مونيلان والجسر الكبير وجزيرة جان جاك روسو وساحة بلير وموقف الكهرباء الموصل لبيتى لانسى ، وحرصت على الاطلاع على روائع الأدب الفرنسى ولا سيما مؤلفات جان جاك روسو « الاعتراف » و « العقد الاجتماعى » و « أسباب التفاوت بين البشر » فالتهمتها ، ودرست حياة جان جاك وكتبه وداومت على تفهمها وصممت على أن أفتتح بفلسفته وأفكاره وآرائه ومبادئه محاضرات ألقيها على المتأدبين من أهل مصر عند عودتى الى وطنى ، فهو لابد أن يكون أقرب الناس الى قلوب هذه الأمة فقد كان للحق وللحرية وللضعفاء .

وكنت أحضر خطبا ومحاضرات فى بيت الشعب وسمعت سباستيان فور وجان جوريس وبرتونى ، وسباستيان هذا كان كهلا مكافحا وكان يتحدى خصومه لمنازلته فى ميدان الفصاحة والتاريخ والفلسفة ، وكان اذا تحمس يخلع سترته ويشمر عن ساعديه ويفيض بنهر منهمر من البلاغة المرتجلة .

أما جوريس فكان نوعا آخر من الرجال يشبه خطباء اليونان والرومان الأقدمين ، وكان أستاذ فلسفة وادب فى السوربون وقد غادر منصب التدريس لينصر الشعب المظلوم وينشر الاشتراكية ، وقد تعودت من ذلك العهد أن أقرأ جريدة الانسانية « هيومانيتى » .

وكان برتونى عاملا سويسريا فى مطبعة يعيش من عرق جبينه وجهد ذراعيه (١) ، ولكنه كان ينشر مبادىء العمال فى أنحاء سويسرا ويتنقل ويرحل ويؤلف اللجان ويكتب الرسائل ويبيع

(١) كتب لطفى جمعة مقالا نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٩ عنوانه « صفحة من حياة العمال فى أوربا ، كيف مات برتونى الشهير بساحة =

الكتب ويجمع المال لنصرة المبدأ الذى يدافع عنـه ، وقد زرناه فى بيته ، وعشنا فى جنيف حتى رأينـا البوليس السويسرى ـ وهو مطبوع على الغدر والتلفيق والانتقام ـ يلصق بر تو نى وثلاثة من أنصاره ورفاقه تهمة التحريض على الثورة والشروع فى قتل الشرطة وأنه ورفاقه كانوا يعلقون منشورات ويلصقونها بالجدران تدعو الى الفتنة وزعزعة الأمن الى آخر تلك التهـم الحاضرة فى أذهان البوليس فى كل مكان . والعجيب فى أمـر هذه التهمة فى تلك البلدة الضيقة العقل المحكومة بجمهورية رجعية وحكومة رأسمالية . أنها عندما وصلت الى محكمة الجنايات ، تقدم للدفاع عن برتونى لفيف من المحامين متطوعين فشكرهم واعتذر لهم وقال انه سيتولى الدفاع عن نفسه بنفسه ، فبهت الرأى العام لأن برتونى لم يكن على علم باجراءات المحاكم ولكنه قال ما دام فى المحكمـة محلفون فلست أبالى فان تهمة البوليس أوهن وأضعف وأخزى وأكذب من أن تقف على قدم واحد فضلا عن قدمين . وقد كان وصـح نظره وصدق رأيه وتحطمت التهمة وحكم قضاة جنيف ببراءته بعد أن أبدى المحلفون رأيهم بأن لا جناية ، وهلل الناس فى المحكمة وهتفوا للعدل ولبرتونى .

وانتهزت فرصـة زيارتى المكتبـات واطلعـت على مجـلة « مركوردى فرانس » ، ولم أكن قد سمعت بها ولا قرأتها ، فكان اهتدائى اليها ظفرا لى ومصـدر معرفة واسعة بالأدب والفنـون الحديثة ، فاقبلت على المجلة فهى تنشر للأساتذة الراسخين والنوابغ البادئين وتميل الى التجديد فى كل شىء وتلخص الكتب والمجلات الأوربية وتصـدر مرتين فى الشهر وتطبع كل مـرة أكثر من مائتى

= بلانبليه بمدينة جنيف » وصف فيه اعتداء الشرى كوشو نموران على بيرتونى زعيم العمال على اثر ضبطه متلبسا بلصق منشورات بساحة بلانبليه وحى مون بلان حتى لفظ أنفاسه نتيجة الضرب على الرأس والبطن والظهر والدوس بالأقدام .

صفحة بفرنك ونصف ، فبادرت الى الاشتراك فيها ومازلت مشتركا الى عام ١٩١٨ او ١٩٣٩ واحتفظت بمجموعها ، وشاءت الاقدار ان أكتب فيها مقالا سنه ١٩٢٠ (١) ، وقامت مكتبتها فمدتني بالكتب الجديدة ، وفيها اطلعت على الحركة الجديدة في فرنسا والمانيا وايطاليا وحتى انجلترا والمدارس الادبية نثرا وشعرا وتعرفت في صفحاتها الى الاكابر الشاد وتسلسلهم كابرا عن كابر ، وكانت جريدتا « الطان » و « الفيجارو » ومجلة «مركوردى فرانس» تغذى نهمى فى الأدب وتربط الماضى بالحاضر ، فكم قرأت لبول فرلين وآرتور ريمبو وجان ريشبان وفرنسيس جام وريمى دى جورمون صاحب الشهريات الباهرة وهى مزيج من الفلسفة والأدب والعلم ، أما نقد الكتب والحركة العملية وتلخيص الرسائل والبحوث الممتعة المسهبة فحدث ولا حرج .

وفى هذه الفترة دعيت الى حفلة لمشاهدة الراقصة العالمية ايزيدورا دانكان وكانت ترقص فى كازينو الكورسال وكنت شغوفا برؤية هذه المرأة لكثرة ما قرأت عنها فى الصحف الانجليزية لأنها اسكوتلاندية متحررة وأوربية النزعة عالمية الشهرة كونية الفن !

كانت الساعة التاسعة عندما رفعت الستار عن مسرح ايزيدورا دنكان ، ولهذه الفنانة العظمى مناظر خاصة وديكور خاص يقوم به عمال تابعون لها لأنها ذات فرقة كاملة ولها أوركسترا كاملة ولها حواريون وتوابع كالنجوم التى تتبع الكواكب السيارة فى أفلاكها ، وهى الكوكب السيار ، فأكون قد رأيت فى هذا الربيع

---

(١) عنوان المقال الذى كتبه لطفى جمعه فى مجلة Mercure de France بتاريخ ١٥ ابريل سنة ١٩٢٠ هو :
« A propos du tour hindou de La Corde Rigide ,
ص ٨٥٢ ـ ٨٥٥ .

كوكبين سيارين ، أحدهما رامح وهو مذنب هيلي والثانى راقص وهو ايزيدورا دنكان ! ، فلم يقل أحدهما فى نظرى فى الجمال والروعه ودقه الحركة ..وان كان يصح اطلاق صفه الكوكب على امرأة ممثلة أو راقصة ، لصح اطلاق هذا الوصف على ايزيدورا دنكان دون سواها ، لان كل كواكب الفنون المسرحية عيال عليها •

وهذه المرأة لها بدن ليس مثل الأبدان ، فهو طوع ارادتها كأنه خال من العظام ، تنشره وتطويه وتفرده وتثنيه وتمده وتمطه وتطيله وتقصره وتسهب فيه وتختصر ، وأعصابها طوع عقلها وعضلاتها طوع أعصابها ، وميزتها وحدتها كالقصيدة الملحنة أو الأغنية الموقعة ، ثم مع هذا كله مجموعة من المناظر العجيبة النابضة بالحياة •

وعندما ترقص تتنفس وتختلج تبعا لرقصتها وكل عضو من أعضائها طروب يتبع النغم الرتيب ، وكأنها بمجموعها ساعة دقيقة الصنع شديدة الضبط تتبع الكواكب فى حركتها الفلكية ، وهى لا تنطق ولا تغنى ، ولذة النفس منها بصرية سمعية ، فأنت ترى هذا البدن اللين اللدن المرن ، وتسمع تلك الأنغام العجيبة ، وتتحد اللذتان فتوحدان لذة عقلية تمثل اللذة التى نصيبها عند سماع موسيقى فاجنر •

ولقد حبست أنفاسى مرتين بغير قصد منى وطال احتباسها ولم أشعر بضيق ، المرة الأولى عند سماعى أوبرا لوهنجرين والثانية عند مشاهدة رقص ايزيدورا ، وفى كل منهما لم يكن لغير العقل لذة مطلقا ولا دخل لعاطفة الجمال ، ولا أدرى ان كنت أقول ما يطابق آراء النقاد والخبراء ولكننى أقول ما شعرت به •

هذه المرأة قالوا عنها انها أحبت الرقص اليونانى القديم وأنها تقلد رقص الهياكل فى الهند وفى دلف ، قالوا كثيرا ، ولكن

أقول انها تبتكر رقصا نوعيا مثل « رقصة الأوزة » ، و « رقصة الهائمة فى السحاب » وهن الفتيات اللواتى يتعقبهن « بان » ، وهى تجعل هذه الأشياء والكائنات صورة ذهنية تفسر بها المعانى تفسيرا بالحركات ، حتى الجماد تعطيه الحياة ، فقد رقصت فى تلك الليلة « رقصة الاوعية Les Vases لا نقصد الصحن والسلطانية ، ولكن نقصد الى الأوعية من الصينى والقاشانى والخزف والذهب والعاج والكريستال والمرمر التى تفنن النحاتون والمصورون فى صنعها فى العهود القديمة لاسباب دينية أو فنية ، وهى الأوانى التى تعرض فى المتاحف وقد حذقها أهل الصين واليابان ، تخيل وتصور أن هذه الأوانى ترقص أمام عينيك ! ، أو أن امرأة من لحم ودم وعظم تتخذ أوضاع تلك الأوانى المختلفة فتتبع الأوضاع بعضها بعضا فى أناة حتى تملأ عينيك ويتم تخيلك وتدرك النسبة بين الحقيقة والتقليد ، وترى الحياة تنبض فى الجماد وترى الجماد الجميل يندمج مع الحياة وصورة امرأة عارية لا يسترها الا مهلهلات من الأقمشة الشفافة بلون البحر أو الورد أو الفل أو الشفق أو الفضة !

وأرجو أن أكون صادقا عندما أقول اننى لم أر من بدنها الا التوقيع ، وكانت فى رقصة الأوزة تبتكر أوضاعا وحركات برأسها ويديها ورجليها وجذعها تجعلها كالأوزة فى سبحاتها وفى طيرانها وحركة أجنحتها وفى طول رقبتها !

وكانت الموسيقى الموضوعة لكل منظر خاصة به تتمشى مع المناظر والحركات تمشيا مدهشا ، ولم يكن الناس مسرورين أو مدهوشين أو معجبين ، بل كانوا مجانين وصرعى ومأخوذين ، وكان أغرب الشيء أن المرأة المخلصة لفنها كانت هى أيضا طروبا وفخورا ومنتشية بنشوة الرقص الذى أبدعته وحققته للمرة الأولى فى تاريخ الفنون .

هذه ساعات يقول العوام انها لا تحسب من العمر ، ولكن حقيقتها أنها دون سواها هى التى تحسب من العمر !

ولم أشهد ايزيدورا بعد ذلك أبدا ، ولكننى تتبعت أخبارها بشغف شديد وشهدت احدى تلميذاتها « بافولوفا » فى مصر وهى مقلدة لا مبتكرة ولم يظهر لها ذكر ولا شـأن الا بعد موت شيخة الطريقة ومؤسسة المدرسة ٠

وقرأت بعد ذلك بسنوات أن ايزيدورا دنكان عشقت شاعرا روسيا شابا فتننت به فعذبها وأذاقها مرارة العيش ومرارة الحب من امرأة فى خريفها لولد فى ربيعه ، وقد دونت ذلك فى مذكراتها التى نشرت فى كتاب ، وكان لها ولدان ماتا باهمال مربية مستهترة وهما يتنزهان على أحد جسور باريس ، ومن ذلك التاريخ فقدت الفنانة العبقرية عقلها وحظها وانتحرت ، ولكن أصدقاءها صاغوا خبر موتها فى صورة فنية فزعموا أنها كانت تقود سيارتها فاشتبكت أطراف شال حرير بالعجل والتفت على عنقها فراحت ضحية الشال والعجل مشنوقة ، ولم أصدق هذه الرواية فى وقتها ٠



(٣)

الاستعداد لامتحان الليسانس ـ الاقامة فى شاربونيير خلوة الشرق ـ حياة الريف الفرنسي ـ حالة العالم فى أوائل القرن العشرين

كان يخيل الى فى تلك الأيام التى بدأت برحلتى الى جنيف أننى مقبل على عهد سعيد جدا ٠ وقد تحقق ذلك التخيل كما يتحقق

الحلم ، فقد توافرت لى فيه أسباب السعادة المادية والمعنوية والعقلية والروحيه ، وكان شعورى بالواجب وانتظار الامتحان لشـــــهادة الليسانس من عناصر هذه السعادة التى تكاثرت أسبابها ، ولم تكن قلة المال والحرمان من بعض الكماليـــات بمنغصة هذه السعادة . بل لعلها كانت من أسباب زيادتها ·

كانت فترة الاقامه فى شامبل أهنأ من الاقامة فى بينى لانسى ، وكان يدهشنى ما واتانى الله به من قوة وتفتح ذهن واقبال على العمل وشعور بالسرور ونضارة العيش ، وقد زادنى فرحا أننى أخذت أنظم فكرى وعملى وأجعل حياتى مطابقة لتفكير منطقى وأكلف نفسى فوق وسعها فى القراءة والرياضة ولا أجد لذلك الا استجابة واستعدادا ·

وكان يرد الى فى كل يوم بريد ضخم من مختلف الجهـات وأتمكن من الاجابة عن كل مكتوب وخطاب،وأساير الحركة الفكرية الأوربية والحالة السياسية العامة وأتتبع أنباء مصر وكانت هذه الأيام أليمة فى نفسى لوجود بعض القضايا السياسية فى القاهرة التى كانت تصلنى أنباؤها فى الصحف ·

ووصلنى فى يوم خطاب من رفيق الدرس فى الكلية ينبئنى فيه أنه لم يبق على الامتحان سوى ســتة أســـابيع وأن الأســاتذة يلخصون المحاضرات ويتناولون المبـــادىء العـــامة وأن الطـلاب يجتمعون ويتناقشـــون وأن بعض الأســـاتذة ولا سيما هوفلان وكوهندى وايمانويل ليفى قد سألوا عنى ، فصممت على الانتقال الى ليون لأستعد للامتحان فى ميدان العمل وفى جو الجامعة وفى وسط الأساتذة والطلاب ، وخشيت عاقبة الوحدة والرطوبة ، ففكرت فى عدم العودة الى ليون والاقامة فى شاربونيير احدى ضواحيها وفيها خضرة وماء وهواء طلق وجبال عالية وبساتين ، وحددت يوم السفر فى اليوم الأخير من مايو ·

وصلت شاربونيير في يوم شديد القيظ في أوله شديد المطر وهو أول يونيه وكان الامتحان يعقد في أواخر يوليه وشددت رحلي في آخره واهتديت الى مسكن جميل مستقل نقلت اليه متاعي ثم نظمت عملي وقصدت الى الكلية وأعدت صلات المودة وحضرت المحاضرات ، وفي أسبوع واحد اتصلت اتصالا وثيقا بدراستي فلم يفتني شيء وأكثرت من التردد على الأساتذة أسألهم وأناقشهم لأفحص نفسي وأقيس استعدادي ، وأخذت أعمل بعد الظهر في بيتي ويزورني فيه الطلاب المصريون المقيمون في شاربونيير ومنهم المرحوم علي فوزي وعبد الحليم البيلي ومحمد بيومي وغيرهم .

وزارني في هذا البيت الأستاذ محمد ناجي المصور وكان طالبا بالحقوق معي في فرقة واحدة وروى لي وصف سياحته في ايطاليا وزيارته المتاحف في روما وفلورنس ، وذكرني بسياحتي اليها منذ اربعة أعوام (١٩٠٦) ولكنه تكلم بلسان الفنان الذي عرف ودرس فلزمت الصمت خشية أن أكشف عن جهلي وأنا شديد الحسرة ونذرت أنني اذا نجحت في الامتحان فلابد لي من السفر الى فلورنس .

كانت هذه الفترة من أسعد فترات حياتي ، فانني كنت في جوار العلم وأحضان كليتي وبين أساتذتي واخواني الطلاب ، أقصد الى ليون في كل صباح أتابع دروسي وأشارك في تكوين « خلوة الشرق » وهي المعهد الذي أسسه ادوارد لامبير لمواصلة بحوثه في الشريعة الاسلامية ومقارنتها بالشرائع الأخرى ، وقمت بقسطي من القاء المحاضرات العامة فيها وفي الكلية ، وقد خلفني الأستاذ مصطفى عبد الرازق في فترة غيابي ، وكنت ألقي تلك المحاضرات بالفرنسية ثم بالعربية لمصلحة اخواني المصريين والتعريف بالاصطلاحات الفقهية .

وقد وجدت سرورا كبيرا فى حياة الريف الفرنسى لما فيها من الطرافة والعراقة ، فكان لحياة الريف الفرنسى لذة وجمال يفوقان لذة الحياة فى ضواحى جنيف ، فانك هنا تشعر بأنك فى وطن لا فى اغتراب ، وتشعر بأن الناس لا يستغلونك لأنك سائح بل يعاونونك ويقدرونك ويألفونك ولا ينافقون فى معاملتك كما يفعل أهل جنيف بقصد المكسب والمن عليك بأنهم أصحاب البلد والأرزاق والجبال والبحيرات والأنهار ويؤجرونها لك ويبيعون لك جمال الطبيعة بيعا ، ثم ان للجمال فى ليون وضواحيها طابعا خاصا ، طابع الفطرة لا طابع الاصطناع ·

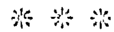
كانت هذه الأيام زاخرة بالحياة والحركة والمعركة الحامية فى كل أنحاء العالم ومن بينها مصر وكذلك انجلترا ، وكانت تتمخض عن حركة العمال الاشتراكية على طريقتهم الجامدة الباردة ، وصار الجمهوريون فى فرنسا شيوعيين والأحرار ملحدين وأحزاب الشمال فوضويين ، ونزل أناتول فرانس وأندريه جيد ومارسيل سامبا الى الشوارع لقيادة الحركات الجديدة ·

وبالجملة كانت الدنيا تغلى كالمرجل المقبل على الانفجار ، **وأظن أعظم الأسباب لهذه الحال كانت سلطة الرأسمالية وحرب الطبقات وانتشار الفقر وفحش الثروات الطائلة فى بريطانيا وأمريكا وفرنسا وانحصارها فى أيد معدودة وحرمان الكافة ·**

فلا عجب ان كان الشباب المتعلم قد تأثر بهذه النهضة التى كانت تختفى وراءها تحفز أوربا للحرب سنة ١٩١٢ ثم كظمت أوربا غيظها سنتين ريثما تستكمل استعدادها لتخوض غمار الحرب العالمية الأولى ·

لقد ازدهرت الحضارة الأوربية ونمت وتضخمت ، والاذهان تفتحت والنفوس اشتعلت والأمزجة توهجت وأنذرت بنهاية هذه الحضارة التى عجل بنهايتها ساسة انجلترا أمثـــال اسكويث ولويد جورج وكتشنر وغليوم الثانى وفرانسوا جوزيف والسلطان عبد الحميد وتيودور روزفلت ، وكان بعض المفكرين رأوا عـلامة الخطر ونذير الهلاك واشارة آخر الزمن ولا سيما أزفالد شبنجلر فى ألمانيا وماكس نورداو فى النمسا وروماں رولان وأناتول فرانس فى فرنسا وأجست بيبل فى ألمانيا ، وحاولوا تفكير الدنيا وتذكيرها بواجبها ، ولكن الزمان أفلت من أيـدى هؤلاء وتقـــدم الجنـــاة والسفاحون وخدام المستبدين وأذناب المستعمرين وعباد المال الى المعركة التى كانت الضربة الأولى ٠

وأظن هذه الحالة وما تلاها يفسر الغليان الذى كنا نشعر به كأننا نودع العصر الحديث الذى لم نكن قد قضينا منه الا عقدين من الزمان ، فقد كان عمرى فى مستهل العقد الثالث ولم أتمتع بالوعى والادراك وقتها الا منذ خمس سنين ٠



— ٤ —

النجاح فى امتحان الليسانس

كان من أهم الأمور أن أسـارع الى جواز الامتحان لأتحرر من قيود الدراسة ، وان لم تكن الدراسة عاقتنى عن المسـاهمة فى مؤتمر جنيف (سـبتمبر سـنة ١٩٠٩) ، ولم تعقنى عن الاتصال

برجال السياسة والأدب فى أنحاء العالم ، ولكنني مازلت طالبا ولا ينظر الى قولى وفعلى الا نظر الرجال الى طالب فى ريعان الشباب ، وكانت ترد على خطابات ومكاتيب من المرموقين « بلنت » و «كيرهاردى » و «توم كيتل » و « هزندون » و « روتشستين » وأمثالهم من الساسة الانجليز والفرنسيين ، وقد اتصلت منذ عام بالهنود ولا سيما شيامدجى كريشنا فارما صاحب مجلة « انديان سوسيولوجست » ومدام كاما وهاردیال وسافاركار ، وكانت تصلنى كتبهم المطبوعة والمخطوطة وأخبارهم المتتابعة ·

عندما حل يوم الامتحان ــ وكنت سأؤديه فى ثلاثة أيام ــ تبعت حمية خاصة وانقطعت عن المذاكرة وقضيت يومين فى الرياضة البدنية والسير فى الحقول وفى غابة قريبة من شاربونيير ·

وحدثت لى فى هذا الامتحان بعض الحوادث العجيبة ، منها أننى فى عشية الامتحان رأيت فى الرؤيا بعض الأسئلة فى القانون التجارى والدولى ، فاحتطت لذلك بمراجعة خاصة لهاتين المادتين ولا سيما الأسئلة التى رأيتها فى المنام ·

ودهشت اذ صادفتنى هذه الأسئلة نفسها فى الامتحان وأجبت عنها اجابة حسنة جدا ·

وفى اليوم التالى كنت أتوجس خيفة من امتحان عمانوئيل ليفى الاسرائيلى لأنه شديد الفطنة وشديد مع الطلاب فى الامتحان ولا سيما الغرباء ، وهو خطيب سياسى اشتراكى النزعة وثقة فى القانون المدنى ولا يرجع الفضل فى نجاحه الا لاجتهاده ويحقد على الارستقراطية والبورجوازية حقدا فى محله ·

فلما كان يوم امتحانى أمامه ـ وهو اليوم الثانى ـ أقبلت عليه وأمامه طالب يابانى وقد اضطرب ابن طوكيو اضطرابا شديدا ، فألقى عليه ليفى سؤالا لا يعد سهلا ولا صعبا ولكن بين بين ، فاحمر اليابانى لأنه أصفر بالفطرة وقال له : أرجوك يا سيدى الأستاذ أن تكتب لى السؤال لأجيب عنه • فنظر الى ليفى وتنهد واستجمع قوته لأنه مصاب بربو مزمن وقال : وآسفاه يا سيدى اليابانى ان خطى أردأ من نطقى • أشكرك وأرجوك الانسحاب ! •

فلما جلست بين يديه بعد اليابانى قال لى : وانت أيها السيد المصرى ، أجب عن السؤال الذى عجز عنه سلفك ان شئت •

فأجبته بتوسع فقال : لا عجب فقد كانت عندك فرصة الاجابة بينما كان صاحبك مضطربا ، فهذا لا يدل على شىء ••• فأجبنى عن كيت وكيت • فأجبته باسما ، فقلب أوراقى وقال : بما أنك تعرف مقررك فما سبب الشائعة بأن الطلاب المصريين لا يستعدون ؟ • فقلت له : لا علم لى بهذه الشائعة • فألقى على سؤالا ثالثا وقال لى : لا تغضب ولكن أسألك ليطمئن قلبى ، ما الفرق بين القانون المدنى والقانون التجارى فى آراء الفقهاء ؟ • قلت : أجيب من المراجع أم من واقع درسك فقال : يكون أوقع • قلت كالفرق بين الحسناء المحتشمة والدميمة اللعوب ، فافتر ثغره عن ابتسامة عريضة لأن هذه كانت نفس ألفاظه فى محاضراته فقال : أشكرك لا فائدة فى تعذيبك وتضييع وقتى • فابتسمت وتركته •

ومررت أمام كل اللجان وفى كل منها ثلاثة أساتذة محلفون وعميد الكلية ، وفى اليوم الثالث كان امتحانى فى التشريع الاستعمارى وتشريع العمال والمبادىء الاقتصادية •

وفى اليوم نفسه ظهرت النتيجة وهى نجاحى بتهنئة المحلفين وهى نتيجة تعلن والأساتذة وقوف ويتلوها تصفيق جمهور الطلاب واهلهم ، وكانت هذه هى المرة الثانيــة التى نلت فيها هذا الشرف فى كلية الحقوق ، وخرجت مسرورا ووصلت الى شاربونيير فى الساعة الثانية بعد الظهر .

وفى تلك الليــلة سهرت فى الكازينو وحضرت التمثيــل الموسيقى وشعرت بحرية وسعادة لم أشعر بمثلها منذ أربع سنوات أو ثمان وهى مناسبات الشهادتين الابتدائية (١٩٠٠) والثانوية (١٩٠٧) وكل منهما تدل على قضاء مرحلة من الحياة والدخول فى المرحلة التالية ، ولكننى **عزمت على أداء امتحان الدكتوراه** ، وان كنت مجبرا على أداء امتحان المعــادلة فى مصر بعــد عام ، ولم أكن أعلم أننى فى شهر سبتمبر من تلك السنة نفسها (١٩١٠) سأكون فى باريس وبروكسل فى سبيل المؤتمر المصرى الوطنى الثانى ، وكنت أظن أن الدهر يسمح لى براحة ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل قبل استعدادى للدراسة الختامية .



— ٥ —

عقب النجاح فى امتحان الليسانس

ان الأيام الســعيدة التى تعقب نجاحى فى الامتحــان هى وحدها التى استمتعت بهــا وحسبتها أعيادا يجب على الاحتفال بها وهى أيام معدودة فى سنوات محدودة وكانت تتخللها أعوام شقاوة وعناء وعنت من الدهر فيخفف الله عنى أهوال تلك السنوات بأيام غر محجلة يعقد للحرية فيها النصر لوطنى .

ومن الآلام التى تخللت تلك الأعوام انشغالى الدائم على رزقى أثناء دراستى ولم يكن لى مصدر محدد معلوم الا جهادى بقلمى وما يجود الله به على من فيض نعمائه فتغنينى عن الناس ٠

ومن أحزان تلك السنوات وفاة المرحومين الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين وفى تلك السنة (١٩١٠) اعدام المرحوم ابراهيم ناصف الوردانى ، وكانت قضيته فى نفس أيام الامتحان تنظـــر أمام محكمة الجنايات بمصر ، وكانت الصحف المصرية تحمل الى مرافعات المحامين وفى مقدمتهـــم محمود على علوبة بك ، وكانت مرافعة الهلبـــاوى لا تهزنى لأننى كنت أشـــعر بأنه يحاول الاخلاص ويبذل أقصى جهــده ليمحو عن نفسه وصمة المرافعة ضد الفلاحين اخوته وأبنائه الذين شـــادوا مجده وأغنوه وأوصلوه الى مكانة العظماء فى غفلة الزمان ! ٠

وقد لاحظت أن جريدة الطان الباريسية كانت تعنى بذكر الحوادث المهمة التى تحدث فى الشرق ، فهى وحدها التى نشرت فى العام الماضى نص الصلاة التى وجهها « دنجرا » قبل اعدامه فى لندن لقتله ســـيركيرزون وايلى وطبيب هندوسى ممالىء للانجليز ، وبسبب هذه القضـــية قبض على ســـافاركار مؤلف كتاب الثورة الهندية الذى وصلنى فى مارس بجنيف وهو ربيب وتلميذ مدام كاما المقيمة فى باريس وصديق شيامدجى كريشنا فارما ، وقد قبض على سافاركار فى لندن ونقل الى الهند وحكم عليه بالنفى المؤبد فى جزيرة لاكاديف المشهورة بسوء جوها وفظاعة طقسها ٠ وفى تلك الصلاة التى وجهها دنجرا الى أمه الهند « باندى ماترام » تمنى أن يموت ثم يبعث مرات لا عداد لها وفى كل مرة يتاح له أن يقتل عددا من أعداء وطنه ٠

ونشرتها جريدةالطان وقرأتها أيضا فى جريدة « ديلى ميل » وعلمت أن الشيخ عبد العزيز جاويش حكم عليه فى مصر بالسجن ستة أشهر لأنه كتب كلمة فى اللواء يوم اعدام دنجرا عنوانها « اليوم يعدم دنجـرا » وكان وكيل انجلترا المدعو الدون جورسـت صديق الخديو عباس ٠

كانت مثل هذه الحوادث تعكر صفو أيامى ولكنها تستحثنى على المثابرة والمصابرة حتى أتم دراستى وأقوم بنصيب أوفى وأوفر فى خدمة وطنى ٠

ولم يكن نشر جريدتى « ايجيبت » و « صوت الشعب » بكاف مع أننى كنت طالبا وقانون وزارة المعارف الفرنسية يحرم الاشتغال بالسياسة على الطلاب فى جامعات فرنسا ، وقد لقيت عنتا شديدا من الموسيو اريستيد بريان وزير الداخليـة ومن « دومرج » وزير المعارف ومن عميد الكلية الأستاذ فلورير ، ولكنه كان أقلهم تشددا وأكثرهم فهما ولطفا ، لأننى ذكرته بأنه ألزاسى الوطن والمولد والنشأة وأن كراهيتى للاحتلال البريطانى تشبه كراهيته لاحتلال ألمانيا للالزاس واللورين مسقط رأسه ٠

وكان من أثر انفعـالى بتلك الحوادث أننى اتجهت فى انتاجى الى نوع جديد من النثر الشعرى أو الشعر المنثور هو الذى ظهر فى ليالى الروح الحائر ولا سيما مصرع طيبريوس أحد طغاة روما وجوديت قاتلة هولفرن وقد جاء فى حقها سـفر فى التوراة من الأسفار المحذوفة باسم « يهوديت » وكنت أجمع اخوانى المصريين وأدعوهم لسماع تلك النبذ التى كنت أعدها تجديدا فى الأدب ٠

* * *

سـياحة ايطاليـا

- ١ -

قراءة مؤلفات « رينان » - زيارة معالم جنوا
زيارة مسقط رأس « متزيني »

حاولت أن أستريـح عقيب الامتحان فى شـاربو نيير ولكن القيظ اشتد كثيرا ففضلت أن أرحل الى ايطاليا وأن يكون مقصدى الأول شواطىء البحر الأبيض الى جوار جنوا ، وودعت شاربونيير وسافرت من محطة بيراش الى حدود ايطاليا ثم ركبت قطار باريس السريع الذى يهدف الى رومة فبلغت جنوا بعد ظهر اليوم الثانى ، ونزلت فى فندق قريب من المحطة ، وكانت رحلة جميلة تتخللها لمحات من جمال فرنسا وايطاليا وشاطىء البحر أحيانا ، ولكننى شعرت فى أعماق نفسى أننى مقبل على المجهول وأرجعت حالتى النفسية وأوهامى الى مزاجى العصبى ومخاوف المشتغلين بالدراسة والأدب أمثالى ، فانهم كثيرا ما يتوهمون خيرا وشرا فلا يأتى هذا ولا يقع ذاك ، ومن بين تلك المخاوف ما كان يصيبنى من حداثة سنى كلما شرعت فى وضـع كتاب مثل « فى بيوت النـاس » ، و « تحرير مصر » ، وكنت أتوهم دائما أننى سأموت فجاة قبل أن أرى نسخة مطبوعة من هذين الكتابين ، وقد رأيت أن هذه المخاوف لم تغادرنى حتى بعـد ان تقـدمت السن بى ، فكانت تعاودنى تلك

الحال أثناء اعداد كتبي للطبع ولا سيما أنني أجعل لها في وهمي شأنا خاصا مثل « حياة الشرق » و « تاريخ فلاسفة الاسلام » و « الشهاب الراصد » ، وكانت هذه المخاوف تصيبني قبيل الامتحانات المهمة والأسفار ذوات النتائج الحاسمة في حياتي ، ولكن الله كان يلطف بي في كل حال والهذا صرفت من ذهني هذه المخاوف .

وأذكر في هذه الأيام أنني تعلقت بقراءة كتب « رينان » تاريخ شعب بني اسرائيل وحياة المسيح ، ولست أدري سبب هذا الشغف برينان في تلك الفترة ، ولكن أسلوب الرجل سحرني وتاريخ حياته وشجاعته،وحريته عندما خلع ثياب الكهنوت بهرتني، وأعجبني منه قبل أن يكتب حياة المسيح وأعمال الرسل أنه ساح في الأرض المقدسة ، وقرأت صلاته الى منرفا آلهة الحكمة والجمال عند الأقدمين وقد ألقاها الرجل عند زيارته الاكروبول بأثينا ، وقد ألف رينان كتابا عن ابن رشد فيلسوف الاسلام في الأندلس وكنت قرأته بالعربي في ترجمة المأسوف عليه فرح انطون منذ بضع سنين وقام بالرد عليه المرحوم الشيخ محمد عبده في مجلة المنار ، وأعلم أن رينان احتفى بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس سنة ١٨٨٢ عندما كانا في باريس وكانت نقطة الخلاف بين المفتي وفرح أنطون أن أنطون استنتج من كتاب رينان عن ابن رشد أن الاسلام أضيق عطنا بالفلسفة وحرية الفكر من المسيحية، فرد عليه المفتي ذاكرا قتل فلاسفة النصارى بأمر الكنيسة ولا سيما برونو وأمثاله ومحاكم التفتيش .

وفي اليوم التالي خرجت لزيارة كنائس جنوا الشهيرة ورأيت اللوحات الباهرة ولا سيما التصاوير من صنع الأساتذة الأوائل والمباني الفخمة للمعابد وبعض قصور جنوا القديمة ، وزرت

الكامبو سانتو وهو قصر الموتى ورأيت هناك من آيات الفن وبراعة التصوير وحذق المثالين والنحاتين والحفارين فى المرمر ما يدهش الألباب ويبهر الأبصار ويذهل العقول ، فلكل قبر تمثال لصاحبه مرسوم فى المرمر ، الوجوه وسائر الأعضاء ناطقة شاخصة كأنها أحياء ، ان تلك المناظر تبلبل الأفكار وتسرى لرؤيتها رعدة خوف وهزة اعجاب ، فان الصور والأشباح تكاد تنطق وتحل فيها أرواح أصحابها !

وجلست فى الجلاريا وهى أفخم أسواق جنوا وأزخرها بالبضاعة الحديثة وأثمنها ، وفيها أفخر المقاهى ومشارب المثلوجات ودكاكين الحلوى والأقمشة النفيسة والتحف والألطاف ، ولمحت تماثيل لكريستوف كولومب واندريا دوريا وجوزيف ماتزينى وأذكرتنى المدينة وخليجها الفخم بنابولى والبندقية فى وقت واحد .

وزرت متحف الصور وفيه لوحات عظيمة من صنع الأساتذة الأقدمين ، وكنت لا أحب أن أزور متحفا الا اذا قرأت عن محتوياته كلاما كثيرا من آراء النقاد وتاريخ المصور ورأى الباحثين فى فنه والا فأكون كالقروى الذى يزور العاصمة أو البندر ويتنقل فى بلاهة وغفلة بين الأسواق !.

كان معى كتاب متزينى الذى صحبنى فى يوم ١٩ مارس وتحمل معى المطر والبرد وهطول الأمواه كأفواه القرب فى ذلك اليوم الذى لا ينسى وقد تلطخت جلدته من أثر ذلك اليوم ولم أحاول ازالتها لتبقى ذكرى لما عانيت ... ها أنا ذا فى مسقط رأس متزينى نفسه وقد جذبتنى روحه الى وطنه ورأيت تمثاله ، ان مثل هذه المصادفات فى الحياة لها أثر بالغ فى نفس الانسان ويظن

الناس أنها مصادفات ولكننى أعتقد أنها خطة مرسومة وثابتة ولابد من حدوثها وتنفيذها حتى خطواتنا محدودة ومحسوبة :

مشـــيناها خطى كتبت علينـــــا
ومن كتبت عليـــــه خطى مشـــاها

***

— ٢ —

فلورنســـا

عزمت على الارتحال من جنوا ، وحزمت أمتعتى وقصدت الى المحطة فوجدت قطارا فخما يقف بضع دقائق فتبوأت مقعدى وقطعنا مسافة بعيدة لم يمر بنا رقيب ولا مفتش ، وبعد ساعـة وصلت الى محطـة جنوا ووقف القطـار فترجلت وذهبت لأخـذ التذاكر ، وبعد نصف ساعة تقدمت الى افريز القطار فوجدت مركبة عليها كلمتان « جنوفا ـ فيرنزة » وأخذت مكانى فى مركبة الدرجة الثانية وسألت أحد الموظفين عن موعد وصول القطار الى فلورنس فأجاب الساعة الرابعة عشرة يقصد الثانية بعد نصف الليل .

والعجيب فى هذه البلاد أن « الكوميسارى » يكاد لا يريك وجهه لأن أحدا منهم لا يتهم مسافرا بالانفلات واستغلال الحكومة بالباطل ولا يقبل على كرامته أن يركب قطارا بغير أجر كما هى الحال فى بعض بلاد الشرق .

وأشرف القطار على تورينو ودخلنا أرض توسكانيا السعيدة ودنت ساعة النزول ، وعند وقوف القطار نزلت واخترت فندقا له مركبة تنتظر الواصلين فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وبعد ربع ساعة وصلت الى الفندق وعزمت على ألا أغادر الفندق الا فى اليوم التالى بعد أن أكون رسمت خطة منظمة لعيشتى فى المدينة ولا سيما وأن للغرفة التى اخترتها شرفة مطلة على شارع نهر الأرنو وشباك يطل على حديقة غناء ، ورأيت من بعيد جسرا هو الذى التقى عليه دانتى وبياتريس ملهمته التى صعد مع روحها الى السماء لينظم جنته وجحيمه .

وفى صباح اليوم التالى ٣٠ يوليو سنة ١٩١٠ خرجت من الفندق واتجهت الى ساحة القصر العتيق « بلانزوفيكيو » وكان الوقت مبكرا والجو مشبعا برائحة وروح الأزهار والربيع والجمال والتاريخ والجلال والذكريات .

شعرت للمرة الأولى بأننى فى بلد عجيب خالد ساحر ، ونظرت فى وجوه الرجال والنساء والأطفال ، فاذا طابع خاص من طوابع الجمال والفتنة والنبل ، شعب رافع رأسه يحلم بالماضى ويستمتع بالحاضر ، وثيق الصلة بالمستقبل وخاصة النساء والعذارى بنات توسكانيا وكلهن ذوات خفر وحور وسمرة جذابة وشعر أسود فاحم وأعين ساحرة وأهداب طويلة وأفمام دقيقة كثمرة الكرز وقدود فارعة وخصور نحيلة وسيقان جميلة وأقدام مستوية وأيد ناطقة وأنامل كالعناب وحواس مرهفة ورؤوس كرؤوس الطير فى لفتاتها وأعناق كأعناق الظباء ، رأيت هؤلاء رائحات غاديات كأنهن يتمتعن بكل لحظة من الزمن وبكل نظرة تلقى عليهن أو يلقينها على الناس والأشياء فى ثياب فضفاضة ثمينة

تزينها محاسنهن ، ذوات أطراف موشاة وأذيال تجر وراءهن ولا يعلق بها تراب لأن شوارع فيرنزة لا تراب فيها وبعضها من المرمر وهى محفوفة بالحدائق والبساتين والتلال العالية المكسوة بالخضرة الدائمة .

سبحان الخلاق العظيم ! هؤلاء النساء والفتيات هن حفيدات ربات الجمال والحجال اللواتى أخلدهن المثالون والمصورون فى لوحات تزداد حسنا كلما تقادمت العهود عليها . وأية خسارة أصابتنى بما قضيته فى السياحة والأسفار قبل أن أرى تلك المدينة !

لم تكن الوجوه والأبدان وحدها ولكن المبانى المشيدة ومنعطفات الطرق والجماد ، الوجوه توحى وتلهم والجماد ينطق !

وللضوء هنا تأثير عجيب ، ولا بد أن يكون فى جو هذا البلد وفى هوائه وأرضه وسمائه ما لا يوجد فى بلد آخر ... ان الله أعد بقاعا من الأرض وشرفها وجملها وزينها وأحسن خلقها وجعلها فتنة خير وأبدعها وجعلها كنوزا وجنات لخلقه ، وهذه المدينة فلورنس فى مقدمتها ولعلها تبعث يوم القيامة على صورتها وحالتها وهيأتها ! .

ما رومة وما باريس وما لندن وما برلين وفينا ؟ ...
فيرنزة وميونيخ والقاهرة تلك مدن الجمال والجلال والسحر الحلال .

وددت أن أعيش فيها وأن أسكنها وأن أعشقها وأعشق أهلها ولا أموت فيها أبدا لأن من يعيش فيها لا يموت أبدا . ليت

لى حظ كتابة كتاب كامل عن فيرنزة ، تاريخها ومعالمها وجمالها وأبطالها وفنونها وماضيها وحاضرها ، اذن لكتبته بشغف وسعادة لا تحد !

وقد حدث لى أننى رأيت الكنيسة الكبرى التى تسمى « الدومو » أى القبة ، وأقسم غير حانث أننى استبنت فيها عنصرا من عناصر الطبيعة مع أنها من صنع الانسان ، بناء ضخم كالجبل من المرمر الملون ، وأؤكد أن مهندسيها وواضعى خططها وراسمى تصميمها وبانيها ومشيديها كانوا من عباد فينوس ومنرفا وكل أرباب الجمال العتيق العريق ... وكانوا يستلهمون الجمال وحده فى وضع الأساس ورفع الجدران ونصب الأعمدة وتنسيق الزوايا والأركان ، ولا أدرى عدد أساتذة الفن الذين اشتركوا فى صنعها ، ولكن أعلم أن « جيوتو » الجبار صنع بابها من مصراعين من خشب الساج وزين كل مصراع زينة على حدة ، الأولى جعله للجنة والثانية للنار فى صورة بارزة من البرونز والنحاس .

وجلست فى مقهى فى ساحة القصر العتيق ، ومن العجيب العاجب أن هذا المقهى يشبه بعض مقاهى القاهرة التى تصف مقاعدها فى الطريق وبينها مناضد نحاسية صغيرة وكل شىء مصنوع يسيطر عليه الفن والجمال .

وكنت اذ ذاك مأخوذا بواجهة القصر العتيق وساعته الكبرى التى تشبه وجه الزمان وتزرى بألف ساعة لـ « وستمنستر » ، فنظرت ورائى واذا بى أرى سقيفة ذات شرفة عالية من مستوى الطريق بضع خطوات وقد صفت فيها تماثيل من البرنز فى مجموعة منسقة على ضخامتها وفخامتها تشبه الدرارى المنتظمة فى سلك ، والسلك صار عقدا ، والعقد فى جيد والجيد لحسناء فاتنة والحسناء الفاتنة هى المدينة فلورنس ، تلك السقيفة اسمها « لوجيا » وهى أفخر وأعرق ساحة .

أرجو ممن يقرأ هذه الصحف أن يعفو عني ويعذرني اذا لم أعد الى ذكر المحاسن والمفاخر والمباهج والمشاعر التي هاجتها في نفسي تلك الاقامة السعيدة في هذا البلد ، فانني اذن لا انتهي ولا أفرغ ولا أشبع ولا أكل ولا أمل، بل ان القول يتجدد ولا يتكرر، والعواطف تنهال والمعاني تنثال ، والمجال يتسع والطرق تتشعب والذكريات تتداعى والأعلام تترى ، ويصبح الحديث مزيجا من الجمال والتاريخ والأدب والسياسة والفن والشعر والدين والحق والايمان والتقوى والعدل والظلم والفساد والباطل والجور والقسوة والفسوق والالحاد ، ولست أنا بسبب هذه أو بعضها ، فقد وضعت قديما كتابا عن نهضة الاحياء ، احياء العلوم والآداب والفنون ودرست هذه الفترة من الزمن دراسة وافية (١) ، ونقلت كتاب الأمير « ميكيا فللي » أحد أعلام هذا البلد (٢) ، وأحببت «ليونارد دافنشي» و « ميكل انجلو » و « بوتشيللي » بعض سادة الفن الايطالي ، وترجمت « لجيورو لومو سافونا رولا » أحد أتقياء وشهداء هذا البلد ، وقرأت نعيم دانتي وجحيمه في كوميديته الالهية التي نظمها مستوحيا حبه لبياتريس احدى فاتنات فلورنسا ، وكذلك قصص « بوكاشيو » أكبر قصاصيها ووصفي حياته في جده ولهوه وفي صحته ومرضه وفي شقوته وسعده ، وانني لأحب فيرنزه وأعيش وفي قلبي ركن لها وفي نفسي حنين يجذبني اليها كأنه حنين لوطن الجمال .

بادرت بشراء « دليل الغريب النازح الى ما في فيرنزه من المساكن والمطارح » والتعريب من عندي ، وأخذت أطوف بالبيوت

(١) انظر هذه الدراسة في كتاب لطفي جمعه « مباحث في التاريخ » ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠م .

(٢) ترجم لطفي جمعة كتاب « الأمير » الى العربية ونشره سنة ١٩١٢ ثم أعادت مؤسسة النوري بدمشق نشره سنة ١٩٩٠ . كما أعادت دار قرطبة بليماسول بقبرص نشره سنة ١٩٩٨ .

حتى اهتديت الى بيت فيه غرفتان وحمام ومطبخ وشرفتان تطلان على الشارع والحديقة وهذه النعمة كلها لقاء خمسين فرنكا فى الشهر ، والفضل فى هذا اليسر لدليل الغريب النازح !

وحدث فى هذه الليلة أننى جلست أقرأ فى كتابين الأول لهيبوليت تين والثانى لجون رسكن وكلاهما فى وصف آثار فيرنزه وشرح لفنونها وتراجم مقتضبة للفنانين والكتاب والمفكرين من كتب السياحة الراقية وليس لهما مثيل فى اللغات الأخرى ، لقد ودعت رينان بتوديع جنوا وافتتحت عهدا جديدا ورسمت خطة فوضعت بيانا للمصورين والمثالين وحصرت المتاحف وما احتوى كل منها من صور وتماثيل ، وعرفت على الخريطة من دليل فلورنس للسائحين أماكن الكنائس الشهيرة وبيوت أبطال التاريخ لأزورها .

ان حياة الفن تقتضى حياة فنية ، والحياة الفنية هى « البوهيمية » وأنا لست فنانا ولا ناقدا فنيا وانما أنا طالب حقوق فى اجازة ، ولكننى شديد الشغف بالفنون الجميلة ، وحيث حططت رحالى أدعو ربى زدنى علما .

كانت الرابطة الأولى بينى وبين فيرنزه أنها كنز فنون ومعرض جمال ومدينة نادرة مثل أثينا فى العصور القديمة ، بل هى أثينا القرون الوسطى . نعم لم يظهر فيها فلاسفة كسقراط وأفلاطون وأرسطو ولا شعراء كهوميروس وسوفوكليس وأوريبيد وايشيل ، ولكن ظهر فيها فلاسفة وشعراء وساسة وفنانون ، ألم يكن نيكولا ماكيافلى فيلسوفا فى الاجتماع والسياسة والتاريخ وقد تطورت الأزمان ؟ ودانتى اليجيرى كان شاعرا حكيما ألم بالدنيا والآخرة والجنة والنار ، وسافورنارولا ألم تكن له فلسفة فى الأخلاق والاصلاح لقى فى سبلها حتفه ؟ وليونارد دافنشى لم يكن مصورا ومثالا فحسب ، بل كان فيلسوفا ومؤلفا ومخترعا ومكتشفا وعابدا من عباد الجمال والحق والخير .

لكل زمان أفكاره ومبادئه،وهذا البلد ليس كغيره من البلاد، انه يحمل طابعا خاصا به وانه تتفوح منه عطور التاريخ ، وقد مرت به عواصف قواصف وحدثت فيه أحداث كالتى مرت بأثينا ورأى طغاة وجبابرة كالذين رأتهم أثينا أمثال أسرة مديتشى وبورجيا ، وتحمل واقعات حروب وذاق آلام الجوع والمرض وذل الحكم الأجنبى ، وكان جمهورية وطمع فى جيرانه وطمع فيه القريب والغريب •

هذه المدينة كانت دائما كالملكة المتوجة الباهرة الجمال لا يفنى شبابها ، تحمل وتلد وتقذف الى الحياة فتيانا وفتيات منهم النوابغ والعبقريون الذين يحملون الشعلة المقدسة •

وقد حملت نفسى تبعة جديدة ، لابد أن استعين بنسخة ايطالية فى اتمام ترجمتى لكتاب الأمير ، ومادمت فى بلد ميكافيلى فلابد أن أتتبع مواطنه فازور بيته ومغانيه وأقرأ من مؤلفاته ما أستطيع ، ولابد أن أزور قبره فى كنيسة سانتا ماريا نوفيلا ، وبيته ما يزال قائما فى رقم ١٧ فيا جوتشاردينى ومؤلفاته محفوظة فى بيته ، كما رأيت آثار سافونارولا وخط يده وتفسيره الانجيل وبعض ثيابه والصليب الذى صلب عليه ، أما بدنه فقد أحرقوه وذروا رماده فى نهر الأرنو كما فعلوا فى أشلاء بعض الأولياء عند المسلمين فى بغداد (الحلاج) قبل ذلك بخمسمائة عام !

وما دمت بصدد هؤلاء العظماء فكيف لا أدرس حركة النهضة كلها « رينسانس » فى القرون الثالث والرابع والخامس والسادس عشر ، يقظة أوربا بعد القرون الوسطى المظلمة • ألم أكن متهوسا فى حب المعرفة ومجنونا بالوقوف على كل شىء اجمالا وتفصيلا ؟ نعم • انها كلها أشياء خليقة بالدرس والبحث وانها جديرة بأن

توقف عليها الأعمال والأموال ، ولكن أين الأعمار بل العمر الواحد الذى أستطيع وقفه على هذه الأمور كلها ؟ وأين الأموال التى يحتاج لها بعض فروع أصل واحد من هذه الأصول ؟ وهل يمكن لرجل واحد أن يحب كل هذه الأشياء ويتقنها ؟

اننى أكره التخصص وأمقت الرجل الذى يصفونه بأنه متخصص فى قراءة الوثائق الخاصة بعلاقة فرانسوا الأول بليونارد دافنشى أو بصلة ليونارد بكونت سفورتزا وبتاريخ صورة جيوكندا وبتحقيق شخصية السيدة التى جلست للمصور حتى أتم رسم وجهها وعينيها وفمها وصدرها ويديها ، ولكننى اذا شغفت حبا بموضوع أجد نفسى كأحد هؤلاء المتهوسين بالتحقيق والتدقيق ، وفيهما تذهب الأعمار !

لقد قرأت قبل زيارة فلورنس كتاب « الزنبقة الحمراء » لأناتول فرانس وأعجبت بها ، انها قصة غرام وغيرة للكاتب نفسه وقد وصفها وروى واقعاتها فى ذلك الاطار العجيب ، اطار فيرنزه ... لا بلد فى العالم يصلح للحب مثل بعض مدن ايطاليا كالبندقية وروما وفيرونا وبادوا ، ولذا اتخذ شكسبير بعض هذه المدن مسرحا لقصصه الغرامية العنيفة ، « أوتلو » و « روميو وجوليت » ، وحتى شيلوك فى « تاجر البندقية » اتخذ لها اطار ايطاليا ، فلم يكن أناتول فرانس مخطئا بل ترسم خطوات سابقيه ولا سيما الناجحين منهم فوفق توفيقا عظيما فى اختيار الزمان والمكان ، ولعله لم يحسن اختيار المعشوقة فقد اكتوى بنار حبها .

***

— ٣ —

فلورنسا مدينة الفن والخير والجمال

فلورنسا بين بلدان أوربا — أثر فلورنسا فى النفس والعقل والعاطفة — جولة فى متاحف فلورنسا — زيارة بيت ماكيافيلى ودير سافونارولا

أظن أننى كنت أغالى فى تقدير آرائى قبل أن أسافر الى الأقطار البعيدة عن وطنى ، ولو أننى خلدت الى أرض مصر التى نشأت فيها لعشت ومت على وتيرة واحدة ، ولكن نعمة الله على بالأسفار الى سوريا ولبنان وتركيا واليونان وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ، ثم مواصلة الرحلة بعد ذلك بأعوام الى أوربا وانجلترا والاقامة فى فرنسا ، غيرت حياتى وبدلت نظرتى الى الكون والوجود والى شخصى ، وجعلت الأفكار التى ظننتها ثابتة الأساس راسخة الأركان تتهاوى وتتداعى كالحجارة فى جدار يريد أن ينقض ، واذا بكثير من الحقائق التى غرست فى نفسى أوهام وأخيلة ، وأن بينى وبين حقيقة واحدة — لا جملة حقائق — أبعاد شاسعة ومسافات بعيدة .

ثم ان أسفارى فى ثلاث ممالك فى العهد الأخير وفى أكثر عهودالدنيا رخاء ، من شأنها أن تتيح للانســان من سعة العقل ورحابة الصدر ما يجعله قابلا لكل صورة من صور الفكر البشرى ، وكأن الحوادث نفسها التى تتولد عن التنقل تطلعك على اختلاف أطوار الجنس الانسانى اختلافا لا يكاد ينتهى ، وكل خلق من الأخلاق المختلفة قد اكتسب حق البقاء لصاحبه مستقلا عن سواه .

ومنذ حللت مدينة فلورنس مهد الاحيـاء ـ لمحت فى فرح ورهبة بعض الأشياء الأزلية أو القوانين العامة ، وأظن المرجع لهذا الكشف يعود الفضل فيه الى روح البلد ٠

رأيت تحت هذا الاختلاف بين أهل سويسرا وفرنسا وايطاليا ـ وكنت من قبل أعرف بريطانيا وايرلندا وألمانيا والنمسا ـ رأيت وحدة جامعـة ، ومظهر هذه الوحـدة احسـاس عميق بتقـدير قيم الأشياء وهذه القيم تكاد تكون متشابهة فى أصولها عنـد جميع الأمم فى كل عصر وهى الحق والخير والجمال ٠ وفى فيرنزه هذه بالذات ، رأيت العناصر الثلاثة مجتمعة ، وفى سويسرا رأيت الحق يعلو أحيانا على الرغم من قوة الظلم والباطل ، وفى فرنسا رأيت كثيرا من الخير ٠

ان فيرنزه نفسها لا تحتوى الفنون الرفيعة وضروب الجمال والشـعر فحسب ، بل هى نفسها آية متجسدة ومعجزة مجسلة وكتلة من نور الطبيعة والعقل الانســانى والالهـام الربانى تشع بأروع المعانى الخالدة ٠ ان يد الطبيعة الصناع هى وحدها ذات الفضل الأول فى هذه المدينة ، فقد وضعتها فى واد جميل وجعلت حولها تلالا سـندسية ذات منـاظر فتـانة ، وشقت ذلك النهر لونجارنو، ثم توجتها بمرتفعات فيزوليه التى تبسط للنظر ما خفى من الجمال السالك الوادى وتفسح أمامه الآفاق فتبدو آيات الله فى محاسنها ٠

وان الطبيعة هى التى كونت الأرض الخصـيبة والأجسام السليمة والقدود المشوقة والأعين الساحرة ، وهى التى كونت العقول والأخـلاق والمواهب ، ووضعت فى الأعين من قوة النظر ودقة الفهم والتقدير، وفى الأيدى من القدرة على الحركة والاتزان ،

وفى الذوق من خلال التمييز بين الألوان فى الطبيعة وبين الاستطاعة على تمثيلها بالمزج والخلط بينها حتى تحاكى صنع الطبيعة أو تدنو منه ، وأودعت القلب كنوزا من الجمال وأوحت الى صاحبها أن يفسرها ويعبر عنها ويبرزها ويظهرها بالألوان تارة وبالنحت والحفر فى الأحجار والمعادن تارة اخرى ، كما أودعت فى اللسان الانسانى وما وراءه من ذاكرة وبلاغة وحسن انتقاء وعاطفة جياشة تمكنه من التعبير بالشعر والنثر ، فان التعبير بالموسيقى والشعر والقصة والتصوير والنحت هو وظيفة هذه المدينة ، فمقامها بين المدن – بحسب فهمى فى تلك الفترة – كمقام العباقرة والمصلحين بين الأمم ، ودليلى على ذلك كثرة ما حشد فى تلك المساحة الضيقة من العباقرة والنوابغ وأرباب الفنون وأصحاب العقول وربات الجمال وذوات المحاسن الفاتنة ، ونطقوا جميعا فى فترة واحدة من الزمن أو فى فترات متقاربة .

كانت هذه الخواطر تملأ نفسى وفكرى طول اقامتى فى المدينة وفى كل خطوة وعند كل نظرة .

لست بصدد ذكر حوادث الحياة اليومية ولا خطط المدينة ولا بسرد معالمها وأعلامها أو الامعان فى ذكر تاريخها ، فهذا كله قديم ومدون ، وكذلك لست بسبب تعداد الآثار الفنية فى متاحفها وقصورها فكتب المؤرخين وأهل الفن كفيلة بذلك ، **ولكن الذى أكثرت له هو أن أصور أثر العالم الجميل فى نفسى وفى عقلى وفى عواطفى ومشاعرى ، واننى كلما كتبت أو شرحت أو حاولت التفسير والوصف ، أشعر بعجز اللغة عن التعبير وقصور الشعر والنثر عن التمثيل أو تقديم صورة تقرب مما يختلج فى النفس .**

ان فيرنزه مثل المولدة الماهرة الحاذقة ، تعين كل ذات حمل على وضع حملها ، تولد بنات الأفكار ولا يدخلها قط انسان عنده

مثقال ذرة من موهبـــة ثم يبطىء فى التوليـد ما لم يكن عقيما كالصخرة الصلدة أو الأرض الجرداء ! ، ولم أفز بشىء من هذه المواليد لفقر طبيعتى وجمود قريحتى ولم يزد حظى عن تفتح ذهنى وشعورى بنور جديد لم أكن من قبل أرى منه شعاعا ، وأخذت معنى جديدا للحياة ولونا جديدا للأشياء والعواطف وهذا ظفر كبير وخير كثير ٠

لو كنت من أرباب المواهب ـ ولو كامنة ـ لخرجت من فيرنزه شاعرا أو ناثرا أو مصورا أو مثالا أو على الأقل ناقدا ، ولكننى ـ وآسفاه ـ خرجت صفر اليدين ، باكيا على أن الأقدار لم تهبنى موهبة أو لم تتح لى فرصة كافية للحضانة والتوليد ٠

لما سافرت الى أوربا فى سنة ١٩٠٦ أقبلت على المتاحف اقبال الجائع المحروم ولم أترك متحفا لم أزره فى نابلى وروما وفينيسيا وبولونيـا وبادوا وفيرونا وجنوى ، فانه لا تخلو بلدة ايطاليـة أو قرية من متحف مهما صغر ، لأن فى كل قرية أو بلد كنيسة ، وفى كل كنيسة تصاوير قديمة وحديثة وتماثيل ، وقد شهدت ألوف اللوحات فى ايطاليا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وسويسرا وميونيخ وفينا واللوفر ولكسمبورج ، خصوصا وكان يعيننى دليل « بديكر » وهو دليل أدبى فنى يلفت أنظار الجهلاء أمثالى الى شأن اللوحات والتماثيـل المهمة ٠ وأذكر أننى رأيت عشرات الآثـار الجميلة ، منها تمثال لاوكوون ودرس التشريح لرمبرانت وتمثال فينوس العارية المكسورة الذراع وتمثال موسى فى الفاتيكان من صنع ميكل انجلو ، واهتممت بتصاوير روفائيل ، وانقبضت من الفن الانجليزى بقدر ما انشرح صدرى للفن الأسبانى لازدهار ألوانه وبراعة مصوريه ٠

وبعد أن عدت الى مصر جعلت همى أن أدعو الى تأسيس مدرسة للفنون الجميلة رأيتها فى باريس بشارع بونابرت ، وكانت الدعوة الى مثل هذا العمل فى سنة ١٩٠٦ تعد من هراء القول وصاحبه من السخافة بمكان ، ولكن الله أدركنى بدليل حاسم وهو أن المرحوم مصطفى كامل ـ وكان على قيد الحياة ـ تقدم الى مجلس نواب فرنسا بعريضة باسم مصر تستنجد فرنسا ضد بريطانيا ورفع الى المجلس فى نفس الوقت لوحة مصورة بالزيت تمثل مصر مقيدة بالأغلال الانجليزية وقد وقف لفيف من أهل مصر منهم مصطفى كامل والشيخ على يوسف وغيرهما يرفعون العريضة الى فرنسا وتمثلها الصورة فتاة جميلة كريمة ، فاتخذت من هذه اللوحة التى تقدمت سنة ١٨٩٣ على ما أتذكر حجة لضرورة تعليم التصوير وصنع التماثيل لأنها على الأقل تنفع مسألتنا السياسية . ولكن الحكومة المصرية فى سنة ١٩٠٦ كانت واقعة تحت أقدام الانجليز وعلى رأس الوكالة البريطانية عتل زنيم معتد بعد ذلك أثيم ، فكان يسخر من كل نهضة أو حركة فكرية وكان يحب أن تبقى مصر فى جهالة عمياء لترسف فى أغلال الذل والاستعباد الى الأبد ، فكيف يسمح ـ وهو القابض على زمام المال والمعارف ـ بتأسيس مدرسة للفنون الجميلة أو تشجيع النحت والتصوير ؟

* * *

ما هذه الثروة يا رباه وما هذه النعم ؟ ما هذا الغنى ؟ سبحانك ما أعظم كرمك وعطاءك لمن تحب وتختار ، ما مال قارون وما كنوز الذهب والفضة ومن هم الأوغاد وأرباب الملايين وملوك الحديد والبرنز والجاز والكهرباء والزيت والسموم حيال هذه الكنوز من العقول والمواهب والجمال ؟ ان الذهب والطين والأوحال

والرجال والمصارف والبنوك كلها فانية وهالكة،ولكن ذرة من هذه المواهب تزيد فى الوزن عنها لأنها خالدة أزلية ، لأنها معان ومن فيض الله ومتصلة بالله وباقية لأنها أشعة من نوره ·

ان أضعف مصور أو شاعر أو فنان وأفقره وأحقره ولو كان لاصقا بالتراب، يعد انسانا وقدره أعظم ألوف المرات من أقدار الأغنياء جميعهم ، لأن فنه وموهبته ونبوغه جزء منه وهو من صنع الله ، أما أرباب الأموال وحتى الملوك ، فكل ما يملكونه ويتحكمون فيه منفصل عنهم لا يخرجون من الدنيا بشىء منه وقد يورثونه أبناءهم وأحفادهم ولكن حكم هؤلاء حكم أسلافهم ومورثيهم ، ولهذا يتفانى الذين يسمونهم عظماء ويتهالكون فى اقتناء آثار الجمال ، ويبذلون أموالهم فى سبيل اقتنائها ويتشرفون بالحصول عليها ولو أنفقوا فى سبيل ذلك مئات الألوف ، وقد يكون الشاعر أو المصور أو الموسيقى أو المثال مات جائعا عاريا مرتجفا من البرد وتباع آثاره بالألوف بل بالملايين لأنه خالد وكل الآخرين زائلون ·

وهذه المدينة نفسها فيرنزه كانت دليلا على هذا ، فهؤلاء الكوزمات والمديتشات واللورنزات وبيتى وسفورزا وستروز مثلوا أدوار حماة الفنون والآداب مثل خلفاء المسلمين الذين اشتهروا بحماية الشعراء والخطباء والكتاب ، فخلد الخلفاء فى أبيات من الشعر ولو لم تكن تلك القصائد ما عرف أحد أسماءهم ولا اكترث بهم ·

لك الله يا فيرنزه ولكل من تنفس فى جوك وعاش على أرضك وأظلته سماؤك فى كل الأجيال !

اننى لا أستطيع ولا فى بضعة مجلدات أن أحصى ما رأيت أو أسرد ما أعجبنى وأدهشنى ، لا لوفرة التحف وتعدد الألطاف ،

بل لوفرة المزايا الفنية والمحاسن النوعية والمعانى التى لا تحصر لتلك الآثار من تماثيل ولوحات ... انظر الى تماثيل السقيفة (لوجيا) وفيها ميدوزا أفرغها تشيليني فى البرنز ، وانتقل منها الى تمثال النبى داوود فى شبابه فى ساحة بيانزا لميكل أنجلو والى تمثال اليديا وفرخ الأوز فى وضع غرامى خيالى وهى من صنع ميكل انجلو أيضا ، وتخيل اليد التى أنتجت تمثال موسى وداوود هى التى أنتجت تمثال ليديا ذات الجفون الناعسة نقبل منقار طير وترقد له رقدة عجيبة لتطفىء شهوتها وقد نشر الفرخ عليها جناحيه ، بينما يصعد المصور الى عنان السماء فى موسى وداوود تراه يهبط ليروى بلغة الحجر حب انسية لطير جامح، ولكن لا فرق فى الجمال والمعنى والموهبة بين تمثال موسى البالغ أربعين مترا مكعبا من المرمر والفن والجمال وبين تمثال حجرى صغير لا يتجاوز حجم اليد والمعصم من حجر الطلس الأحمر فى زاوية متواضعة من زوايا متحف الفن الحديث .

ومن أميز اللوحات تصاوير من انتاج ليوناردو ومنها جيوكندا وجان باتيست وفرانسوا الأول ودوقة سفورزا ، ومن أعجبها فى القديم العشاء الأخير . ومن اللوحات ما أبدعته يد ساندرو (بوتشللي) وهو يستعمل الألوان كما فى لوحة «جوديت» وفى فنه ميل ظاهر ثائر للتجديد بالنسبة لعصره القرن الخامس عشر ، ولكن انتاج بعض معاصريه من أبناء فيرنزه لا يضارع انتاجه فى صورة الربيع « بريما فيرا » وميلاد فينوس وصورته الرمزية « عقوبة التميمة » .

ولطالما بهرتنى معجزة الألوان ومزجها وأظنها للفنان بمثابة دقة المثال ، لأ ناللون يعطى الحياة ، فان اللون الأخضر فى صورة البريما فيرا لا يقل شأنا عن لون اللؤلؤ والدر والأصداف التى

تمتلك الألباب في ميلاد فينوس ، وكذلك الأحمر الأرجواني في تصاوير روفائيل والخمار المخطط في ثياب العذراء من صنعه .

قد تتضاءل خصائص القيم في أخص خصائص الفن كما نرى في الريالزم والسيريالبيزم وتشويه الخلقة البشرية والاكتفاء بشكل ثلاثي للتدليل على الرأس البشرية مثل صورة البهلوان وتصاوير البحر الجديد وليس فيها من البحر الا ألواح خشبية يفترض الناظر والناقد ـ رغم أنفه ـ أنها تمثل بقايا السفن !!

ولنعد الى مهارة مصوري فيرنزه في رسم الوجه البشري ، فمن صنع بوتشيلي صورة ثلاثة رجال الفتى والرجل والشيخ وقد جمع فيها من الفن ما لم يسبقه أحد في التأليف بين السذاجة والدقة وعمق المعنى وبعد الآفاق .

ولكن سيد المصورين في كل ما تناوله ولا سيما الوجه الانساني هو ليوناردو دافنشي مصور الجوكندا ولم أرها في فلورنس لأنها من كنوز اللوفر وقد سرقت سنة ١٩١٢ وكادت الدنيا تجن لفقدها ، انها صورة امرأة ساحرة بابتسامتها ونظرتها وليس فيها غيرهما ، ولم يصور أحد ابتسامة أو نظرة كما رسمها ليوناردو ، انها معجزة الأسرار والغموض والخفاء ، فقد فتنت بهذه الصورة أمدا طويلا وما أزال أتحرك لها كلما رأيتها أو تذكرتها ، وسرها لا يعلمه أحد الا مصورها ، ويمكنني أن أفسر النظرة والابتسامة ولكن أفضل أن أحتفظ بسري لنفسي فان فيه فتنة لغير صاحبه .

وبين الأسماء العظيمة لأرباب الفنون الذين رأيت لوحاتهم دوناتيلو وبيليني وجير لانداجو وفرا بارتوليو ورفائيل وسيليبو ليبو وفيروكيو وجيوتو وبنفنتو تشيلليني وعشرات غيرهم ، وقد تأثرت بأعمالهم ولا سيما عودة جوديت وهى فى متحف اوفيتشى بفيرنزه وهى من صنع بوتشيلى ، كذلك العذراء (المادونا) له أيضا .

* * *

كانت حياتى فى فيرنزه مرتبة وخططى معدة ممهدة ، فى الصباح أقصد الى معهد من معاهد العلم او متحف من المتاحف لزيارة أثر من الآثار المشهورة له علاقة بدراستى فى الأدب أو التاريخ أو الفنون .

ومن هذه الآثار التى زرتها بشغف عظيم بيت ماكيافلى وهو ما يزال قائما فى شارع جويتشارديني كما كان فى أثناء حياة صاحبه، وقرأت أثناء تلك الفترة كتابا عظيما هو تاريخ الجمهوريات الايطالية تأليف سيسموندى ، وشهدت تمثال ماكيافلى فى متحف أوفيتشى ، وزرت قبره فى كنيسة سانتا ماريا نوفلا وقد لحقه البلى والتهدم ، ولكن اسمه مكتوب عليه بوضوح ، وكذلك تاريخ وفاته ، وجمعت ما استطعت من الكتب عن ماكيافلى من المكتبة العامة ، واشتريت من الكتب مما له علاقة بتاريخ الرجل وعصره حتى وجدت الجو التاريخى وشممت عبقه كأننى أعيش فى زمنه ، وترى هذه الفكرة مجسمة فيما كتبته فى مقدمة كتاب الأمير .

وفى يوم تال زرت الدومينيك وهو الدير الذى نشأ فيه جيورولومو سافونارولا وله تاريخ حافل وقد أصبح الدير كله

متحفا لهذا الرجل الذى ضحى به وحوكم وصلب وأحرق ، لا كتبه وحدهـا بل جسمه وذرى رفاته فى النهر ، وكل ذنبه أنه عندما استشرى الشر والفساد فى المدينة ، أراد أن يدعوهـا الى الخير والاستقامة وحاول أن يحكمها حكما دينيا فيه حزم وشدة ، ولولا مخالفته كنيسـة روما وحملتـه عليها ما تعرضوا له ، ولم يكن سافوناروﻻ ممن يحذقون فن استغلال الأمم ، بل كان ثائرا على كل المظالم ولم يكن لبقا ولا مداورا ، فلقى حتفه جزاء اخلاصـه واستقامتـه .

وفى الدير آثاره وصومعته وفراشـه وكتبـه ومخطوطاته وتصاويره ومحابره وأقلامه ، لقد كان شخصية جذابة وان يكن على نصيب وافر من الدمامة ، وقد كان لهذا الرجل أثر فى نفسى وتبقت منه رسالة وأشياء سلبها الانجليز فيما سلبوا من مخطوطاتى وأوراقى عند تفتيش منزلى فى مصر سنة ١٩١٦ وهو ما كان أدباء العرب يسمونه « كبسة » ، وهذا عمل الشرطة فى عهود الظلم .

فيرنزه مدينة نابغة عاشقة ، ونابلى مدينة مستهترة فاسقة ، وروما مدينـة خالدة منافقة ، وقد عشت فى المدن الثلاث ، ورأيت أكثر من عشرين ألف أثر فنى بين تماثيل منحوته ولوحات منقوشة ، ولم أر فى فيرنزه شيئا من مناظر الفحش والدعارة التى يحمر لها وجه الشـيخ الأشيب والعجوز الشمطاء فضلا عن الفتى الأمرد والعذراء ، لأنهـا مدينة حماها الله من العيب فى أدبها وفنونهـا . فلا تقع العين منها على ما يؤذى النظر أو يخدش الذهن النظيف .

هنـا ثروة لا تحصى من الألوان وهنـا مهارة وحذق على مدى الأجيال ، هنا أفكار وعواطف ومحـاولات من الروح للتعبير عن انفعالها فى كل أحوال النفس ، هنا تنطق الأيدى بدلا من الألسنة

وتســـمع الأعين بدلا من الآذان ، ولكن نشـــعر بأن كل الحواس تشترك فى هذه المتعة ، العين والأذن والعقل والقلب ، حتى ان اللمس نفسه يحاول أن يشارك بقية الأعضاء فى الشعور ٠

ليست هذه المذكرات قصة ولا سردا للتحف ، انها تسجيل للأحاسيس والمشاعر والعواطف فى فترة قصيرة ، ولكنها من أكثر الفترات سعادة بل لعلها أسعدها فى تلك الأيام وكل ما سبقها ومعظم ما لحقها ٠



المؤتمر الوطنى المصرى فى بروكسل
ســـنة ١٩١٠

ـ ١ ـ

السفر الى باريس ـ عزيزة دى رشبرون ـ التجسس على المؤتمر ـ اشتراك الهنود فى المؤتمر ـ كريشنا فارما ـ مدام كاما

بينما كنت عند مكتب البريد بميدان القصر العتيق أسأل عن المكاتيب التى ترد الى وتحفظ به ، قدم الى أمين البريد رسالة برقية صادرة من باريس ، ففضضت غلافها فاذا فيها طلب سفرى فورا الى باريس لمباشرة تنظيم المؤتمر الثانى الذى تحدد انعقاده فى ١٤ ، ١٥ ، ١٦ **سبتمبر سنة ١٩١٠ بعاصمة فرنسا** ويستحلفنى كاتبها وهو المرحـوم الدكتور المخلص منصـور رفعت بكل عزيز ومقدس لدى ألا أتخلف وأن أبادر بالسـفر وان أتذكـر وطنى وحاجته الى خدمتى ، ولم أكن بحاجة الى ذلك لأنى أتلهف على قيامى بالواجب ولا يقف بى ولا يعوقنى الا ضيق ذات اليد • وأرسلت اليه برقية أطمئنه فيها بمبادرتى الى اجابة طلبه وليبلغ تحياتى الى محمد فريد بك الذى ذكر أنه فى انتظارى •

وقد شعرت بهزة اذ كنت فى أقصى درجات السعادة العقلية وكنت هادىء البال مشتغلا بالدراسة الفنية واتمام تعريب كتاب « الأمير » لميكافللى ، ثم حملت هموم الرحلة الطويلة الشاقة •

وأخيرا حان الحين وأخذت أعد الحقائب وحددت يوم السفر وشددت رحالى وركبت القطار فى المساء فى طريقى الى ميلانو وبقيت فى القطار ساعات طويلة حتى بلغت لوزان وأخذت أضـــع مشروعا لنزولى باريس ومقابلة اخوانى وعزمت على ان انفرغ للعمل ٠

بلغت باريس فى اليوم الثانى ونزلت بشارع فوجيرار رقم ٣٢ فى غرفة علوية عند كهلة مترملة لقاء ثلاثين فرنكا مشاهرة ، وبعد وصولى واستقرارى لبست ثيابا حسنة وقصدت الى العنوان المكتوب لى وهو « فاميلى هاوس » على قيد خطوات من بلاس ايتوال (ميدان الكوكب بالشانزاليزيه) ، وهو خان أقرب الى الفنـدق منه الى المثوى العائلى (ينسيون دى فامى) ، وصعدت الدرج وكان أول من لقيت وجه امرأة دميمة صـفراء هزيلة اسمها « الآنسة دى رشبرون » (١) هى نفسها التى كانت تكاتبنى منذ سنة تطلب منى مقالة فى مجلة تزمع اصدارها نجدة للمسألة المصرية وقد بعثت اليها فعلا بمقولة عن الثورة العرابية وعن جهاد مصطفى كامل ٠

---

(١) الآنسة عزيزة دى رشبرون هى مدام فيبـان المعروفة لدى المصريين ولدى الكثيرين ممن يعتقدون أنها تزوجت من محمد فريد ، وكانت تعيش فى الخمسينيات بعنوان ٤ شارع كلواتر نوتردام خلف كنيسة نوتردام ببـاريس ، وعقب قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، زارت مصر سنة ١٩٥٤ فاكرم رجال الثورة وفادتها وظلت مقيمة بمصر حوالى ستة اشهر ٠

وقد أخبرنى الأخ زكريا لطفى جمعة أنه زارها فى بيتها بباريس اكثر من مرة وشاهد عندها بعض آثار الزعيم محمد فريد وعصاه ومنظاره « المونوكل » ، كما شاهد تمثالا له من المرمر واطلع لديها على بعض مذكراته ، وكان يقوم على خدمتها ورعايتها حينذاك رجل من الروس البيض ظل فى خدمتها اكثر من خمسين عاما الى أن مات وقد انتهى الامر بمدام فيبان فى أواخر أيامها الى تركها منزلها والدخول فى أحد ملاجىء العجزة ٠

كانت تلك المرأة تعمل كاتمة أسرار لجنة المؤتمر الوطنى الثانى فى باريس ، عينها فى هذه الوظيفة محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى بعد أن سعت للتعرف اليه منذ أشهر .

قابلت هذه المرأة وحدها تدق على الآلة الطابعة فى الغسق ، وكنت أظن سأقابل فريد بك والدكتور منصور رفعت والدكتور عثمان غالب باشا قعيد الوطنية المصرية فى باريس وحامد العلايلى، فانقبض صدرى عندما رأيت وجه تلك البنت الدميمة ، فلما عرفتها بنفسى تظاهرت بالفرح بهذا اللقــاء المفاجىء وأخذت تثرثر بلسان ذرب فسيح وعبارة بليغة ضاعت كلها محجوبة بتلك الدمامة التى لم أشهد مثلها فى أقطـار أوربا ولا سـيما فى باريس المشهورة بمحاسن النساء ، فسمعت اليها على مضض فوعيت من أقوالها أنها تتكلم عن الزعيم الوطنى فريد بك بقولها « فريد » وتصف حامد العـلايلى بأنه « الأسـمر الجميـل الذى لا يعرف الفرنسـية ولا الانجليزية » وعن غالب « الباشا الدكتور العجوز » وأنهم كلهم غائبون وأنهم يعيشون فى هذ الخان وتسألنى لماذا لم أحضر متاعى وأين نزلت وكيف أصنع لأحضر جلسات اللجنة وأنا سكرتيرها وأنها سكرتيرة مساعدة لى ؟ ثم أخذت تهذى بقولها انها صدمت بلقائى لأنها كانت تتخيلنى عملاقا ملتحيا بلحية بيضاء وأن أكون من أبطال التاريخ كما دلت على مكاتيبى ومقولاتى التى قرأتها منذ عام وأنها وجدتنى على نقيض ذلك فتيا أجرد أمرد قصير القامة وأنها تعانى خيبة أمل deception ، فلم أجب على هذا التودد وقلت لها : يا آنسة ... قالت : الآنسة عزيزة دى رشبرون ، فاننى فرنسوية نبيلة كما تعلم من تقديم لقبى بنسبة « دى » ولكننى مسلمة ، أسلمت حديثا هدانى الى الايمان فريد .

فلم أجب ولم أدهش وقلت فى نفسى « يالسوء حظ الاسلام » ·
وهممت بالقيام فقالت : الى أين ؟ قلت : أطوف وألف لفة فى مقهى حتى يجيء وقت مجيء الباسوات والبكوات وبقية الزعماء ·

وهبطت الدرج وانا أشد ما أكون حزنا ، وحمدت الله على أننى اخترت مسكننا بعيدا عن هذا المستقر الذى تحرسه عزيزة ، وسرت فى الطريق فبهرنى جمال باريس ورأيت مقهى بديعا عليه اسم « كافيه فوكيه » فأعجبنى واخترته مجلسا وأخذت أفكر فى الأيام المقبلة ، فتذكرت أن على خطابا ألقيه فى المؤتمر وأن استبقى عزيزة للنقر على الآلة الطابعة وأن أشرك العلايلى فى كتابة السر · فصممت على أن يكون موضوع خطابى فى المؤتمر عن « وجوب حياد مصر حيادا دوليا احتراما لقناة السويس لأنها طريق بحرية دولية » ·

وأردت أن أحدد علاقتى بالزعيم محمد فريد والكواكب التى تدور فى فلكه أمثال غالب باشا والدكتور منصور رفعت وهو شقيق اسماعيل لبيب بك أحد أصدقاء المرحوم فريد بك المخلصين، وأحمد لطفى بك المحامى ، فأبقيت هذا الى أن نجتمع بعد ساعة ·

ولما انتهيت من التفكير ودونت رؤوس أقلام وعنوانات ، تمثلت لى فرصة سانحة لوجودى بباريس وهى أن أتردد على المكتبة الوطنية لأتم بحثى ودراستى عن عهد الاحياء « رينيسانس » فى ايطاليا لاستكمال فوائد اقامتى فى فيرنزه ·

وفى تمام الساعة السابعة قصدت الى « فاميلى هاوس » فوجدت الحفل حاشدا بالسادة والأعيان وقد حضروا لتناول العشاء لأنهم مقيمون عائشون نائمون يقظون فى الخان على حساب المؤتمر

الوطنى المزمع اجتماعه ، لأنهم وقفوا أيامهم ولياليهم على خدمة الوطن ، فوجبت على الوطن نفقـــاتهم وهى الأموال التى جمعت بالاكتتاب ولا أعلم من كان أمين الصندوق !!

وفى تلك الليلة الأولى رأيت فريد بك وعشرات من البكوات الذين هاجروا من مصر جماعات وأفرادا ليساهموا فى خدمة الوطن وبينهم الدكتور محجوب ثابت ، **وجـاء الأسـتاذ حسين هيـكل مستخفيا لأنه كان طالب بعثة يخشى ان عرف أمره أن يقتص منه بالحرمان لأن شوكة الانجليز قوية** ، ورأيت أحـد أبنـاء ادريس راغب بك وهو أكبر أنجاله سنا وكان لا يحسن التكلم بالعربية ، فقال على المائدة وهو يهمس فى أذنى : لماذا لا تعملون مثل التركى الصغير ؟ فاستعدت السؤال لأفهمـه ، وبعد عناء فى الاستفسـار والاستقراء والتخمين والتنجيم وتقليب الألفاظ والمعانى ، ضحكت ضحكا شديدا على غير عادتى لأننى اكتشفت أن ابن البيك المصرى العظيم يريد أن يقول لماذا لا تعملون كما عمل حزب تركيا الفتاة !!.

فانطلق يخاطبنى بانجليزية فصـحى لأنه كان فى جامعـة اكسفورد وهو يعبر بها أبلغ تعبير ولا يعرف العربية ولا الفرنسية ، وهو الآخر جاء مستطلعا مشتركا بقلبه وبعض ماله كغيره ، ولكننى أحببته لجهله وسلامة قلبه لأنه كان بمعزل عن كل شىء يهم وطنه ، ولا عجب فان هؤلاء الناس ترك فى دمائهم خضعوا لعبد الحميد طول القرن ، فلما ظهر حزب تركيا الفتاة أرادوا تقليده ، **فأفهمته بالانجليزية التى يجيدها أننا لا نسـتطيع تقليد « حزب تركيا الفتاة » لأنه ليس عندنا جيش ولا سـلاح ولا أنـور ولا نيازى ولا طلعت حتى نقوم بالثورة .**

ومحمد بك راغب هذا عنوان على عدد كبير جدا من أهـل مصر الذين يعيشون فيها وينتمون الى الدولتين الحاكمتين قديما

وحديثا (تركيا وانجلترا) ، ولم أجد وطنيا صادقا الا الفلاح المصرى المتعلم الخالى من مطامع الوظائف ، وكان المال دائما عقبه فى سبيل الوطنية فى الأمم الضعيفة المستسلمة ، لأن الحاكمين يهددون الأغنياء فى ثروتهم ، كما كان الفقر عقبة أخرى لأن الفقير النابغ عاجز عن التعليم ومحتاج الى القوت • وفى الحق لا ذنب للفقر أو الغنى وانما الذنب للصغار والضعة ودناءة النفوس ، ولكن على كل حال كان الناشئون فى الطبقة الوسطى أميل الى التقدم والعواطف السامية أمثال مصطفى كامل •

وفى هذه الجلسة العثمانية عرض على فريد بك وألح أن أنزل معهم بالخان لأنه أقرب الى وأجدى لأننى أكون ضيفا على الجماعة (أى أموال المؤتمر) ، فاعتذرت بأننى ألفت النزول بأحياء الطلبة مادمت طالبا وأننى أستمتع بخلوة عذبة وأننى طول اليوم أكون فى صحبتهم أعمل معهم وأننى لا أستطيع الطعام معهم لأننى أتبع تدبيرا طبيا وحمية غذائيـــة ، فقبل عذرى وأعفانى من ذلك الاختلاط المشوش • ذلك لأننى علمت أنهـــم ينفقون من الأموال التى جمعت فى مصر على ذمة العمل السياسى ، وقد درجت ودأبت طول حياتى على الاعتماد على الله ثم على ما أملك فى الانفاق على كل عمل عام أستطيعه ، ولم أعرف ولم أقبل معونة مادية من أحد لأن من يفعل هذا يكون أجيرا غير مأجور • **ودهشت اذ علمت أن البكوات والسادة والأعيان ينفقون من الأموال المجموعة على معيشتهم وفيهم أغنياء أمثال عمار بك وفؤاد حسيب بك والدكتور بدران حتى حامد العلايلى ، ويرون هذا جائزا وحلالا لأنهم يقومون بعمل وطنى ، ولعل بعضهم اكتسب بمال فاشتركوا جميعا فى الاغتراف منـه ،** فاعتذرت لهم بأننى لم أكتسب بغير عمل ذهنى ومجهودى الفعلى فلا حق لى فى أن أعيش على نفقة أحد ، خصوصا وأننى لست ممن يميلون الى الترف والأناقة فى المأكل والمشرب •

وسألنى صاحبى العلايلى كيف وصلت ؟ قلت له فى الدرجة الثالثة . وسألنى على المدينة الايطالية التى كنت بها ، فلما قلت له « فيرنزه » ضحك وقال ماذا كان عنوانك يا لطفى ، قلت نمرة ٦ شـــارع ليونارد دافنشى ، فاغرق فى الضحك لأنه لم يســمع باسم المدينة ولا باسم الفنان الكبير ، ودعانى الى غرفته وألح من جديد على ضيافته وأنهــا توفر على كثيرا وكيف أستبيح لنفسى البعد عنه بحجة الحمى (يقصد الحمية !) والتبدير (يقصد التبذير !) فضحكت كثيرا ثم افترقنــا وعدت الى ركنى الســعيد فى شارع فوجيرار على أن أعود فى الصباح الباكر لابداء العمل .

وفى اليوم التالى قابلت فؤاد حسيب وكان كاتبا بالفرنسية طارئا على الوطنية وقد تخرج فى دير مسيحى ثم ألقى ثياب الرهبان وانضم الى المصريين يكتب فى الصحف الفرنسية ، ورأيت عمدا ومشايخ بالعمائم والقفاطين ولقيت المرحوم شفيق منصور وكان حديث الانضمام الى الحزب الوطنى وحديث العهد بالنجاة من قضية الوزدانى وتهمة الاشتراك فى اغتيال المرحوم بطرس غالى باشا ، وكان معهم خالد الفوال بك وهو من أعيان دمياط وموظف بديوان الأوقــاف ، فعجبت لحاله ومجيئه ، فقــال لى خبير به انه جــاء ليتجسس على المؤتمر وقد دفع مائة جنيه قيمة اشتراكه وهى طبعا من المصاريف السرية وكان يتظاهر بالسكر ليأمن المؤتمر جانبه ، ولكن أمره لم يكن خافيا على أحد لأنه لا يعقل أن يجمع بين وظيفة الحــكومة وخــــدمة الخــديو وبين الوطنيـــة الثائرة على الاحتلال وعلى الخديو .

وعلمت أن الحكومة المصريــة أرســلت لفيفــا من المصريين الموظفين والعاطلين وجعلتهم جواسيس على لجنة المؤتمر ومنهم خالد الفوال المذكور وعبد اللطيف سعودى بك وكان موظفا فى محافظة

مصر وآخرون ، وقد تظاهروا بأنهم وطنيون لأول مرة فى حياتهم ، كذلك أرسل الانجليز جواسيس من الرجال والنساء وكثرة أخرى من المشبوهين المندسين رسل فيليبدس وهارفى باشا ووزارة الداخلية .

فلما خاطب بعض المخلصين فريد بك فى أمرهم ضحك وقال : يا اخوانى لا تظهروا علمكم بأمرهم ، فأولا نحن نستفيد من أموالهم التى يدفعونها بمثابة اشتراك ، وثانيا ليس عندنا أسرار نخشى عليها ، واننا لو أظهرنا اهتمامنا بهم لبلغوا أمانيهم عند سادتهم وكادوا لنا كيدا .

ثم اتجه الى وقال :

ـ ان صاحبك الروح بالروح الذى اصطفيته فى مؤتمر جنيف حتى جعلناه سكرتيرا (يقصد حامد العلايلى) ها هو ذا قد جاء هذه السنة وقد قيل انه محمل بأموال الخديو عباس ليقضى لبانته من التجسس علينا وعليك أنت بالذات لأنه موظف رسمى بالمعية السنة (ديوان الخديو) ومصاهر أحب الناس الى الخديو وألصقهم به (يقصد أمير الشعراء أحمد شوقى بك) هل يمكننا أن نجاهره بالعداء بتهمة التجسس ؟ يا لطفى دع الخلق للخالق والله منتقم جبار .

فقلت له :

ـ ياسعادة البيك أنا لا يهمنى هذا الأمر لأننى لست موظفا ولا عينا ولا مليونيرا لأخشى عواقب تجسسهم ، ومادمت أنت ترى هذا الرأى فالقول لك ، على أننى لا أعرف أحدا من هؤلاء الناس لغيبتى الطويلة عن مصر .

فربت على ظهرى وقال :

ـ أنا أعرف المصريين جيدا ، ان هؤلاء الكلاب جميعا غدا ينقلبون خدما لنا وعبيدا عندما تظهر قوتنا ونصبح ذوى الشأن ، فهذه صنعتهم فى كل عهد ودولة ، يعبدون الأقويـاء ويخضعون لصاحب الأمر •

وفى هذه الأيام رأيت الأستاذ محمد حسين هيكل وكان يطلب الدكتوراة وكان يقابلنا ونتحدث ونسير معه ولكنه كان يبتعد قدر طاقته عن الظهور بمظهر الوطنية المتطرفة ، لأنه مبعوث على نفقـة الحكومة المصرية ويخشى أن تفصله من البعثة المدرسية •

وكان رئيس الوزراء فى الحكومة الفرنسية ارستيد بريان قد ثبت علينـا العيون والأرصـاد ولا سيما الفتاة التى انتحلت الاسـلام وأطلقت على نفسـها اسم « عزيزة دى رشبرون » ، وكان لها تاريخ طويل • ولما أدركت جو المؤتمر حمدت الله ألف مرة على انفرادى وعزلتى واتخاذ مسكنى فى غرفة فى الدور الخامس فى شارع فوجيرار عند أرملة مسنة ، فكنت أتناول وجبات الطعام فى مسكنى وأجتمع باخوانى فى أوقات العمل قبل الظهر وبعده •

وجاء الينـا عنصر جديد من الرجال والنسـاء ، هؤلاء هـم الهنود المقيمون فى باريس تحت رياسة السيدة الفاضلة طيبـة الذكر والأثر الوطنية المخلصة « مدام كاما » (١) ، وكانت تقيم على قيد أمتار من « فاميلى هاوس » بشارع بونتيو رقم ٢٥ وهو حى ارستقراطى متصل بالشانزاليزيه ، ويعيش فى كنفها رهط من

---

(١) افاض لطفى جمعة فى الحديث عن هؤلاء الهنود فى رواية « الفتى العادل » التى نشرت منجمة بالبلاغ اليومى عام ١٩٣٠ •

الوطنيين الهنود أمثال هارديال وشـاتو يادايا وأكبرهم سافاركار الذى فر من لندن عقب اغتيال سير كيرزون وايلى رأس الجاسوسية الانجليزية على الطلاب الهنود والذى قتله « دنجرا » الشهير وسجن الشيخ عبد العزيز جاويش بسبب تمجيده بمقال فى اللواء نشره فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٠٩ بعنوان « اليوم يقتل دنجرا » .

وكان سافاركار الطالب الهندى النـابغ مقيما فى لنـدن فاتهموه بالتحريض كما اتهموا الوزير الهندوكى القديم « شيامدجى كريشنا فارما »، وكان الوزير يصدر جريدة « الاجتماعى الهندى » ويحمل فيها على الاستعمار البريطانى فى الهند حملات صادقة ، وكان الانجليز يطيقونه رغم أنوفهم لمكانتـه السياسية والعلمية ولوفرة ثروته ولأنه تلميذ الفيلسوف الانجليزى « هربرت سبنسر » وقد وقف ثلاثين ألف جنيه على عالم يلقى دروسا فى فلسفة سبنسر فى كلية اكسفورد ، فكان الانجليز يخجلون أن ينفوه أو يطردوه لأنهم فتحوا أبواب بلادهم لكل لاجىء سياسى ، فوجب أن يعتبروه لاجئا حرا وأن يحموه كما حموا ماتزينى ، وكما كانوا يحمون فى هذا الوقت نفسه لينين وهو يصدر مجلة « اسكرا » الشرارة ، فتحملوا كريشـنا فارما على مضض وهـم يتربصون به الدوائر ويحرقون الارم كلما أصدر عددا من مجلته الشهرية « The Indian Sociologist » وقد زاد النـار ضراما أنه خصص جزءا كبيرا مـن ماله لتأسيس وتأثيث بيت الهنـد : India House ليـأوى اليه الطلاب الهنود المغتربون صـيانة لهم وحفظا لصحتهم وأخلاقهـم ، فقد علم القاصى والدانى ان عمل « كيرزون وايلى » كاد أن يضلل الشـباب الهنـدى وهو رئيس لجنـة اسـتقبالهم والاشراف على اقامتهم وتعليمهم ، وقد ثبت فى قضية « دنجرا » أن كيرزون وايلى كان ينصح للشبان الهنود أن ينزلوا منازل ظهر للملأ أنها مواخير لينصرفـوا عن العـلم والأدب والوطن الى اللهو والغزل

والدعارة فتنهد قواهم ويمرضوا ويموتوا ، ولأجل هذا قتله دنجرا وقتل معه طبيبا هنديا مسلما اسمه « محمد على خان » كأن شريك ليزون وايلى ، وقد قال دنجرا فى دفاعه أنه يفضل ان يموت فى سبيل وطنه لينقذ مئات الشبان ٠

وكان « شيامدجى كريشنافارما » ماهرا جدا فى الفرار ، ونجا معه فى سفينة واحدة الى فرنســا « سافاركار » فلما هجم البوليس السرى على بيت الهند لم يجد فيه هنديا واحدا ، فحطم أثاثه واستولى على كل ما وجده من أوراق ووثائق وخرب البناء نفسه حتى لا يعود اليه أحد يستظل بظله ٠ وكان كريشنا فارما حصيفا ، فلم تكد قدمه تطأ أرض فرنسا حتى بعث بهبة قدرهـا عشرة آلاف فرنك اعانة للمصابين بفيضان نهر السين سنة ١٩١٠ وأرفقها بخطاب الى رئيس الجمهورية قال فيه انه يعتذر لضآلة قيمة المنحة ، ولكنه غريب الديار مطرود من انجلترا ومظلوم فى تهمة باطلة ، فلما طالبت انجلترا بتسليمه ، اعتذرت حكومة باريس بأنه لاجىء سياسى ولا ترى الحكومة فى مسلكه عيبـا ولا عليـه غبـارا ٠

وأقام كريشنا فارما فى بيت جميل فى أحياء الأعيان وكانت معه زوجته وطالما تغديت عنده وقضينا ساعات طويلة فى الحديث والنقاش ٠

أما ســافاركار فكان فقيرا فلجأ الى مدام كاما يعيش فى كنفها ، وكان بين كريشنا وكاما عداء شديد سببه التنافس فى خدمة الوطن ، ولأن كاما كانت كالرجـــل الحازم العـــازم الواعى بل أشــد رجولـة وقوة ، وكانت سخيــة كريمة وهى أرملة فى الخمسين من عمرها من « البـارسى » ســلالة الفرس المقيمين فى

بومباى من تلك القبيلة التى نزلت الى جنـــوب ايـران عند رحلة القبائل الآرية التى كانت نازلة قبل التاريخ حول البامير فنزح أكثرها الى أطراف الهند وايران ، وكانت أكثر تلك القبائل النازحة الى ايران نفوذا وقوة قبيلة « بارسيان » التى نزلت فى جنوب ايران واتخذت مدينة « اصطخر » مستقرا لها وعاصمة لملكها ثم اضطهدوا فى وطنهم الأصلى فرحلوا منذ ألف سنة الى الهند وهم طائفة « البارسى » الموجودون فى بومباى التى تنتمى اليها مدام كاما (١) .

وقد أسست مدام كاما بضع جرائد أشهرها جريدة باندى ما ترام ومعناها « نحييك أيتها الأم الرءوم » أى الوطن أو « عمى صباحا يا أمنا الهند » .

وأنفقت ثروتها فى قضية الحرية الشرقية وعاشت عيشة الزهد والتقشف فى نيويورك وشـــيكاغو ولندن وباريس وجنيف وشتوتجارت ولوزان وتوفيت منذ بضع سنين فى السبعين من عمرها فى سويسرا وأحرقت رفاتها على غير مذهبها ، لأن مذهبها يقضى بأن يوضع الجسد عاريا على بناء يسمى « برج الصمت » ويبقى معرضا حتى تأكله الطير !

كانت مدام كاما سمراء اللون جميلة التقاسيم حلوة الصوت عذبة الحديث قوية القلب ذات جمال ومال وأخلاق عالية ، كما كانت واسعة الحيلة ذات هيبة خاصة وفصاحة نادرة وسلطان أدبى على كل من يقرب منها ، وقد أخذت تنشر الدعوة للحريـة

---

(١) كتب لطفى جمعة مقالا عن « مدام كاما » عنوانه ، وطنية البارسى فى الهند » نشره بمجلة الرابطة العربية ، عدد ٧٠ فى ٦/ ١٠/ ١٩٣٧ .

فالتف حولها فريق من خيرة شـــباب الهند ومكنوا لها عقـــد الاجتماعات والقاء المحاضرات الانجليزية التى كانت تجيدها ، فخطبت فيها واكتسبت جانبـا كبيرا من الرأى العـام ونشرت الصحف الأمريكية صورها وأحاديثها ومحاضراتها ٠

وبعد أن أقامت كاما فى نيويورك وشيكاغو نزحت الى انجلترا سنة ١٩٠٧ وخضع لها كريشنا فارما واتفقا معا على التعاون فى انجلترا فأسسا جريدة « انديان سوسيولوجيست » التى وصفوها بأنها جريدة هندية ثورية ، وكان فارما كاتبا بليغ العبارة حاضر الذهن ، خبيرا بتاريخ العالم والاستعمار ولا سيما فى وطنه وله أحيانا أسلوب كأنه قطع من نار ، فنال من بعض الظالمين نيـــلا وانتصر لمهاتما تيلاك الذى قام فى الهند قبل مهاتما غاندى وأسس جريدة كيسارى أى الأسد وقضى فى السجن بضع سنوات قبل موته ٠

ثم حدث خلاف بين كريشنا فارما وبين مدام كاما للفرق بين الاثنين فى طريقة الجهاد ، فان الأول لم يكن مهيجا بالمعنى المعروف بل كان زعيما فكريا وثائرا علميا يجادل بالعلم والاقتصاد والفلسفة ويقنع العقل ولا يكترث للعواطف ، ولذا كانت تلتف حوله الطبقات أو العناصر الرشيدة من الناقمين والساخطين ٠

أما مدام كاما فكانت بيئتهـــا مشتعلة بالشـــباب والاقدام والتضحية ومن أشبالها هارديال وسافاركا وشاتويا دايا وهم من أشهر رجال النهضة الهندية الحديثة وقد خدموا القضية قبل أن يتناولها غاندى ٠

وقد حضرت مدام كاما جمـيع المـؤتمرات السـياسية والاجتماعية التى عقدت فى أوربا من سنة ١٩٠٨ الى ١٩١٤ ، ومن

بين المؤتمرات التى حضرتها واشتركت فيها بعملها وقولها مؤتمرات الوطنيين المصريين فى لوزان سنة ١٩٠٨ وجنيف سنة ١٩٠٩ وبروكسيل سنة ١٩١٠ ولها خطب ثابتة فى محاضر اعمالها وفى الصحف .

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى وتحالفت انجلترا وفرنسا على الحرب ، انتقل كريشنا فارما الى سويسرا وتبعته مدام كاما لأن الحكومة الانجليزية سمعت فى حقها وشاية « أحمد خان بها دور » أحد مشاهير جواسيس الهند من أنها كانت ذات يد طولى فى الاعتداءات السياسية التى وقعت فى الهند على بعض حكامه ولا سيما لورد هاردنج سنة ١٩١٠ ، سنة ١٩١١ ، وادعوا أيضا أنها كانت على اتصال ببعض ثوار روسيا القيصرية وخصوصا بورتزيف الصحفى الثورى الذى رفع القناع عن وجه « آزيف » الشهير الذى كان أول عميل عالمى للاستخبارات ، ولكن هذه التهم لم تثبت عليها وان كانت أحرجت موقفها مع الحكومة الفرنسية فنزحت هى الأخرى الى سويسرا سنة ١٩١٤ ، واستمرت فى جهادها الى سنة ١٩٢٢ حتى قضت نحبها فى نفس السنة التى توفى فيها المرحوم محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى وكانت بينهما صداقة ، وكذلك بينها وبين المرحومين الدكتور منصور رفعت واسماعيل لبيب بك وبعض زعماء المصريين فى الحركة الوطنية المصرية الأولى .

أعود فأقول ان هؤلاء الهنود أقبلوا علينا لأنهم انضموا الينا فى العام الماضى سنة ١٩٠٩ فى جنيف ، وجاءت مدام كاما بأبنائها وبناتها وأحجم كريشنا فارما رغبة منه فى عدم الاتصال بمنافسته، وقد حاولت أن أكون حلقة اتصال بينهما فلم أوفق ، وقالت لى مدام كاما :

ـ خل عنك يا ولدى ! فأنت لا تعرف عمق أحقاد كريشنا ولا تحيط بدهـائه وانا لا أطعن فى وطنيتـه ولكن أقول لك انه موظف قديم عند الانجليز ولم ينل منهم كل أغراضه وهذا يكفى ٠

ولكننى احترمت كريشنا وأحببته لأنه أعان عشرات الشبان على الكفاح ولا سيما سافاركار الذى ألف كتابا فى تاريخ الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ ٠

لم يكن سافاركار يدعـو الى الثـورة السافرة ولا الى اهراق الدماء وان كان دنجرا من أخص أتباعه ، ولكن مدام كاما كانت تدعو لها ولها يد حمراء فى قذف القنابل التى أصـابت اللورد هاردنج نائب الملك فى الهند ، فقد قالت لأحـد خلصائهـا انها انتهزت وجود « بورتزيف » الثائر الروسى فى باريس واتصلت به وجعلته يعلم بعض شبان الهنود صنع القنابل فصنعوها فى بيتها وسافروا بها الى الهند وألقوها على نائب الملك ٠

كان فريد بك ينظر الى هؤلاء الهنود شزرا ويخشـاهم لأنه يخشى أن يتهم أعضاء المؤتمر المصرى الوطنى بالتآمر مع الهنود على الحكم البريطانى وهو يزمع أن يعود الى وطنه ، ولكن كان ما خاف أن يكون ، وجاءه السجن والنفى عن طريق كتاب « وطنيتى » وهو ديوان شعر نظمه على الغاياتى (١) ٠

---

(١) اكد الدكتور عبد العظيم رمضان أن غياب محمد فريد خارج البلاد لم يمنع من تقديمه للمحاكمة الجنائية كما يذكر بعض الباحثين ، وأن سـعد زغلول لم تكن له علاقة بهذه المسألة أو الحكم الذى صدر ضد محمد فريد (مقدمة مذكرات سعد زغلول ، تحقيق الدكتور عبد العظيم رمضان ، الجزء الأول ، سنة ١٩٨٧ ، ص ١٢٩ وما بعدها) ٠

كنت أقسم وقتى بين مؤتمرنا فى « فاميلى هاوس » وبين مجامع الهنود ، ورأيت مدام كاما تتأهب للحضور معنا محفوفة بعشرات الشبان والفتيات وقد أعدت خطـــابا لالقائه فى المؤتمر ، كما أخذ الشباب المتعلمون فى لندن يكتبون لبعض أبناء الأعيان من المصريين المتعلمين فى اكسفورد وكمبردج خطبا يلقيها المصريون وهم لا يجيدون النطق ببعض ألفاظها لقاء جعل معلوم الفقر الهنود على علمهم وغنى المصريين على عميق جهلهم ، وبعض هذه الخطب مطبوع ومنسوب الى الذى ألقاه كذبا ومينا وكاتبه هارديال الذى كان فى تلك الأيام فى غاية الفقر !!

وكتبت باسم فريد بك خطابا مطولا الى مستر بلنت ، فأجاب بمكتوب طويل الى فريد بك بوصفه رئيس المؤتمر ومعه خطاب جليل باللغة الفرنسية واشترط أن أتولى تلاوته ، وهذا الخطاب نشر بالعربية فى مصر مرارا فلا داعى لتكراره ، ولكن أقول ان كل ما تكهن به بلنت عن سياسة الانجليز الاستعمارية ومسالكهم الملتوية وخططهم الجهنمية قد تحقق كأنه كان يقرأ فى كتاب مبسوط !

لقد سرنى أننى قابلت لفيفا من رجال الثورة الهندية فى باريس وآخرين تجـــارا مقيمين بهـا يتجرون فى اللآلىء ، وزرت شيامدجى كريشنا فارما ، فوجدت راحة وسرورا ومتعة فى عشرة هؤلاء الهنود وهم أبطال ومخلصون وثقات ومتعلمون ومطلعون ، وعليهم هــم الآخرين لفيف من الجواسيس الانجليز والهنود ولا سيما المسلمين منهم .

وقد رغب الوطنيون الهنود أن يشتركوا معنا فى المؤتمر وأن يشـدوا أزرنا بخطبهم وبحوثهم ، وكان بعض الأغنيـاء من

المصريين يعارضون فى ذلك بحجة أن هذا المظهر يحرج صدور الانجليز علينا ويزيدهم أحقادا خصوصا أن الهنود يلجأون فى بلادهم الى القوة والعنف ، والمصريون يريدون أن يناضلوا على بساط القانون ويتخذون ما وصفوه بالطرق السلمية المشروعة التى تطمئن الانجليز ، وكان فريد بك يميل الى هذا الرأى الى أن أقنعته وساعدنى فى ذلك الدكتور منصور رفعت وحامد العلايلى ، وأقنعته بأن الهنود يتخذون من مؤتمرنا متنفسا ولا يجوز لنا أن نمنعهم وأننا فى العام الماضى (سنة ١٩٠٩) اتخذنا أنصارا من الأيرلنديين والألمان والاشتراكيين الفرنسيين أمثال روانيه وجوريس ، فكيف نمنع الشرقيين ، **وشرحت لفريد بك أن الانجليز اذا علموا أن لنا انصارا من أمم مختلفة يتهيبون جانبنا ويحسبون لنا حسابا** ، وأن هذه كانت خطة المرحوم مصطفى كامل فى نضاله وأنه نجح فيه فى دنشواى وما بعد الاتفاق الودى بأنصاره من الفرنسيين وأحرار الانجليز ، **فاقتنع رحمه الله ولكنه اشترط على** من يخطب منهم ، ولا سيما مدام **كاما** ، **الا يذكر المقاومة بالقوة أو تبرير اهراق الدماء** ، وكانت حوادث المرحوم الوردانى ودنجرا يرن صداها فى الآذان والأذهان ، فتعهدت له أن أقنع مدام كاما بضرورة عرض خطبتها علينا قبل القائها .

وعملنا واشتغلنا وتعبنا أياما وليالى ، وكان فى مقدمة مساعدينا الدكتور عثمان غالب باشا وهو مقيم بشارع بولانجيه بباريس وكان يروى لنا من أخبار مصطفى كامل الشىء الكثير لأنه كان أكبر أصدقائه من المصريين فى فرنسا ، واتصلنا الصحافة وكافة الأوساط السياسية ، وحضر الينا من انجلترا مستر كيرهاردى زعيم حزب العمال ومؤسسه .

وكانت خطتنا أن نعقد المؤتمر فى أيام ثلاثة ١٤ ، ١٥ ، ١٦ سبتمبر وهى أيام الاحتلال البريطانى لمصر بعد موقعة التل الكبير . وفى الأسبوع الأخير قبل الموعد المحدد تفاقمت حوادث التجسس حولنا وظهر لنا للأسف أن عزيزة دى روشبرون فى مقدمة الجواسيس ، ولما بدأنا أن نكشفها تظاهرت بالغضب وتركتنا .

وفى يوم ١٠ سبتمبر وصلت دعوة باسم فريد بك وأخرى باسمى وثالثة باسم حامد العلايلى لمقابلة رئيس الوزراء ووزير الداخلية مسيو اريستيد بريان بقصر وزارة الداخلية برقم ٦ بميدان بوفو ، فلما وصلت هذه المكاتيب الثلاثة تناولتها عزيزة روشبرون وخاطبتنى أنا وحامد العلايلى بقولها « أيها الثوريان - على سبيل المزاح - لقد وصل اسميكما الى وزارة الداخلية وعرفت عنوانكما » . وضحكت ضحكة صفراء !

وذهبنا الى مقر وزارة الداخلية وقابلنا رئيس مكتب الوزير الموسيو جيمو وكان رجلا فى الخمسين أحمر الوجه ، فمهد الى الحديث بأن انجلترا تنظر الى مؤتمرنا بعين السخط وأن حكومة فرنسا متحالفة مع بريطانيا منذ سنة ١٩٠٤ وأن الأحوال الدولية متحرجة وأننا أحسنا صنعا فى العام الماضى اذ عقدنا مؤتمرنا بمدينة جنيف وهى جمهورية حرة محايدة . فأجبناه ورددنا حججه ، فقال ان خلاص المسألة فى يد موسيو بريان . ودار بيننا الحديث الآتى :

رئيس المكتب : لقد علمت الحكومة أنكم قائمون بعقد مؤتمر وطنى مصرى فى باريس .

فريد بك : نعم وسيعقد فى صالة جمعيات العلماء (سوسيتى سافانت) يوم ١٤ سبتمبر أى بعد بضعة أيام .

رئيس المكتب : هل أخذتم اذنا بذلك من الحكومة كنص القانون ؟

فريد بـك : ان الحكومة تعلم باجتماعنا وكثير من أعضائها ومن النواب والشيوخ مدعوون لحضور المؤتمر ٠

رئيس المكتب : هل يمكنك أن تذكر لى أسماءهم ٠

فريد بـك : موسيو جوريس وموسيو روانيه وموسيو بانلفيه ٠٠٠

رئيس المكتب : تعنى الاشتراكيين ؟

فريد بـك : انهم على كل حال نواب فرنسيون ٠

رئيس المكتب : ان الحكومة تحب أن تلفت نظركم الى ضرورة نقل اجتماعكم الى مكان آخر غير باريس ٠

فريد بـك : هل هذا طلب رسمى ؟

رئيس المكتب : اعتبروه كما تشاءون ٠

أنـــا : نحن لا نعتبره رسميا الا اذا كان صادرا عن رئيس الحكومة نفسه ، وحيث أن الدعوة صادرة لنا باسمه فنحب أن نراه ونسمع منه ما يريد الادلاء به ٠

رئيس المكتب : اذن فعودوا الى هنا فى الساعة الخامسة بعد الظهر لعلكم تتمكنون من مقابلته ٠

فانصرفنا وعند خروجنا وجدنا فى فناء الوزارة جيشا من الجواسيس تبينا بينهم بعض الذين كانوا يترددون على دار المؤتمر باسم الرغبة فى الانضمام اليه وباسم حب الاسلام والشرق ومصر وما الى ذلك من الدجل والغش ٠

وأراد الجواسيس تتبعنا فالتفت اليهم وقلت لهم :

ــ أيها السادة اننا كنا في مكتب الوزير وسنعود فى الساعة الخامسة لمقابلة موسيو بريان فلا فائدة من اقتفاء أثرنا !

فلم تجد تلك الخطبة نفعا عند الجواسيس وتبعونا ٠

وفى الساعة الخامسة عدنا ودعانا موسيو بريان الى مقابلته بحضور رئيس مكتبه ، وكان فى أول الأمر هاشا باشا ، ثم تغير ودار بيننا الحديث الآتى :

موسيو بريان : لقد علمت ما دار بينكم وبين رئيس مكتبى وأنكم تطلبون منى تصريحا بصفتى رئيس الحكومة ٠

فريد بك : أليس لنا الحق فى ذلك خصوصا وأن فرنسا تخالف سنتها للمرة الأولى مع المصريين الذين تربطهم بها مودة قديمة وتقليدية ؟

أنا : كما أنه لا يزال عدد كبير من المصريين يقصدون فرنسا للتعليم والاقامة ويعتبرونها وطنا ثانيا ومصدرا للحرية وملجأ لكل مظلوم ٠

بريان : هذا صحيح ، هل أنت أحد الطلاب فى جامعاتنا ؟

أنا : نعم ولى الشرف وأعلم أن القانون لا يمنع اجتماعنا مادام فى حدود النظام ٠

بريان : أنت طالب بكلية الحقوق فى ليون وتعلم أن القانون لا يبيح لك الاشتغال بالسياسة ٠

فقلت له : نعم ولكننى لا أشتغل بسياسة فرنسا ولكن بسياسة وطنى وفرنسا وطن ثان لكل ضيف وهى أم الحرية وحقوق الانسان ٠

بريـان : ألم تجتمعوا فى العام الماضى فى جنيف أو لوزان لست أدرى، فلماذا لا تجتمعون هذا العام فى دولة صغيرة مجاورة ؟

فريد بـك : اذا تركنا باريس فلا ندرى أين نجتمع وسوف يكون لقراركم صدى سيىء الأثر فى العالم كله .

بريـان : نحن لا نريد منعكم ولكننا فى نفس الوقت لا نريد أن نؤثر فى عواطف الأغيار ، فان دولة أخرى ربما تكون محبة لفرنسا تتألم من اجتماعكم فى عاصمتنـا ، فنرجوكم أن ترحلوا « بالذوق » وألا تلجئونا الى ....

فقلت لـه : لم نعلم أن الأمر وصل بحكومة سعادتكم الى تهديدنا بالطرد ، وان كنا قد لاحظنا أن الحكومة الفرنسية سمحت لأشـخاص أجانب ربما ينتمون الى تلك الدولة الأجنبية أن يتجسسوا علينا فى نفس عاصمتكم وفى الدار التى اتخذناها مقرا لمؤتمرنا .

فقال بريان بغيظ مكظوم : لم يصل الى علمى ذلك ، ومع هذا فانه خارج عن موضوع هذه المقابلة ، ونحن الى الآن لم نخرج عن المألوف فى معاملتكم .

فقلت : لا ينسى سـعادة الوزير أن أعضـاء من جميع برلمانات أوربا ...

فريد بك مكملا : نعم ! ان نوابا من جميع برلمانات أوربا مدعوون الى المؤتمر وسيحضرون الى باريس ولا نملك الآن فى بضعة أيام تغيير خططهم ، وقد تكلفنا جهودا شاقة ولم يبق بيننا وبين المؤتمر سوى ثلاثة أيام أو أربعة .

بريـان : من هم هؤلاء الأعضـاء ؟

فريد بـك : من البرلمان الانجليزى مستر كيرهاردى ومستر بارنز ومستر كتل ومستر هازلتون ومن الصحفيين مستر روشستين ومن البرلمان الفرنسى موسيو جوريس وموسيو روانيـه ومن البرلمان الألمانى الهر أوجست بيبل وآخرون من ايرلندا وبافاريا والمجر وايطاليا والسويد والنرويج وروسيا وبلجيكا وايطاليا ورومانيا والهند وتركيا ....

فرد بريان ببرود تام : عنـدى خبر ، ولكن هذا لا يغير فى عزم الحكومة ، يمكنكم أن تذهبوا الى جمهورية أخرى بجوارنا اذا شئتم .

فريد بـك : سنذهب ايكس لا شابل فى ألمانيا لأنها أقرب بلد الى الحدود .

وقلت : وسننشر هذا الحديث بحذافيره وكل ما جرى بخصوصه وما سوف يحدث لنا من الآن الى أن نغادر أرض فرنسـا الكريمة !

فريد بـك : ولا ريب أن النواب الفرنسيين على الأقل سيطلبون من الحكومة حسابا عن هذه المعاملة .

وتكلم فريد بك بعبارات بليغة ، فقال بريان :

ــ لأجل هذه الأسباب كلهـا أنصح لكم أن تعقدوا مؤتمركم خارج فرنسا وليكن فى سويسرا أو فى امارة لكسمبورج لأننا لا نود أن نصدر أمرا بطردكم من فرنسا (كذا) ، واذا صدر هذا الأمر تحرمون من الدخول وتقعون تحت مراقبة الشرطة السرية .

فقلت لـه : ان فرنسا لا تفعـل هذا ، لأننا دعونـا عشرات من أعضـــاء البرلمان الفرنسى والرايشتســـاج الألمانى والبرلمان

الانجليزى ، وهؤلاء اذا صدر قرار نفينا يقدمون استجوابات بشــأنه ، على أننا مســالمون ولا يزيد عملنا فى المؤتمر على الخطابة والكتابة فى حدود القانون ٠

فاعتدل الرجل وقال : على الرغم من هذا فاننى لا أريد أن أصدر قرارا بطردكم ولا أريد أن يعقد مؤتمركم عندنا وأنصح لكم بمغادرة البلاد بطريق المودة ٠

فأشار فريد بك اشارة فهمت منها أن لا فائدة من مناقشة هذا الرجل ثم قال له :

ـ وكيف يمكننا الآن أن ننتقل بقضنا وقضيضنا الى بلد آخر ونغير خططنــا وقد أزف الوقت واتخذنــا أهبتنــا فى هذه العاصمة ؟

قال بريان : الحقيقة أننى بذلت جهـــودا كثيرة لأســتبقيكم ولم أتمكن ٠

فنهض فريد بك ونهضنا واستأذنا فى الانصراف ، فنهض بريان لتوديعنا وقال :

ـ أيها السادة أستودعكم الله وأعبر عن أسفى الشخصى ٠٠

فقلت له مبتســما : لم أكن أظن يا ســيدى الوزير الأكبر ورئيس المجلس أن كلمة دولة كائنة من كانت تكون هى العليا فى باريس !

وأنا أقصد أن انجلترا تحكمت فيهم الى هذه الدرجة ٠
فقال الرجل : ماذا تريد أن تقول ؟

فقال فريد بك : أنت ونحن رجال قانون ونعد أفراد أسرة واحدة وأنا أؤكد لكم أننا رأينا جواسيس دولة أجنبية يحيطون بنا ويتبعون خطواتنا فى كل مكان ·

فابتسم بريان ابتسامة صفراء وتدلت شفته السفلى وكانت مثل شفة العجل الصغير وله شوارب متصلة بشعر كثيف حول فمه وقال :

ــ ان الأوهام يا سيدى تجعلكم ترون الانجليز فى كل مكان ·

فقال فريد : سواء أكانت أوهاما أو حقائق فقد لمسناهم فى باريس ·

وتظاهرنا كلنا بالضحك لننقذ هذا الموقف الأليم !

وخرجنا نجرر أذيال الأسف والندم على أننا وثقنا بدولة تحكمها النساء والانجليز ·

واجتمعنا وتحرينا ألا يكون بيننا ذو ريبة حتى لا يذيع سر هذه الخيبة ، وبحثنا وتناقشنا واستعرضنا كل الممكنات والمستحيلات والمدن والدول التى نستطيع الالتجاء اليها قبل أن يعرف الأمر ويشمت بنا الانجليز أو يلجأون الى دسيسة أخرى ، فأبدى المرحوم أحمد وفيق اسم بروكسل وكان فيها معرض دولى ، فوافقنا على اختيارها وقررنا ايفاده فى فجر اليوم التالى ليهيىء لنا مكانا وجوا للاجتماع فيها بعد ثلاثة أيام ·

وقضينا الأيام والليالى الباقية فى فضيحة فرنسا والتشهير بها باعلانات الجدران وتوزيع منشورات بالأيدى وفى التظلم الى الصحافة ، وقصدنا الى بعض شركات السكة الحديد لنستأجر

قطارا خاصا فرفضت ، وبذلنـا جهودا جبارة فى لم شعثنا وحصرنا العمل فى خمسة أو ستة أشخاص لم يعلم احد غيرهم بمقاصدنا ولا باتجاهنا ، وعقدنا النية على أن يغادر المصريون المدعوون باريس فى القطار السريع الذى يسافر الى بروكسيل فى أربع ساعات ، وقد وفق الله « وفيقا » فى اتخاذ مكان فسيح بديع فى قلب العاصمة البلجيكية وحجز ثلاث طبقات فى فندق كبير وكانت بروكسل مزدحمة جدا بسبب المعرض الدولى (١) ٠

ومما يؤسف له أن الدهر دار دورته وأن عزيزة دى روشبرون بعد أن طردت من المؤتمر وثبت تجسسها ، اشتغلت مع مصرى شهير وقيل انه تزوج منها وأقام معها فى اصطمبول وجاءت الى مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، ثم ظهر أنها كانت لها صلة لقاء بأمير شرقى كبير (الخديو عباس) واتصلت بالألمان وبلغت ضد شارل همبير صاحب مقالات « ذخيرة ومدافع » فى « الجورنال » وشهدت فى المجلس العسكرى لمصلحته فى سنة ١٩١٩ فشتمها رئيس المجلس ، ثم اختفت وانقطعت أخبارها عن الصحف ٠

وظاهر من ذلك أن بريان ساعد الحكومة الامبراطورية على مطاردة الوطنيين المصريين من باريس ولم يسمح لهم بالاجتماع ولم يجاملهم ولم يتبع القانون فى معاملتهم ، وكان فى أول أمره اشتراكيا متطرفا ثم صار معتدلا ثم حكوميا ٠

---

(١) سجل لطفى جمعة أحداث هذا المؤتمر وانعقاده فى بروكسل ومطاردة الوطنيين المصريين فى باريس وعدم السماح لهم بالاجتماع وعقد مؤتمرهم فى العاصمة الفرنسية فى مقال له نشر بجريدة البلاغ فى ٢٠ مارس سنة ١٩٢٢ بعنوان « بريان والمسألة المصرية ، حادثة تاريخية عن مؤتمر سنة ١٩١٠ لا يزال بعض أبطالها أحياء » ٠ وأشار فيه لطفى جمعة الى دور عزيزة دى روشبرون فى التجسس على المؤتمر ٠

وقد أراد الله أن يعقد المؤتمر الوطني المصرى الثانى فى نفس موعده الذى كان محددا لانعقاده فى باريس ، وقد حضر اليه كل المدعوين والأعوان والأنصـــار وقد أبلغناهم الدعوة فى وقتهـا المناسب ، وعددنا هذا العمل نصرا من الله ·

ويوجد كتاب ضخـم مطبوع باللغـة الفرنسية فيه أخبار المؤتمر عنوانه :

Oeuvres du Congrés National Egyptien tenu à Bruxcelles Le 2, 23, et 24 Septembre 1910 Bruges St. Cotherine's Press, 1911.

فليطالعه من يريد الوقوف على أعمال هذا المؤتمر (١) ·



---

(١) للوقوف على مزيد من التفاصيل عن مؤتمر بروكسل ، راجع كتاب « محمد فريد » لعبد الرحمن الرافعى ، المرجع السـابق ، ص ٢١٦ ــ ص ٢٣٨ ·

وقد نشرت مجلة الطليعة الترجمة الكاملة لجلســات مؤتمر بروكســل سنة ١٩١٠ فى أعدادها الصادرة فى ابريل ومايو ويونه سنة ١٩٦٩ ، كما نشرت المجلة فى عددها الصادر فى مايو سنة ١٩٦٩ ما جاء بمذكرات لطفى جمعة عن الظروف التى لابست انعقاد المؤتمر ومطاردة السلطات البريطانية له ·

المحـــاماه

(١)

أول حديث عن المحاماة مع كبار المحامين ـ امتحان المعادلة ـ طلب القيد في جدول المحامين ـ محاولة عبد الخالق ثروت معي للعمل في النيابة العامة ـ القيد في جدول المحامين

لما كنت في باريس ســـنة ١٩١٠ (١) مع أصدقائي ورفاقي من رجال الحركة الوطنية لنعد معدات مؤتمر باريس الذى عقد في بروكسل في أواسط سبتمبر من تلك السنة ، جرى بيني وبين المرحوم أحمد لطفى بك (٢) أول حديث عن المحاماة ، وكان المرحوم حسن العشرة جم الأدب ناعم الملمس ، قلت له : كيف يكون حالى اذا عدت الى مصر لأشتغل بالمحاماة ؟ • قال : هذا من أبسط الأمور ، فما عليك لدى عودتك الا أن تقابلني فأرشدك الى امتحان المعادلة وبعد أن تجوز هذا الامتحان بكل بساطة وسهولة (كذا) تعمل معي في مكتبنا مع أخى وهو يعرفك جيدا ويحبك • فشكرت الأستاذ كثيرا وآمنت بقوله واعتقدت لفرط حبى له وثقتى به أن هذا الأمر من السهولة والبساطة حيث وضعه •

---

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل سنة ١٩٤١ •

(٢) كان احمد لطفى بك وكيلا الحزب الوطنى •

ثم قابلت المرحوم اسماعيل الشيمى بك (١) فى باريس وكان ينزل فى بيت قرب ميدان المرصد ومرقص بوليبه وينزل معه فى البيت نفسه المرحوم رشدى باشا والدكتور صادق بك رمضان ، وقد علمت أن البيت لأقارب زوج رشدى باشا الأولى التى ألفت قصصا مصريه باللغة الفرنسيه وكانت قد اختارت لنفسها اسما أدبيا هو « تى سليمة » ، وكان المرحوم الشيمى بك خفيف الروح ظريفا مخلصا لاتمل عشرته ، فسألته عن المحاماة فقال لى : اياك والاشتغال أمام المحاكم المختلطة فاننى كنت بها قاضيا ولا أزال أمامها محاميا ولكننا نحن المصريين سنبقى بها مستأصلين من جذورنا وقال بالفرنسية على عادته رحمه الله : déracinés

قلت : لماذا ؟ • قال : لأن كل متقاض أجنبى يثق فى محام من أبناء جلدته • قلت : هذا حسن ، وحينئذ يأتى لنا المتقاضون المصريون • فقهقه الأستاذ المغفور له طويلا حتى بانت نواجذه وبرز أنفه الأقنى وكاد يقفز من فرط سروره لوقوعى فى هذا الخطأ ، ثم قال : يا عزيزى جمعة ! يا حبذا لو كان الأمر كما ذكرت الآن لصرنا أكبر المحامين لكثرة الموكلين ، ولكن المدهش أن الفلاح المصرى نفسه لا يثق بالمحامى المصرى أمام المحاكم المختلطة ويقول لا يرتاح الخواجات الا الى خواجه ولا يفهم كلام الخواجه الا الخواجات • قلت : هذا عجيب ! اذن ليس أمامنا الا المحاكم الأهلية • قال : نعم ولا يمكنك الجمع بين المرافعة أمام المحكمتين الأهلية والمختلطة الا اذا كنت مدربا على عشرة الضرائر ! • وقهقه من جديد ، ثم دعانى — رحمه الله — الى فسحة لذيذة فى البولفار باعتبارى زميلا فى

(١) اسماعيل الشيمى هو أحد أقطاب الحزب الوطنى وقد أصدر جريدة البلاغ المصرى فى ٩ يوليه سنة ١٩٠٠ والتى اتخذت موقفا غاية فى التطرف من الاحتلال والخديو الامر الذى أدى بمحمد سعيد باشا ناظر الداخلية الى اغلاقها فى بداية ١٩١١ •

المهنة وكان يسميني : Mon Confier en embryon · وقد عاش رحمه الله حتى لقيته وأكدت له بالاختبار صدق نظريته ·

ولقيت المرحوم الأستاذ محمود عبد اللطيف بقهوة فاشيت Vachette بباريس وتكلمنا عن المحاماة مليا وقال لى هو أيضا انه يود من صميم قلبه أن يعينني فى بداية عملى بأفكاره وخبرته ·

ولما عدت من أوربا الى مصر فى سنة ١٩١٢ بعد خمس سنوات من سفرى ، **كان على أن أدخل امتحان « المعادلة » كشرط لقيد اسمى بجدول المحامين** ، وعرضت لى ضرورة الاستماع الى عالم ثقة فى المواريث ، ولم يكن بينى وبين امتحان المعادلة سوى عشرة أيام ، فدلنى أهل الفضل على الشيخ محمد زيد الابيانى أستاذ الشريعة الاسلامية فى كلية الحقوق بالجامعة المصرية ، وكنت أقرأ كتبه وأتطلع الى درسه ولكننى لم أحضر عليه دروسا بمدرسة الحقوق الخديوية فى سنة ١٩٠٧ التى دخلت المدرسة أثناءها ووقع نصيبى فى الأستاذ عبد الحكم وكان رحمه الله نحويا غليظا ارتقى الى التدريس بمدرسة الحقوق بحكم الأقدمية ، وكنت رأيته فى امتحان شفوى يلح الحاح معلم الصبيان ويتعالم كأنه سيبويه ، فلما رأيته على منصة التدريس فى الشريعة انقبضت نفسى وعزمت على ألا أحضر عليه أبدا وتركت مصر ولم أسمع منه درسا ولا محاضرة ولا أغبط تلاميذه ·

فلما دلنى أهل الفضل على الشيخ محمد زيد ، قصدت اليه فى داره صباح يوم جمعة فى يونيه والحر شديد والنفس ضائقة والقلب بين الرجاء وضده ، فاستقبلنى فى « المنظرة » فى بيته بجوار مسجد السيدة صفية ، فرحب بى وأكرمنى ثم قال بصوت أجش رنان : خيرا يا محمد أفندى · قلت له : أحمل اليك تحية الأستاذ

ادوارد لامبير وثناءه وقوله انه لاينساك • وكان لامبير قد عرفه اثناء نظارته على المدرسة عام ١٩٠٦ وعرف قدره وأحبه ، فقال لى : اكتب له بشكره عنى • ثم قلت : يا سيدنا الشيخ قصدت اليك لمراجعة المواريث • فقال : مرحبا بك • ثم صفق بيديه وطلب ورقا وقلما وأملى على احدى مسائل المواريث ، فلم أدر حلها ، فنظر الى وقال : ان شاء الله فى العام المقبل يا محمد أفندى ! •• اذا كنت لا تجيب على هذه المسألة فلا أمل لك فى النجاح هذا العام ! • فأسقط فى يدى وقلت له : ان تعطيل عام يعود على بخسارة كبرى، فأرجــوك أن تلقى على درسك ولاتبعة لك • فقــال : ضـميرى لا يهاودنى ، اما أضمن نجاح تلميذى والا فلا أضيع وقتى ووقته • فقلت له : ستجدنى ان شاء الله مجتهدا •

وقبل الرجل بعد جدل طويل وبدأنا وقد بهرتنى طريقته التى يحسده عليها أقدر أساتذة أوربا (١) •

وكان المرحوم عبد الخالق ثروت باشا ــ قبل قيد اسمى فى جدول المحامين ــ قد عرض على وظيفة فى النيابة العمومية ، وكان اذ ذاك نائبا عاما ، وما يزال شاهدا ببعض هذه الوقائع الأســتاذ رزق ميخائيل القاضى سابقا والمحامى حالا ، وكان سكرتيرا خاصا لرئيس محكمــة الاســتئناف الأعلى وهــو فى ذلك العهــد يحيى ابراهيم باشا •

---

(١) جاء فى الكتاب المئوى الذى أصدرته كلية الحقوق بجامعة القاهرة سنة ١٩٨٠ بمناسبة العيد المئوى للكلية ــ أن محمد لطفى جمعة أدى امتحان المعادلة سنة ١٩١١ (ص ٢٥٢) باعتباره من مشاهير دفعة سنة ١٩١١ الذين أبرزت أسماءهم المهن القانونية فى مجالات القضاء والمحاماة والتدريس فى الكلية والتأليف القانونى وفرضت هذه المهن اسماءهم على الذاكرة •

فعندما تقدمت الى محكمة الاستئناف بطلب قيــــد اسمى فى جـــدول المحامين احسن السكرتير رزق بك ثانى ووعدنى خيرا ، ثم ترددت عليه مرات فاخذ فى التسويف والتأجيل ، ثم لمح لى بأن التوظف فى النيابه اجدى على من المحاماة واقرب الى منفعتى ، وكان يسألنى من طرف خفى لماذا لا تدخل النيابه ؟ لماذا لا تقبل وظيفة فى الحكومة ؟ لماذا لا تبدأ عملك فى المحاماة فى احدى مدن الريف مثل طنطا او أسيوط · فكنت أجاوبه أجوبة ســـطحية وأنا أعلم صداقته واخلاصه وأضمر فى نفسى العجب من أسئلته وأردد فى أعماق قلبى : **كيف يعرض على العمل فى الحكومة وأنـــا خارج من مؤتمرات سياسية كل اعمالها انتقاد اعمال الحكومة والمطالبة بحقوق الأمة ؟ كيف أكون فى طليعة المشتغلين بالحركة الوطنية منذ تنبهت الحياة وأعود اليوم بمجرد حصولى على اجازة الحقوق أطلب وظيفة ميرى فى النيابة والقضاء ؟**

وكان رزق بك جزاه الله خيرا يلمح لى بأن الجهات المختصة ترحب بى وأنها تضرب صفحا عن الماضى وتود الانتفاع بى فى خدمة القانون ·

وأخيرا أجبته بالصراحة التامة فقلت له :

ــ قد أكون مرغوبا فى لما يظن بى من الكفاية وأنا أنكرها ، ولو فرضنا أننى ذو كفـــاية ، فلماذا لا تكون فى صف الشعب ؟ ان فى الحكومة كثيرين من أصدقائى ورفقاء شبابى القادرين العلماء ولابد من حدوث التوازن بين القوتين ، فيكون للحكومة رجالهـــا وللشعب رجاله ·

ولم تكن الحكومة فى ســنة ١٩١٢ من الشعب واليه وباذنه وأمره بحكم الدستور كما هى الآن ، فلما يئس رزق بك مما اعتبره نصحا لى يمليه عليه الاخلاص وحب الخير ، حاول تحويل عزمى

عن القاهرة وقال ان في المدن الكبرى مثـل طنطا وأسيوط مجالا عظيما لمثلك ويمكنك أن تقيم هناك حتى يشتد عودك وتنمو قوتك وتملك الوقوف على قدميك واقصد بذلك حتى تجمع ثروة حسنة ٠

وعند ذلك دخلني غرور وازدريت العمل لأجل المال وظننت أن مثلى لا يرضى بفتح القرى والبنادر ولا يقبل أن يكون الا فى العواصم ، فذكرته له الوسط العلمى والوسط العقلى والاتصـال بالأدباء ووجود فطاحل المحامين في القاهرة وان كنت لا أنكر أن فى الأرياف رجالا لا يقلون فضلا وعلما وشهرة عن مشاهير القاهرة ٠

فلما سمع رزق بك منى هذا وذاك ، هز رأسه وأيقن بلا شك أن « دماغى ناشف » وأنه لابد لى من خبط الجدار حتى أفيق من غشيتى !

لقد كنت ثملا بخمر البذل والتضحية فى سـبيل الوطن والمنفعة العامة ، التضحية بالمنصب والمال ، وأقول لنفسى اذا كان كل من أرى من العلماء والفضـلاء فى صف الحكومة فمن يكون للضعفاء يدفع عنهم غوائل الحوادث ويرد عنهم كيد الزمان ؟ وأية وسيلة أقرب وأفضـل من المحاماة ؟ ٠ ففى حظيرة هذه الصنعة الكريمة الشريفة يمكن أن أكتب واخطب وأدعو للخير والحق والحرية وأخدم العاجز واليتيم والأرامل الفقيرات ٠ وهذا الجانب البراق اللماع الذى يخلب اللب ويخطف بالأبصار هو الذى استهوانى وجذبنى واستمالنى ، ولم يكن ـ وأبيك ـ لذلاقة اللسان أو حضور البديهة أو سعة العلم والاطلاع والاستعداد الفطرى لممارسة هذه الصنعة أقل أثر فى اقناعى ، لأننى خلو من تلك الصفات ، ولأن الرجل فى وقت التصميم على أكبر الأعمال لا ينظـر الى صـفاته أو مواهبه وما يليق به وما لا يليق ، وانما يطيع العـاطفة طاعة

عشواء • وماذا كانت عاطفتى منذ دخلت مدرسة الحقوق الخديوية فى خريف أكتوبر سنة ١٩٠٧ الى أن تقيد اسمى فى جدول المحامين فى يناير سنة ١٩١٢ ؟

كانت الخدمة العامة رائدى ومرشدى وغايتى التى أرمى اليها •

ثم أشــــار على رزق بك بمقابلة المرحوم عبد الخالق ثروت باشا (١) ان كنت راغبا فى تعجيل طلبى ، فلقيته فأكرم وفادتى وفاتحنى فى أمر الوظيفه ووعدنى بمرتب حسن وبالعمل فى القاهرة فى قلم النائب العام • فدهشت من عرضه على وظيفة فى الحكومة وظننت فى الأمر وسيلة لانضوائى وانضمامى الى خدمة من كنت أنتقد فى المؤتمرات السياسية وفى الخطب وفى مقالاتى بجريدتى صوت الشعب وايجبت اللتين أنشأتهما بجنيف • فكبر الأمر فى نفسى وطلبت منه امهالى بضعة أيام للتفكير ، وخرجت مصمما على الرفض ،ولكننى أبيت أن أجابه الرجل به وقد أكرمنى وأراد اسداء المعروف لى •

وفى أول الأمر لم أفاتح أحدا وقلبته على أوجهه وقلت اننى لم أنتو الوظيفة والا ما سلكت مسلك الحرية فى السياسة ، وان الحزب الذى أنتمى اليه ما يزال على قيد الحياة ، وأننى قيدت اسمى فى المحكمة المختلطة ودفعت عشرين جنيها ، فماذا اقول لنفسى اذا قبلت وظيفة بعد هذا الماضى القريب الذى لم أجامل فيه أحدا من

---

(١) تخرج عبد الخالق ثروت من مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩ وتدرج فى مناصب القضاء الى ان عين فى أبريل سنة ١٩٠٨ نائبا عاما خلفا للمستر كوربت النائب العمومى ، فكان اول مصرى يشغل هذه الوظيفــة واستمر فيها حتى سنة ١٩١٤ الى ان اختير وزيرا للحقانية سنة ١٩١٤ فوزيرا للداخلية سنة ١٩٢١ فرئيسا للوزراء سنة ١٩٢١ أيضا • (دكتور عبد العظيم رمضان ، مذكرات سعد زغلول ، ج ١ ، سنة ١٩٨٧ ، هامش صفحة ٢٦٣) •

أهل السلطة ؟ فهل كنت خادعا أو مخدوعا ؟ وهل أكذب نفسى بنفسى وأعرضها للقيل والقال ؟ وهل اتخذت الرأى المعارض لأتمكن من دخول الحكومة من باب الانقلاب على حزبى وتطليق مبدئى ؟ ٠
وكان هذا الموقف منى قبـل الزميلين من أعضـــاء الحزب الوطنى اللذين أعلنا تطليقهما الماضى عند قبول الوظيفة بعشرين عاما تقريبا، فلو بادرت بتوقيع الطلاق قبلهما فى سنة١٩١٢ فأين كنت أصل؟، وكنت على الأقل مهدت لهما السبيل ، فانهما لم يفعلا جزءا مما فعلت ولم يجاهدا فى أوربا ومصر بل قنعا بتدبيج عبارة احتجاج مبتذلة كان أحدهما ينشرها فى كل عام فى مناسبات معينة الى أن دخلا الوظيفة فوفرا نفقة التلغراف المعهود !

ولو دخلت الوظيفة لكان انتصارا كبيرا للذين اتهموا الحزب الوطنى بالطيش والرعونة والتهويش كما فعلوا عند تعيين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش فى سنة ١٩٢٤ عندما قبل وظيفة كبيرة فى وزارة المعارف بعد طول الجهاد وخاتمة المطاف ولم يعمر فيها سوى عامين أو ثلاثة ٠

كنت جد خجلان من نفسى أكاد أتوارى متوهما أن كل الناس قد عرفت بما عرضه على الباشا الرقيق الحاشية ، وكان يعرفنى من سنة ١٩٠٦ أو سنة ١٩٠٧ فى ادارة اللواء ، فقد كان يحضر كثيرا ويزور مصطفى كامل فى مكتبه فألقاه كل صباح وأحييه ، وكان صاحب اللواء يقرأ عليه ســـطرا من مقالة ليرى رأيه فيهـــا ، فاذا اقترح ثروت باشا تعديلهـــا أو تخفيفها شـدد مصطفى وزاد عليها ، وقد رأيت ذلك بنفسى مرتين أو ثلاثا ٠

كنت أظن فى سنة ١٩١٢ عقيب خروجى من مكتبه أن أحجار الأرض عرفت بما جرى ، فيا لها من فضيحة !!٠وعدت فتذكرت أن الأمر لم يخرج عن ثلاثة ، ثروت باشا ورزق بك وأنا وليس لأحد

منا مصلحة في اذاعته ، فانشغلت بهذا الموضوع وتحيرت خشية ان رفضت بعنف أن يتصدانى النائب العمومى فيعطل قيد اسمى ، خصوصا وقد ذكر لى رزق بك أن لجنة القيد لا ميعاد لها ولا ضابط لقراراتها ، فقلت ان حدث ذلك فأنا أكتفى بالمحكمة المختلطة .

وعرانى هم ثقيل لأننى لم أكن ذا مال ولا مصدر رزق منظما وقد تكبدت وأهلى مشقات عديدة خلال ست سنوات ولم يكن لأحد على يد، وكان بعض الحاقدين قد أشاع أننى تلقيت العلم فى أوربا على نفقـــة حزبى ، فكذبت ذلك فى جريدة اللواء ونشرت التكذيب فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ وقرأه الذين سمعوا هذه الوشاية ، ولو لم يكن شقيق الذى أشاعها عزيزا على لذكرت اسمه (١) ، ولكننى عندما شعرت بالضنك ، اتجهت كعادتى الى الله وجعلت عليه اعتمادى ، وقلت بصوت مسموع لى ـ فاننى لم أكتف بحديث النفس ـ كلما وقفت فى مفترق الطرق وخيرت بين الشرف والفضيلة مع الضنك المصاحب لهما وبين غيرهما مما قد تصحبه مذلة ويسر مادى واخترت الطريق الأول ، رأيت توسعة من الله ولم يخذلنى أبدا ، وقد وقع لى مثل هذا بضع مرات ، فلم أتردد فى هذه المرة وصممت على أنه لابد من بقائى على رأيى الأول ، ففيه كرامتى وفيه تفويض أمرى الى الله وفيه بياض الوجه ولو كان خصومى سود الوجوه ، وما أقبح من قال وأظن اسمه كان سلما تلميذ بشار :

من راقب الناس مات غمـا وفاز باللذة الجســـور !

وفى رأيى الأول أيضا حريتى المطلقة وهى لاتعدل بمال وفيه رزق مستور قد يربى على أرباح الوظيفة ، وفيه بقائى فى القاهرة فى وسط الحركة العقلية والسياسية والكتب والأقلام والأدبـاء والأندية والحياة العامة .. الخ .

---

(١) هو المرحوم على فهمى كامل شقيق مصطفى كامل .

وان كان الباشا أغرانى بالعمل فى مكتبه ، الا أنه قد يترقى فينقل فيجيىء من ينقلنى الى أقصى الصعيد أو الريف فأقضى بضع سنين فى الفلوات فى « بور » فاص جزئى ومامور مركز أو على قهوة « ينى » أو « ماركو » وهى الوحيـــدة فى القرية أو البلدة الصغيرة •

وقد ثبت لى بعد ذلك أن هذه كانت أوهاما قد اخترعها خيالى لتقوية نظرية الرفض •

ثم ماذا أقول لأهلى وأصدقائى الأوربيين أمثال بلنت ولامبير ؟ وهل عجزت عن الكسب من المحاماة التى خرجت أمثال الهلباوى وأبى شادى وأحمد لطفى وهم أصـــدقائى على فوارق السـن وقد وعدونى فى جنيف وباريس وبروكســل وليون ، كمـا وعدنى أحمد عبد اللطيف ومحمود أبو النصر (١) وعثمان محمد ومحمـــد عبد الوهاب فى باريس وروما بأن يسهلوا لى خطواتى الأولى فى المحاماة وقد استعددت لهذه الصناعة وأحببت فيها نصرة الضعفاء والأخذ بيد المهضومين والمظلومين ؟

وكانت الحجة الأخيرة هى الآتية : لنفترض أن لدى مواهب كما يزعم الناس ، فاذا كان فى صف الحكومة ارباب مواهب معروفة

---

(١) محمود أبو النصر أحد أعضاء الحزب الوطنى القدامى الذين شاركوا مصطفى كامل ومحمد فريد فى العمل السياسى وكان أول المكتتبين فى شركة جريدة « لتندار اجبسيان » و « ذى اجبسيان ستاندارد » ، وله مواقف وطنيـة مشهورة تحمل بسببها العنت من سلطات الاحتلال البريطانى (أوراق محمد فريد ، المجلد الأول ، مذكراتى بعد الهجرة ١٩٠٤ ـ ١٩١٩ ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٥١) • والى جانب ذلك كان من أصحاب الاقلام ، وقد رأس تحرير مجلة الموسوعات » بعد تخلى أحمد حافظ عوض عنها •

يخدمون السلطة الحاكمة ، فلم لا يكون فى صف الأمة أرباب مواهب يخدمون الأمة المحكومة ؟ . هذا وأنا لا أعترف لنفسى بشىء بل أقوله تمشيا مع أقوال الناس وتسليما جدليا بصحة رأيهم .

وشارفت الأيام التى حددتها لاعطاء الرأى للمرحوم ثروت باشا على الانتهاء ، فقلقت وخشيت صدمة الرفض عليه وصدمة المقابلة بالمثل على ، وأخيرا ذهبت وقابلت رزق بك وأفضيت اليه بكل ما جال بنفسى ، فتأمل قليلا ثم قال لى — وكان نـوع من الصـداقة قد نشأ بيننا :

— اسمح لى أن أخطئك ، فكل الذى ظننته أوهام ، فلا أحد يلومك على خدمة وطنك فى الحكومة ، واعلم يا أخى أن كل شىء فى مصر بيد الحكومة ، ومن كان خارج الحكومة لا يعمل شيئا ولا يصل الى شىء ، ألا ترى أن كلهم ينتهون بوظائف الوزارة ؟ ولا يلومك الا حاسد أو حاقد أو جاهل ، انك تضمن عملك أولا وتتقنه أينما كنت ثم لاتبالى ، هل الحكومة وقف على فريق دون آخر ؟ هل كانت العقبة فى طريقك ان سعيت فى التوظف أن يحتجوا بأفكارك المعلومة لهم ؟ فما داموا قد تخطوها فلابد أن تقبل . لا تؤاخذنى أنا لا أعـرف ظروفك ، فقد تكون غنيا جدا ولست فى حاجة الى العمل ولديك ايراد وافر ثابت ، ولكن رغبتك فى سرعة القيد تدلنى على أنك تريد أن تستثمر معرفتك وسوف تبقى عاما فى التمرين حتى تعرف نظام العمل ، فان العلم شىء والعمل شىء آخر ، ولا أدرى متى يأتى لك ربح ، ولابد أن تندمج فى مكتب محام كبير قبل أن تستطيع أن تقبل دعوى واحدة ، وليس الأمر بالسهل وليس الربح مضمونا ولا منتظما ، أما الآن فانك تقبض فى نهاية هذا الشهر وتنظم حياتك وتستقر فى بالك وتروق لك الحياة ، فان أردت رأيى فاقبل نصيحة الرجل .

فى تلك اللحظة حدث لى كما يحدث للغريق ، لقد استعرضت تاريخ حياتى فى طرفة عين ورأيت مواقفى فى الدفاع عن وطنى ضد الحكومة والقصر والاحتلال ومشهد مصطفى كامل وخطبى وكتبى ومقالاتي وقلت أبدا أسدأ وأنتهى ثعلبا ! • ان قبولى بمنصب حكومي من أخلاق الثعالب ، وكنت واثقا من اخلاص رزق ميخائيل الذي اشتغل بالقضاء ثم المحاماة بعد ذلك وما يزال على قيد الحياة (١٩٤١) وهو صهر الأستاذ مرقص فهمى ، وانه خال من الغرض وبعيد عن الظن ولم يعرفنى من قبل وان سمع باسمى أو قرأ شيئا عنى فقد نسيه ، وتفضل فبشرنى بمستقبل حسن ثم قال : أتقابله اليوم • قلت : ان موعدنا غدا قال : خير البر عاجله • وكان كلما ألح قويت المعارضة فى ذهنى وخشيت أن أضعف أو أتردد ، فنهضت وقلت : غدا أقابله •

وخرجت ولم أعرض أمرى على أحد ولم استشر أحدا ، وكان الناس يقبلون على فى الطرق بالتحية والتجمل فأظنهم يكرمون فى الاباء والمحافظة على المبدأ ، وأنهم لو اطلعوا على نيتى لازدادوا محبة لى ولو اطلعوا على ترددى لمقتونى !

هكذا كنت أقدس الرأى العام وأحترمه وأنا الذى أعرف الناس منذ عشر سنوات على الأقل ومرت بى بعض الأحداث فى المؤتمرات وفى ليون كشفت لى عن كثير من طباعهم وتقلبهم ولؤمهم ، ولكن كنت أقول ان مصر لا تخلو من الأخيار والفضلاء والمخلصين الذين يقدسون الحرية والكرامة •

وذكرت ما قاله لى مصطفى كامل سنة ١٩٠٦ أو سنة ١٩٠٧ فى ادارة جريدة اللواء اذ كنت أقدم له نسخة من كتابى « تحرير

مصر » (١) فى جمع حاشد من الباشوات بعضهم لا يزال على قيد الحياة وبعضهم ذهب الى رحمة الله ، قال لى بعد أن هنأنى ووعدنى بقراءة الكتاب وتقريظه فى اللواء :

ــ اسمع يا لطفى ، ماذا تنوى ان تعمل فى حياتك عند اتمام دراسه الحقوق ؟

قلت : لا أعلم والله يا سعادة الباشا ، وعندما أتمها يوجهنى الله توجيها ٠

قال : اياك والاشتغال بالسياسة دون أن يكون لك عمل ثابت ومورد رزق معروف ، فانهم فى مصر يصمون الخادم العام المتفرغ لمصلحة الوطن بالنصب والاحتيال ٠٠ كما يفعل الآن الشيخ على يوسف ضدى ، ولو أننى اشتغلت بالمحاماة ولم أنقطع لخدمة الوطن عن طريق السياسة كنت ربحت أموالا وفيرة واحتفظت بصحتى وضمنت السعادة لأهلى وأسرتى ولكننى فضلت المصلحة العامة على المنافع الخاصة فكانت النتيجة كما ترى !

هذا ما قاله المرحوم بنصه قبل وفاته بسنتين فى محفل من الباشوات ذكرهم لى رحمه الله بالاسم عند نهوضهم لتحيتى ، فأمنوا على ما قال وربما لم يفطنوا الى أنهم هم المقصودون بأسفه وألمه ، لأن منهم ومن أطيانهم تتكون الأمة والبلاد ، وفى سبيلهم

---

(١) كتب لطفى جمعة عن كتاب « تحرير مصر » ما يلى « هذا الكتاب نقلته من الانجليزية فى السنة التاسعة عشرة من عمرى بالقاهرة وعربته فى أسبوع منه ايام عيد الأضحى سنة ١٣٢٣ هـ ((١٩٠٦) بمنزل نمرة ١٣ شارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة بالقاهرة » ٠ وقد أهدى لطفى جمعة هذا الكتاب « الى الشعب المصرى الكريم » ، وقد نشر هذا الكتاب سنة ١٩٠٦ ٠

قضى فى ريعان الشباب ، رحمه الله رحمة واسعة ما كان أبعد نظره وأصدق فراسته وأعلمه بأخلاق أمته !!

ان المصريين أنفسهم هم الذين يصفون قادتهم بالتدجيل اذا اشتغلوا بخدمتهم العامة وليس الأجانب ، لأن الأجانب يقـــدرون الحياة العامة والخدمة العامة ويقدرون رجالها ، أما المصرى الذى تتفرغ لخدمته ، فهو أول من يصفك بالتدجيل ، بل لعله الوحيد الذى يفعل ذلك .

ما كان أشد حب مصطفى كامل لله والناس ! لقد نصحنى وأخلص النصح وأعاننى مادام حيــا ، فلما مات خلف وراءه ذئابا وثعالب وأبقارا ، تجارتهم كلام ومبادئهم أوهام ورأس مالهم أكاذيب منمقة وغايات مزوقة ، ومقاصدهم حبائل .

تذكرت كلامه وأنا أسير فى طرق القــاهر لا أأتمن أحـدا على سرى خشية أن يثنينى عن عزمى على رفض الوظيفة التى عرضــها على ثروت باشا .

لقد كان فيها الأمن والضمان والمعاش وراحة البال وأبهة الحكم وتحيات الحجاب والشرطة والقاب الشرف وشمخة السلطة وفسحة الأمل فى الترقى وصحة البدن وفرحــــة الزواج من بيوت الكبراء الذين يفضلون أصغر موظف على أكبر محام ، والاجازة السنوية برزق جار وحفظ مستقبل النسل اذا أتى ، وكنت أقدر ذلك كله وأفهمه وأزنه بميزان المنطق وكان عمرى اذ ذاك خمسا وعشرين سنة وكنت محاميا فى المختلط وعلى وشك أن أصير محاميا أهليا ، وقرأت ودرست واختبرت وكتبت وخطبت وطبعت ونشرت وخضت غمار السياسة والاجتماع ، فلم أكن غرا ولا طائشا ولا عميا عن المنافع المادية ، وأعلم أن أصغر موظف محاط بضمانات أبدية ، وأكبر

عامل حر محاط بالمخاطر والأشواك ، ومع هذه كلها صممت على الرفض •

قلت ان أهلى الأحياء الذين يهمنى أمرهم والد وجدة وخالة وهم على حال من اليسـار ، فلو مت قبـل هذا كانت فجيعتهم فى شخصى لا فى مالى ، فلأفترض أننى مت وأننى بعثت محاميا ، فهناك بعض الأمل لهم ، أما لو قبلت الوظيفة فان روحى تموت وضميرى يؤنبنى ، وصممت فى نفس الوقت على المحافظة على مبدئى •

ودخلت على الرجل الكبير فى مكتبه وحيينه فقـال لى أهلا وسهلا ان شاء الله تكون صممت ، وأخذ يدى بين يديه بما يدل على العطف والتشجيع ، فقلت له ولعلنى كنت ممتقعا :

ــ نعم يا سعادة الباشـا صممت على أن أخبرك بعجزى عن شكرك وعرفان جميلك وعدم نسيان يدك الكريمة ، وصممت على أن أشتغل محاميا •

فانقبض الرجل واعتدل فى مقعده وحـوله عنى قليـلا طلب لى قهوة وقدم لى سيجارة فاعتذرت عن عدم التدخين ، فأشعل هو سيجارته ثم قال لى :

ــ هل فكرت أيها الشاب (كذا) فيما عزمت عليه ؟ وهل صممت على رفض ما أشرت به عليك ؟ •• لم يدفعنى اليه الا حنانى والضن بك •

قلت : نعم فكرت •

قال مغضبا وهو يبتسم فأدهشنى :

ـ وهو كذلك .. أتمنى لك مستقبلا سعيدا .

ونهض لتحيتي ، فلما اتجهت نحو الباب قال لى :

ـ اسمع ان قيد اسمك لا يمنعك فى المستقبل القريب ان أردت أن تعود الى رأيى .

فقلت له : يفعل الله ما يريد .

وخرجت « ولطعتني » اللجنة بعد ذلك ثلاثة أشهر ، وعلم رزق بك بما حدث فازور قليلا وأخيرا قال لى : سنبلغك بخطاب .

وفى اعتقادى أنه كان فى رأيه يريد لى الخير كله ولم يكن يعلم بكل ما جال بخاطرى .

وعدت الى بيتى فى شارع شيتى بك بشبرا ، وكم هموم كابدتها فى هذا البيت وكم عانيت فيه من التعب !

وفى يناير سنة ١٩١٢ تقيد اسمى فى جدول المحامين (١) **فتقيد جسمى وفكرى وعقلى وقلبى بحبال من مسد أتقنت جدلها وأجادت حبكها صنعة المحاماة . ولا أحب أن أدعوها مهنة ، انها تفتن الراغب فيها ولا تزال تغريه بذاته حتى تتملكه وتستأثر به وتتسلم زمامه وتخلب لبه وتسحر عقله فيمسى بعد بضع سنين وهو لا يستطيع الافلات منها ولا يفكر فى الخلاص من قيودها ويعود من استسلام لها بحيث لا يقدر على محاولة النجاة مما وقع فيه باختياره .**

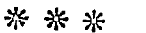
---

(١) بعد أن أمضى لطفى جمعة فترة التمرين اتخذ لنفسه مكتبا للمحاماة برقم (١٥٢) بشارع محمد على بوقف السيد شريف باشا الكبير ، وقبل للمرافعة أمام محكمة الاستئناف العليا فى ٤ مايو سنة ١٩١٥ ، وقيد اسمه بجدول المحامين =

قال الأستاذ ويصا واصف رئيس مجلس النواب وهو من أمجاد أبناء هذه الصنعة في حفل تكريم الأســـاتذة المحامين الذين صاروا وزراء (ابريل سنة ١٩٢٨) ان المحامى ملك عظيم لأنه لا يقدم حسابا لأحد الا لله ولضميره ٠

صحيح يجوز أن يكون فى هذا التمثيل شبه حق ، يجوز أن يشعر محام بهذا الشعور الجميل السامى ولكن فى الندرة ، مرة فى العمر ، وهذه المرة لا تتجاوز برهة قصيرة ولا يدرى أحـــد مقدار الآلام التى يقاسيها ذلك المحامى للوصول الى هذه الدرجة من الرفعة المعنوية الخيالية ٠

ويجوز أيضا أن يتمتع ببعض هذا الوصف محام فحل فى بعض جمهوريات أوربا أو فى مملكة الانجليز ، ولكن بعد أن يصل الشيب الى أهداب عينيه من هول مواقف الشرف والنزاهة والحذق والمهارة وحتى يصل به جلال العبقرية وجمـــال الفضيلة الى ذروة الكمال الفنى ٠



= المقبولين أمام محكمة النقض والابرام فى مارس سنة ١٩٣٥ ، وظل يزاول المحاماة بهذا المكتب الى أن تركه فى مارس سنة ١٩٣٨ ولم يتخذ بعد ذلك مكتبـا وان ظل يزاول المهنة بمنزله برقم ٤ شارع الأسيوطى بمنشية البكرى حتى طلب احالته الى المعاش فى مارس سنة ١٩٤٨ بعد أن بلغ الثانية والستين من عمره وبعد أن قضى فى المحاماة ستة وثلاثين عاما ٠

(٢)

اختيار « سبيل » الحرية والكرامة

لقد عدت من أوربا وأنا أردد أننى لست الا ملك الوطن . فكيف أضن بنفسى على الوطن ؟ وكيف أنتقل من جهادى المتواصل من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٢ الى وظيفة مستريحة ومكانة آمنـــة مطمئنة فى أحد دواوين الحكومة ؟ كيف أنتقل الى هذه كلها دون جهاد أو كفاح وأنا لم أشف نفسى من النضال فى معترك الحياة ، ذلك النضال المقترن بحرية الفكر والقول والعمل ؟

لم يكن يخيفنى من الوظيفة أن يتحـــكم فى رئيس مستبد أو يرغمنى على نفـــاق لاتقبله نفسى حتى يكسر من حدتى ويجعلنى قابلا كل صورة من الذل والهوان لأصبح موظفا مصريا نموذجيا يخضع لكل سلطة وينفذ كل أمر ويتبع كل اشارة ولو كانت بالعين والحاجب ويفقد شخصيته ليتفانى فى منصبه ٠٠ لم أتهيب جانب الاخضاع لأننى كنت أعتقد أنه لن يقدر أحد من الخلق على اخضاعى ، ولكننى تهيبت مغبة الخروج على مبادئى ، وأعترف بأننى لم أحسب حساب الحاجة المادية ولم يدخل فى نفسى رعب من هذه الناحيـــة اعتمادا على عقيدة لم تفارقنى وهى ضمان الرزق فى الغيب اذا اقترن الاعتقاد بالاجتهاد والسعى والأمانة فى العمل ٠

وها أنا ذا قطعت فى هذا الشوط ثلاثين عاما ولم أغير رأيى ورأيت أمامى كتاب حياتى منشورا ورائى صفحة صفحة وســـطرا سطرا ، وتكدست التجاريب حولى وأمامى أكواما حتى ليمكننى أن أحكم حكما صادقا مبنيا على النظرية والعمل ، فأقول لو كنت فى

سنة ١٩١٢ ــ وأنــا فى الشــــباب ــ على خبرة ســــنة ١٩٤١ ،
أى لو كشفت لى فى سنة ١٩١٢ حجب الغيب عما سوف ألاقيه فى
ثلاثين عاما من الاكاذيب والخيانات والغدر والنفاق وخيبة الأمل فى
الناس والأشياء والمبــــادىء فى بلد كمصر ، لما تحولت عن فكرتى
هذه ، أى أننى لو أتيح لى من جديد أن أختــــار خطة لحياتى مع
اختيارى الذى كسبته وآمالى التى خسرتها ، لاخترت الطريق التى
سلكتها ، فاننى لم أندم قط ولم آسف ، فأهم شىء لدى المعرفة ،
فلو لم أختر هذه السكة الشائكة لما تهيأت لى ظروف المعــــرفة ،
وانه احب الى أن أموت وقد ذقت الحلو والمر من أن أقضى حياتى فى
أكل الحلو دائما ، هذا اذا كان فى وسعك أن تضمن أن تكون خطة
حياتك التى لم تخترها آمنة من كل خطر وبعيدة عن كل مفاجئــــة
ومحمية من كل سوء ، وهذا أمر بعيد الاحتمال جدا ولكن لنتخيله
كذلك ٠

وها أنا ذا قد اخترت فيما مضى سبيل الحرية والكرامة ،
فحسنت حالى فى كل مرة ولم يكن فى زمنى قد استجد عادة رجوع
الوزراء الى المحاماة بعد التخلى عن مناصب الوزارة ولاقنع وزير بأن
يعود الى القضاء ولو كان مستشارا ، فقد صاحب دخولى فى هذه
الصناعة تأسيس النقــــابة لحادث أصــــاب محاميين ألقى عليهما
القبض ، أحدهما لأسباب سياسية والآخر لاعتداء أحد القضاة عليه ،
وهكذا فى مصر لايبذل مجهود فى حفظ الكرامة الا اذا ديست تلك
الكرامة وأرغم أصحابها على الدفاع عنها بدمائهم ولا تسدد الحقوق
الا اذا وثق المدين من أنه لا مناص له من الدفع حيال قوة قاهرة ٠

***

(٣)

فترة التمرين

التمرين فى مكتب اسكندر عمون ـ العمل أمام المحاكم المختلطة
عدالة القاضى نيهولم

اكتشفت أول صدمة أخلاقية عقب عودتى من فرنسا سنة ١٩١٢ أى منذ ثلاثين عاما ، فان جميع المحامين الذين عرفتهم فى مصر وأوربا وصادفونى وتطوعوا بوعود شتى خاصة بعملى فى المستقبل ، أى بعد عودتى من اتمام الدراسة ـ قابلتهم فى مصر بعد قيد اسمى فى جدول المحامين وطلبت اليهم الوفاء بوعودهم فاعتذروا جميعا أعذارا ذميمة ما عدا اثنين هما المرحوم حسن صبرى باشا المتوفى فى رياسة الوزراء سنة ١٩٤٠ والمرحوم اسكندر عمون ، فان الأول اعتذر عذرا جميلا والثانى استقبلنى مسرورا وأشركنى فى عمله بعقد كريم .

فقد كان على أن أتقدم الى المحامين من مشاهير الطائفة لأقضى عام التجربة والتدريب فى مكتب أحدهم ، وكانوا كلهم أصدقائى وكانوا كلهم وعدونى فى أوربا ومصر أن يتعهدوا خطواتى الأولى فى هذه المهنة المباركة ، فقابلتهم واحدا اثر الواحد ، فاختلفوا فى حسن اللقاء والترحيب وتنكر معظمهم واعتذروا بأعذار واهية ، فقال أحدهم انه ليس لديه مكان ، أى غرفة بمكتب ، وأن مكتبه ضيق النطاق لا يتسع لمنضدة وكرسى فهو آسف ، وقال آخر انه لا توجد لديه قضايا جزئية بتاتا وقل قضاياه فى الاستئناف العالى والنقض والابرام ، وقال ثالث اننى أستحق أن أتقاضى أجـــرا على عملى وهو لا يملك أن يدفع لى أجرا ، فلما قلت له انى قابل أن أعمل

بغير مقابل مدة عام ، قال لى ان ضميره لا يسمح بتشغيلى مجانا !..
وقال آخـــر أمهلنى يا ابنى شـــــهرا حتى افكر فى الموضــــوع وأتخذ له عدته .

وكانت خاتمة المطاف عند المرحوم حسن صبرى بك (صار فيما بعد رئيس الوزراء) ، فلفينى هاشا باشا الى أن عرف غايتى من زيارته ، فلما رفض واطمأن الى هدوئى قال لى وهو يودعنى :

ـ يؤلمنى أن تنصرف دون أن تعرف حقيقـــة الدافع لى على الاعتذار ، وانى مصارحك لعلمى بأنك لا تبتئس ولأريح ضـــميرى وضميرك . واعلم أن رجلا مثلك لا يقبل على معاونته كبار المحامين لأسباب ، وأولها انك مشهور شهرة سياسية قد تحرج موقف بعضنا ممن لا يألفون سياسة الحزب الوطنى ، وثانيها انك قد يدفعك حب العمل الكثير فتستدرج عملاءنا فيرغبون فيك كعادتهم فى التعلق بكل جديد وقد سبقت لنا تجاريب فى هذا الباب فزاحمنا الذين ربيناهم ، والسبب الثالث أن أحدنا يمرن أخاه أو ابنه أو « ختنه » أى الرجل الذى لا يخرج عليه أو رجلا ظاهر العجز حتى اذا تركه لا يفلح بعده ، فهو فى حاجة الينا أكثر مما نحن فى حاجة اليـــه ، وكل من يقول لك غير ذلك فقد كذبك ، وكل من يعتذر لك بغير هذه الحقائق فانما يخفى وراء اعتذاره خوفه على مصلحته وخوفه منك لظنه الكفاية فى شخصك ، ولك أعمال قديمـــة فى الصحافة والكتابة والخطابة ، وانى لا أقفل مكتبى دونك ، فأنا مستعد أن أشير عليك أو أفتيك فى مستقبل الأيام اذا احتجت الى ذلك من حين الى آخر ، أما العمل المنظم والارتباط ولو بغير مقابل فلا !

وكان هذا هو الرجل الوحيد الصريح الصادق الذى رأيته فى خمسة عشر محاميا من فطاحل هذه الصناعة فى مستهل العقد الثانى من هذا القرن ، رحمه الله وطيب ثراه فقد عاملنى معاملة الوالد

والصديق فى هذه المسألة الوحيدة ، ولم أره بعد ذلك الا مترافعا فى المحاكم وقد حملت له حبا حتى نافرت المرحوم أحمد رأفت بك المحامى عندما رأيته يترافع ضد حسن صبرى بك فى قضية شخصية رفعها صبرى على وزارة الأوقاف مطالبا بتسويه مكافأته بعد أن كان رئيسا لقلم قضاياها وقد حل محله رأفت فرأى من حسن اللياقه أن يقف ضد زميله فى مطالبته بحقه ، ولم تتورع الوزارة فى ذلك الزمن ـ ولعلها كانت ما تزال ديوانا تحت اشراف أحمد شفيق باشا صـــاحب مذكراته فى نصف قرن ـ لم تتورع عن تعريض كرامة الاثنين للضياع ، فكان صبرى بك ذا كرامة وعفة وأدب وعدل وكان رأفت متحاملا جافيا ، ولعله ظن أنه اذا خسر هذه الدعوى فقد منصبه فى رياسة قلم القضايا ، وسألت فى ذلك فعلمت أنه متعاقد لثلاث سنوات أو خمس وأنه لا يفقده أبدا ، ولكن شـــدة حرصه دفعته الى ما فعل ، وسمعت المرافعة كاسف البال متألما ، ولكن رأفت نفسه وقف نفس هذا الموقف مع خلفه بعد ذلك ببضع سنين !! .

انا ادون هذه الحوادث كأننى أراها وأسمعها الليلة ولا أحرص على الوقت والقوة التى أصرفهما فى تدوينها ، فانى ان لم أجد الوقت لكتابة مالا يقدر على كتابته عنى سواى فلا خير فى الحياة !

خرجت من مكتب حسن بك صبرى ضيق الصـــدر مرتاح الضمير فياله من تناقض ! ، وأخذت سمتى الى رجل سورى فاضل كان يظهر لى المودة ، فكلمته فى الأمر وطلبت منه أن يدلنى على محام من غير هذا الطراز ولم أبد له الأسباب حرصا على كرامة قومى وكبار صناعتى وبعض قادة الرأى وأصدقائى الحميمين ، فدلنى على مكتب المرحوم اسكندر عمون بك وهو رجل تشكره عظامى فى قبرها .

لم أكن رأيته من قبل ، فلما رآنى أقبـــل على اقبال الوالد الحنون على ولده وبذل فوق طاقته لتطمينى ولم يسألنى عن سبب

النجاني اليه دون الالتجاء الى الفحول من أهل ديني وبلدى الاصلاء الشرفاء ، ولكنني رأيت من واجبى أن أصـــارحه بكل ما حـدث بالتفصيل ، فابتسم وقال : لا عليك ـ طال عمرك ـ ستعلم الأسباب الصحيحة بعد حين ·

واننى أنتهز هذه الفرصة لأثنى عليه وعلى أهل بيته وأنجاله وكريماته وعلى كل من يمت اليه بصلة · وقد عشت فى أكنافه عاما كاملا وهيأ الله لى أن أخدمه وأنفعه وأن أرضيه وأن أعوض عليه كرمه وادبه وسمو نفسه ولكن جميل هذا الرجـــل الفاضل الشريف لايرد بقناطير الذهب ، فاننى لم أشعر عنده يوما بنقص فى حريتى أو رغبة فى استغلالى أو تقصير فى مكافأتى أو تقصير فى تعليمى وتدريبى أو رغبة فى حجبى عن خاصة عملائه أو عدم اقرار بعملى مهما كان تفها ، فضـــلا عن تشجيعى وتبشـــيرى بمستقبل حسن ·

كان هذا الرجل الفاضل رئيسا لعبد الخالق ثروت باشـــا أيام كان فى خدمة الحكومة المصرية ، فانه وصل الى منصب رياسة احدى المحاكم وكانت تربطه بثروت باشا أواصر صداقة متينة حتى ان النائب العمومى لم يكن يرد له طلبا ، فقصد اليه زميل أرمنى الجنس وطلب وساطته فى تعيينه فى وظيفة بالنيابة العمومية ، فحكيت له ما وقع بينى وبين ثروت باشا منذ بضعة أشهر وعرضه على ما طلبه الأستاذ الأرمنى لنفســـه ، فعجب ثم سكت وسعى للأرمنى فوظفه وما زال يترقى الى أن توفى فى منصب مستشار بالاستئناف ·

لم يكن التزاحـــم على الوظائف فى تلك الفترة على شيء من التكالب الذى نراه الآن او قبل الآن بعشرين سنة ، ولم يكن السادة الباشوات قد تفتحت أعينهم الى أن الحكومة « تكية » مضمونة وأن

الكفاية فيها ليست لازمة وأن الابن أحق من ابن الأخ وأن الأخ أحق من الصهر والصهر أحق من ابن الصديق وابن الصديق أحق من المحسوب والمحسوب أحق من أنبغ الرجال وأصلحهم لاشغال الوظيفة المرموقة !! ؟ وأن تراب الميرى كان ما يزال ترابا عاديا ، فاصبح رملا ذهبيا ناعما ثم زعفرانا عطرا ثم تبرا ، فلا ينال التمرغ فيه الا كل أصـــيل فى الغش ، عريق فى « النسب » ، مطواع فى العمل ، وان الوظيفة أمنية تبذل فى سبيل تحقيقها الأرواح والأموال وكل مرتخص وغال ، بل وما هو أعلى من الارواح أحيانا .

كانت السنة الأولى فى المحاماة فى أكناف اسكندر عمون بك من أسعد أعوام الحياة ، فقد رجانى حافظ رمضان باشـا برابطة الحزبية أن أباشر قضاياه أمام محكمة الجنايات لأنه ظن بى خيرا ، فعملت له بدون مقابل لأكسب خبرة ولأقيس قوتى فى محكمة عليا كانت نفسى تتوق اليها من زمن طويل ، وقد حصلت على أحـكام كثيرة بالبراءة ولم أحصــل على دانق ولكن كان يلذ لى أن أدرس القضايا وأحسن الدفاع فيها وأنفق من مالى ووقتى لأفوز بانتصار ، وما يزال حجاب المحكمة الذين رأيتهم منذ ثلاثين عاما هم هم لم ينثن عود أحدهم ولم تبيض شعرة فى رأس معظمهم ولم تتجعد خطوط جبينهم ولم ينحن ظهر أحدهم ولم تؤثر قصص الحياة ومآسى الدنيا فى عواطفهم ، ولم تضعف نبرات أصواتهم ولم يتغير لون ثيابهم الزرقاء المحلاة بزراير النحاس اللامعة ، ولم يتغير أدبهم ومجاملتهم وعفتهم فى طلب المكافأة البريئة عندما يؤدون لنـا خدمة بريئة أو البشرى بنجاح قضية ، وهم عدا عن هذا كله كنز معرفة ومعين أحاديث طلية لا تنضب وذكريات لا تخلو من فكاهة وطرب ، وكانوا من الوفاء للقضاء بدرجة فائقة ، فان أحدهم ــ وكان حاجبا خاصا لمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف ورئيس محكمة النقض طوال مدة وجوده ــ لم يطق الحياة بعد اعتزال القاضى الايرلندى فذبح نفسه بموسى فى محكمة الاستئناف نفسها ، وقيل انه لم يكن يرى

فيمن استخدمه بعد مستر بوند موضعا للحنان فرأى الحياة غير خليقة بأن يحرص عليها ، ولم أعلم برجل من كبار الموظفين فى هذه المحكمة أو صغارهم قد انتحر قبل هذا الرجل أو بعده ، وقد يكون أحدهم قد ناله من الهوان أكثر مما نال هذا الحاجب ، فهل كان أقلهم عقلا وايمانا أم كان أكثرهم كرامة ؟!

كانت هذه السنة الأولى سعيدة حقا ، **فقد تقدمت الى المحكمة المختلطة فى قضايا كثيرة ، فأحببت تلك المحاكم واحترمت قضاتها ، ولا سيما الموسيو نيهولم الدنمركى كان أعدل قاض وأعطف رجل على الفلاحين المصريين،ورأيته بعينى يحطم رءوس المرابين من اليونان الذين امتصوا معظم دماء هذه الأمة ، أى حطم رؤوس أموالهم وكسر شوكتهم ودمغهم بأحكام عادلة بلغت أسباب بعضها سبعين صفحة ·**

وقد سمعت الحوار الآتى بينه وبين مراب كبير فى قضية مرفوعة من فلاح بسيط اسمه أحمد منصور العزب من احدى قرى القليوبية :

الرومى : أنا غنى جدا ·· أنا عندى مائة ألف جنيه ·· أنا لا أسرق هذا الفلاح الفقير ·

نيهولم : اسكت يا خريستو والا أمرت باخراجك ·

الرومى : أنا راجل غنى كتير ·· ودى راجل مسكين مس يمسك عسرة قرش ·· أنا موش ممكن أكون حرامى (كذا) أنا رجل سريف (شريف) أنا عندى ماية ألف جنيه ·

نيهولم : لقد جمعت هذه الثروة من مجهود هذا الرجل وأمثاله ، وهذه وقائع القضية تثبت ذلك ·· فهذا الذى تقوله عليك لا لك ·

وصمت الرومى ولم يجب بشىء ٠

ولم يلبث نيهولم بعد ذلك ان نقل الى محكمة العدل الدولية فى لاهاى فاحتفل به القضاة والمحامون وقدموا له باقات الأزهار يوم سفره وكان على افريز المحطة شيخ فان هو أحمد منصور العزب يعتمد على عكاز ولسانه يلهج بالدعاء للقاضى ويهتف « روح الله ينصرك وينصر كل مظلوم على يديك » ٠

لعمرك لا تظن أن أغنياء مصر وكثيرا من باشاواتها وأعيانهـــا أرباب الألوف من الأفدنة يقلون عن خريستو الرومى ظلما لفلاحيهم ومستأجريهم ، ولكن رعب الفلاحين المظلومين من ظالميهـــم أكبر من رعب العزب من ظالمه الأجنبى ، فانهم يؤجرون للفلاح ويأخذون عليه عهودا وعقودا ممهورة بامضائه أو ختمه ولا يعطونه مثلها زاعمين أنهم موضع الأمانة والشرف وأن حسابهم لا تتسرب اليه شائبة وأنهم ليغالطون ويغشون ولا يبالون ، ولولاهم ما تعلم الرومى ولا تجرأ على نهش لحم ابن البلد ، ولو وجد الرومى من يعتذر له من بنى جلدته أو مستخدميه وحاشيته ، فمن يعتذر لهؤلاء الباشـــوات الاقطاعيين والأعيان أصحاب الأطيان التى يعجز عن حصرها العدد والذين كدسوا فى حياة جيل واحـــد مالم تستطع الفراعنة أن تجمعه ، فمن لنا بنيهولم ثان بل عشرة من أمثاله ؟!

كان الاستمرار فى العمـــل أمام المحاكم المختلطـة والمحاكم الأهلية أمرا مستحيلا ، لأن الأولى تقتضى أن تلازمها طول أيامك وتنقطع لها ، وانهما كالضرتين ، ولكن الضرة الأهليـــة تسمح لك بقضاء أعمالك فى سعة وفسحة من الوقت ، أما الثانية فشديدة الغيرة ، ثم انها أوفى وأرحب للأجانب وكل متقاض لديها يقصد الى بنى جلدته حتى المصريين يحسنون الظن بالأجانب لظنهم أنهم يتقنون التفاهم مع القضاة بلغاتهم أحسن مما يصنع المصريون ، وهذا وهم

لا شك فيه ، ولكن الحق أن أقدامنا لا تثبت هناك حتى لو كان أحدنا قاضيا سابقا بتلك المحاكم كالمرحوم اسماعيل الشيمي بك ، أو كان ذا مكانة عالية فى اللغـــات كالمرحومين عمر واحمـــد لطفى بك ،، ولذا لم أحاول أن أتعلق بأهدابها طويلا ، ولم يرد الى الا مظاليم الفلاحين المنهوكين المطحونين بعد أن خسروا كل قضاياهم يحملون أكواما من الأوراق التى لا يتبينهـــا الا خريج مدرســـة الوثائق التاريخية ! ، فلا أجدها بعد العناء الطويل تجدى نفعا أو تعود على صاحبها بثمرة ، فكان مجهودى معهم ضائعا .

وقد بليت برجل تركى ينتمي رغم تركيته أو شركسيته الى دولة أجنبية وكان يقاضى وقفا كبيرا فواصلت له العمل أعواما رأيت فيها المتاعب ألوانا وانتهى بصلح منفرد لم يطلعني عليه كشرط خصومه ، فكانت هذه القضية آخر عهدى بتلك المحاكم .

وفى تلك السنة رأيت رجلا غنيا عرفته فى أوربا وهو امام المشاغبة فى هذا العصر بلا منازع . كان هذا الرجل يعيش ويمسى ويصبح ويسهد وينام ويحلم ويتيقظ من لذيذ الأحلام فى القضايا ، ويأكل ويشرب ويزهد فى لذيذ الطعام بسبب القضايا ، ويسعى ويكد ويجتهد ويطوى الأرض على قدميه ويمكنه أن يشترى الخيول المطهمة والعربات الغالية ولكنه يضحى بكل هذا فى القضايا ، وقد أهمل تعليم ابنه الوحيد على ذكاء الولد وحسن استعداده ليمرنه على السير فى القضايا ، فالمال عنده كل شيء وغاية كل حى وفسر قوله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » بأن البنين لا قيمة لهم بغير المال ولكن المال له قيمته بغير البنين !!

ولا يخطرن ببال احد أن هذا النوع من الرجال قد انقرض أو خفت وطـــأته ، انه ما يـــزال موجـــودا وأفراده أقوى وأمهر مما سلف !

وهناك آخرون يشترون مجهودك بفنجان قهوة وابتسامة ، وآخرون لو يستطيعون قطع الطريق وقطع الوريد ـ وهم من السادة الأغنياء ـ لفعلوا ، وآخرون يجدون من لين طبعك وسهولة خلقك مدخلا الى حصن نفسك ليسرقوا ما استطاعوا !

وكنت أغضب من الجهلاء والفقراء المستغلين الى ان وجدت خاصة المتعلمين وخاصة الأصدقاء وخاصة الأذكيـــاء يفعلون هذه الفعال ويتقنون تمثيل أدوارها .

قد تعذر الفقير أو متوسط الحال أو الجاهل اذا طمع فيك وتوهم أنك غنى وقادر على أن تخدمه بغير مقابل وأن تعطيه من عقلك وفكرك وهمتك ما ينقذه أو ينجيه أو يحفظ حقوقه ، ولكنك اذا وقعت مع صديق ومتعلم وذكى وخبير بأحوال الدنيـــا ، فهذا هو البلاء الأكبر ، وقد يبذل فى القمار وفى سباق الخيل وعلى موائد الخمر فى شهر ما يكفى أسرة فى عام ، ثم هو يطمع فيك ويحرمك حقك بعد أن يجلب عليه مجهودك خيرا كثيرا .

فاذا تناسيت يوما كل آداب اللياقة وفاتحته بلباقة وحسن تعبير ، فاعلم أن هذا هو نهاية عهد صداقته وآية رفع قناعه عن وجهه وتنكره واعلان عدائه لك وافتتاح مقولاته عليك وبسط لسانه فى عرضك ، لأنه أدرك أنك كشفته فلن تلين له بعد ذلك فأصبحت معدوم النفع له فلا يبقى عليك ، فاذا حدث أنك قاضيته ، فهناك المجزرة والمذبحة والملحمـــة وأخـــلاق الطبقات التى لم يذكرها التاريخ !

***

– ٤ –

ذكريات عن القضاء والمحاماة

الدعوة الى ادخال نظام المحلفين فى محاكم الجنايات – نظام تلخيص القضايا – النكتة فى مجلس القضاء –

قضاة ومحامون

فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٣ وجهت الدعوة الى ادخال نظام المحلفين فى القضاء الأهلى ، وقد بدأت الدعوة بخطاب وجهته الى الأستاذ داوود بركات رئيس تحرير الأهرام نشر بالصفحة الأولى تحت عنوان « اصلاح القضاء الأهلى ، وجوب ادخال نظام المحلفين » (١) ·

ومما جاء فى هذا الخطاب أننا أصبحنا الآن على أبواب الحكم النيابى ، فأصبح واجبا على كل مصرى أن ينظر ما تضمره نفسه من الأفكار والمبادىء التى يظنها نافعة لأبناء وطنه ، فاذا صح أن يتغير نظام الحكم فى مصر من النظام المطلق وسيادة الأجنبى الى نظام دستورى شبه استقلالى ، فأول ما يخطر ببال المصلح النظر فى النظام القضائى الذى عليه مدار تقسيم العدل بين الناس وانصاف الضعيف من القوى والضرب على أيدى الجناة حتى يكفوا أو يدفعوا دينهم للهيئة الاجتماعية ·

(١) نشر هذا الخطاب المفتوح بالصفحة الأولى من جريدة الأهرام فى : ١١ اغسطس سنة ١٩٢٣ ·

ان أهم تعديل أدخله قانون سنة ١٩٠٤ على النظام المصرى هو ايجاد محاكم الجنايات الجديدة ، وعندما شرعوا فى وضع نظام تلك المحاكم ، عرضـوه على رجال القضـــاء والمحاماة فى مصر ، فاعترض عليه كثيرون منهم ، ويكفى القول بأن كل قاض ونائب ومحام اشتغل بهذه المحاكم وسئل عن صلاحيتها لا يتردد فى سرد جملة أوجه الانتقاد ٠

وأولها بطؤها فأصبحت بعض القضايا تؤجل جملة مرات اشهرا متوالية لأسباب تافهة ، وبذلك ضـاع الغرض الأول من العدل الجنائى وهو السرعة فى القضاء للموعظة ، وثانيها نظام قاضى الاحالة فانه لا فائدة منه بتاتا ويندر أن يأمر بتحقيق تكميلى أو استيفاء واجب ، وثالثها جلوس قاض أجنبى فى تلك المحاكم لا يفهم لغة البلاد وعاداتها ، فلا يمكنه مهما كان عالما مخلصا أن يعطى العدل للناس ، ورابعـــا تكليف المستشارين بالقضـــاء فى القضايا المدنية والقضايا الجنائية فى وقت واحد بحيث لا تتكون للقاضى ذهنية جنائية Mentalité crimnelle تمكنه من ادراك أحوال الجرائم والمجرمين على حقيقتها ، وظاهر مما كتب البارون جافالو فى كتابه الشهير « الاجرام » أنه يلجأ فى نهاية الأمر الى نظام التخصص الذى أصبح شائعا فى سائر العلوم والأعمال مثل الطب والتدريس والهندسة وغيرها ٠ وخامس أوجه الانتقاد التى وجهت الى محاكم الجنايـات نظام انتـداب المحامين للدفاع عن المتهمين المعوزين ، ويحدث كثيرا أن المحامى المنتـدب لا يستطيع اعداد الدفاع والاستعداد له على الطريقة المثلى لأسباب كثيرة يطول شرحها ويعلمها حق العلم جميع القضاة والمحامين ٠

وخلاصة القول ان محاكم الجنايات قد عاشت مدة كافيـة ويصـح الآن أن تذهب من عالم القـانون المصرى ، لا سيما وقد دخلنا فى عهد جديد يحتم اشراك الأمة فى كل شىء ، فغدا يكون

الشعب فى مجلس النواب شارعا وواضعا للقوانين ، فيجب والحالة هذه أن يكون الشعب أيضا جالسا على منصة الحكم فى محاكم الجنايات على طريقة المحلفين كما هى الحال فى جميع ممالك أوربا وأمريكا المتمدنة .

ان نظام المحلفين هو حجر الأساس فى النظام القضائى الأوربى والأمريكى ، وقد كان معمولا به عند الرومان فى المدنى والجنائى ، ثم اقتبسه الانجليز وأخذه عنهم كثير من الأمم اللاتينية والسكسونية .

ومبنى هذا النظام أن يفصل فى وقائع الدعوى الجنائية عدد من الأهالى يجلسون مع القاضى ويسمعون الدعوى ثم يبدون قرارهم عن وقائعها وبناء على هذا القرار يحكم القاضى بتطبيق القانون على الوقائع التى أثبتوها .

ولا ريب فى أن التجاء الأمم المتمدينة الى نظام المحلفين راجع الى جملة منافع وفوائد أجمع القضاة والمحامون والمتقاضون على امتداح نظام المحلفين من أجلها ، لأنهم مهما تباينت مداركهم يحكمون الذوق السليم فى تقدير الوقائع ، ويندر أن يجمع اثنا عشر شخصا من أوساط الناس على خطأ ، لأن دأب الناس أن يراعوا العدل والانصاف أكثر من مراعاة نصوص القانون ، ويوفقون بين حكم القانون ومقتضيات الحياة .

ثم ان نظام المحلفين يربى الأمة على العدل والانصاف واحترام القانون والشعور بالواجب العام والقيام به بالاشتراك فى ادارة القضاء والاسهام فى اقامة العدالة وعلى الاستقلال القومى فى اخص مظاهره وادقها ، ويخفف من حدة القانون اذا تعارض مع ميول

الأمة ومقتضيات الأمن ، وقد قال العالم توكفيل ان نظام المحلفين أعظم مدرسة للشعب ، ونحن الآن في مصر في حاجة الى تكثير عدد مدارس الشعب ، فالبرلمان أعظمها والمحاكم تتلوه في الأهميــــة ، فيجب والحالة هذه أن يدخل هذا النظام الى البلاد المصرية من سنة ١٩٢٤ (١) .

لقد تكون عندى اعتقاد يقينى أن كثرة القضاة الجالسين لنظر الدعاوى لا يفيد فتيلا ، لأن الأمر ينتهى دائما أو غالبا بتحكم الرئيس ، وفى الدوائر الأخرى يتحـكم القـاضى الأقوى خلقـا أو شكيمة لا الأعلم ولا الأفضل خلقا ، ولذا أعتقد أن الأفضل أن

---

(١) لم تكد دعوة لطفى جمعة الى ادخال نظام المحلفين فى النظام القضائى المصرى تنشر على صفحات الاهرام حتى تصدى لها كثيرون من رجال القانون والمشتغلين به من القضاة والمحامين واساتذة الجامعة والصحفيين وغيرهم ، تارة بالموافقة والتاييد وطورا بالمعارضة والتفنيد ، وتشعبت المناقشة والمجادلة حول هذه الدعوة واحتدت واحتدمت بين المؤيدين والمعارضين على صفحات جريدة الاهرام اكثر من شهر .

وممن شاركوا بآرائهم فى هذه الدعوة داوود بركات رئيس تحرير الاهرام والدكتور عبد العزيز نظمى والأستاذ عزيز خانكى والأستاذ حسين رمزى الاستاذ بالجامعة المصرية وحسين عامر المحامى واسكندر داوود المحامى واحمد الصاوى محمد الكاتب الصحفى وغيرهم (جريدة الأهرام فى ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٥ اغسطس سنة ١٩٢٣ ، أول سبتمبر سنة ١٩٢٣) .

وجدير بالذكر أن اقتراح لطفى جمعه باسهام الشعب فى اقامة العدالة بادخال نظام المحلفين فى محاكمنا الجنائية ، لم يتحقق الا بعـد ثمان وأربعين سنة عندما نص دستور جمهورية مصر العربية الصادر فى سبتمبر سنة ١٩٧١ على الأخذ بنظام مشاركة الشعب فى القضاء ، وطبق هذا النظام فعـلا فى محاكم الحراسات بمقتضى القانون رقم ٣٤ لسنة ١٩٧١ ثم فى محكمة القيم بمقتضى القانون رقم ٩٥ لسنة ١٩٨٠ .

تكون كل القضايا مهما علت من اختصاص قاض واحد الا محكمة النقض التى ترفع اليها أعوص المسائل القانونية ٠

وقد شهدت أن نظام تلخيص القضايا عقيم جدا ، فان القاضى الملخص يكون رأيه ويحكم فى القضايا سلفا وينقاد له زملاؤه حتى الرئيس بحكم أنه واقف على تفصيل القضية ، واذا كان الملخص ميالا للادانة كما يقولون فانه يغضب اذا حكم بغيرها كأن المتهم خصمه الشخصى ، وقد رأيت هذا فى قضايا كثيرة وفى كل الأحوال ، لأن هذا القاضى يعتبر أن فى مخالفته مسا بكرامته وهذا عجيب !

وانى أحب النكتة الرقيقة البارعة فى مجلس القضاء وان كنت لا أتقنها ولكن أطرب لها ، وان لم ترد على لسانى فيكفى سماعها والتلذذ بها وتقدير أصحابها ٠

وفى انجلترا يسمون صاحبها Tester والنكتة الانجليزية ليست فاترة أو باردة كما يظن الناس لبرود طبع الانجليز وفتورهم وطول صمتهم ، فقد اشتهر منهم فى القديم الدكتور جونسون وسجلها له بزويل ، ودافيد جاريك الممثل الشهير ، وفى العهد الأخير أوسكار وايلد ، فكان ملك النكتة فى عصره ، وهم يفضلون أن يتخذوها وسيلة النجاح فى كتبهم فلا تضيع هباء فى المجالس ٠

وانى أحبها ولو فى مجلس القضاء المعتم ، لأنها دواء الخمول والجمود وضياء الظلام المخيم على الخواطر والأفئدة ، فتشحذ الكليل وتنعش العليل وتبعث الوسنان وتوقظ الهاجع ، ولا يأباها الا البليد والأحمق ، ولا يغضب منها الا المغرور وضيق الصدر ٠

كان **محمد خالد باشات** صديقا حميما وقاضيا بالمحاكم وقد اشتغل بالمحاماة عشرين عاما ثم انتخبوه للقضاء ، وكان صاحب نكتة بارعة لا يقل عن المرحوم البابلى وان تكن دائرته أضيق من البابلى وانما كانت كافية لاظهار موهبته ، وكانت شهرته فى الدوائر القضائية مستفيضة بحذقه للنكتة البارعة ، فلا يكاد يقف ويبدأ الكلام حتى تشرئب الأعناق وتتطلع الآذان لما يقوله وتفتر الثغور عن البسمات قبل أن ينطق ، والكل ينتظر منه أظرف النكات وألطفها ، وكان هو أيضا يبتسم قبل أن يرسل النكتة ويعقبها بضحكة خافية لأنه أول من يعرف قوتها واصابتها وحدتها، وقد حاولت تسجيل بض نكاته في مقال لى فى البلاغ سنة ١٩٣٠ (سبتمبر وأكتوبر من تلك السنة فى الصفحة الأدبية) ، ولكن كل تسجيل لهذه الأشعة المضيئة وتلك الشرارات المندلعة من وهج الذكاء والبديهة يردها باهتة خافتة .

ولا يفوتنى أن باشات فى قضائه كان رجلا فى أعلى درجات النزاهة والعلم والأدب وله كرامة خاصة به ومظهر يدعو الى الاحترام ، وقد سألته ما يصنع ان «حزقته» نكتة أثناء النظر فى القضايا ، هل يطلقها أو يكتمها ؟ فقال لى وهو يبتسم ابتسامة أعرف سرها : انى أمتنع لأن الوسط الريفى لا يلائم وأخشى أن يشهر عنى التنكيت فى القضاء وهو يذهب الكرامة ، ولكن أقول الحق انى أحيانا لا أطيق الصبر فأرسلها . فقلت له : خيرا لك أن تقيدها وتكتبها أو تبقيها الى النطق بالحكم . فضحك وقال : هى حيثيات والا ايه ؟

وان صديقى العزيز باشات بجانب هذه الموهبة الجميلة ، يتلطف فى القول ويخرج من اللوم بأحسن العذر اذا اعتذر ، ويجعل من الكلام مصايد للقلوب ويعمر المجلس ان جد أو هزل

ويستولى على الآمد وهو وادع لأن الغريزة مواتية والطبيعة قابلة، جزاه الله خيرا عن الأدب والأدباء والظرف والظرفاء ، فانه ذخيرة أمينة وتحفة غالية ، فهيهات أن يجود الزمان بمثله ٠

كان **محمد بك أبو شادى** من أشد المحامين ذكاء وأكثرهم فصاحة وأحضرهم بداهة وأقدرهم على الدفاع المرتجل ولو لم يكن ملما بأطراف القضية ، وكانت له شهرة مستفيضة فى أنحاء القطر المصرى ولا سيما فى صعيد مصر ، حيث كان الرجل يهدد خصمه ويقول « أطخك رصاصتين وأشهد ولد أبو شادى » ، ضامنا صدور الحكم ببراءته على يديه ،ولو أنه تعلم لغة أجنبية وانقطع لدرس قضاياه لكان من أشهر محاميى العالم ، كان ذا فطرة سليمة وروح مرحة فأضاع الصحة والمال ، وكان فى آخر أيامه يخطب ويترافع ساعات عدة فلا يتلعثم ولا يتردد ٠ ولا يرتج عليه ، وهو يفيض بنوابغ الكلم وآيات القرآن والأحاديث والشعر القديم والجديد والنكت الظريفة المقبولة والنوادر الطريفة حتى يستلب الألباب ، ويؤدى هذا كله ولا يمسه تعب ولا لغوب لأنه موهوب حقا ، وكان أقدر من الهلباوى وأخف منه دما وروحا وأوسع حيلة وأشد ذكاء ، ولكن الهلباوى علم نفسه ولم يكتف بذكائه وحضور بديهته ولم يبعثر حياته ولم ينفق ماله فى غير ما جعل له ٠

كان أبو شادى صحفيا وكاتبا وصديقا لسعد زغلول فدخل مجلس النواب وانتخب نقيبا للمحامين ، وعادى الشيخ محمد عبده اكراما للخديو عباس ولم يكن على حق فى معاداته ، فعاد واعتذر للأستاذ المفتى واسترضاه ، وكان رحمه الله يعرف توجيه الحملات الصحفية ضد السياسة الانجليزية فى دنشواى وبور سودان ، ولذا عاداه القاضى بوند وكيل محكمة الاستئناف وكان يعرض عنه فى مرافعته ليحقره ويؤذيه ويتوعده بالاحالة الى مجلس التأديب والمحاكمة ٠

كان أبو شادى يصدر جريدة الظاهر وقد تعرفت بالمرحوم عبد الفتاح بيهم الذى كان يعمل مترجما فى الجريدة ، فألح على بالاشتغال فى الصحافة ، وعندما قدم على مصر سنه ١٩٠٥ المرحوم محمد كرد على والسيد عبد القادر المغربى والمرحوم عبد الحميد الزهراوى اشتركت مع كرد على والسيد عبد القادر المغربى فى تحرير الجريدة بعد وفاة عبد الفتاح بيهم ٠

وعندما حدثت فاجعة دنشواى سنة ١٩٠٦ وصفت على صفحات جريدة الظاهر تنفيذ الأحكام وحملت على السياسة الانجليزية حملة شعواء وأصبحت الجريدة فى مقدمة الصحف الوطنية لا تزاحمها الا جريدة اللواء التى أنشأها المرحوم مصطفى كامل منذ سنة ١٩٠٠ ٠

وقد ترجمت المرحوم أبو شادى فى حفلة تأبينه التى كانت تحت اشراف سعد زغلول وطبعت جميع الخطب التى ألقيت فى هذا الاحتفال وبينها كلمتى ، وكنت قد اقترحت اقامة هذه الحفلة ، ولكن الأحقاد جعلتنى الثامن فى الترتيب ، وأخذ رئيسها يرسل الى الرسل ليهمسوا فى أذنى بالاختصار ، وكان آخرهم الأستاذ عبد الرحمن الجديلى فقال لى عفا الله عنه : كلفت أن أرجوك الاختصار وأرى أنك خطيب الحفلة ، فاستمر فانى أرى دولة الباشا (سعد زغلول) مسرور جدا (١) ٠

---

(١) نشرت خطبة لطفى جمعة فى حفل تأبين ابى شادى تحت عنوان « عبقرية أبى شادى وتقدير النبوغ فى مصر » من صفحة ٥٨ الى صفحة ٦٥ فى الكتاب الذى جمع مواده السيد عبد الحميد الكيلانى وعبد الحفيظ الروبى وعنوانه « محمد ابو شادى ، دراسة أدبية تاريخية » ، وقد طبع بمطبعة حجازى سنة ١٩٢٣ ٠
كما نشرت أيضا فى كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٥٨ ٠

ومن زملائى فى هذه الصنعة الكريمة **محمود بك بسيونى** المحامى وهو رجل فاضل بحبوح محبوب من جميع من عرفه من زملائه وعملائه ، وكان منذ شبابه وطنيا مخلصا من أنصار مصطفى كامل وترافع عن الوردانى مع جملة من مشاهير المحامين أمثال الهلباوى وعلوبة باشا ، ثم اتصل بالوفد فى أول حركته وكان وزيرا للأوقاف ورئيسا لمجلس الشيوخ ورئيس الوفد الذى سافر الى الهند لرد زيارة البانديت نهرو وأمير الحج فى سنة ١٩٣٨ أو سنة ١٩٣٩ ونقيبا للمحامين مرات متتالية ، وبالجملة نال باخلاصه وثباته ووفائه وحسن نيته كل ما تصبو اليه نفوس الرجال عن جدارة واستحقاق ولم ينل شيئا محاباة أو مجاملة ، وله كعب عال فى المحاماة وقدرة باهرة فى المرافعة وقد اختار أسيوط مقرا لعمله منذ نشأته فحصل على ثروة جيدة وربى أولاده تربية حسنة وبوأهم المناصب العالية فى حياته .

وهو رجل بسيط المظهر طيب القلب لا تعرف العداوة طريقا الى فؤاده ولا يتخذ من الحزبية وسيلة للبغضاء أو التقاطع ، ولا يعتبر الخصومة السياسية سببا للتنافر ، ويعتبر كل الوطنيين مخلصين وان اختلف مشاربهم ووسائل عملهم .

ويظهر لى أن سبب السكوت عليه من الزعماء آنه هو نفسه زعيم ورجل كبير وذو مكانة وحرمة غير منكورة ، ولما كان مسلكه هو الصحيح والواجب الاتباع ، ومذهبه هو الأحق بالتقدير ، فلم يعرض له أحد بالنقد ، فان عرض له أحد بنقد فلا يؤثر منصبه على حريته ولا يبيع شهرته بالأفق الضيق مهما دفع له فيه من ثمن .

أما **كامل بك أبو الذهب** فقد كان من رجال الأقباط النابهين النابغين ، توظف فى النيابة وترقى الى القضاء وتردد حينا فى

ترك خدمة الحكومة ليشتغل بالمحاماة فى وقت كان فيه وجه المحاماة مشرقا وفمها باسما والدنيا مقبلة على ذويها ، ولكنه عدل بعد سنة من تفكيره وقد أنصف وأحسن ٠

وهو من الأفراد القلائل فى الطائفة الذين يحسنون التكلم والكتابة بالعربية الفصحى ، وفوق هذا فانه يتحرى البحث فى المعاجم والقواميس عن أصول الكلمات وغيره ممن يفصحون لا يتحرون ٠

والذين عرفتهم من المحسنين فى اللغة الأساتذة وهيب دوس ومرقص فهمى وتوفيق دوس ومكرم عبيد شيخ خطبائهم ، وهو يحفظ جانبا من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهؤلاء الأربعة خطباء بجانب انهم كتاب ، ولكن مقدمهم على التحقيق مرقص فهمى، وكل من عداهم لا يحسنون النطق ولا يزنون اللسان ٠

وكان كامل أبو الذهب فصيحا وليقا ومحققا وعلمه بالقانون جيد ولا سيما الجنائى وتحقيقه دقيق وأحكامه عادلة فى الأغلب ، وقد التقينا فى محكمة الجنايات مرات وهو فى كرسى الاتهام وكاتب هذه الأسطر فى موقف الدفاع ، فكان يقرع الحجج ويقيم الأدلة ويسرد البراهين بالمنطق الصحيح والنطق الفصيح ، فنشأت بيننا ألفة وصداقة وقد أيدهما الجوار فى السكن بمصر الجديدة ٠

وقد نقل كامل بك الآن الى المحكمة المختلطة لأن له الماما باللغة الفرنسية ، وحدث فى احدى القضايا أن مستشارا انجليزيا وهو كلابكوت تشاغل عن سماع مرافعته ثم غفا وأغمض عينيه فأيقظه الرئيس ، فقال الرجل بصوت مسموع سمعه كامل بك كما سمعناه « بربك أيها الرئيس ليس المتكلم ديموستين !! » ٠

وهو أشهر خطباء اليونان ، فابتسم كامل بك كما ابتسمنا وهى عبارة جارحة تقتضى مؤاخذة المستشار الانجليزى ، ولكن الذى يحتج على مثل هذه الاساءة كمن يؤذن فى مالطة وربما تكون شكواه سببا فى مؤاخذته ، وهذا قليل من كثير مما يرى ويسمع فى ساحة القضاء المختلط والأهلى فى عهد الانجليز وبعد عهدهم ، فان بعض الرؤساء المصريين لا يقلون كبرياء وصلفا عن أسلافهم السكسون .

وكان من أرذل المنتمين الى السكسون رجل مالطى اسمه « دربولغو » (١) يتحكم « ويشخط وينتر » وهو معتز بمنصبه ومعتز بصلته باللورد كرومر اذ كان يحسن احياء السهرات ، وكان ممتلئا بالحقد على المصريين وكراهيتهم كابن وطنه السفيه الآخر « جريك منفوسود » ، وقد كان له من لقبه نصيب ، فقد كان يجاهر ببغضه وينشر المقالات المطولة فى ذم المصريين وهو قاض ثم محام فى محاكمهم .



— ٥ —

حال المحاماة ووسائل اصلاحها

كم نقيبا تعاقب على مجلس النقابة وكم وزيرا تولى السلطة فى وزارة العدل وكم رئيسا لمحكمة الاستئناف فى مدى هذا العقد

---

(١) دربولغو هو القاضى الذى راس محكمة الجنايات التى حاكمت ابراهيم الوردانى قاتل بطرس غالى باشا .

من السنين ولم يفكر أحد منهم فى انتشال جلال مهنة المحاماة من هذه المهواة والوهدة التى تردت فيها هذه الأيام (١) ؟

ان السكوت عمدا عن هذه المأساة وتشـــجيع الذى يمثلها وترك حبله على غاربه جريمة متعمدة للقضاء على تلك المهنة التى صـــارت فى هذا العهد مهانة ومذلة ومدرجـــة للنزول الى الدرك الأســـفل !

لقد عجز المحامون الكرماء والأكفاء عن تحصـــيل أرزاقهم وعن سداد ديونهم ودفـــع أجور مســـاكنهم ومكاتبهم وعن تعليم أولادهم وتزويج بناتهم ، وحاروا فى أسباب هذه النكبات وحارت أفهامهم وأوهامهم ، فتارة يتلمسون الأسباب فى الأزمة العالمية ، وطورا فى حالة الحرب ومرة فى افتقار الفلاح وأخرى فى تكاثر عدد المحامين الشبان المتعجلين للكسب وأخرى فى تهافت أرباب القضايا على المرافعة بأنفسهم وتسيير دفة مصالحهم بأشخاصهم ، والصالحون منهم رموا الأقدار ودورة الأفلاك بالليل والنهار بهذا الكساد والخيبة والفشـــل ، والصـــابرون منهم قنعـــوا بالاضطرار ليدعوا الله بحالهم فيستجيب لهم ، فئة كبيرة من هؤلاء وأولئك أبقوا من الصـــنعة ذات الجلال والاكرام والتمسوا من الضيق مخرجا بوظيفة فى الحكومة أو بعمل حر لا يحتاج الى العلم والحكمة وسهر الليالى وكد الأيام ٠٠

لقد سكتت جهات العدل وأصيبت بالعى والعمى والصـــمم لينخر السوس فى عظم تلك المهنة ذات الخـــلال الجميلة ، لأن أولى الأمر وذوى الحل والعقد أرادوا اضعافها وافقار دمها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة فى سكون وجلال خليقين بتاريخها العظيم !

---

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من المذكرات فى مارس سنة ١٩٤٣ ٠٠٠

وقد أمسى المئات من المحامين أقل من أبسط العمال ربحا ومكانة بعد أن أفنوا أسعد أعوام عمرهم فى التحصيل والاستعداد للمحاماة ، وبعد أن أهرق أهلوهم دماء قلوبهم فى نفقات تعليمهم واعاشتهم وبنوا على مستقبلهم القصور العالية وما هى الا قصور من الرياح !

لقد اندثر الفضلاء وطغا الأوغاد والجهلاء وأيقن المتقاضون والموكلون بهبوط هذه المهنة وبخسها وانحطاطها ، وهزلت كرامتها فى أعينهم وصارت قرينة الضعف والعجز والفاقة ، حتى لترى الفلاح والعامل وابن البلد والأمى الذى كان يتهيب الدنو من المحامى ويحسب للتحدث اليه حسابا ، قد تحرر من قيود العرف والأدب فيغشاه فى مجلسه وموقفه وسيره لأنه عرف الدية التى يدفعها ويملك بها ناصيته !

ومنذ شهر واحد كتبت مجلة المصور تسأل عن ثلاثة من فطاحل المحامين وتقول « أين هم » ، فأجابها أول المسئولين الأستاذ مرقص فهمى بك الذى لا ينازع أحد فى فحولته وكفايته واقتداره ونبوغه بأنه « حى ميت أو ميت حى » وأجاب ثانى المسئولين وهو الأستاذ وهيب دوس بك بأنه خرج بالقرعة من مجلس الشيوخ ، وأجاب الثالث (١) بأنه « فى زمرة المطمورين الذين أظلتهم غيوم الحرب الحاضرة ولما يرد سجل الفناء بل ما يزال حيا يرزق » .

وهؤلاء الثلاثة من دعامات العلم والفن الخطابى ومن أعلام القانون والمحاماة فى مصر زعيمة الشرق العربى ومهد الفصاحة والبلاغة من قديم الزمان ، وهؤلاء ثلاثة من مشاهير خطبائها ومن

---

(١) كان لطفى جمعة هو المسئول الثالث (مجلة المصور ، العدد ٩٦١ ، ص ١٣) .

زعماء القانون والسياسة والأدب فيها ، أحدهم حى ميت والثانى خرج بالقرعة والثالث مطمور ! ، وهؤلاء ثلاثة ممن تشجع المصور على سؤالهم وغيرهم على الأقل عشرات ممن لا يقلون عنهم فضلا ونجابة وكرامة قد تواروا وتداروا واختبأوا واعتزلوا وجمعوا أطراف ذيولهم ليكونوا بمنجاة عن أوحال المجتمع ، وكانت مهنتهم هى الوسيلة الوحيدة لرفع رؤوسهم واظهار فضلهم وتمكينهم من العمل والخدمة ، ولكن أغرقهم الطوفان حتى قال لى أحد فضلاء المحامين فى بحر هذه السنة (١٩٤٣) انه يبذل من الجهد والعناء ويتكبد من المشقة ما لا يستطيع وصفه ليتمكن من التنفس للحياة مثل الغريق ، فشعرت بوخذ الحديد فى قلبى لا لفصاحته ودقة تعبيره وصدق عاطفته فحسب ، بل لأنى كنت فى نفس موقفه وأشعر شعوره وأصور حالتى كتصوير حالته ، ولأنه نفس عنى بنفثة صدره لأننى وجدتنى غير وحيد وأن فى الغبراء رجالا يعانون ما أعانى ، وتحت ظل السماء قلوبا ولهى وأفئدة قلقة وأرواحا حائرة لأنها تمسكت بالمثل العليا وحافظت على كرامتها وتشبثت بأهداب الفضيلة والعفة والمروءة ودرجت على ما نشأت عليه من الاعتزاز بالذات وبجلال المهنة التى لطخها الحاكمون والمحكومون بأوحال الأغراض والشهوات ، فلا حول ولا قوة الا بالله وانا لله وانا اليه راجعون !

ولئن كان رداء المحاماة فى القديم رمزا للشرف والمهابة والقدرة ومعونة الضعفاء ومكافحة الباطل ونصرة الحق كما علمنا الذين لبسوه من قبل أمثال سعد زغلول وابراهيم اللقانى ونصر الدين زغلول والحسينى وأحمد عبد اللطيف وعمر لطفى وأخيه أحمد لطفى واسكندر عمون وعشرات من معاصريهم وأندادهم وبعض الأحياء أمثال أحمد مصطفى ووهيب دوس ومكرم عبيد

وغيرهم ، فقد صار الرداء فى هذا الزمن القبيح علم المهانة والذل والحقارة والاستهتار والدناءة ·

ولما كان تعميم هذه القبائح شرا كبيرا ،فلم يبق الا **استئصال هذه العناصر الدنيئة من جسد المهنة ليعود الى الصناعة شيء من كرامتها** ، ولكن هذا الأمل مستحيل التحقيق ، لأن النقابة – من المفروض فيها أنها تسهر على تنقية المحاماة وتطهيرها وتنظيفها – هى التى ساعدت على تشجيع هذه الأدران وتنميتها وتقويتها بالاهمال والسكوت عنها وغض الطرف وصم الأذن حتى استفحل الشر وكبر الخطب واتسع الفتق على الراتق ، فخليق اذن بوزارة العدل وهيئات القضاء والجمهور ألا يكترث لمصابها وألا يمد يد المعونة أو يحرك لسان النصح الجماعة يظن أنها من أرقى الجماعات، ثم هى تترك ذويها يتدهورون ويترددون فى المهواة لانشغال رؤسائها بأنفسهم ومصالحهم ومنافعهم المادية ، ورغبة كل منهم أن يحصل على أكبر قدر من الثروة وأكثر عدد من القضايا المهمة، ولا يبالون بما يحدث لسواهم (*)

لقد جعلوا هذه النقابة من سنة ١٩٢٠ الى هذه الساعة (مارس سنة ١٩٤٣) ميدانا للتنافس السياسى ومسرحا لسيادة الأحزاب ومعتركا لأهل النفوذ من الرؤساء والأعضاء ، فيقفزون منها الى مناصب الوزارة ووظائف القضاء · **ان النقباء من سنة ١٩٢٠ الى الآن لم يعملوا على رفع شأن المحاماة لا بقوة ولا مجهود ولا صدق عزيمة ، ولابد أن بعضهم حضر جلسات وشهد مذبح المهنة** « ذات الجلال والاكرام » على حد تعبير النائب العمومى مما يدل على أن مجلس النقابة يشارك أعداء المحاماة فى رغبة القضاء عليها بكل وسيلة · وقد لاحظنا وغيرنا أن مجلس النقابة

فى سنة ١٩٣٥ قد تحول أعضاؤه الى أكبر المناصب ، فكانت عضوية هذا المجلس قنطرة أو مجازا وثبوا منها الى المناصب .

ان كتابة هذه الفذلكة ليس بقصد الخدمة العامة لأن وقتها مضى وانقضى ، ولكن لأن هذه احدى نكبات العصر الحديث وأنا أحد شهودها .

هذه صورة من نقائص العصر الحديث فى مصر ونقائضه وفضائحه وكوارثه وقد رسمتها بألوان باهتة التزاما منى جانب الاعتدال والرقة ، لأن الأمر أخطر من هذا بكثير !!

ولكن ماذا يظن أن تكون أسباب انهيار المحاماة فى مصر ؟

يجب على أن أبحث حقيقة فى أسباب انحطاط المحاماة :

فأولا : أن هذه المهنة دخيلة على البلاد وهى تقتضى جملة شروط فيمن يمارسها كالاستعداد الفطرى لها والذى يتوافر لأصحاب الصحة الجيدة جدا والعقول الراجحة جدا والفصاحة والبلاغة والخطابة والأخلاق القويمة وحب العدل وقناعة النفس اما بثروة أصيلة واما بشرف مكسب يحول دون صاحبها والانحطاط ، وعلم واسع بالقانون وثقافة واسعة فى كل شىء .

ثانيا : أنه وان يكن المصريون لهم ذلاقة ألسنة وقدرة على الكلام والخطابة بصفة عامة ، الا أن معظم الصفات المذكورة أعلاه تنقصهم .

ثالثا : دخل هذه الصناعة أكبر عدد ممن ليس لهم استعداد فطرى ولا أخلاق .

رابعا : أن الروابط المعنوية والأدبيه التى ترقى الهيئات معدومة بسبب المنافسة والجهل المتفشى .

خامسا : معظمهم متكالب على المال وكثير منهم ليس عندهم فكرة الضمير ولا الكرامة الشخصية .

سادسا : ان الوسط القضائى عند القضاة أنفسهم قد هبط والمرافعات نزلت درجتها والقضايا المهمة التى تشجع المحامى نادرة .

سابعا : فقر الكثرة لساحقة عند المحامين أدى الى قلة أرزاقهم فتحولوا الى عمال عقليين يربحون لسد رمقهم ورمق عائلاتهم .

ثامنا : أن المبتدئين منهم لا يعرفون سابقيهم ، واذا رأوهم لا يرون فيهم الا مزاحمين متقدمين فى السن فيتمنون زوالهم حتى ان واحدا من المنتسبين الى المحاماة حمل على المحامين الشيوخ حملة نكراء فى ورقة سماها تقريرا باقتراح اصلاح المحاماة ونسى « عمود الخشب » الذى فى عينيه وذكر « الذرة » التى فى عين الآخرين وهى الشيخوخة والعجز عن العمل .

تاسعا : أن انتشار الروح المادية فى مصر صبغ هذه الصناعة بهذا اللون ، فذهبت بهجتها وعظمتها .

عاشرا : أن كثيرا من القضاة يحتقرون المحامين الجهلاء ويحسدون الأكفاء ، وقد درج بعضهم على الاساءة الى الجميع وقد انتزعوا من غرورهم وثبات مراكزهم وانتظام أرزاقهم طمأنينة أنستهم آدابهم المحتمة نحو المحامين .

حادى عشر : اشتهر كثير من كبار المحامين بفساد الذمة .

اثنا عشر : المبتدئون لا يقتدون ولا يحتذون بفطاحل المحامين ممن يدربونهم على حسن الذمة واتقان العمل .

ثالث عشر : كل شيء في مصر قد انحط بفعل الاحتلال والأحزاب فتبعه هذه الصناعة بحكم التأثير العام .

رابع عشر : لا يدخل كليات الحقوق في العهد الأخير الا الذين لم يتمكنوا من دخول الكميات الأخرى ، واذا تخرجوا فيها فلا يلجأ الى المحاماة الا الذين لم يتمكنوا من دخول وظائف الحكومة .

خامس عشر : أن النقابة التى كان يظن فيها الخير والعمل على تقدم هذه الصناعة ظهر من سنة ١٩٢٠ أنها هيئة لحماية أعضائها وجلب الوظائف والمنافع لأنفسهم ويعتبرون العمل للمحاماة سخرة ويعملون هم أنفسهم على الحط من شأن المحاماة .

سادس عشر : أن الحكومة بصفة عامة والسلطات السائدة فى مصر عملت وتعمل على مداهضة هذه المهنة لأنها قدمت الرجال الذين قاموا بالثورات والاضطرابات منذ سنة ١٩١٩ الى الآن ، وأن الحركة الوطنية من عهد مصطفى كامل قامت على كواهلهم ، فوجب اضعاف هذه الكواهل وقد نجحوا .

سابع عشر : درج بعض رجال القضاء والنيابة بجميع درجاتهما على التظاهر بالترفع عن المحامين فى علاقتهم الخاصة حتى ولو كان هؤلاء القضاة والنواب ممن لا يدانون المحامي أخلاقا ، وقد سرى هذا المسلك الى عروق موظفى المحاكم تقليدا وتبعا لرؤسائهم ، فشعر المحامون بشيء من هوان شأنهم مما يعوقهم عن شعور العظمة المؤدى للنجاح .

ثامن عشر : علاقة المحامين بموكليهم ، ذلك أنه لما كان بعض الموكلين سواء أكانوا من المتهمين أو من المماطلين قد نتج عنه

سوء أخلاقهم فى معاملة المحامين بأكل حقوقهم والشح عليهم والكذب فى أخبارهم ·

تاسع عشر : طبقة الموظفين عند المحامين من وكلاء وكتبة وخدم والمندسين في أوساطهم من السماسرة ·

هذه كلها أسباب مكدرة لأزمة المحاماة فى مصر ولكنها حقيقة وذات أثر فعال فيما انتهت اليه المهنة فى هذه الأيام ·

* * *

— ٦ —

قضـــايا

من ملذاتى الحقيقية أن أدرس قضية جنائية مهمة وأعد فيها المرافعة ، وان هذه الملذة لتطغى على جميع المتاعب التى أعانيها حتى لا أشعر بها مطلقا ، وانى أثناء هذا الاستعداد أتخيل ابرازها عند العمل النهائى فأزداد تحمسا ونشاطا ، وانى كنت بحمد الله أوفق فى مطابقة النتائج لما كنت أتخيله أثناء العمل ، ومن أهم ما لاحظته أن هذه الملذة كنت أترقبها قبل أن أدرس القانون ، وسبب ذلك يرجع الى أمرين ، الأول رغبة شديدة من صغرى فى مكافحة المظالم، وأخرى فى ازالة الغموض وحل المشكلات ، والأمر الثانى كثرة مطالعاتى فى الكتب والصحف التى تسرد وقائع القضايا العالمية ولا سيما الصحف الانجليزية ·

ومن القضايا التي كانت لي فيها ملذات كبرى :

قضية قتيل باب الشعرية سنة ١٩١٣ ، قضية محمد علي نمر ـ طوخ سنة ١٩١٤ ، قضية عبد المعين خليل ـ روض الفرج سنة ١٩١٦ ، قضية ابراهيم عثمان ـ قتل أسيوط سنة ١٩٢١ ، قضية مقتل السردار السير لي ستاك سنة ١٩٢٥ ، قضية القنابل سنة ١٩٣٢ ، قضية روزنفلد ـ تزييف نقود ، بورسعيد سنة ١٩٣٢ ، قضية آل الرميح ـ مخدرات ، العريش سنة ١٩٣٥ ، قضية أولاد آدم ضد أولاد ذكرى ، العريش سنة ١٩٣٦ ، قضية مصطفى الزيني ، بورسعيد سنة ١٩٣٨ ، قضية سالم الأقرع ، مخدرات القنطرة سنة ١٩٣٨ ، قضية جبريل ايرانجيان ضد جرابيت جرجريان ، بيع وفائي سنة ١٩٤٣ ، قضية مقتل أمين عثمان سنة ١٩٤٦ ، قضية ابراهيم محمود أبو الروس ضد فتحية سلامة ، قتل ، الاسكندرية سنة ١٩٤٧ .

وقد ذكرت هذه القضايا على سبيل المثال ، وان بعض القضايا من هذا النوع لو دفعت لأصحابها مالا لاترافع فيها ـ وكان ذلك في مقدوري ـ لفعلت ذلك .



ـ ٧ ـ

الاغتيال السياسي وأسبابه

تعاني مصر من الاغتيال السياسي منذ نحو أربعين عاما (١) حتى أصبح داء مزمنا ووباء فتاكا مقيما لا ضيفا طارئا ، ونحن

---

(١) كتب لطفي جمعة هذه المذكرات سنة ١٩٤٩ .

نعالج كل حالة فى وقتها فنتفجع ونذرف الدموع ولا ننظر فى علاج قاطع مانع ولا نبذل فى سبيل الخلاص من تلك الوصمة القومية بعض ما نبذل فى محاربة الحميات المهلكة أو وباء الكوليرا ، مع أن القتل السياسى اذا استشرى يمسى أشد ضررا وأوخم عاقبة من بعض الأوبئة وان اجتمعت ، فان الاغتيال يفت فى عضد الأمة ويطعنها فى صميم حياتها وحدتها وتضامنها ويؤدى الى تفريق الكلمة والى زوال الهيبة والمحبة ، وناهيك بهاتيك المصائب اذا اصابت الوطن المصرى .

لقد كان الشرق أقصاه وأدناه وأوسطه طاهرا مبرأ من هذا الداء الوبيل ، وكان نادرا فى الغرب نفسه فيصفون مقترفيه بالفوضويين أو العدميين « نيهليست » ، وهو وصف روسى كان أول من استعمله الكاتب السياسى والأديب المؤرخ تورجنيف ، ثم شاع هذا الوصف فى أوربا وأمريكا ، وأول من لجأ اليه مذهبا وتنفيذا الثائرون الروس فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى زمن القياصرة ، ثم صار علما على جماعة مستهترة وطبقة فدائية دأبها اقتراف الجرائم والجنايات بالأسلحة الفتاكة حقدا على الطبقة الحاكمة والطبقة الغنية ، أى على المستأثرين بالقوة والثراء انتقاما منهم ونكاية بهم وسعيا فى تبديد النظم الاجتماعية وتفكيك عروة الحياة العامة ، وكانت خطتهم التآمر والاتفاق الجنائى فى الظلام ، ولم يقدم على الاغتيال السياسى فى أوربا المتحضرة بعد يوليوس قيصر أحد وذلك بتأثير الأديان والمدنية ورهبة القوانين واعتبارا بما حدث للامبراطورية الرومانية بسبب هذه الجناية من الضعف والتشتت حتى الاندثار .

ولما كان بعض الشرقيين يميل الى التقليد ويسهل انتقال العدوى الى أمزجتهم فقد سرت العدوى بهذا الشر الى مصر ، فقتل المأسوف عليه بطرس غالى باشا سنة ١٩١٠ ، ثم بدأت سلسلة

فظيعة من الاغتيالات السياسية تحت ستار الدوافع السياسية ، وفى مصرع المرحوم محمود النقراشى كان بعض الجناة يسوغون الاعتداء على الحياة بالظلم أو القسوة أو انحراف الزعماء عن سواء السبيل فى الوطنية والحكم ،وان كان الفاعلون والشركاء لا يدرون فى الاجتماع والأخلاق والسياسة كثيرا أو قليلا حتى يميزوا بين الخير والشر ، فانه لا يحق لهم بحال أن يجعلوا من أنفسهم مشترعين وحاكمين وقضاة وجلادين منفذين ٠

ان القتل الذى يتم على هذه الصورة الوحشية يوصف بالاغتيال ، لأن الاغتيال ينطوى على الغدر والقسوة والخيانة والخسة . وقد بلغ تغليظ الزجر وتشديد العقاب على من اقترف هذه الجريمة أن تحدث النبى عليه الصلاة والسلام فقال « ليس للقاتل توبة ، يأتى المقتول يوم القيامة معلقا رأسه فى احدى يديه متلببا قاتله بيده الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يوقف بين يدى الله فيقول المقتول لله تعالى هذا قتلنى ٠ فيقول الله تعالى : تعست ٠ ويذهب به الى النار » ٠

وان الناظر فى وقائع القضايا السياسية التى صاحبت مصر خلال النصف الأول من هذا القرن ، يرى أن الدافع اليها هو الاحتلال الانجليزى ومعاهدة سنة ١٨٩٩ الخاصة بالحكم الثنائى فى السودان ، **فالانجليز حيثما كانوا هم السبب لكل كارثة حدثت فى مصر ٠**

فقبل قضية الاعتداء على المرحوم بطرس غالى باشا بسنتين أو ثلاث ، عمل الانجليز على قتل الروح الوطنية فى مصر بمحاربة التعليم واضطهاد الطلاب وتخريب مدرسة الحقوق التى تخرج رجال القضاء والعدل ، وكانت هذه القضية خاتمة المطاف ٠

فبعد الاحتـــلال عمل الانجليز على محـــاربة الأمة المصرية بوســـائل شتى منها :

١ ـ افساد التعليم فى المدارس مثل اختصار سنى التعليم الثانوى وحذف تاريخ مصر والتاريخ الاسلامى ومقاومة مشروع الجامعة المصرية واستبداله بانشـــاء الكتاتيب ، وفرض اللغــة الانجليزية ومحو اللغة الفرنسية واضطهاد اللغة العربية .

٢ ـ التنكيل بالوطنيـــة والوطنيين فى الحكومة وفى كل مكان .

٣ ـ محاربة الدين الاسلامى والشريعة الاسلامية والتقليل من شأن الأزهر وتشجيع الاستهتار بالأخلاق وتسهيل انتشار الفســـاد .

٤ ـ ترك الأمة المصرية فريســـة للفقر والجهل والمرض ، والدليل على ذلك ما كتبه الانجليز أنفسهم « شيرول » والدكتور « بلفور » سنة ١٩٢٠ عن صحة الشعب المصرى .

وتركهم فريسة كذلك لليهود والأرمن واليونان المرابين حتى امتلك كثير من هؤلاء الأجانب الأملاك العقارية والأراضى الزراعية فضلا عن استمتاعهم بالامتيازات الأجنبية وما كان يسمى حماية القناصل للرعايا المجرمين . وكانت غاية الانجليز من هذه الخطة كسب عطف الأجانب من الطبقات السفلى وهم أصحاب الخمارات ومقاهى الغناء والرقص عدا عن « البلطجية » والمقامرين والمجرمين المأجورين ، وكل هذا بقصـد اذاعة الفوضى فى البلاد والاخلال بالأمن واظهار الأمة المصرية بمظهر الأمة العاجزة عن الاصلاح .

٥ ـ قتل النفوس المصرية ومحاربة عاطفة الحرية وتشجيع الطبقات المنحطة وتشجيع التجسس والخيانة ، وكبرياء الانجليز وعدم اختلاطهم بالمصريين بدليل مأساة النادى الانجليزى المصرى .

٦ ـ تلاعب الانجليز بالوزراء والحكومة والأحزاب (تلغراف جرانفيل في ٤ يناير سنة ١٨٩٤) .

٧ ـ اتخاذ مصر والمستعمرات الأخرى أسواقا لتجارة الانجليز البائرة وتسخير مصر لزراعة الأقطان .

وبالجملة كل مضار الاستعمار بصفة عامة .

وقد حصن الانجليز أنفسهم فى عهد كرومر بالمحكمة المخصوصة وزيادة جيش الاحتلال من وقت الى آخر واستولوا على سادة البلاد ، فألهوا الأغنياء بالمال وأوجدوا طبقة « أصحاب المصالح الحقيقية » أى أرباب الأطيان والأموال للدعاية الواسعة لكرومر ، فسكتت كل الأصوات عدا صوت الخديو عباس حلمى ومصطفى كامل ، فوقف عباس لكرومر بالمرصاد ، أما مصطفى كامل فقد أيقظ الأمة بجريدة اللواء والخطب أى بقلمه ولسانه ، وأخذ الانجليز لجانبهم بعض علماء الأزهر واشتروا بعض الجرائد وقد اغتنى أصحابها حتى صاروا أصحاب ملايين وضمنوا الوزراء وموظفى الحكومة ، واستولوا على المدارس بالخوجات الانجليز وعلى المديرين بمفتشى الداخلية وعلى الوزراء بالمستشارين وعلى الخديو بتهديده بالخلع ، والنفى ، ولكنه ـ رحمه الله ـ لم يكن يبالى بالوعيد .

وما زالت الحال فى ارخاء وشد حتى سنة ١٩١٤ فحدثت الحرب الأولى ورفعت بريطانيا الأقنعة السبعة من النفاق وأعلنت الحماية على مصر ونهبت الأرزاق وجندت الرجال باسم التطوع حتى تغنى المتطوعون المرغمون بأغانيهم « يا عزيز عينى أنا بدى أروح بلدى ...... » .

ثم نهضة سنة ١٩١٨ فثورة سنة ١٩١٩ ومحاكمات سنة ١٩٢٠ ، ١٩٢١ فى جميع أنحاء القطر ، فكانت القضايا السياسية بالجملة نتيجة لهذا كله لأنها أعقبت اعتداءات على الانجليز سواء أكانوا حربيين أم مدنيين .

ومن القضايا السياسية الكبرى التى باشرتها ، الأولى سنة ١٩٢٥ وهى قضية مقتل السردار ، والثانية هى قضية القنابل سنة ١٩٣٢ وهى أكبر قضية سياسية فى مصر ،والثالثة قضية الجمعية السرية التى قتل فيها أمين عثمان باشا سنة١٩٤٦ وضرب بالرصاص بضعة جنود انجليز .

وفى الأولى أعدم رعيل من شـبان مصر أمثال شفيق منصور ومحمود اسماعيل وعبد الحميد عنايت وجماعة من العمال الذين اشتغلوا بالسياسة .

والثانية سجن نجيب اسكندر وعشرة من الطلاب مكننى الله من براءة تسعة منهم وكان بطلها ابراهيم الفلاح .

وفى الثالثة حوكم ستة وعشرون طالبـا من أنجب الشبان وأحسن العائلات منهم حسين توفيق ومحمود يحيى مراد والسيد عبد العزيز خميس **ومحمد أنور السـادات** ومحمد ابراهيم كامل وأحمد وسيم خالد ومصطفى كمال حبيشه وآخرون غيرهم من طلبة الكليات والمدارس عدا أنور السادات فقد كان ضـابطا بالجيش وفصل منه وعمل مقاول نقل بالسيارات .

* * *

— ٨ —

قضـــايا سياســية

قضية مقتل السردار السيرلى ستاك سنة ١٩٢٥

كان سعد زغلول باشا رئيس الحكومة والهدوء سـائدا فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، وفجأة قتل السردار سيرلى ستاك فى رابعة النهار فى الساعة الأولى بعد الظهر فى شارع الطرقة الغربى على بعد خطوات من وزارة الحربية .

وهذه القضية بدأت بالغموض فى الدافع وانتهت بالغموض حتى بعد تنفيذ أحكام الاعدام فى جميع المتهمين كما طلبت الحكومة البريطانية .

وقد نظرت هذه القضـــية فى شهر مايو سنة ١٩٢٥ وكان المتهمون نحو عشرين شخصـا من أنواع أجناس مختلفة ، فمنهم العمال والطلاب ورجال الأعمال وموظف واحد ومحام واحد ، وكان القضاة عرفان باشا ومظهر بك ومستر كيرشو ، وكان يجلس أثناء المحـاكمة متقلدا مســدسا ويصحبه فى غدوه ورواحه شرطيان انجليزيان ، وفى مقعد النيابة طاهر نور باشا .

واستمرت المحاكمة أسبوعين ، وكان عدد الشهود عشرين شاهدا وخبيرا واحدا ، وكان المحامون سبعة عشر محاميا بعضهم ما يزال حيا ، وقد بلغت أوراق ملف تحقيق القضية حوالى الفين وخمسمائة صفحة وثمنـه خمسة وعشرون جنيها ، ولم توجه الى المتهمين تهمة الاتفاق الجنائى ، وقد أخذت الاعترافات فيها قسرا من

عبد الفتاح عنايت عند القبض عليه فى برج العرب عند محاولته الهرب الى ليبيا ، ومن بعضهم فى السجن بالضرب والتعذيب بقفازات الملاكمة الانجليزية ، وقيل انه استعملت المخدرات فى انتزاع الاعترافات .

وقد أدت هذه القضية الى ضياع السودان وترحيل الجيش المصرى وغطرسة اللنبى الذى دخل على سعد يمشى شاهرا سلاحه وتلا عليه انذارا خبيثا ، ودفعت الخزانة المصرية نصف مليون جنيه لم تأخذ منه أرملة ستاك باشا شلنا واحدا كما حصل التصريح بذلك فى البرلمان الانجليزى ، وسمح لشركة انجليزية أن تزرع وتروى مالا نهاية له من القطن فى أرض الجزيرة بالسودان ، وبعبارة أخرى انتهز الانجليز فرصة للانتقام لا مثيل لها .

وقد ظهر بعد ذلك أن اللنبى تعدى حدوده وقال وفعل أكثر مما كانت تبيح له الأوامر والنواهى ، ولكن ساسة لندن سكتوا عليه ونقلوه بعد مدة وراح على مصر كل ما اغتصبه اللنبى فى ساعة جبروت وطغيان ، لأن بعض المتهوسين من ساسة الانجليز أسفوا لأن اللنبى لم يشنق سعد باشا .

وفى هذه القضية ظهر من يدعى نجيب الهلباوى شاهد اثبات (١) ، وقد أخذ مكافأة عشرة آلاف جنيه لأنه مثل دورا عجيبا بعد وقوع الجريمة ليأخذ اعترافات جديدة .

---

(١) محمد نجيب الهلباوى كان مدرسا بمدرسة رأس التين واشترك مع محمود عنايت فى قضية القاء القنبلة على السلطان حسين كامل واندس بين صفوف الوطنيين بعد أن وثقوا به ، ولكن سرعان ما انقلبت وطنيته الى خيانة وغدر ، فتعاون مع سليم زكى وأحمد حمدى ورسل باشا حكمدار القاهرة فى الايقاع بالمتهمين فى قضية اغتيال السردار ونال المكافأة التى رصدتها الحكومة لمن يدل على الجناة ومقدارها عشرة الاف جنيه .
=

ومازالت هذه القضية غامضة فى نواح كثيرة ، فلماذا قتل السردار مع أن الوفد كان حاكما ؟ وماذا كان دخل بعض الباشوات العظماء الذين حقق معهم بعد القضية ؟ ومن وعد محمود اسماعيل أحد المتهمين بالعفو ؟ وكيف علم شفيق منصـــور بالجريمة قبل حدوثها ولم يبلغ عنها محافظة على موقف الوفد وسعد باشا ؟ وكيف لم تعارض الحكومة المصرية فى الطلبات الظالمة التى طلبها الانجليز مع أن الحركة الوطنية كانت فى عنفوانها ؟ وكيف أبيح للنبى أن يتعــدى حــدوده ولم تصلح انجلترا موقفها ؟ وهل كان المقصود قتل السردار لذاته مع أنه لم يعمل عملا ظاهرا ، أو كان المقصود اسقاط حكومة الوفد ولو بالتضحية بالســـير ستاك كما حصل فى مصرع غوردون فى الخرطوم سنة ١٨٨٤ لأخذ السودان ؟ وأين اختفى المتهمون فى يوم الجناية وبعدها حتى لم يهتد اليهم أحد مع اهتمام البوليس والنيابة والانجليز بالعثور عليهم ؟ ... علامات استفهام كثيرة .

كان بين المتهمين فى قضية السردار عامل اسمه على ابراهيم محمد كانت له نواح غريبة كثيرة ، فقد كان سببا فى اتهام رئيس « جمعية العلم الأبيض الســودانية » وحبســه ستة أشهر وفرار الدكتور محجوب ثابت الى الشام ، لأن ذلك المتهم يشبه كل الشبه رئيس تلك الجمعية الذى زار مصر فى تلك الفترة ونزل ضيفا عند الدكتور محجوب ولكن لم تكن له علاقة بالقضية .

كان على ابراهيم محمد الذى توليت الدفـــاع عنه فى هذه القضية درويشا للطريقة الخطابية ، وقد وجدت معه كناشة فيها

= (عن دور الهلباوى راجع كتاب « الشديد الحى ، عبد الفتاح عنايت » لابنته ابتسام ، الزهراء للاعلام العربى ، ط ١ ، سنة ١٩٨٧ ، ص ٨٦ ـ ٩٩) .

بعض الأحاديث النبوية وبعض أبيات من الشعر عن الجهاد ، فرأيت أن أستدعى الشيخ خطاب شاهد نفى على بعض الوقائع ، فقصدت الى بيته ومسجده ورجوته الا يكتم الشهادة ، فرفض الشيخ !

وزعم ابراهيم محمد أن الحاج أحمد جاد الله العامل بالعنابر كان يفرق المسدسات على العمال ويحضهم على استعمالها ، وكان جاد الله نفسه مسجونا ، فطلبنا احضاره شاهدا للنفى أو الاثبات فرفضت المحكمة لسبب غير ظاهر لنا فى ذلك الحين .

والحقيقة أنها أرادت أن تستبقيه ليكون خميرة للقضية الثانية التى نظرت فى سنة ١٩٢٦ وكان المتهمون فيها المرحوم الدكتور أحمد ماهر باشا وغيره من المشاهير والعظماء ، وقد حكم لحسن الحظ ببراءتهم لأن الدفاع أظهر مخزيات كثيرة للجواسيس الذين بلغ التلفيق منهم أنهم كانوا يدفنون بجوار منازل المتهمين صناديق ملآنة بالأسلحة والذخيرة لتكون أدلة على اجرامهم وهم أبرياء !

وفى ظنى هذه القضـــية الأولى التى تدرب فيها بعض رجال البوليس المصرى وصاروا بوليسا سياسيا بالمعنى المعروف الآن ، لأن بعض حيثيات البراءة بنيت على ظهور التلفيق .

وكان بطل الدفاع فى هذه القضية الأستاذ أحمد لطفى بك ، وقد لقى من العنت والمشقات ما أدى الى مرضه ثم وفاته بعد بضعة أشهر ، ولكنها على كل حال كانت سببا فى زوال الأكدار وحلول الصفاء بين الحزب الوطنى والوفد .

كان المتهمون فى قضية السردار تسعة ، أولهم عبد الفتاح عنايت وأخوه عبد الحميد وكلاهما من أصل أفغـــانى ، ثم العامل

ابراهيم موسى والمهندس الشركسى الجنسية محمود راشد والعامل على ابراهيم محمد وكان من نصيبى الدفاع عنه أمام المحكمة ، ثم راغب حسن وكان عاملا بالسكة الحديد . أما شفيق منصور فكان محاميا ودكتورا فى الحقوق وعضوا فى مجلس النواب وكان مرشحا لوظيفة مدير الأمن العام ، وقد رشح خلال سجنه للمجلس فى انتخابات سنة ١٩٢٥ فنجح ضد منافسه الذى كان حرا طليقا ، وكان أثناء المحاكمة هادئا ، فلما سجن وعلم باعتراف الأخوين عنايت عليه ، أدركه هزال شديد وتغيرت نفسيته واختل توازن عقله حتى صار كثير من كلامه لونا من الهذيان .

أما محمود اسماعيل فكان أظهر المتهمين كرامة ، متمسكا بموقف الانكار ، كلماته نادرة ونظراته هادئة ، واثقا من النجاة ولو فى اللحظة الأخيرة .

وكان شهود القضية خليطا من الانجليز والمصريين ، أولهم مستر كامبل ياور السردار وجليسه فى السيارة عند وقوع الحادث وقد أصيب فى صدره كما أصيب مارش قائد السيارة ، أما الشرطى محمود عبد الجواد الذى نال جائزة ألف جنيه مصحوبة بعيادة اللنبى وتهنئته بالمستشفى لأنه الشخص الوحيد الذى اقتفى أثر الجناة وأصابته رصاصة فى قدمه — فلم يتعرف على أحد منهم .

أما نجيب الهلباوى الذى حصل على اعتراف عنايت بحيلة بارعة استغل فيها ماضيه فى الاجرام السياسى ونال عشرة آلاف جنيه مكافأة على عمله ، فقد سرد طريقة اتصاله بالمتهمين ووقوفه على المعلومات التى أدت الى القبض عليهم وكيف أنه أحدث الرعب فى قلب ولدى عنايت فحاولا الفرار الى طرابلس الغرب متخفين فى زى عربيين مسلحين بنفس الأسلحة التى اقترفت بها الجريمة ، وكان ذلك سبب القبض عليهما واعترافهما .

كان اشتغال الشاهد نجيب الهلباوى بهذه القضـــية عقب خروجه من السجن مباشرة سنة ١٩٢٤ لأنه كان محكوما عليه فى قضية الاعتداء على السلطان حسين هو ومحمد شمس وصدر عنهما العفو ، وهو ما جعله موضع ثقة للمتهمين ومنهم الأخوان عنايت .

وشهد فى القضية أيضا أحمد أحمد حسنين الضابط بمدرسة الفنون والصـــناعات وكان شفيق منصـــور صديقه الحميم الذى لا يفارقه ، وقد أحدث حضوره بالمحكمة هرجا ولغطا لأن الجمهور كان ينتظر ألا يشهد هذا الصديق على صديقه الحميم .

وشهد محمود محمد غالى طبيب الأسنان ضد موكلى ابراهيم على محمد ، وكان المتهم قال انه فى يوم الحادث ذهب الى عيادة الطبيب المذكور ، فجاء هذا الشاهد ليكذب هذا الدفاع وينقضه . وقد احتدم الجدال بينى وبين هذا الشاهد وتدخل فى المناقشـة النائب العمومى كما تدخلت المحكمة ، وتلوت شطرا من المحضر الذى دونت فيه شهادة الطبيب ، فاعترض عليها فقال له رئيس المحـــكمة :

ـ اسمع يا دكتور أنت واقف أمام محكمة الجنايات وليس لك أن تتكلم الا اذا أذنتك المحكمة ، أما حضرة المحامى فانه يدافع عن متهم مطلوب الحكم عليه بالاعدام .

وشهد فى القضية أيضا الدكتور ســـدنى سميث الطبيب الشرعى المعروف فوصف اصابات السردار وأكد أن الوفاة كانت محتومة وأن المســـدس الذى أصيب منه السردار ليس فى العالم مسدس سواه يعطى شكل الاصابة .

وهنا دارت مناقشة بينى وبين الطبيب الشرعى حول الرصاصة المستخرجة من قدم السردار ومدى انطباقها على ششخنة المسدس المضبوط ، فقال رئيس المحكمة متحديا الدفاع : من فضلكم لا توجهوا أسئلة لا نتيجة لها . كما اعترضت المحكمة على توجيه بعض الأسئلة للشاهد ، وكانت حينا تقاطع الشاهد وحينا تتعجل اجابته وحينا تقابل السؤال بنوع من التهكم .

ولم يدم استجواب المتهمين وسماع شهود الاثبات والنفى سوى جلستين الا قليلا عقدتا فى يومى ٢٦ ، ٢٧ مايو سنة ١٩٢٥ .

وفى حوالى نهاية الجلسة الثانية وقف النائب العمومى محمد طاهر نور للمرافعة وكان يقرأ مرافعته على صورة خطابية مؤثرة من أوراق كثيرة أمامه ، فوصف السردار بأنه قائد جيش الأمة المصرية (كذا!؟) وأعلن أسفه على وفاته ، ووصف المتهمين بالأغرار المفتونين واستشهد بكلمة المرحوم مصطفى كامل « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » وقال انها شعار الأمة المصرية ، وقال ان الاجرام وقع على المصريين أنفسهم قبل أن يقع على سواهم وأن الاستقلال لا يكفى لصوننا ورفع مقامنا ، بل يجب أن نعرف كيف نصون استقلالنا ، ووصف شفيق منصور بأنه بطل هذه الحادثة وحامل لوائها الأسود ، وسرد تاريخه من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٩ وتأسيسه الجمعيات السرية التى من وسائلها العنف وسفره الى أوربا ونفيه الى مالطة وعلاقته القديمة بمحمود عنايت شقيق الأخوين المتهمين ، ثم انتقل الى الكلام عن محمود اسماعيل فقال انه يكره الانجليز كراهية متأصلة فى نفسه وتعلم الفنون الحربية والبرية ابان عمله بخفر السواحل وشهد مواقع كثيرة فى العراق مع الجيش البريطانى .

ثم تكلم عن الأخوين عنايت عبد الفتـــاح وعبد الحميد فقال انهما ضحية شفيق منصور ومحمود اسماعيل وضحية اهمال والدهما الذى تركهما غصنين رطيبين لعناية والدتهما وتزوج من غيرها ، وأن جميع أفراد هذه العائلة اشتغلوا بالسياسة منذ عهد بعيد وأولهم محمود عنايت الذى مات بعد الافراج عنه من الاعتقـــال بأشهر قليلة . أما عبد الخالق عنايت فقد سافر الى أوربا سنة ١٩٢٣ بحجة تلقى دراســـة الطب ولكنه كان يحضر مؤتمـــرات الشرقيين فى استكهولم وروسيا وله علاقات بالسوفيت ويتناول منهم مددا ماليا ولكنهم ينظرون اليه بعين الريبة لأنه وطنى وداعية للجامعة الاسلامية وشديد التحمس .

ومما يذكر هنا أن الصحف نشرت حوالى سنة ١٩٣٠ أن عبد الخالق ارتد عن الاسلام ودرس اللاهوت وانتحل اسما أوربيا وتخلى عن الجنسية المصرية .

ثم ذكر النائب العمومى أن سبب القبض على المتهمين تقرير قدم اليه بعد وقوع الحادث بأسبوع (٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٤) وأن المعلومات التى جاءت فيه أملاها نجيب الهلباوى على البوليس ، وخيرا فعل البوليس باختياره اذ لا يفل الحديد الا الحديد !!

ثم ذكر النائب اعترافات الشـــقيقين عنايت وشفيق منصور راشد وقال ان شفيق كان يستنهض همم والده وأصدقائه لمساعدته حتى يفوز فى الانتخابات ظنا منه أن فوزه يخلصه مما هو فيه .

وختم النائب العمـــومى مرافعته بقوله « لقد أجهـــدت نفسى حرصا على العدل وسمعة البلاد وقمت بواجبى ، فأطلب منكم أن تستأصلوا اليوم هذه الجرثومة الفاسدة بأشد ما فى القانون ، فليس فى ذلك قسوة اذ نحن فى ظروف عصيبة توجب ذلك » .

وقد كتب محمد بك مســـعود تقريرا عن القضية قدمه الى الحكومة فى حينه وأعطانى صورة منه سنة ١٩٣٦ أى بعد مضى حوالى احدى عشرة سنة من وقوع الحادث ، وقد تناول هذا التقرير وقائع جلســة ٣٠ مايــو ســنة ١٩٢٥ وهى آخر جلســة من جلســات المحاكمة ، ومما جاء فيه عن مرافعتى عن المتهم ابراهيم على محمد أن « لطفى جمعه استهل دفاعه بمقدمة استرعت الأسماع وحازت اعجاب الحاضرين جميعا حتى المتهمين أنفسهم ، وقد ظل يترافع نحو الساعتين طالبا البراءة لموكله فلم يجد اعتراضا على اسهابه من المحكمة لأن مرافعته كانت مرتبة تدلى مقدماتها الى نتائجهــا وقد تركت فى النفوس أثرا كبيرا لمصلحة موكله » .

وذكرت جريدة الأهرام عن مرافعتى فى القضــية أنه كان يتخللها نكات كثيرة أضـــحكت الحاضرين حتى المتهمين جميعا فى قفصهم . وكتب محمود عزمى فى جريدة السياسة يوم ٣١ مايو سنة ١٩٢٥ تعليقا على هذه المرافعة يقول « أنا اعتزم حصر ملاحظاتى اليوم على واحد من المحامين فقط هو الأستاذ لطفى جمعة ، لكننى مقتنع أن المحامين يعذروننى وقد حضروا الجلســة كما حضرت واستمعوا الى مرافعة الأستاذ كما استمعت ، وأرجو أن يكونوا قد حكموا كما حكمت أن ما تخللها من العبــارات اللطيفة والنكات الطريفة يصطحبها تلك الاشارات اللطيفة لا يمكن أن يسجل الا قائما بذاته ولا يمكن الا أن يفرد له يوم من أيام ملاحظاتنا .

« كان الأستاذ لطفى جمعه كثير الاستعارات والتشبيهات فى مرافعته ، لكنه كان رشيق التعبير ، وحدث أن وصف المتهم الذى يدافع عنه بأنه كان كشافا يحمل طبلا ونفيرا ويمسك نبوتا ويلبس بنطلونا قصيرا على الرغم من أنه سنى ملتح بدل أن يترك الكشافة لابنه ، فلفت أحد المحامين نظره الى أن الأمير الجليل عمر طوسون

هو « كشاف مصر الأعظم » ، فتلقفها الأستاذ لطفى جمعه وهى طائرة وقالها للمحكمة مضـــيفا ان الناس على دين ملوكهم فأراد ابراهيم محمد ـ وهو المتهم ـ أن يتمثل ويتشبه وأن يكون كشافا أصغر » .

***

ـ ٩ ـ

قضية القنابل سنة ١٩٣٢

ان هذه القضية ما تزال أضخم دعوى جنائية سياسية فى تاريخ مصر الحديث ، وقد استمر نظرها ستة أشهر متوالية فى الجلســـات ، عدا ســنة ونصف سنة فى التحقيق والاســتعداد والتأجيلات ، وكان قضاتها المرحوم محمد نور بك وابراهيم ثروت بك ومحمد نجيب سالم بعد فتحى محمود باشا غالب ، ورجل النيابة فيها محمود منصور ، وكان عدد المتهمين نحوا من ثلاثين منهم الطلاب والعمال والأعيان ورجال الأعمال وهى القضية الأولى التى ظهر فيها شاهد الملك علانية فى شخص ابراهيم الفلاح ، وقد ترافع فيها اثنان وثلاثون محاميا .

هذه القضـــية كانت ملفقة من أولها الى آخرها وقد اشتد ساعد البوليس السرى ونما وزكا كالزرع النابغ ، وأتقنوا نوعا من الاعتراف جديدا وهو الاعتراف الاتوماتيكى ، فابراهيم الفلاح يقول أنا ذهبت مع المتهم الثانى وفعلت كيت وكيت ، والثانى ـ وكان اسمه عبد الرسول ـ يقول أنا والمتهمان الثالث والرابع عملنا كيت

وكيت ، والثالث يقول عن الخامس والسادس وهكذا ، ولم يرحموا في نهاية الأمر الا الدكتور نجيب اسكندر بعد سجنه عاما ورجلا من أعيان بولاق وأعيان الوفد اسمه محمد حسن صاحب مطحن لأنه كان يتصدق على ابراهيم الفلاح لوجه الله لا ليتقى شره .

وفي آخر يوم سقطت القضية كما يسقط بيت مصنوع من ورق الكوتشينة ، واعترف الفلاح بكل شيء ، وكان يوما رهيبا ظهر فيه ثبات أخلاق بعض الرجال ، وحكم على الفلاح بالسجن سنة وقبض جائزة الألف جنيه التي وعد بها .

أما الدوافع فقد بقيت غامضة وان كان الدافع الظاهر هو الغضب على حكومة صدقي باشا ، أما الدافع الباطن فهو ارهاب الأمة واظهار حاجة الحكومة للبوليس السرى والتدليل على أن رجال الوفد هم الذين يحرضون على الجرائم .

وكانت المرافعات في هذه القضية نموذجية والقضاة من الطبقة الأولى ، وقد جلسنا نحوا من مائة وعشرين جلسة خلال ستة أشهر مستمرة ، وكانت الدعوى ملأى بالمفاجآت ، فقد طرأت خلال نظرها أحداث عديدة ، من ذلك تنحى رئيس المحكمة عن نظر القضية وانسحاب بعض المحامين من هيئة الدفاع فيها وشروع المتهم الأول ابراهيم الفلاح في الانتحار وعدوله عن اعترافاته وتقريره بأنها موعز بها اليه من البوليس .

ففي الجلسة الثانية من جلسات المحاكمة نشبت مشادة بين رئيس المحكمة محمود غالب وبين رئيس النيابة محمود منصور ، فقد أراد الأستاذ مكرم عبيد سؤال المتهم ابراهيم الفلاح ، فاعترضت النيابة على ذلك ودار بينها وبين رئيس المحكمة الحوار التالي :

النيابة : نعارض فى استجواب المتهم من الدفاع .

رئيس المحكمة ـ للنيابة أن تثبت ما تريده فى المحضر وأن تطعن فى الحكم أمام محكمة النقض ولكن ليس لها أن تعترض على الاجراءات التى تتخذها المحكمة .

النيابة : أطلب اثبات ذلك

الرئيس : أمرت المحكمة باثبات ذلك قبل أن تطلبه

النيابة : وأن يثبت أن النيابة تتكلم بهدوء وأن رئيس المحكمة يرد عليها بانفعال .

الرئيس : اثبت أننى رددت على النيابة بأعلى صوتى

النيابة : وأطلب اثبـــات اعتراضى على استجواب المتهم من الدفاع وأحتج على رئيس المحكمة لما وجهه للنيابة من اهانة !

عضو اليمين ـ هذا لم يحصل

الرئيس : فيه حاجة ثانية ؟

وهنا قال الأستاذ مكرم عبيد أرجو أن يثبت أن النيابة وهى تمنعنا من استجواب المتهم انما تخطىء فى تطبيق القانون وليس هذا من حقها سيما وأن هذا المتهم ـ ابراهيم الفلاح ـ ليس متهما فقط بل هو شاهد علينا ، فمن حقنا أن نستجوبه ، ومن جهة أخرى فهذا المنع معناه من الوجهة الموضوعية أن دعوى النيابة قبل المتهمين الآخرين لا أساس لها وأنها تخاف الاستجواب لأنها تخاف أن يظهر للمحكمة وللملأ أن الدعوى مبنية على أساس موهوم وأن الاثبات مبنى على التلفيق والتجسس من قبل هذا المتهم .

وهنا قال المتهم ابراهيم الفلاح « أنا موش عايز محامى ، أنا أتكلم بنفسى ، أنا مصمم على اللى قلته من أوله الى آخره ، وعايز دايرة ثانية تحكم لى ، وان حكمت الدايرة دى ما أقبلشى حكمها » .

وعاد رئيس النيابة يقول : لا يهم النيـــابة من اعتراضاتها الا تطبيق القانون وهى فى اعتراضها مستندة الى القانون .

رئيس المحكمة : هذا يكون أمام محكمة النقض .

النيابة : أنا أطلب اثبات كل ما أريد قوله بكل هدوء !

وهنا توتر الجو وتكهرب الموقف ورفع رئيس المحـــكمة الجلســـة .

وفى الجلسة الرابعة من جلسات المحاكمة تأخر انعقاد المحكمة على غير المعتاد وراجت الاشـــاعات بعد أن قيل ان رئيس محكمة الاستئناف والنائب العمومى قابلا وزير العدل .

وفى الساعة الواحدة دخلت هيئة المحكمة وطلب الرئيس من كاتب الجلســـة أن يثبت ما يأتى « قد اجتمع لدى من الأسباب ما يحملنى على التنحى عن نظر هذه القضية وأرى من الحكمة أن أمسك عن ذكر هذه الأسباب ويكفى أن أشير الى أننى لم أخضع فى تصرفى هذا الا لسلطان ضميرى وأبدى أسفى لما يترتب على هذا التصرف من تأخير النظر فى القضية حتى يعين من يخلفنى ، وبناء عليه قررت المحكمة تأجيل النظر فى الدعوى حتى يعين من يخلف رئيس المحكمة » .

وخلف المستشار محمد نور رئيس المحـــكمة زميله المتنحى محمود غالب .

وحدث فى اليوم السادس من أيام مرافعة الأستاذ مكرم عبيد فى القضية أن أرسل مكرم اعتذارا للمحكمة على لسان زميله سيد سليم لسبب عائلى ، ولكن المحكمة طلبت من المحامين أن يكونوا دائما على استعداد للمرافعة حتى لا تحصل مفاجآت قد يترتب عليها تأخير نظر القضية .

وعلى أثر ذلك قال سيد سليم المحامى بمكتب مكرم عبيد ان مكرم مستعد لاتمام مرافعته . فقالت المحكمة : الأستاذ مكرم يترافع فى دوره ، فاعتبر مكرم عبيد هذا الرد رفضا جارحا مهينا لكرامته وأبلغ محمد نجيب الغرابلى نقيب المحامين بذلك للعمل على ما يحفظ كرامته وقال له « ان عبارة تأخير مرافعتى منشورة فى الأهرام وهى تشعر باهانتى من المحكمة وأنا لا أقبل هذه الاهانة مطلقا وانى أبلغك بصفتك نقيبا للمحامين أنه يستحيل أن أحضر للمرافعة فى هذه القضية الا اذا كلمنى رئيس المحكمة بالتليفون ودعانى للحضور لاتمام مرافعتى » . وقابل الغرابلى هيئة المحكمة لتعدل عن قرارها حتى يستأنف الأستاذ مكرم عبيد مرافعته فى اليوم المحدد تجنبا لكل ما يثير الاشكال ويعطل سير القضية ، وقبلت المحكمة أن تعدل عن قرارها اذا طلب مكرم منها ذلك لأنه لا يمكنها العدول من تلقاء نفسها عن قرار أصدرته .

ووجد الغرابلى أن فى ذلك حلا مقبولا وأبلغ به مكرم عبيد ولكنه رفض هذا الحل وقال للغرابلى : « أنا أعتبر أن هذا اصرار من المحكمة على اهانتى وأبلغك بصفتك النقيب أنه يستحيل على مع هذه الاهانة أن أترافع فى القضية الا اذا اعتذرت لى المحكمة فى الجلسة العلنية » فقال الغرابلى « انى لا أرى فيما حدث أية اهانة تبرر أن أطلب من المحكمة اعتذارا بالجلسة العلنية ، والحل الذى قبلته المحكمة حل مقبول فى نظرى لأنه ليس فيما تقرره المحكمة بشأن أمر يقع فى اختصاصها اهانة على محام » .

ولكن الأستاذ مكرم أصر على موقفه ، ودعا الغرابلى مجلس النقابة للانعقاد مع باقى محاميى الدفاع فى القضية ، وحضر مكرم عبيد ضمن المدعوين وبعد أن شرح وجهة نظره رأت أغلبية المحامين الحاضرين أن لا اهانة فى تأخير مرافعة مكرم عبيد عن دوره ، ولم يشذ عن هذا سوى أربعة محامين من هيئة الدفاع هم زهير صبرى ومحمود غنام وسيد سليم ومحمد يوسف . واقترح البعض أن يحضر مكرم عبيد بالجلسة ولا يذكر شيئا عن قرار المحكمة ويقوم ويقول فقط أنا مستعد للمرافعة ، فاذا لم تجبه المحكمة الى ذلك يحتج وينسحب ثم ينسحب معه من يرى الانسحاب من المحامين . وعرض الغرابلى باشا هذا الاقتراح على هيئة المحكمة ، وانعقدت المحكمة فوقف الأستاذ مكرم عبيد وقال أنا مستعد للمرافعة بعد أن زال عذرى القهرى ، فسألته المحكمة عما اذا كان سينتهى من مرافعته فى ذلك اليوم فأجابها بأنها فى الغالب تنتهى فى نصف الجلسة المقبلة ولا يمكنه أن يعد بانتهائه من المرافعة فى اليوم المذكور . فانسحبت المحكمة للمداولة ، ولما أعيدت الجلسة نطق رئيس المحكمة بقرارها ويقضى بأن يترافع مكرم عبيد فى دور الدكتور نجيب اسكندر . وهنا طلب الأستاذ مكرم عبيد أن يثبت انسحابه من القضية وتنازله عن التوكيل بناء على هذا القرار الذى اتخذته المحكمة . وانسحب أيضا زهير صبرى وانضم اليه أغا ومحمود غنام . فبينت المحكمة أنها لم تقصد المساس بكرامة المحامين كما نفت المساس بكرامة الأستاذ مكرم ، ولكن الأستاذ مكرم أصر على الانسحاب وترك قاعة الجلسة ومعه أربعة من زملائه .

وبعد حادث الانسحاب طلب الى أن أقبل الانتداب عن توفيق العزب ، فطلبت امهالى لاستشارة بعض أصدقائى فى قبول هذا الانتداب ، فأشار على بعضهم بأخذ رأى الدكتور نجيب اسكندر وفى تلك اللحظة أقبل الدكتور نجيب اسكندر وابتدرنى

بالرجاء فى قبول الانتداب ، ووصل ذلك الى علم النقيب الغرابلى باشا ، فوقف الغرابلى وقال لهيئة المحكمة علمت أن الأستاذ لطفى جمعه يقبل الانتداب عن العزب ، فقال رئيس المحكمة لكاتب الجلسة اثبت انتداب الأســـتاذ لطفى عن توفيق العزب ، فقلت : هذا لا يمنعنى من الدفاع عن الدكتور نجيب .

الرئيس : أنت حر ونحن لا نمنعك من الدفاع عن الدكتور نجيب .

النقيب : المحكمة تريد تخفيف العبء عنك .

فقلت : اننى جئت هذه المحكمة لأكون بجانب الدكتور نجيب ولا يمكننى أن أتخلى عنه بأى حال من الأحوال .

الرئيس : وهو كذلك .

وبادرت الى الأســـاتذة المنســـحبين وهم زهير صبرى ورافع ومحمود غنام وأغا ورجوتهم رحمة بالمتهمين وضنا بوحدة المحامين أن تتصدع أن ينظروا فى الأمر ويتقدموا خطوة نحو السلام وتصفية الجو ، فاستلانوا لقولى وعلقوا قبولهم على قبول مكرم عبيد الذى كان حينذاك بالاسكندرية ، فعرضت عليهم السفر بنفسى والسعى لديه فوافقوا ، ثم لم يلبث أحدهم أن قال لا أظن أنه يقبل .

وقد بلغ عدد المحامين فى القضية أكثر من أربعة وعشرين محاميا انسحب منهم خمسة ، أما الباقون فمنهم كامل صدقى وسلامة بك ميخائيل وأنطون جرجس وسامى نجيب وعزيز مشرقى وميخائيل غالى وابراهيم الهلباوى وراغب اسكندر ويوسف الجندى وبسطا شــكرى وصبرى أبو علم وأمين عامر ومحمد احســـان وآخرون غــــيرهم .

أما المفاجأة الثالثة التى ذخرت بها هذه القضية فهى محاولة المتهم الأول فيها ابراهيم الفلاح الانتحار بالسجن بشنق نفسه ، فلما لم يبلغ مقصده أخذ يضرب رأسه بالحائط ثم صب على نفسه البترول المملوء به الموقد الذى كان فى غرفته لصنع الشاى والقهوة ، فلما حاول حراس السجن منعه استشاط غضبا وهاج واجتاحته ثورة عارمة وحاول خطف بندقية أحدهم فأطلق عليه كونتسابل رصاصة أصابته فى ذراعه الأيسر ونقل الى قصر العينى لعلاجه .

ولما تولت النيابة التحقيق فى هذا الحادث عدل عن اعترافه وأسند الى البوليس أنهم أوحوا اليه وحرضوه على صنع القنبلتين اللتين ضبطتا للايقاع بعبد الرسول وباقى المتهمين ، كما قرر أن البوليس أوعز اليه بأن يشهد زورا ضد الدكتور نجيب اسكندر .

ولم تر المحكمة عندما اطلعت على هذه الأقوال الجديدة بدا من أن تفتح باب المرافعة فى القضية من جديد بعد أن كانت قد حجزتها للحكم لتناقش المتهم فى هذه الأقوال .

وقد أثار نبأ تلك المفاجأة اهتماما عظيما فى انجلترا وانهالت المكالمات التليفونية على ادارات الصحف ووكالات الأنباء للاستفسار عن تفصيلات الحادث ، وتناقلت مراكز الأخبار الصحفية فى الخارج نبأ الافراج عن الدكتور نجيب اسكندر وبعض المتهمين الآخرين وفتح باب المرافعة فى القضية بعد قفله وتحديد يوم للنطق بالحكم نتيجة لعدول الفلاح عن اعترافاته وأقواله التى أدلى بها بوحى من البوليس وايعازه .

لقد كان ابراهيم الفلاح بطل هذه القضية الشهيرة ، لفقها وشهد فيها على المتهمين المظلومين ثم اعترف بالتلفيق ودحض أدلة الثبوت فى المحكمة ثم عفى عنه ونال جائزة مقدارها ألف جنيه بددها

واقترف جرائم أخرى ، وهو شاهد الملك فى هذه القضية على غرار النظام المنقول عن القضاء الانجليزى الذى يشجع الوشاية والتلفيق ويعطى جوائز لمن يفعلهما .

كان الفلاح أثناء المحاكمة يقاطع المحامين والشهود وقد تطاول على بعض المحامين ، فقد حدث أثناء مرافعة ابراهيم الهلباوى عن موكله عبده عبد الرسول أن قاطعه ابراهيم قائلا : ده متشطر على قوى . فقال له رئيس المحكمة : اسكت ما يصحش تقاطع ، وأنا قلت لك من الأول انك حتسمع كتير . وبعد فترة استأذن الفلاح فى الخروج فأذن له رئيس المحكمة فقال وهو خارج من قاعة الجلسة موجها كلامه الى الهلباوى :

ـ اتشطر على فاطمة سرى !

فانزعج الهلباوى وقال غاضبا :

ـ الله ! فاطمة سرى دى ايه كمان ؟ هو أنا باعشق نسوان ؟

كان الاتهام الموجه الى المتهمين فى هذه القضية ، أنهم صنعوا القنابل واستعملوها وفجروها فى بعض الأماكن وأطلقوا النار على بعض الشخصيات وعطلوا قطارات السكة الحديد وكونوا جمعية أطلقوا عليها اسم « جمعية الارهاب » وأن الدكتور نجيب اسكندر هو الذى يمول هذه الجمعية ودفع للعمال ثلاثمائة جنيه .

فقد حدث أن قام عمال العنابر والترسانة بالاضراب عن العمل فقامت الحكومة حينذاك ـ وكانت برئاسة صدقى باشا ـ برفتهم بسبب ما كان بينها وبين الوفديين من الخصومات السياسية، فقد غاظها أن العمـــال قاطعوا الانتخابات فاعتقدت أنهم يناوئونها

فى سياستها ففصلتهم انتقاما منهم وردعا لغيرهم ، وكان واضحا ان الزج بالدكتور نجيب اسكندر فى هذه القضية هو أنه كان وفديا ونائبا بارزا من نواب الوفد وكان على اتصال بالعمال المغضوب عليهم لتوزيع اعانات مالية عليهم ، وكان هو همزة الوصل بين هؤلاء العمال البؤساء وبين لجنة السيدات لمعاونتهم لما انقطعت بهم أسباب الرزق واشتد عليهم الضيق ، وقد تألفت هذه اللجنة برئاسة ام المصريين وجمعت المال وانتقلت الى أماكن هؤلاء العمال لتواسيهم وتعينهم ، وكان من بين أعضائها شريفة هانم رياض زوجة الوزير رياض باشا وزوجات العظماء والوزراء مثل خشبة باشا وبهى الدين بركات ومكرم عبيد وغيرهم .

لم تمض الا بضعة أشهر على اسدال الستار على هذه القضية حتى ظهرت فضائح اسماعيل صدقى ظهورا مخزيا ، فكانت فضيحة الكورنيش أضخمها وكان فشله فى مفاوضة وزير الخارجية الانجليزية فى جنيف ، وغضب عليه الملك فؤاد الذى كان يعتقد أنه اقوى سياسى فى مصر ونبذه نبذ النواة واقصاه وعزله عن السلطة وخلع من منصب الوزارة ولم ينفعه الا الأموال التى اغتالها واغتصبها بالحيل الذميمة ، فقد اتخذ القصور فى المصايف والمشاتى والذهبيات فى النيل والمساكن الأنيقة فى الضياع والابعاد ، وكانت له أثناء ذلك قصص ونوادر وتواريخ وأحاجى ، فكان عهده عهد من أدركته عمياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة ، وما ساق الله به خيرا قط ولا منع سوءا قط اللهم الا لنفسه ولذويه وعن نفسه وعنهم،ولايرون احد عنه أنه أنصف فى مسألة ولا أقام العدل ولو ساعة من نهار الا لذى هيبة ومكانة يرجوه او يخشاه كالملك او سفير دولة اجنبية او وكيل شركة عقارية او وسيط فى معاملة مريبة او دخيل يلتمس نفعا مؤاتيا مباشرا لقاء نفع مؤات مباشر ، وما يزال هذا الرجل يتدرج فى مراقى الثراء

المادى وينحدر فى مهاوى الفاقة الروحية ويكب على وجهـــه فى حضيض الانحطاط الخلقى ، وكذلك يفعل هو وأمثاله !

لقد اغتصب هذا الرجل منصب الوزارة فى صيف سنة ١٩٣٠ وقلب نظام الدولة وألغى دستور سنة ١٩٢٣ وأتى بالمظالم والمغارم فى ظل الملك فؤاد وأخمد أنفاس الحرية وتحكم بالقوة الغشوم فى مسالك الحق فى هذه الأمة الضعيفة ولم يجد من يقاومه ، واننى ألفت نظر المؤرخين ليتحفزوا لكتـــابة ما يجب أن يكتب عن عهد اسماعيل صدقى من صيف سنة ١٩٣٠ الى شتاء سنة ١٩٣٤ ، ولعل حياة أمثال هذا الرجل أن تكون أشد عذابا وتنكيلا له من مـوته !!



أعمـــالى فى خدمة نقابات العمال
فى القـــاهرة

فى سنة ١٩١٢ كانت هنا نقابة للعمال فى القاهرة أسسهـا المرحوم عمر لطفى ووكل أمرها لموظف فى العنابر كبير السنة طويل الأنياب أشيب الشعر أسمر اللون وكان هذا الرجل أبعد الناس عن فهم مسائل العمال ومشاكلهم ، فرجانى المرحوم عمر لطفى بك أن أتولى معونة الرجل فى ادارة شئون النقابة لوجه الله الكريم ، فقبلت عن طيب خاطر ، لأن الزعماء ظنوا أننى محب للخير وقاصد الى خدمة وطنى فى كل ناحية ، حتى اننى خاطبت المحاكم فى احالة أكبر عدد من قضايا المعافاة القضائية على مكتبى ، وهناك فى النقابة أعمال بر وتهذيب ومساعدة ، **فأقبلت على النقابة** ـ وكان مقرهـا باحدى عمارات الأوقاف بميدان العتبة الخضراء ـ **فأعطيتها كثيرا من وقتى وعقلى وقلبى ، وفرحت بها فرحا شديدا ، أليست عملا عاما مما تتوق اليه نفسى ؟**

وكنت أول ما وصلت من فرنسا الى القطر المصرى بدأت أكتب في الصحف فى خـدمة العمال ، واتجـه نظرى الى عمال العنابر بالسكة الحديد ، فخطبت وكتبت منذ سنة ١٩١٢ ، خطبت فى بولاق وفى اجتماعات عامة وفى مقر النقابة فى العتبة الخضراء ، فأحاط بى جيش من الجواسيس المعينين والمتطوعين ، جواسيس الحكومة والوكالة البريطانية ، وكان الحزب الوطنى ـ وهو حزبى ـ أول من أرســل رجلا مغربيا تاجرا أشهل العينين ، مضطرب الأعصـــاب

يتعقبني حيثما ذهبت لأخطب تحت ستار الاعجاب بي وطلبا للفائدة العقلية ، فكان في كل مرة يعود بخفي حنين لمن أرسلوه ، ولحظت أنه كان يكتب خطبي ولكن لا أراها منشورة في جرائد الحزب الذي أنتمي اليه . فلما عرفت حقيقته أغضيت عنه ، وفي احدى المرات تحريت أن أكتب خطبتي ، وقبل أن يبدأ بالتدوين في ضوء ضعيف قلت له « أرح نفسك يا محمد بك ، لقد كتبت لك الخطبة » وناولته اياها قبل أن ألقيها ليستمتع بالسماع ولو مرة واحدة !

وكان رئيس النقابة نفسه عينا وأذنا وقد درج على العمل في قاعة مغلقة ، فكان مجلس الادارة يجتمع سرا ، فلما صرت رئيسا عثرت على خطته في الاجتماع سرا بمجلس الادارة .

وبعد فترة يسيرة أخبرني ثقة أن اثنى عشر عضوا من الثمانية عشر جواسيس لجهات مختلفة ، على أن عملي لم يكن يتجاوز علاج عامل مريض أو دفن فقير أو مساعدة أرملة وأيتامها أو عقد قرض لعامل في ضيق ، ولا أذكر أنني تكلمت في غير هذه الدائرة ، ولكن عدد الجواسيس كان يتكاثر وينمو ونشاطهم يزيد ، فأدركت أن الروح النقابية أو الصالح العام بعيدان جدا عن تفكير العمال ، فلم أر الا وسيلة واحدة لاحباط أعمالهم وهي أن أفتح باب غرفة المجلس على مصراعيه وأبيح لمن يشاء من الأعضاء وانجاز الأعمال في وضح النهار لأقضي على مظاهر السرية فلا يملك أحد من الأعضاء المتجسسين أن يزعم نقل خبر ، لأن كل ما يحدث ويدور انما يقع بمشهد ومسمع من الجميع وعلى رؤوس الأشهاد ويسجل في دفتر معروض لأنظار الجميع .

فلما تم ذلك أخذ أعضاء مجلس الادارة يقل حضور كثير منهم ولا سيما الاثنى عشر — يخف لأعذار واهية .

ثم ظهرت لجنة اسمها « تقويم اعوجاج النقابة » ، وكان دأب هذه اللجنة أن يخطب أعضاؤها فى كل لحظة وفى كل موضوع وفى كل مناسبة ، فلما رأى الرئيس المتقدم فى السن أن دوره بطل وأنه لم يعد صالحا للادارة انسحب وترك العبء على كاهلى فاحتملته واستمررت فى هذا العمل عاما كاملا أديت فيه ما استطعت داخل النقابة وخارجها وفى قضايا العمال الخاصة ، وهم من عرفت حالهم ، فكان على أن أخدمهم وأعينهم ، وقد صلحت الأحوال بعض الصلاح .

وحدث أننى سافرت فى نهـــاية العام الى أوربا للاستشفاء ولأؤدى امتحان الدكتوراه فى كلية الحقوق بليون وعدت بعد ثلاثة أشهر ، وفى اليوم الثالث ذهبت الى النقابة فوجدت جمعية عمومية لانتخاب مجلس الادارة والرئيس ، وكان حضورى مصادفة ولم أكن أعلم باجتماع الجمعية العمومية ، فلما دخلت سمعت هتافا وتحية ، ثم رأيت وجوما وارتباكا ، فجلست فى احدى الغرف ، ثم سمعت جدالا ونقاشـــا حاميين ، فســألت عن السبب فقيل لى ان رئيس الاجتماع عندما علم بحضورك فض الجمعية العمومية وأجل الانتخابات الى جلسة أخرى وأنهم يرشحون شخصا مريبا لا علاقة له بالعمال، فسألت عنه فقيل لى انه محمد البندارى المحامى وهو شخص لا يمت للعمال ولا للأحزاب ولا للحياة العامة بأية صلة وأنه مرشح البوليس وقد رشحوه لأنه مأمون العاقبة وأما أنا فنسبوا الى التهييج والعمل على الثورة !

وتطوع شخص فروى لى أمورا عجيبة أثناء غيبتى القصـيرة وقال لى : أتدخل معركة الانتخابات يا أستاذ ؟ . قلت له : اننى لم أتقدم لهذا العمل لدخول معركة انما أؤدى واجبا ظننت أصحابه اختارونى لصلاحية معينة ، فاذا رأونى أزاحم غيرى عليه حسبوا أن لى فائدة ، وبما أن هذا غير صحيح فالأولى لى أن أعتزل .

قال لى : ألا ترى نفسك أقدرهم على القيام بهذه المهمة ؟ ٠ قلت : لا ولكن العمال وزعماءهم هم الذين رأوا ذلك ٠ قال : ان المرحوم عمر لطفى بك توفى وفلت زمام النقابة من يد العقلاء وأصبحت موضوعا للمضاربة ، ظنا أنها توصل الى مراكز سامية ، فزعيم العمال يكون أبدا مسموع الكلمة ، وقد تعرض عليه الحكومة وظيفة لتضمن سكوته وعدم تدخله ، ولذا جاء البندارى (الذى كان يرأس الاجتماع) وخطب وأخذ يغمض أجفانه ويرفع حاجبيه ويلين تارة ويشتد أخرى ويمد فى ألفاظه وله غنة غريبة وأناقة خاصة وعطور فائحة فلم « يدخل فى مزاج العمال » ، ولكن تيار الضغط قوى عليهم من جهات عليا لينصبوه عليهم أرادوا أم لم يريدوا ، ولذا اقترحت عليك دخول الانتخابات فتفوز ، ولكن أنا أعلم أنهم سيضعون الأشواك فى طريقك ، وانما يفديك العمال بأرواحهم ، والحقيقـة أن العمال « كلمـة توديهم وكلمـة تجيبهم » لأنهم ضعفاء وفقراء وجهلاء ، فيجب أن تصبر عليهم وتعاملهم كالسنة الماضية ، ان جهة كذا تنذر وتهدد وجهة كذا تشجع الشخص الجديد وتمده ، وجهة كذا تضعه تحت التجربة ٠

فقلت له : كفى ! أهى معركة وترلو ؟! ٠ قال : أعلم يا سيدى أن حركة العمال منظور اليها بعين الاهتمام ، وأن الجهات تخشى أن يكبر أمرها ويستفحل فتشمل جميع الطبقات الفقيرة وتبدأ نضالا لا يقل عن نضال الطبقات فى أوربا ، وأنا أعلم أنها لن تسفر عن شىء مطلقا لأن النفوس هنا غير النفوس فى أوربا ٠

فنظرت الى الرجل وتخيلت أننى أرى فى وجهه أثارة من شبه آزيف السياسى المزدوج الوجه أول من أطلق عليه وصف « ايجان بروفا كاتور » ، ففطن بسرعة الى سوء ظنى به مع سابق معرفتى ، فقال :

ــ أنت لا تصدقني وقد تسيء الظن بي لأنني أطلعك على كل شيء ، ولكن ستثبت لك الأيام صدق كل حرف من كلامي ، فان كنت تريد النضال ، فناضل ، وان كنت تريد أن تعرف خواتيم الأعمال قبل بدايتها فها أنا ذا شرحت لك ، وقد عملت في كل عمل ووقفت على حقائق الأمور لا أريد أن تتحطم آمالك على صـــخرة الكيـــد والدسيسة ، فاختر لنفسك ما يحلو ·

قلت له : وبم تشير علي ؟ · قال : حاول دخول الانتخاب · قلت : وهو كذلك · قال : ان الانتخاب قد حددوا له يوم الجمعة المقبل ، بيننا وبينه ستة أيام فاستعد له · وانصرفنا ·

والحق أقول ان هذا الرجل كان صادقا وقد دامت صلتي به عشرين عاما وكان شريفا طاهر اليد ، شديد الذكاء كثير التجربة ·

وفي اليوم التالي قرأت في الصحف خبرا يقف له الشعر وهو أن الجمعية العمومية لنقابة عمال العنابر قد اجتمعت في الساعة كذا من يوم كذا وانتخبت بالاجماع (كذا) فلانا رئيسا ، وهو الشخص ذو العينين الناعستين والمناديل المعطرة ، وفلانا (وهو الشيخ الذي انسحب وهو موظف) وكيلا وآخرين أعضاء مجلس الادارة ، وقد تبـــودلت الخطب والتهاني ودارت أكواب الشراب والحلوى ···· الخ ·

والمدهش حقا أن هذه الساعة وهذا اليوم المذكورين هما اللذان كنت جالســا فيهما في غرفة النقابة بعد فض الاجتماع وتأجيل الانتخابات وانقسام الأعضاء !

وكان هذا أول تزوير في الحياة العامة رأيته بعيني وشهدته بنفسي ، وأول مداجاة ونفاق وخداع أذاعته جريدة في شيء لمسته

وكابدته ، حتى ليكاد المرء يكذب نفسه ويتوهم أنه كان فى حلم لا فى حقيقة !

وسرت فى الطريق بضع خطوات الى مكتبى الذى كان فى شارع البندق نمرة ٢٥ تجاه الباب الخلفى لبناء الأوبرا الخديوية ، واذا بالرجل يلاحقنى وهو الذى تحدث الى فى الانتخابات أمس ، فلما رأيته قلت هذا المحك الأخير على سير الحوادث وأننى لست حالما ، فابتدرنى بالتحية وبيده جريدة وقال : ألم أقل لك ، ولكن الحيلة تفوق الخيال وتعصى على الفكر ، لم يخطر ببالى مطلقا أنهم يلجأون الى هذه الطريقة .

قلت : والعمال أنفسهم ماذا يقولون ؟

قال : عمال ! انهم يعتبرونهم قطيعا ، فالمدركون يوعدون أو يهددون بالطرد أو الرفت والبقية يقولون « ربنا يولى من يصلح ! » أو « اللى يتجوز أمى أقول له يا عمى !! » ، وعلى الله الشفاء ، لقد أراد الله بك خيرا ، لقد أظهرت نيتك وعزمت على النضال فكفاك الله شر القتال ، لأنه لم يكن ليسفر عن خير ، وانك الآن لو ذهبت زائرا أو ضيفا أو مهنئا فلعلهم يغلقون الباب فى وجهك !

قلت له : قل غير هذا يا رجل ! ان فلانا الذى انتخب رئيسا صديقى على الرغم من « تسبيل جفونه » وتعطير ثيابه ، وهو رجل مهذب .

قال : قد يكون شقيقك !

وعلى كل حال فقد استمررت فى خدمة العمال أدبيا عن كثب .

وفى سـنة ١٩١٩ تقدمت الى نقابة عمال الترام بواسـطة سكرتيرهم وهو رجل ايطالى وعرض على مرتبا شهريا فاعتذرت وقلت له : اننى مستعد لخدمتهم بغير مقابل • فقـال لى : ان المصريين لا يقدرون الرجل الذى يخدمهم بغير مقابل الا اذا كانت له أغراض ، فالأفضل أن تقبل المرتب ، واذا أردت فتبرع به لناحية بر •

وفى سنة ١٩٢٢ وقع فى أيديهم المرحوم الأستاذ محمد كامل حسين فذاق المر ثم أوردوه موارد الهـلاك بعد أن أنفق كل ماله وذهب عمره •

وفى سنة ١٩٣٩ تقدم الى عمال ترام القاهرة عن يد على شوقى باشا ، فعاونتهم مدة طويلة ثم ظهر لى أنهم أعوان للشركة والبوليس السرى وأضرب بعضهم عن الطعام •

وأخيرا ظهر الأمير عباس حليم ! ؟ •



التكوين الروحى

(١)

يسألونك عن الروح[1]

الأشباح والأحلام والكونت دى جلارزا

انشغلت بالتفكير فى العالم العلوى فى الرابعة عشرة من عمرى ·

لا يوجد ما يدعو الى المبالغة فى هذا الأمر بعد أن تعديت الخمسين ، وليس فى هذا ما يدعو الى الفخار فى عالم مادى شغلته مشاغل أخرى وقد ينظر فيه الى تقرير مثل هذه الحقائق بعين الازدراء أو على الأقل بابتسام الريبة والظنون ·

وأصل تفكيرى يرجع الى اكتشافى أن الأرض ما هى الا كوكب سيار من سبعة كواكب سيارة ، وكان ذلك فى سنة ١٨٩٩ قبل أن تكتشف سيارات أخرى ، فشغفت بدرس الفلك ، ولما أقول الفلك أقصد الى أننى قرأت كتيبا صغيرا من تأليف عالم هولندى اشتغل بالتعليم فى كلية بيروت الامريكية اسمه كرنوليوس فانديك ، وهو والد ادوارد فانديك الذى تعلمت عليه دروس الترجمة بعد ذلك بعامين · وهذا الكتيب واحد من سبعة اسمه « النقش فى الحجر »

---

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من المذكرات سنة ١٩٤٢ ·

فى المنطق والفلك وغيرهما من العلوم التى كانت تتوق اليها نفسى ولا أطولها فى التعليم الابتدائى ٠

وسكنت فى أعلى طبقة فى منزل ، فاصطنعت نوعا من « التلسكوب » لأرقب الكواكب ، وكانت الفكرة فى ذاتها صبيانية ومضحكة ، ولكنها دلتنى على اتجاهى ، فصنعت لنفسى نظرية عقلية وهى أنه ما دامت الأرض كوكبا سيارا ، وهناك فى السماء سيارات أخرى وألوف الكواكب التى لا تحصى ، فما الذى يمنعها من أن تكون مسكونة بكائنات على شاكلتنا أو على غير شاكلتنا ؟ ! ٠ وما دام الله خالق هذا الكون كله ، فليس من المعقول أن يعنى بكوكب واحد ليس أكبر الكواكب ولا أعلاها ولا أسرعها ويترك بقية الكائنات السماوية خالية ، ولم يخطر ببالى أن أهل الأرض أرقى جميع المخلوقات قط ٠

وهذه أفكار وردت على عقلى من تلقاء نفسها ، فلم ألتمسها ولم أبحث وراءها ولم أطل التفكير فيها ، ثم وقفت عند هذا الحد — وقد قوى الفكرة فى ذهنى بعد حين ، ظنى أن فى العالم الأرضى نفسه كائنات لا نراها ، ولا بد أن أقوال الناس وقراءة بعض القصص كونت فى نفسى عقيدة عن هذه الكائنات التى لا ترى ٠

ولاحظت فى صلاة بعض أقاربى أنهم يلقون السلام ذات اليمين وذات الشمال عقيب كل صلاة ، فسألت عن السبب فقال ان على كل كتف ملكين ، الأيمن يعد الحسنات ، والأيسر يعد السيئات ٠ وإذن يكون الدين الذى أعتنقه يقتضى أن أصدق بوجود كائنات لا ترى تلازم الانسان فى رواحه وغدوه وتستحق التحية بعد كل صلاة ٠ فاذا صدقت القصص — ولا سيما ما قرأت فى سيف ابن ذى يزن وألف ليلة — عن وجود الجن والمردة ومعونتهما للانسان أو معاكستهما اياه ، فلابد من وجود هذه الكائنات غير المرئية ٠

ثم سمعت من احدى النساء وصف حفلة « زار » ، فحتمت أن أراها ، فرأيت فيها مناظر بشعة تدل على الهمجية،فيها ذبح طيور وحيوان وتلطيخ أيد بالدماء ، ثم التنادى بمخلوقات خفية بأسماء غريبة وتنسب الى بلاد مختلفة كالهند والسودان والحبشة ، وفهمت أن هذه الشخصيات المستخفية تمس بعض النســـاء أو تحتازهن وتتحكم فيهن فى الصحة والمرض ، وتحتم أن تجرى لها رسوم وثنية كتقديم الضحايا ودق الطبول واعداد ملابس معينة ومصوغ غال وايلام ولائم وهكذا .

نعم قيل لى انها خرافات وأعمال مخالفة للدين والآداب ، وأنها وثنية الأصل ، فاعتقدت ذلك ولكننى زعمت أنه لابد أن يكون لها أصل فى التاريخ أو الحالات الروحية لهؤلاء النسوة ، وكنت لا أعرف فى ذلك العهد شيئا عن علم النفس أو أمراض الجهاز العصبى أو التنويم المغنطيسى .

وكانت الحوادث تجرى سراعا ، فلما بلغت القاهرة لأدخل فى المدرسة الثانوية ، فقد لنا شىء ثمين ، فدلونا على امرأة اسمها الشيخة « رمانة » كانت تقطن حى باب اللوق ، فذهبنا اليها وقد صممت على أن أنظــر اليها عن كثب وأدرس وسـيلتها وأكشف حيلتها ، اذ ثبت فى ذهنى قبل رؤيتها أن عملها لابد أن يكون نوعا من الخداع والرجم بالغيب ، وكان فناء هذه المرأة مزدحما بالرجال والنساء من كل الطبقات ، وكان أجرها قرشين ، فلما جاء الدور علينا نظرت الى المرأة ــ وكانت فى الأربعين من عمرها ضئيلة البدن ، نظيفة الثياب ، متحلية بمصوغ وعليها هيئة الذهول ، وعيناهــا نصف مغمضتين ــ فوضعوا بخورا فى مبخرة أمامها ، فلما صعد الى أنفها انقلبت تتكلم بلسان طفل وصوت الطفل ، فقالوا هذا هو الشيخ الذى يصحبها ويطلعها على الخفايا . فكان أول ما تكلمت

أن نظرت الى ونطقت باسمى ، فلم يدهشنى ذلك ، ثم قالت بلهجة الطفولة : جئتم لتسألوا عن شىء مفقود وهو طويل ونحيل وله يد ملتوية هو عصا ، فدهشت لأن الشىء الفاقد كان كما ذكرت المرأة . ثم استرسلت « انه فى المنزل فى الدور الأعلى تحت السرير ، تحت المرتبة » فخرجنا وأنا أعلم يقينا أن أحدا ممن كانوا معى لا يعلم موضع العصـــا والا ما تعبنـــا فى المجىء اليها ، ولما بلغنا المنزل بحثنا فى المكان الذى عينته ، فوجدنا العصـــا ، فكان هذا الأمر حديثنا يوما أو بعض يوم ولم نفكر فيه بعد ذلك .

ومضت فترة طويلة ، وقابلت رجلا حليق الشاربين واللحية ، خفيف الروح ، يلبس ثيابا عجيبة وبيده عصا صغيرة ، وهو يتحلى بخواتم وعلى رأسه طاقية غريبة الشكل،فقصد الى ــ ولم أكن رأيته من قبل ولم أره بعد ــ فقال لى « أنت يا فلان لقد نجحت فى كذا وكذا ، فافرح ولا تحمل هما » . ثم انصرف ، فقال لى أحد الحاضرين « انه ولى وصـــادق ومكاشف » Clairvoyance أى مطلع على الغيب !!

كانت هذه بـداية التفاتى الى عالم الخفـاء ، وظنى بأن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن الشاعر لونجفلو الذى حفظنا له فى المدرسة مقطوعة شعرية قد أشار الى هذا اشارة واضحة عندما قال :

أنت تراب والى التراب تعود

ولا دخل للروح فى هذا

فليست الحياة حلما فارغا

وليست الروح الى الزوال

ان الروح خالد باق

وظواهر الأشياء لا تدل على بواطنها ٠

وعجبت أن شاعرا آمريكيا مسيحيا ينطق بهذا الكلام الذى كنت اظن فى حداثتى أنه من اختصاص الاسلام ٠

كنت فى تلك الفترة أقرأ كل شىء يقع لى ، **ولا أدرى كيف وصل الى يدى كتيب اسمه « الدر المنثور فى أخبار أهل القبور » ، فقرأته فاذا هو ملآن بالعجائب عن خروج الروح من البدن وقت الموت ومراقبتها الجسم ، وحزنها من بكاء الآهل ، وفرحها بالخلاص ووحدتهـــا واستعدادهـا للسياحة فى بطن الأرض أو فى ملكوت السماء** ، وكان ثمن هذا الكتاب مليما واحدا ، وأن الذى وضـعه مؤلفه فيه لا يختلف كثيرا عما أثبته العلم التجريبى بعد قراءتى اياه بأربعين عاما ، فمن كان يعرف هذا الكتاب فليقرأه ليقارن بين مادته وبين ما دونه علماء الروحية فى العصر الحديث ، وهناك أدلة قاطعة على أن مؤلفه ـ وهو شيخ غير معروف ـ لم ير ولم يسمع شيئا عن تحضير الأرواح على أيدى الوسطاء وسؤالها وجوابهـا وتحرير محاضر الجلسات بعد التحقق والمراقبة الشديدة ٠

ولكن العلوم الحقة التى تلقيتها فى المدرسة الثانوية وآداب اللغـات والرياضيات والتاريخ والكيمياء والطبيعة حـولت نظرى وشغلت بالى عن كل ما عداها ، فما كان لطالب فى المدرسة التجهيزية (كما كنا نسميها) أن يلهو بالبحـوث الروحية ، وكنت أجتمـع بمشايخ وطلاب أزهريين ، فلم يخطر ببالى يوما أن أسألهم فى شىء من هذا ، بل كانت مساجلاتنا فى الأدب العربى ومطارحات الشعر ٠

وحدث أن قرأنا فى كتاب المحفوظات المدرسية جزءا من قصة « هاملیت » التمثيلية على يد أستاذ اسمه « ادجار » وكان شابا انجليزيا ذكيا مطلعا ، فلما وقع بصرنا على كلمة شبح Ghost

التى تمثل والد همليت . سألناه عنها ، وسألته أنا بالذات : هل يعتقد الانجليز فى وجود الجن والعفاريت ؟ . فقال لى : كان شكسبير يعتقد ذلك ، وعلى كل حال فالقصة دنمركية جرت وقائعها فى هلزنجفور عاصمة دنمارك من سنين طويلة . وليس شكسبير سوى شاعر .

فنهض تلميذ اسمه محمد عفيفى (ولا أدرى أين هو الآن) وكان متأنقا فى ثيابه وكلامه ويقول دائما انه يعرف أكثر مما نعرف فقال للأستاذ : ما معنى Haunted-House أى البيت المسكون ؟ . فابتسم الأستاذ وقال له : أين قرأت هذه الكلمة ؟ . قال : فى صحيفة انجليزية . فتعلقنا بأهداب هذا السؤال ، فقال الأستاذ : اقرأوا الشعر أولا وأنا أجيبكم بعد ذلك .

فلما فرغنا من الشعر ، قال : يعتقد كثير من العجائز (كذا) والجهال أن بعض القصور القديمة فى أرياف انجلترا — وهى التى حدثت فيها حوادث مفزعة أو جرائم خفية أهرقت فيها الدماء — تلازمها أرواح القتلى الذين اغتالهم أعداؤهم أو دفنوا جثثهم فى الجدران ، فتظهر بما كانت عليه فى هذه الحياة وتصيح أو تتكلم أو تؤذى السكان ، ولكن هذه أمور لم تثبت صحتها ولا يجوز لكم أن تنشغلوا بها .

فأجاب محمد عفيفى الذى كان مسحوبا من لسانه : سواء ثبت أم لم يثبت ، فان ثبت فان عندكم عفاريت مثلنا ، وهذا ما لم نكن نعلمه ، وان لم يثبت فأنتم تعتقدون بالخرافات كما نعتقد ! . فأمر الأستاذ — وكان وديعا جدا — باخراجه من الفرقة . وانتهى الأمر فى هذا اليوم ، ولم أعد أفكر فيه حتى سنحت لى فرصة بعد أشهر ، فشهدت تمثيل همليت على مسرح مصرى ، ولا تسأل عن

دهشتني عندما فهمت معنى ظهور الشبح واتصـــاله بابنه هملت وأصدقائه في الهزيع الأخير من الليل وشرح حادثة مقتله وكشف الستار عن جريمة حدثت في القصر الملكي وخيانة الزوجة والأخ ، وان تكن هذه الواقعة قد أفادتني شيئا له قيمة ، فتعريفي بمؤلفات شكسبير ، فقد قرأت هملت ويوليوس قيصر وانطوني وكليوبطره في عام واحد ، وكان للمستر « ادجار » فضل في ارشادي الى مطبوعة مشروحة ومفسرة جلت غوامض هذه اللغة العتيقة وذلك الشعر غير المقفى ، وأظهرت لي جمال فن هذا الرجل القدير ، وليم شكسبير .

وحدثت لي بعض أحلام سارة ومسيئة كنت أنساها عند اليقظة ، وكنت أرى أوجه بعض المؤلفين الذين أحب كتبهم ، وبعضهم موتى وبعضهم أحياء ، فلا أجعل لذلك شأنا ، الى أن رأيت رؤيا واضحة تحققت بعد أيام فدونتها ، وأخذت أسأل بعض اخواني فروى لي بعضهم رؤى له تحققت ، بعضها سار وبعضها محزن .

وكنت أحيانا أشعر بأشياء قبل وقوعها كوصول قريب من سـفر بعيد أو مرض صديق أو حدوث أمر سـار أو رؤية أسئلة امتحان مكتوبة ، فتتحقق الرؤيا فأخفيها وأحرص عليها ، فسألت أستاذا من أساتذة اللغة العربية فقال لي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصادقة جزء من ثلاثة وأربعين جزءا من النبوة »، ودلني على كتاب ابن سيرين فرأيته ضخما ومرتبا على حروف المعجم ، فقلبت صفحاته وعجبت الصور التي ولدها خيال المؤلف في كل ما يراه النائم ، وعلمت أن الأحلام عالم قائم بذاته ، تتيه فيه العقول ، فأعرضت عن الكتاب وتركته وقلت ان الانشغال بالحقائق الراهنة أولى وأجدر من فحص هذه السياحات الليلية ، وانشغلت بما يشغل به الشباب .

ولقننا الشيخ طنطاوي جوهري مبادىء الفلسفة الاسلامية من كتاب « احياء العلوم » و « مقاصد الفلاسفة » ، وبدأ هو يدرس اللغة

الانجليزية ويقرأ كتبا فيها ، ثم فكر في تفسير القرآن فكنت أعينه بنسخ ما يكتبه .

وفى يوم دار الحديث بينه وبينى فى منزله بقلعة الكبش — وكان رجلا عالما عاقلا منشغلا بالعلم ، لاهيا عن الدنيا ، وكنت أحبه كثيرا وأقدره وأعتب عليه فى قلبى اهماله علوم النحو والصرف والبلاغة فى دروسه — فقال لى : ان الذى أعلمكم اياه أفضل وأنفع . والنحو سهل ، والصرف قواعد جافة ، والبلاغة ذوق ، فما حاجتكم اليها وأنت على الخصوص ؟ . فاذا كتبتم فى الامتحان موضوعا جيدا نجحتم ، واذا حفظتم عن ظهر قلب كتاب ابن سيبوية وألفية ابن مالك ومقامات الحريرى فلن نجديكم شيئا ، لأن العلم والأدب استعداد لا اكتساب ، ولو بقيت واكتفيت بما تعلمته فى الأزهر ودار العلوم ، لبقيت كاخوانى ، ولكننى اكتشفت على يد الشيخ حسن الطويل ما هو أغلى وأنفع وأبقى .

ثم قال لى : كنت تسألنى عن الرؤيا الصادقة . وفاتنى أن ألفتك الى ما ورد فى القرآن عنها ، ألا تذكر سورة يوسف ، انه نبى الأحلام ، لقد آتاه الله معجزة تفسيرها تفسيرا صادقا ، لأن الأحلام لا ترد على صورتها الظاهرة بل تكتنفها الرموز كحلم فرعون وأحلام الخادمين فى القصر . قلت له : وما تفسير ذلك ؟ . **قال : سمعت الشيخ محمد عبده يقول فى بعض دروسه « ان للنفس رجوعا الى الماضى واشرافا على المستقبل » ، فاقرأ له « رسالة التوحيد » .**

وكانت هذه هى المرة الأولى التى سمعت فيها باسم الأستاذ الامام ، فعولت على قراءة رســالة التوحيد . ثم قال لى الشيخ طنطاوى : اقرأ مقدمة ابن خلدون واقرأ مؤلفاتى « جواهر العلوم » و « ميزان الجواهر » .

ثم انشغلت بما يشغل به الشباب من تحصيل ولهو برىء وتطلع الى المعرفة ، واشتغلت بابن رشد والمعرى وابن سينا ورباعيات الخيام **ومجلة المجلات الانجليزية ، فوجدت فى هذه المجلة بحوثا عجيبة عن بقاء الروح وخلود الروح والاتصال بالأرواح ، وأن صاحبها المدعو ويليم برستيد قد أسس فى ادارته مكتبا لمن دعاها « جوليا »** ، وأخذ يكتب هو أو سواه ـ لا أذكر الآن لأن هذه الحوادث ترجع الى سنة ١٩٠١ أو سنة ١٩٠٢ ـ عن « الشخصية الانسانية » ٠

ومرت فترة طويلة وأحداث جسام فى حياتى بين النجاح والفشل والأفراح والأحزان والآمال والخيبات والميل والاعتدال ، الى أن كانت سنة ١٩٠٨ وكنت فى مدرسة الحقوق طالبا فى السنة الأولى ، وكنت فى ضيق شديد وحيرة ووله وزعزعة واضطراب وارتباك ، وكانت عشية أحد الأعياد الاسلامية ، وكنت أستقبل هذه الأعياد دائما بوجوم ويأس لأننى فقدت المرح بها ففقدت معناها ، ولم تكن لها قيمة عندى الا بزيارة قبور الموتى الأعزة الذين واريتهم التراب ، وكانت هذه الزيارات تجدد أحزانى ، وكنت اذ زرت قبرا عزيزا لدى فى فجر يوم شديد البرد أن خلعت معطفى وغطيت الأحجار اشفاقا على المدفون فيه وأنا أعى تمام الوعى أنه عمل صبيانى ولا معنى له ، ولكننى شعرت بعده بارتياح عظيم ، فأصبحت الأعياد عندى أشبه بالمآتم منها بالأفراح ، وما زلت كذلك الى آخر حياتى أجدها أياما فارغة خالية من كل معنى ولا أعتبرها أياما عدة بل ساعات محدودة وأقضى بقيتها فى الدرس أو الراحة ٠

ففى احدى ليالى هذه الأعياد الخلية من المعانى ، كنت أسير فى الظلام والبرد ، منهوك القوى ، منشغل البال ، شديد الكرب ، توهمت أننى رأيت شبحا حائرا يتبعنى أو أتبعه ، وتارة يلازمنى ويستولى على ذهنى ويوجهنى ، وما يزال كذلك ساعات ٠

وفى اليوم التالى قابلت صديقا لى فدعانى الى زيارة رجل عجيب الأطوار فى أحد فنادق القاهرة الكبرى اسمه «أحمد الغرض» ، فلما وصلنا اليه وجدت رجلا لا يمكن تحديد عمره يلتحف معطفا من نوع « الحرملة » أسود اللون ويتلفع بأطرافه الضافية ويتكلم لغات عدة وينطق بهدوء بالعربية الفصحى واسمه « **كونت دى جالارزا** » **الاسبانى الأصل ووارث مناجم الفضة والزئبق ، اسلامى الثقافة ، وهو منشغل بدراسة الأرواح ، فكان كشفا غريبا لى ، وكان حديثه يدور على التقمص والتناسخ وأنه على اتصال دائم بالأرواح وأنها تزوره وتكتب له رسائل على آلة من اختراعه اسمها « غرضمو متر » ، وأن بعض هذه الأرواح دلته على كنوز ثمينة فى سفح الأهرام ، وأن بين يديه وثائق فرعونية تؤيد هذا الالهام ، ولكن منظر الرجل وحديثه وأصدقاءه وتفكيره لم يرقنى منها شىء** وقد صار هذا الرجل بعد ذلك أستاذا للفلسفة فى الجامعة المصرية وقد وضع كتابا وخرج تلاميذ وأقيمت له حفلة تكريم وله صورة شمسية مع سعد زغلول باشا ، وقد حدث له ذلك بعد أطوار عجيبة ربما ذكرتها بالايجاز (١) .

---

(١) اشار لطفى جمعة فى هذه المذكرات (يوم السبت ١٠ فبراير سنة ١٩٠٩) الى كتاب وضعه بعنوان « احمد الغرض » ، كتب عنه فى [illegible] نخصص بابا بجميع مؤلفاته المنشورة والمخطوطة سواء الكتب منها أو المقالات التى نشرت بالصحف والمجلات فقال « احمد الغرض او المهدى المنتظر [illegible] أحاديث وحقائق ورسالات تتعلق بشخص صديقى الكنت دى جالارزا الاسبانى [illegible] بالقاهرة ، أريد ان ادرس موضوع العلم الروحى وأن اخلط الحقيقة بالخيال قابلا لاخراج هذا الكتاب كاملا ، جمعت أقوال احمد الغرض سنة ١٩١١ ولا يزال [illegible] والكتابان الواجب درسهما لذلك هما « خطابات من جوليا » تاليف و. [illegible] و « **كيف عرفت أن الميت يحضر** » .

واقول ــ انا كاتب هذه الأسطر ــ انى لم اعثر على أصول كتاب « احمد الغرض » بين مؤلفات لطفى جمعة المخطوطة (ر.ل.ج) .

وأفضى الى صديق وكان ابن مستشار مشهور توفيا جميعا الى رحمة الله ـ أن أباه المستشار المصرى الكهل الذى تلقى العلم فى كلية ايكس ببروفانس يؤمن بالأرواح ويعتقد بوجود صلة وثيقة بين جميع الأديان ولا سيما دين المصريين القدماء ودين الاســلام ووحدة المعبودات فى مصر القديمة وأصنام الجاهلية (١) ، وكتب فى ذلك رسائل وألقى محاضرات ، وأن والده على اتصال دائم بعلماء أوربيين مختصين بهذه البحوث ، ومنهم سيدات يحضرن الى مصر فى كل شتاء ويقمن بالأقصر والقاهرة ويرين أرواحا قديمة متجسدة فى طيور وحيوان ٠٠٠٠ الخ ، فلما زرت هذا المستشار وفتحت البحث فى هذا الموضــوع ، تكلم فى تحفظ شــديد ونصــح الى ألا أفكر فى هذا فانه لم يؤن الأوان ، وقال لى عليك بالتفكير فى القانون والفلسفة وعلوم الاجتماع والاقتصاد فانها تجدى أكثر من الاشتغال بما ذكرت ، ولكن ابنه كان شيطانا فاختلس من بيت أبيه أكثر من مائة خطاب كتبتها سيدة من المشتغلات بهذه الشئون باللغة الفرنسية وأقرضنى اياها فالتهمتها ، فقال لى لك أن تنسخها أو تنقلها الى العربية فلعل فيها فائدة ، فلم أفعل واكتفيت بمطالعتها ٠

* * *

(٢)

كتاب ليالى الروح الحائر

وولت هذه الفترة بخيرهـــا ، ولم أفكر فى شيء مما قرأت وسمعت تفكيرا طويلا ، الى أن كانت ليلة كالتى قضيتها منهوكا

---

(١) كتب لطفى جمعة مقالا عنوانه « هل عبد العرب والمصريون أربابا بذاتها ؟ وقد نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٩٢٩/٧/١٧ ، وأعيد نشره فى كتاب لطفى جمعة « مباحث فى التاريخ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م ٠

مهموما وعدت الى منزلى فى عشية عيد آخر ، فلم أكد أصل حتى شعرت بدافع قوى الى الكتابة دون أن أعلم ما أكتب ، وأذكر أننى لم أصبر حتى أضع ثيابى أو أستعد فى مكتبى ، فجلست على منضدة فى المطبخ وعليها سراج ضعيف النور ، وكنت شديد الجوع ولكننى رفضت الطعـام ، وأحضرت ورقا وقلما وبدأت أكتب بغير انتظار ولا انتظام ، ولعله فى حالة تشبه الذهول أو البحران ، كنت أشعر أننى غير واع بما أكتب ، وأشعر أن فكرة قوية تقودنى وتدفعنى ، فكنت كالنشوان تارة وكالصاحى اليقظ تارة أخرى ، وأخذت أكتب كالمسوق المرغم ، وكنت أنصبب عرقا ، وكان البرد شديدا وغرفة المطبخ باردة خالية من التدفئة ، فتنبهت الى معطفى فخلعته ، ولكن العرق لم يجف وحدث لى شىء واحد أدركته ادراكا حسنا ، وهو أننى كلما كتبت شعرت بأن جزءا من العبء الذى على كاهلى يخف شيئا فشيئا ، وأننى أستعيد وعيى وصحوى .

يا لها من ليلة تلتها ليال فى مصر وأوربا ! ويا لها من محنة قاسية ولذة لا تقدر ! .

ولم أبال البرد ولا العرق ولا طول السهر ولا شدة المعاناة فى الحياة ، ولم أدر فى الحق ما كنت أفعل ، ولكننى كنت أخشى على حياتى وعقلى ، وأكتم أمرى عن كل الناس .

فلما كان الصباح ، صباح العيد (أى عيد ؟!) ارتميت على فراشى بين الميت والحى .

وعند الظهر، جمعوا لى الأوراق المبعثرة على منضدة المطبخ وعلى أرضه ، فألقيتها جانبا ، **ولما أفقت وتيقظت واستطعت أن أقرأ ، وجدت كتاب « ليالى الروح الحائر »** الذى بدأته فى سنة ١٩٠٨ ونشر فى مصر سنة ١٩١٢ ، وقد جاء فيه فى صفحة ١١ :

« وانني لكذلك ، واذا بصوت خفى كأنه من جوف الأرض ينطق خافتا قال : أيها الباحث عن الحقيقة ، التائه في بيداء الريب ! فوجمت لدى سماع الصوت الخفي وخانني النطق للوهلة الأولى ، ثم استجمعت قوتي وقلت : من أنت أيها المتكلم الخفي ؟ . قال الصوت بعد صمت طويل : أنا الروح الحائر ، روح صديقك ، أتيت مجيبا نداءك . قلت : لعلك أيها الروح العزيز جئت لى بجـواب سؤالى وحل لغوامض الكون ؟ .

قال : أنى لى ذلك ولا فرق بيني وبينك سوى أنني تخليت عن بدني وأنت لا تزال تجاهد ضد العناصر الأرضية فتغلبها مرة وتغلبك مرات . قلت : هـــلا أراك أيها الروح الصديق فأطمئن اليك ؟ . قال : بلى ! انظر . فنظرت ولم أر شيئا . قال : انظر نحو الزاوية اليمنى . فأمعنت النظر ، فاذا شبح أبيض في يده مصباح ، ولكنني لم أستطع تمييز تقاطيعه . قلت : وما هذا المصباح ؟ قال : انه دليلي في حيرتي ، فيه شعاع من نور الحقيقة . قلت : حدثني بشيء مما رأيت . قال : ليس لدى من الوقت متسع وموعدنا الليلة الثانية أ هـ ص ١٢ .

وتوالت الليالي والأحاديث الى صفحة ١٩١ وهي آخر الكتاب وفيها « فصرخت من أعماق قلبي : أيها الروح الحائر ! . فسمعت صوتا قصيا كأنه هاتف يقول : قل الروح المهتدى ، ألم تعلم أنها ليلة الوداع الأول ؟! » .

كانت سني اثنين وعشرين عاما اذ كتبت هذا الكتاب ، وقد ظن الناس أنه وفاء بوعد لذكرى صديق ، ولكنني لا أدرى ما هو ، وقد مضى عليه ثلاثون عاما .



(٣)

رسائل وأحاديث الشيخ محمد عبده

وفى سنة ١٩٣١ نشر المرحوم السيد رشيد رضا الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، فشكرته فقال لى فى داره : لم الشكر وفيه بضع صفحات من قلمك اذ كنت صبيا ؟

وفتح لى صفحة ٧٩١ الى صفحة ٧٩٦ ، فاذا بها من انشائى ، فعجبت اذ كنت نسيت ما كتبت فى سنة ١٩٠٤ قبل كتاب « ليالى الروح الحائر » بأربع سنين ، فليقرأه من يشاء كصورة لذهن ناشىء متطلع الى الحقيقة فى الثامنة عشرة من عمره (١)، وأكتفى بنتف يسيره تنصب على مسألة الروح تقول فى خطابى الذى بعثت به الى الشيخ محمد عبده فى فبراير سنة ١٩٠٤ « **ثم نظرت فى أصل الروح وما هى وكيف خلقت ، وهل هناك قوة هائلة هى الله وكيف خلقت النفس البشرية (كذا) وما هو الانسان ذلك الحيوان الاله العجيب (كذا) وأين النفس من جسمه ، وما معنى انها ملازمة للجسم ؟ . وأنا لا أعتقد بالبعث بالصورة الموضحة ، أى اننا نبقى أجساما ونفوسا ، ونظرت فى الجنة فقلت أن ليس فيها حور وولدان ، بل فيها كمالات نفسانية ، واننا ننقل الى عالم ارقى من هذا العالم وربما كان كوكبا من الكواكب ، وهكذا حتى نصل الى اقصى درجات الكمال ، وكذلك ليست النار نارا كما يقال ، بل هى عبارة عن عذاب الضمير النفسى . ها هى صورة منى والسلام** » .

لو لم يحتفظ الشيخ محمد عبده بهذه الخطابات ويوصى تلاميذه ومريده الشيخ رشيد بنشرها بعد موته ــ الذى احتفظ بها سبعا

---

(١) نشرت رسائل لطفى جمعة الى الشيخ محمد عبده فى كتاب « حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصر الى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن ١٩٠٤ ـ ١٩٥٣ » ، ص ٦١ ـ ٦٨ عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

وعشرين سنة ، ولم أعلم بها الا بعد نشرها فى سنة ١٩٣١ وقد تجاوزت الأربعين ـ لما صدقت أننى كاتبها ، فان فيها جرأة الشباب وصراحة القول ما لا أستبيحه لنفسى الآن ، ولكن العالمين الفاضلين كانا أشفق وأوسع صدرا من أن يلومانى على ما كتبت ٠

وفى الكتاب الثانى وهو فى سنة ١٩٠٤ وبينه وبين الأول أيام ، وهو مكتوب من حلوان « الله قوة هائلة ، والمادة هل خلقت نفسها أو خلقتها تلك القوة الهـائلة ، وهل المادة جزء من القوة الهائلة (الله) ، وهل وجدت المادة قبل القوة الهائلة ٠ هاتان هما المسألتان اللتان تمنعان الكرى عن أجفانى (كذا) ، وهذا الكون المتناهى فى العظم والكبر والفخامة ، ما عمره ؟ ٠ انى أراه أيضـا متناهيا فى القدم ، وعبثا أن يخلق الله كل هذا الكون وهذه الكواكب وهذه الأقمار والشموس عبثا ، فلابد أن يكون فيها مخلوقات لله ، وكل هذه الأشياء خلقت من المادة ، اذن فالمادة لها فضل على الخلق كبير (عود غير محسوس منى الى فكرتى الأولى فى سنة ١٨٩٩) ٠ وهنا تأتى أم المسائل التى أعشقها عشقا عظيما ، وهى النفس البشرية ٠ أجيب انها قطعة من الله ولا أقول شعاع من نوره ، أو أن الله مكون من عدد لا يتناهى من النفوس (كذا) ، وهى ليست موجودة فى أى جزء من أجزاء الانسان ، بل تظلله ولا علاقة مادية لها به ، ان الله والنفس شىء واحد ، هذا رب فى سمائه ، والنفس رب فى أرضها ٠ أ هـ الخطاب الثانى ملخصا ٠

وكان جواب أحد العالمين قول الله « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ٠

وقد علق الشيخ رشيد ـ طيب الله ثراه ـ على هذين الخطابين بقوله :

« وبحثه فى زمن التعليم فى أعلى مسائل الفلسفة وعلاقتها بالدين » ٠

والحقيقة أنني لم أكن أعلم في ذلك التاريخ (سنة ١٩٠٤) أن هذه أعلى مسائل الفلسفة ، ولا أعرف لها علاقة بالدين ، لأنني في سنة ١٩٠٤ في الثامنة عشرة من عمري لم أكن أعرف ما هي الفلسفة وما هو الدين ، لأن درس هاتين المادتين كان ممنوعا في المدارس الثانوية ، وكتبهما النافعة لم تكن في متناول يدي ، ولكن على ما يظهر كانت مسألة الروح والخالق والمادة تمنع الكرى عن أجفاني ! ، وقد حملت العبء الى الآن ، ولو شغلت بأشياء أخرى لكان أجدى على ، ولكنني حملت رغم أنفي على غير استعداد للعيش في هذا المجتمع ، فعشت فيه غريبا لم أحاول فهمه ولم أقدم نفسي اليـــه ٠

وكان المرحـــوم الشيخ محمد عبده هو الرجل الذي عرضت عليه حيرتي وفتحت له مغاليق قلبي المفعم بالأسى ، ولم تصل هذه الخطابات الى يد الشيخ رشيد الكريمة الا لأنه كان مستودع أسرار الامام وكاتب يده الخاص والمعبر عن أفكاره وآرائه ، وحلقة الاتصال بينه وبين الجمهور ، ولكنني لم أر الشيخ رشيد الا في سنة ١٩١٢ أو سنة ١٩١٤ لأن آراءه في السياسة المصرية كانت تخالف آرائي ، ولأن زعيمي وصديقي الأعز المرحوم مصطفى كامل كان لا يتصل به لأسباب طويلة ، شرحهـــا كل منهما في مقالاته وكتبه ، وقد عرفت هذا الرجل الفاضل ، واتصلت به اتصالا قويا ، ولكنه لم يذكر لي قط أن لديه خطابات من قلمي ائتمنه عليهـــا الامام ، ولو علمت بها لرجوته ألا ينشرها ، فليس لها الا قيمة تاريخية ٠
أما الشيخ محمد عبده ، فقد بادرت في سنة ١٩٠٤ بزيارته في داره بعين شمس واتصلت به في صحته ومرضه ولم أنقطع عنه الى أن انتقل الى رحمة الله ٠ وكنت قد لقيت المرحوم محمد حافظ ابراهيم وتحدثت اليه فقال لي ان الأستاذ الامام يريد زيارتك اياه ، ولم يكن يعلم انني متصل بالشيخ منذ سنة أو سنتين ٠

وقد روى لى الشيخ محمد عبده أن أول الفتوح لعقله وقلبه كانت قراءة رسائل كتبها السيد محمد المدنى لبعض مريديه وكان شيخا صوفيا ، وهى رسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضـــها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا ، فسألته عن السيد المدنى ، فقال لى انه والد الشيخ الصـــوفى الشهير الذى أقام فى اصـــطامبول فى عهد السلطان عبد الحميد وتوفى بها ، وأن الذى أوصل اليه هذه الرسائل هو أحد أخواله (أخوال الشيخ محمد عبده) واسمه الشيخ درويش وهو رجل ذو أسفار فى صحراء لوبيا وطرابلس الغرب وصار من مريدى السيد محمد المدنى ·

أقول وقد اكتشفت بعد ذلك بزمن طويل أن للمدنى طريقة كبيرة شاذلية وقد رأيت بعض هذه الرسائل مطبوعا ·

ويروى الشيخ محمد عبده فى نبذة كتبها بخطه أنه فى رجب سنة ١٢٨٢ هجرية رأى أمامه شخصا فى الدرس يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم « بالمجاذيب » ، فلما رفع رأسه اليه ، قال ما معناه « ما أحلى حلوى مصر البيضاء !! » ، فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ قال : سبحان الله من جد وجد ! ، ثم انصرف فعددت ذلك القول منه الهاما (كذا) ســاقه الله الى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا » ·

وسافر الشيخ فى شوال الى القاهرة وطلب العلم فى الأزهر ·

وفهمت عن الشيخ أن مرشده الروحى الأول قبل جمال الدين الافغانى كان أحد أخواله الشيخ درويش من أهل محلة نصر ، وقد

صحبه وعلمه الزهد والبعد عن الناس ست سنين من سنة ١٢٨٢ الى سنة ١٢٨٨ هـ ثم أمره أن يختلط بالناس ليعلمهم ويرشدهم ، وفى تلك السنة ودعه وبكى بكاء شديدا ومات فى السنة الثانية ·
وللصوفية من هذا الالهام والشعور ما هو معروف ومشهور ·

* * *

ـ ٤ ـ

الشيخ محمد عبده والتصوف وخلود الروح

كان الكلام فى التصـــوف أمرا غريبا على ذهنى لولا أن كان الشيخ طنطاوى جوهرى يحثنى على قراءة الرسالة القشيرية التى كان لها شأن كبير فى نفسه ، وذكر لى أنها ترجمت الى لغات أوربية، وكذلك مقدمة ابن خلدون ، ولكننى كنت أنفر من التصوف لاتصاله بالطرق التى كنت أرى مواكبها ومشايخها وأعلامها ، وأسمع فى امتعاض الى أغانيهم وانشـادهم وأشهد متـألما طرائق ذكرهـم ·
وقرأت أن المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس توغلوا فى ذلك ، غير أن ابن خلـدون يؤكد أن الكلام فى المجاهدات والمقامات وما يحصل فى الأذواق والمواجد فى نتائجها ، ومحاسبة النفس على التقصير فى أسبابها (١) ، فأمر لا مدفع فيه لأحد ، وأذواقهم صحيحة والتحقق بها هو عين السعادة · وأما فى كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم فى الكائنات ، فأمر صحيح غير منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها ، فليس ذلك

(١) انظر الى حساب النفس فى كتاب « تاريخ فلاسفة الاسلام » ، لمحمد لطفى جمعة ، طبعة أولى سنة ١٩٢٧ ، وطبعة ثانية سنة ١٩٩٩ عن عالم الكتب ·

من الحق ، وسلف المتصوفة من أهل الرسالة القشيرية من أعلام الملة، لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك ، فلا ينطقون بشيء مما يدركونه ، بل حظروا الخوض فى ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده ، وأن الخلوة والمجاهدة تثمران كشف حجاب الحس وادراك بعض العوالم الخفية ، فيتكلمون فى حقائق الموجودات العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسى ، وقد يرى صاحب الحال ويسمع ويشم ويدرك ما لا يشاركه فيه غيره ممن ليست له تلك الحال حتى انه ليزج به فى عالم المثال يناجى فيه الأرواح تتجلى فى صورة الأشباح بأغرب وأعجب مما يفعله مستحضرو الأرواح .

وقال الشيخ رشيد رضا فى ترجمة الأستاذ الامام ص ١٠٦ « وكان يخرج عن حسه ويزج فى عالم المثال فيناجى أرواح السابقين، ولو كان يجيز شرح ذلك لشرحناه ، وكان يقول (أى محمد عبده رضى الله عنه) ان ما يحصل للصوفية من الأحوال غير الطبيعية لايجوز ذكره لغير العارف به ، ولا تجوز كتابته بحال ، لأنه يفتن كثيرا من الناس ولا يفيد أحدا » .

وهذا التصوف الذى لا نتعرض لتاريخه ولا شرحه قديم العهد فى البشر ومعروف عنـه براهمة الهند وعنـد أهل الصين وعند اليونان والفرس ، وهو بالاستعداد والموهبة أولا ، ثم برياضـة النفس.وللمتصوفين من هذه الأجناس كشف وخوارق العادات ، غير ان المسلمين يسمون ما يتم على أيدى المسلمين كرامة ، وما يتم على أيدى غيرهم استدراجا ، ولكن اجماع العارفين — الذين تكلموا أو كتبوا — على أن من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة يقع فى عالم المثال ، فيرى فى اليقظة الطبيعية — وهى غير ما يسميه الصوفية باليقظة — ما لا وجود له فى الخارج ، ويسمع من نفسه

تارة ومن الأرواح التي تتمثل له تارة أخرى كلاما لا يسمعه غيره وان كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة ، وتعرض له أذواق ووجدانات كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما أنه لا يمكن للرجال أن يعبروا للأطفال عما هو خاص بهم من لذة أو ألم ، ويتبع هذه الأحوال معارف صحيحة وأفهام دقيقة ، وأن يكون لهم تأثير في شفاء المرضى واستهواء النفوس بأقوى من التنويم المغنطيسى .

ونحسب أن الشيخ محمد عبده قد وصل الى هذه الحال لولا أن أخرجه منها السيد جمال الدين لينتفع به في الحياة الظاهرية ، ولم يكن الشيخ محمد عبده بالرجل البسيط **أو الهين أو محدود الذكاء أو المخدوع ، بل كان ذا عقل جبار وكيان أدبى كامل ، وشخصية قوية وتدبير واسع وتفكير ناضج ، ولم يعقه تصوفه عن استكمال درسه وتعليمه واطلاعه على العلوم الغربية ودرس لغات أوربا والاشتغال بالسياسة والقضاء والاصلاح والتأليف والخطابة والاجتماع والقاء الدروس الدينية والعلمية والتشريع والسياحة .**

وأعتقد أنه لولا سابقة تهذيبه الصوفى وترويض نفسه وجسمه واغترابه ومقاساته في بعده عن وطنه وتحمله المظالم بألوانها ، وما وصل الى ما بلغه من الفطنة وقوة التحمل ، والصبر على الاضطهاد ، وحسد الحاسدين ومكايد الحاقدين ، والصمود للأعداء الظاهرين والمختفين ومقاومة الحكام الظالمين من كل جنس ودين ، ولما تمكن من ادراك الخير المحض في بيئة معظمها شر محض، فلم يكتف بادراك الخير ، بل عمد اليه ونفذه وأخرجه من التفكير الى التنفيذ ، فترك في المجتمع الذى عاش فيه عشرين سنة أثرا لا يمحى ولا يقل عن آثار المصلحين والمجددين الذين يبعثون مرة في كل مائة عام .

فالعبرة اذن في حياة هذا الرجل كانت عبرة الروح لا عبرة الجسد ، وعبرة القوة المعنوية لا القوة المادية ولا المال ولا الجاه

ولا الحيلة . فانه كان على شدة رعب أعدائه منه وفزعهم من بطشه وبأسه وحسبانهم لتحفزه ألف حساب ، كان عديم الحيلة بمعنى المكيدة والدسيسة ، لا يعرفها ولا يلجأ لها ولا يقدر عليها الا أن يحكم تدبير أمر في سبيل الخير وما به أذى لأحد ، بل كان هو الذى يقع عليه الأذى من شياطين الانس ليجلبوا لأنفسهم منافع ثم يندمون على ما فعلوا وتسوء عاقبتهم دائما وأبدا ، وقد شاهدت ذلك بنفسى ورأيت خاتمة الشرار من أعدائه حتى الذين صفح عنهم مرغما بسنة الزمن والاحسان الى من أساء اليه .

هذا الرجل الفذ المدرك ، والفرد النادر ، كان يؤمن بالروح وخلودها ، وكان يعتقد أن للنفس البشرية بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وقد صرح بذلك فى رسالة التوحيد التى وضعها منذ خمسين سنة وهى من أهم ما ألف بعد تفسير القرآن قال « ان الشعور العام بحياة بعد هذه الحيـاة ، المنبث فى جميع الأنفس ــ موحـدين ووثنيين ، مليين وفلاسـفة وأميين قدماء ومحدثين ، متحضرين أو وحشيين ــ لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة وهمية ، وانما هو من الالهامات التى اختص بها هذا النوع بأن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود ، بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه .

« ذلك الهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء ، يشعر كل نفس أنهـــا خلقت مســتعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة ، شائقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهيئة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضة

لآلام من الشهوات ونزعات من الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد ومصارعة الجواء والحاجات ٠

« شعور يهيب بالروح الى تحسس هذا البقاء الأبدى وما عسى أن تكون عليه متى وصلت اليه ، وكيف الاهتداء وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل ، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ؟ » أ ٠ هـ ٠

هذا كلام عالم ناضج ، يدل على شدة اشتياق ذوى العقول الى الوقوف على حقيقة الحال والمآل ، وضرورة البحث عن طريق الهدى والنجاة من الضلال ٠

ولكن هذا القول وما يماثله لا يعد موجها الى كل انسان ، ولا يمكن أن يدرك حقيقته كل انسان ، مهما كان القارئ أو السامع من الأذكياء أو الأتقياء ، ما لم يكونوا مستعدين ومتجهين ، مستعدين للقبول ، ومتجهين للمعرفة ٠ وهناك طرق شتى للوصول الى هذه الغاية ، وأهمها ما نزل فى القرآن الكريم على محمد عليه الصلاة والسلام وفى الكتب المنزلة الأخرى على بعض الرسل ، فان من مراتب النفوس البشرية مرتبة يعد الله لها — كما يقول الأستاذ الامام فى رسالة التوحيد — بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه ، يميزهم بالفطر السليمة ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه والأمانة على مكنون سره . مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالة وعظمة ٠

وكذلك أعد الله نفوسا مستعدة للتلقى ومشغوفة بالاطلاع ومشتاقة الى الاتصال ، ولكنها قليلة بل نادرة فى وسط كثرة غالبة من مخلوقات مغلوبة بالمادة على أمرها ، ومحجوبة بالشهوات العاجلة

عن استجلاء حقائقها وحقائق غيرها ، وغارقة فى بحار الأثرة وحب الذات الى قمم رؤوسها لا الى أذقانها ، وفاقدة البصر والسمع والفؤاد وان كانت تملك فى الظاهر آلاتها وأدواتها ٠

* * *

ـ ٥ ـ

مجلة المقتطف وتكذيب الظواهر الروحية

كانت مجلة المقتطف ـ وهى مجلة رجعية جافة ، مادية النزعة فى ذلك العهد هى ومجلة الهلال ومجلة الجامعة ـ مصدر التنوير للراغبين فى العلم لولا أن هدانى الله الى الكتب الأوربية فى مكتبة المدرسة الخديوية ودار الكتب الخديوية ، فقرأت كل ما قدرت عليه ،وكنت أتردد يوميا على دار الكتب وكانت خالية من القراء ما عدا اثنين أو ثلاثة ، وهى قائمة فى بناء صغير على يمين الداخل من باب كبير فى شارع درب الجماميز ، وأصل من منزلى بشارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة عدد ٥ فى بضع دقائق ، وكان بها موظفان ، محمد صفوت أفندى (الآن باشا ووزير سابق) وعلى أفندى (بالمعاش وعلى قيد الحياة) ٠ وقد واظبت على اتصالى بدار الكتب الى الآن (سنة ١٩٤٢) ٠

ويسوؤنى أن أقول انها كانت فى ذلك العهد السحيق أنفع لى منها الآن ٠

كان لمجلة المقتطف الرجعية المادية النزعة الجافة ـ تأثير كبير بالنظر الى فقر البلاد العقلى وهيبة المصريين فى انشاء مثلها ، وأن

أنشأوا فانهم سرعان ما يفشلوا وتذهب ريحهم . وكان يزعجني أن أرى تلك المجلة تنشىء مقالات طويلة عريضة عمن سمتهم « رجال المال والأعمال » فتشيد بمجد عجول الذهب والسراقين الأمريكان الذين حصلوا على القناطير المقنطرة من الذهب بدماء الأمم واحتكار المواد الأولية ، ثم تشرح أعمالهم وهى جرائم ، على أنها أعمال بطولة، فتبنى لهم معابد وهياكل وتنصب تماثيل فى قلوب الشرقيين ، فكأنها كانت تبشر بدين جديد ، وقد نجحت هذه المجلة الخبيثة فى ذلك العهد فى توجيه الأذهان فى مصر وفى الشرق العربى طبعا الى عبادة الذهب وتمجيد المال وصرف النفوس عن المثل العليا ، وكانت تعبر عن آراء أصحابها ورغباتهم ، ولعلها قتلت البقيــة الباقية فى النفوس من حب الخير والعلم ، وحطمت المثل العليا التى بدأت تتــكون ، فكانت كالسموم التى تسرى ببطء فى العقول والأجســام .

وان غيظى من هذه المجلة كان يزداد يوما فيوما الى أن رأيت فيها مقالات عن التنويم المغنطيسى واستحضار الأرواح نقلا عن بعض المجلات الأمريكية ولا سيما «سيانتفيك أمريكان» وغيرها ، وتمثلها لنا كالوحى المنزل ، فقرأت هذه المقالات بشــغف شديد ، ولكن ــ وآسفاه ــ اكتشفت أنها كانت تنطوى على حيلة خبيثة ، وهى أن تكذب كل الظواهر الروحيــة وتنفيها وتقيم الأدلة على خــداع أصحابها ، أى أنها لم تكن تؤيدها ولا تنشرها بغير تحيز ، ولكن برغبة أن تكشف القناع عن تحايل القائلين بها لئلا تفسد عقولنا بتصديقها .

وانى الآن اقرر واصرح بانه لو وضعنا كل ما قيل عن فائدة تلك المجلة فى كفة ووضعنا الشر الذى صنعته بنشر مقالات عجول الذهب وتكذيب الظواهر الروحية فى كفة اخرى ، فان شرها يرجح

خيرها وتخف موازينها وتمحو سيآتها حسناتها ، وانها بلا ريب كانت أداة هدم وتجهيل وتقهقر فى المجتمع الشرقى العربى .

وانى لا أنكر ولا أخفى مهارة الذين صنعوا هذه المجلة ، فقد صنعوا سمومهم وصبغوها بغشاء مسكر مطلى ليسهل تناولها ، وهذا الغشاء المسكر البراق هو مقالات الأدب الرفيع وتراجم بعض الشرقيين والعناية بالزراعة والصناعة ... الخ ، ولكن هذه المقالات كانت وسيلة لدس السم فى الدسم ، فاننا منذ بدأنا نقرأ المقالات التى تمجد المال وأربابه ، وتضعف الثقة فى المعتقدات الروحية ، انتقلنا الى الماديات بحكم فطرة التقليد الكامنة فى نفوسنا وتصديق المتعالمين ودعاة المعرفة فى بلد معظم رجاله جهلاء ، والمتعلمون منهم مصابون بداء الجبن الوخيم .

وقد كانت المقتطف تزعـم أيضـا أن النجاح لا معنى له الا تكديس الأموال ، وتنشر سير زعانف وأجلاف ولصوص فى كل أنحاء العالم وما يفوهون به من أقوال عن سر نجاحهم وما ينصحون به للشباب ، فاذن كل الموضوع يدور حول المال ، ولو أن « الناجح » منهم يقترف الموبقات ويأتى الكبائر فى سبيل ذلك .

ومن **هذا التاريخ** ـ أى بعد الخمس السنوات الأولى من القرن العشرين ـ **انتشرت فى مصر فكرة اقتران النجاح بالمال وتجريد كل المؤهلات والمواهب الأخرى من الفضائل** ، فلا العلم فى عرف المقتطف ولا الأخلاق ولا الوطنية ولا الدين ولا الاستقامة لها أية قيمة بجانب المال ، عدا عن التشكيك المستمر فى العقائد الروحية والاحتيال على تكذيب المعنويات والتقليـل من شـأنها بكل الوسـائل الخفية والظاهرة .

كانت هذه الأفكار تجول فى نفسى ، ولكننى كنت عاجزا عن التعبير عنها ، ولو استطعت التعبير ما التفت اليها أحد ، فكان

المجال فسيحا والميدان متسعا لهذه المجلة وغيرها ، وكأن رجالنا العلماء والأدباء كانوا مخدرين ومشتغلين بأمور أخرى يرونها أهم من انقاذ العقول من هذا البلاء ، ولذا أظن أن اللهأحبط أعمال هذه المجلة المضللة ، فلم يحالفها التوفيق أبدا ، ولم يصحبها النجاح بما فعلت ، فلم تفز بكل ما رغبت وان كانت فى ذلك العهد تباهى بعملها وشيخوختها وبما تحصلت عليه من أموال المصريين وغيرهم بفضل الباشوات المغرضين والمنومين · ولكننى للأسف لم أدرك هذه الأمور على حقيقتها فى وقتها وكنت عاجزا عن فهم مراميها ، دع عنك مكافحتها ·



— ٦ —

دراستى الفلسفة

اخترت لنفسى طريقا وسطا واشتغلت بدراسة كتب الفلسفة بغير معلم ولا مرشد (١) ، فان هذا الأمر كان مجهولا ومحفوظا فى بطون الكتب والتاريخ ، ولم يجاهر أحد بالفلسفة ولم يشتغل بها أحد فيما أعلم ، وأظن أن الناس كانت تخشاها فلم يظهر الا جزء من رسائل اخوان الصفاء نشرته جريدة المؤيد وملخص تاريخ ابن رشد وفلسفته نشره فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة بالاسكندرية · أما فى مدارسنا فلا ، ولم تكن الجامعة المصرية قد ظهر مشروعها ، ولعل الاشتغال بها فى الأزهر كان يعد ذنبا أو كفرا ، فقد رأينا السيد جمال الدين الأفغانى يخرج من مصر بليل !

---

(١) اقرأ فيما يلى من هذه المذكرات ما كتبه لطفى جمعة فى الفصل المعقود من « التكوين الفلسفى » ·

كان صديقي يوسف كرم الشاب السورى هو الوحيد الذى قرأ معى بعض الشيء عن فلسفة سبنسر الانجليزى قبيل موت هذا الرجل بعامين أو ثلاثة ، ثم حصلنا معا على تراجم بالعربية لسقراط وأفلاطون وبعض حكماء اليونان، بعضها بالعربية وبعضها بالفرنسية، ولكنها لم تكن تشفى غليلنا لأنها مختصرات وجيزة ، وكنا نقرؤها بفخار ونشوة ما دامت هى الوسيلة الوحيدة للاتصال بهذه النفوس الكبيرة ، وكانت دار الكتب مصدرا آخر لى ، لأن كرم كان مقيما بطنطا ، وصدر كتاب فى تهذيب الأخلاق لابن مسكويه فحصلنا عليه وقرأناه وقضينا وقتا طويلا فى شرحه وتفهمه .

وكان أن نشرت مجلة الجامعة خبرا قمنا له وقعدنا ، وهو أن عالما أثريا ألمانيا اكتشف فى العراق حفريات من بينها قصة آدم وحواء والتفاحة والحية ، وأن هذه القصة لم تكن محفورة وحدها ، بل كانت مصورة أيضا بالحفر فى عمود من الحجر يرجع تاريخه الى ألوف السنين قبل الأديان المنزلة،وقامت ضجة كبيرة فى الغرب، واضطر الامبراطور ويليم الثانى أن يعلن تمسكه بالمسيحية من جديد ، وأن يقلل من شأن هذه الحفريات .

وكان الشرق كعادته فى غيبوبة ، فلم يدركوا مطلقا أهمية هذا الاكتشاف حتى فسره لهم بعض المتطوعين وأفهموهم أن اكتشاف قصـــة الخلق وآدم وحـواء على هذه الصـورة يهدم الأديـان من أساسها (؟!) ، فانها جاءت فى الكتب المنزلة على أنها وحى يوحى للمرة الأولى لموسى ثم لمحمد عليهما الصلاة والسلام فى التوراة والقرآن ، وأن عيسى جاء مكملا لما جاء فى التوراة ، فاذا كانت هذه القصة معلومة من قبل بألوف السنين لأقوام بابل وآشور من عهد حمورابى أو قبله ، فاذن قد نقلت هذه القصة بحذافيرها من ذلك الأصل الحجرى الذى لا شك فيه ونسبت الى وحى السماء !

وكان الاكتشاف بريئا من كل مظنة ، فانه عمل عالم ألمانى نزح الى العراق وهو يعرف اللغات القديمة واستأذن الحكومة العثمانية فى البحث فأذنت له ، فلما ظهرت له هذه الأحجار — ومنها هذا العمود العجيب — فسره باللغات الحديثة وصوره ونشر نصوصه ، فقرأها المستشرقون ونقلوا الآثار الى متحف برلين وذاع أمرها وفطنت حكومة ألمانيا الى أن السكوت على هذا الأمر يعد تسليما بصحته وبنقض الكتب المنزلة ، فأشارت على ويليم الثانى باعلان عقيدة المسيحية « على الرغم من ظهور هذا العمود الذى يروى قصة آدم وحواء » ٠

وليس هنا موضع تفسير هذه المسألة ووقوفى على تعليل علمى يؤدى الى تأييد الوحى بهذا العمود تأييدا مطلقا ، غير أنى أقول الآن ان هذا العمود كان مسندا كبيرا للماديين الذين طاروا به فرحا واعتبروه ضربة المعول الأخيرة فى صميم الأديان ، فباضوا وصفروا ٠

وترددت قليلا ثم عزمت على مسايرة الزمن وألقيت بنفسى فى دراسة الفلسفة ، وكانت دهشتى كبيرة عندما سمعت سقراط يقول « اعرف نفسك » ، وعندما علمت أن أفلاطون كان يتكلم عن الروح وخلودها وخلقها فى عالم السر والخفاء ، ويصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة ، وغفلت حينا عن الكتب المنزلة ٠

وكنت أبحث عن مرشد فلا أجد ، ولو كنت فى زمن غير هذا وبلد غير هذا لبحث المرشدون عنى وعن أمثالى، ولكننى كنت أجد التصريح والطلب والشوق الى العلم تؤدى جميعها الى الغيرة والحسد والاضطهاد ، ولا سلاح عند الناس اذا عجزوا عن الأذى بالفعل الا الأذى بالقول ، وأحد سلاحهم التهكم والسخرية ، وهما ينمان عن سخائم أنفسهم ، ولكننى أعلم أن هؤلاء الأعداء الصغار يخفون وراءهم أعداء أكبر وأضخم وأقوى شأنا وأحد أسلحة حتى لقيتهم

جميعا وجها لوجه ، حتى المقنعون منهم بسبعة أقنعة من النفاق ، أراد الله أن يكشفهم لى ويقينى شرهم ، ويحمينى من هذه العداوات لا لشيء الا رغبتى فى العلم واظهارى بعض ما أكن وأضمر من الشوق والتطلع .

وجملة القول اننى شققت طريقى بنفسى على الرغم من المثبطات والمعجزات ، وكانت أسماء داروين وسبنسر وكومت ودراپر ترن فى أذنى ، وألقى الى أستاذ انجليزى هو مستر جونز مدرس التاريخ اسم توماس بين وكتابه « عصر العقل » فقرأته ، وأوعز الى آخر باسم ارنست هيكل الذى كان من أئمة العلم المادى ، ونشر شبلى شميل كتاب بوخنر الألمانى ، وهو سابق لداروين ومؤيد لنظرياته . وقد عانيت كثيرا فى قراءة أصل الأنواع بالانجليزية وتسلسل الانسان The Deccent of Man of Universe ، وقد حول كتاب هيكل The Riddle تاريخ الحياة الأرضية وأصل الانسان الى حقائق سهلة الادراك ما دام خلق البشر لا يزيد على خلق الكتكوت والفرخة والأرنب . ثم قرأت تاريخ الثورة الفرنسية وهى ثورة على الأديان والمعتقدات والملكية المطلقة وكل السلطات الدينية والدنيوية ، وورد فى أثناء قراءتى اسم « فولتير » والحاده وسخريته من المتدينين ، فكانت كتبه أول ما هجمت عليه وأول ما قرأت الفرنسية ، ثم مؤلفات روسو الذى أحببته كثيرا ، وأيقنت أن أصل البلاء فى العالم انتشار الأديان ونموها ، فانها تؤدى الى الجهل والفاقة وتولد حكم الملوك واستبداد الحكومات ، وأن فرنسا لم تصل الى العظمة العقلية والحربية والفنية والأدبية الا بعد أن خلعت نير الأديان والملوك والأقوياء ، وكنت أعجب كيف ان فرنسا فى ثورتها قلدت الانجليز فى ثورتهم وخلع ملكهم ، ولكن فرنسا طلقت الأديان بينما حافظت انجلترا فى ظاهر الأمر على دينها وتعصبها ، وفى أحشائها نشأت المادية وداروين وسبنسر وستوارت ميل وآدم

سميث من أبنائها ، فاما أن يكون نفاقا واما أن الانجليز لم يقتنعوا بآراء فلاسفتهم وعلمائهم .

وقد قضيت هكذا بضع سنين حتى اتصلت بكتب المستشرقين الألمان والنمسويين وقرأت كتبهم فى تاريخ الاسلام وحياة محمد عليه الصلاة والسلام وتسليم بعضهم بصدق نبوته أمثال « جريمه » و « ويلهاوزن » و « نولدكه » الهولندى و « تولستوى » الروسى ، ورأيت أن هذا العصر المادى فى الفكر قد جر على العالم مصائب الظلم والاستعمار واعدام المبادىء السامية بقوة الحديد والنار ، فهالنى هذا الأمر واعتقدت أن العالم صار جحيما مستعرا وأن ليس فيه الا ظالم ومظلوم ، القلة ظالمة والكثرة مظلومة ، ورأيت من الأحداث فى أوربا ما غير عقيدتى فى المادة ، ولكننى رأيت طلوع فجر جديد ضئيل النور خافت الصوت ، رأيت حركات فكرية ونزعات الى التحرير وكسر القيود ، ورأيت المظلومين يثورون على الأديان لا تكذيبا لها ولكن يأسا من قوتها لاصلاح العالم ورفع المظالم ، لأن رجال الدين الذين كان يرجى أن يقفوا سدا منيعا بين الحق والباطل ، والآكل والمأكول ، وبين المفترس وفريسته ، قد اشتراهم الأغنياء واستدرجتهم الحكومات حتى باعوا ذمتهم ومالؤوهم وانضموا اليهم ، فأبغضهم الضعفاء وأبغضوا مصادر سلطانهم ، فكان أكبر الملحدين فى رومه عاصمة الكثلكة ، ورأيت بعينى فى سنة ١٩٠٦ البابا غارقا فى نعيم أكثر من نعيم الملوك ويخب فى الحرير والمخمل والدنتلا ، ويأتمر بأمره فى مدينة الفاتيكان ألوف الأحراس والخدم والكرادلة ... الخ ، فدهشت من أنه يمثل أحد القديسين الذين كانوا يرقدون على القش فى هلاليل ، ولا يعرفون الا عبادة الله والكفاف من الرزق .

أما المظالم فى الشرق ، فلنتركها على جانب !

واذن كان من المحتوم أن يسمع صوت الاصلاح والعودة الى شيء من الحق والانصاف والرحمة ولو قليلا،ولكن أين هذا الصوت؟ ومن يطلقه وهو عرضة لاطلاق المدافع والبنادق وحبال المشانق وحد السيوف ؟!

كان العجز يتملكنى والحيرة تسود على والاضطراب يستولى على ذهنى ، لأننى ـ لبساطة عقلى ـ شغلت بالانسانية كلها لا بنفسى وأهلى ووطنى فحسب ، بل بكل العالم ، وصارت الآلام التى أراها أو أقرأ عنها تحز فى قلبى وروحى ، ولكن لا وسيلة الى دفعها أو تقليلها ، **فتجلى لى الصراع المهول بين الانسان والعناصر على مدى الأجيال الطويلة السابقة** ، وهو شيء تقشعر منه الأبدان وتصطك له الأسنان ، ثم الصراع الأشد هولا بين الانسان وأخيه الانسان ، وهو الذى بدأ بين قابين أو قابيل وهابيل حتى قتله وحار فى مواراة جسمه واستحق عتاب الله وتحمل حزن والديه ، هذه القصة رمز للشر الذى يسود حياة البشر ، وتجلى لى الصراع فى سبيل المبادىء وكان أشرف ، ثم فى سبيل السلطة والمال وهو أشنع .

واذن كان لابد لله من أن يبعث رسلا وأنبياء ومصلحين وأن يختارهم من هذا الجنس نفسه ، ولكن من عينة أرقى ونفسية أسمى ، فجعل الله النبوة التى حاول وصفها وتعليلها أبو نصر الفارابى .

ومن حكمة الصانع الحكيم القادر أن يختط لارشاد الانسان طريقة الكلام للتفاهم ، والكتابة للتراسل ، فهو فى رسالة الأنبياء يجعل الاتصال عن طريق العقل والمنطق ، لا طريق التهويل والتخويف كما كان المظهر فى ديانة بنى اسرائيل ، فان المظهر الالهى لهذا الشعب كان مناسبا لحالتهم وتاريخهم وطبيعتهم ،

فاختار الله لهم موسى الكليم الذى لم يبعث الله له وحيا ، بل تجلى عليه تجليا ماديا بالصعق وظهور النار وسماع الصوت ، وكان موسى نفسه رجلا قويا عنيفا لا يعرف اللين ولا الهوادة ، ولكنه على ما كان عليه من سعة الادراك ، قد انقاد لعقل سام ، فاستطاع بالقوة تارة وبالحيلة طورا أن يقود جماعة من المتوحشين الغلاظ الأكباد حتى أصبحوا فى قبضة يده ، فجعل من هؤلاء القساة الجهال أمة بقيت الى اليوم بفضل التعاليم التى بثها فيهم ، وهم لا يزالون يدهشون العالم بمناعتهم المادية والمعنوية بعد مرور بضعة آلاف من السنين عليهم (انظر كتاب « موسى » لسيجموند فرويد وكتاب « تحليل الأشياء » لبول جيبييه) • وان شأن موسى لظاهر جليا فى تاريخ حياته وأعماله المدونة فى التوراة وفى سرد حاله فى القرآن الكريم لأنه أول نبى يستحق هذا الاسم بعد ابراهيم الخليل ونوح •

وهكذا نرى أن الله قد جعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فميزهم بالفطر السليمة وبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه والأمانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون على الغيب باذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين الاثنين ، نهاية عالم الشهادة وبداية عالم الغيب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها (أى والله صحيح !) ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى عن العقول من شئون حضرته الرفيعة بما شاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر أن يدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد من علمه »

معبرين عنه بما تتحمله طاقة عقولهم ووسع ادراكها حتى يبلغوا عنه شرائع تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم حتى ينالوا سعادتهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى اجماله ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، وهذه الوسائل المعقدة فى ظاهرها البسيطة فى حقيقتها انما اختارها الله والتجأ اليها وهى من صنعه ، لأن هذه الوسائل ومظاهرها هى من نفس ما علم الله أنه حادث فى الأرض ٠

وقد جعل الله لكل نبى خصوصيات تلائم عصره ودهره وقومه ،ولم يكتب التوفيق لكثير منهم كما كتبه لقلة ممتازة لتكون حجته على أقوامهم أقوى وأقنع ، هذه سنة الله وهذه خطته ٠

ولا يبدو لى أن أفيض فى تواريخ الأنبياء ، ولذا لا ألم بتاريخ عيسى عليه السلام ، وانما أنتقل الى نبى آخر وقد بعث فى الصحراء وأتى بالعجب العاجب مما ينطبق عليه وصف الرسالة الصحيحة بأدق مبانيها ومعانيها (انظر كتابى ثورة الاسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله) ، فان بداية حياته قبل الرسالة معروفة ، أما ابتداء أمره ففيه عظة وعبرة ٠

فما السر فى هذا ؟

لا سر غير النبوة واتحاد قوة الله بقوة رسوله ، فمده بالعقل والعلم والسياسة والحنكة والمال والرجال والسلاح والهيبة والتوفيق وحسن التدبير والصبر والنصر وحسن الختام ، وأعظم من هذا كله القرآن الكريم الذى نطق به محمد تلقيا عن الله بواسطة الملك وهو روح عظيم كان ينزل عليه تارة خفيا وطورا متجسدا ،

وقد سماه الله جبريل أو جبرائيل وهو نفس الروح أو الناموس الذى نزل على موسى وعلى عيسى ، وقبل عيسى نزل لأمه مريم ودار بينها وبينه حوار صريح فى القرآن « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا • قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا • قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا • قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا » •

وقوله تعالى « فتمثل لها » أى رأته فى عالم المثال حسب مقامها الذى كانت فيه وحالتها فى الفلوات التى لجأت اليها ملبية لنداء الله بعد طول الصبر •

وجبريل هو المعلوم لليهود والنصارى والمسلمين ، ومعنى اسمه « خادم الله » من « جبر » بمعنى خادم و « ايل » بمعنى الله ، فهو روح خير خالد وظيفته نقل الوحى الالهى للمختارين من عباده ، وصفه سبحانه وتعالى بقوله فى سورة الشعراء « وانه لتنزيل رب العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين » ، وفى آية أخرى « ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين » التكوير ، ٢٠ ، ٢١ ، وفى سورة البقرة يوصف جبريل بأنه « روح القدس » لأن خدمته لله محصورة فى نزوله عليهم بالوحى ، فجاء لموسى ثم جاء لعيسى مؤيدا « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » •

لم أكن فى تلك الفترة على شىء من العلم ، وما أزال كذلك ، غير أنى سمعت أن جبريل هو الملك المختص بالاتصال بالأنبياء منذ موسى وربما قبله •

«جبريل روح لا ترى لغير المقصود من الله أن يراه ولا يسمع لغير المقصود من الله أن يسمع ، ما لم يتجسد هذا الروح كما روى رسول الله محمد أنه جاءه في صورة دحية أحد معاصريه من العرب ورسول النبي الى عظيم بصرى .

واذن بدأت أتوهم حقيقة الوحى على هيئة اتصال روحى بنزول الروح القدس (جبريل) على قلب محمد حتى تحدث له حالات بدنية جاء وصفها صريحا فى حديث البخارى على لسان النبى نفسه وعلى لسان عائشة وعلى لسان كثير من الصحابة الذين رأوه عليه الصلاة والسلام (١) .

ولابد أن فضيلة الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر قد فهم علاقة علم الأرواح الحديث بمسألة الوحى وتقريبها من الأذهان عندما كتب « والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قربت الى العقل امكان تحول المادة الى قوة وتحول القوة الى مادة ، وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم تجرد الروح وامكان انفصالها وفهم ما تستطيعه من السرعة فى طى الأبعاد ، وقد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الاسراء فأتى بشىء طريف » .

وانى أدرى أننى أؤيد الاسلام بعلم الأرواح الحديث ، وأؤيد علم الأرواح الحديث بالاسلام ، فمسألة الوحى كانت عسيرة الادراك على العقول ، ومثلها فى الدخول الى بعض الأذهان كمثل دخول الجمل بل الفيل فى سم الخياط ، فالمعاصرون للرسول أنفسهم

---

(١) انظر مقدمة كتاب لطفى جمعة « نظرات عصرية فى القرآن الكريم » ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩١ ، ص ٢١ وما بعدها ، ص ٢٦٦ ، ٢٧٥ .

كانوا لا يدركونها ولم يدركها الا الذين وهبهم الله نفوسا شفافة وقسطا من الذوق ، فيقيسون الكثير على القليل والجليل على البسيط ، أما المصدقون بغير فحص ولا تمحيص بمجرد التصديق والايمان ، فهؤلاء لهم أجر كبير ، أما أبو بكر الصديق ، فقد كان يصدق عن بينة واقتناع ، وكذلك عمر وعلى وبقية المبشرين بالجنة ، فقد كانوا يعلمون حقيقة الوحى وكيفية نزوله ، ولهذا كان أبو بكر الفرد المحمدى الأوحد الذى صدق حديث الاسراء بغير جدل ولا انتظار ، لأنه كان مقتنعا مدركا بصفة قاطعة ، فلم يجد فيها الغرابة التى وجدها المعاصرون حتى أهل بيت النبى أنفسهم ، لأنه يعلم أنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ولا يقول الا الصدق .

فكان الملك أو الروح الأمين والروح القدس واسطة بين الله ورسوله ، وكان محمد عليه أفضل الصلاة والسلام واسطة بين الله أولا والملك ثانيا وبين جميع الناس ، ولا شىء الا وهو به منوط . اذ لولا الواسطة لذهب – كما قيل – الموسوط ، وهذا نص من كلام عبد السلام ابن مميش ، وفيه اشارة كافية للحقيقة ، اذ أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أعظم واسطة ظهرت فى الوجود وأعظم شخصية انسانية فى الكون ، لا بايمان المؤمنين كافة أو بادراك النابغين منهم خاصة أو باعتراف عقلاء علماء الأمم الذين فحصوا ودرسوا ، بل بأقوال الله مكررة ومعادة ومدعمة بأدلة من عالمى الغيب والشهادة .

فاذا كان علم استحضار الأرواح قد ظهر فى العالم منذ تسعين عاما ، أى من نصف القرن التاسع عشر ، فانما جاء لينقذ العالم من ويلات المادة والمذاهب المادية التى سلبت الانسانية ونهبتها وأقلقت راحتها ، فان العالم فى هذه الأجيال اردا وأخبث

وأشقى منه فى كل زمن مضى ، ولم يعم البلاء فى وسط النعيم المزعوم بمثل ما عم الآن وقبل الآن بمائة عام .

وها نحن أولاء نرى آلافا من الأحياء ، وكل واحد منهم له روح لها قدرها عند الله ـ يبلون ويذبلون من الفقر والفساد ويسقطون صرعى فى ميدان الكفاح فى الحياة ، ويموتون جوعا ومرضا مع كثرة الأموال والخيرات التى استأثر بها الطغاة والأقوياء ولم يوزعوها توزيعا عادلا ، وهؤلاء الضحايا هم ضحايا أشخاص مفترسين ومغتالين ومستغلين هم المسؤلون عن هذه الآثام لأنهم اقترفوها بأنفسهم أو ساعدوا على ارتكابها عن طريق أثرتهم وجشعهم ، وسوف يحاسبون على ذلك حسابا عسيرا عندما ينتقلون فى مواكب الخزى والعار الى العالم التالى حيث لا قيمة للحياة الأرضية ولا لالقاب ما يسمونه شرفا ولا لقوة المال والجاه .

أى دنيا مجنونة حمقاء هذه التى نراها ؟ .

أين الاعتدال والانسجام والعدل الاجتماعى والرحمة والانسانية ؟

أين روح الأديان ووصايا الأنبياء ؟ بل أين كلام الله وأوامره ونواهيه ؟

لابد أن الله كشف القناع منذ تسعين عاما عن عالم الغيب لمكبح من جماح الانسان طاغية هذا الكوكب الأرضى ، ولم يبعث رسولا لأن محمدا خاتم النبيين ، ولأن وسيلة النبوة لا تصلح لهذا الزمان بعد التطور الذى طرأ على عقول الانسانية وقلوبها ، كما أن الله يسر لبعض المخلوقين الممتازين وسائل الاختراع والاكتشاف ،

فظهرت فى هذه الفترة نفسها الكهرباء والبخار واللاسلكى والطيران والمحركات والصناعات الآليـة ، أملا من الله سـبحانه وتعالى أن تنشغل الانسـانية بهذه الكمالات وتتخذها وسيلة للاصـلاح من شئونها .

***

— ٧ —

الايمان بالاقتنـاع

كان من دأبى حب الاقتناع فى كل شىء بالدليل ، لا اعتمادا على نص حفظته أو رأى سمعته ، ولكن خضوعا للعقل ولمنطق العقل ، وسواء أكان الأمر متعلقـا بالدين أو بالدنيـا ، فان مجرد الكلام لا يكفينى ، وعنـدما كانت التجربة ممكنـة فهى خير عنـدى من المشاهدة ، واذا وجدت المشاهدة والخبر ، فهى خير من الخبر ، والخبر الثابت خير عندى من المبهم أو المشكوك فيه .

وقد كرهت التقليد بعقلى ورأيت عواقبه فى نفسى وفى غيرى ، اذ كنت وقعت فيه مرة أو مرتين ، وهو فى العقائد عندى مرذول ودليل العجز وسخافة العقل ، وقد أبيت أن أكون مسلما مقلدا ، وذهب بى العناد مع أقرب الناس الى مذهبا عنيدا ، وفضلت البقاء بغير دين مدة من الزمن على أن أكون متدينا بالتقليد ، ولكن عنادى ومعارضتى كانتا للوصول للحقيقة المجردة ، وقد كان التقليد من أسباب عدم الاستجابة للدعوة المحمدية ثلاث عشرة سنة فى مكة ، فان حجة الوثنيين أنهم وجدوا آباءهم عاكفين على الأصنام ، وكان ابراهيم أول الخارجين على التقليد ، فانه رفض عبادة الأصنام مع

أنها معبودة قومه وأهله ووالده ، ونرى أهــل مكة يقولون للنبى « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » فيرد الله عليهم « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ويقولون فى مكان آخر « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون · قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ » ·

وكان عنادى وابائى الخضوع للتقليد سببا فى أضرار كثيرة أصابتنى فى الدنيا ، ولكننى لم أكترث لها فى وسط دنيا لا تهمها المبــادىء ولا يعجبها الاصرار على الحــق ، وينقــاد معظمها للقوة أو للتقليد انقيـــاد قطعـــان الغنم ، وقد رأيت هذه « الغنمية » أو « البهيمية » متجلية فيمن حولى تجليا فاجعا ، فزادنى هذا بغضا فى التقليد ، وعرفت أننى يوم أخضع للتقليد فقد فقدت روحى ·

وكان بعض المجادلين لى يظنون أن البحث محرم وأن المعارضة تورث الكفر ، فلم أبال وقلت ان كان التدين بالتقليد واجبــا ، فمعناه أن الدين لا يتحمل المناقشة ، وأنا لا أريد دينا لا يتحمل المناقشة ، وان كان الدين يتحملها فأنعم به وأكرم ، وغفلوا عن الحق ، فان مفخرة هذا الدين المحمدى أنه يصمد للبحث ويطيح العقــل ·

وانك لتجد الرجل منهم يجادل فى اللقمة التى يأكلها والثوب الذى يلبسه وكأس الخمر التى يتجرعها والمرأة التى ينكحها والأجر الذى يتقاضاه ــ ولو لم يؤد به عملا ــ والمبدأ الذى ينتحله ــ وان كان مستعدا أن يخونه ــ والقسم الذى يؤديه ــ وان كان يتأهب للحنث فيه ــ ولكنه يأبى عليك أن تجادل غيره فى دينك · أرأيت قوما أشد عمى وصمما وجهلا من هؤلاء ؟

وما أزال كذلك حتى عثرت على ما يؤيد رأيى وهو أن آيات القرآن وأحاديث النبى وأخبار الصحابة لا يجوز الاستناد فيها الى

تقليد أصول العقائد ، وأن ايمان المقلد ايمان لا يعبأ به . والاسلام صادق النظر فى هذا ، لأن الايمان التقليدى ايمان بغير عمل ولا مجهود ، فكيف ينجو مؤمن من غير عمل ؟

واذا صح فى الأفهام أن ينجو المقلد بالتقليد لمجرد المصادفة لأنه اتبع أهلا أو شيخا كان مؤمنا ، فلما ذا يعاقب من كان كفره أو شركه بالتقليد والمصادفة لأن أهله أو مرشده كانوا كفارا أو مشركين ، ولو أن الكافر اتبع طريقة العلم الصحيحة لكان له شأن آخر ، والمؤمن المقلد لم يتبع طرق العلم الصحيحة لأنه — وان اتبع الرسول — فهو لم يتبعه بعد أن قام الدليل عنده على صدقه ، بل اتبعه تقليدا ، ولو أنه اتبع الرسول بعد قيام الدليل عنده ، لكان ناجيا بلا ريب ، لأنه يكون قول المعصوم هديا يصح الاستناد عليه ، ويكون كتابه هديا يصح الاستناد اليه .

وعلى هذا الرأى كان المرحوم أستاذى الشيخ محمد عبده ، الذى لقى الآلام فى هذا السبيل كما لقيها من بعده تلميذه ومريده الشيخ رشيد رضا ومن قبلهما ابن تيمية وابن قيم الجوزية ، وهؤلاء أربعة من الأئمة الكبار ، وخامسهم فخر الدين الرازى الذى قال « أكثر العلماء على أن التقليد لا يكفى فى أصول العقائد ويجب النظر فى الأدلة على كل واحد » . وهذا الرجل من أجل المفسرين وأفطن العلماء .

أما سادسهم فهو أحمد بن جنبل الذى كان أفضل أهل الحديث وأحد الأئمة الأربعة ، فقد أخبره شخص أن فقيهين أفتياه برأيين مختلفين ، فقال « لا يجوز له العمل بأيهما شاء ، بل يعرض الآراء على قلبه ويتبع ما يطمئن اليه » وهو بذلك يفتى بما يكون للقاضى فى الجرائم الكبرى من حق الحكم بالاقتناع الباطنى

Convictin intime • وهو أقوى وسائل الاقتناع لانه نوع من نور البصيرة •

والسابع الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى أول العشرة السابعـة من القرن الرابـع عشر الهجرى (انظر اجتهاده فى تفسير سورة لقمان) •

كانت هذه القوة العقلية ورائى عندما كنت أجادل فى سن السابعة عشرة رجالا أسن وأعلم ولا يدركون من هذه الأمور شيئا غير أنهم يتهموننى بالالحاد ، فكنت أهزأ بتهمتهم ، ولست فى طلب الأدلة بمغال أو طالب محال ، فانك لا تطلب دليلا على وجود الله أن تراه عيانا ، أو على صدق النبى أن تقرأ صكا سماويا على أيدى الملائكة ، أو تحتم العثور على حفريات ونقوش على أحجار لتعلم أن ابراهيم واسماعيل رفعا القواعد من البيت وبنيا الكعبة بمكة ، فان هذا يكون تعنتا ومن شر أنواع التعنت ، وتمسكا منك بأن لا تقتنع ولكنك تخشى التصريح بنيتك ، ولا يمكنك فى مسـائل الدين والروح أن تطلب أدلة جارية على قواعد المنطق فى الأقيسة ومقدماتها وأشكالها وضروبها ، ولا على قواعد الحسـاب والجبر والهندسة ، بل **يكفى الاستنتاج السليم الذى يضىء المحجة ، وليس اطمئنان القلب وحده بكاف الا فى بسائط الأمور ، ولكن اذا حصل الاقتنـاع فى الكليـات وأمهات المسـائل فلا بأس بالاطمئنان فى الجزئيات والفروع ، وقد تفضل الله فنصب الأدلة وأوضح الحجة فى الأنفس والحوادث والآفاق •**

ومن بين الأدلة التى أوضحها فى الأنفس والآفاق تلك الحركة الروحية التى يظنها الناس حديثة وهى قديمة بل مغرقة فى القدم كما نرى ، فليس بين الأديان القديمة والحديثة من لا يؤمن بخلود الروح والثواب والعقاب ما عدا التوراة التى لم ينص فيها عليهما •

فالمجوس الذين عبدوا زردشت وقدسوا النار ، كانوا يعتقدون باله واحد خلق النور والظلام ، وأن الأجسام تدخل النعيم مطهرة مقدسة ، واليونان كانوا يعتقدون بهاديس وهى مقر الأرواح الخالدة التى ذكرها هومير بالتفصيل فى قصيدته أوديسة ، وكان البراهمة الهنود يعتقدون بالتناسخ ، فاذا تم عقاب الروح بقدر جرمها طهرت وانتقلت من الجسد الغريب عنها واجتمعت بجسدها الأول وعاشت معه فى نعيم أبدى • واذن فالبرهمية تقر الخلود والعقاب والثواب ، واذا مات البرهمى وأحرق ، تبعته امرأته باختيارها لأنها تعيش عيشة أخرى هنية لا تنغيص فيها ولا نكد ، وقد وعدهن البراهمة بأن كل امرأة احترقت مع زوجها فلها بعدد شعر رأسها تمتع ألف سنة بالعيشة المرضية ، والبوذيون يعتقدون أن الروح الذى يعمل خيرا يدخل دار السعادة أو يرسل الى دار الشقاء واسمها دسيجوكف ليعذب فيها حسب ذنوبه لا الى الأبد ، والى هذا يشير المعرى :

خلق الناس للبقاء فضلت

أمة يحسبونهم للنفاد

انهم ينقلون من دار أعما

ل الى دار شقوة أو رشاد

وان فترة العذاب تتلوها فترة تقمص فى جلد حيوان ثم العودة الى الجسم الانسانى الأول ، فالهناءة الأبدية والغاية عندهم خلاص النفوس من الآلام والهموم والوصول الى هذه الدرجة يكون بارتفاع الانسان من هذا العالم حتى يصير غير راغب فى الوجود •

أما اعتقاد البابليين والآشوريين والمصريين القدماء بخلود الروح والثواب والعقاب ، فأمر أشهر من أن يذكر ، وما بقى من

آثار هذه الأمم وتاريخها وكتبها شاهد بهذه العقيدة حتى مجلس القضاة الجالسين لمحاسبة الأرواح منقوش فى سقوف قبور كثيرة للملوك فى وادى الملوك الى يومنا هذا ، وقد شاهدته بعينى ، عدا عما ورد فى كتاب الموتى وتصوير موقف المحاسبة ووزن الأعمال فى ميزان ووزن قلب المتوفى وامتحان الروح امتحانا عسيرا فى تسع درجات يدخل بعدها الى عليين أو يرتد أسفل سافلين فى جسم حيوان أو كيان شجرة ٠

وان الذى يراجع تواريخ هذه الأديان وظهورها واستقلالها عن بعضها فى البيئة والزمان واختلاف الأخلاق والمشارب ، وتباعد الشقة بين كل أمة والأخرى ، واختلاف اللغات والثقافات ، يرى بينها جميعا مهما اختلفت فى أمور أخرى اجماعا تاما كاملا على أن الروح كائن حى خالد يقضى حياته على ظهر هذا الكوكب فى صالح الأعمال أو طالحها أو مزيج من هذه وتلك ، ثم ينتقل الى حياة أخرى خالدة فيها ثواب وعقاب بعد حساب دقيق ، ومهما اختلفت المشارب والمآرب والأصول والفروع والأسباب والنتائج ، فان شيئا واحدا لا يختلف فيه اثنان من هذه الأديان من أقدم العصور الى عصرنا هذا وهو هذا الاعتقاد ، ولم يقم دليل على تواطؤ بينهـا ، والتواطؤ مستحيل ، ولو تواطأت على هذا ، كان أولى أن تتحد فى العقائد كلها ، ولكنها مع بقاء التناحر بينها والتباغض بين شعوبها وتباين درجاتها فى العلم والجهل والقوة والضعف ، قد أجمعت على خلود الروح وحسابها حسابا دقيقا وثوابها على الخير وعقابها على الشر ، كما أجمعت على وجود خالق مطلق القدرة والارادة ، مهيمن على هذا الكون ، مدبر لشئونه ، واضع لقوانينه مشرف على تنفيذها ومباشرتها ٠ (انظر الكتاب الأول من روح الشرائع لمونتسكيو وهو يكاد يقول بمذهب وحدة الوجود حتى اتهمه بعض ناقديه بأنه من أتباع سبينوزا الهولندى الذى ألف كتابا فى ثبوت وجود الله بأدلة

رياضية ، وشرح العالم ادوارد شوريه التاريخ السرى للأديان فى كتابه « كبار العارفين » ، وفى التطور الالهى من عهد سفنكس الى المسيح ، والأماكن المقدسة فى الشرق القديم ، مصر واليونان وفلسطين · وهذه الكتب تحير القارىء فى أول أمرها ثم تثبته بالقول الثابت فى صحة الخالق والمخلوق) ·

وقد جاء القرآن الكريم مؤيدا لهذه الآدلة القديمة بآيات بينات وكذلك الأحاديث المحمدية الجلية الواضحة ، فان الله قد سلك مع الانسانية مسلك الترقى والتطور وكشف لهم القناع بالتدريج حسب معقولية الأمم والدرجات التى وصلت اليها ·

فهؤلاء البابليون الذين عرفوا قصة الخلق ونقشوها على عمود من الحجر الصلد لم يسمحوا للمصريين أن ينقلوها أو يتواطأوا مع اليهود على اذاعتها فى توراتهم ، ولم ينقل عنهم الاسلام فى كتابه المنزل ، وانما الأصل الواحد والمصدر الأول هو الذى أطلع البابليين ثم المصريين ثم اليهود ثم العرب ·

ثم هاهم أولاء أهل هذا العصر المادى الحديث يطلعون منذ مائة سنة على تلك الحقائق الأبدية عن طريق الأرواح ، فانه من العجب العاجب أن ترى هؤلاء الغارقين فى الماديات والمنكرين للالهيات والطاعنين فى الروح ، قد اتجهوا رغم أنوفهم منذ مائة سنة الى البحوث الروحية فى أوربا ، فكانت بحوثهم الروحية على طريقة بحوثهم العلمية فى المختبرات بالدقة والحيطة والحذر والشك حتى جاءت البينات التى تقنعهم ، وأيد علماؤهم الفحول فى أوربا وأمريكا تلك المظاهر الروحية وقيدوها فى مئات الكتب والمجلات المنشورة بأسماء علماء أعلام لا يرتقى الشك الى أسمائهم وشهرتهم العلمية ، ومنهم من كان ينكر انكارا باتا ويتهم المتكلمين بالخداع حتى بعد ظهور العالم الرياضى سويدونبورج السويدى وهو من أهل الجلاء البصرى الموهوبين نعمة الكشف والناطقين بما رأوا وعلموا فى عالم

السر ، وقد ألف كتبه فطبعت ونشرت بملايين النسخ فى اللغات العالميــة (١) .

ثم الآن يسمون استحضــار الأرواح جلســة ويجعلون لها محضرا يوقع عليه شهود عدول ، فما بالهم قد نسوا المحضر الأول المسجل فى التوراة ؟

---

(١) كتب لطفى جمعة فى الهامش ما يلى :

من العلماء الذين اشتغلوا بالبحوث الروحية هوم الانجليزى المتوفى سنة ١٨٨٦ وستانتون موبز المتوفى سنة ١٨٩٢ وكان وسيطا روحيا وأنشــأ مجــلة « الضياء النفسانية » ومن مؤسسى الجمعية الروحية بانجلترا ، ووبليام ستيد المتوفى سنة ١٩١٢ وصاحب مجلة المجلات ومؤسس « مكتب جوليا » والان كارديك مؤلف كتاب كبير فى الأرواح وكان يعتقد فى التقمص . والعالمان الالمانيان زولنر وويبر ، والوسيطة الايطالية يوزابيا بلادينو التى قالت وهى منومة أنها عاشت على الأرض قبل ذلك مرات كرجال ونســاء وترجمت مجلة المقتطف مقالات عنها سنة ١٩٠٤ ، سنة ١٩٠٥ ، وموريسيللى الايطالى صاحب الأبحاث الطويلة فى الروحية . والبروفسور ريشيه الفرنسى وله كتب ومجلة مصورة ، وآنى برايت من ملبورن باستراليا ولها مجلة « رسول النور » ، والســير جوبك ووبليام باريت وادموند جرنى من الانجليز والذين أسسوا جمعية البحوث الروحية وأبحاثهم فى ٢٥ مجلدا . ١٥ كتابا كبيرا ، وكونان دويل الذى الف كتابا فى تاريخ الروحية ، وهنرى برجسون أشهر فلاسفة فرنسا ووبليم كروكس أشهر الباحثين بقلمه وعلمه فى الروحية ، ووبليم جيمس فيلسوف أمريكا الأوحد ، وأوليفر لودج العــالم الانجليزى الشهير ووسيطته السيدة تومسون ، والعلامة الأمريكى هودجسون ووسيطته مسز بايبر .

ويلاحظ أن هؤلاء الرجال والنساء كلهم صادقون وذوو شرف وعفــة وخالون من الخداع والكذب ومعظمهم لا يطلب المال ولا يسعى الى كسبه عن هذا الطريق ، وآراؤهم أن الناس يعيشون بعــد الموت عيشة تشبه الدنيــا فى المشاغل والمصالح ، وهو رأى راجح فلسفيا وجيد أخلاقيا وموافق لما تقوله الأديان .

لا شك أنه لا مطمع لأحد من الماديين فى أن يطعن فى نصوص التوراة بالتزوير أو يتهم أحد أنبياء بنى اسرائيل بالخداع أو الكذب لخدمة العلم الجديد ٠

انظر الى سفر صموئيل الأول فى الاصحاحين ٢٨ ، ٢٩ تجد حديثا من أعجب الأحاديث نصه الآتى « فقال شاول لعبيده فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب اليها وأسألها ٠ فقال له عبيده : هو ذا امرأة صاحبة جان فى عين دور ٠ فتنكر شاول وجاء الى المرأة ليلا وقال : اعرفى لى بالجان وأصعدى لى من أقول لك ٠٠٠ فقالت المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدى صموئيل (سلفه الصالح) ٠ فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة شاول قائلة : لماذا خدعتنى وأنت شـــاول ؟ ٠ فقال لها الملك (شاول) : لا تخافى ، فماذا رأيت ؟ فقالت المرأة لشاول : رأيت اله يصـــعد من الأرض ٠ فقال لها : ما هى صـــورته ؟ فقالت : رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة ٠ فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه الى الأرض وسجد ، فقال صموئيل لشاول : لماذا أقلقتنى باصعادك اياى ؟٠ فقال شاول : قد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع ٠ فقال صموئيل : قد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داوود لأنك لم تسمع لصوت الرب ٠٠٠٠٠ » الخ ٠

فليقرأ بقية محضر الجلسة فى موضعه من التوراة من يشاء ٠

وترجمة هذا المحضر بلغة العصر الحديث أن هذه المرأة التى كانت تسمى « صاحبة جان » لم تكن سوى وسيطة معروفة تستحضر الأرواح ، حتى أرواح الأنبياء والملوك ، وشهود هذه الجلسة شاول والرجلان اللذان صحباه ، وتسجيل المحضر فى التوراة وهو كتاب مقدس عند الكثرة المتدينة فى العالم وهم النصارى واليهود .



التكوين الفلسفي

(١)

سبب دراستي للفلسفة

القراءات الأولى ـ محاولة التأليف ـ فكرة الالتحاق بالأزهر ـ

كيف السبيل الى الفلسفة ؟

لا أحاول مطلقا أن أدافع عن نفسي ولا أحاول أن أدعي (١) ٠

فانني شغلت بعلوم كثيرة وآداب كثيرة حتى تشعبت مطالبي ، وأفرطت في المطالعة والدرس وجعلت لكل فرع من فروع المعرفة الانسانية جانبا من ذهني ٠

وقد عشت في زمن شاعت فيه فكرة التخصص ، ولست ازعم أن التخصص ينافي العلم لأنه يضيق البحث ويحدد آفاق النفس البشرية المتطلعة ، وان كثيرين من المتخصصين يكونون خاويي الوفاض من كل علم وأدب غير ما انقطعوا له ، ولا أنكر ان من انقطع لشيء أحسنه ، ولكن أقيد ذلك الاحسان بشرط النبوغ الشامل وامتلاك الملكات والمواهب ، والا فان الرجل العاجز عن الادراك العام يعجز حتما عن التخصص ويتدارى وراءه بحجة انه لا يمارس عملا سواه ٠

---

(١) كتب لطفي جمعة هذا الفصل من هذه المذكرات سنة ١٩٤٢ ٠

نعم ان التخصص جميل ونافع فى بعض فروع الطب كطب العيون والولادة والجراحة ، ولكن ليس معنى التخصص أن يكون الرجل جاهلا فى كل شىء ماعدا عمله الذى اشتهر به ، فقد قرأت لأطباء فرنسيين كتبا فى الطب تكاد تكون من الأدب المصفى من حيث جمال الأسلوب ودقة التعبير وبلاغة الوصف ، وهى صفات لا تكتسب لمن انقطع للطب وحده ، بل لابد أن تكون له قدم عالية فى الأدب والتاريخ وعلم النفس ، وقرأت لمهندسين متخصصين كتبا فى فنونهم تعد آية فى بلاغة الكتابة ، وقرأت لكبار المحامين المتخصصين فى القانون شعرا ونثرا وقصصا ونقدا أدبيا يعد فى الدرجات العليا ، وفى نظرى أن العلم عند ممارسته يعد علما حتى اذا شاء العالم أن يكتب فى علمه فقد صار أدبيا .

ولما كانت العلوم القانونية ولا سيما المحاماة تقتضى اتقان البلاغة لأن الخطابة جزء منها فى المرافعة على لسان الدفاع والاتهام، وكذلك عند القضاة عندما يكتبون الأحكام المسببة ، وكذلك عند رؤساء النيابة العامة عندما يكتبون تقرير الاتهام أو تقرير الحفظ ، وعند أساتذة الحقوق عندما ينبرون للتأليف ــ فقد صار فن الانشاء الرفيع جزءا لا ينفصل عن تخصصهم .

ولما كانت ميولى الى القانون منذ حداثتى ظاهرة ، فقد اتجهت الى اتقان اللغات ما استطعت ، ثم اتقان البلاغة علما وعملا لأنها جزء من صناعتى ، وان لم أكن بلغت فيها الشأو الذى كنت أتمناه ، ولكن يشفع لى أننى تحريت أن أتقن ما استطعت .

غير أن أهل زمنى وأهل بلدى لأسباب كثيرة ينظرون الى كل شىء نظرا معكوسا حتى أنهم لعيروك بالفضيلة أو النعمة .

ولذا فقد اقترن حب العلم أو حب الاطلاع بآفات البغضـــاء والحقد بدلا من أن يصحبهما التشجيع أو حب الخير أو الفرح بما جاد الله عليك به .

ولذا نرى الرجل الذى أنعم الله عليه بموهبة اذا انطوى على شىء ولو يســيرا من التواضع والتعفف والكرامة قد ديس تحت الأقدام ووطأته المناسم وانمحى ذكره من سجل الأحياء ، لأن الوقحاء والجهلاء وأهل الأحقاد الذين أتقنوا فنون الدس والوقيعة يتقدمون بصفاقتهم ورذائلهم ليحتلوا الأماكن التى يستحقها ، لأنه يتنحى احتفاظا بكرامته .

وقد أصبح المشاهد أنه لا يكفى أن تكون كفؤا أو فاضلا أو عالما مع وداعة فى الخلق أو اباء فى الطبع ، بل يجب عليك ـ لتصل الى حقك ـ أن تكون صفيقا رذلا منافسا متهجما لا تعرف الخجل ولا الآداب ولا الحياء ، والا فلا سبيل الى شىء مما تســـتحقه أو تتطلع اليه !

وعلى هذا دب الفساد الى الأعمال والمناصب لخلوها من أهل الكفايات الذين لديهم خلق ، وتقدم اليها الجهلاء المتسلحون بالوقاحة والغطرســـة والطمع مع استعداد كبير للرياء والنفاق والانحطاط وغيرها من الرذائل .

ولست هذا بسبيل البحث فى تعليل ذلك أو تفسيره ، فان معظمه يرجع الى انحلال الأمة ووصـــولها الى درك الفناء الخلقى واستيلاء العجز على مدبرى شئونها من جميع الجهات .

ترجع ميولى الى الالمام بالعلوم الى علة قوية وهى فساد التعليم فى المدارس والمعاهد التى نشأت فيها فى أواخر القرن التاسع عشر

وأوائل القرن العشرين ، لأجل هذا كنا نسمع باسم الفلسفة ولا نراها ، وباسم الفلك ونشتاق اليه ولا نجده وباسم المنطق ونحب أن نطلع عليه فلا نعثر عليه وهكذا .

فكنت أثناء الدرس أهجم على الكتب الواسعة والتمس الاستزادة وأشعر بظمأ شديد للاستيعاب واجمع ما أستطيع من المجلات والمراجع الكبيرة ، ولكن لا أجد المرشد والأستاذ الذى يقود خطواتى وأجد السخرية تجرى على لسان الأستاذ أو التلاميذ اذا لمحوا معى كتابا من هذا القبيل ، فكانت هذه بداية الاضطهاد .

ولكن هذا كله لم يفت فى عضدى بل دأبت واستمررت وانفقت كل ما أملك فى شراء الكتب المنبوذة البغيضة الى أساتذتى واخوانى فى الطلب ، وليس هنا مجال ذكرها أو تعديدها أو تأثيرها فى نفسى .

ولكن يجدر بى أن أذكر الأستاذين أو الثلاثة الذين ساعدونى وشجعونى فى تلك الفترة من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٥ .

ففى مقدمتهم المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى الذى كان وجوده فى المدرسة الثانوية فلتة ندم عليها رجال وزارة المعارف أى ندم ، لأن هذا الرجل كان لا يعبأ بالنحو والصرف وعلوم الرسوم والأشكال ، بل كان يلخص لنا كتب الغزالى ويدربنا على فصاحة القول وبلاغة الكتابة وشرح القصائد الكبار وتفسير القرآن .

وغير الشيخ جوهرى المرحوم على فوزى والأستاذ ادوار فانديك ورابع اسمه فوستر سميث .

أما فانديك فهو ابن المستشرق كورنوليوس فانديك مؤلف كتاب النقش فى الحجر الذى درست فيه مبادىء الفلك والمنطق

والنبات والفلسفة بارشاد ابن المؤلف . وكان يقرضنى كتبا فى المنطق وأخرى فى التاريخ وان يكن درسه الرسمى هو الترجمة ، وكان ضنينا بها ولكنه يتقنها .

وكان المرحوم على فوزى حجة فى اللغتين العربية والانجليزية فافدت بتعليمه كثيرا فى دقة التعبير وتفهم النصوص .

أما فوستر سميث فكان رجلا متحررا مفتوح الذهن مشفقا على التلاميذ ، وكان يلفت نظرى الى المطـالعة فى كتب الأدب الانجليزى ويرشـدنى الى خيرها ويتحدث الينا فيما لا علاقة له بالأجرومية والاعراب ويتوسع فى شرح الشعر حتى حبب الى مؤلفات شكسبير ، وكان أول من ذكر لى الياذة هوميروس وفلسفة أرسطو وأفلاطون والثورة الفرنسية وتاريخ محمد تأليف واشنطون ارفنج ، فكان ذهنى يشـتعل عند سماع أسماء الكتب والمؤلفين فأبادر الى الحصول عليها وقراءتها ، ولم أجد أن واحدا من هذه المؤلفات عطلنى أو أخرنى أو جار على وقتى الذى فرضته لمراجعة دروس المدرسة واتقانها .

وجاء رجل اسمه جونز متخرج فى اكسفورد ومتخصص فى التاريخ ، وكان أول وآخر من اتبع طريقة التدريس الجامعى ، فيلقى محاضرة فى دروسه ثم يرشدنا الى المراجع فى الكتب ، فرفع عن أبصارنا غشاوة الجهل وضيق نطاق العلم ، ولكن الذين انتفعوا به قليل ، وكره الرجل أن يتواطأ مع رؤساء المعارف على تجهيل الطلاب ففـارق مصر بعد عام واحد واستمر يراسلنى ويبعث الى بأسماء الكتب والمؤلفين من انجلترا تارة ومن الهند تارة أخرى ، وكان يحدثنى عن تولستوى سرا ويرشـدنى الى بعض كتبه ويملى على أسماء كتب فى التاريخ والأدب .

هكذا كانت البذور الضئيلة التى غرسها الله فى نفسى على أيدى هؤلاء الأفاضل خلسة وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى .

أما قبل ذلك ـ أى أثناء التعليم الابتدائى ـ فكانت مطالعتى فى غير كتب الدرس مقصورة على حديث البخارى ومجلة المقتطف ومجلة الهلال وألف ليلة وليلة وسيف بن ذى يزن وشعر المتنبى واعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس وبعض القصص الانجليزية مبسطة ، وكنت أجمع بمالى مجلات انجليزية مثل ستراند مجازين وونزور مجازين ومجلة المجلات ومعظمها أعداد قديمة من نفاية ما يبيعه خدم الانجليز فى الطرق .

ثم عثرت على مجموعات جرائد من عهد الثورة العرابية وعلى نســـخة قديمة من كتاب مصر للمصريين ، ومن أهم هذه الصحف أبو نظارة وجريدة المدرسة والأرغول للمرحومين عبد الله النديم والشيخ محمد النجار وبعض مقالات من مجلة العروة الوثقى ومن خطب الثورة العرابية وشعر البارودى .

وكنت أرى قيمة لشعر أبى زيد الهلالى فجمعت أجزاءه ، **وكذلك شغفت بالأمثال العامية فجمعت فيها كتبا وهى أساس ما تعلقت به من دراسة الفولكلور** ، وأول من ألف فى هذا الفن المرحوم محمود عمر وكان يجمع القصص والأمثال والأغانى الشعبية ، وهو أول مصرى انتبه لهذا النوع من البحث دون أن يجعله للتســلية بل للدرس والدلالة على أخلاق الأمم ، وقد توسعت بعد ذلك فى هذا البــاب وألفت فيه وجمعت قاموســا حســـنا فى اللاحن Argot واللغات السرية فى اللغة العربية (١) .

---

(١) للطفى جمعة كتاب عنوانه « مباحث فى الفولكلور » ، صدر سنة ١٩٩٩ عن طريق مكتبة عالم الكتب بالقاهرة . ثم أعادت الهيئة العامة لقصور الثقافة طبعة سنة ١٩٩٩ أيضا ضمن سلسلة مكتبــة الدراسات الشعبية برقم ٣٤ .

وكانت تصل الى يدى جريدة لسان العرب وروايات نجيب حداد ومؤلفات أخرى منقولة عن اللغة الفرنسية وكتب من وضع المرحوم أحمد زكى مثل السفر الى المؤتمر (باريس سنة ١٩٠٠) ، وتاريخ أمم المشرق وهو ترجمة موجزة لكتاب ماسبرو ، كما وصل الى يدى كتاب جمهرة أشعار العرب طبعه يونانى مستشرق وباعه لنا أحد أقاربه .

وهكذا كانت بضاعتى قليلة ولكنها كانت تروى شيئا من غلتى .

وفى تلك الفترة كان الأستاذ فريد وجدى ينشر مجلة باسم الحيـــاة وفرح انطون ينشر مجلة باسم الجامعة فكنت أقتنى منهما ما يصل الى يدى .

وفى تلك الفترة حاولت التأليف ، فوضعت رسالة فى تاريخ مصر القديم وقطعة تمثيلية مسجعة ، وبدأت ترجمة مقولات فرنسيس باكون ، ولا أدرى على التحقيق أين ذهبت هذه المخطوطات التى لا قيمة لها الا من حيث تاريخ عقلى وتطلعه .

فلما وصلت الى القاهرة والتحقت بالمدرسة الثانوية لم أجد فى دروسها ما يشفى غلتى ، وأدركت أن هنا عقبات فى الطريق مقصودة حتى هممت أن التحق بالأزهر بعد أن قرأت كتبه فى صحبة صديقى المرحوم محمد عثمان الفندى الذى كان أبوه محاميا شرعيا وله أصدقاء معظمهم من مجاورى الأزهر الشريف كأفراد أسرة لطفى المنفلوطى والغاياتى ، ولكن علمت أن التعليم فى الأزهر يقتضى أن أخلع زى الأفندية الذى درجت عليه والبس العمامة والجبة ، وتحدثت الى أحد أصـــدقائى فنصحنى بالعدول عن هذه الفكرة وقال لى ان المشايخ يخلعون أزياءهم ليتزينوا بالسترة والبنطلون والطربوش وأنت تريد أن ترجع القهقرى ، ثم ان الأزهر لا يعلمك العـــلوم

الحديثة ولا اللغات الأجنبية ، فاذا دخلته خسرت كل ما تعرفه وان يكن قليلا ولن تفيد شيئا ينفعك ، وأنك اذا جاورت تنقطع عن العالم المتمدن (كذا) ولا تستطيع الالمام بالجديد وهو الذى يسير العالم فى طريقه ، بينا يمكنك وأنت فى المدارس الحديثة أن تلم بعلوم الأزهر بأن تحضر بعض الدروس وتقرأ الكتب التى تدرس فيه ، وان كان معظمها عقيما (كذا) ولا يصلح منها للدرس الا القليل .

وكان المتكلم لى أزهريا فاضلا ، فعملت بمشـــورته وحاولت الاتصال بالأزهر جهد طاقتى ، وكان هذا سبب اتصـالى بالمرحوم الشيخ محمد عبده .

كل هذه الثورة العقلية حدثت فى قلبى سنة ١٩٠٠ أو سنة ١٩٠١ ولا يشعر بى أحد من أهلى وأساتذتى ، كنت أعد القاهرة كعبة العـــلوم وقبلة المعرفة وأننى لابد أن أجنى من ثمارها أكبر نصيب وأن أتفهم تاريخها القديم والحديث وأن أطبق ما أعلم منه على ما أرى ، فكنت أطوف الشوارع والأزقة لأزور المساجد والمعاهد وأتنسم ريح التاريخ من جدرانها الشاهقة وأتخيل بالأماكن حقيقة ما وقع فيها من مئات السنين ، وأعتقد أن للأماكن أرواحا كالأحياء ، وأن هذه الأرواح لا تغادرها .

وبدأت تتنازعنى أهواء شتى ، فاللغة العربية لهـــا جمالها وتاريخها وآدابها ، ولكن الذى لدى منها قشـــور نعطى على أيدى الأســاتذة ، وأمهات الكتب ممنوعة علينا ولو أبيحت فلا أجد من يرشدنى اليها .

أسمع بالفلســـفة العربية ولا أجدها ، وليس بين يدى منها الا تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ، وهو يذكر أرسطو وأفلاطون ، ولكن كيف السبيل الى فلسفة أرسطو وأفلاطون ؟

وفلاسفة الافرنج لا أسمع عنهم الا ما يرد عرضا فى المجلات السورية كاسم سبنسر وأوجست كومت ، ولكن كيف السـبيل اليهمـا ؟

وأخيرا سمعت باسم ابن رشد فوجدت فى المكتبات الأزهرية كتابا له أو كتابين مشوهين فى طبعهما ولا تنسيق فيهما وقد ملئت هوامشهما بكتب أخرى ولم أكن درجت على قراءة الهوامش .

كما أننى فى قراءة البخارى لم أعرف علوم الحديث وسلسلة الاسناد وتحقيق الرجال ومرامى الأحاديث نفسها ، ومعظم قراءتى فيه كانت للبركة لا للعلم .

ومجمل القول اننى كنت فى الخامسة عشرة من عمرى فى حيرة تتنازعنى أهواء شتى ، فقد بدأت بقراءة الكتب الانجليزية وبدأت أفكارى تصبغ بالصبغة الانجليزية وابتدأت ميولى تتجه نحو الاعجاب بها ، لأن الذى يقرأ أدب أمة أو تاريخها يصاب بالاعجاب بها ويغرق فى لجة تقليدها .

— ٢ —

تاريخ الثورة الفرنسية لكارليل — تاريخ محمد لواشنطون ارفنج — البحث فى أصل ومذهب داروين —
الغزالى ومبدأ الشك لديكارت

كان معنا ثلاثة طلاب أحدهم على فؤاد طلبه وهو مصرى ولد فى سيلان وكان أبواه فى المنفى ، والآخر هندى اسمه عبد الحميد من

جنوب افريقيا ، والثالث جاوى من بطاوى اسمه محمد صـــالح عبد الله .

أما عبد الحميد فكان أنبغ الطلاب فى الانجليزية والرياضة ، وكان يقرأ تاريخ الثـورة الفرنسية لكارليل وأقرضنى اياه فلم أستطع حل رموزه فاشتريت كتابا آخر وثالثا من تأليف كارليل (عبادة الأبطال وســـارتور ريزارطوس) وكل منهما على طريقة جديدة انفرد بها هذا الكاتب الفذ ، فصممت على أن أقرأ كتاب الثورة ولكنى لم أحظ بدرسه الا بعد أن قرأت مؤلفات جورج لينوتر بالفرنسية ، أما عبادة الأبطال فكان فيه فصلان مهمان عن محمد صلى الله عليه وسلم وآخر عن نابليون بونابرت قرأتهما بسهولة ، وقد شفى غليلى عن محمد كتاب واشنطون ايرفنج الكاتب الأمريكى وهو أوضح وأنفع من السير العربية التى تجمع ألف قول وقول ثم يقول مؤلفها « والله أعلم » فيخرج القارىء بغير نتيجة لأن المؤلف لا يريد أن يتورط بابداء رأيه فى أصغر المسائل .

أما على فؤاد طلبه ، فيكـــاد يكون لا يعرف العربية ويتقن الانجليزية كأبنائها ، فبدأ بينى وبين عبد الحميد وطلبة صراع على الغلبة فى اللغة الانجليزية فعملت جهدى حتى بلغت شأوهما وكان لى القدح المعلى فى التحرير فى مجلة المدرسة الخديوية بالانجليزية وفى الخطابة فى أندية المناقشة والمناظرات Debating Club » .

أما الطالب الجاوى محمد صالح عبد الله فقد أشعل خيالى بوصف مسقط رأسه وعرفنى بناحية من العالم كانت مجهولة لدى وهى الشرق الأقصى وغرائب مخلوقاته ونباته وحيوانه ودخـــول الاسلام فيه ووصف مشاهده ومعابده الوثنية قبل دخول الاسلام فيه ، وكان يسافر الى وطنه فى كل عام ويراسلنى من بطافيا الى أن انقطعت عنى أخباره ، ولكن اسمه وصورته مازالا حاضرين فى

ذهني بسبب خبر غريب نقله الى وهو أن بجاوه قردة قوية كبيرة تشبه الانسان شبها كبيرا ، وقد بقيت هذه القصص مختزنة فى ذهنى الى أن قرأت بعد ذلك بخمس عشرة سنة أن الدكتور « ديبوا » الهولندى اكتشف فى جاوه فى سنة ١٨٩٣ هيكلا عظيما من العهد السابق للتاريخ ، فجمع مؤتمرا من ستة علماء لفحص هذا الهيكل ، فقال ثلاثة منهم انه هيكل قرد شديد الشبه بالانسان ، وقال ثلاثة انه هيكل انسان شديد الشبه جدا بالقرد ، وكان لهذا الاكتشاف ولهذا المؤتمر شأن كبير ، فانه جدد عهدا فى البحوث الخاصة بأصل الانسان ودل العلماء على كثير من الحقائق .

وأرى أن أسجل هنا أن محمد عبد الله الجاوى افادنى أكثر من طلبة وعبد الحميد لأنه غرس بذور البحث عن أصل الانسان فى ذهنى .

وبدأت فى هذه الفترة أسمع عن مذهب داروين وأعى الطعن فيه وأنه مخالف للدين وناقض لقصة آدم وهادم لعقيدة من أهم عقائد الأديان ، فوجدت نسخة قديمة من كتاب « أصل الأنواع » Orgin of Species لداروين فحصلت عليها ، وهذا الكتاب ينقض قصة التوراة عن خلق آدم . وقرأت بالعربية فى المقتطف ما كان يكتبه الدكتور شبلى شميل وصاحب المقتطف نفسه الدكتور يعقوب صروف ، ثم هجمت على كتاب داروين فوجدت صعوبات هائلة فى أوله ثم لأن وسلس قياده بعد ثلاثين أو أربعين صفحة .

فرأيت فيه غير ما يقوله الناس وأن داروين لم يجزم مطلقا بان اصل الانسان من القرد ، ولكنه يثبت قوانين النشوء والارتقاء وهى لا تخالف مشيئة الله بل تؤيد قدرته سبحانه وتعالى .

وكانت مطالعة هذا الكتاب سببا فى حصولى على كتـــابه « تسلسل الانسان » للمؤلف نفسه وهو آية فى الايضاح والتبسيط، وعثرت أثنـــاء ذلك على نبذة فى مقدمة ابن خلدون تؤيده وهى بنصها الآتى « ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج ، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات وآخر أفق النبات متصل بأول أفق الحيوان، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريج التكوين الى الانســـان صاحب الفكرة والروية » . انتهى .

فأدهشتنى هذه النبذة دهشة عظيمة وأنها ســـابقة لمؤلفات داروين بمئات الســـنين ، ويكفى وجودها ليرشد العالم الطبيعى للبحث والتنقيب ، فان فيها تصريحا لا تلميحا باستعداد المخلوقات بارادة الله للتطور والارتقاء .

ووجدت فى ذلك العهد فى كتب الغزالى العبـــارة التالية « لو لم يكن فى ذلك الا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لكفى به نفعا ، فان من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة » .

وهذه قبل ديكارت الذى ناحوا عليه بمئات السنين .

وقال الغزالى أيضا « اذا وجدت تناقضا بين العلم والدين فخير لك أن تعمد الى التأويل من أن ترمى الدين بتهمة الضعف » .

لقد عثرت على هذه النبذة مصادفة فشجعتنى وسلحتنى بحجة قوية ولم أجار الطاعنين والناقدين ، وكان الشيخ طنطاوى جوهرى

فى صفى وقال لى ان النبذة الأولى فى « احياء العلوم » وأن الشيخ محيى الدين بن عربى رحمه الله كان يحرم ايمان المقلد ويقول ان أعماله باطلة وغير مقبولة ، ولابد للمؤمن من فحص ايمانه ودرس كل شيء بنفسه حتى يطمئن .

وذكر لى الشيخ طنطاوى أيضا أن الغزالى عند رده على الآراء المخالفة والمذاهب المعارضة لمذهبه ــ كان يشرحها ويحسنها ويوضحها كأنه يدافع عنها كما فعل فى كتاب مقاصد الفلاسفة حتى ظن الكثير من قرائه أنه منهم ــ أى من الفلاسفة ــ وكان يسميهم القدامى .

أعود فأقول انه ليس معنى ما قلت اننى أؤيد مذهب داروين أو أنفيه ، بل أقول ان نسبة هذا المذهب الى داروين وحده ظلم لسابقيه من العلماء الأعلام أمثال لامارك وجوردون وهوكسلى وارنست هيكل ، وكان ظهور كتاب داروين فى وسط القرن التاسع عشر ، ولكن علماء كثيرين قبله قد مهدوا له السبيل ، وقامت فى أمريكا وأوربا الآن حركة قوية لنقض آرائه تحت تأثير تطور العلوم الطبيعية والفلكية ، ولكن كثرة من العلماء لا تزال تؤيده ، ولا أحب التعرض لهذا النزاع وأحب أن أبقى على ما وصلت اليه بالدرس الطويل ، **غير أننى أصرح بأنه مهما كانت عقيدتى فى آراء داروين وأشياعه ، فلم يزعزع هذا عقيدتى الدينية .**

ولكن داروين لم يكن عالما من علماء التشريح ، وقد أقبل على المسألة اقبال عالم بسيكولوجى لا اقبال عالم من علماء التشريح ، وبعد أن قضى سنوات عديدة فى الملاحظة الدقيقة والبحث والمقارنة ، اقتنع أن الفروق بين عقل الانسان وعقل القرد ــ على كبرها ــ هى فروق كمية لا فروق نوعية .

ولكن أين الآن مذهب داروين فى عالم التشريح وعلم النفس وعلم تاريخ الانسان ؟

لقد ظهر كتابه « أصل الأنواع » في سنة ١٨٥٩ بعد أن قضى اثنين وعشرين عاما فى الدرس والبحث والتنقيب ، وظهر كتابه « أصل الأنواع » سنة ١٨٦٨ ، وكان فى التشريح عالة على العلامة هو كسلى ، فأخذ قوله كلاما مسلما به ، وكان هوكسلى ـ على علمه ـ عدوا لدودا لسير رتشارد أون أكبر علماء التشريح فى عصره، وريتشارد أون جاء بأدلة يستنبط منها أن تاريخ ظهور الانسان على الأرض أقدم كثيرا من التاريخ المذكور فى التوراة وهو ٤٠٠٠ سنة ، ولكنه صب جام نقمته وامتهانه على الرأى القائل بأن الانسان ارتقى من أصل قردى ، فصرح بأن الفروق بين القرد والانسان كبيرة جدا لا يسعه معها الا أن يعين للانسان مقاما خاصا فى نظام المملكة الحيوانية .

وانبرى له هوكسلى بكتاب فى سنة ١٨٦٣ « أدلة لاثبات مقام الانسان في الطبيعة » ، دلل به على أن مقام الانسان فى الطبقة العليا من الحيوانات الثديية المعروفة « بالبريماتيس » ، وأن القردة الشبيهة بالانسان أقرب الأحياء اليه ، وكان جمهور العلماء يعتقد أن الانسان خلق خلقا منفصلا .

كنت أقرأ هذا وأسأل نفسى : اذا كانت القردة العليا قد أنتجت الانسان ، فلم لا تنتجه الآن وقد ارتقت بحكم الطبيعة عما كانت عليه من نصف مليون سنة ؟ ولم لم يظهر بينها مخلوق واحد ـ ولو على سبيل الاستثناء ـ يشبه الانسان ؟ وهل قانون الارتقاء كان نافذا ثم تعطل ؟ ولم لم يحدث العكس والنقيض على سبيل الرجعى وهو أن تلد امرأة مخلوقا شبيها بالقرد .

على أن البحوث الجيولوجية لم تمكن أحدا من العلماء من الحصول على الدليل القاطع على أن الانسان نشأ من أصل قردى شبيه بالانسان ، لأنهم لم يعثروا بعد على الحلقة المفقودة أى على أثر انسان فى طور الانتقال من أصل قردى شبيه بالانسان الى شكل انسانى ، فكيف نقول ان الانسان فى أثناء نشوئه مر بدور كان يمت فيه بصلة الى القردة ونحن نرى الفروق الكبيرة بين الانسان والقردة فى التركيب والمظهر والتصرف ؟

لقد أسهبت فى هذا الموضوع لأنه شغل بالى فى صغرى أمدا طويلا وقرأت فيه كثيرا من الكتب والبحوث ولا سيما كتاب بوخنر الذى نقله الى العربية شبلى شميل ، وكان المقتطف يجمع فى أعداده بين مقالة فى مذهب داروين وأخرى فى بحوث روحية تثبت خلود الروح ، فكانت الحيرة كبيرة فى أذهان القراء .

وقد وقفت هنا طويلا كما وقفت أثناء دراستى الشخصية فى شبابى ولم أكن اذ ذاك مقيدا كما أنا الآن بعقيدة دينية ، بل كنت أستبيح هدم كل شىء فى سبيل وصولى الى الحقيقة ، والآن — وان كنت مقيدا — فاننى مرتاح الضمير ، ولكن لاحظت أن الناس كانوا يعتقدون خطأ أن الانسان متسلسل من القرد مباشرة ، لأن الحقيقة التى قال بها العلماء هى أن جميع « البريمات » — من لفظ بريمو أى الأول — بما فيها الانسان والقرد نازلة من جد أعلى مفترض الوجود ويطلق عليه اسم ارشبريماس : **Archprimas** أى الأول الأكبر أوجد البريمات الأول !

والخرق الواسع فى هذه السلسلة هو أن الجد الأعلى هذا منقرض ومفترض الوجود ولم يعثر عليه هيكله أو جزء من هيكله أحد ولا ينتظر أن يعثر عليه .

***

- ٣ -

بين الانسان والحيوان

لم أحب أن أتنازل عن الأصل الآدمي لأن آدم مخلوق على صورة الله وفيه عنصر روحاني لا شك فيه .

نعم ان الاختبار يدلك على أن الانسان في الحضارة أحط من الحيوان وأقسى من الوحش ، فان أجناس الحيوان لا تعمد الى هلاك أنفسها ولا تعمل بأيديها ما يقودها الى حتفها ، وهي على قوتها وشدة ذكاء بعضها لا تفكر في الاجرام وهو خصلة انسانية ، وعند الناس للحيوان أياد مشكورة ، وكل الحيوان النافع للانسان كالأغنام والجمال والأبقار والخيل والحمير والبغال والكلاب الأصيلة لا يأكل اللحم ولا يتذوقه ، ولا يشبه الانسان في نهم اللحم الا الوحوش الضارية ، ومعظم الحيوان والطير - حتى الثعابين والعقارب - مقيدة بمواعيد معينة للسفاد ، حتى أن أنثى البقر لا تسمح للذكر بقربها أثناء الحمل ، والانسان يفعل ذلك وتشتهيه أنثاه ، والحيوان لا يشرب الخمر ولا يقتل أخاه ولا يقامر ولا يسرق قوت رفيقه ، وكلاب الصيد لا تلتهم الأرانب والطيور التي تنالها مخالبها ولو كانت جائعة ، فلو كان أصل الانسان حيوانيا لكان تشريفا له وانحطاطا للحيوان الذي تسلسل منه مهما كان نوعه !!. ولو صح هذا لكان جده الأعلى مزيجا من الذئب والثعلب وابن آوى والأفعى ، وقديما قال المعري :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى

وصوت انسان فكدت أطير !

فعلام هذه المعركة ؟

لا شك عندى أن الأرشبريماس الذى افترضوا وجوده لم يقتل أخاه ، ولكن قابيل قتل أخاه هابيل لأمر تفه سجلته التوراة وأثبته القرآن .

نعم ان الانسان أشرف الكائنات ولكن جميع العلماء يسمونه الحيوان الناطق أو الحيوان الضاحك أو الحيوان الماشى على اثنتين (أى قدمين) ولم يخطر ببال عالم أن يسميه الحيوان ذا الروح العاقل أو النفس الناطقة .

نعم ان الانســان مهبط الوحى الالهى ، ومع هذا فان هناك اعتبارا مهما وهو أن الذين أوحى لهم من بنى الانسان عدد قليل جدا بالنسبة الى عدد الناس والى تغلغل تاريخ البشر فى القدم ، فلو كان مليون سنة ــ وهو أعدل تقدير ــ فان الوحى الالهى لم يتجاوز أربعة آلاف عام ، ووحى الله لعيسى لم يصل الى ألفى عام ووحى الله لمحمد لم يبلغ ألف وأربعمائة عام ، فلو كانت حياة الانسان على الأرض تشبه النهار ، فان الوحى لم يصل الينا الا عند الغروب بالنسبة لأهل هذا الزمان .

فعلام هذه المعركة الحامية ؟

هل ترى شرور عالم الحيوان منذ الخليقة الى الآن تصل الى جزء من ألوف الملايين من شر الانسان وجنايته على النبات ــ وهو كائن حى ــ والحيوان وعلى الانسان نفسه ؟

ولا أحب أن أتعرض لطبيعة الخير والشر ، ولكن أعتبر القتل شرا والنهب شرا والاعتداء على الأعراض شرا الى أن يتبين لى أن للقتل والفتك حكمة خافية تقلبه خيرا محضا ، أما الشر المحقق فهو

ما نراه كل يوم من الجرائم المعجزة للشياطين حتى استحق ابليس أن يعود تلميذا لنسل آدم بعد أن كان في أول الزمان معلمه وعدوه !

لو قلنا ان الانسان أشرف الكائنات ، فلا ننس أن الانسان ليس كله شريفا ولا سلميا ، وأن الكثرة الغالبة تعب الأنبياء والمرشدون في تقويمهم وتربيتهم وعجز الوازع الديني عن هدايتهم .

لم نر بين طوائف الحيوان قائد قطيع يظلم قطيعه ولا يستبد به ولا يفسق فيه ولا يأكل قوته ولا يسد عليه طريق الماء ولا يتآمر عليه ولا يستأثر بمنفعة ، بل رأينا هذا كله وأضعافه في جنس الانسان ، ورأينا الانسان يقتل ملكه ومعلمه وأباه وأمه والغريب عنه طمعا في دراهم معدودة أو استعجالا لميراث ، ولم نر وحشا هجم على مروضه الا في الندرة ، ولابد أن يسبق انتقامه اعتداء صارخ وظلم فاضح من الانسان على الحيوان .

انى لا أنكر أننى لست متفائلا بجنس الانسان قاطبة ، فان الذى وقع على الحيوان من اليد الانسانية أخف بكثير من اعتداء الانسان على الانسان ولا سيما فى الحروب .

ولا يعتدى الحيوان على الانسان الا مدافعا ، فالصياد الذى يتسلح وينفق الأموال الطائلة كبعض أمراء مصر المعروفين ليبدد ثروة مصر فى صيد الفيلة والتماسيح ـ انما يهاجم الأسد فى عرينه ويفرق بينه وبين أنثاه وأشبالهما لمجرد الشهوة واشباعا لداء الساديزم (أى التلذذ بآلام الغير) ، فهل لا يستحق هذا الوحش الانسانى أقل من أن يفتك به الفيل أو يبطش به الأسد أو يغتاله النمر أو ينقر النسر عينه ؟

ومع هذا وذاك فان الانسان يعيش على لحم أكثر الحيوان والطير وداعة كالغزلان والحملان والحمام الوديع والديكة الأليفة والأرانب المسكينة ، ويستعمل الوحشية فى ذبحها ويتلذذ بلحمها ، مع أنه لم تظهر عدم فائدة التغذية باللحم وحسب، بل ظهر ضررها، ولذا تجد معظم الأطباء ينهون عنها ويوصون المرضى بالاكتفاء بالخضر والفواكه والألبان وانك لترى أنباع التغذية بالخضر والفاكهة أصح أبدانا وأطول أعمارا وأقدر على العمل من الدمويين الذين يضيفون فى كل يوم رمما وجيفا الى رمتهم وجيفتهم .

لقد أسهبت ، ولكن هذا كان موقفا مهما من مواقف دراستى ولم أتأثر فيه بالمعرى الذى بدأت قراءته من صـــغرى ، فقد كان متشائما وعلى غراره من بعده شوبنهاور ونيشته وهنرى هينه ، وقد ارتحت اليهم جميعا دون أن أتأثر بعقائدهم الدينية ، ولكن نظرهم فى الحياة صحيح وسوء ظنهم بالبشر صحيح وحكمهم بسوء طالع الانسان صحيح ، ولا يحسن الظن بالدنيا الا أحمق !

ان قالوا ان الدنيا جميلة ، قلت نعم ، ولكن الانسان طمس جمالها ، وان قالوا كريمة قلت نعم ولكن طغى عليها لؤم الانسان ، وان قالوا الحياة لذيذة . نعم ولكن غمرتها آلام الانسان .

ولا أنكر أن الله جعل فى الأرض خليفة وهو آدم ، ولكن هذه الخلافة لم تفهم ولم تدرك ، وربما يأتى الزمن بعد مليون آخر أو مليونين حتى يأتى الخليفة القادر على حكمها . ليس فى القرآن الكريم نص يفيد أن الانسان لم يفسد ولم يسفك الدماء وان كان فيه نص على أنه أعلم من الملائكة ، ومع ذلك فان ظاهر النصوص لم يدلنا على أنه استفاد بعلمه ، فقد عصى بعد أن رأى عاقبة العصيان فى ابليس ، ورأى الله بواسع حكمته أنه غير جدير بعيشة الجنة ،

وليس هذا بمستغرب ، فقد قال الله من الوهلة الأولى « انني جاعل في الأرض خليفة » ولم يقل انني جاعل في الجنة خليفة ، ثم خلق الله الأسباب التي أدت بآدم الى سقوطه سقطة لم ينهض منها بعد . ولم يشرف الجنس نفسه ولم يحترم أصله الالهي ولم يدرك حقيقته الا عند أفراد قلائل ، فقد أوسع الأنبياء والأولياء والحكماء ظلما وتقتيلا ، وقد نسي كل شيء الا الظلم والاضطهاد والانتقام والحسد وكل الرذائل التي كان خليقا أن يتخلص منها ويتخلى عنها اكراما لأصله الرباني .

في صغري التمست مهربا من هذا العالم ، فلم أجد غير تفكيري في أن الكواكب — وهي أكبر من الأرض وأبهى وأبهج — لابد أن تكون مسكونة بأجناس أرقى من هذا الجنس ، وأن الله أكرم وأعظم من أن يشغل ذاته العلية بســـكان قشرة هذه الكرة الأرضية دون سواهم ، وكان أهل زمني يعتقدون أن المريخ آهل بالسكان ، ولعل الدافع لهذه الفكرة كان كدافعي اليها .

ثم أخذ أهل عصري يفكرون في فناء العالم وكيف يكون ، فظنوا أنه نتيجة تصادم يقع بين الأرض وبين الكواكب المذنبة أو السيارات الضخمة أو برودة الشمس أو الزلازل ، وطالما استعدوا للقاء يوم القيامة ، ولابد أنهم لم يفكروا في هذا الفناء الفجائي الا لأنهم سئموا الحياة على ظهر هذا الكوكب ، والا فان من يعيش عيشة هنيئة في بيت متين الجدران لا يفكر في أسباب زواله .

ولعلهم أيضـــا ضجروا وضجوا من معاصيهم فصدقوا قرب الساعة ، ولكنهم سرعان ما ينقضي اليوم الموعود حتى يعودوا الى

فسوقهم وفسادهم ويغرقوا مخاوفهم فى كئوسهم ، وهم لا يدرون حقيقة الكئوس التى تعدها لهم الحياة فى أرقى عهود الحضارة !

***

ـ ٤ ـ

من أين والى أين ؟

عندما كانت هذه الافكار تخالجنى ، ولم أكن وصلت الى يمين فى أصل الانسان أردت أن أتتبع نموه العقلى ، ولا يوجد وسيلة لاستقراء هذا النمو الا عن طريق الفلسفة . وأول الفلاسفة أهل اليونان .

نعم كان المصريون أقدم منهم ، ولكن أهل مصر لم يتركوا كتبا فى الفلسفة ولكنهم تركوا كتاب الموتى وهو يثبت خلود الروح وحسابها وثوابها وعقابها .

كان لدى سؤالان لا ثالث لهما فى تلك الفترة :

الأول من أين جاء الانسان ؟

والثانى الى أين يذهب الانسان بعد موته الأرضى ؟

أما الأول فقد تعبت فى تحصيل الجواب عليه ثم طويت كاغده ووضعته على أحد رفوف عقلى لشدة التناقض بين ما قاله العلم وبين ما قاله الله تعالى ، وكلام الله عندى أصدق ، وقد حاولت التأويل على حد نصيحة الامام الغزالى .

على أنه مهما يكن أصل الانسان ، فقد تجلى الله عليه بروحه وأوحى اليه وعلمه واختاره وجعله خليفة .

فان كان آدم طينا فقد رفعه الله الى أسمى مكان ، وان كان حيوانا فقد منحه الروح ونفخ فيه وميزه بالجمال والعقل ، وهذا العقل أى الدماغ أى المخ الذى هو الفؤاد والقلب والفكر قد خلقه الله وأعجب به كما جاء فى الحديث القدسى ثم وهبه الانسان ، ولا ندرى فى أى وقت ولا فى أى تاريخ من الأزل المتناهى فى القدم كان هذا الخلق السعيد ، ولكن الله خلقه ووهبه .

انك اذا نظرت للانسان — ولا سيما الأنواع الراقية منه — لا تجد جمالا يعدل جماله فى الذكر والأنثى ، ومهما يكون الحيوان جميلا فى ذاته فان جماله لا يصل الى جمال الانسان .

ولكن لم أر ولم ير غيرى قردا من « البريمات » يقرب من الانسان ولا ترتاح العين الى النظر اليه طويلا أو قصيرا ، فالانسان الجميل هو أجمل المخلوقات وبعقله هو أشرف الكائنات ،وان ظهر فيه الانحطاط فمن فعله وهو سوء الوراثة فى بعض السلالات ، وان كانت صورة المجتمع دميمة ، فان هناك الأمل الفسيح فى تحسينها ، وقد يأتى فرد واحد من هذا الجنس الانسانى بخيرات تعم ولا تحد ولا تقاس كما فعل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فان عشرين عاما من حياة خاتم الأنبياء ملأت العالم نورا وقضت على أثقال من الشر ، وانها لحياة وجيزة ولكنها عامرة بالسعادة والجمال والخـــير .

هكذا الدنيا ، قد تمتلىء بكل الرذائل وألوان البلاء ، ولكن بين الأحياء فيها عشرة رجال كالذين ذكرت ، هم القابضون على حبال

النجاة وهم قادة قوارب النجاة وهم الذين يقتلون الجراثيم التى تحملها السفينة ، ولا تعدم الدنيا أفرادا امتازوا بالمكارم كأبى بكر فى الصداقة وعمر فى العدل وعلى فى الوفاء وألوف من الشعراء والفلاسفة كسقراط وأفلاطون وهومير والمعرى وشوبنهاور والمتنبى وبوذا وجوته وغيرهم من الأطباء والعلماء والأساتذة،فلن يخلو العالم من النفوس الكريمة والصحبة المباركة ، ولن يكون الرجل الصالح وحيدا ولن يشعر بالوحشة ان تعلم الأنس بسيد الخليقة .

نعم انك ترجو وتتمنى أن تشمل السعادة كل ماش على قدميه فى كل بقاع الأرض وحتى يغمر الخير ذوات الاربع والطير والزواحف والزرع والضرع ، ولكن ما الحيلة فى هذه الأرض الفاجرة وهذا الدهر الغادر وهذه الدنيا الغرور ؟

***

نعم اطمأننت الى عاقبة الانسان وهى الموت والى بقاء الروح بعد الموت على الصورة التى نقلها لنا النبى محمد ولم يخطر ببالى قط أننا خلقنا للفناء الأبدى ، وتخيلت فى أول أمرى نظرية بقاء المادة عندما كنت أبرى قلما فأرى أجزاءه تتساقط ثم لا أراها تزول بل ينضم بعضها للأرض وبعضها يبقى على الورق ، وأن مداد الدواة قد يتبخر وقد يبقى فى الطروس ذا معان شتى أكسبتها اياه يد الكاتب وعقله .

تخيل القلم والدواة والكاتب والمكتوب والقرطاس كلها خالدة باقية ، فقلت لنفسى اذا كان القلم والورق والمداد يخلد وتخلد الأفكار التى يمليها العقل وتقيدها اليد ، وهى أشياء قليلة ووضيعة بالنسبة للانسان ، فكيف يفنى الروح وهو أشرف منها جميعا ؟

ألست ترى الوالد يخلد فى ولده وتمتد حياة الأب بحياة الابن ؟ ويرسم المصور صورة كالتى نقشها المصرى القديم فتعيش أربعة آلاف عام وهى من سائل ملون بريشة طير على جدار مموه بالبياض ؟ فكيف بالروح ؟

كان اعتقادى بالخلود مزيجا من الخبرة والمشاهدة ومن الاعتزاز بكرامة الانسان والثقة بالله والشعور بأن الله لا يخلق الانسان عبثا بعد أن أعده هذا الاعداد وجهزه وأهله بالنطق والعلم والبصيرة والضمير وجمال الصورة .

لقد كانت هذه أفكارى فى سن المراهقة وهى فى نظرى الآن تستدرجنى للابتسام !

***

— ٥ —

وراء كتب الفلسفة

كان لابد لى أن أتخذ لى موقفا عقليا حيال العالم وأن أرسم لى خطة أسير عليها .

نعم كنت عاجزا وفقيرا فى العلم وبعيدا عن الكتب ولا أستطيع أن أخرج من تلك المدرسة الضيقة العطن ، الخديوية التجهيزية ، ولم أجد أحدا يأخذ بيدى أثناء هذا التخبط سوى الله ، ولم يكن بين الأساتذة فى القاهرة أحد يعرف الفلسفة أو يدرسها ، وكان

اسمها بغيضا الى الأزهريين ، وكان العهد قريبا بالأفغانى وقد سموه فيلسوفا فكان هذا الاسم مقابلا للثورة والفتنة ، فاتجهت الى دار الكتب الخديوية ، فطلبت قوائم كتب الفلسفة وقرأت أسماء تراجمة العرب وأقبلت على ما فيه منها ذكر أرسطو وسقراط ، وقد دلنى فانديك على كتاب عيون الأنباء وفيه ترجمة حسنة للفلاسفة من اليونان والعرب .

والكتب العربية تكتب عن الفلسفة وراء ستار من الدين ، وقصد مؤلفيها أن يفندوا أقوال الفلاسفة ويثبتوا منافاة الفلسفة للعقيدة الاســــلامية كما فعل ابن حزم والشهرستانى وغيرهما ، لأنهم لم يدركوا مرامى فلسفة اليونان وكل أقوالهم وردودهم مأخوذة عن مصادر منقولة عن السريانية .

نعم كان هناك كتاب الغزالى وكتب ابن رشد ولا سيما المقاصد والتهافت للأول وجزء من الشرح الصغير لابن رشد . ولكن هذه كلها لم تشف لى غليلا ، وقد طيب خاطرى ما قرأت فى دائرة المعــــارف للبســـتانى لأرسطو وأفلاطون لأن البســـــتانى كان يعرف اللغات الأجنبية ، فأخذت أسأل نفسى عن مؤلفات هذين الحكيمين نفسهما ، فدلنى مورتز مدير دار الكتب الخديوية على كتاب للفارابى اسمه « الجمع بين الحكيمين أرسطو وأفلاطون » ، وهو الآخر كتاب يحاول مؤلفه رحمه الله التوفيق بين الشريعة والحكمة أى بين الفلسفة والدين الاسلامى لأنه كان تلميذ أرسطو ومسلما ، ولعله ألفه لينجو من الاضطهاد الذى وقع فيه الكثير فى زمنه وقبل زمنه ، وقال لى مورتز ان مؤلفات أرسطو كلهـــا موجــــودة بالانجليزية والألمانية والفرنسية ولا سبيل اليها الا باتقان هذه اللغات الثلاث .

وكان الشيخ طنطاوى جوهرى يسألنى عن كتب انجليزية فى الفلسفة ، فد فعت له بمؤلفات جون لوبوك (لورد آفبورى) ، فقنع

نيا لأنه معاصر ويتخذ جمال الطبيعة وسعادة الانسان هدفا له ، والشيخ كان مشغولا بالتأليف فى هذه البحوث وفى بداية سلوكه فى تفسير القرآن ولا أظنه درس شيئا من الفلسفة درسا منظما ، أى أنه لم يدرس المذاهب الفلسفية بحسب ترتيبها التاريخى وتقصى بعضها بعضا على مدى الأجيال ، ولم يتخذ نظاما معينا System ، لان هذا لم يكن عمله ولا وظيفته ولا اختصاصه ، وكل أمره رحمه الله أنه كان تلميذا حسنا للغزالى وهو مطمع شريف كريم .

وأخيرا أفضيت بالأمر الى فانديك فقال لى : اسمع يا فلان أنت تنفعك كلية الأمريكان ببيروت ، فالمناهج هناك واسعة ومبحبحة (كذا) ، فاذا نجحت فلعلك تسافر الى أمريكا فى بعثة » .

ولم يكن الرجل ليعلم أنى لا أستطيع فكاكا ولا أملك السفر الى بيروت أو غير بيروت ، ولكنه ظن شوقى يدفعنى أو يدفع أهلى للالسام بهذه الهجرة فى سبيل العلم .

وقد اتصلت فى تلك الفترة بالمرحوم الشيخ محمد عبده بعد ان راسلته وتقدمت اليه بالمسائل التى أثبتها المرحوم رشيد رضا فى الجزء الأول من ترجمة الأستاذ الامام(١) ، وكان الشيخ حديث العهد بالرد على كتاب ابن رشد الذى نقله فرح انطون ملخصا عن ارنست رينان ، ومدار البحث فيه عن اتساع صدر الاسلام للفلسفة وفضله فى ذلك على الدين المسيحى الذى اضطهد ذووه الفلاسفة وكفروهم وعذبوهم وأحرقوا بعضهم ، ولكن هذا الكتاب لم يتناول شيء من فلسفة ابن رشد ومعظم البحث فيه تاريخى وتسجيل لتسامح الاسلام مع الحكماء ، حتى ان عقاب ابن رشد لم يتعد نفيه

(١) انظر صفحة ٣٩٤ من هذه المذكرات .

الى احدى مدن الأندلس ثم عفى عنه وعاد الى مكانته . وأين هذا من محاكم التفتيش وخلع أوصال الفلاسفة فى عواصم أوربا ، والقاء العلماء من حالق فى رومة واحراق الحكماء الذين نسب اليهم السحر الحرام ... الخ .

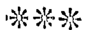
وفى نهاية الأمر لم يكن هذا كله من عنايتى فى شيء ، **فقد كان أقصى ما وصل اليه حكيم قرطبة شرح كتب أرسطو شروحا تختلف طولا وقصرا واسهابا وايجازا ، ولم يجدد ولم يبد رأيا شخصيا خاصا به ولم يفعل أكثر من نقل خلاصة أرسطو ، ولكنه كان يفهمه فهما جيدا** ، وقد استوفيت هذا البحث فى كتابى « تاريخ فلاسفة الاسلام » سنة ١٩٢٧ .

وقد أدهشنى أن العرب لم يكترثوا بأفلاطون اكتراثهم لأرسطو وقد سموه المعلم الأول وسموا الفارابى المعلم الثانى لأنه أول من تناوله وشرحه .

وقد استنبطت السر بعد ذلك بسنوات وهو أن أفلاطون واسمه الحكيم الالهى كان يعتقد بالله وملكوت السموات وخلود الروح بالثواب والعقاب ، وهذه كلها تؤيد الأديان وتثبتها وتكاد تنطوى على العقيدة الاسلامية ، وفيها مطل على عالم السر الذى لم يبوحوا به وجانب من التصوف وما وراء الطبيعة وعلم النفس وعلم الغيب ، وكانت روح العرب الذين اشتغلوا بالفلسفة اليونانية روح معارضة واستقلال ونزوع الى المعارضة تقليدا لعلماء الكلام الذين أصبح لهم في عهد الأندلس طرازا قديما وحلة غير خليقة بأن تحتذى .

واذا كانت الفلسفة القديمة كما يمثلها افلاطون لا تكاد تختلف عن الاسلام فى شيء . فما **حاجتهم اليها ؟** .

لهذا اتجهوا الى أرسطو اقتداء بالكندى والفارابى وابن سينا فى الشرق ، وكان أرسطو لا يؤمن بشيء ، لا باله ولا بالعالم الآخر ولا بالجنة والنار ، بل حصر جهوده فيما يراه من حياة الكون الظاهرة وجمع العلوم وقسمها ووضع قواعد المنطق والجدل والخطابة والشعر والأخلاق وفرق بين الفضيلة والرذيلة ، وخالف أستاذه أفلاطون فى كل شيء ، وكان عقله جبارا فلم يشـــغله تاريخ بلاده كما شغل غيره ، وكان أول من بحث فيما وراء الطبيعة ، فكان هذا كله جديدا على المفكرين فى الاسلام ، ففرحوا به وانتحلوه ، ولكنهم للأسف الشــــديد لم يحاولوا تعلم اللغة الاغريقية القديمة وتركوا طلبها لتراجمة النصارى أمثال حنين وزكريا ويحيى ويوحنا ، وهؤلاء نقلوا الكتب الى السريانية ، ولكن ابن رشد تحرى الحق ما أمكنه وتوصل الى اللباب ما استطاع .



– ٦ –

دراسة الفلسفة بين الكلية الأمريكية ببيروت وكلية الآداب بليون ـ سقراط ـ المعرى ـ عمر الخيـــام ـ سعدى الشيرازى ـ مائدة أفلاطون ـ تاريخ فلاسفة الاسلام ـ ابن خلدون ـ سبنسر

وفى سنة ١٩٠٣ نزحت مرغما الى بلاد الشام وقصدت الى بيروت حيث الكلية الأمريكية وكان على نظارتها « هوارد بليس » ومن أساتذتها المرحوم جبر ضومط ، وفى برامجها كثير من الفلسفة والعلوم والتاريخ ، فاقتنيت ما وسعنى اقتناؤه من الكتب وصحبت الأساتذة والطلاب وقرأت للمرة الأولى بعض كتب الفلسفة فى اللغة الانجليزية ، وعرفت الفرق الكبير بين المدارس المصرية والمعـــاهد

الأجنبية ، وحصلت على مراجع مهمة واستطبت الدرس على شاطىء البحر حيث كانت الكلية الأمريكية على هضبة صخرية اسمها رأس بيروت ، واتخذت كراسات لتلخيص العلوم وتنسيقها وتدوين أسئلة والأجوبة عليها التى كنت قد استنبطها من دروس الأســـاتذة أو نصوص الكتب .

وكنت خالى الذهن من تسلسل البحوث الفلســـفية والفكر الفلسفى على مدى العصور ولا أرى الا اسمين أو ثلاثة أسماء لامعة فى تاريخ الفكر البشرى وهى أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكان سقراط فى نظرى بمثابة نبى مرسل لم يرد اسمه فى الكتب المنزلة ، وكانت حياته التى انتهت بالاستشهاد والسـجن والقتل مثالا لحياة الأنبياء الذين اضطهدوا وعذبوا ، وقد أفلح فى تكوين رجال أولهم أفلاطون وفى محاربة الباطل ونصرة العدل وتأسيس المثل الأعلى فى حياة الرجل المتصوف والحكيم الزاهد الذى لا يمنعه تصوفه وزهده عن حمل عبء الحياة العامة ، فلا ينجو من الحسد والحقد عليه والانتقام منه بمحاكمة صورية قضاتها فساق المدنية وأشرارها ، وقد أبى طوال حياته أن يكون مؤلفا على سعة علمه وفســـحة آفاق تفكيره والهامه ، فاكتفى بتخريج الرجال وتلقين الشباب أصح المبادىء ولا سيما تلميذه المقدم أفلاطون الالهى .

وكان سقراط ذا عقيدة حســـنة ويعتقد بوجود الاه للكون وخضوع الكون لنظم ثابتة وقوانين لا تتزعزع ، وهو أول من لفت الانسان الى النظر فى باطنه بقوله « اعرف نفسك بنفسك » .

وفى الصيف انتقلت الى ربوع لبنان وواصلت الدرس على ضفاف الأنهار ومنابع المياه وظلال الأشجار الباسقة ، ولقيت كثيرا من الرجال فوجدت من أهل لبنان عقولا ناضجة وأخلاقا قويمة وألسنة

مستقيمة وطباعا حسنة وصبرا على البحث والدرس وميلا الى الجد واحتقار المزاح ، وقد جعل كل منهم مبدأ لنفسه وخطة قويمة لا يحيد عنها ، فاستفدت كثيرا من أخلاق هؤلاء الرجال ومواهبهم ، **وقد رأيت أن الزمن الذى قضيته فى هذه الربوع على قصره كان أبرك من سنوات طويلة قضيتها فى مصر .**

ولما عدت من بلاد الشام ، كنت مستعدا بطائفة من الكتب التى حملتها من هذه البلاد ، فكانت لى مددا أو معونة ودليلا فيما تلى من الزمن .

وقد عرفت الفرق بين التعليم فى البلاد التى يقوم على شئونها حاكم حسن النية وان يكن مستبدا ، والأخرى التى يتظاهر حاكمها بحب الحرية وفى قلبه ألد الخصـــــام ، وعلمت لم وقفت الحكومة المصرية فى وجه التعليم باللغة العربية ولم عارض الأقوياء فى تأسيس الجامعة المصرية واكتفوا بتشجيع الكتاتيب بحجة مقاومة الأمية ، وان سوريا التى كان يحكمها سلطان مطلق كعبد الحميد قد نال أبناؤها نعمة التعليم الغربى على أيدى الأمريكان والمستشرقين ، بينما كان دجلاس دنلوب يتحكم فى وزارة المعارف المصرية ويحارب العربية ويختصر سنوات التعليم الثانوى ويقاوم تعليم البنات ويرقى السفلة من الموظفين الى أرقى المناصب فى وزارته ويستعملهم مخبرين وجواسيس على بعضهم بعضا وعلى النظار والأساتذة وحتى التلاميذ لم ينجوا من التجسس .

وعرفت فى بعد الشام أن المعرى لم يكن فيلسوفا ولا مفكرا وانما كان شاعرا متبرما بالحياة وزاهدا فى نعيمها وقد صبغها بلون أسود ، لا بسبب عاهته ولكن بسبب مزاجه وفطرته المضادة للتناسل ورواج الحياة . ولكننى مازلت أحترمه وأعجب بتفكيره وهو لا يزيد

ى مواهبه عن أن يكون صانعا ماهرا وصـــائغا حاذقا للألفاظ ،
ولا أنازع فى صفنه الصوفية واتساع أفق تفكيره وحذقه فى وصف
مكاره الحياة وتنفير ذوى العقول منها ، وما تزال صحبتى واياه متينة
حتى أنى لأقرأ اللزوميات بجزءيها فى ليلة واحدة ورسالة الغفران
كذلك فى جلسة واحدة ، وقد طربت عندما علمت أنهم شادوا له
قبرا وألحقوا به مكتبة وجعـــلوا من ضريح شـــيخ المعرة مزارا
ومحجــة .

وفى هذه الفترة تعرفت الى عمر الخيام الشـــاعر الصوفى
الفارسى ، وللأسف قرأته بالانجليزية لا بالفارسية ، وكان أيضــا
يدعى فيلسوفا ولكنه شاعر حكيم متشائم ينادى بالفناء والثبور
وعظائم الأمور ويفتن بكل ما يدل على فراغ العـــالم من الملذات
الدائمة وينعى على الملوك عروشهم وسلطانهم ، وعلى الأغنياء أموالهم
وشبعهم ، وعلى الشباب أفراحهم مادام مآل هذه كلها الى التراب !

وقد ساهم المعرى والخيام فى تكوين تفكيرى الميال للزهادة
والقضاء على التفاؤل الذى كنت أحلم به ، فلهما الشكر لتنبيهى الى
مكاره الحيـــاة والنظر الى وجهها الحقيقى من وراء سبعة براقع
للنفـــاق !

ولكن أين هذا من الفلسفة ؟ . لقد نجح شوبنهاور فى سبك
مذهب فلسفى متين أساسه حكمة المعرى والخيام ، ان فى شعر
الشرق وحكمة الشرق ثروة للنظام الفلسفية ، ولكنهم عاجزون عن
سبكها وجعلها ترتقى الى درجة الفلسفة ، وقد يتقنون العلم التجريبى
والرياضيات العليا والفلك والهندسة والأدب الرفيع وبعض الفنون
الجميلة كالموسيقى والبناء ، ولكنهم عجزوا عن وضع نظام فلسفى
محكم كما صنع أرسطو وباكون وديكارت وسبينوزا وسبنسر ، وقد

أنتجت أمريكا — على ركاكة تفكيرها وانشغالها بالمال — فيلسوفا واحدا وهو ويليم جيمس ، ولكن العرب عجزوا عن انتاج مثله فى كل القرون التى تلت ظهور الاسلام .

نعم كان ابن خلدون عالما اجتماعيا وباحثا لا يجارى سبق أهل أوربا فى علم الاجتماع والتشريع وتاريخ الحضارات وتحليل نفسيات الشعوب ، ولكن ابن خلدون كان فذا وقد نجح فى مقدمته وفشل فى تاريخه .

وقد شاءت الأقدار والمصادفات الحسنة أننى نقلت الى العربية « جولستان » أو روضة الورد لسعدى الشيرازى وهو كتاب فى التصوف ، ودلنى حبى لهذا الكتاب واختيارى اياه على ميلى الفطرى للتصوف واعجابى بفكرة التأمل فى الحياة والبحث فى الالهيات .

وكنت اذا عثرت على فكرة كهذه أستقصيها وأتتبعها الى نهايتها ، فاننى سمعت باسم القشيرى من الشيخ طنطاوى جوهرى ، وباسم محيى الدين بن عربى منه أيضا ومن صديقى المرحوم محمد عبد الوهاب المحامى الذى لم أجد أحدا مثله يمعن النظر فى مؤلفات الشيخ الأكبر ولا سيما فصوص الحكمة وهو الذى دلنى على الفتوحات المكية قبل أن أسافر الى اوربا ، وقبل هذه الهجرة الثانية كنت أظن جان جاك روسو فيلسوفا وفولتير فيلسوفا وفيكتور هيجو فيلسوفا وجوته فيلسوفا وشكسبير فيلسوفا وفرنسيس باكون فيلسوفا ولا أعرف شيئا عن ديكارت ومالبرانش وهيجل وسبينوزا وأوجست كومت وبرجسون ما عدا سبنسر الذى كان يشيد بذكره أحباب الانجليز فى مصر لانجليزيته لا لفلسفته !

فلما بلغت لندن فى سنة ١٩٠٥ أو سنة ١٩٠٦ اشتريت كتب الفلاسفة وغيرهم ممن كنت أحسبهم فلاسفة ، وكان على أن أفرق بين الفريقين .

ولما أراد الله بى خيرا ونزعت نزعا من براثن مدرسة الحقوق الخديوية وقصدت الى فرنسا ـ على ما ذكرت آنفا فى هذه المذكرات ـ كان أول همى تعلم اللغة الفرنسية وشغل وقتى الخالى من طلب الحقوق فى كلية الآداب بليون ، وكان أول من لقيت فيها الأستاذ جوبلو أستاذ الفلسفة ، وقد صار الآن عمدة ومرجعا وعلما ولا سيما بعد تأليف كتابه فى المنطق ، فتلقانى الرجل الفاضل بصدر رحب وتعهدنى وصاحبى المرحوم على فوزى الذى توفى فى مقتبل العمر فى سنة ١٩١٤ بعد اشتغاله عاما واحدا بالمحاماة ، وكان الأستاذ جوبلو يجلس فى صومعة تكاد تكون لضيقها محرابا ، ولما أعربت له عن رغبتى ، **صرفنى عن أرسطو وأفلاطون وقال لى تقرأهما فى أوقات الفراغ ، أما الآن فعليك بكتاب « الطريقة » لديكارت ، فهذه بداية الفلسفة الحديثة ، ولم يبق لأرسطو من اتباع فى أوربا .**

فأخذت برأيه وحضرنا دروسه وقرأت عليه « الطريقة » كلها وحضرت دروس المنطق التى كان يلقيها على فئة قليلة من الطلاب .

كان جوبلو رجلا متواضعا كريم الأخلاق ، حليما ، محبا لتلاميذه ، وقد استمرت صلتى به ثلاث سنوات ، وكان فى تلك الأثناء يؤلف كتابه فى المنطق وقد نشره بعد الحرب العالمية الأولى .

ولا أنس فضل الأستاذ « سانتيلانا » فى الفلسفة اليونانية ، وان الذى بقى فى ذهنى من دروسه قد أودعت معظمه فى « مائدة أفلاطون » التى نقلتها الى العربية قبل سفرى الى أوربا فى سنة ١٩٠٧ ، وجعلته بمثابة مقدمة مطولة للمائدة .

وكان يحز فى قلبى أن العرب يخرجون بلا انتــاج من هذه المعركة الفكرية المهولة ، فبدأت على وضع « تاريخ فلاسفة الاسلام »، وبين نشر مائدة أفلاطون سنة ١٩١٢ وتاريخ الفلاسفة سنة ١٩٢٧ ، خمس عشرة سنة قرأت خلالها فلسفة الفرنسيين ديكارت وارجســـ كومت والانجليز لوك وهيوم وبنتام وسبنسر والالمان هيجل ونيتشه وشليجل والالمان الحدثين شوبنهاور ونيتشه وكانا متأثر بأفكار جوته ، وقرأت الهولندى سبينوزا ودرست كتب روسو وفولتير والجانب الفلسفى من هيجو (الله والشاعر وأساطير القرون) وهو مفكر واسع الخيال كثير الكلام ولديه معين لا ينضب من الألفاظ والأوزان والقوافى ولا يسمى فيلسوفا ، ولكنه ثائر وقصاص بارع ومحب للعدل فى وطنه وفى سائر الأوطان .

ولم ألق عنتا أكثر من الذى لقيته فى الفلسفة الانجليزية ، فانها ثقيلة معقدة وجافة باردة ، ولكنها لا تخلو من الفــائدة ، فان سبنسر لم يجد نفسه قادرا على أن يقول ما يريد فى اقل من اربعين مجلدا ضخما اتبع فيها نظاما محكما ولــكنه منهك مضن لقارئه . وقد اتبع الطريقة القديمة فى جعل الفلسفة أقساما تحكمية كعلم الاجتماع وعلم النفس والحيوان والنبات ونظم الحكم والخير والشر والجمال والعقائد الدينية . وله هوامش وملحقــات يفنى الشباب ولا تفنى ، ولكن كان لابد لى أن أقرأه لأنه الفيلســوف الانجليزى الوحيد فى القرن التاسع عشر . فكيف نعرف نفسية الحاكمين لنا المحتلين لوطننا دون أن نعرف آراء فيلسوفهم ؟

ويجب على أن أسجل بالثناء والفخر لهذا الرجل انه كان ناقما على نظم التحــكم البريطانية وعلى الاستعمار والمظالم وعلى الأنانية وحب الذات والاستئثار ومظالم الطبقات . فأبناء جلدته لم يكونوا يمثلونه فى وقت من الأوقات ، وكفى على ذلك دليلا انهم

لم يلتفتوا اليه ولم يجروا عليه رزقا ولم يعينوه على طبع كتبه ولم يغدقوا عليه عشر معشار ما أغدقوا على ممثل ماهر أو راقصـــة لعـــوب ! .

تصور أنه عاش ومات منبوذا من أهل وطنه الذين ما فتئوا يفتخرون به ويباهون به الأمم وهو يتضور ويتحرق . ولكنه مات ميتة الأسد الجريح ، لم يشك ولم يئن ولم يتألم !

والعجيب الناجب أنه لم يكن له بين لانجليز مريد واحد ، بل كان تلميذه ومريده شيبا مدجى كرشنا فارما وهو الوحيد الذى خطب على قبره ، وهو الوحيد الذى وهب من ماله مبلغا كبيرا لتأسيس كرسى لتدريس فلسفة سبنسر فى جامعة اكسفورد ، لأن حياة الرجل انقضت ولم تدخل مذاهبه فى كليات هذه الجامعة أو سواها !

ولم تنقض على هذه « الوقفية » الفاسفية خمس سنوات حتى نفت الحكومة الانجليزية ذلك الواقف الكريم شيامدجى كريشنا فارما بتهمة سياسية بعد أن هدمت « بيت الهند » **Indian House** الذى شاده وجعله ملجأ لفقراء الطلاب الهنود ، ثم حكم الانجليز أنفسهم على فيلسوفهم بأن مبادئه أصبحت عتيقة بالية لا تصلح لهذا الزمن !

ومن العجيب أيضا أن هذا الرجل عاصر ملكين كبيرين بل امبراطورين فخمين هما الملكة فيكتوريا والملك ادوار السابع ، وكان هذان الملكان يستقبلان الكتاب الهزليين القادمين من أمريكا أمثال مارك توين ويحضران تمثيل ســـارة برنار وكوكلان ويدعوانهم الى ولائم القصر ويبذلان المـــال للمهرجين والرقاصين ويهبانهم ألقاب الفروسية (سير) ، فجعلا سير هنرى ارفنج وسير بيربوهم وسير

جورج الكسندر ، وحتى السيدات وهبن لقب « لادى » ومنحن أوسمة الشرف ، وقد عاش سبنسر ومات ولم نعلم انه دعى للقصر أو قلد نيشانا أو أجرى عليه رزق كثير أو قليل .

ولو أننا نقارن بين ملوك هذا الزمان فى الشرق والغرب ، وبين ما كان يفعله خلفاء المسلمين فى بغداد والقاهرة ودمشق ، لا يسعنا الا الثناء على السادة الخلفاء والأمراء من الأمويين والعباسيين والفاطميين والأندلسيين الذين فتحوا قصورهم للكتاب والحكماء والأدباء والشعراء وأغدقوا عليهم الأموال تكريما للعلم وتشجيعا للحكمة ، حتى الملك المجنون منهم وهو الحاكم بأمر الله الفاطمى أسس فى القاهرة دار الحكمة وجعلها موئلا للعلماء وأجرى عليهم الأرزاق وضمن لهم الكتب والورق والأقلام والمحابر ، وأكرم ابن الهيثم الذى استدعاه من بغداد لينظر له فى مشروع خزان أسوان ، فلما فشل ابن الهيثم لم يقطعه ولم يعرض عنه بل زاد فى اكرامه ، وكان ابن رشد والفارابى وابن سينا جلساء الملوك ووزراءهم وأصدقاءهم وموضع احترامهم وتمجيدهم .

أما ملوك هذا الزمان ، فهمهم البحث عن فاتنة أو قينة حسناء تتقن الوثب والقفز وتحسن الغناء ، أو مهرج يضحكهم فيقلدونه الأوسمة ، وان صورة العصر الحديث تكون ناقصة ان لم يكونوا هكذا !!

***

(٧)

حب الحكمة

ما الفلسفة ؟ وما غرضها ؟

فى أثناء هذه السنوات الخمس عشرة (من سنة ١٩١٢ الى سنة ١٩٢٧) جمعت مكتبة حسنة فى الفلسفة ، وكان من أحب المؤلفين الى شوبنهاور ونيتشه ، وقد أدهشنى الأول بشدة ذكائه ودقة فهمه واختراق فطنته لمعضلات المسائل ، وأزعجنى الثانى بجرأته حتى انك لتظن حينا أنه مختل التوازن ، وان يكن قضى نحبه بعد فقد عقله حينا ، الا أن جميع مؤلفاته تمت وهو سليم الادراك ولم يلحقه الداء الا بعد كتابه Ecco Homo .

وقد امتاز هذان الفيلسوفان باحتقار شعبهما وازدرائه والسخرية من فلاسفة الأشكال والألفاظ أمثال هيجل وشليجل .

وهكذا يكون كل فيلسوف سابقا لزمنه .

ولكن فى ظنى من سبنسر أنه كان محافظا وملازما صيغ الأدب فى أمة لا تعرف غير الشلن والجنيه والبنس ! ، فكان الرجل الطيب كلما رأى أمورا لا توافقه بل تثير ضميره يلجأ الى طريقة الخطاب المفتوح فى جريدة التيمس وهى منبر حر ، وقد اعتقد أن المجتمع كائن حى يشبه الانسان ، ولكنه حار فى تعريف الحياة بعد أن عقد لها فصلين من مؤلفه فى « مبادىء البيولوجيا » استعرض فيهما كل ما تقدم به العلماء فى التعريف ، واقترح تعريفا جديدا ، ولكنه اضطر فى نهاية الأمر أن يعترف بأنه لم يجد تعريفا يشمل كل

ما هو معلوم فى مظاهر الأجسام الحية ويخرج ما هو معلوم من مظاهر الأجسام غير الحية ، وعكف أيضا على الوراثة وجعل لها قيمتهـا العلمية لأنه أراد أن يجارى داروين فى مذهب النشـوء والارتقاء وجعله شاملا لحياة الجماعة كما هو ثابت فى الطبيعة .

وانني أتساءل ما بال سبنسر بالبيولوجيا فى القرن العشرين ولها أساتذة متخصصون يدرسونها فى كليات الطب ؟

فى نظرى أن هذا لا دخل له فى الفلسفة ، **الفلسفة فى نظرى علم النفس وما وراء الطبيعة أى دراسة الانسان ودراسة الالهيات ،** أما علم النفس العملى أو التجريبى فلا أعيره اهتماما ، وخير من كتب فى هذا العصر الحديث برجسون الفرنسى ولا سيما فى آخر كتبه « النبعان للدين والفضيلة » *Les Deux Sources* .

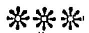
فغرض الفلسفة فى نظرى الضعيف هو البحث فى أصـل الانسـان وفى نهايته ، أى مورده ومصدره . أما حياته فى هذا العالم ، فهى من اختصاص الأطباء ورجال القانون والمهندسين وعلماء التعليم والاقتصاد ورجال الدين وليست من اختصاص الفلاسفة .

كان فرنسيس باكون الانجليزى رجلا عمليا ، ألف كتابا سماه « تقدم العلم » بحث فيه عن الأساليب التى تتقدم بها المعارف وعن كيفية جعلها مفيدة لنوع الانسان وارتقاء العمران حتى يهتم بهـا الناس كما يهتم رجال العلم أنفسهم ، ولذا نرى الذين يدرسـون الفلسفة الانجليزية يتجهون الى فلسفة « أبيقور » كما فعل جيو Guyau ، وترى بين أبيقور وبنتـام آصرة قرابة عقلية ونسب ذهنى ، ولكن الفلسفة الصحيحة بعيدة عن فكرة المنفعة ، والمنفعة بعيدة عن الله وعن الخير والشر ، وهذه أخص مسائل الفلسفة .

ان حب الحكمة نعمة يمنحها الله ، وهو حيرة طويلة اليمة ، ولكنها ممزوجة باللذة ، وفيها تفتح الذهن ونمو المواهب ورغبة الوصول الى الحقيقة ، وعلى محب الحكمة أن يكون منتبهـا دائما مســتعدا لسماع صوت الطبيعة ولو كان ركزا ، ورؤية اشــارتها ولو خفيت عن الأبصار ، وأن يكون شجاعا صبورا .

واتباع الحكمة يخفف أعباء الحياة ويحبب الحكيم فى الانسانية ويصحح موقفه .

ولكن لم تجمع الآراء على نظام معين يتبع فى الفلسفة حتى يكاد يكون لكل فيلسوف مدرسة وأتباع الأتباع يتفرعون عن الأصــل كأغصان الشجرة الواحدة ، ومن الصعب على الناظر أن يجمع بين شتات الفلسفة الهندية وبين فلسفة أوجست كومت ، أو بين آراء سبنسر وخطته وبين شوبنهاور ، ولكن كلا منهم يعد فيلسوفا كالسائر فى أحد شوارع مدينة كبيرة يقصد الى معبدها أو ديوان حكمها الذى بنوه على القمة وجعلوا جميع الطرق موصلة اليه ، ولا أدرى كيف يعيش الانسان بغير السير الطويل ــ ولو كان مضنيا ــ فى شوارع تلك المدينة ، ولكن أعلم أن من كل عشرة آلاف رجل لا يخاطر بنفسه سوى رجل واحد فى تلك السبيل الوعرة الملتوية التى تتسع حينا وتضيق أحيانا ويسودها الظلام الحالك كأنها نفق حالك السواد لولا أشعة من الأمل ونور الله تشجع الباحث وتدفعه الى الأمام .



(٨)

الفيلســــوف

التعلق بتراجم الرجال ـ حب الخير والحق والعدل والجمال وحب الانسانية ـ عدم انطواء الفيلسوف ـ موهبة حب الحكمة ـ المال والشهرة والشهوات ـ قوة العقل والارادة عند الفيلسوف ـ اعتزاز الفيلسوف بشخصيته

درجت منذ نشأتى شديد التعلق بمعرفة الرجال ، ولا يكفينى قراءة كتبهم ، فاذا وقفت على طرف من ترجمة بطل أو كاتب أو شاعر ، أصبحت مشغوفا بتقصى أخباره وتطبيق حياته على أعماله ، ومحاولة التعرف على شخصه من عمله وعلى عمله من حياته لاعتقادى أن لكل انســـــان ـ وربما أرباب المواهب ـ شخصيتين أو ثلاث شخصيات ، وما أزال أتذكر أن الجانب الشخصى من حياة أرسطو طاليس وحياة أستاذه أفلاطون يستهوينى ، وكنت أشعر بغيظ عندما لا أجد من تفصيل تراجم علماء الشرق وأدبائه ومفكريه ما أجد عن أهل الغرب من قديم الزمان .

وكنت طوال حياتى مشـغولا بالفلسفة والفلاسفة ، شـديد المواظبة على القراءة ، عظيم المسرة كلمـا أشتغلت بها ، فلا أجد معاناة ولا تعبا ، ولا أشعر بانقضاء الزمن مهما طال مادمت مكبا على كتاب من كتبها . وكلما وردت مكتبة عامة أو خاصة ، كان أول همى أن أبحث عن الكتب التى تبحث فيها ، ثم التهم التهاما كل ما له علاقة بموضوعاتها ، حتى ان قلبى ليسرع فى دقه كلما لمحت بين الأسطر كلمة فيلسوف أو فلسفة !! . لم تكن حماسة بل كان تهيجا ملحوظا فى نفسى وانفعالا يحدث لى كلما لمحت هذه الكلمة ، ثم لا أجد صعوبة فى الفهم لشدة الشوق ، ولكنى أجد طربا ونشوة كلما صادفت فكرة توافق تفكيرى أو سبق أن عرضت لى بغير قراءة .

ولم يخطر ببالى قط ان أكون فيلسوفا ، ولكن قلت ان كنت معاصرا لواحد من هؤلاء ، لكنت أطوع تلاميذه وأشدهم تعلقا به . ولم اشعر قط بحاجة الى الحفظ أو التدوين ، لأننى أشعر بقوة الذاكرة والقدرة على الاحتفاظ بكل ما اطالعه فى هذه الكتب والرغبة السريعة فى الادراك والفهم .

ويجذبنى الى هؤلاء الرجـال حبهم الخـير والحق والعـدل والانسانية ، لأن حب الحكمة ـ وهو خصلتهم الأولى ـ تدعوهم الى ذلك ، ويعزينى ـ ان لم أكن فيلسوفا ـ فقد أشاركهم فى حب الحق والعدل والانسانية والخير وأبغض أضدادها وأمقت كل من يحب الباطل والظلم ويدافع عنهما وينتصر لهما .

وخلة أخرى وهى حب الجمال ، فقد كان ديدنى حتى أصبحت أتتبع أشهر التصاوير والتماثيل فى متاحف أوربا وأرى الجمال جزءا مكملا للعقل ، وما شهدت أجمل من شواطىء اليونان ووادى الأرلو ومدينة فلورنسا وضواحيها ، ولا أتخيل فيلسوفا ينشأ فى وسط دميم أو يقيم فى مكان واحد بصبر طويل غير سقراط .

وأدركت أن حب الجمال والخير وانطباع النفس عليهما جزء من الفلسفة ، وان يكن الجاهل عميا عن العلاقة بين الجمال الظاهر وسمو العقل ، وكذلك لا يسع الفيلسوف الا أن يكون محبا للجمال وشديد التأثر به كما أنه شديد التأثر بالانسـجام ، ولذا يحب الموسيقى والغناء والرقص الفنى والتمثيل وسائر الفنون الجميلة ويجعلها مع حب الجمال والخير جزءا من نظامه الفلسفى ، وقد أذن اخوان الصفاء للحكيم أن يستمتع بهؤلاء جميعا لأنها تابعة لنظام حركة الكواكب والأجرام السماوية التى لها فى حركتها ودورتهـا أصوات مطربة يسمعها الموهوبون والذين لا تحجب حواسهم موانع من المادة !

والفيلسوف وان لم يكن شاعرا ، فان فيه مواهب الشعراء ودقة احساسهم وتلبية أنفسهم لنداء الجمال فى جميع صوره وأشكاله وأوضاعه ، حتى انهم ليروا الجمال فى الجماد والمعدن والنبات والحيوان كما يرونه فى الانسان ، وفهمت أن الفلاسفة ان لم يكونوا مطبوعين على تلك الصفات ، لا يستطيعون أن يدركوا جمال الكون والخليقة وجمال الحق وجمال العدل وجمال المعانى وجمال الترتيب الربانى وسائر أنواع الجمال المعنوى • فمن لم يكن محبا للجمال ومجذوبا اليه لا يكون فيلسوفا ، لأن الحكمة جميلة فلا يحبها الا اذا رأى جمالها • وقد يهفو الفيلسوف ويخدع ويغر بنوع من الجمال ، ولكن الأعذار له ملتمسة وحسن التعليل منه مقبول •

ولا ينبغى أن يكون الفيلسوف منطويا على نفسه ، مبالغا فى الوقار والوحدة مثل ايمانويل كانط أو سبينوزا ، ولا عابسا مقطبا حزينا مثل نيتشه ، ولا ضيق العطن حرج الصدر مثل كارليل والمعرى ، ولئن كان مرحا طروبا ـ كما كان ديكارت وسقراط وأفلاطون ـ فهو خير •

ولا يكون الفيلسوف ضيقا محدودا الا اذا كان مريضا ، فالمرض يخل توازن الأمزجة ، وان يكن لا يحرم العقل من مواهبه ، فان الفيلسوف مخلوق من شيئين مختلفين فى الظاهر ، عقله المركب تركيبا خاصا كمية ونوعا ، ومزاجه الفطرى ، فان ساد التوفيق بينهما كان الفيلسوف عظيما حقا كما اتفق لأبيقور وبرجسون وهيجل ، والا فنصيب العالم من الفيلسوف بقدر قوة عقله واعتدال مزاجه وقوة بنيته التى تسمح له بالعمل الطويل المضنى ، فانه لابد له من الصبر الطويل والجهود المتواصلة حتى يفهم مسألة ، ويلزمه أن يتلقى الالهام قائما أو قاعدا أو راقدا على جنبيه ، فان كثيرا من الفكر الفلسفى يأتى على صورة الخواطر التى تشرق عليه

كأشعة نادرة أو شرر متوالى الاشتعال ينقدح متتابعا لعين عقله وحتى يكاد يشعر به ، فهو أبدا متيقظ كالصائد المترقب ، وبدلا من أن يكون الصيد غنيمة ، فان فكرة الفيلسوف التى تشرق عليه نعمة يتلقاها وكلاهما رزق .

ويخطىء فى نظرى كل من يحسب الفلسفة وحب الحكمة تسلية أو لهوا أو هواية ، لأن الفلسفة وحب الحكمة ليست تسلية ولا لهوا ولا هواية ، وانما هى موهبة واستعداد وصناعة شاقة ومهنة قاسية وحرفة غيور على محترفها تقتضيه الوقت والجهد والتضحية ، فالفيلسوف يجب عليه أن يحافظ على ذاته من الانخداع بالمال والجرى وراء الشهرة والاندفاع فى الشهوات ، فهذه الأشياء الثلاثة التى هى نعم الحياة ومآرب الحياة وغاية الرجال والنساء فى الوجود ، هى آفات الحكمة وعدواتها اللدودات وأضدادها ونقائضها ، ومن ينشغل بها أو بواحد منها فلا أمل له فى الفلسفة ولا نصيب له منها مهما كان اجتهاده ، ولو جاهد الفيلسوف على هذه المرغبات الثلاث ، فلا يعد نفسه ناجيا من المعركة ، فان أمامه ووراءه أعداء آخرين كحقارة الأوساط الاجتماعية ومعاكسة الأقدار وحسد الأصدقاء ونكد العيش الناشىء من حياة الأسرة وحاجات البدن الضرورية ومطالب الحياة التى يحتاج اليها المتعلقون بعنق الحكيم واللائذون به واللاصقون بأهدابه من أهل وأقارب وولد .

ولأجل هذا كان الزهد والخمول – أى الفرار من الشهرة أى خمول الذكر لا خمول العقل – والقناعة والعزوبة وقطع العلائق العادية من أهم الأسباب فى نجاح الفيلسوف ، وان يكن ما تقدم ذكره – ما عدا المال والشهرة والشهوات – لا ينفى الفلسفة ولا يحرم الرجل من ممارستها حرمانا باتا وان كان يصعب الطريق ويزرعه بالأشواك الا أنه يستطيع أن يكون فيلسوفا ، فقد كان أشهرهم متزوجين وأرباب أسر وعيلات حتى سقراط وفيثاغورس ولقمان كانوا آباء وأزواجا .

فى نظرى أن الفيلسوف رجل شاذ فى أظهر أموره ، فهو يخالف عامة الرجال فى طباعه وميوله ورغائبه ، بل فى تقسيم قواه العاقلة والمدركة وتغليب بعضها على بعض ، فان قوة العقل عند الفيلسوف تكون عادة أكبر من قوة الارادة ، وقوة الارادة هى المظهر الأكبر للحياة العملية ، ولذا نرى الفيلسوف قليل الحرص فى كل شىء ما عدا عقله وتفكيره ، **ان الارادة كلما قويت فى الرجل جعلت نظره الى الحياة ماديا ، والعقل كلما قوى فى الرجل جعل نظره الى الحياة معنويا ، ولذلك كنت أنظر دائما للرجل ، فان كان ميله الى نفسه ونظره الى شخصه وانشغاله بطاعة هواه ، كان فى نظرى غير صالح للفلسفة ، أما اذا كان نظره مندفعا الى الأمور الخارجة عنه كالكون والطبيعة والفلك والأشياء المغايرة لشخصه والمخلوقات المختلفة عنه ، كان أقرب الى الفلسفة** ، وقد تقوت هذه العقيدة عندى بالاختبار والتجربة ، فالأنانية فى الحركات والسكنات تمنع الاتصال بالحكمة .

بيد أن الفيلسوف اذا اتبع الخطة التى ذكرتها ، لا يكون متبعا برغبته ولكنه يتبعها رغما لأنه هكذا خلق ، وهى خطة لا يمكن تقليدها ولا يمكن املاؤها على النفس ، فالفيلسوف ليس مقلدا ولا مطيعا لمعلم انما ملبيا نداء فطرته .

وقد رأيت أن بعضهم يزعم أن الفلاسفة جماعة من المرضى والمحبين للراحة والخروج من ميدان الحياة والفرار من المعركة وأنهم شادوا لأنفسهم حصونا من الوحدة والعزلة باسم الحكمة ، وما هى الا مظهر من مظاهر حب النفس والجبن عن خوض غمار الحيـــاة .

والحقيقة أن الفيلسوف ليس معتزلا ولا متوحدا ولا متباعدا عن غمار الحيـاة ، انما هو معتز بشـــخصيته ، بعيد عن مواطن

الشبهات ، يتقى السقوط فى المهاوي والمخزيات ، ولكنه يعيش مع الناس ويغامر معهم ويخالطهم ويمتزج بهم كما كان يفعل سقراط وروسو وأفلاطون ، فان لكل من هؤلاء تلاميذ وأهلا وأصـــدقاء وأشباعا وأتباعا ، ولا يمكن أن يكون الرجل فيلسوفا ان لم يذق آلام الحياة ، أى يشترك والجماعة في معاناة شرور الدنيا والشعور بها شعورا تاما ، وهذا لا يتأتى بدون اختلاط ٠

أما الذين يزعمون أنهم يعيشون فى برج من العاج أو حصن من الذهب أو خيمة من الخز والديباج ، فهؤلاء مرضى ومخنثون ومتكبرون وأدعياء ولا يعدون فلاسفة بحال من الأحوال ، ولقد أدركت هذا الأمر على مشقته بالخبرة وان تكن قليلة ، ولكن التجارب بنوعها لا بتعددها وبلونها لا بكميتها ، خصوصا فى عالم معرض لتكرار الحوادث وتشابهها ٠

لم يسمح العصر الماضى بتحجب الفيلسوف ، فانه كان مقصودا فى كل مكان ومتبعا ومطلوبا لأهل العلم الذين ينشدون الحقيقة ، وكان للفلاسفة مدارسهم وطلابهم ، وكان الملوك يدعونهم الى بلادهم لينتفعوا بهم كما كانت حالة صولون اليونانى ، والعصر الحديث أشد حرصا على الاختلاط بالفيلسوف ، فهو اما أستاذ فى جامعة ، أو مؤلف مشهور أو محاضر معترف به فى عواصم الدنيا أو بحاثة تتزاحم مطالب المطابع على بابه ، وحتى هربرت سبنسر على شدة رغبته فى التحجب والهجرة والوحدة والفرار من المتطفلين وأهل الفضول لا أهل الفضل ، كان يكتب الى الصحف والمجلات ، وكان لا يغلق باب بيته فى وجه قاصديه ، حتى عرفه الأفغانى ومحمد عبده وويلفريد بلنت وعشرات من أهل الشرق والغرب ، وكان أحب تلاميذه اليه طالب هندى هو شيامدجي كريشنافارما ٠

***

(٩)

محاولة البحث عن فيلسوف يمثل الفلاسفة ومذهب يمثل مذهبهم

كان كل همى كلما وقفت على فلسفة رجل من هؤلاء المشاهير أن أتتبع تاريخ حياته وأقابل بينه وبين غيره فى المواهب والميول لأستنبط شخصا يمثل الجنس كله ، كما نقول أن لقمان يمثل الحكماء أو قارون وروكفلر يمثلان الأغنياء أو هنرى بوانكاريه يمثل علماء الرياضة وجوته يمثل الشعراء وبركليس يمثل الخطباء ، **أخذت أبحث عن رجل يمثل هذه الطائفة وأبحث عن مذهب يمثل مذاهبهم •**

وانك لتجد رجالا يسألونك عن دين الفيلسوف ، أمؤمن هو أم ملحد أم مرتاب ؟ أم متظاهر بالايمان أو بالالحاد ؟

وهذه كلها أسئلة آفنة باطلة ، **فالفيلسوف فى نظرى لا يكون مؤمنا ولا ملحدا الا فى آخر حياته** ، انما هو طوال حياته قد اتخذ موقف الفحص والنظر ، مستعدا ليحبذ أو ينتقد ، فقد يمدح وقد يذم وقد يناقش ، وقد نخلو نفسه من العقيدة ، وقد يكون فؤاده فارغا كفؤاد أم موسى ، حتى اذا قطع الشوط الملائم فى الحياة ، استقر قراره فى هذه المسألة كما يستقر فى سواها ، كالقطع بأن الانسان ميال للخير أو للشر أو كضيعة الأمل فى مستقبل الانسانية أو كالتسوية بين المذاهب الفلسفية بغير تفضيل ، هذه أمور يصل الفيلسوف فى أخريات أيامه الى حلها والوقوف على حقيقتها •

وجملة قولى فى هذا الفصل الذى أنشأته ليكون تاريخا لنمو عقلى ، أننى حاولت أن أصـــل الى المعرفة الكاملة للفلســـفة ، لا عن طريق الكتب والمذاهب وحدهــــا ، بل عن طريق الرجـــال

أنفسهم ، كما تبعت هذه الخطة فى معرفة رجال الصوفية عندما تعلقت بها واتخذت منها أصدقاء كالحلاج وأبى سفيان الثورى والسهروردى والطوسى والقشيرى والدباغ وآل عبد السلام (محمد ومحمود وسيد عبد السلام) (١) .

لقد اتخذت الاستدلال على صحة المبادىء من تراجم أصحابها .

كان كل جهدى على مدى خمس عشرة سنة من ١٩١٢ الى سنة ١٩٢٧ منصبا على استخلاص فلسفة عامة وانتهاج منهج ينطبق على الحقيقة ، وتنقية الفلسفة من التناقض الذى يبدو جليا فى المذاهب المتتالية ، وهو ــ وان بدا جليا ــ الا أنه تناقض ظاهر وحسب ، لأن الفلسفة فى كل عصر تتأثر بالزمن والعلم والاجتماع والسياسة والأخلاق ، فيكذب بعضها بعضا وينقضه ، والحقيقة أنها حلقات شديدة الاتصال متينة الأسر فى سلسلة واحدة .

ولذا لزم الفيلسوف أن يلم بكل شىء مما كتبه وقاله أسلافه وكل ما دونوه وحرروه وأودعوه كتبهم ودروسهم وصدور تلاميذهم ، فقد يجد حلقة مفقودة فى كلمة دراسة ، أو فكرة لازمة فى كراسة مطمورة .

ولكن الأستاذ جوبلو قال لى عليك بديكارت ودع عنك أرسطو وأفلاطون لأن ديكارت أبو الفلسفة الحديثة غير منازع وقيمته أكبر من بيكون الانجليزى ، لأن بيكون عملى وديكارت نظرى ، والفلسفة نظرية لا عملية وهى علم العلوم ، وبيكون فيه بقية ميل للاتجار

---

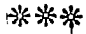
(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بآل عبد السلام وخاصة الشيخ محمد عبد السلام وأخيه الشيخ سيد ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٣٨١ ــ ٣٩٠ .

بالعقل وصـــبغ الفلسفة بصبغة التقدم والفائدة ، ولكن ديكارت ذو فلسفة خالصة من شوائب المادة والمنفعة العاجلة ٠

ولأن ديكارت فرنسى وهو مواطن جوبلو ومن أســلافه فقد نصحنى بديكارت ، ولو كنت فى انجلترا لنصحنى الأستاذ بدراسة سبنسر ولوك وستوارت ميل،واذن فستكون خسارتى العقلية ضخمة، لأن هؤلاء فلاسفة أسفار وأرقام واحصاء ومشاهدات ، سائحون فى البلاد النائية ومعظمهم يميل الى درس القبائل البائدة والشعوب الفانية ٠

وأنا أقر لهؤلاء السادة بالفضـــل وأدرس كتبهم عند ارادة الاستقراء العلمى أو التعمق فى سوسيولوجيا أو اتنولوجيا أو تاريخ الزواج عند الأجناس لأستنبط منها عن طريق القياس ما يستنبط ، أما الفلسفة فلا ٠

ولا أحب أن يظن أحد أنني أنتقص الشعب الانجليزى أو أنال من فلاسفته وادبائه وعلمائه ، فقد أدوا فى جملتهم خـدمة جليلة للانسانية بغض الطرف عن مواضع النقد فى أخلاقهم السياسية ، فقد رأيت أفرادا كثيرين من أعلى قمتهم الاجتماعية يتجرون الحق وينفقون أعمارهم فى مناصرة المظلومين والأخـذ بيـد الضـعفاء ، ولو كان ذلك على حساب إنفسهم ، وقد ضحى بعضهم بماله وحياته فى مقاومة عناصر الشر والفساد التى استشرت وتفاقمت فى القرن التاسع عشر ٠



(١٠)

حقيقة الفلسفة

طالما سألت نفسى عن حقيقة الفلسفة ما هى ؟

لقد اختلف الفلاسفة أنفسهم فى تعريفها • ان حب الحكمة تعبير واسع جدا ، وقد كان أفلاطون يراها ادراك الأفكار ، أى معرفة حقيقة الأشياء أو معرفة كنه الأشياء وجوهرها وماهيتها معرفة تامة ، ولذا ابتكر نظرية المثل الأفلاطونية ، وقد جمع فيها بين السماء والأرض والروح والمادة والمعانى العلوية وأسس مدرسته لغرس مبادئه فى أذهان تلاميذه ولا سيما أشهرهم وأقدرهم أرسطو •

وقد بقيت لنا كتبه التى أهملها المسلمون واكتشفها اليونان عند سقوط القسطنطينية فى نصف القرن الخامس عشر ، فجاءت كاملة وقد اعتمد فيها على طريقة الحوار وهى أفضل الطرق لابراز الأفكار وتوضيحها ، ولولا مؤلفات أفلاطون ما عرفنا شيئا عن سقراط ولا قرأنا دفاعه المجيد عن الحق وعن نفسه أمام قضاته •

وأهم كتب أفلاطون فى نظرى كتاب الجمهورية وحوار الخلود ، خلود الروح •

وقد شذ عنه تمليذه أرسطو وجعل الفلسفة المعرفة الشاملة لكل الكائنات ، ولم يتعرض لعالم السر والغيب الا قليلا ، وان يكن قال ما يشعر باعتقاذه بخلود النفس وأستقلالها ، ولكنه لم يتوسع كما توسع أستاذه ، ويعد ذيكارت الابن البكر لأرسطو وأضاف اليه نظرية العلل •

وفى الحق كان اليونان أعظم من اشتغل بالحكمة وخدمها ، وأول من نظر فى الكون نظرة شاملة ،وجعلوا لكل فكرة مذهبا ومدرسة وبذلوا جهودا جبارة فى توضيح أغراضها ، فتارة يرون سعادة الانسان غاية الغايات ، وطورا يرون تحليه بالفضائل وتخلصه من الرذائل ، وهذه هى الناحية التى مال اليها فلاسفة العرب ونسجوا على منوالها ليكونوا أقرب الى آداب الشريعة الاسلامية ، ولكنهم لم يلموا بالفلسفة اليونانية لجهلهم باللغة ولمخالفة الاسلام للعقائد الوثنية القديمة ، ولذا كانوا يكرهون اليونان ويحذرون التورط فى حكمتهم ، وان يكونوا قد اقتبسوا منهم الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء ونظرية أصل الأشياء ، ولو لم توجد شروح ابن رشد لأرسطو قبل اكتشاف مؤلفاته فى سنة ١٤٥٣ ما عرفتها أوربا الحديثة وما ألمت بها ، فكانت اللغة العربية فى القرون السابقة على عصر النهضة لغة العلم والفلسفة والأدب والطب فى أنحاء العالم حتى ان أول كتاب طبعته مطابع انجلترا كان كتابا عربيا لمؤلف مصرى فى محاسن الأخلاق .

ولكن العقول الغربية قد استقبلت الفلسفة استقبالا حسنا ، ولم تكن لديهم شريعة تناقضها وتعطلهم .

غير أننى رأيت أن العرب أخطأوا اذ ظنوا أن بين الشريعة والحكمة تناقضا ، ولم تدب هذه الفكرة فى أذهانهم الا فى عصور الظلام والانحطاط ، والا فمن يزعم أن القرآن والسنة يحرمان النظر فى الحكمة وهما يدعوان الى ذلك دعوة حارة ؟

وان لم يكن هنا مجال الدفاع عن سعة صدر الاسلام للفلسفة ، ولكننى أروى من ذاكرتى طريقة تكوين عقلى ورغبتى فى اشباع شوقى وتطلعى .

أليس غرض الفلسفة الاول الوصـول الى لم شمل النتائج النهائية لفروع المعرفة ، ونفى التناقض والتخالف بينهما ، واثبات وحدة الوجود فى المعلومات العقلية والأفكار كما هو الشـأن فى الماديات والأحياء حتى تستنبط القوانين الثابتة والقواعد الأساسية التى هى سنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير ؟

وهكذا تصير الفلسفة الكوة التى تطل منها النفس على عالم الروح ، والا فما علة اختلاف الفلاسفة فيما بينهم ؟

ان الحال فى العلم غير ذلك بالمرة ، فان كل عالم يسعى لتأييد رأى سابقه ولا يؤخذ برأى الا اذا سبق تمحيصه ، وحتى اذا استجد رأى فلا يحصل التحول اليه والعدول عن سابقه الا بعد التثبت والبحث الطويل ، ألم يحدث ذلك فى علم أصل الانسان حتى ظفر داروين بنظرية النشوء والارتقاء ؟ وحدث ذلك أيضـا فى نظرية النسبية التى قال بها أينشتين ؟ .

ولكن الفلاسفة يشذون ويستقلون عن بعضهم بعضـا حتى ولو كان الثانى تلميذ الأول ، فان تعاليم سقراط يثبتها أفلاطون ولكنه يحصرها ويبوبها ويضيف اليها آراءه الخاصة ، فقد جعل الأول همه فى محاربة السفسطائيين ، ولكن أفلاطـون يشيد فى جمهوريته بناء جديدا للمجتمع .

ولابد لكل بيئة أن تخرج الفلسـفة التى تلائم طبيعتها ، ولأجل هذا لم يخرج المصريون فلسفة لانغماسهم فى المادية ، أقصد فى العصر الحديث ، فان الشعوب المحبة لذاتها ليس فيها من الجهد ما يعين على انتاج فلسفة، وكذلك الايرلنديون وأهل أمريكا الحديثة، أما الألمان فقد أنتجوا فلسفة عظيمة فى العصر الحديث أمثال فيختة

وونت ووندلبـــانه وريهل وليبس وهيجل وشـــلنج وشـليجل وشوبنهاور ونيتشه ٠

لقد شغلنى هذا التفاوت بين الفلاسفة مشغولية عميقة ، وعز على أن يقصر كل فيلسوف جهوده على دائرة بحوثه ولا يعمل على تمحيص ما سبقه ، ولكننى لم أنس أن التطور والتحول فى حياة العالم قد تحكما فى حياة الفكر ، فليس لديكارت أن ينظر فيما نظر فيه أرسطو الا فيما يتعلق بالمعلومات النهائية ، أما الطريقة والحكم على الأشياء فقد تطورا بتطور الزمن ، ولذا ملت فى فترة من الفترات الى القول بأن هذا التناقض قد لا يكون الا ظاهرا لا حقيقيا ، فان نيتشه لم يغفل النظر فى الدين والأدب والاجتماع وأصـل الكون والمخلوقات والفنون الجميلة وعلاقة الرجل بالمرأة والحاكم بالمحكوم والغنى بالفقير ، ولكنه جعل هذا كله فى أسلوب غير الأســاليب الســابقة ينطبق على نفسيته وروح زمنه وتطور الأفكار والحياة فى زمنه ٠

وفى الواقع لا يملك نيتشــه أو غيره أن يغفل الدين والعلم والفنون ، ولا يملك سواه أن يرى هذا التقسيم فى معرفة البشر وكل ما يستجد عليها كعلوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد وعلم النفس ، وهذه لم تكن سوى أفنان للغصون التى تنمو وتتفرع من شجرة العقل ٠

لقد أدهشنى ألا يكون للهنود فلســفة ولا للصين فلسـفة ولا لليابان فلسفة ٠٠٠ قد تكون الخصوبة الأرضية وغزارة الخضرة وتوافر الأغذية وتكاثر الأنهار وقلة الحاجة الى الحركة والتزاحم فى ميدان الحياة من أسباب الحرمان ، وقد يكون فقد الحرية والاستقلال وتحـكم الأجنبى سببا فى خمود النفوس وجمود المواهب وجفاف العقول والأرواح ٠

ولكن الهند هذه كان لديها كتاب « الاوبانيشاد » وهى فلسفة دينية ، وكان عند الفرس كتاب « الأفستا » ، وكان عند الصين فلسفة كونفوشيوس ، ثم جفت الأقلام وتعطلت القرائح ، كما جفت الأقلام فى مصر القديمة بعد كتاب الموتى وحكم بتاح حوتب ، وهذه كلها كتب دينية ولكنها كانت هى الفلسفة العصرية بالنسبة لهم كما كانت تعاليم فيثاغورس فى عصره وكما كان تشريع حمورابى فى عصره وكما كانت كتب التوراة بعد موسى على ألسنة الأنبياء ولا سيما أيوب وداوود وسليمان ، وقد تتخذ الفلسفة صورا مختلفة كما شعرت وأدركت بفطرتى ، فسفر أيوب لون من فلسفة الحياة والأخلاق والدين وعلم النفس ، وكانت أناشيد داوود (المزامير) وتفجعه فلسفة عملية للندم والتوبة وقد كان أشجع أهل زمانه وأكثرهم مجازفة وأحبهم الى ربه فأنطقه بالحكمة وقربه وأنعم عليه ، وكان سليمان ابنه ملكا وحكيما وعادلا ٠

وكان عهد الفلسفة الدينية فى الهند قريبا من نبوغ اليونان ، وقد تأثر أفلاطون بحياة الشرق ولا سيما بزيارته للكهنة فى وادى النيل ، كما سبقه اليه فيثاغورس فكتب حواره فى « فايدو » و « فايدروس » و « تيماوس » ، وكلها فلسفة دينية وبحث عميق مستور فى علاقة الخالق سبحانه وتعالى بالمخلوق الممتاز ٠

ولا احب أن يظن أحد أننى اعتبرت النبوة فلسفة أو وظيفة اجتماعية ، وان صح هذا فى كل الأحوال ، افلا يصح فى حالة محمد ابن عبد الله الذى اعتقد اعتقادا صريحا أنه نبى مرسل موحى اليه وقد تلقى الوحى من الله بروح جبريل الملك ، ولا أرفض نبوغ الرسول العربى فى كل شئ ما عدا الوحى ، فان حياته كلها لم تكن وحيا الهيا ، بل كان فيها اجتهاد وتفكير وتدبير شخصى انسانى كالذى ظهر فى حروبه وتنظيم دولته ووضع دستور المدينة وتنسيق

العلاقات بين المهاجرين والانصار وبقية القبائل ، وكانت له أفكار خاصة ووجهات نظر خاصة فى الحياة والاقتصاد والتعليم والسلوك والزواج والاجتماع قد تكون فى مجموعها نظاما فلســـفيا ضخما عظيما ، ووصفه بالفلسفة هنا يقصد به أنه نظام حكيم ٠

ولا يدهش أحد من وصف التعليم الدينى بصفة الفلسفة ، فان الدين لم يخرج فى وقت من الأوقات عن تبيين العلاقة بين الخالق والمخلوق ٠

***

(١١)

أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان فى الحياة ومحنة الروح بالحياة ـ وحدة الفكر الفلسفى ـ هل الفلسفة علم ؟

لقد ظهر لى بعد حين أن مجرد سؤالى عن مورد الانسان ومصدره وتاريخ حياة الروح منذ ولادتها الى عودتها الى عالم السر ، ليس الا خطوة فطرية فى سبيل الفكر الانسانى ، وقد تفرع عليهما فى ذهنى ما لا يقل عنهما فى هذا الشأن وهو أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان فى الحياة ومحنة الروح بالحياة والعيش على قشرة هذه الكرة الأرضية ودرجة الرقى المطلوب منها أن تصل اليها فى وسط الأشواك والعقبات والأخطار التى لا تعد ولا تحصى ، ومحاربة الشهوات والتغلب على المصاعب وخوض بحر خضم من التبعات ، وشرب كئوس العذاب فى الوحدة والانفراد ، وفى الجماعة والألفة ، والتنازع بين الآمال والخيبة ، وظهور الأشياء بغير مظهرها ، كل هذه وتلك دون أن تبرز الى العالم الخارجى ، فليس الاقتصـــاد

والاجتماع ومحاربة الشر والحروب والسياسة من دائرة الفلسفة الا اعتبارا وتجاوزا ٠

فالفلسفة فى عالم العقل والروح وما وراء الطبيعة ، وقد تحاول الفلسفة أحيانا أن تحدد العلاقة بين الفرد والمجتمع كما صنع سبنسر فى فلسفته ، فانه نظر الى دنياه هو وهى العالم الانجليزى فى القرن التاسع عشر ومستقبل علاقة الفرد بالمجموع فى ضوء العلوم الحديثة والحضارة المعاصرة ولكن سبنسر بعد عن الحقيقة لأنه حصر آراءه فى وسط معين واستخدم كل علوم البشر لتأبيد فكرته وهى أن المجتمع كائن حى يصح عليه من الأحكام مايصح على الكائن الحى ٠

ولا يقل خطؤه ـ مع عظيم احترامى له ـ عن خطأ أوجست كومت الفرنسى الذى أشقى نفسه ليسعد العالم بخلق دين جديد ومجتمع جديد بناء على ما تخيله من تقسيم تاريخ حياة الانسانية الى عصور الدين والحروب والاقتصاد ، فى مقابل العصور الحجرية والبرنزية والحديدية ٠

لقد أحببت أوجست كومت حبا جما عن طريق الاشفاق عليه لأنه حاول انقاذ الانسانية من شرورها ، ولكن نظرة واحدة كانت كافية للحكم على مشروعه بالفشل ، فان فرنسا فى القرن التاسع عشر لم تكن لتسلم فى نفسها لهذا الفيلسوف الصالح الذى أراد أن يهدم كل شىء ليبنى بناء جديدا غير مأمون العاقبة ٠

عدت بذهنى الى محاورات أفلاطون ، فليس عندى وقت للمراجعة الدقيقة لأنى **لا اضع كتابا ولكنى أسجل خطوات عقلية** ، وعدت الى كتب أرسطو فى المنطق والطبيعة والحيوان والروح والشعر والخطابة ، وتأملات ديكارت ومقولة كانط (نقد العقل

المجرد) وشوبنهاور وسبنسر ، رجعت بذهنى الى هذه الثروة الضخمة التى أخذت من عمرى نصيبا كبيرا ، فوجدتها مختلفة كل الاختلاف كأنها معارك وملاحم بشرية ، ولكنها بعد الاهتضام والتأمل تتكشف لى عن وحدة تامة كاختلاف القاصدين الى مركز الدائرة وقد سار كل منهم من أحد أقواسها أو من نقطة من محيطها ، فكل منهم يصوغ مسألة أو جملة مسائل ، ويفرغها فى قالب تفكيره ثم يسعى فى ايجاد حل لها باذلا جهوده فى تدعيم الحل الذى يفتح به عليه وتأييده بأدلة من عنده على طريقة علمية واضحة ٠

غير أن سبنسر يسمى هذا نظاما System وكانط يسميه نقدا وشوبنهاور يسميه تحكم الارادة فى العالم وماخ يسميه تحليل الاحساسات وديكارت يسميه تأملات ٠

ولكن هل اعتبر الفلسفة علما كما اعتبر الفلك والكيمياء ما دامت الأدلة الواردة على صحة الحلول قائمة على أساس على طريقة علمية ؟

لم أستطع أن أجيب عن هذا السؤال بالايجاب أبدا ، وان كنت تأكدت صدقه عند محاولة التدوين فى مسألة فلسفية ٠ ولكنى ما أزال أقول ان الفلسفة ليست علما ، اننى لم أتعلم هذا الجواب ولم أتلق هذا الرأى عن أحد ولم أجده فى أحد الكتب ، ولكنى كنت منذ نشأتى ولأول احتكاكى بهذه المسألة ، أنفر منه وأحكم بغفلة من يقول به ٠

ان العلوم التى يطلق عليها هذا الاسم معروفة لدينا ، فهل الرياضة كالفلسفة ؟ وهل الطب كالفلسفة ؟ وهل الفلك كالفلسفة ؟

لقد قرأت فى بداية أمرى أن من اليونان من كان يتعلم الفلسفة عن طريق الاشراق والتلقى من الأستاذ مباشرة ، واذن يكون الفرق

الجوهري بين العلوم والفلسفة أن العلوم تنتقل بواسطة التلقين والمران والتدريب والتجربة . أما المعرفة في الفلسفة فقد تأتي عن طريق الالهام ، لأن مادة العلوم حقائق ثابتة ، أما مادة الفلسفة — ان صح هنا ذكر المادة — فهي أفكار وخواطر ، وهذه تستلهم ويوحى بها ويتلقاها الحكيم أو محب الحكمة بدون واسطة ، انها تشرق عليه كالنور الطبيعي الذي يعم العالم من الشمس والقمر ، وقد يأتي لك النور بمفردك وفي عزلتك اذا كنت متأملا ومستعدا ، وقد يأتي اليك وأنت لاه عنه أو مشغول بغيره أو غير منتظر اياه ، وقد يأتي اليك وأنت في صحبة صديقك أو حبيبك ، أو في مناقشة خصمك أو عدوك ، فهو نعمة وفيض لا علاقة له بالخارج ، ثم ينمو الخاطر أو الفكرة حتى يصير شغلا شاغلا ، وكلما أنعمت فيه النظر تفتحت لك أبواب وظهرت لك مسالك وتشعبت طرائق .

ولاجل هذا كنت أجيب بفطرتي أن الفلسفة ليست علما ، ولكنها شيء آخر . انهــا ربح عقلي سببه التأمل وصفاء النفس والاستعداد والتلقي ، وأفلاطون يشير الى ذلك ، وبلوتين صاحب الأفلاطونية الحديثة يستلهم ، وسبينوزا يستلهم ويحاول الوصول الى الحقيقة عن طريق الاتجاه الروحي كالذي يصنعه المتصوفون ، وأخذ هؤلاء الفلاسفة يتلقون الوحي والالهام ويثبتون وجود طريق للمعرفة غير التلقي والدرس ، ثم يهمسون به حتى صرح به شيلنج وسماه « الادراك العقلي » . وأخيرا أثبت برجسون نظرية الافتطار في كتابه « مواهب الوعي المباشر » Donnés imidiate de la senation ، وكان ذلك ردا مفحما على فترة الخذلان التي أصابت الفلسفة في القرن التاسع عشر تحت ضغط العلوم المادية التي اختصت بتطبيق التفكير على التجربة وهي الطريقة المتبعة في العلوم العادية .

ولم أقتنع أبدا بأن الفلسفة خاضعة للعلوم لأنها لا تتبع قواعد ولا تقريرات ولا تخضع لما يخضع له العلم العملي كالرياضة والطب ٠

ان الفلسفة تلقي على العالم أسئلة وتسعى في الاجابة عنها ، من أين جئنا والى أين نذهب ؟ وما الخطة المثلى في سلوك الانسان مدى الحياة ؟ وما الروح والنفس والعقل ؟ وكيف نفكر ؟ وكيف نشعر ؟ وكيف نعيش وكيف نموت ؟ وكيف نحكم على الأشياء ؟ وما ماهية الأشياء وما جواهرها وأعراضها ؟

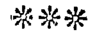
ان الفلسفة تقطع أشواطا يقصر عن مداها العقل وتتعثر أقدامه في الوصول اليها ويعجز عن التطلع اليها ، والفلسفة لاتكتفي بالروح والالهيات وعلة الأشياء ، بل تبحث في الحياة العامة ولا تعرض عن البحث في نتائج العلوم المادية كالأخلاق والآداب والطبيعة ، وحتى علم الحياة والتشريح الحيواني والانســاني لا يخرجان عن دائرتها ٠

ان قلت ان الفلسفة علم العلوم والمهيمنة على المعارف الانسانية بغير قيد ولا شرط ، فربما كان هذا التعريف قريبا من الحقيقة ، لأنها غير محصورة ، فالفيلسوف يبحث عن الموسيقى لأنها مظهر من مظاهر الانسجام كما فعل الفارابي ونيتشه ٠

هي أم العلوم وأصلها ونشأتهـــا ، ولكنها مستقلة عنها ، كالوطن الأكبر بالنسبة الى الولايات والأعمال والمقاطعات ، فان قلت انها علم العلوم أو معرفة المعرفة ، كنت قريبا من الحقيقة ، وقد يترقى بعض العلوم فيدخل في حيازتها ويلتمس حمايتها ٠

فان بحث شوبنهاور في الضوء ونظر الألوان بحث فلسفي ، ولكن طريقة البحث عن الذهب ليست من الفلسفة ، والبحث في

أصل الأنواع وتسلسل الانسان معرفة فلسفية وان كانت جزءا من علوم شتى كالحفريات وطبقات الأرض والتشريح ، ولكن الطب نفسه الذى عليه قوام حياة الانسان ، ليس من الفلسفة ، وتركيب الأجسام من عناصر أو عنصر واحد ، والذرة والتكهرب ، جزء من العلوم التى ارتقت الى درجة الفلسفة ، وتطور الأحياء كذلك سواء أكانت نباتا أو حيوانا أو انسانا جدير بنظر الفلسفة ، ولكن العمل على ترقية الأنواع لا يدخل فى نطاقها ، ويدخل تحت لوائها بلا ريب علم الفلك فى درجاته العليا والطبيعة العليا وعلم الحيـــاة ، وقد رأينا جهاد سبنسر فى تعريفه وتخصيصه مجلدين من « نظامه » لدرسه ، وعلم النفس وعلم الاجتماع هما صفحات من كتاب الفلسفة الأعظم ، ولو أن جميع هذه العلوم تقوت وتوسعت واســـتقلت ، ولو أن جميع المسائل الناشئة عن الحياة فحصت ودرست وحلت حلولا موفقة ، فلا يزول مع هذا سلطان الفلسفة من عالم الفكر لأن الأفكار تتولد فى كل يوم ، ولأن سيل الالهام مستمر لا ينقطع ، ولأن الحقائق تظهر فى كل لحظة وتدفع بالأفكار الى الظهور من عالم الخفاء ، وفى كل لحظة يشـــعر الانسان بحاجة الى هذه البوتقة العظيمة المهولة التى تفرغ فيهـا الأفكار والخواطر لتصفى وتنفى ثم تصاغ .



(١٣)

أســئلة فلســفية

انك تدهش اذ تقرأ أو تسمع أن عصر الفلسفة قد انقضى ، وأن العصر الحديث لا يفسح لها مجالا ، وأن تطور العـالم يقتضى

زوالها ، وأن الذى حل محل الفلسفة هو درس تاريخها ، فتبتسم وتعلم أن الكاتب والقائل كمن يخبرك بوقف دولاب الحياة وانتهاء المواليد ، وأن عالم الأحياء ينتظر الموت الجارف الذى يذهب بالأخضر واليابس ، **فالفلسفة لا تموت الا اذا مات الجنس البشرى وانقرض** ، **وما دام العقل حيا ينبض ، فالفلسفة عائشة لا تموت** ، وهى لا تنكسف ولا تختفى الا فى البلاد الميتة أو العائشة على الأوهام والشهوات كبعض بلاد الشرق الاسلامى فى هذا العصر الحديث ، وطالما عجبت كيف تعيش هذه الأمم بغير فلسـفة ، لأن الفلسـفة هى الشوق للمعرفة ، فكيف يعيش أحيانا بغير شوق الى المعرفة ؟ .

فغاية الفلسفة ــ غير ما ذكرنا ــ هى اشباع رغبة المعرفة عند الانسان المدرك حتى يستغرق ، وقد أعطى فيثاغور حياته لاشباع هذه الرغبة ، كما وهب أفلاطون حياته اجابة للدهشة من جمال الكون ، وديكارت للشك ، وكلاهما ــ الدهشة والشك ــ انفعال ناشىء من عدم الاقتناع العقلى أو من النهم الفلسفى ، كالطفل الذى يحب أن يعرف كل شىء عند تنبه مواهب الادراك فيه ، فالفيلسوف طفل كبير لا يسألك أسئلة الطفل السـاذجة ، ولكن يسألك عن القضاء والقدر وسعة الكون وعلة انتظام الأجرام السماوية ، وهل هناك جنة ونار وثواب وعقاب ؟ ويعلل الحب والبغض ، وحقيقة الوحى ، والفرق بين العبقرية والجنون ، وهل تسلسل الانسان من القرد « البريمات » يمنع حلول الروح فيه ، وما حقيقة خلق آدم وحواء ، وما علاقة قانون الجاذبية بحياة الانسان ، وهل الانسان خالد أو فان ، ولم كان الحكم عليه بالخلود أو الفناء من أعلى مسائل الفلسفة ، وما أثر الموت فى الانسان ، ولم كان الاعتقاد بالثواب والعقاب مهما فى نظر الانسان ؟ وهل بينه وبين العدل ارتباط ؟ وما هو الله ــ جل شأنه ــ ذاتا وصفات ؟ وما علاقة الانسان به ، والقضاء والقدر والنبوة والرسالة والسـعادة والشقاوة والبعث

والنشور ؟ . وما هية الذنب والمعصية ، وبالجملة كل ما هو عام واجماعي وثابت يهم الفلسفة ، وكل ما كان خاصا وافراديا ومعرضا للزوال يهم العلوم الفردة .

إن تكوين الثروات الضخمة في أمريكا عن طريق الاحتكار والاجرام لا يهم الفلسفة ، ولكن يهمها تقسيم الأرزاق وتوزيع الثروة ، لأن الأول يعود بالنفع المباشر على أفراد معدودين ملعونين مبغوضين ، والثاني يعود بالنفع على الملايين .

ووجود الله ــ سبحانه وتعالى ــ ضمان للخلود والعدل والرحمة في هذه الدنيا وما وراءها ، وتأمين من الضعف والألم وفقدان الحيلة والحاجة للمعونة ومخاطر الوجود البشرى وقلق الانسانية وحيرتها ، وفوق هذه كلها فان البحث في الله ــ عز وجل ــ يشفى غليل الراغب في المعرفة العليا .

***

(١٣)

الاعتزال والتصوف

الأفكار الفلسفية بين النظرية والتنفيذ ــ الفلسفة لا تورث

لقد أمكنني أن أدرك أن الاسلام قد أنتج حركتين في غاية الأهمية والخطورة وكبر الشأن ، ويزيدهما أهمية أنهما نشأتا في مقتبل شبابه ، وهما الاعتزال والتصوف .

فالمعتزلة أو علماء الكلام هم فلاسفة الاسلام ، ولذا وجب على ألا أطالب المسلمين بفلسفة بعد ظهور فلسفة الفرق التى رميت بالكفر والزندقة وعذب كثير منها بالجلد والسجن والذبح وهم من خيار الأمة ولم يعذبوا ولم يضطهدوا الا ارضاء للدهماء واحتفاظا بسلطة الملوك المستبدين الذين كانوا يسمون بالخلفاء (الأمويين والعباسيين) ، وهؤلاء خلفاء حقا لأنهم أفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء ، وما أعظم القرآن الكريم عندما يقول الله سبحانه وتعالى « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » .

فقد شهدت قرية بغداد وقرية دمشق وقرية القاهرة من المظالم باسم الدين ما يشيب من هوله الولدان ، كما شهدت روما وباريس ولندن وأثينا وبابل وطيبة ومنف .

اننى رجل مسلم مؤمن أدين بالسلفية وبالتصوف وبرسالة محمد عليه الصلاة والسلام وبالكتب المنزلة وبكتب الحديث السنة وبآراء الخلفاء الراشدين ، ولكننى أحب أن أقول الحق ، فان الله سبحانه يسمح لى أن أمارس العقل وأنتفع به وأن أصرح بآرائى ، وهو عز وجل أفسح صدرا وأعظم علما وحلما من كل الحكومات العادلة ، فما بالك بالظالمة المستبدة ، وقد أمرنى أوامر صريحة بالتفكير والتأمل والتدبر والتفكر ونهانى عن الجمود والجبن والخوف ، فلذا أحزن على الذين قتلوا وان كانوا قد قتلوا وعذبوا لحكمة أعرفها وأحترمها ، ولا أرى أن حياتهم أفضل من موتهم ، لأن موتهم كان أعظم وأنجى لهم ، وذهبوا فداء لغيرهم جاءوا بعدهم ولم تمتد اليهم الأيدى بالسياط والسيوف .

فهؤلاء المعتزلة الذين صبروا ، بحثوا فى الجبر والاختيار والقضاء والقدر والأعمال والأقوال والقدرة والارادة والسماء والجنة

والنار والثواب والعقاب والتبعة والحرية والعدل والرحمة والحساب والجزاء والذنوب والمعاصي . هذه كلها مســـائل في أعلى درجات الفلسفة ، فلا يضيرهم النقد والتعذيب ، ولا يضيرهم ما كتبه ابن حزم والشهــرستاني ، ولم يمنع القتل والتعذيب ظهــور غــيرهم استقبلوا الشقاء والاضطهاد بصدور رحبة ، لأنه لا توجد قوة على الأرض تمنع العقل عن البحث والدرس والنظر والتأمل والتفكير والتدبر والتمحيص والتشكك في سبيل الوصول الى اليقين ، وهذا فضل الاسلام بوصفه نظاما فلسفيا عاليا ، فهو يمجد العقل ويعجب به ويأمر بالاستفادة منه ، ويذم البلهاء والغافلين والجامدين ، ويجعل العقل السليم قرين الايمان الصحيح .

لقد خدمت الفلسفة الأديان خدمة جليلة .

وأما الحركة الثانية وهي حركة التصوف ، فقد قامت على نظرية المعرفة المباشرة والتلقي بالالهام والوحي ، وقد ذهبت لها ضحايا كثيرة كالحلاج والثوري وغيرهما .

ان كل فيلسوف مثل كل صوفي ، الصوفي يريد الاتصال بالله بغير واسطة ، والفيلسوف يريد الاتصـــال بالحقيقة بمجهوده الذاتي ، وكل حقيقة عنده مقدسة بشرط أنها حقيقة لا شك فيها ، ويدفعه الى البحث عن الحقيقة ما يراه من شغف الطفل بالسؤال لماذا ؟ وكيف ؟ وما يشعر به من منطق الأشياء وتسلسل الأسباب والنتائج والرغبة الكامنة في نفسه والقدرة على الفهم ، وقد وصفت الفيلسوف آنفا بأنه طفل كبير تختلف أسئلته عن أسئلة الطفل نوعا وكمية ، ويقصر الطفل عن ادراكهــا ، ولكن الطفل مدفوع للسؤال عما يقع تحت حسه المباشر بالنظر والسمع المباشر ، وكثيرا ما يجد أجوبة سخيفة على ألسنة والديه أو أقارب سخفاء وان تكن

بعض أسئلته محيرة ، ولكن يدهشك أن الطفل يعرف السؤال ويوجهه . ولكنه لا يدرك الجواب عليه ولا يقنع به الا ظاهرا ، وهذه الحالة نفسها دليل على حاجة الانسان للفلسفة وأنها شوق فطري ملازم للعقل البشرى منذ نعومة الأظفار .

ويندر أن يسأل الطفل سؤالا ذا نفع عام ، ولكن الطفل الكبير ــ وهو الفيلسوف ــ فيسأل أسئلة جدية عن الموت وعواقبه ، لأنه مشغول بضرورة العدل في الثواب والعقاب وتسوية الحساب ، وينتظر أن يكون خالدا ليرى انعقاد المحكمة السماوية وأخذ كل انسان نصيبه من الخير والشر .

وقد يكون الفيلسوف قانعا وزاهدا ومستغنيا ، ولكنه يسأل عن أسباب التفاوت بين البشر في الأرزاق والتقسيم والحظوظ والمظالم ، ولكن هذا الفيلسوف القانع أو الزاهد أو المستغنى يسأل هذا السؤال ليعود بالنفع على المجموع لا على نفسه ، فانه ان أعرض ودافع عن مصلحته ، هوى من درجة الفلاسفة ودخل في صفوف النفعيين وأرباب المصلحة الذاتية .

وقد يكون الفيلسوف معدما ثم يدافع عن مصلحة للأغنياء ، لأنها تنطبق في نظره على الحق والعدل .

ومهما تقدمت الحياة في العمر واستغرقت في القدم ، وتغلغلت في أغوار الأجيال ، فان أسئلة الحياة والموت والحظ والرزق والعدل والظلم ما تزال جديدة قشيبة ، لأن كلا من الفلاسفة يجيب عنها جوابا يخالف جواب صاحبه .

غير أن الذى كابدته أن الفلسفة تغرى بالتفكير ولا تدفع الى العمل ، وهذا طبيعى لأن الوصول الى أسمى الأفكار ، لا يستطاع

مع الحركة ولا يتفق مع التنفيذ ، ولأنه لا يوجد بين الأفكار الفلسفية ما يمكن تحويله الى حل عملى ، كتفكير التاجر الذى يتبلوه الشراء للبيع بالربح ، أو تفكير المحارب الذى يتبعه التجنيد والتسليح والحشد والهجوم ، **ان التفكير الفلسفى يعد وسيلة وغاية فى ذاته ، هو سؤال يوجه من النفس الى النفس ، وينتهى المقصود منه بمجرد الجواب عليه .**

والفيلسوف الصحيح لا ينتقل و لايتحرك ولا يشغل بغير ما هو فيه ، وليس هذا معناه أن يقيم الفيلسوف فى مكان واحد ، ولكن معناه أن ورود الخواطر واستعراض المسائل والعثور على حلولها لا يحتاج الى ابراز فى عالم المادة والى تجربة عملية ، فأفلاطون لم يكن يرجو أن يرى خطة الجمهورية ونظم الحكم والتعليم والمشاعية والجندية وتسليم زمام الأمور للحكماء فى الدولة تتم وتنفذ فى حياته ، لأن الأفكار الفلسفية نظرية وهذه هى ميزاتها البالغة ومكانتها العالية ، هى تمكين العقل الراقى من أداء وظيفته .

ويظهر لى أن الفلسفة الكبرى ـ شأنها شأن النبوة العظمى ـ لا تورث ، فلا يمكن الفيلسوف أن يجعل ابنه فيلسوفا ، ومعظم هؤلاء الفلاسفة الكبار يذهبون ولم يرزقوا غير حكمتهم ، ومن يخلف منهم نسلا يكون نسله فى الأغلب فرعا جافا من تلك الشجرة التى امتصت ماء الحياة لنفسها ولم تستطع تغذية فروعها .

والفيلسوف يتأمل ويشاهد ويجرب ، فى عقله معمله ، ومخبره ذهنه ، ولا حاجة به الى أدوات غير التفكير والقياس والفهم والذاكرة القوية والخيال القوى ، فغايته أفكاره .

وقد يبذل الفيلسوف جهدا فى مراقبة الكائنات كدعوة المؤمن الى رؤية آيات الله فى الآفاق . ولكن الفلكى يبنى مرصدا ويعد منظارا ضخما وعدسة مجلوة وأرقاما لا تحصى، وكذلك الرياضى والكيميائى وبعض علماء علم النفس التجريبى الذى ثبت فشله لأنه ولد ميتا .

فالفكر الفلسفى مستقل عن العمل وفى غنى عنه .

وقد يكون الفيلسوف نفسه محتاجا للعمل فى دائرة أخرى كالتدريس والصناعة ، فقد كان أفلاطون أستاذا وكان سبينوزا صانع ساعات وكان جوبلو أستاذا وكان كومت رياضيا ، ليرتزقوا ويعولوا من عندهم ، أما سقراط فقد كان صانع تماثيل فى أول أمره ثم طلقها .

فالفلسفة وظيفة ومهنة تستبعد سواها كالنبوة ، كان ابن رشد قاضيا وفقيها وابن سينا طبيبا والفارابى موسيقارا وابن خلدون قاضيا وديكارت ضابطا وشوبنهاور من أبناء الأعيان ونيتشه أستاذ لغات ، ولكنهم فشلوا فى صناعتهم ولم يربحوا منها ، ولذا كانوا فى ضيق أو عاشوا عالة على الأمراء والمجتمع ، ولذا فانى أعد المجتمع الانسانى فى طفولته لأن أعظم خدامه لا يصلون الى المال الذى يصل اليه الحائك والصباغ والجلاد .... الخ .

ولكن وراء هذا الاستغناء عن العمل والحركة فكرة سامية وهى عدم الحاجة ، وكلما اكتفى العبد كان قريبا من الرب ، لأن الحاجة قرينة المذلة والخضوع .

ألا تلمح فى هذا الميل الى الزهادة خلقا صوفيا ؟ أليس الصوفيون زهادا وأغنياء عن كل أحد ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ويرون السؤال مسبة وعارا ومخالفة للايمان الصحيح ؟

وسواء أكان الفلاسفة متوكلين على الله حق التوكل ، فانهم عاشوا فى ضنك أو فرج ، ولم يشكوا ولم يتألموا ، حتى الذى كان ملحدا منهم ، لم يعرض نفسه لمذلة الحاجة • فعلى الفيلســـوف الصادق أن يكتفى بضروريات الحياة ولابد له من الصبر على الحرمان وكبح جماح النفس ووقفها عند حدها :

والنفس راغبة اذا رغبتهـــا   واذا ترد الى قليل تقنع

ويتبع القناعة فى الحيـاة رفض الامتلاك والمسرات والشهرة والمناصب وهو الذى يسميه الصوفيون « حالة الخمول » أى انطواء الذكر لا خمول العقل ، وقد وجد كل فيلسوف وسيلة للوصول الى هذه الغاية ، فقال اريستيبس « ان شغلك بالحاضر وبالساعة التى أنت فيها يغنيك عن التفكير فى المستقبل ، ويقيك شرور السعى والادخار » ، وقال أبيقور « عليـــك بهدوء العقل وهو لا يتـأتى الا بتطليق المطالب والآمال والتفكير فيما يجلبه الغد » •

ولا يصل الفيلسوف الى هذه الحالة الا بقوة الارادة والعزوبة والعزلة فى الاكتفاء بالذات أى اكتفاء النفس بما لديها بغير نظر الى المال والجمال والنساء والأطفال والصداقة والمناصب ، لأن هذه النعم أو النقم تابعة للحظوظ وليست تابعة لأنفسنا ، وليست كلها خيرا ، فاذا حضرت وتوافرت فالفيلسوف يحظى بها ويأخذ بنصيبه منها ، وان لم تحضر ولم تتوافر فلا يجرى وراءها ولا يبحث عنها ولا يأسف عليها ولا يندم على حرمانه منها •

وفى هذا القدر كفاية •

***

الـــــزواج

ان طريقتى فى كتابة هذا المخطوط (١) هى أن أنظر حولى ، أنظر حولى فأجد عائلتى فأصحابى فأمتى فالعالم الخارجى الذى يمثل مدنية هذا العصر ، وأحب أن أقـول ان الأفـكار الدينيـة أو الفلسفية أو السياسية لا دخل لها فى بحوثى هذه مطلقا ٠

أقول اننى منذ سنة ١٩١٧ فقدت آخر عضو فى عائلتى التى نشأت فيها ولم يبق الا والدى المرحوم الذى توفى فى أغسطس سنة ١٩٣١ ، أى منذ عشر سنوات كاملة ، وكان اجتماعى به قليلا جدا لأنه كان مقيما فى الاسكندرية ولم يكن فى مقدورى أن أقنعه بالانتقال الى القاهرة ، وعلى كل حال فقد كان تأثيره على محدودا فيما عدا الناحية الدينية لأنه كان رجلا صالحا جدا على طريقـة المتدينين لا على طريقة المعجبين بدين معين لأسباب عقلية ، وهذه الطريقة الأخيرة هى التى أميل اليها لأنها تجعل التدين حياة فكرية ونفسية تماشى الحياة العادية ، ولا أحب أن أسهب فى هذه الناحية لأنها ليست من الناحيات المقصودة بذاتها ٠

اذن فى سنة ١٩١٧ فقدت آخر فرد فى عائلتى التى نشأت فيها ونظرت حولى فاذا أنا فى حالة وحدة ، وكنت منذ بضع سنوات

---

(١) كتب لطفى جمعة هذا الفصل من هـذه المـذكرات فى يوم الاثنين ١٨ أغسطس سنة ١٩٤١ ٠

قد عودت على العزوبة التامة المطلقة التى لا أتحول عنها الى درجة أننى كنت أعيب الزواج على رجل عرفته أعزب ثم أراه يتزوج ، وكانت فكرة العزوبة متمكنة منى لأسباب كثيرة ، أولا لاعتقادى أن المرأة المصرية فى العقدين الأول والثانى من القرن العشرين لم تكن تصلح لمعاشرة رجل مصرى ، فضلا عن أنها بصفة عامة — حتى ولو كانت متعلمة تعليما عاليا — لا يمكنها أن تعاشر الرجل العقلى intellectuel ، ولا تصلح لتربية الأولاد ولا تستطيع أن تصعد مع الرجل من الدرجات الأولى فى سلم الحياة الى آخر الدرج ٠

وعدا عن هذا فقد كنت فى الحق أعتقد أن المرأة عنصر تعب وضجر وضرر للرجل خصوصا الرجل الذى له أغراض معينة فى الحياة ، ولذا كنت كثير الاهتمام بتدوين كل ما يصل الى علمى مما يؤيد نظرتى الى المرأة من الأفكار المعروفة كذكر الشرور التى حصلت فى العالم بسبب النساء والأحوال التى اطلعت عليها بالمطالعة أو المشاهدة ، ومن ذلك ما رواه لى فى سنة ١٩٠٤ أحد موظفى المرصد فى حلوان عندما كنت معلما فى مدرسة حلوان من أن الرئيس الانجليزى قال للموظفين عندما سألوه لم لا تتزوج يا جناب المدير وأنت رجل صحيح الجسم والفكر ميسور الحال ؟ فقال : لقد سألت نفسى وخيرتها بين الكتاب (يرمز الى العلم والدرس والمطالعة) وبين المرأة (يعنى الحياة العائلية) فاخترت الكتاب لأن الجمع بينهما مستحيل ٠ كانت أمثال هذه الأقوال تستهوينى وأرتاح اليها ، كما كنت أرتاح كلما عثرت على تاريخ أو قصة أو حادثة تثبت صحة نظرى فى المرأة ، فكان لسورة يوسف فى نظرى شأن كبير ولا سيما آية « ان كيدهن عظيم » ، فقد كنت أقف أمامها معجبا لأنها صيغة نهائية a final formula مثل قوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة » ٠

وهناك الحجة المشهورة وهى قضية حواء والفاكهة المحرمة ... الخ ، ولأبادرن بالقول هاهنا اننى لم أعتبر هذه القضيــة الدينية الا رمزا بعيد الغور لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره ، ومع ذلك فان ظاهره يؤيد نظريتى فى ذالك الوقت .

ثم تواتر اطلاعى فى الأدب وانه لغنى جدا بتلك الأدلة بدءا بقصة ماكبث فى شكسبير الى مدام بوفارى فى مؤلفات جوستاف فلوبير ثم سومرست موجام وتوماس هاردى الانجليزيين وتاريخ النساء الشهيرات فى العالم شرقا وغربا ... الخ .

غير أن امرأة واحدة فقط قد اغتصبت اعجابى وتقديرى واحترامى وحنينى وهى السيدة خديجة بنت خويلد أولى زوجات النبى محمد التى سميت ب « أم المؤمنين » . غير أننى كنت أشعر فى دخيلة نفسى أن هذه المرأة العظمى الممتازة كانت من أهم أدوات الرسالة المحمدية ، فلا يجوز لأى انسان عادى أن يطمع فى مثلها فى أى زمان ومكان ، لقد كانت نادرة وهدية الهية — اذ اصح ان أقول ذلك — ومجرد حدوث الزواج بين هذا الانسان الكامل وهذه السيدة دليل قاطع على أهمية الدور الذى تقوم به المرأة الفاضلة العاقلة فى حياة الرجل العظيم ، حتى ان الرجل المبعوث والمرسل لا يستغنى عنها بل تقوم رسالته — فى جانب منها — عليها .

أحب أن أكون قد أوضحت هذه النقطة .

كنت قبل زواجى ببضع سنين أتهكم على فكرة الزوج الذى يحمل ولده المريض الى الطبيب أو الذى يسير فى موكب من زوجته وأطفاله أو الذى تبدو عليه أمارات الكهولة المبكرة بسبب حمل همومه ، وفجأة توفى آخر عضو من أفراد عائلتى التى نشأت فيها ،

وكان أبى رحمه الله يكتب لى خطابات فى أوربا يعرض على فيها زواجا من فلانة وفلانة قريباته وقريباتى أو من فلانة التى صفتها كذا وكذا ، فكنت أسخط حينا وحينا أسخر !

فلما حدثت هذه الوفاة ، شعرت بوحدة أليمة فى الحياة ، وشعرت بحاجتى الى من يؤنسنى ،وشعرت بضرورة المرأة فى حياة الرجل اذا كان يريد أن يعيش مستقيما وأن يضمن السلام فى حياته الداخلية وأن يضمن التوازن فى حياته العقلية ، وبالجملة شعرت بكل ما يشعر به صاحب العمل العقلى من الحاجة الى مرفأ أمين يستريح الرجل لديه بعد الزوابع الخارجيــة ، وكان هذا الشعور طبيعيا وانه لشعور عظيم اذ جرت المقادير به وبما تلاه ، هو شعور منطقى وطبيعى اذا نظرت اليه نظرة مثالية واعتقدت أن الوسط الخارجى يتلاءم مع نظرتك الى الحياة وأنك تجد من يعينك ويفهم ميولك ويخلص لك .

ولقد ثبت لى بطريقة قاطعة حاسمة جلية واضحة أن الطبيعة البشرية هى هى فى كل زمان ومكان وفى كل الظروف ، وأن المرأة الشرقية كالغربية والمتعلمة كالجاهلة والذكية كالغبية والصبية كالعجوز ، لا فرق مطلقا ، وأن الزواج هو فخ متين جدا تضافر على صنعه الطبيعة البشرية والدين والنظام الاجتماعى ، وهو بمثابة تقديم تضحية انسانية هى الرجل للمرأة التى تمثل الحياة ، ولابد أن هذه الضحية تحترق وتفنى لتتم مراسم هذه العبادة !

لقد سبق لى أن عشت مع امرأة أوربية مثقفة وكانت قارئة وكاتبة وقد سحت معها فى بلاد أوربية كثيرة وأقامت معى فى مصر عاما وبعض عام (١)،فوجدت أن عنصر حياتى هو العنصر العقلى ليس العنصر المادى ولا الغذائى،ويضاف الى هذا العنصر العقلى عنصر الفن

(١) انظر صفحة ٢١٩ ــ ٢٢٧ من هذا الكتاب .

والجمال . وقد وجـدت فى هذه المرأة الأولى كل متعتى . فقرأنا كتبا معا وزرنا المتـاحف معا وتجولنـا فى الغابات وفى البحار والبحيرات وعلى ضفاف الأنهار معا ، وكانت هذه المرأة مخلصـة وعاقلة وشديدة الذكاء ، وكان يجب على أن أجعل هذه الحياة دائمة، ولكن عقبات شديدة قاسية قد وقفت فى طريقى ، فضحيت بهذه السعادة فى سبيل اعتبارات كنت أظنها أسمى من السعادة وهى الواجب العائلى ، ولكننى اكتشفت خطئى بعد ذلك ، وكان يجب على أن أكون مستأثرا أنانيا أنظر لحقوق نفسى على قبل أن أنظر الى حقوق الغير ، ولكن هكذا جرى القدر ، فعلمت أن تضحيتى لم تنفع أحدا ولكنها أضرت بى ضررا بليغا ، ولكننى لم اندم لأننى تعودت أن أفضل الغير على نفسى سواء أكان قريبا و غريبا . وأظن هذا فى ضوء العلم الحديث يعد نقصـــا أو مركبا واسمه العلمى الحقيقى « inhibition » ويكون ملازما لأمثالى ، ومن عنـاصره أو مظاهره التواضع ونكران الذات والايثار وانتظار نتائج معنوية كبيرة من التضحية والبذل ، ولكننى اكتشفت دائما أن الناس لا تعير صاحب هذه الخصال التفاتا ولا اهتماما ، وكثير منهم يسخرون منه فى دخيلة أنفسهم ويضحكون فى أكمامهم لاتجاه الكثرة من الناس الى استغلال الذين عندهم هذه الخصال التى لا تعد فضائل فى كل الأوساط بل لا تعد فضائل الا عند القوى الجبار القادر على القهر واستلاب الغنيمة ، وأما الذى يفرط فى حقوقه لأجل « المبـدأ » فهيهات أن يؤبه له .

وعلى كل حال فاننى عدت الى وطنى تحت تأثير فكرة خاطئة ، فقد كان من الميسور لى أن أعيش بعيـدا أو أن أعيش سـعيدا أو أنتج نتاجا موفقا وأن أعيش عمرا مديدا فى سعادة محققة ، ولكن اعتبارات وطنية ودينية وعائلية هى التى حولت سفينتى الى شواطىء تلك البلاد « الوطن العزيز » .

كنت أرى في لندن وباريس وايطاليا والنمسا عجائب هذا الوجود وعظمة الانسان مما يحير العقول ويسبى الألباب ، فأقول ان بلادى مع انحطاطها وسقوطها أجمل من هذا كله وأننى خليق بأن أخدمها وأعمل على رفعتها لتصل الى هذا المستوى أو قريبا منه .
حقا لقد كنت أشعر مع الاعجاب بالغيرة أو الغبطة ، فأتمنى أن يكون لنا فى وطننا أشباه ما أرى فى الأخلاق والآداب والتعليم والحقوق والتعاون والكرامة الانسانية والحرية الرشيدة ولم أكن أعلم قط ما تخبئه الأقدار ! . كنت وأمثالى محمولين على أجنحة الخيال والمثل العليا ، وكنت أعتقد أن وجودى فى وطنى أمر ضرورى ، ويزيدنى تحمسا واعتقادا ما أسمعه عن نفسى وقدراتى وملكاتى عن اليمين وعن الشمال فصدقت ، ولكن هذه كلها كانت أقوالا لا تتلوها أفعال ونفاقا ومراءاة وتدريب ألسنة ذربة على الباطل والخداع !

كان هذا الوطن فى نظرى قبل أن أكابد الحياة فيه بمثابة الجنة وكنت أصلى وأحارب الشهوات وأمرن نفسى على الصبر لأبر بوالدى وأهلى أو من بقى منهم وأزكى من مالى وان قل ، وأضحى بفكرى وعقلى وصحتى طمعا فى الوصول الى الأمل المنشود وهو رفعة الوطن ، ولم أبدأ فى رفعة نفسى ، وكان معى أناس قد رسموا خططهم وفرغوا منها فى تقلد الوظائف واقتناء الأموال وزواج النسوة الغنيات ... الخ .

لا أحب أبدا أن أظن أن الانسانية كلها مريضة بهذه الأدواء ولا أن كل الناس مصابون بهذه العلل ، ولكن المشاهدة والاختبار دلتنى على ذلك ، وأن العالم منقسم الى قسمين واضحين كل الوضوح ، أصحاب الآراء وضحايا المثل ، وأصحاب المنافع الذاتية والأطماع « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا واذكر

اسم ربك بكرة وأصيلا » • وان أفراد القسم الأول ينتهون بالخيبة والفشل والاحباط ، والآخرين « ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا • نحن خلقناهم وشددنا أزرهم واذا شئنا بدلناهم تبديلا • ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا وما تشاءون الا أن يشاء الله • ان الله كان عليما حكيما • يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعدا لهم عذابا أليما » •

ان أصحاب المثل العليا — حتى النوابغ منهم — لا يصلون الى شىء من أمانيهم الا اذا اتخذوا الوســـائل الملتوية وعطلوا مواهبهم التى تخيلت أنها لا تستقيم ولا تزدهر الا فى جو من الفضيلة ، ولكننى للأسف وجدت أن الفضائل حبر على ورق ووعود خلابة ما لم يكن لديك القوة المنفذة وفراغ الفؤاد تماما من الموانع الأدبية، أما أرباب هذه الموانع والعوائق الأدبية والمعنوية فلا ينجحون ، والنجاح هنا معناه جمع المال بأية طريقة والوصول الى بيئة النفوذ فى الأمة مهما كانت هذه الأمة ساقطة •

فما أجمل أحلامى وأحلام أمثالى وما أجمل آمالى وآمالهم فى وقتها وهى القائمة على الوحى والكتب المنزلة وأقوال الحكماء !

وفوق هذا كان فى نفسى اقتناع باطنى يشع من الضمير ، ذلك الضمير الذى لا يقبل غير هذه المبادىء الجميلة ، وكان هذا الاشعاع قويا بحيث أكذب المشاهد والمرئى والمسموع والملموس والمحسوس وأخدع نفسى بأن الذى أراه هو أشباح وصور ، وأن الذى فى نفسى هو الحقيقة المطلقة ، ولكن استمر ثبوت الأشباح والصور وطالت آجالها وتقوت أواصرها بينما أخذت مبادئى تقاوم وتنافح وتدافع ضد تيارات قوية جدا ، فأستمد تارة من الدين والقرآن ، وتارة من حيـــاة العظماء ، وتارة من حبى للمعرفـة والاستزادة منها وثقتى التامة المطلقة بما كتب وقيل وأكد لنا •

وكان كلما يقترب اليوم الذى يحتم على فيه أن أحكم حكما قاطعا ، أتخذ كل الوسائل لتاجيله كأنه قضية مهمة معلق على رأسى سيفها ، أى الطريقين حق وايهما أحق بالاتباع ، أى الخطتين أصدق وأصح وأسلم عاقبة ؟

لا تظنوا أننى بقيت فى الحيرة زمنا طويلا ولكننى صممت على أن أتبع الطريق الأول الذى اعتنقته واعتقدته على الرغم مما أعانى فيه ، ولكن لم يغب عن ذهنى مطلقا أن وقت التضحيات الكبرى قد مضى وانقضى ، وأننى أعيش فى غابة وحوشها مطلقة القيد وأفاعيها منسابة وجوارحها منقضة ٠

ومن المصائب الكبرى أنك لا تجد بجانبك سندا ماديا من رجال أو أشياء فتشعر بوحدة أليمة وحولك الضحكات والسخريات المكتمة الجبانة ، ووراء يومئذ الألسنة المسممة والأعين الخبيثة والقلوب السوداء ، وحولك الغيبة والنميمة والتشفى والاشفاق الكاذب ، وحولك الحسد وأمانى السوء وتربص الخونة والكلمات اللاذعة تهمس وقد تذاع ٠ وشيئا فشيئا رأيت الحقيقة ، وأن الأعوام تجرى والدهر لا يقف والعمر لا يتطاول الى تحقيق الأمانى ، والأمم لا تنقى ولا ترقى ولا تهذب فى أعوام ولا فى عشرات الأعوام ، وربما تتم تنقيتها فى المئات ما لم يكن الأمر مكتوبا ليتم على يد نبى عظيم أى نبى ناجح ، وحتى الأنبياء ينجح بعضهم وتفشل الكثرة العظمى ولا تبقى من سيرتهم الا نعيهم والأسف عليهم فى الكتب المنزلة ٠ وحتى هؤلاء الأعداء للحق وخصوم العدل وأنصار المظالم لا يتركون لك جو الحرية لتعيش ضمن الرعايا المقضى عليهم بالصبر والرضا ، فهنا معركة حامية حتى على حقك فى الحياة ! ، فلا يكفيهم أنهم يستأثرون بكل شىء ليخربوا كل شىء وينهبوا كل شىء ويعدموا كل شريف وعزيز وغال ، بل يعملون على محاربتك لينتزعوا منك

مقعدك الصغير في مضمار الحياة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . وحتى عندما تحصر غايتك في ترقية نفسك وتهذيبها وتثقيفها وتكف عن الخدمة العامة ، فانهم ينفسون عليك ذلك ويعملون على عرقلتك بوسائل صامتة خبيثة كالنار التي تأكل الحطب ، وكلما أطفأتها ازدادت سعيرا واشتعالا .

وقد اكتشفت خطط « الشلل » والعصابات Cliques التي تعمل بانتظام وعمل اللصوص والمجرمين وعددتها وحددتها وعرفت وسائلهم فقد درج المصريون في مطلع هذا القرن والحديثون منهم أيضا على أن يكونوا شللا تتعاون على الوصول الى أغراضها مثل المناصب والأموال والشركات ، وهي غير الشلل الأخرى التي درجت على تنظيم الفساد ، وهذه الشلل تجتمع وتذيع أنها ألفا خلق الله في المشروعات السياسية والعلمية والأدبية . ومن قوة هذا المذهب فيهم أنهم قد يتناقضون احيانا ، ولكنهم يتصدون هم أنفسهم لنفس الأعمال المتناقضة .

فمثلا بعض الوزراء الموقعين على دستور سنة ١٩٢٣ هم الذين أوقفوه وعطلوه سنة ١٩٢٨ أو ألغوه سنة ١٩٣٠ ، وعندما خطر ببال الحكومة وضع دائرة معارف مصرية وهو مشروع فكرت فيه من سنة ١٩٠٩ وخاطبت فيه الملك فؤاد سنة ١٩٣٤ ظهر نفس الأشخاص المشهورين في الأدب والذين لا تخلو منهم مجلة أو جريدة أمثال طه حسين ومنصور فهمي ولطفي السيد .

كان أفراد هذه الشلل والعصابات يودون أن يضموني الى صفوفهم ولكنني أعرضت عنهم واحتقرتهم ولم اقبل أن اتواطأ معهم على وطني ، وما الوطن الا هؤلاء المساكين من الفقراء والضعفاء واللاهين والعائشين بغير شعور ، فكان ترفعي وابتعادي عن دوائر

هذه « الشلل » والعصابات المنظمة سببا لغيظهم وحنقهم ، واتجه فكرى الى تأليف عصبة من أهل الخير فاتصلت ببعضهم ووجدت كثيرا منهم على علم بما أعلم ولكننى لم أجدهم على استعداد للعمل بما يعلمون ، وكان جواب واحد منهم لى أن أهل الشر يشعرون بالضعف ولذا يحتاجون الى الاجتماع والاتفاق لانهم لا يستطيعون أن يعملوا أفرادا ، أما أهل الخير فأقوياء يملكون أن يعملوا أفرادا فلا يحتاجون الى الاجتماع والاتحاد ، ألا ترى أن الأسد يعيش فى الغاب بمفرده فى حين أن الذئاب والثعالب تعيش فى جماعات وقطعانا ... الخ ؟ . وكان هذا الكلام خطأ ومغالطة لأن الأسد ليس خيرا بالنسبة للحيوانات الأخرى ، وهو الآخر وحش مفترس وان كان لا يفترس الا اذا جاع . وهذا الشخص نفسه صاحب هذه المغالطة ، لما ضاقت به السبل ، انضم الى العصابات الأخرى وشايعهم وسار فى موكبهم مزمرا ومطبلا وقد أخطأت فى حسن الظن به .

وبعد أن عرضت فكرتى على كثير ممن توسمت فيهم خيرا ، وكانوا على علم بما هو واقع ودعوتهم الى العمل والدفاع عن مصالحهم المشروعة دفاعا مشروعا ، ، لم أجد منهم من يصلح أو يرضى ، وقال لى واحد منهم ألا ترى الشر سائدا وأن قوة الشر لا تقاوم ولا تجارى ، يجب علينا أن نعيش الآن عملا بالمثل السائر « يا حيط دارينى » (كذا ؟!) .

كان هذا عقب عودتى من أوربا ، وكانت الأحزاب التى استظل بعضها بالخديو وبعضها الآخر بالاحتلال الانجليزى قد تأسست كحزب الأمة الذى ألف سنة ١٩٠٧ من حفنة من الباشوات والأعيان والأغنياء أعداء الخديو والأمة وخدام الانجليز لأن لهم مصالح حقيقية أى أطيان وأموال يريدون حمايتها فى ظل

الاحتلال ، وجعلوا لسانهم الناطق أو الناعق أحمد لطفى السيد ، وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية الذى أسسه الشيخ على يوسف سنة ١٩٠٧ أيضا بايعاز من الخديو والانجليز وضم أعضاء كانوا جميعا خدما للانجليز وللخديو وكانوا أرباب مطامع ومصالح .

فى هذه الفترة لفتت هذه الأحوال نظرى الى معضلة العائلة والزواج وظننت أن السلوى والمثوى والملجأ والحصن الحصين والركن الركين ، هو ذلك البيت أو المرفأ الأمين ، مستظل الزوجة ومملكة المرأة ومراح الرجل ومتنزه الوالد ومرتع هناء البنين ومسرح مسراتهم ومجتمع الأقارب والأصدقاء ومعبد الله وهيكل المعرفة ومستقر المتعوب والمنهوك الى حين .

وأبادر فأقول اننى لست من أنصار ما يسمى بالحب الحر « amour Libre » الذى يبيح العشرة بغير تعاقد ويمحو القيود التى تربط الرجال بالنساء لمصلحة الزوجين والأولاد ، وأبادر فأقول أيضا مخاصمتى لهذا النظام ليست احتراما منى للقوانين أو للنظم السائدة فان هذا الاعتبار خارج عن نطاق بحثى ، ولكن أرفض « الحب الحر » لأنه لا يقدم ولا يؤخر ، فها أنا ـ كمسلم ـ أملك الطلاق والانفصال عن المرأة ولا أخشى فى طلاقها لومة لائم اذا ثبت لى أنها غير صالحة للحياة الزوجية ، ولكن مادام الرجل ليس سكيرا ولا مقامرا ولا زير نساء ولا مصابا بداء خلقى خفى، وما دامت المرأة التى اتخذها زوجة ، عفيفة وأمينة على عرضه ـ ولو كانت سفيهة أو مبذرة أو سليطة اللسان كزوجة سقراط ـ فلا بد أن يبقيها فهو بها أولى وعلى صونها أقدر ، ولكن رجلا مثل ابراهام لنكولن ما كان يصح له أن يحتفظ بامرأته ولكنه صبر عليها وهى تضع العقبات فى طريقه وتعطل حياته واحتفظ بها الى أن مات مقتولا باغتيال سياسى ، وصبر سقراط على زانتيب لأنها لم تعطل

فلسفته وتعليمه ولم تعترض حريته ولم تعرقل عمله ، فعاش كما يشاء ومات كما يشاء وأثنى عليها قبل موته ، وهى بلا ريب لم تفهمه ولم تفهم كلمة من فلسفته ، ولكنها لو فرت منه ما كان يسعى لاستجلابها فيكفى أن يصبر عليها دون أن يسعى فى استردادها ·

وقد قوانى على نبذ نظام الحب الحر كراهية حياة الفساد والاحتياج الى عشرة المرأة المباحة فى تحفظ ، ولا أقول ان مثل هذا النظام يفشل دائما ولكنه ينتهى دائما بأن الرجل يرغم فى النهاية على الزواج من المرأة التى عاشرها ، كما فعل أوجست رودان مع الخادمة التى أعطته حياتها أو أناتول فرانس ، ويسمون ذلك تصحيح الموقف ، ويدخل فى ذلك الاعتراف بالنسل بعد أن ينقضى الأولاد فترة من أعمارهم منسوبين الى أمهاتهم ، وأنا لا أطيق ذلك ولا أحب أن أرزق أولادا الا اذا ضمنت لهم الانتساب الى ، فكيف أرضى بالحب الحر ، حاشا لله أن أفعل ذلك أو أقبله ·

ألا ترى لقصة « المذنب » تأليف فرانسوا كوبيه ؟ ألا ترى لندم ديماس الكبير على أنه رزق ابنه بغير زواج شرعى فلم يستطع التخلى عنه ولم يجن عليه الا الفضيحة مع نبوغ الابن حتى فاق أباه ؟

وبالجملة فان هذه النظرية التى هى زواج المتعة معدلا لا تروقنى ولا أقرها ولم أقرها فى شبابى ، فكيف كنت أقرها بعد بلوغ الثلاثين ؟

لقد حاول بعضهم أن يقضى على الزواج فى أوربا لأنه مبنى على التدين والتدقيق ، فاذا تقوض قبل أن ترسخ فى النفوس

أصـول جديدة للآداب ، تقوض أعظـم ركن من أركان المجتمع الرأسمالى الحديث ، فان المجتمع الحديث فى أوربا وأمريكا — على الرغم من تخليه عن العقائد الدينية — لا يريد أن يتخلى عن نظام الزواج . نعم انهم اباحيون تقريبا ولا يترفـع أحدهم عن اتخاذ السرارى والمحظيات كلما كثرت ثروته ، وقد تتسرى المرأة الغنية باتخاذ رجال مأجورين لممارسة صناعة الحب المحرم ، وقد كتب كاميل موكلير فى أوائل هذا القرن كتابا بعنوان « مقال فى الحب البدنى » أباح فيه عهارة الرجال ، وفى أوربا وأمريكا فى هذا العصر المضمحل وضـعوا تسهيلات للطلاق لا تخطر على العقـل ، فيأتى الزوج أو الزوجة ليعترف صراحة بأنه زنى ليحكم بالطلاق ويهاجر أحدهم الى ولاية مجاورة ليدفع رسم الطلاق فيتم فى بضع دقائق ، وقد حكم قاض فى سنة ١٩٣٨ فى محكمة باريس بغرامة خمسة عشر فرنكا (١٥ قرشا !) عقوبة على زوجة زانية بحضور زوجها وحماتها وقد شهدا تلبسها بالجريمة !!

ولكن هذا المجتمع الغربى الذى وصل عنده العرض الى هذه الدرجة ، ما يزال مع ذلك متمسكا بالزواج الشرعى لاعتبـارات اقتصادية وسياسية .

ولذا كان اعتقادى أن الارتباط بعقد الزواج ضرورى لى أنا شخصيا ، وأبيت أن أتزوج من امرأة أجنبية أوربيـة أو شرقيـة (كالتركيات والشركسيات) لأسباب كثيرة وجيهة فى نظرى ، وان كنت قد تذوقت السعادة العقلية فى عشرة نسوة من هذا القبيل ، فعندى أن الجنس المتحد — ولو كان منحطا — خير من الجنس المختلط المنوع ولو كان راقيـا ، فان أولادى مهما كانت درجتهم العقليـة سيحبون وطنهم ودينهم وأمتهم ولن يتبرأوا من أحدها كما أرى « أولاد الذوات » الذين يفـاخرون بأنـهم ترك وشركس وأكراد وأرانطة وروم ومغاربة أو خليط من هؤلاء جميعا .

وملخص القول انني في مستهل السنة الثانية بعد الثلاثين تزوجت بامرأة مصرية صميمة (١) ، وهي سن حسنة ومعقولة بالنسبة لظروفي الخاصة وان كانت متأخرة قليلا بالنسبة للشرق ومصر والاسلام ، وكان يصح لي ما دمت مقدورا لي ان افح في هذه « الحفرة السعيدة » أن أتزوج في الخامسة والعشرين على الاكثر . ولكنني من الخامسة والعشرين الى الثانية والثلاثين كنت في ظروف أليمة بسبب مرض آخر أفراد أسرتي مرضا خطيرا اقتضى حبي له واحترامي لذاتي وتقدسي لله أن أتفرغ لخدمته والعناية به طول هذه السنوات السبع من ٢٥ ـ ٣٢ وهي الآن في نظري خير سنوات الحياة والشباب ، ولكن هكذا كان القدر .

أتعلم على من وقع اختياري ؟ . لقد اخترت بالنسبة الفتاة التي أوصاني بها هذا القريب (وهو سيدة) والتي قالت لي « لقد تبنيت هذه الفتاة لتكون زوجة لك » . على كل حال وقعت في « الفخ » وأنا أظن أن هذه الفتاة تحمل أثرا أو عبقا وأمانة من هذا القريب العزيز (وهو سيدة كما قلت) وأنها وصلت الى عن طريق الوصية التي سمعتها بأذني ، وأضيف الى ذلك أن البنت أظهرت من الولاء والاخلاص ما جعلني أعتقد أنني ظفرت بدرة الدهر ويتيمة الزمان وحجر الفلاسفة وخاتم سليمان !

كنت في سنة ١٩٠٤ في السابعة عشرة من عمري كتبت قصة مصرية « في وادي الهموم » وذلك في طفولة الشباب قبل أن أستدير الى العزوبة ، وقد جرى قلمي بوصف الزوجة التي أتمناها ، فكتبت بقلم طفل أنني أريد فتاة مخلصة طيبة القلب تقودني بيدها البريئة في دياجير الحياة ، وليس يهمني جمالها ولا مالها ، بل انني لا أريدها

---

(١) هي السيدة الحسيبة النسيبة نفيسة هانم محمد فهمي حسن الامراسي .

ذات مال بقدر ما تهمنى طيبتها واخلاصها وأمانتها ... الخ . طبعا هذه آمال طفل وأفكار طفل ونظرة طفل للحياة ، وقد عرفت فى الحياة وقبل الزواج غير هذا النوع من النساء ، ولكننى حافظت على حياتى واستقامتى على قدر طاقتى .

ولكن ما قولك أن هذه الآمال وتلك الأفكار بقيت فى قلبى خمس عشرة سنة كاملة الى أن تزوجت، وقد شاءت المصادفة أن هذه التى تزوجتها كانت تنطبق عليها معظم هذه الصفات ؟ . وقد وقع فى قلبى مذرأيتها أنها ستلد لى أولادا ، ولم أدر كيف يتم هذا الأمر ولم أفكر مطلقـا فى الزواج ، وهذان الأمران يجب أن أسجلهما لغرابتهما ، لم أنفر منها عند رؤيتها للمرة الأولى وأحسست أنها ستكون أم أولاد لى .

لقد كان من أقوى الاسباب الكامنة فى عقلى الباطن التى عجلت بهذا الزواج كلمة أستاذ لى كنت أحبه وأحترم آراءه وهى « أن قلب الرجل المحبوب من زوجته أعظم لها وأنفع وأجدى عليها وأبرك من جامعة عليـا تتلقى فيها علوم الدين والدنيا » . وقد فهمت هذه الكلمات التى تلقيتها عنـه وأنا فى الخامسة عشرة بالمعنى الذى يقصد اليه وأعجبت بها ، ولكن أستاذى هذا وهو المرحوم على فوزى المتوفى فى الاسكندرية وحيدا منفردا فى سنة ١٩٣٥ لم يتزوج وقد طاف أنحاء العالم وكان عالما أديبا ولم يعلم عنه أحد سوءا قط ، وطالما عجبت فى رجولتى كيف أدرك الرجل هذه الحقيقة وهو لم يمارس الحب على ما كان يظهر منا نحن فريق أصدقائه وتلاميذه ، ولكن من يدرى ، فلعل حذره كان أكبر من حبه أو عقله أضخم من عاطفته أو خوفـه من المرأة أقوى من انجذابه اليها ، على كل حال كانت هذه الكلمة ماثلة لذهنى .

فلما انقضت أيام الحد (وقد جعلتها ثمانية اشهر من ديسمبر سنة ١٩١٧ الى سبتمبر سنة ١٩١٨) ، وقبل نهاية الحرب الكبرى وقبيل الحركة المعروفة باسم « ثورة ١٩ » بسبعة أشهر ، عقدت زواجى على هذه السيدة الحسيبة النسيبة نفيسة هانم محمد فهمى الابراشى .

كانت حياتى معها فى الجملة هادئة ، فان الله لم يسمح لأحد من الأقارب أن يكشروا عن أنيابهم أو يستدرجوا السيدة الى حظائر « الغضب الزوجى » أو الاحتجاج ، لأن السيدة نفسها لم تشأ أن توافقهم ولم تمكنهم ، ولعلها أحست بفطرتها أن مجرد خروجها من بيتها بهذه الفكرة قد يغلقه فى وجهها الى الابد ، فاننى وان كنت لينا هينا ، الا أننى لا أفهم نظرية « الغضب الزوجى » القائمة على الشجار فالفرار فالمفاوضات فالصلح فالرضا ! ولا أفهم عقلية الزوج الذى يعيد الى بيته زوجة خرجت منه غاضبة ، فان المرأة الغاضبة لا أمان لها على نفسها .

ويجب على أن أسجل للحق والعدل أن السيدة قد فهمت مبكرة وجهة نظرى وقامت بأعمال ايجابية عقلية وروحية دلت على أنها تشاركنى هذا الرأى وتحرص على رأيى وارادتى من هذه الناحيــة .

واذا نظرت من ناحية أخرى الى حديثها وطريقة فهمها للأشياء والأشخاص ، فما وجدتها تخطىء فى فهمها جميعا فهما جيدا جدا الا نادرا جدا جدا ، مثال ذلك لا تخطىء فى نتيجة خطة رسمت بواسطتى أو بواسطة الغير ، ولا تخطىء فى تعليل حادث بل تجد بسهولة تامة كل حلقة مفقودة ، فأكثر فى حديث أو فى سلسلة وقائع ، فتكمل أخلاق شخص اذا عرفت طرفا منها ، يصدق حكمها دائما فى المسائل الخاصة بالذوق والجمال والحق والعدل .

ولقد فطرت على حب المعرفة والشـــوق الى الكتب والقراءة والكتابة وان لم أقض ساعات معينة فى كل يوم فى هذا العمل العقلى الهادىء ، فلا يستقر لى قرار ولا أستطيع الحياة ، **ويجب على أن أقرر أن حياة السيدة وهدؤها قد مكنانى من التمتع العقلى الذى أريده مع التغلب بمجهود طفيف على العقبات ·**

اننى لا أؤمن بالزواج الذى يقوم على الحب ، لأن عمر الحب قصير وعمر الزواج طويل ، فاذا قصر أحدهما عن الآخر انهار البناء . وهو كذلك ليس زواج مصلحة ، لأننى لم أطمع فيما تملك وان طمعت هى فيما أملك فمن حقها ، فكان زواجى منها نوعا من التعاون المادى والمعنوى والاشتراك على قطع مراحل الحياة ، وكانت آمالى محصورة فى أن أعمل وأن أرزق أولادا من هذه المرأة بذاتها وأن أعنى بتربيتهم ·

لم أكن أعتبر الزواج مقدسا كما ينظر اليه العامة ، ولكنه مقدس فى نظرى بالنسبة لأولادى . ولأننى لا أحب أن أعتبر المرأة سلعة أو محظية أو أداة للملذات ، فلابد أن أشعرها أن أولدها أولادا بكرامتها الانسانية وحريتها فى الحياة وحقوقها كزوجة ، ولكنها لم تشترط على أن لا أطلقها أو أن لا أتزوج من سواها ، وهو ما لم يحدث والحمد لله ـ ولم تحتفظ بهذين الحقين لنفسها **وان كنت عرضت عليها حق الاحتفاظ بعصمتها (أى يكون طلاقها بيدها) عند العقد أمام المأذون والشهود فرفضت ·**

ان الزواج الشرعى ان لم يكن مضمونا بالاخلاص والصدق والتقدير فلا قيمة له ، وقد كانت الســـيدة مخلصة وصـــادقة ومقـــدرة ·

من يوميـــات سنة ١٩١٧

الأحد ٧ أكتوبر سنة ١٩١٧ ..

تقابلت مع وجيه بك سكرتير الجامعة بناء على طلبه وفاوضنى فى تدريس القانون الجنائى وقبولى مبدئيـا ووعده بارسال خطاب مؤيد للاتفاق الشفوى .

الاثنين ٨ أكتوبر ..

مقابلة صادق فهمى بمكتبه واخباره بما تم فى شأن تدريسى القانون الجنائى فى الجامعة .. وقد أفضى الى بحدوث مناقشة فى هذا الموضوع .

الجمعة ١٢ أكتوبر ..

وصول خطاب من الجامعة المصرية مؤيدا للاتفـــاق الشفوى ممهورا بامضاء محمد علوى باشا ومقابلة صادق فهمى ليلا والمحادثة معه فى هذا الموضوع ، وارسال رد على هذا الخطاب الى الجامعة بالقبول .

السبت ٢٠ أكتوبر ..

ألقيت اليوم الدرس الأول على طلبة الحقوق بالجامعة المصرية من الساعة الرابعة الا ربعا حتى الخامسة الا ربعا .

وانني انتهز هذه الفرصة للتذكير بحضرات الأساتذة الفضلاء الذين سبقوني في تدريس هذا العلم الجليل وكان لهم القدح المعلى وهم المرحوم عمر لطفي بك الذى مارس تدريس القانون الجنائي بمدرسة الحقوق والبوليس ووضع فيه « كتاب الوجيز » ، وحضرة الأستاذ عبد الحميد بدوى بك الذى ألقي في الجامعة المصرية دروسا نافعة جدا في القانون الجنائي المقارن ، وحضرة الأستاذ حسن نشأت بك القائم الآن بتدريس تلك المادة لطلاب مدرسة الحقوق السلطانية ، وحضرة حسين رمزى بك القائم بتدريس علم الاجتماع الجنائي بالجامعة ، وقد استفدت من علمهم ومذكراتهم جميعا ولهم فضل السبق والفضل للمتقدم .

ولا أنسى في هذا المقام فضل أستاذى العلامة جارو الذى تلقيت عنه القانون الجنائي في مدرسة ليون الجامعة والاقرار بالفضل لذويه من أهم الواجبات ، وأذكر بالثناء حضرات أعضاء مجلس ادارة الجامعة لخدمتهم للعلم وحسن ظنهم بي وحضرات الدكتورين محمد صادق فهمي وعبد السلام ذهني أستاذى القوانين المدنية والرومانية والادارية بالجامعة لما يبديانه لي من النصائح النافعة ، وحضرة الفاضل محمد وجيه بك سكرتير الجامعة لما قدمه لنا جميعا من المساعدات التي يرجع معظم الفضل اليها في قيامنا بواجبنا . وأرجو أن يستنير طلابي بضياء هؤلاء الفطاحل وأن يعدوني واحدا منهم أستفيد مثلهم بالبحث والمناقشة لنستطيع جميعا الوصول الى غايتنا الشريفة والله الموفق :

من يوميات سنة ١٩٢٢

١٢ مايو سنة ١٩٢٢

حديث محمد نافع باشا عضو شورى القوانين عن الشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده والشيخ محمد درويش (١) :

حدثنى محمد نافع باشا بحضور الدكتور فوزى أبو السعود بمصر الجديدة ، قال الباشا المذكور « لقد أدركت الشيخ جمال الدين الأفغانى منذ أكثر من أربعين عاما ، كان الأفغانى وسطا فى جسمه لا طويلا ولا قصيرا ولا بادنا ولا نحيفا ، ولكن كان عريض العظام واسع الهيكل ، وكان وجهه عريضا وله عظام بارزة فى الخدين بروزا واضحا ، وكانت جبهته كنصف هذه المائدة (وأشار الى منضدة من المرمر) وكان لونه زيتونيا وشعر لحيته أسود ويلبس عمامة عالية وجبة وصديرية وسراويل مثل علماء الأتراك ، وكان يتهادى فى مشيته ويتكلم بغاية التأنى بصوت أقرب الى صوت الشباب من صوت الرجولة ، وكان فى نحو الخمسين من عمره وكانت عيناه واسعتين وحركات وجهه تدل على ما بنفسه ، وكان ساحرا خلابا بلفظه وأسلوب كلامه ونظراته .

---

(١) كتب لطفى جمعة مقالا ضمنه هذا الحديث نشر بالبلاغ الأسبوعى » فى ١٩٢٩/١/١٣ وأعيد نشره فى كتاب لطفى جمعه « مباحث فى التاريخ » ، عالم الكتب ، القاهرة . سنة ٢٠٠٠ م .

ولم أكن أعلم شيئا عن حياته الخاصة ولا أين يسكن ولا كيف يعيش ، ولكن كنت أراه يأتي كل يوم الى قهوة متاتيا وكانت أوحد وأجمـــل قهوة بمصر ، فيجلس تحت احدى قناطرها (البواكى) ويشرب الشاى ويدخن نارجيلة ، وبعد نصف ســاعة يحضر نحو مائة شخص فيجلسون حوله ، وأقربهم اليه الشـيخ محمد عبده وابراهيم اللقانى والشيخ حسن الطويل ، وكان ابراهيم الهلباوى يحضر وهو يلبس عمامة ، وكان الشـيخ جمال الدين يبدأ يتكلم لمن حوله فيلقى محاضرة أو درسا ، ولم أكن فى ذلك الوقت أفهـــم شيئا مما يقول ولكن أدرك أنه لو كتب كاتب كل ما كان يلقيه لاخرج كتابا جسيما ٠

وكان أعيان مصر وذواتهـــا يتهافتون عليـــه ويتقربون منه ويتشرفون بمعرفته مثل ثابت باشا وغيره ٠

وكان الشيخ فى كلامه يحض على الثـورة والعصيان ضـــد الظالم ويطعن على استبداد اسماعيل باشا ويهيج أفكار المصريين ٠ وقد أتيح له أن يلقى دروسا فى الأزهر الشريف فحدث عليها اقبال شديد ، ثم ان الوزير رياض باشا منعه من الاستمرار ، ولما استفحل أمره سفروه ليلا الى السويس ٠

كان الشيخ جمال الدين طروبا ويحب مجالس الأنس ويتكلم باللغة العربية فى كل مكان ٠ حضرته مرة فى حفلة غناء حيث كانت تغنى ألمظ الشهيرة وكانـــت عـــادة تغنى دورا وتستريح ، فيقف « مطيب » لها اسمه حسن الصدفجى وكان مهرجا ، وكان الشيخ قد طرب ليـلة فوضـــع يده على جبينـــه ثم انقطع الغنـــاء وبـدأ حسن الصدفجى يهرج ، فنهض الشيخ جمـــال وقال : يا حســـن يا صدفجى ٠ فقال له الصدفجى بصوت ولهجة الهازى « نعـــم يا سيدى ! » فقال له : من تحب أكثر ؟ فأجاب الصدفجى : امرأتى ٠ فضحك الشيخ وقال : أقصد من من أولياء الله ٠ قال : سيدنا الحسين

فقال الشيخ : حلفت عليك به أن تبطل التهريج والمسخرة ، فاما غناء باستمرار واما سكوت تام الى أن تعود الست الى الغنـــاء . وعند ذلك صار الناس يهمسون باسمه وينهون المطيب عن الاستمرار فى لهوه اكراما للشيخ .

ثم قال نافع باشا « ويغلب على ظنى أن الشيخ حضر الى مصر مرتين وأقام فى كل مرة مدة طويلة ولولا ذلك ما أمكن تلاميذه أن يتفقهوا عليه ، فقد اقتضى تفقههم مدة حسنة .

وقد أنشأ الشيخ جريدة « القاهرة الحرة لا انفصام لها » ، فصححت له تقصد « العروة الوثقى » . قال نعم وأيضـا أنشـأ القاهرة الحرة ، وأظن أن سبب الاقبال على الشيخ جمـــال وعظم تقديره بواسطة المصريين فى زمنه أنه كان منفردا بعلمه وكان علمه واســـعا بالنسبة لأهل زمنه ، وكان المصريون فى غاية الجهل ، فكانوا يكتبون « بمشـــيقة الله سيمر الباشـــا لتفأد الأحوال » يقصدون « بمشيئة الله سيمر الباشا لتفقد الأحوال » ، وأن بضعة النبهاء الذين كانوا فى البلد كانوا متعطشين لعالم مثله ، وأظن أنه لولا حضوره وزيارته مصر ما كان أحد يظهر ممن ظهروا بعد ذلك بالفكر وسعة العلم كالشيخ محمد عبده وأصحابه وتلاميذه .

ثم قال نافع باشا « وكانت عقيدته غير الاسلام الصريح ، Athée وعلى هذا كان أتباعه فيما أظن وان كان يتظاهر به (١) .

ثم استطرد الباشا الى وصف الشيخ محمد عبده فقال :

« كنت أراه فى صـــباه اذ كان يحضر مجالس الشـــيخ جمال الدين ، فكان فى مقتبل العمر وعليـــه علامات الذكاء الخارق

(١) هكذا سجل لطفى جمعة نقلا عن محمد نافع باشا .

والهيبة والجلال بالرغم من شبابه ، وكان أقرب المقربين للشيخ ٠ وكان يسميه اسما خاصا كأنى به « روح الجماعة » أو « عقل الحلقة » أو ما أشبه ٠

ثم استطرد نافع باشا الى وصفه اذ كان عضوا فى مجلس شورى القوانين حيث كان نافع نفسه عضوا فقال :

« لقد أوجد الشيخ محمد عبده فى المجلس لنفسه مركزا ممتازا ، فكان يدخل قاعة المجلس وعلى عينيه نظارة وحول رقبته فرو وفى يده قفاز والأخرى خلو من قفاز وفيها سيجار كبير من طباق « هافانا » ، وفى يده عادة شيء يقرؤه ويستمر فى قراءته الى أن يصل الى وسط الغرفة فيقف له جميع الأعضاء ويتهافتون عليه لتحيته ، فيلمس أكفهم المبسوطة بأطراف بنانه ، وكانت مقابلتهم له أشبه بمقابلتهم للخويو وقد تكون أميز ٠

ثم استطرد الباشا الى ذكر قصة مدارها احتقار الشيخ محمد عبده لطلبة باشا سعوى وقال ان الشيخ رحمه الله كان يتصنع الكبرياء وكانت هذه الصفة مكروهة فيه ، ويظهر أنه كان يتكبر على بعض الناس ويتلطف مع البعض ٠

ثم وصف نافع باشا زيارته للشيخ فى مرض الموت فى بيته بعين شمس فقال انه كان مجلس علم وكان يخاطب زائرا أزهريا نجيبا فى مسألة علمية مدارها تحرى النبى فى أمور وتطبيق قواعد العلم عليها دون الاكتفاء بالدعاء أو الصلاة ٠ وكانت ابنته الصغيرة تحمل له وردا من الحديقة وقد أجلسها بجواره فى السرير ٠

ثم تحدث نافع باشا عن الشيخ محمد درويش شريك الجبرتى فى تحرير التاريخ المشهور فقال « كان يوجد رجل شهير اسمه

محمد بك سيد أحمد والد أمين باشا سيد أحمد وكان يشغل منصبا مهما فى الحكومة ، وكان فوق ذلك مشتغلا بالعلوم والآداب ، فعلم بوجود رجـــل عالم فى بلدنا دمديط وكان شريك الشيخ الجبرتى أو تلميذه أو كاتب يده فى تأليف كتابه ، فأراد الاستعلام منه عن مسألة معينة وردت فى التاريخ المذكور ، فحضر الى بلدنا والى منزلنا فأحتفينا به وطلب مقابلة الشيخ محمد درويش ، وكان الشيخ المذكور يسكن فى حارة معروفة باسمه وكان رقيق الحال جـــدا شـــيمة العلماء ، فلما علمت بقصد البيك ، قلت له : ان الشيخ يحضر الى هنا • فقال البيك : كلا لابد من ذهابى اليه • وأنا قلت ذلك لعلمى برقة حال الشيخ وكون بيته خاليا من مظاهر الغنى ، وفعلا أرسلت حالا بعض الخدم بسجاجيد وطنافس ففرشوها فى بيت الشيخ • وبعد قليل قمنا اليه ، وكان الشيخ عبارة عن قفص عظام ولكنه كان يستطيع النظر والقراءة الى آخر عمره ، وكانت ســـنة اذ ذاك ١٢٠ سنة وكان لايدخن ولا يفرط فى شىء ، فلما دنونا وضع يده على جبهته لتظليل نظره ، ثم سأل عن البيك وقال له أنا أسمع أنك محب للعلم ومشتغل به ، وربت عليه ودعا له • ثم سأله البيك عن النقطة التاريخية المطلوبة ، فرواها له الشيخ وقال له : اننا كتبناها أولا على الصورة الفلانية وهى الحقيقية ، ولكن الباشا (يقصـــد محمد على باشا) أرسل الى الشيخ فى بيته فى شبرا وطلب منه أن تكتب العبارة الفلانية وغيرها على صورة مخالفة للحقيقة وموافقة لهوى الباشا ففعل •

ثم قال نافع باشا « واننى لا أتذكر ولم أكن أدرك المسألة المذكورة • ثم انصرف البيك بعد أن قبل يد الشيخ لدى القدوم ولدى الانصراف •

الاثنين ٣ يوليو سنة ١٩٢٢ ..

● وفاة فرح انطون

في الساعة السابعة صباح اليوم طرق بابي طارق من طرف أجزخانة قيعاني بمصر الجديدة واخبرني أن « أنطون فرح » قد مات ، فأدركت للحال أنه يقصد صديقي القديم « فرح أنطون » المريض في منزله منذ شهرين بتصلب في شرايين القلب . وعند الساعة الثالثة بعد الظهر قصدت منزله الذي هو في الواقع منزل صهره نقولا حداد بشبرا أمام المدرسة التوفيقية ، وقد صحبني بعض الطريق صحافي مصري اسمه « توفيق حبيب » ، فوجدت في قهوة صغيرة أمام المنزل فئة لا تزيد على عشرة أشخاص بينهم من الكتاب خليل مطران ، وعلمت أن فريقا من الأصدقاء قد صعد الى شقة المتوفى وهي في الطبقة الرابعة - فلم أستطع الصعود لشدة تأثري .

وتكلم الجماعة عن وفيات الأدباء فذكر خليل مطران وفاة جرجي زيدان فقال انه سمع نعيه ليلا من امرأة خرجت تشق جوف الليل بصراخها وشرفة منزله وقال انه تألم لما أبقى أهله هذا المسكين ليلة بطولها بغير دفن مندفعين وراءوهم حياته الذي وضعه في رأسهم حسين همت أحد الأطباء الشبان ، ثم ظهر فساد زعمه .

وقال خليل مطران انه لا يرهب الموت وأنه رأى خمسين وفاة وأن أشنع الموت موت الطبيب اللبيب ، فانه يعلم سير المرض ويراه في نفسه (أقول وقد وضع بول بوجيه هذه الفكرة في كتاب Les Deux Sources .

واننا لكذلك نتحدث واذا بشخص من الجالسين خارج القهوة يقول لنا : هذه جنازة عبد الحليم المصري الشاعر سائرة . فذعرنا

جميعا لعدم علمنا بوفاته ولغرابة هذه المصادفة المؤلمة . وفعلا خرجنا فرأينا أشخاصا وثقنا برؤيتهم من صحة الخبر مثل محمود باشا شكرى وبعض موظفى البلاط ، فسرنا فى الجنازة مشيعين الى نصف الطريق ثم عدنا ، وكانت جنازة فرح قد استعدت وكان عدد المشيعين ضئيلا جدا وبينهم من الأدباء الشيخ رشيد رضا ووحيد بك الأيوبى وخليل مطران وابراهيم سليم النجار وداوود بركات وبعض أفراد أسرته ، ولم أجد أحدا ممن له علاقة بالتمثيل سوى محمود جبر وسليم أبيض ومنسى فهمى ، وكنت من حملة بساط الرحمة .

ولما ركبنا المركبات نضاءل العدد جدا ، فكنا فى الكنيسة عند الصلاة عليه لا نزيد على عشرة أشخاص وفينا أقاربه وأختاه وكان منظرهما وهما تسيران خلف النعش يفتت الأكباد حقا ، وقد صلى عليه فى الكنيسة ، وأخبرنى سليم أبيض أنه كان معه للساعة العاشرة من مساء الأحد أى قبل موته بست ساعات وكان يكلمه ويضحك ، وكان محمود جبر أشد الحاضرين بكاء وتأثرا .

ولما نقل الى المدفن حاول جماعة الدفانين تغطية الصندوق بسرعة ، فاستوقفتهم ورثيته بتأثر شديد (١) .. ثم غطوه ونقلوه الى حفرة وأهالوا التراب عليه الى الأبد وسألت جماعة عن المدة التى يبقى فيها الصندوق فقالوا ثلاث سنين على الأكثر .

وفى العودة قال لى ابراهيم النجار ان عمر فرح كان خمسين عاما وأن سبب موته حياة الفلاكة وعدم التنظيم فى معيشته ، وأن التى قضت عليه فى الواقع امرأة أرمنية عرفها فى سنة ١٩١٣ فأجهد

---

(١) نشرت هذه المرثية تحت عنوان « كلمة الوداع الأخير » بمجلة الرجال والسيدات ، عدد يوليه سنة ١٩٢٢ . وأعيد نشرها فى كتاب لطفى جمعه « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » ، ص ٢١٣ ـ ٢٣١ .

نفسه فى حبها خمرا وغراما وأنها كانت تستحوذ على كل ربحه من التأليف ثم تركته وعشقت ضابطا أجنبيا وكان هذا سبب هلاكه ٠

١١ يولية سنة ١٩٢٢

حفلة احياء ذكرى الشيخ محمد عبده بالجامعة المصرية فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ : كان المكان غاصا بجماهير الأزهريين وبعدد قليل من ذوى الشأن لتقدم موسم الصيف وخلو القاهرة من الكبراء ، وكانت اللجنة مجتمعة حول مائدة خضراء وهى مكونة من الشيخ بخيت رئيسا ومن أعضاء أمثال الشيخ عبد الرحيم دمرداش باشا (صاحب الفضيلة والارشاد) وحنا بك باخوم والشيخ الدكتور الأستاذ طه حسين والشيخ زنكلاوى وأحمد لطفى السيد وثلاثة أو أربعة على شاكلة هؤلاء السادة ٠

وخطب الشيخ بخيت من ورقة قرأها فقال ان الشيخ محمد عبده لم يكن له مثيل ولم يعقب ولم يخلف أحدا ، وكانت الناس تهمس بما كان بينهما من الحزازات وما اتهم به هذا الشيخ أخيرا من انتحال مقالة برمتها من مؤلفات الشيخ عبده ٠

ثم تلاه أحمد لطفى السيد وكانت تبدو عليه الكآبة والمرض وتكلم بصوت خافت من وراء نظارته فقال ان الشيخ محمد عبده عاش ومات فى سبيل الانسانية ٠

ثم تلاه الشيخ مصطفى عبد الرازق فألقى محاضرة سبق أن ألقاها فى ست جلسات فى جامعة الشعب منذ خمس سنين ، وقال فيها اليوم هذه المرة ان الشيخ عبده كان ضد حرية الاجتماع وحرية الكتابة والخطابة (؟!!) ، فذعر الحاضرون ، ثم عاد وقال انه كان

من أنصار حرية الفكر وأغفل الجانب السياسي من حياة الرجل ، وكان كلما وصل الى نبذة ذات شأن خفت صوته كأنه فتاة مخطوبة ونزل من المنبر مثل انطفاء السراج الضئيل .

ثم تلاه منصور فهمي فقرأ من ورقة وقال انه في عنفوان شبابه رأى رجلا شايبا (كذا) فقيل له هذا الشيخ محمد عبده ، وسمع الناس تقول انه عالم ومصلح وعظيم ثم مات . مع ان منصورا لم يكن اذ ذاك يدرك معنى العلم والاصلاح والعظمة ، وتعالى في القاعة صوت يسأل : كم كان عمرك ؟ . ثم خلط في الكلام عن العظمة ونزل من المنبر وقد حزنت جدا لخطبته .

ثم صعد الشيخ زنكلاوى وقال ان اللجنة المحترمة منعته من الكلام ولكن الحظ ساعده وصعد على المنبر ، ثم تكلم على الأكثرية والأقلية بعبارات مبهمة ثم نزل .

وتكلم الشيخ رشيد رضا بلهجة سورية كلام من لم يستعد لموضوعه ، فقال ان ابراهيم باشا نجيب قال له ان الشيخ عبده سيعرف قدره بعد ثمانين سنة (كذا) فصفق له واحد فقط وهو الياس شحاته صاحب مخزن نيويورك لبيع الأحذية ، ثم قال الشيخ رشيد ان مختار باشا الغازى - وكان عالما جدا (كذا) - قال ان دماغ الشيخ عبده لو وزن (؟؟) لكان أعظم من دماغ بيسمارك بل أثقل من كل جمجمة في الأزمان القديمة والحديثة (!!) ، ثم قال ان الشيخ عبده قال له لو وجد في مصر مائة رجل لنالت كل أمانيها ، وأن الدكتور يعقوب صروف قال ان الشيخ عبده امام للنصارى وليس للمسلمين فقط (كذا) .

ثم صعد حافظ ابراهيم وألقى قصيدة كان نظمها رثاء لحفنى ناصف وهى قصيدة بائية ثم حورها وحذف منها وأضاف اليها

بصفة ظاهرة ، . فكان ذكر حفنى وذكر حافظ أول وآخر ما ورد فى القصيدة ولم يذكر الشيخ محمد عبده الا مرة واحدة فقال واحد من الحاضرين هذه قصيدة « روبابيكيا » !

وانتهت الحفلة .

وقد نشر الشيخ الكاظمى قصيدة فى المقطم جميلة جدا ، منها :

يثرى الفقير بعلمـــه	والصـدر كنز مقفـل
ولربمـا عـاد الغنى	لجهـله يتسـول
ويرى القنوع من الهنـا	مالا يـرى المتمـول
لا شىء أفضـل من يـد	لهـدى البـرية تعمـل
الـذل ذل بدلـوا	فـى شـكله أم عدلوا
فالى الأمانـى أمـة	عن جـدها لا تعـدل
والى النجـاة سـفينة	ربانهـا لا يغفـل

وهذه القصيدة وحدها افضل فى نظرى من الاحتفال الذى كانت عليه مسحة من السخافة والنفاق والابتذال .

ووصف لى محمد بك فهمى حسين مجلس الشيخ محمد عبده فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر حوالى سنة ١٨٩٦ فقال :

« كان ستة أشخاص يجتمعون معا دائما فى كل يوم ، الشيخ محمد عبده وحسن باشا عاصم وقاسم أمين وسعد زغلول وفتحى

زغلول وكان رشيد رضا يحضر مجلسهم ولكن نادرا ، ولم يكن له شأن كبير .

كان الشيخ عبده ماهرا فى اللغة العربية وآدابها وكان يقرأ كثيرا من الكتب الفرنسوية فى القانون والفلسفة ، وكان يحب المناقشة ويجيد الفرنسوية ويقارن بين آداب العربية والفرنسوية ، ولذلك كان يمتاز على **قاسم الذى كان ضعيفا فى العربية** ، وكان الشيخ عبده يدرس الأديان ويقارن بينها وفى الواقع كان متحررا جدا ولكنه كان يخفى ذلك وكان يرمى بدرسه وسياحاته الى أن يظهر اسمه وتعظم شهرته ثم يبدأ فى عمل غايته وهى جعل الدين الاسلامى موافقا لروح هذا العصر .

وكان قاسم أمين عمدة المجلس فى تفسير القوانين وهو مدين بالشىء الكثير فى تحرير المرأة لهذه الجمعية ، ولذلك أهدى كتابه لسعد زغلول ولم يشأ أن يهديه للشيخ محمد عبده خوفا على نفوذه الدينى من العوار .

ولم يكن لأحد من هؤلاء الستة امتياز على الآخر ، ولكن لكل واحد منهم ميزة اختص بها ، فالشيخ عبده امتاز بسعة العلم والجمع بين آداب العرب والافرنج والأديان المقارنة وحرية الفكر ، وسعد زغلول بقوة الحجة وشدة المعارضة والحذق فى المناقشة ، وقاسم أمين بالمهارة فى تفسير القانون والأمور الفلسفية .

أعود الى حفل تأبين المرحوم الشيخ محمد عبده ، فقد بادرت الى مراسلة لجنة احياء ذكرى الامام بعد سبعة عشر عاما من موته وطلبت منها أن تتيح لى فرصة للتعبير عن عواطف احترامى وتقديرى واعجابى بأستاذى المرحوم ، وقد كنت أقرب اليه بالفكر والعقيدة

والمبادىء من كثيرين ممن دعوا الى هذه الحفلة ، ومهما يكن الخلاف السياسى بينى وبين الذين قاموا بهذه الحفلة ، فلم أكن أظن أنهم يفكرون فى حرمانى أنا وغيرى من مريدى الأستاذ وتلاميذه من اظهار عواطفنا نحوه فى تلك الذكرى ٠

ولأجل هذا بادرت فى يوم ٨ يوليو سنة ١٩٢٢ بالكتابة الى صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت أخبره بعزمى على تأبين الأستاذ ، فتفضل حضرته وأجابنى بالكتاب الآتى :

الخرنفش فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٢

حضرة ولدنا محمد لطفى جمعه

بعد اهداء السلام ، لقد استلمت خطابك بيد السرور وعلمت ما فيه ، وانى لا أرى مانعا من أن تكون بين الخطباء خصوصا لما أعلمه من أنك مجيد عظيم ، غير أن مدة الحفلة ستكون ساعتين فقط فأرجوك أن تقابل الشيخ مصطفى عبد الرازق لكى تقسموا هذا الوقت على الخطباء ، ومع ذلك يمكنك أن تلقى كلمة وجيزة وفية بقدر الامكان وانى ممنون ومتشكر لهذه الصدفة التى جعلتك تخاطبنى ، فانى أود أن تدوم العلاقة بينى وبين أولادنا النجباء أمثالك ٠ واقبلوا فائق الاحترام ٠ محمد بخيت ٠

فبادرت بالكتابة الى صديقى الفاضل السيد مصطفى عبد الرازق وأرسلت اليه صورة من نص كلمتى وكانت لا تستغرق أكثر من عشر دقائق لأننى أعتقد **أن الخطيب الذى لا يستطيع أن يقول فى عشر دقائق ما يجب أن يقال ، فخير له الا يقول ٠**

وانتظرت رد فضيلة السيد مصطفى عبد الرازق على خطابى ، وبعد أيام ورد الى الجواب الآتى :

حضرة الأستاذ لطفى جمعه

قررت لجنة الاحتفال باحياء ذكرى الأســــتاذ الامام الشيخ محمد عبده أن تشكر لحضرتكم ما تفضلتم به من اظهار الرغبة فى القاء كلمة بالحفلة ، ولقد كانت اللجنة حريصة على أن تجيب رغبتكم النبيلة لولا أن اضطرها ضيق الوقت الى الاقتصار على عدد من الخطباء محدود جدا لم يتسع لكثير من أصدقاء الامام وتلاميذه وأنصاره الذين كانوا يودون أن تكمنهم الفرص من القاء شيء فى الاحتفال .

واللجنة مع اعتذارها لحضرتكم ترجو أن لا يحرم الجمهور من تلاوة مقالكم فى المجموعة التى ستنشر متضمنة ما يلقى فى الحفلة وما يختار من المقالات والقصائد التى ترد الى اللجنة .

وتفضلوا بقبول تحياتى الخالصة واحترامى .

مصطفى عبد الرازق

فلما وصــل الى خطــاب السيد مصطفى عبد الرازق عجبت كثيرا ، ووقفت على الحقيقة وهى أن هنـــاك أوامر معينة أو خطة مرسومة تقضى بألا يخطب فى هذا الاحتفال اى انســـان لا يتفق مع لطفى السيد فى السياسة والمبدأ ، وكان اذا ورد أمامه اسم شخص معين لا يحبه هو أو لا يريد خطابته ــ يقول « ما علينـــا يا شيخ بقى احنا قاعدين علشان نظهر خطباهم على خطبانا !! » .

ومع ذلك حضرت الاحتفال ، وسمعنا فى تلك الحفلة المعجب والمطرب ، فقد خطب أحدهم وقال « ان الشيخ محمد عبده كان عظيما جدا ٠٠ رجل عظيم (كذا) ٠٠٠ » ٠

وبعد نهاية الحفلة أرسلت الخطاب الآتى الى صديقى السيد مصطفى عبد الرازق :

سيدى الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة والكمال مصطفى عبد الرازق حفظه الله ٠

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

وبعد ، فقد تسلمت بيد السرور خطاب فضيلتكم المؤرخ ٩ يوليو سنة ١٩٢٢ وقد علمت منه أن لجنة الاحتفال باحياء ذكرى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده تعتذر عن اجابة ملتمسى لضيق الوقت ٠

وعلى الرغم من أننى لم أدع الى الحفلة برقعة كغيرى من خلق الله ٠٠ فان حبى لاحياء ذكرى الأستاذ الامام دفعنى الى حضور الحفلة بغير دعوة ، فاعذر يا سيدى الأستاذ الأجل هذا الاندفاع منى فى سبيل العلم والأدب ، وكان من حسن بختى أن حظيت بسماع الخطباء ، فحمدت الله الذى ألهمكم فكرة عدم اجابة رغبتى الطائشة ، فأين كان يذهب الضعيف كاتب هذه الأسطر بين هؤلاء الفطاحل الذين اعتلوا منبر الخطابة وفى أية سوق كنت أعرض بضاعتى الضئيلة ، وقد جعلتم من الحفلة تكاظا أخرى ٠٠ اننى أؤكد لسيدى الأستاذ أننى حقا استفدت أولا وطربت ثانيا وحمدت الله ثالثا ٠

هذا واننى يا سيدى الأستاذ أقسم لك بقبر الأستاذ الامام الأبر اننى لم أظهر رغبتى فى الخطابة حبا بها أو سعيا وراء شهرة

أستفيدها أو استشفاء من داء الكلام الذى أصيب به بعض الناس فى هذه الأيام ، ولكن كان ذلك قياما بواجبى واعترافا بجميل ، فقد تشرفت بمعرفة الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٢ ولدى منه رسائل شتى ، وكان مرشدى ومعينى فى التعليم ببيروت فى سنة ١٩٠٣ ويعلم ذلك جيدا كل من السيد محيى الدين حمادة والشيخ رشيد رضا ، ورثيته يوم ١٥ يوليو سنة ١٩٠٥ فى محفل كبير وفى جمعية النشأة الحديثة بالقاهرة وبعد أن اشتركت فى تشييع الجنازة فى الثغر وفى مصر ، وحفلة التأبين المذكورة مثبتة فى الصحف فانظر يا سيدى الى عجائب الدهر التى جعلتنى فى العشرين من عمرى كفؤا لتأبين هذا الرجل العظيم والاشتراك فى تكريمه ، وحرمتنى هذه النعمة اذ شارفت على الأربعين ! . حقا ان فى ذلك لعبرة لمن يتأمل .. » .

وبقيت بعد ذلك أفكر فى تنظيم الاضطهاد الذى أتقنه جماعة من المصريين أو « Clique » أى « شلة » معينة سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى الأدب ، وانني أعتبر هذا العمل مضرا بالمجتمع ضررا بليغا ، فقد ظهر أن الخطباء الذين خطبوا فى الحفلة — ما عدا صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق المؤرخ الفاضل والكاتب البليغ والمفكر الصادق — كانوا كلهم خطباء ضرورة ، تغتم نفس الشيخ محمد عبده لو سمعهم حيا وميتا ، ولا سيما ذلك الذى قال انه عرف الشيخ من ظهره وقيل له انه الشيخ محمد عبده !! » .

اذن لم يكن منعى لتقديم فطاحل الخطباء ولا لتفضيل علماء مصر على غيرهم ، ولكن لمجرد عدم انتمائى الى هذه « الشلة » سياسيا ولا عقليا ولا أخلاقيا ، وقد انفضحت هذه الشلة الآن تماما وظهر أنهم جماعة من الوصوليين ودعاة الهزيمة والاندحار وفريق من المغامرين فى السياسة والأدب .

ثم علمت أن لجنة قد تألفت في الاسكندرية لتأبين الشيخ ، فبادرت بالكتابة اليها وبادرت اللجنة بدعوتى ، لأنه لم يكن بين أعضائها دساسون ولا مراءون ولا متنطعون مدعون ٠

وأرسل الى صديقى الدكتور الأستاذ مرسى محمود المحامى الخطاب الآتى :

الاسكندرية فى ١٢ يوليو

عزيزى لطفى

سلاما وشوقا ، وبعد فقد وزعت لجنة الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده المواضيع على الخطباء وخصصتكم بموضوع دقيق ألا وهو التكلم عن الأستاذ الامام كمصلح للقضاء ، وهو موضوع يتناول البحث فى المشروعات الاصلاحية كالمحاكم الشرعية وماذا كان يريده بها الشيخ رحمه الله ، وكيف أنه فى الواقع لامس مسألة من أدق المسائل الحيوية ، ولو تم كل أو أكثر ما فكر فيه ، لما شكا الناس هذه الشكوى التى نسمعها كل يوم ٠

سيكون الاحتفـــال بتياترو الحمراء يوم الاثنين ١٧ يوليو سنة ١٩٢٢ ٠

واليك تحيتى وحبى ٠

وكان الاحتفال فخما وبين أعضاء اللجنـــة صاحـــب الدولة محمد سعيد باشا وعرفان باشا وسليمان بك يسرى وكل قضاة البلد الأهليين والشرعيين ومحاميهـــا وأساتذتهـــا وبعض رجـــال النيابة ٠

وانتهت الحفلة في الساعة التاسعة مســـاء بعد أن دامت أربع ساعات وقضيت وقتا ســـعيدا فى بيت صـــديقى سليمان يسرى بك وعدت الى القاهرة فى قطار الصباح بعد أن أديت دينى للأستاذ الراحل (١) .

● ٣ أغسطس سنة ١٩٢٢ :

حديث حافظ جـــلال ابن عثمان جلال صـــاحب « العيوان اليواقظ » :

قابلت اليوم حافظ جلال ابن المرحوم عثمان جـــلال صاحب كتاب « العيوان اليواقظ » وهو أســـمر اللون بادن جدا فى نصف العقد الثامن ، بيضاوى الوجـــه لامع البشرة مقســـم التقاطيع لطيف العشرة . كان فيما مضى يركب طول يومه فرسا زرقاء وقال انه ركب أيضا هجينا وحمارا ، وفي دمه على ما سمعت منه جرثومة « الخيالة » ، وقد تعلم الطب وأخذ فيه شهادة وربما كان ذلك من أكثر من خمسين سنة ولا يعرف لغة أجنبية ، وقد ترك الطب الحديث وتعلق بالطب القديم ، فهو يجمع الكتب المخطوطة ويطبب من يحتاج الى علمه العتيق بوصفات من تلك الكتب التى لا يعتبرها عقيمة ، ورأيته يضع الكحـل فى أعين المرمودين فى قهوة عامة ويقول انه « الاثمد » الذى كانت تستعمله زرقاء اليمامة ! ، وقال انه يعالج الفالج وضعف الباه وسائر الأمراض من كتاب طب قديم سرقه الجن من سيدنا سليمان وعثر هو عليه فى تل بوبسطة بين لوحين من الخشب مسمرين !!

---

(١) سجل لطفى جمعة ما جاء بهذه المذكرات عن الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده فى مقال له عنوانه « كيف حرمت من تأبين الشيخ محمد عبده فى القاهرة ، وكيف وصلت الى غايتى فى مدينة الاسكندرية » نشر بصحيفة البـلاغ الأسبوعى فى ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٠ .

وتكلم عن كتبه التى فى منزله ، فقال ان كلها مخطوطة وأنها موضوعة فى صناديق « سحارات » وأنه فقد كتبا ذات شأن عظيم ، منها كتاب في الجفر أنبـــأ بحاضر مصر ومستقبلهـــا وبه شمس المعارف بخط السلطان محمود وفيها الاســـم الأعظم الذى كتب بأحرف من نور فى خلوة مظلمة كان يتعبد فيها الامام على رضى الله عنه ، وقد أخذ هذا الكتاب أبو شادى بك المحامى مقابل دفاعه عن سعيد ابن الدكتور حافظ جلال فى قضية جنائيـــة ، ثم أخذه من أبى شادى الشيخ القاوقجى الصغير · والكتاب الثانى اســـمه « المعسكر » عن ظهور الامام المهدى من الشرق الأقصى ووصف حاله وحربه ووصف خور عزيمة الجيش الذى يحاربه وضعف همتهم وكيفية انهزامه أمام الامام المنتظر وقد أخذه أحد علماء الأزهـــر من منزله ·

ثم تكلم الدكتور حافظ عن نفسه فقال انه يعيش الآن بعيدا عن الست الوالدة وقال ان عمرها مائة وعشرة سنين وأنها أخفت جميع مخلفات المرحوم والده واستأثرت بكل فائدة مادية أو أدبية تركها الشـــاعر الهزلى الشـــهير الذى ترجـــم موليير وبرناردين سان بيير ، وقال انه شفى بكحله سائلا ضريرا فأبصر ، فباع من هذا الكحل باثنين وثلاثين جنيهـــا · وقال ان والده كلف مؤنس الخطاط الشهير بكتابة هذين البيتين فى لوح محفوظ فى بيته الى يومنا هذا ، وهما من نظم والده :

وبـلـدة مـــن ملل جمعت　　　لا ينتظم حالهـا ولا تستقيم

كامرأة ما أحصنت فرجهـا　　　فهى على مر الليـالى عقيم

والنكتة عند الدكتور حافظ عادية أقرب الى السوقية منها الى نكتة الخاصة ، ومعظم ما يضحك من قوله خاص بالعلاقة الجنسية ، وهو كأهل الأمم السالفة يعيشون فى الجيل الحاضر مثل « بيك فان وينكل » Pik Van Winkle » ، وقد أعتنى بتربيه أولاده فخرج أحدهم ابراهيم جلال قاضيا ومؤلفا ألف رواية العمدة وغيرها .

من يوميات سنة ١٩٢٦

الاثنين ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٦ .

ــ قابلت اليوم فؤاد صروف بالمقتطف وسلمته مقالة عن العبقرية فوعد بنشرها فى العدد الذى يظهر فى أواخر مارس (١) .

السبت ٣ مارس سنة ١٩٢٦ ..

ــ أرسلت خطابا للجنة النشر والترجمة بشأن طبع كتابين من كتبى .

٢٨ أبريل سنة ١٩٢٦

قرأت كتاب « الابريز » لعبد العزيز الدباغ فى حدائق روض الفرج وهو كتاب عجيب مكتوب على طريقة غريبة وأقواله صحيحة فأحدث لى أثرا حسنا وكانت قراءتى له فى صيف سنة ١٩٢٥ وهو من الكتب المهمة التى يجب أن تقرأ بامعان مثل كتاب « اللمع » و « عوارف المعارف » و « الرسالة القشيرية » .

ومما لفت نظرى فى هذا الكتاب كلام لطيف عن الفرق بين الحديث القدسى والحديث الشريف والقرآن الكريم .

---

(١) عنوان المقال « كلام فى العبقرية » ، مجلة المقتطف ، مجلد ٦٠ (سنة ١٩٢٦) ، ص ٢٤٣ ، ٢٣٣ .

نوفمبر سنة ١٩٢٦

● كتاب الشهاب الراصد فى الرد على كتاب الدكتور طه حسين « فى الشعر الجاهلى » :

فى شهر يونية سنة ١٩٢٦ حضر الى وفد من علماء الأزهر ومنهم يوسف الدجوى والشيخ مفتاح رئيس الوعظ (١) والخضر حسين وغيرهم وعرضوا على مبلغ خمسين جنيها لرفع دعوى على الدكتور طه حسين لما كتبه فى كتاب الشعر الجاهلى ، وعرضوا على الكتاب فرفضت الأتعاب وصممت على تاليف كتاب فى الرد على طه حسين وكان نتيجة هذا هو كتاب الشهاب الراصد الذى نشر فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٦ .

---

(١) ولد الشيخ عبد ربه مفتاح باحدى قرى مركز اطسا محافظة الفيوم ثم التحق بمعهد القاهرة الدينى وأكمل تعليمه بالأزهر ، وعندما تخرج عين اماما بالأوقاف ، ولما أنشىء قسم الوعظ والارشاد بالأزهر سنة ١٩٢٨ عين مفتشا عاما له فنهض به نهضة واسعة ، وحمل الوعاظ مسئولية نشر الدعوة الاسلامية والثقافة والمعرفة بين الناس ومحاربة البدع والخرافات وتقويم السلوك الاجتماعى ومحاربة الجريمة ، وقام الشيخ مفتاح بتاسيس مجلة « نور الاسلام » لتكون لسان علماء الوعظ والارشاد وعندما أصدر طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » تصدى الشيخ مفتاح لتفنيده ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، معتصما بعزة نفسه وكرامته . كما كون مع لفيف من العلماء والأدباء جمعية أدبية أطلق عليها اسم « اخوان الصفا » وجعل من بيته مقرا لها . وقد توفى الشيخ مفتاح سنة ١٩٣٨ .

(للوقوف على مزيد من المعلومات عن الشيخ عبد ربه مفتاح ، راجع مجلة الأزهر ، عدد ابريل سنة ١٩٩٣ ، س ٦٤ ، ج ١٠ ، ص ١٢٣٠ ـ ١٢٣٣ ..

وعن نقد لطفى جمعة لكتاب طه حسين « فى الشعر الجاهلى » راجع كتاب الأستاذ أحمد حسن الطماوى « محمد لطفى جمعة فى موكب الحياة والأدب » ، مكتبة عالم الكتب ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٣٥٩ ـ ص ٣٧٨) .

ديسمبر سنة ١٩٢٦

تدور فى ذهنى فكرة مشروع كتاب عن المحاماة أتكلم فيه على تذكاراتى الشخصية عن هذه المهنة الشريفة وأتناول بعض مشاهير المحامين والقضاة الذين عرفتهم ، وأتحدث فيه عن بعض القضايا الشهيرة التى رأيتها وبعض القضايا المهمة التى باشرتها ووصف بعض المتقاضين وأعمال المكاتب وعمالها والاصلاحات الواجبة للنهوض بهذه الصنعة ٠

من يوميات سنة ١٩٢٨

الأحد ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٨

ولد لى مولود جديد الساعة ٧٫٤٥ أسميته رابح ٠

من يوميات سنة ١٩٣٠

الثلاثاء ١٨ مارس سنة ١٩٣٠

لقاء الروائى العالمى توماس مان الحائز على جائزة نوبل بنادى الضيافة بشارع دير البنات بالقاهرة (١) .

الأربعاء ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٠

فكرت فى الاصطياف مع أولادى وخصوصا العناية بصحة معالى ورابح ، خاصة وأننا لم نخرج من بيتنا بعد ذهابنا الى رأس البر فى رضاعة زكريا . وقد فكرت حتى وقع اختيارى بعون الله على بورسعيد فأخذت أولا أعد العدة بالمال وأظن أول يوليو يوما صالحا للانتقال تبعا للاجازة القضائية .

ولا يمكننا النزول فى فندق فلابد لنا من استئجار منزل ، وسوف أسافر الى بورسعيد .

الخميس ٣ يوليو ١٩٣٠

لا أعرف أحدا فى البلد .

استحضرت كتبا كثيرة وجرائد فرنسية « كانديد » و « جرنجوار » . والأولاد يلعبون بالرمال ويبنون أهراما ومعهم جرادل وأداة للحفر ، والفاكهة العنب والبطيخ كثير ورخيص وكذلك الأسماك .

أكتب مقالاتى للبلاغ بانتظام ولا سيما « لعل وعسى » .

---

(١) كتب لطفى جمعة عن هذا اللقاء مقالا عنوانه « مع توماس مان فى القاهرة » ، نشر بجريدة البلاغ فى ١٩٣٠/٤/٥ وأعيد نشره بكتاب لطفى جمعة « فى الأدب والنقد » . عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

السبت ٥ يوليو

أطالع كتاب كلود فارير عن لوتى Lotti .

الأحد ٦ يوليو

أنزل البحر وأمرح مع الأولاد ولا سيما مطيعة التى عمرها ٨ سنوات ويحيى يعوم جيدا وكذلك أخوه زكريا والصغار تتولى أمهم استحمامهم ٠

الثلاثاء ٨ يوليو

أخبار القاهرة سيئة جدا ٠

قرأنا خبر عزم النحاس باشا على السفر الى المنصورة وعزم الحكومة على مقاومته بالقوة ٠

الأربعاء ٩ يوليو

اليوم وقعت الواقعة وحصلت معركة المنصورة بين الجيش والوفد وأهل البلد ٠

الجمعة ١١ يوليو

فى الصباح ذهبت لزيارة مراد محسن الذى هو مدير هنا أو المحافظ فأحسن الرجل لقائى ورد لى الزيارة ٠

السبت ١٢ يوليو

- الصحف حافلة بأخبار مجزرة المنصورة وقد طعن سنوت حنا بسنجة عسكرى يقال انها قاتلة وكان المقصود بها النحاس باشا رئيس الوفد وانفرد البلاغ بعدد بيع بعشرين قرشا ٠

- كتبت قطعة عن الثورة الفرنسية للبلاغ بمناسبة عيد ١٤ يوليو الذى يستعدون له هنا استعدادا عظيما ٠

الأحد ١٣ يوليو

كل البلدة مزدانة زينة باهرة فى البر والبحر وقيل عن اطلاق الألعاب النارية ٠

جلست فى احدى قهوات البلد بالشارع الرئيسى وأعطانا جيد بك شكرى دعوة الى احتفال لشركة قنال السويس على شاطىء البحر حفلة نهارية فعولت على أخذ الأولاد للفرجة ٠ ان تأثير الشركة الفرنسية قوى جدا ٠

الثلاثاء ٥ يوليو

- قامت مظاهرات وبدأ حشد الجماهير وحضرت الى بورسعيد « أورطة » يقودها ضابط اسمه اسكندر بك وعسكرت فى الشوارع ٠

الأربعاء ١٦ يوليو

ان بورسعيد تحترق فى هذا الصيف ، فقد أوقفت الحكومة الدستور وألغت دستور سنة ١٩٢٣ ووضعت دستورا جديدا مستعينة فى ذلك بعبد الحميد بدوى ، وتعطل جورنال البلاغ ولم

يظهر يوم ١٤ يوليو . لقد وصل طغيان اسماعيل صدقى باشا الى اقصاه .

الخميس ١٧ يوليـــو

قابلت الميرالاى اسكندر بك الذى جاء لقمع الفتنة ، وأهـل بورسعيد درجوا على رجم رجال البوليس بالحجارة وخصوصا فى حى العرب والمناخ **وكلمت اسكندر بك بشدة وقلت له : اياك أن تطلق الرصاص على أهل وطنك . فقال لى : ان كفوا لا أفعل ولكنهم يهاجموننا .**

الاثنين ٢١ يوليـــو

زرت المحافظ مراد محسن ، انه يريد أن يبتعد عن السياسة ويقول انه موظف ادارى ويظن أن سينقل الى منصب بالسراى بسبب مصاهرته مع عائلة رشيد التى منها محمود وابراهيم رشيد جناحا اسماعيل صدقى فى هذا الانقلاب Coup d'etat . ولا أعرفهما ولكنهما سيئان لتعضيدهما هذا الرجل .

الخميس ٢٤ يوليـــو

الخـوف من ثورة بورسعيد المنتظرة والافرنج فى جزع من النهب والسلب وتعدى أولاد العرب .

الجمعـــة ٢٥ يوليـــو

ـ يزداد الهياج يوما عن يوم .

ـ كنت أرسلت سبع مقالات للبلاغ ، فلما تعطل البلاغ لا أدرى مصيرها وبادر عبد القادر حمزة بتسوية حسابى معه الى نصف يوليو بحجة أن مصاريف الاصطياف كثيرة ، فعجبت لتعجله كأنه لا يرجو أن تصدر الجريدة مرة ثانية ٠

الأحـــد ٢٧ يوليـــو

فى الصباح قابلت المحافظ فرأيته بهجا ومتبرما فى وقت واحد وقد وضع على « كابينته » بالشاطىء حارسا من أرذل خلق الله يمنع المارة من مجرد المرور كأن الكابين هيكل مصرى قديم ! ٠ وقد تطور مراد محسن ويسمونه الباشا المحافظ تملقا ٠ أما محمود عزمى وكيل المحافظ فرجل ديمقراطى ٠

الاثنين ٢٨ يوليـــو

ـ أترقب البريد الأوربى فأقرأ ٠

Nouvelle Litteraire, Candide ; Gringoire, Detictive, Mercure de France

غير الكتب ٠

ـ أوقفت الكتابة لأن البلاغ تعطل ٠

الخميس ٣١ يوليـــو

كلما ينقضى يوم من الشهرين اشعر باسف لأننى أشعر من الآن أن هذه أيام لا تعد من العمر ، ان أفراح الأبوة فى هذه السن للأولاد لا نعد وأهمها أنى أراهم يأكلون بشهية ويشبعون ويسبحون

ويجرون ويلعبون ويضحكون ويستريحون منعناء الدرس ومن حر القاهرة ، ولو أمكننى أن أبقى الى آخر سبتمبر فلا أتأخر غير أن فى أوله تفتح مدارس الفريد ويبدأ الموسم القضائى ٠

الست كذلك تحسنت صحتها وكذلك معالى ورابح الذى يمشى وبدت أنوار ورفيعة ٨ ، ٧ سنوات كالأولاد الصغار وأنا أحبهما جدا ٠

الجمعة أول أغسطس سنة ١٩٣٠

ـ اليوم الأول من الشهر الثانى ٠ لم أغير نظامى وقد استفدت كثيرا ٠

ـ القلق يزداد فى المدينة ٠

ـ سمعت أن جيراننا الفرس بهائيون ٠ رؤية البنت الفارسية التى أوحت الى قصة « قرة العين » (١) ٠

الثلاثاء ٥ أغسطس

اشتد النزاع فى البلد على المرور بين الأحياء ، والجند يهددون أبناء العرب ، والأفرنج يخشون ، وقد سمعت عرضا فى الطريق أنه فى سنة ١٩٢٢ شهدت بورسعيد مذبحة بعد أن حصل سلب ونهب فى دكاكين الافرنج ٠

---

(١) « قرة العين » قصة بهائية نشرها لطفى جمعة مسلسلة فى حلقات بجريدة البلاغ سنة ١٩٣٤ ٠

الخميس ٧ أغسطس

حضر الى بالمنزل المدعو على الألفى ومحمود الصفتى وآخرون ودعونى لحفلة المولد النبوى بمنزل الشيخ الصياد وانشاد الشيخ على محمود ، وبقينا للصباح وحضر المحافظ وجلس معى ومع القاضى الشرعى وسألنى المحافظ عن كتب فى الفلسفة بالافرنجى فأعطيته بيانا بها . وقيل لى ان على الألفى المذكور كاتب حسابات عند تاجر طيور وشاعر فى الوقت نفسه .

الســـبت ٩ أغسطس

اتصل بى المدعو على الألفى وقال انه مسافر الى دمياط عند على العزبى وعرفنى بأخوته وهم عصبة وقال لى المحافظ ان هذه العصبة هم سبب القلاقل فى بورسعيد لأنهم سياسيون وينتمون الى الوفد ، فدافعت عنهم .

الاثنين ١١ أغسطس

رأيت المدعو نجيب ريحانة (لا ريحانى كما يقول مينا وزورا) فرحب بى وقال انه قادم ليمثل بضع ليال ، وتكلم معى بما يشعر أن النجاح قد أفقده عقله ، فأنا أعرفه من سنة ١٩١٣ .

الأربعـــاء ١٣ أغسطس

أقيمت حفلة وداع للمحافظ لأنه نقل الى وظيفة فى القصر بسبب مصاهرته وحضرت الحفلة بالكازينو وألقى على الألفى قصيدة .

الثـــلاثاء ١٩ أغسطس

رأيت الشغب الذى حدث فى البلد وتبادل الحجارة ورصاص الجيش وقد مات بضعة أشخاص من الأهالى وجرح آخرون ، وكان الحكمدار هين الانجليزى يقود المعركة وقد أصيب بحجر فى صدره وآخر فى جبهته ، واستدعوا على الألفى وهو سكرتير لجنة الوفد ليهدىء الضوضاء مع أنه هو الموعز بها ٠

الخميس ٢١ أغسطس

قابلت الميرالاى اسكندر الذى ضرب المتظاهرين بالرصـــاص ومد يده لمصافحتى فرفضت وقلت له : لا أصافح من لطخ يده بدماء أبناء وطنه ٠ فلم يتكلم ٠

الاثنين ٢٥ أغسطس

أكثر الدكتور محمد سليمان الطبيب بمستشفى الحميات من زيارتى والاحتفاء بى وقدم لى أشخاصا كثيرين من الوفديين لأنه ينتمى اليهم ، ومنهم ابراهيم عطا الله ومحمد الشردى وهو مفصول من الخدمة ولكنه خفيف الروح ٠

الخميس ٢٨ أغسطس

ــ قربت أيام السفر ! ٠ ان هذا البلد جميل جدا ، ما أجمل الحياة لولا لؤم الانسان !

ــ عرفنى على الألفى بمن يدعى عبد الفتاح العايدى وولديه محمد وجمال وقال انهم من أغنياء الحرب الكبرى الماضية قعد بهم الدهر ، ويقيم الألفى حفلة أسبوعية لاحياء ذكرى أمه بقراءة القرآن وهذا وفاء جميل جدا ٠

السـبت ٣٠ أغسطس

شعرنا بروح الوداع للبحر فتملكتنا حالة حزن شديد وشعرنا بحب عظيم للشاطئ والبيت والجيران ، وكان بودنا أن نقيم شهرا آخر لولا موعد افتتاح المدارس لأن الاقامة هنا أفادت الأولاد كثيرا .

الأحـد ٣١ أغسطس

هذا يوم السفر وودعت أصحابى بسرعة وودعنا الجيران وتحركنا الساعة الخامسة وحشدت المحطة بعدد وفير ممن عرفنا فتأثرنا كثيرا ولوحوا لنا بمناديل بيضاء عند تحرك القطار !

وصلنا الساعة الحادية عشرة ليلا وركبنا سيارتين الى المنزل بمنشية البكرى وحمدنا الله على سلامة العودة ، وتحدثنا طويلا عن الذكريات ولكن الأولاد ما زالوا صغارا لا يشعرون الا بالسعادة المؤقتة ، وقد تحسنت صحتهم واستعدوا للعودة الى المدرسة غدا صباحا ، أما مطيعة فتعود بعد شهر فى أكتوبر الى المدرسة ! والحمد لله .

الثـلاثاء ٢ سبتمبر ١٩٣٠

قابلنى خالد باشات وقال لى انه اشتاق الى كثيرا أثناء غيابى ، وقضينا سهرة جميلة جدا وهو كثير التنكيت ، ان لباشات عبقرية فى التنكيت العالى وقيل لى انه يشبه أباه فى هذه الناحية وأنا أحبه كثيرا واسمه عندى أبللو

الأربعـــاء ٣ سبتمبر

زرت عبد القادر حمزة فى دار البـلاغ الجديدة التى بناهـا وتحدثنا فأثبت له أنه يكفى اصدار جريدته باسمها بعد المســاء بنص القانون الذى أصدره صدقى ، ففرح جدا وأخذ يستعد وعجبت أنه لم يتنبه لذلك قبل الآن ، وتحدثنا طويلا ونفى وصول الظرف الذى به سبع مقالات كنت أرسلتها من بورسعيد ويظهر أنها فقدت أثناء الانتقال .

الجمعـــة ٥ سبتمبر

قابلنى محمد على الطـاهر وذكر لى أن الأستاذ عبد العزيز الثعالبى (١) حضر الى مصر ولم أره من سنة ١٩١٣ وقال لى انه يريد مقابلتى لتجديد الصحبة خصوصا وقد أقام طويلا الى سنة ١٩٢٦ بمصر ولم أتصل به وكان أصحابه فى تلك الفترة بيت عبد الرازق ومنصور فهمى وطه حسين ومن اليهم .

الســـبت ٦ سبتمبر

قابلنى الثعالبى فى القهوة وهو يدمن الشيشة .

الاثنين ٨ سبتمبر

يحضر محمد على الطاهر مجالسنا الليلية وهو نابلسى ينشر جريدة الشورى للدفاع عن وطنه وعن الاسلام ، وهو شديد الولاء للثعالبى .

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بالثعالبى ، راجع كتـاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص‌ص ٣١٢ ، ٣٢٢ . وأيضا كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد » ، المرجع السابق ، ص ١٤١ ــ ١٥٧ ، سنة ١٩٩٨ .

ونحن نجلس في قهوة فنيكس أو عماد الدين ويدخن الثعالبى الشيشة ويروى أحاديث سندباد بحرى عن حوادث وطنه تونس ورحلاته في الهند والشرق الأقصى ، وهو رجل لطيف فشبهته بابن بطوطة وابن خلدون (١) ٠

الأحــــد ١٤ سبتمبر

يظهر أن الثعالبى في كل رحلة الى مصر يعاشر فئة من الناس ويترك السابقة ، وهو في هذه الكرة مراقب من حكومة العراق على بعثات الطلاب العراقية من قبل الملك فيصل ويتقاضى خمسين جنيها شهريا وله صفة رسمية مع وزارة المعارف ، ويدب الشقاق أحيانا بينه وبين محمد على الطاهر بسبب رعونة هذا الأخير فيقاطعنا أياما طويلة ثم يعود لأنه يحب الحديث اللذيذ الذى يصل الثعالبى حباله طوال الليالى والأيام ، وهما كالدون كيشوت وتابعه بانزا ٠

الثـــلاثاء ١٦ سبتمبر

لمحمد مسعود قضية على البرنس يوسف كمال وكلمنى فيها وخاطبنى كعادته بصوت منخفض وبطء شديد ٠

الجمعـــة ١٩ سبتمبر

حرية أفكار المرحوم الكواكبى :

---

(١) كتب لطفى جمعة مقالا عنوانه « السيد عبد العزيز الثعالبى ، زعيم شرقى ومفكر مصلح » نشر بجريدة المساء فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠ جاء ابه « انك اذا سمعت حديث الثعالبى رأيته مزيجا معقولا عصريا من ابن خلدون وابن بطوطة وجمال الدين الافغانى »

- روى لى الاستاذ عبد العزيز الثعالبى **ان المرحوم الكواكبى كان يبحث دائما عن الأعمال المثمرة ماديا ، وكان ينظر الى الأدب والسياسة كهواية لا يربح منها صاحبها** ، وكان اغترابه وارتحاله لثلاث علل :

الأولى : أن يفر من ظلم الترك فى وطنه وأن يشن عليهم غارة شعواء فى الشرق العربى ، فكتب « طبائع الاستبداد » وأعطى الدواء فى « أم القرى » .

الثانية : البحث عن أخـــلاق الأمم وأحوالهـــا الاجتماعية والسياسية .

الثالثة : أن يربح من التجارة وما يماثلها ، فمول ابنه ليفتح قهوة فى مصر اذ رأى عمل المقاهى هى أنجح الأعمال ، وهو فى ذلك على رأى بعض فلاسفة اليونان (أفلاطون وأرسطو) اذ كانا يتجران فى الرقيق كأهل بلدهم فى زمنهم ، أما الفلسفة فهواية . وقد أصاب الكواكبى **لأن كل الأدباء فى الشرق جاعوا لانقطاعهم للأدب** .

وكان الثعالبى يقلده ، فانه اشتغل طول حياته بالتجارة وكان يقرض ماله مع أصحاب المتاجر الكبرى فى الشرق الأقصى والخليج الفارسى أمثال سيد على زينل والسيد الكاف بسنجافورة ويتجر فى الأرز وغيره .

وروى لى مرة أنه فاتته تجارة « أنديجو » عرضت عليه بثمن بخس ورفضها ولو اشتراها لاقتنى الملايين .

ولكن أصحابنا الأفغانى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد لم يطرقوا هذا الباب وأنفوا أن يشتغلوا بالماديات ،

وكان ويلفريد بلنت من الأغنيـــاء بسبب الزراعة وتربية الخيل الأصيلة ، أما كتبه وأدبه فهواية ولذا جاءت على غاية الاتقان ٠

● ســنة ١٩٣٠ :

*** اللغـــات الرمزية :**

اللغات الرمزية Aryot **اشتغلت بها** وبما يتفق عليه منها أهل الاجرام وكتبت فيها بحثا طويلا وألقيت محاضرة فى العشرة الثالثة من هذا القرن (حوالى سنة ١٩٢٥ أو سنة ١٩٢٦) **وعملت لهـا قاموســـا فى مصر** (١) وقرأت أخـــيرا فى مجـلة لوكار بقـلم Gaston Esnault مقـالا عن لغة رمزية جـديدة **اكتشفت فى** ٨ أكتوبر ســنة ١٩٢٩ بواسطة مجرمين لمحاربة البوليس الدولى وضبطت ألفاظها مع من يدعى بنتو Pint من المجرمين واسم اللغة Gyria (انظر اعداد المجلة المذكورة سنة ١٩٣٠) ٠

وادمون لوكار المذكور آنفا طبيب شرعى وخبير جنائى بليون وصار عالميا خليفة للدكتور Lacassgne أستاذنا فى المادة نفسها بليون سنة ١٩٠٩ أنشأ مجلة Revue Criminalstique ســنة ١٩٢٨ وله جملة طرق مبتكرة لمعرفة المجرمين منها نفض ملابسهم لاخراج الآثار التى تعلق بها فى محل الجريمة مثل نشارة الخشب وبرادة الحديد والمعـادن أو البـدرة التى كانت فى جسم المرأة القتيل ، وقد أتقن تحقيق الأنامل والخطوط واللغـــات الرمزية وهو كاتب ممتاز وعالم صادق ، وقد تخرج من تحت يده المدعو

---

(١) انظر دراسة عن هذا القاموس مقال رابح لطفى جمعة « اللغـة السرية لبعض الطوائف والمهن الشعبية فى مصر » ، مجلة المأثورات الشعبيـة ،الدوحة ـ قطر ، العدد ٣٧ ، السنة العاشرة ، ينـاير سنة ١٩٩٥ ، ص ص ٤٣ ـ ٥٧ ٠ وانظر أيضا كتاب لطفى جمعة « مباحث فى الفولكلور » ، المرجع السابق ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩٩ ٠

محمد زكي وهو وكيل تحقيق الشخصية بمصر وأثبت في العدد ٤ من السنة الثانية من مجلته (سنة ١٩٣٠) أن الشرقيين في الأقصى لا سيما الصين عرفوا الاستفادة من السمات لتحقيق الشخصية منذ مئات السنين ، وأن الفضل في الاستعمال الحديث لها لرجل انجليزي وآخر من بوهيميا (شيكوسلوفاكيا الحديثة) .

أهم أحداث سنة ١٩٣١ (١)

- **تأليف كتاب حياة الشرق .**
- الأولاد في المدارس ، والحياة البيتية ، والعمل في المحاكم .
- تأسيس محكمة النقض والابرام المدنية .
- **عهد اسماعيل صدقي وارساله الى الأستاذ وهيب دوس لانضم اليه ورفض ذلك .**
- حصول حادثة القنابل أثنـــاء وجودى في السويس يوم ١٨ و ١٩ يوليه .
- أهل السويس والشيخ اسماعيل الباز والأيام التي قضيتها في المدينة .
- سفرى الى بورسعيد لاعداد منزل الاصطياف .
- **مقابلة غاندى والعظماء الواردين معه في ٧ سبتمبر سنة ١٩٣١** ، شوكت على وأساليبه .

---

(١) لم يدون لطفى جمعة الكثير من مذكراته عن هذه السنة واكتفى بكتابة رؤوس مواضيع تحت عنوان « أهم أحداث سنة ١٩٣١ » .

ـ النزاع السياسى فى بورسعيد .

ـ السفر فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣١ من بورسعيد وحفلات توديعى بالمحطة .

من يوميات سنة ١٩٣١

٨ يناير سنة ١٩٣١

اليوم الساعة الثامنة مساء الاحتفال فى حارة اليهود بذكرى موسى بن ميمون وقد حضرته وكتبت عنه فى مجلة الصباح وهذا كان أصل الاحتفال الرسمى به بدار الأوبرا بواسطة الحكومة ولم أدع اليه .

٩ ينــــاير

اقامة حفلة شاى للثعالبى بمحل ليموتيا وقد خطبت فيها .

١٥ ينــــاير

محاضرة لى بجمعية الشبان المسيحية الساعة السادسة عن الشاعر أحمد العاصى (١) وحضور عبد الرحمن الجديلى وظهر أنه قريبــه .

---

(١) أحمد العاصى أديب وشاعر ولد سنة ١٩٠٣ بمدينة فارسكور ومات منتحرا فى سبتيمر سنة ١٩٣٠ وله ديوان شعر مطبوع وكذلك رواية مطبوعة عنوانهـا « غادة لبنان » ورواية أخرى عنوانها « الاديب المنكود » لازالت مخطوطة ، وقد كتب لطفى جمعة عن هذا الشاعر فصولا ضافية بجريدة المساء عقب وفاته (انظر مقال الأستاذ رجاء النقاش بمجلة الدوحـة وعنوانه « الشاعر العـاصى ومأساته » عدد ٤٣ ، يوليو سنة ١٩٧٩ ، ص ٤٠ ـ ٤٤ ، وكذلك مقـال رابع لطفى جمعة بالمجلة ذاتها وعنوانه « الشاعر احمد العاصى ، أضواء جديدة على مأساته ورواية مجهولة له » ، عدد ١٢٣ ، مارس ٨٦ ، ص ٢٨ ـ ٣١) . وانظر مقالات لطفى جمعة عن العاصى فى كتاب لطفى جمعة « فى الأدب والنقد » ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

الجمعـــة ١٦ ينـــاير

تغديت عند حامد العلايلى • وفى الساعة الرابعة حفل شاى عند أحمد زكى باشا (١) مع الثعالبى ووزير تونس سيدى عمر البكوش وفى الساعة التاسعة مساء حفل بالأوبرا •

الأحـــد ١٨ ينـــاير

ـــ عيد ميلاد ابنى زكريـا •

ـــ زواج خالد باشات ، حضرنا الحفل وكان معى الثعالبى •

الثــلاثاء ٢٠ ينـــاير

موعد السفر الى فلسطين لرثاء المرحوم محمد على الهندى •

الخميس ٢٩ ينـــاير

افتتاح المعهد التمثيلى الأهلى الساعة الثامنة مساء •

الجمعـــة ٣٠ ينـــاير

محاضرة الثعـالبى السـاعة الثـامنة والنصف فى جمعية الشبان المسلمين وبعد أن ألقاها تكلم شوكت على وهذا كله ملخص فى كتابى حياة الشرق •

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بأحمد زكى شيخ العروبه ، راجع كتـاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجـع السـابق ، ص ٤١١ ــ ٤٤٨ • وكتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد » ، المرجع السابق ، ص ١١٣ ــ ١٢١ •

١٤ سبتمبر

لقاء غاندى :

لقيت غاندى على ظهر الباخرة راجبوتانا فى ميناء بورسعيد قضيت فى صحبته ثمانى ساعات كانت أسعد ساعات الحياة ، كان الزعيم الهندى فى طريقه الى مؤتمر المائدة المستديرة ، وكان فى صحبته بعض أقيال الهند ورؤسائها وأصحاب الفكر فيها .

وصلت الباخرة الساعة الثالثة صباحا وألقت مرساها على رصيف الميناء ، فانتابنى قلق وخوف من عدم تحقيق الأمل برؤيته، ثم صعدنا الى الباخرة ، وفى حوالى الثالثة والربع ظهر غاندى فجأة ومعه المس سليد .

لقد دهشت دهشة عظيمة لدى رؤيته ، فقد كانت رؤيته بالنسبة لى أملا عظيما تحقق عندى ، وبعد أن أفقت من نشوة لقائه ، شدتنى اليه شدة أسره وقوة جاذبيته النادرة .

ان وجهه وثيابه تخالف الحقيقة وكافة الصور الفوتوغرافية التى شاهدناها والأوصاف الكتابية التى قرأناها ، فبدنه أشبه بأى قروى فى أى قرية من قرى الوجه البحرى أو القبلى فى مصر ، ولكنه نظيف جدا ، وأعتقد أنه فى منتصف الحلقة السابعة من عمره ، رأيته حليق الرأس قد شاب شعره وعيناه صغيرتان سوداوان يبدو فيهما الذكاء والألم ، وتتجلى فيهما الزهادة والاغضاء عن كل شىء من أعراض هذه الحياة الدنيا ، وعندما يتكلم تلمح فى عينيه بريقا خاطفا كأنه نور الفنار الذى يضيىء ظلمات المحيط ليكشف الطريق للسفن الحائرة فى خضم الأمواج ، أما أذناه

فكبيرتان مما يدل على قوة حاسة السمع لديه ، ولا يستر جسده الا قطعة من قماش القطن ، وهو في جلسته يشبه بوذا ، لأن جليسه يرى قدميه ظهرا وباطنا ، ويداه مشغولتان بالغزل على مغزل يدور مفروش أمامه على الأرض ، ويده اليمنى تدير العجلة واليسرى تمد الخيوط ·

ان كل ما نعلمه عن غاندى سابقا بالدرس أو بالقراءة يتحقق لديك عند رؤيته كحقائق مادية واقعية ثابتة ، ومن هنا ينشأ شعور لديك كأنك تعرفه وتحبه من قديم الزمن ، فقد شعرت لدى رؤيته بهذا الشعور ·

ان مخ هذا الرجل أداة من أعجب أدوات الخليقـة انتظـاما وتركيبا ، ويمتاز بمظهرين هما العقل وقوة الارادة ، ومما لا شك فيه أنه شديد الذكاء والدهاء ، **انه شخص فذ فى العالم فى الوقت الحاضر ومظهر الهى فى الكون ، وسره العظيم يكمن فى روحانيته لكونه روحا حرا طليقا ليس بينه وبين الحقيقة حجاب ، وهذا دليل على أن قوة الروح تتغلب على الجسم وتفوز عليه ·**

ان الرجل الذى وصفه نيتشه وتخيله وتمنى وجوده ، يمكن تحققه بالقوة المعنوية فى شخص غاندى ، وفى ذلك تكذيب للفلسفة الماديـة ·

ومعلوم أن نيتشـه كان تلميذا للفيلسوف شوبنهاوز الذى تعلم فلسفة الهند وتشبع بالفكرة الهندية عن الانسان الكامل ، وقد تحققت هذه الفـكرة في شخص غاندى بعـد موت شوبنهاوز بخمسين عاما ·

ان الشرق مصدر النبوات ومهبط الوحي الالهي ، وقدأراد الله سبحانه وتعـــالى أن يظهر « السوبرمان » في هذا الشرق ، فغاندي رجل مفرد في التاريخ ، وسبب تفرده أنه جعل من التصوف الهندي حياة عملية فعالة في المدنية الحديثة ، وقد تشبع بفلسفة راماكريشنا وفيفيكننداوهي فلسفة روحانية ظهر بها المهاتما بمظهر رجل سياسة ، ولكنها ليست كسياسة أوربا ولا من ذلك النوع التقليدي الذي ظهر في الشرق ، بل انها رسالة في صورة سياسة لانقاذ الانسانية المتألمة المعذبة ٠

قال لي فيما قال : لقد كانت حياة راماكريشنا مثالا حيا وفعالا في بارماهمسا (١) ــ أي الاعراض عن العنف ــ وكان حبه كاملا وشاملا تاما وعاما ، فليبارك الله وليجعل خيرا وحبا والهاما طاهرا لكل من يقرأ حياة راماكريشنا ، فلا يمكن لانسان أن يقرأ هذه الحياة دون أن يقتنع ويؤمن بأن الله هو الكائن الحق وحده دون سواه وأن كل ما عداه ومن عداه خيال متخيل أو أباطيل مبطل ٠

لقد اصطدم غاندي بأعظم قوة في العالم وهي قوة بريطانيا ، ومع ذلك فهو غصة في حلق بريطانيا وشوكة في جنبها يقلقها ويقض مضجعها ويصيبها بالحمى بالرغم من تكوينه ونشـــأته من عناصر أوربية بحكم تعليمه ، وأعتقد أن عمله الذي اشتغل به في حياته وهو المحاماة كان هو نواة حياته الحالية ٠

---

(١) الاهمسا أو اللاعنف وبعبارة أخرى الحب في أسمى صورة كان هو منطلق افكار غاندي ويقول عنه « ان عدم العنف هو أعظم القوى في خدمة الجنس البشري ، انه أقوى من كل سلاح ابتدعه الانســان » ، راجع كتــاب « كل الناس اخوة ، حياة المهاتما غاندي وآراؤه كما رواها » ، اعداد كريشنا كريبالاني ، ترجمة يونس شاهين ، دار الكتاب العربي ، القاهرة سنة ١٩٦٩ ، وخاصة الفصل الرابع المعقود في « الاهمسا » أو طريق التنزه عن العنف ، ص ١٥٤ ٠

تقوم فلسفة وسياسة هذا الرجل جميعها على الحب المطلق الذى بدأه بمحاولة انقاذ أبناء وطنه فى جنوب أفريقيا وفى الهند . والسر فى نجاحه أنه أخذ كل شيىء فى الحياة من زواج وذنوب وجهاد وفكر بجدية ، فهو خال من المزاح أو التهكم أو الاستهتار ، وان رجلا كهذا لابد أن ينجح ·

وفى اعتقادى أن اقبال الناس عليه فى بلاده وخارجها هو فى الواقع تلبية من نفوسهم لدعوة الحب العظيمة الكامنة فى نفسه وفى وجدانه وفى ضميره ·

انه لا يريد شيئا من العالم ، فهو اذن أكبر من العالم ، يهزأ لقوة المادة لا احتقارا لها ولا استخفافا بها ، ولكن لأنها لا تنـاله ولا تؤثر فيه ولا تغلبه ولا تقهره ، فقد تحرر من جميع قيودها ، انهم يسجنونه ولكن لا يعذبونه ، وعقوبة السجن لا تغيظه لأنه متحرر روحيا فلا يجد فى السجن ضيقا لشعوره بالحرية ·

قال لى ان الفرق بين القرون الوسطى والعصر الحديث أن دولة مثل انجلترا لا تقتله رميا بالرصاص مع امكان ذلك ، وأن الانجليز لا يقدمون على ذلك بدافع من الانسانية أو العطف ــ فإنهم يقترفون فى العالم مع الأفراد والجماعات ما قد يزيد على اعدامه أو تعذيبه ــ ولكنهم موقنون بأن اعدامه سوف ينتج عنه عشرات أمثاله ، فقلت له : ربما كانت هذه الفكرة وهمية أو خاطئة لأنك لست فقط نتاج الظلم أو الضغط ، بل أنت مكون من عناصر روحية، ولكن الانجليز يتوهمون أنه ربما يكون فى بلاد الهند التى أخرجتك شخص أو أشخاص يشبهونك ، فقال لى هذا لحد ما صحيح ·

وقلت له ان بلادا تخرج مثلك هى بلاد عظيمة وهى فى الحق لا تموت ولا تضيع ، وأنه من الظواهر الخارقة أنه بعد مائتى سنة من الاستبداد والادماج وتعليم الانجليزية يظهر رجل مثلك يكون بمثابة احتجاج ضد كل هذه المظالم ، انك رد فعل للشعب الهندى ضد محاولات تغييره وابتلاعه والقضاء على شخصيته الشرقية الغنية بالعجائب ، لقد أظهر الهنود من قديم الزمان تقدما عقليا وثقافة عريقة قبل مجيىء الاسكندر المقدونى بألفى سنة كما تدل على ذلك أناشيد الفيدا وتبحرهم فى الرياضيات والفلك والفنون الرفيعة ، وظهر فى الهند فى العصر الحديث كتاب وشعراء وعلماء اشتهروا فى الغرب وصارت لهم مكانة عظيمة مثل طاغور والسير بوز الذى نبغ فى العلوم الطبيعية ٠

ثم تحدثت معه عن اتصالنا بالطلبة الهنود فى لندن ودعوتنا اياهم الى المؤتمرات المصرية الوطنية التى عقدها الحزب الوطنى أيام رئاسة محمد فريد للحزب فى جنيف سنة ١٩٠٩ وباريس سنة ١٩١٠ وبروكسل سنة ١٩١١ ، كما حدثته عن علاقتى ببعض الزعماء الهنود أثناء وجودى بفرنسا ومشاركتى فى هذه المؤتمرات أمثال هارديال وسافاركار وشاتو دايا ومدام كاما وشيامدجى كريشنا فارما صاحب جريدة الهندى الاجتماعى والذى كان معجبا بالزعيم مصطفى كامل ونشر خطبته فى جريدته عن كارثة دنشواى ٠ وقلت له ان الدكتور منصور رفعت قد شارك فى تحرير هذه الجريدة وأنك كنت على علم بذلك بدليل أنك كنت تذكر مصر دائما وترحب بكل مصرى تلقاه أو يتصل بك وأن بعض الزعماء من مصر سافروا الى الهند واجتمعوا بك ٠

فقال لى انكم فى مصر تشبهون الهند فى جهادكم ضد مبادىء الامبراطورية البريطانية وان كانت أقدام الانجليز فى بلادنا أرسخ

وتاريخهم أطول وصفحتهم أكثر سوادا ، ولذلك يجب عليكم في مصر أن تستهدوا بحركتنا كما أننا في الهند نستنير بحركتكم فان زعماءنا كثيرا ما ضربوا المثل بالاتحاد بين المسلمين والأقباط عندكم في مصر ودعوا أمتنا من هنادك ومسلمين الى مثل هذا الاتحاد في الهند ٠

فسألته عن علاقة الهنادك بالمسلمين في الهند فقال ان المسلمين اخواننا وأصلنا وأصلهم واحد ولا يوجد غزاة منهم الآن ، وزعماؤهم العاملون في مجال السياسة أصدقائي وشركائي في الجهاد مثل محمد علي وأخيه شوكت علي وعشرات غيرهما ، وكلنا نفهم خطر الانقسام بيننا ، فانه لا يستفيد به الا خصومنا وأعداؤنا ٠

ثم حدثني عن المسائل المعضلة التي يعانيها عقله وهي مسألة الملح وسياحته التي قام بها وقبضت عليه الحكومة بسببها في مايو العام الماضي ، كما تحدث عن رأيه في العنف والجرائم السياسية ، فاستنكرها وقال ليس معي سلاح ولا قوة الا العصيان المدني وعدم التعاون ومقابلة الشر بالخير وانكار العنف ولكن الى درجة وهي الا يبلغ انكار العنف حالة الجبن ، وسلاحي الثاني هو الصوم عن الكلام يوما في الأسبوع هو يوم الاثنين والصوم تكفير عن ذنوب بعض أتباعي ، والصوم اذا حصل خلاف بيني وبين السلطة ٠

ثم قال لي لقد شعرت على الدوام وصرحت بناء على هذا الشعور بأن عطية الحرية العظيمة لن تنالها أمة بالاحسان والتصدق ، اذ أن علينا أن نكتسبها قبل أن نقتنيها ، وستأتي للهند فرصة اكتسابها عند ما نثبت لذلك الشعب الذي يحكمها بحق الفتح أن أخلاقنا أسمى من أخلاقه وأن عندنا من الرجولة ما يجعلنا نكف عن معاملة المحتلين حتى يرحلوا عن بلادنا ٠

فاذا ما أغرونــا بأقمشتهم الجميلة صمدنا للاغراء دون ان نخضع ، بل نعود الى أقمشتنا التي نسجتها الأيدى الهندية فنلبسها ولا نبالى هزؤ المستهزئين ··· انى أدعى هذه الدعوى وهى أنه عندما أضاعت الهند مغزلها أضاعت معه احدى رئتيها ، فالمغزل هو الشيء الذى يجب علينا جميعا أن نلجأ اليه فى الهند ··· لقد كان غرامنا بالأقمشة الأجنبية هو الذى كسر المغزل ، ولذلك فاننى أرى انه ذنب كبير نرتكبه اذا نحن لبســـنا الملابس الأجنبيــة ··· اننى لا أرسم خطا فاصلا بين الأخلاق والاقتصاد ، فان الاقتصاد الذى يؤذى أخلاق الشخص أو الأمة يجب أن نعده من الذنوب الدينية ، فمن الذنوب التي يجب أن لا نقترفها أن نأكل القمح الأمريكى بينما نترك التاجر الذى يتجر بالقمح الهندى يموت من الكساد ، ومن الذنوب التى أكف نفسى عن اقترافها أن أشترى الأقمشة الانجليزية الجميلة ، وشعورى بهذا الذنب يجعلنى أحمل ما أملكه من الأقمشة الأجنبية وألقى به فى النار وأطهر بذلك نفسى وأرضى بهذا القماش الجافى الذى غزله ونســجه أبنــاء بلدى ··· انكم هنــا فى مصر لا تستطيعون أن تستعملوا المغزل ، ولكن يمكنــكم أن تستعملوا النول وأن تعمموه فى القرى والمدن وفى البيوت المصرية ··· ان القماش المصرى يجب أن تجعلوه أساسا للأخلاق الفاضلة فى مصر ، فتطالبوا زعماءكم وطلابكم وكافة رجالكم ونسائكم أن يلبسوا الملابس المصرية التى هى فى النهاية عنوان الكرامة والاستقلال الاقتصادى وحب أبناء الشعب بعضهم لبعض ·

أقول ان هذا الرجل صادق فى أقواله ، مخلص فى أعماله . ليس فيه رياء ، جمع من الصفات والفضائل كل ما يحير العقول ، وانى لا أعلم أن رجلا ولد فى الهند بلغ عظمة غاندى وقداسته ومجده وعلو خلقه وكرامته سوى انســان واحد اعتبره الهنود الها وهو بوذا ·

وفى الحق أن هذا الرجل رسول عظيم للسلام وللانسانية ، يفيض قلبه حبا للجنس الانسانى فى كل مكان ، ولا تعرف روحه الا المحبة والاخلاص والتضحية ، ولذلك أحبته الأمم وأحبه الأغنياء والفقراء ، وأحبه الصغار والكبار ، وأحبه عدد كثير من رجال السياسة والمال فى الممالك الأجنبية القوية ، سواء فى ذلك الذين رأوه وخاطبوه أو الذين لم يروا وجهه ولم يسمعوا صوته ٠

ان رسالته هى تحرير الهنود وتخليصهم من العبودية بمجموعة من الأسلحة الأدبية أو السلبية هى نفسها القوة المعنوية التى تنال بها الحقوق فى النهاية ، فمهما اختلفت الظروف وتنوعت الأسباب فان الهدف الأوحد والأول والآخر لغاندى هو استقلال الهند وتخليصها من الظلم والطغيان والفاقة والجهل والأمراض والذل ، وحبه ليس مقصورا على أهل جنسه وبنى ملته ، بل هو شامل للمسلمين والمنبوذين وكل من يعيش على أرض الهند (١) ٠

أهم أحداث سنة ١٩٣٢ (٢)

— قضية القنابل وما يتبعها ٠

— قضية حامد العلايلى وموت أخيه عبد الحليم ٠

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بالمهاتما غاندى ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٥٣٥ ــ ٥٤٩ ٠

(٢) اكتفى لطفى جمعة بكتابة رؤوس مواضيع تحت عنوان « أهم أحداث سنة ١٩٣٢ ، سنة ١٩٣٣ » دون أن يدون شيئا عن هذه الأحداث خلال هاتين السنتين ٠

على أنه بالنسبة لقضية القنابل والمرافعة فيها ، فقد تحدث عنها لطفى جمعة عند الكلام عن « المحاماة » ، أما قضية روزنفلد فقد سجل واقعاتها فى كناشة مستقلة ٠

من يوميات سنة ١٩٣٣

٧ فبراير سنة ١٩٣٣ :

وقوع المظالم على الفلاحين في بلادهم من حكومتهم ومن الأجانب

نشر مستر هانن سوافر فى ٧ فبراير ١٩٣٣ مقالا فى جريدة ديلى هيرالد قال فيه « يعيش الفلاحون على ما يقرب من العدم وقد اغتنى الملاك بالرى دون سواهم ، وهم يزرعون ويتعبون والملاك يجنون الثمر والبوليس يضربهم علنا ، وفى سنة واحدة لأسباب سياسية وقعت ٢٦٠٠ حادثة تعذيب وضرب ، وكلهم يعيشون فى أكواخ من الطين من عهد الفراعنة ، فماذا صنعت لهم الحضارة وماذا صنعت لهم بريطانيا ، وأن الفلاحين ضحايا الحكومات والأغنياء والمستعمرين من ٥٠٠٠ سنة » أ هـ المقال عن مصر . انظر بلاغ ١٩٣٣/٢/٧ .

٧ فبراير سنة ١٩٣٣ :

قبر عبد الرحمن الكواكبى :

وجد قبر الكواكبى فى قرافة باب الوزير فى سنة ١٩٢٦ فى حالة متهدمة ، وقيل ان الذى اكتشفه ثلاثة السيد عبد القادر

— قضية روزنفلد (تزوير عملة) وقضايا مدنية وجنائية أخرى ٠

— بلوغ معين سن سنة واحدة ٠

— المرافعة فى قضية القنابل فى ١٥ أغسطس وسفرى الى دمياط قبل ذلك فى مولد النبى ٠

— الحياة العائلية وحركة الصيف بين مصر وبورسعيد ٠

— ختام السنة والأولاد فى المدارس ٠

— وفاة شوقى الشاعر الشهير ٠

أهم أحداث سنة ١٩٣٣

— اتمام الدور الثانى من المنزل بمنشية البكرى ٠

— عدم السفر الى بورسعيد للاصطياف بسبب عدم الاهتداء الى منزل ٠

— رواية عايدة وكيفية تأليفها ووحيها (١) ٠

— البهائية ورغبتى فى تفنيدها ٠

— الاحتفال باحياء ذكرى شوقى بدار الأوبرا (ديسمبر سنة ١٩٣٣) (٢) ٠

---

(١) نشرت رواية « عايدة » فى حلقات مسلسلة بجريدة البلاغ خلال المدة من سنة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٤ ٠

(٢) شارك لطفى جمعة فى هذا الاحتفال بمحاضرة قيمة عنوانها « اثر الشعر الأوربى فى نظر شوقى » وقد نشرت فى كتاب لطفى جمعة « فى الأدب والنقد » : عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م ٠

وللوقوف على مزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بأمير الشعراء ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦ ـ ٢٦١ ٠

الدباغ وكان يلازم الفقيد فى حياته وحضر وفاته ودفنه ومنصور فهمى ومحمد على الطاهر وتكليفهم بالبحث كان بواسـطة جمعية الربطة الشرقية ومكتوب عليه بيتان من شعر حافظ ابراهيم :

قفوا واقرأوا أم الكتاب وسـلموا

عليـه فهذا القبر قبر الكواكبى

ثم عبارة « هذا قبر المرحوم العلامة الكبير السيد عبد الرحمن أفندى الكواكبى الحلبى المتوفى فى ٦ ربيع أول سنة ١٣٢٠ هـ » · ولم يعمل فى مصلحة القبر أى شيىء (انظر البلاغ فى٧/٢/١٩٣٣)·

من يوميات سنة ١٩٣٤

بورسعيد الخميس ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٤ ٠

نهضت فى الساعة الخامسة صباحا وكان الأولاد قد أعدوا كل شيىء للسفر ٠ قطعنا الطريق بسلام بعد أن ودعنا بورسعيد

وصلنا مصر بالمنزل الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ٠

الجمعة ٣١ أغسطس

صليت الجمعة بجامع بسوق الكانتو ونزلت عصرا لفسحة قصيرة بمصر الجديدة وأرسلت خطابات لبورسعيد لشكر الذين خدمونا وخصوصا أحمد مرجان ومحمد المغربى ومحمود الهندى والدكتور عباس الديدى (١) ومحمد العايدى وأبوه عبد الفتاح وحامد الجزار ٠٠٠ الخ ٠

السبت أول سبتمبر سنة ١٩٣٤

ـــ على بركة الله أول موسم العمل ٠

ـــ اتصل بى تليفونيا محرم أحمد (٢) الذى كنت عرفته معرفة بسيطة قبل السفر ولا أعرف عن أصله وفصله شيئا ، كما

(١) دكتور عباس محمد الديدى كان مديرا لحدائق الحيوان بالجيزة ٠ وهو من عائلة الديدى من اكرم عائلات السويس ، ومن هذه العائلة الدكتور عبد الفتاح الديدى ٠

(٢) عن محرم أحمد ، انظر كتاب لطفى جمعة « قطرة من مداد » ٠ المرجع السابق ، ص ٥٧ ــ ٦٢ ٠

اتصـل تليفونيـا صـلاح الدين الشيشينى وحفيد محمود الشيشينى بك ، المذكوران يعملان فى راديو وادى الملـوك وقد زرت الاستوديو مرتين أو ثلاثا ٠

الأحـــد ٢ سبتمبر

زارنى جعفر أفندى منصور جارنا وقريب اسماعيل صدقى باشا وقال لى ان دينه وايمانه هو الماسونية ولا يوجد شيىء سواها ويظهر لى أن دينه تضـاءل بجانب عقيدته المنحصرة فى الماسونية لظهورها أمامه بمظهر مادى ٠ غفر الله له ٠

الثـــلاثاء ٤ سبتمبر

— اشتريت بعض الكتب ووصل الى خطابان أحدهما من عباس الديدى والآخر من محمود شبانة ٠

— قابلت محمد على الطاهر وقال ان الثعالبى أرسـل الى معـه سلاما مرتين ٠

— فـكرت فى البحث عن مدرسـة لرابح المولود فى سبتمبر سنة ١٩٢٨ ولعلها تكون مدرسة فى مصر الجديدة ٠

الأربعـــاء ٥ سبتمبر

— اسـتعرت كتبا من دار الكتب خاصـة بأشهر القضـايا فى التـاريخ ٠

— وأرسلت خطابا الى البلاغ طيه شكوى أولاد أخ حافظ ابراهيم الشاعر (١) وهـم يموتون جوعا لأن بعض أقاربه الأغنيـاء وضعوا يدهم على تركتـه ·

الخميس ٦ سبتمبر

اشتغلت فى الصـباح بكتابة ثلاث مقـالات فى الصوفيـة والصـــلاة ·

الجمعـــة ٧ سبتمبر

اشتغلت طول اليوم بانجاز رسالة « أشهر القضايا » (٢) ·

الســبت ٨ سبتمبر

— ذهبت الى دار الكتب واستعرت ثلاثة كتب خاصة بالتاريخ الجنائى لأجل كتابى الجديد « أشهر القضايا وأبلغ المرافعات فى الشرق والغرب » واطلعت فى بعض الجرائـد القديمة على ثلاث قضايا جنائية حدثت فى سنة ١٨٩٠ (جنايتا قتل وقضية اغتيال تركة الخانذار) ·

— فى الساعة الثامنة مساء تركت المكتب وقصدت الحسين وقابلت عبد العزيز الاسطامبولى صاحب مجلة المعرفة فدعانى لزيارة

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعـة بشـاعر النيل حافظ ابراهيم ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق . ص ٢٦٢ — ٢٧٣ ·

(٢) « سجل أشهر القضايا » رسالة أصدرها لطفى جمعة سنة ١٩٣٤ وكانت تتضمن أشهر القضايا الجنائية والسياسية والعاطفية كقضية دريفوس الشهيرة وغير ذلك من الأبحاث القانونـية ·

منزل جلال سليم ابن عم فؤاد بك سليم بشـــارع سوق السـلاح فوجدنا مدخلا شرقيا جميلا وحديقة والتقيت بالشيخ أسعد خليل المدنى وقد وجدته يبكى خشية للقرآن ويكثر من الصلاة على النبى وعنده حالات وروى لى تاريخ سلوكه ، وهو شاب ظريف يلتف حوله الباشاوت والوزراء والعظماء ... الخ وطريقته نقشبندية .

الأحـــد ٩ سبتمبر

فى الســاعة الخامسة ذهبت الى المكتب حيث زارتنى سيدة متقدمة فى السن أهدت الى نسخة من ديوان الألحان الضائعة نظم حسن كامل الصيرفى وقالت انها حماة الشاعر الذى تزوج ابنتها بواسطة أحمد زكى أبو شادى وطلبت منى تقريظ هذا الديوان .

الأربعـــاء ١٢ سبتمبر

- قابلنى محمد على الطاهر وخير الدين زركلى وتكلما مليـا عن أحمد زكى باشا وتحدثنا عن سيرة الثعالبى ومنعه من السفر الى تونس . وذكر لى الزريكلى كتابين مهمين ، مفتاح السنة ورجال السبعمائة (أى القرن السابع الهجرى) وتكلم أحدهما وقال انه رأى حقى بك العظم فى صحة وهيئة مدهشـة وكأنه عاد بالحياة أدراجها من الصحة والقوة .

- كتبت مقالة فى التصوف .

الخميس ١٣ سبتمبر

- قابلت الدكتور على العنانى فوجدته في حال يأس وصحة سيئة وهو فى صمت عميق غير مفهوم وقد نفض يديه من الماسونية

أو كاد ٠ ويظن أنه ينقل مكتبته الى مكان ثابت لأن الاتحاد العربى العام يدخل فى النزاع بفضل همة محمد رفعت ودجله ٠

ـ وبعد الظهر ذهبت الى « الماسون » لحضور حفلة رثاء أحمد عمر فرأيت ترتيبا مسرحيا ، نعش وجمجمة وورد ومباخر ! ، وكان رجال الوفد قد وعدوا بالحضور فلم يحضر أحد ، وقام محمد رفعت وبعض القدماء بمراسيم الجناز الماسونى بحالة مرتبكة مضطربة وأدخلوا آيات قرآنية فى النصوص الماسونية مما أظهر التناقض ، وألقيت فى الحفل كلمة تأبين ثم تلانى العنانى فواحد آخر ثم ابن الفقيد ٠

ـ وفى الساعة التاسعة والنصف مساء قصدت سوق السلاح لزيارة الشيخ أسعد خليل المدنى فأهدانى لوحة مكتوب عليها « رأس الحكمة مخافة الله » وأهديته كتابى « تاريخ فلاسفة الاسلام » ٠

والشيخ أسعد عندما رأيته شاب فى العقد الثالث أسمر اللون حجازى اللهجة يبتسم أحيانا وأحيانا يتطور ويحلق لحيته ومعظم شاربه وله لمة شعر سوداء ويلبس ثيابا من الكتان بسيطة وطاقية من الصوف ٠

وهو اذا اعترته الحال أغمض العين وبيدأ ينشد أشعارا أو أقوالا مسجعة يرتجلها ويستند فيها الى أية كلمة تقال أمامه أو شيىء له مناسبة كقوله « هات القهوة ، القهوة دى شهوة ، وأنا جات لى شهوة ، جات الدنيا لهوة » ، « هذا الكون من سلطانك ، ما أعظم شأنك ، كل الأمور حسبانك ، وهذا الفعل شيطانك » ٠

واذا اعترته الحال يحدث له شبه تشنج فى أعضائه ويكفهر وجهه ويحرق الارم أحيانا ويسمع لها صرير شديد ٠ وللشيخ خلوة

بأسفل الدار ، وقد أفضى الى بأشياء كثيرة من حياته الماضية كرحلته الى تونس والى باريس وزواجه من « روزة العرافة » وسفره الى اصطامبول والشام .. الخ ومجلسه لا بأس به وطريقته نقشبندية ، ويتكلم ببساطة قلب .

- أعددت مقالات للبلاغ .

الأحد ١٦ سبتمبر

- فى الساعة الخامسة صباحا خرجت من الدار وقصدت ضفاف النيل حيث شهدت فيضان النيل العجيب من عند روض الفرج ، فهو صحيفة واسعة من الماء المحمر الجميل ، هادىء فى أماكن وفوار فى أماكن أخرى ، وقد صارت القرى والجزائر التى دنا منها وضمها الى صدره كأنها صور فى لوحات ، ألوانها زاهية وكذلك النخيل والحقول والسفائن التى تمخره كأنها لعب صغيرة يلهو بها هذا الجبار الكبير . وفى الساعة الثامنة ركبت رفاصا Launch الى القناطر الخيرية وكان المنظر بهيجا ونحن نسير ازاء الضفتين مندفعين بقوة التيار ووصلنا الساعة العاشرة فارتميت على الحشائش الخضراء تحت ظل الأشجار حتى الساعة الرابعة ، وتحرك الرفاص الساعة الخامسة بعد الظهر وقرأت فى الطريق بعض قصص ادجار ألن بو ، وخطر فى بالى مشروع كتاب « دليل السالكين » للشباب المثقفين فى التصوف الحديث ووضعت المشروع وكتبته .

- وصل الى خطاب من عبد العزيز الاسلامبولى يطلب فيه كتاب تاريخ فلاسفة الاسلام والشهاب الراصد .

الاثنين ١٧ سبتمبر

وصلنى خطاب بالبريد من عبد العزيز الثعالبى يشكو حاله ويطلب منى مقالة عن الجزائر ولكن المعلومات تعوزنى ، وفى الخطاب نفسه كلمة من محمد اسعاف النشاشيبى يدعونى لزيارة المقدس ٠

الخميس ٢٠ سبتمبر

حضرت جلسة قضية عبد القادر حمزة والآن مضى على هذه القضية سنة ونصف وحضرته دفع لى خمسة جنيهات مقدم أتعاب ومبلغ التعويض الذى يطلبه ألف جنيه ، وهذا الاستغلال يرتكن فيه هذا الرجل الطيب الى أننى أبعث اليه بمقالات أسبوعية ولعله ينتظر أن أخدمه مجانا وكان هذا والله أولى ٠ لقد حضرت حتى الآن أكثر من عشرين جلسة وقدمت مذكرة مطبوعة ، وهكذا الصداقة والا فلا ٠ فاذا ضممناه الى محمد مسعود الذى يريد اغتيال حقى فى قضية البرنس يوسف كمال حيث ربح ألف جنيه ــ كان هذا أجمل مظهر لرجال الأدب فى مصر ومعاملتهم لأصدقائهم الذين ينفعونهم ، وبعد فراق ثلاثة أشهر بينى وبين عبد القادر حمزة لم يقل لى كلمة طيبة ولا تحية تدل على شوق ونظريته هى أنه لو قال لى الحمد لله على السلامة مقالتك حسنة لكان ذلك سببا فى طمعى فى تقديره أو اعتقادى برضاه ٠ فتأمل !

الجمعة ٢١ سبتمبر

صليت الجمعة بجامع الكخيا **ورأيت أحمد حسين صاحب « مصر الفتاة »** يخطب ويقول « الله أكبر الله أكبر ! أيها المسلمون ، كنا نحن المسلمين أعزاء وفتحنا العالم والآن نحن أذلاء يحكمنا

الأجانب » فلم يكترث له جمهور المصلين وقبض عليه البوليس خارج المسجد وتوجه به الى قسم عابدين ثم أفرجوا عنه ·

الأحـــد ٢٣ سبتمبر

ذهبت الى المكتب وحضر مظلوم الزجال وصديق مصطفى الصباحى وهو رجل صعيدى طيب القلب وأخبرنى أنه يريد أن يلقى أزجالا بمحطة الاذاعة الحكومية وطلب منى الوساطة فى ذلك ·

الثـــلاثاء ٢٥ سبتمبر

قرأت فى التصـــوف كتاب « الانســـان الكامل » للجيـــلى وماسينيون فى الحلاج ، ودهشت من قول الجيلى ان افلاطون قطب زمانـه !

الأربعـــاء ٢٦ سبتمبر

ـ فى الصباح أخذت معى عوايد المنزل وقصدت محل العوايد المذكور وعلمت أن منزلنا المبارك أخذ نمرة ٤ شارع حسن بك فايق الذى بنى بعدى بخمس سنين ولكنه نسيب محمود شكرى باشـا فسررت بهذا (١) !! ·

ـ عدت الى البلد وقصدى أن أشتغل فى جو هادىء فى عمل أبحاثى عن اللغات السامية ، وزرت للمرة الأولى رابطة الأدب العربى وهى غرفة واحدة وفى وسط صحراء من البلاط والفراغ فى أعلا دور بعمارة تيرينيج وهى المؤسسة التى تحارب عليها أحمد زكى

(١) اصبح اسم الشارع بعد ذلك « شارع الاسيوطى » ·

أبو شادى وكامل كيلانى وآلت الآن الى الشـيخ عبد الله عفيفى (ع · ع · بالبلاغ) لذى لم أره الا مرة واحدة فى محطة راديو وادى الملوك ونزلت من هناك قبيل الغروب ·

الأحـــد ٣٠ سبتمبر

فى الساعة الخامسة بعد الظهر قابلت الثعالبى صـدفة فى الأزهر واشتريت كتاب « الكهف والرقيم » ·

الاثنين أول أكتوبر سنة ١٩٣٤

زرت البلاغ وتحدثت مع محمد مسعود بالتيلفون وطالبته بأتعابى فاعتذر واستمهلنى لثلاثة أو أربعة أيام لمرض ابنه الصغير زكريا ، فذكرته بالحـق والصـدق وكان يجاوبنى مجاوبة أهـل المظالم (١) ·

٢ أكتـــوبر

راجعت فصلا من السيرة النبوية التى كتبتها باسم « بطـل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله » · وقصدت لزيارة الشيخ خليل أسعد المدنى فى سوق السلاح فقابلنى جلال سليم بك أخ فؤاد سليم وأعلمنى أنه « عزل » الى دار وراء قصر عابدين فتركته وذهبت الى الدار الجديدة للشـيخ خليل وسـلمت عليه وتركته وانصرفت ·

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بمحمد مسـعود ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤ — ٢٩٠ ·

الأربعـــاء ٣ أكتـــوبر

ـ فى الصباح لقيت عبد القهار مذكر (الملايو) فقـال انه انشـق على جمعيتـهم الخيرية (الجمعية الخيرية الاسـلامية) وأنه سيسافر الى بلده لوفاة أمه ٠

ـ وفى الساعة الرابعة نزلت لمقابلة فؤاد سليم بك (١) لموعد سابق فعلمت انه ذهب لجنازة أخت مصطفى كامل باشا رحمه الله فلم أدركه ٠

ـ وبعد ذلك زرنا الشـيخ محمد أمين البغدادى الكردى النقشـبندى فوجدنا عنده أعيانا وبينهم الشـيخ الظواهرى شيخ الجامع الأزهر وقد أثبت كلامهم ومجلسهم فى غير هذه المذكرات ٠

الجمعـــة ٥ أكتـــوبر

ـ أداء صلاة الجمعة بمصر الجديدة ٠

ـ مقابلة على العنانى عصرا بقهوة « والزيز » بمصر الجديدة وقراءتى له نبذا من كتاب السيرة النبوية تأليفى وهى القسم الخاص بالأجناس الشامية والآرية ٠

(١) فؤاد سليم هو زميل وصديق مصطفى كامل بمدرسة الحقوق ووالده سليم باشا الحجازى أحد قادة الجيش المصرى فى عهد محمد على ، وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا ضد وزارة نوبار باشا فى فبراير سنة ١٨٧٩ فى عهد الخديو اسماعيل (عبد الرحمن الرافعى ، كتاب « مصطفى كامل » ، ط ٣ ، القاهرة سنة ١٩٥٠ ، ص ٢٦ وما بعدها) ٠

السـبت ٦ أكتـوبر

ذهبت عصرا لزيارة الثعالبى لأعطيه خطابا ورد الى بعنوانى ، ثم ذهبنا الى زيارة الدكتور طه حسين بمنزله بالزمالك وافترقنا فى العاشرة ٠

الاثنين ٨ أكتوبر

تغدينا اليوم فى منزل النسيخ على شقرون بشارع حمام الجمعة ببولاق وكان معنا محمد على الطاهر والزنكلونى والرصاع والثعالبى ٠

الأربعاء ١٠ أكتوبر

وسطت الدكتور أحمد ضيف (١) فى مسألة محمد مسعود وأتعابى المستحقة طرفه فأظهر مسعود نفورا من الدفع ولفق أحاديث وقصصا سداها ولحمتها وغايتها هضم حقوقى ٠

الخميس ١١ أكتوبر

تخاطبت مع محمد مسعود بالتليفون وقلت له : كيف تريد أن أفقد الأتعاب وأفقد صداقتك وكيف تمتنع فجأة من زيارتى ؟ ٠ فقال : هو أنا كنت صديق حضرتك ؟

وأظن هذا الرجل يضحى بكل شيء فى سبيل المال ٠ وان شاء الله أفوض أمرى فى هذا الرجل ٠

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بالدكتور أحمد ضيف ، راجع كتب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٦ ٠

الجمعـــة ١٢ أكتـــوبر

قضيت معظم هذا اليوم من الصباح مع علي العناني وتكلمنا في كل شيء من قديم وحديث وقال لي : ان الدكتور أحمد ضيف لم يقصر في مأموريته مع محمد مسعود واستحسن أن ينصحني بأن أستعوض الله خيرا في أتعابي التي تقدر بمائة جنيه . ولكنه لاحظ أن مسعودا لابد أن ضميره يؤنبه وأنه شاعر بمسئوليته نحوي . هل رأى الناس مثل هذا الجحود ؟

الأحـــد ١٤ أكتـــوبر

ـ زيارتي ليلا للشيخ أسعد خليل وايحاء فكرة تدوين سلسلة كبرى الديني من الصغر الى الآن كجزء من مقدمة كتابي عن النبي .

ـ نشرت خطاباتي للشيخ محمد عبده في تاريخ الشيخ تاليف الشيخ رشيد رضا بالجزء الأول ، ص ٧٩٢ ـ ٧٩٦ .

الثـــلاثاء ١٦ أكتـــوبر

قابلت الثعالبي بسيدنا الحسين وقابلت علي العناني وأحمد ضيف وخليل مطران (١) بمصر الجديدة .

الخميس ١٨ أكتـــوبر

ـ موعد حفلة تأبين زكي باشا شيخ العروبة عند العمروسي .

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفي جمعة بخليل مطران ، راجع كتاب « محمد لطفي جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٤٢٣ ـ ٤٣٢ .

ـ مقابلة الثعالبى لتاجر منزل له ·

ـ زيارتى ليلا للشيخ محمد خليل الشاذلى ·

الجمعـــة ١٩ أكتـــوبر

صلاة الجمعة ومقابلة الثعالبى والحديث معه فى تاريخ النبى والكتابة فى تاريخ مكة للانتهاء من هذا القسم الأول ·

الخميس ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٤

ـ استأجرنا بيتا للأستاذ الثعالبى نمرة ١٠٦ شارع شبرا ودفعنا أجرة شهر والعقد لمدة ثلاثة شهور واستلام البيت باكر ·

ـ ذهبت والثعالبى ومحمود الرصاع والفتيانى الى الشيخ محمد خليل الشاذلى فى مصر عتيقة وقال انه ألف كتابا فى الزواحف (الثعابين والعقارب) وأنه قادر على ترويضها وهى تعيش فى غرفة خاصة ببيته وأنه يشفى المرضى بسر الاسم الأعظم « الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم » ، وأرانا الشيخ مئات الخطابات المغلقة التى لم تقرأ الى الآن وجملة دوسيهات لطلاب الحاجات ، وقال للثعالبى انه صبور ويحمل فى جسمه بلوى وتركناه الساعة الواحدة وبعد الخروج من عنده قال الثعالبى « هذا أدجل ما رأته عينى » ·

الجمعـــة ٢٦ أكتـــوبر

زرت الثعالبى وصلينا الجمعة بجامع الخازندارة وأكلنا ظهرا وتحدثنا فى تاريخ النبى ومكة وعبادة العرب قبل الاسلام ·

الخميس أول نوفمبر سنة ١٩٣٤

ـ قضيت اليوم فى كتابة تاريخ مكة ٠

ـ سهرت عند الثعالبى وحضر عثمان عصمان من تونس وهو تلميذ ماسينيون وطالت السهرة الى الساعة الثانية بعد نصف الليل واقترح الثعالبى أن أقضى الليلة عنده ففعلت وقرأت قبل أن أنام الى ساعة متأخرة ٠

الجمعة ٢ نوفمبر

نهضت من النوم مبكرا بعد أن قضيت الليلة بمنزل الثعالبى وحضر محمود الرضاع ٠ وصلينا الجمعة فى جامع الخازندارة ٠

الأحـد ٤ نوفمبر

أجبت دعوة الشيخ ماضى أبو العزائم فى صيوان كبير وسمعته يخطب خطبة في الاسراء وينقلها للجمهور ابنه الشيخ محمد (١) ٠

الثلاثاء ٦ نوفمبر

ـ زرت الشيخ أبو العزائم فتكلمنا طويلا وتكلم هو فى عالم التشبيه والتنزيه وعالم المثال والخيال وسجود الملائكة لآدم للمعرفة وأسرار التصديق والانفراد والوحدة ، وفسر سورة « قل هو الله

(١) للوقوف على مزيد من التفاصيل عن علاقة لطفى جمعة بالشيخ محمد ماضى أبو العزايم ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٣٠١ ـ ٣١١ ٠

أحـد » واحتراق الملائـكة الكروبين (١) Cherubin وقال انهم مملؤون بالكرب (كذا ؟ !) ، ثم كلمته بشأن مريده محمد عبد ربه وقال إنه تلميذ ضال ٠

ـ قابلت النائب العمومى لبيب عطية بك فقابلنى أحسن مقابلة فله الشكر ٠

الأربعـــاء ٧ نوفمبر

أهم حادث اليوم هو ما وقع بينى وبين عبد العزيز الثعالبى ، فان هذا الرجل انفلت عياره المعنوى ، فقد قلت له يجب عليك أن تستثمر مواهبك العالية وأنه بدلا من قضاء مدة فى الكلام مع الشبان الذين يزورون هذا المكـــان يحســـن أن يدربوا على التســـويد والتبييض ، فذهب ذهنه الى أنى أتهمه بأمور شاذة ، وأرغى وأزبد ، فدهشت ٠ ويلاحظ أننى ذهبت الى بيته الساعة الرابعة وقرأت له مسودات كتابى « بطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله » وقضيت معه أكثر من ثمانى ساعات وأكلنا معا خبزا وجبنا وفاكهة ٠ وقد حضر هذا الحادث محمود الرصاع ابن وطنه ٠

---

(١) الكروبين أو الكروبيم فى التوراة مخلوقات ليس لها وظيفة الملائكة من حمل رسالة الله ، ولكن لدا ست وظائف ذكرها العهد القديم وجميعها تندرج تحت وظيفتين أساسيتين : الأولى الحراسة (حراسة تابوت العهد وحراسة الهيكل وحراسة شجرة الحياة) ، والثانية حمل عرش الله سبحانه وتعالى ٠ ويقول الزمخشرى فى كتابه « الفائق » ان الكروبين هم سادة الملائكة ، جبرائيل وميكاييل واسرافيل ، وهم المقربون من كرب أى قرب ، وقيل ان الاسم مشتق من الكرب وهو الحزن لشدة خوفهم من الله وخشيتهم اياه ولكن هذا خطأ ٠

الخميس ٨ نوفمبر

ـ فى الصباح تنقيح المقالات الأولى من كتاب « أشهر القضايا العالمية » .

ـ طلب الشيخ سيد عبد السلام مقابلتى فقابلته ومعه صادق عنبر .

الجمعـــة ٩ نوفمبر

نشرت الأهرام اليوم مقالتى « مصر فى مفترق الطرق » .

الســبت ١٠ نوفمبر

ـ قابلت الصاوى محمد وكلمنى عن التعاون معه فى مجلة سيصدرها قريبا ويعاونه فيها توفيق الحكيم (١) .

ـ ذهبت الى محطة الاذاعة وقابلت أحمد سالم (الطيار) وفهمت أن سعيد لطفى بك أخ أحمد لطفى السيد أصبح لا شأن له بالاذاعة وأنه مستشار شرفى وطلب منى محمد أفندى فتحى المذيع فى محطة اذاعة الحكومة مراجع فى علم الفولكلور .

الأحـــد ١١ نوفمبر

ـ ذهبت للشيخ محمد أبو العزايم فتكلم فى التصوف وعرض على الاشراف على مجلته « المدينة المنورة » .

---

(١) هى مجلة « مجلتى » التى صدر العدد الاول منها فى أول ديسمبر سنة ١٩٣٤ وجاء فى افتتاحيته أن « رسالة مجلتى هى اللحاق بالادب الغربى الذى حلق بالطيارة ، بينما أدبنا يسير كالسلحفاة ، وأكبر عماد للادب الغربى هو القصة .. لذلك ستكون القصص عماد « مجلتى » .. بين كلاسيكية قديمة وعصرية مستحدثة من كل اللغات الحية ومن صميم الحياة المصرية ... وستعنى عناية خاصة بمشاكلنا الاجتماعية وشئوننا النسائية وحركتنا الأدبية والفنية والرياضية ... » .

ـ قابلني محمود الوصاع واعتذر لى عن الثعالبى وقال لى انه ندم كثيرا وقضى ليلته لا ينام وليلة أخرى وقال كان يجب على أن أتأكد من نية الأستاذ لطفى قبل أن أواجهه بالعداء · فلم يهمنى هذا القول ·

الاثنين ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤

ـ هذا آخر ما كتبته فى هذه المفكرة اليومية ·

ـ من أغرب المصادفات أننى لم أعثر على هذه المفكرة الا اليوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٢ ، أى بعد ثمانى سنوات كاملة · وفى نفس الوقت الذى وقفت فيه كتابتى فيها من سنة ١٩٣٤ أعدت قراءتها وقراءة ما خططته سنة ١٩٤٢ ، وأعجب ما وجدت أن الناس لم يتغيروا نحو الخير بل الناحية الأخرى وأننى باق على حالتى المعاشـــية والأخلاقية أشكو ما كنت أشكوه ، وانه لحكمة أننى اكتفيت بهذا القدر فى الماضى ليكون نموذجا لكل الحاضر كأن الحوادث تتكرر ، بيد أن كثيرين ابتعدوا بانتقالهم أو بالموت كعبد القادر حمزة · غير أن الأولاد كبروا وأزمة الحرب العالمية مستحكمة · وسأعيد الكرة بقراءة ما كتبته فى ٧٢ يوما كاملة من سنة ١٩٣٤ فانه نموذج لحياتى العملية والعائلية والعاطفية فى مدينة القاهرة بعد عودتى اليها من أوربا بعشرين عاما فتأمل !

محمد لطفى جمعه

١٩٤٢/٩/١٢

سنة ١٩٣٥

فبراير سنة ١٩٣٥

قال لى أحد الأشخاص انه سمع من رجل أمريكى يشغل منصبا علميا أن الانجليز قالوا انهم مستعدون أن يعقدوا اتفاقا مع الحزب الذى يتفق معهم على معاهدة على أن يضمنوا له الحكم الدائم فى مصر مع حمايته وترك حريته مطلقة فى حكم البلاد · وقال لى هذا الشخص ان هذا يكون من أعجب الأمور (١) ·

---

(١) هذا فقط ما سجله لطفى جمعة فى يومياته عن سنة ١٩٣٥ ·

سنة ١٩٣٦

من يوميات سنة ١٩٣٦

١١ ديسمبر سنة ١٩٣٦

لم أتأثر مثل ما سمعت اليوم الساعة الثامنة عشرة خطبة الوداع التى ألقاها ادوار الثامن فى وداع وطنه وتهنئة أخيه والتوصية به ورغبته في خدمة وطنه وتمسكه بحبه ورغبته فى انشاء بيت سعيد وحياة هادئة ، وأنه سيترك بلاده لبعض الوقت some time ولكنه مستعد لخدمة البلاد ، وكان صوته متهدجا ومتأثرا ٠

١٤ ديسمبر

ــ زيارتى للشيخ اسماعيل الباز أخيرا فى عيد الفطر بالسويس وترجمة حياته ووصفه وأحاديثه الصوفية ٠

ــ كتابة موضوعات لمجلات أبو شادى (١) عن الشعراء المتصوفين كابن الفارض وابن عربى ورابعة العدوية وغيرهم ومذكرات وذكريات عن المدرسة الخديوية بالمقطم واللطائف ٠

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن علاقة لطفى جمعة بالشاعر احمد زكى ابو شادى ، راجع كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الاعلام » ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣ ــ ٤٢٢ ٠ وراجع أيضا رسائل أبو شادى الى لطفى جمعة فى كتاب « حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصر الى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن (١٩٠٤ ــ ١٩٥٣) ، ص ٣٢٨ ــ ٣٥٧ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م ٠

١٩ ديســـــمبر

اقترحت الحكومة البولندية اسكان الزائدين لديها من اليهود فى جزيرة مدغشقر الفرنسية · والمفهوم أن حكومة فرنسا أجابت أن حالة الجو وغيره فى تلك الجزيرة لا تسمح بقبول أكثر من عدة مئات من الأوربيين وقد أعلنت فرنسا رضاها بادخال هذا العدد المحدود الى مدغشقر بشرط ألا يكون كلهم يهودا بل من ملل مختلفة ، وينتظر أن ترى بولندا فى ذلك فشل مشروعها ·

٢٠ ديســـــمبر سنة ١٩٣٦

تسير المقاطعة العربية فى فلســـطين بشكل صامت تغذيه الكراهية فلا يدخل عربى متجرا يهوديا وقد حرم اليهود على فقرائهم شراء اللبن من فلاحى العرب ونقلوا متاجرهم فى القدس الى أحيائهم الخاصـــة ، ومحا العرب الكلمات العبرية التى كانت مكتوبة على اللوحات المعلقة على متاجرهم ·

سنة ١٩٣٧

من يوميات سنة ١٩٣٧

ليست العبرة في تدوين المذكرات بالوقائع التى يصفها الكاتب أو بالأشخاص الذين يصفهم أو بالأحاديث التى تنطوى عليها ، ولكن العبرة في كل ذلك بأسلوب المذكرات وفهم الكاتب لما يريد أن يكتب والمغزى الذى يستطيع استنباطه ، فأولا وضوح الذهن وجعل الأسلوب منطبقا على الأفكار المفزعة فى قالبه ، وصدق الوصف ونقل صورة صادقة من جو الحوادث والشخصيات .

انظر الى مذكرات تاسيت عن عهد تبريوس ونيرون والى مذكرات أحمد شفيق باشا فى نصف قرن ، فانه بينما ترى كتاب تاسيت كأنه كائن حى ينطق ويلعب في يدك ، ترى مذكرات شفيق كالجسد الميت الأصم الأبكم بسرد حوادث وألفاظ مرصوصة وألقاب ورتب ونفوذ بدون ثمرة أو نتيجة .

السبت ٢ يناير سنة ١٩٣٧

مساء قابلت اسكندر مكاريوس فتكلم معى فى أمور كثيرة فقال انه يتقن منافقة الحكومة الوفدية ، فهو ينتقد مسألة انزال الطيارين ولكنه يحمد الحكومة فى جريدته ، ثم قال انه كان يفضل التخلص من مسز سمبسون على طريقة السلطان عبد الحميد ويعطوا عشرة

آلاف جنيه لأرمنى يهودى أو رومى (كذا) ليسقيها فنجان الشاى ممزوج بالسم ، فدهشت من كلامه ، فقال : هكذا يجب أن تكون الحياة السياسية ! ولم أكن أظن أن هذا الشخص الذى يتظاهر بالوداعة والشفقة أن يكون مبيحا للقتل لأى سبب ، وقال انهم يقتلون الملايين فى الحرب فلا بأس من قتل امرأة واحدة لانقاذ الامبراطورية البريطانية (؟!) .

١٠ ينـــاير

ـ قابلت نقولا حداد بقهوة بول نور ولخصت له مسألة روايتى « يقظة الضمير » وأن خليل مطران تواطأ مع ادمون تويما على اغتيالها وصنعوا فيها سيناريو أعطوه لأم كلثوم وشركة فيلم الشرق باسم « نشيد الأمل » ، فدافع عن خليل مطران ، ولما توجهنا للأوبرا قابلنا تويما وقدم لنا « بروجرام » الفيلم الذى سيعرض غدا (!!) بسينما رويال ، ثم قال لنا فجأة « أنا أخذت القصة من أصــل فرنسوى ولكن بتوع الفيلم غيروه » . فقال لى نقولا حداد ان هذا الكلام منه أمامى بدون مناسبة دليل على وجود شىء فى ضميره يحتاج لتبرير موقفه أمامك ، وقرأ معى الملخص ووافقنى على قولى وأشار على بمقابلة خليل مطران ومفاتحته فى المسألة وقال انهم يستحقون رفع قضية عليهم .

ـ قابلت الدكتور على العنانى وحسين شفيق مجتمعين ، فقال حسين شفيق انه سمع من تويما أنه أخذ قصة السناريو « نشيد الأمل » عن أصل فرنسوى ولكنه لم يقل عن المؤلف . وقال عنانى ان مطران قال له ان رواية لطفى بك قبلت وأنها ستمثل ولكنه تعجل فطلبها . وبحثت معهما المسألة ، فقال حسين شفيق أنا مقتنع بكلامك وأنك أحدثت لى حسرة ما بعدها حسرة وهذه خيبة أمل لا مثيل لها وفى من يثق ومن نأتمن بعد ذلك ؟ .

وقال العنانى انه يجد مبررا لمطران لو أنه أثبت أن تويما سرق القصة بدون علمه ، فرد عليه حسين قائلا : كان مطران رئيس لجنة بنك مصر واطلع على سيناريو لطفى وهو مدير الفرقة وقرأ الرواية ووسط وسيطا بين أم كلثوم وتويما وقدم لها الفيلم بأنه جيد وفوق الجيد فهو اذن يعلم ولو لم يكن هو الذى توسط فعلى الأقل قرأ فى كل الجرائد ملخصه وموضوعه ، ولابد أنه يكون شهده فماذا عمل بعد الخطاب الذى أرسلته اليه فى أربع صفحات ؟

ورأى العنانى وحسين شفيق هو رفع دعوى على الشركة وعلى الرجلين (مطران وتويما) ومسئولية خليل أنه مكن تريما من سرقة الرواية . **أما نظرية توارد الخواطر فهى مرفوضة لأنها تصح فى حالة عدم وجود الأصل** . وأهم ما يراه شفيق الزام تويما بابراز الأصل الفرنسى .

١١ يناير سنة ١٩٣٧

قال الشيخ البغدادى بحضور المفتى عبد المجيد سليم انه وهو طفل كان يرى الأولياء المدفونين على صورة أحياء جالسين ، فرأى أبا حنيفة ومعروف الكرخى ... الخ وكلهم على هذا الوضع . ثم قال : يرى الله سبحانه وتعالى رؤية قلبية يقينية . فقال الشيخ عبد المجيد سليم ان أبا حنيفة قال انه رأى الله أربعين مرة ، وأن الشيخ محمد عبده روى له (أى لعبد المجيد هذا ؟ !!) أنه رأى شيخه حسن رضوان وساعده فى حل مسألة عويصة فى الغيط ! ورأى النبى مرة وقال يرى النبى يقظة . وقال عبد المجيد سليم رؤية الله فى المنام . فقال الشيخ البغدادى هذا ضعيف بل فى اليقظة . ثم رجا الشيخ ذلك المفتى فى مساعى قضائية فرده الشيخ عبد المجيد مستندا على قول الشرع والقانون أن الرجا فى القضاء

حرام وأنه لا يقابل أحدا من أرباب المصالح حتى الافتاء · وظهر لى أن الشيخ عبد المجيد سليم مفتى الديار المصرية شخصية بسيطة ، ومن المدهش أنه حل المحل الذى كان فيه الشيخ محمد عبده والشيخ أبو خطوة ·

١٤ ينـاير

فى ١٤ ينـاير سنة ١٩٣٧ بمدينة لكنو مارست امرأة من البراهمة العادة التقليدية باحراق ذاتها أمام هيكل أجرا أثناء الاحتفال بتشييع جنازة زوجها ، فكان صراخ الألم يكاد يغطى على دق الطبول ورنين الصنوج ، ووقف جمهور كبير ليشاهد المرأة وهى تحترق حتى ماتت قبل أن تتمكن الشرطة من التدخل فى أمرها · وعلقت جريدة أفرنجية على هـذا الخبر فقالت « ان الاستعمار الانجليزى لم يستطع منع هذه العادة التى هى من شعائر الدين وأن وجـود المتفرجين بكثرة دليل على تأصـل التمتع بالقسـوة « ساديزم » فى قلوبهم » ·

ولكن الفضل يرجع الى الشارع الذى جبل نفس الشعب على اعدام المرأة على هذه الصورة صيانة لها بعد موت زوجها ، فهو علاج للغيرة الحاصلة بعد الموت Posthumons ، ولعل هذه العادة من دواعى اخلاص الزوج لزوجته طول حياته ومن موانع تعديها على حياته بايعاز عاشق أو مزاحم ، لأنها تعلم أن عمرها ينتهى بانتهاء عمره ، فالتضامن جميل فى ذاته وان كان ثمنه غاليا ·

والهند تقلل عدد النسـاء بهذه العـادة الذميمة وتقاوم كثرة المواليد بقتل الاناث وهى تقابل عادة وأد البنات فى جاهلية العرب · ولماذا لا يحترق الزوج عند وفاة زوجته ؟ لأنه بطبعه ـ حتى فى

حياته ـ قد أرادته الطبيعة مزواجا Polygume ، ولو عرفت المرأة الأوربية أنها تحترق بعد وفاة زوجها لكانت عنايتها بغذائه وراحته وصحته أعظم مما نرى ، ولنفخت هذه العادة في روح العفة والأخلاق وربأت بالمرأة من أن تكون متاعا لجملة رجال اذا مات زوجها الأول .
فما أبعد المسافة من أخلاق المرأة التى تحترق بعد الزوج والأخرى التى تقبض بوليسة التأمين بصفة « دوطة » لعريس جديد !!

ان فى الشرق أمورا يحتاج الغرب لتعلمها .

١٥ ينـــاير

كتبت خطابا الى خليل مطران بخصوص سرقة روايتى بواسطة ادمون تويما (١) وتكلمت مع مصطفى القشـــاشى صاحب مجلة الصباح ولخصت له الموضوع .

١٨ ينـــاير

ـ قابلت ابنى زكريا وهنأته بعيده الذى هو عيدى .

ـ وقابلت الشيخ سيد عبد السلام فى قهوة بلدى وحضر الشوربجى والشيخ محمود عبد السلام ثم ذهبنا الى سيدنا الحسين فصلينا العشاء .

٢١ ينـــاير

ـ خطب أحمد ماهر فى محفل الشرق الأكبر وقال عن معاهدة سنة ١٩٣٦ « قد حصلنا على هذه المعـاهدة على ما فيها من نقص وعيوب وهى تعد خطوة فى نيل غايتنا وهى الاستقلال » .

---

(١) انظر هذا الخطاب فى كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » المرجع السابق ، ص ٤٢٧ ـ ٤٣٠ .

ـ تكلم معى نقولا حداد فقال ان وجود الأسرة على وضعها الحالى أكذوبة كبرى اذ هى استغلال للزوج طول حياته لمصلحة الأولاد والزوجة ، ويعيش الزوج كل حياته يعمل حتى يقع تحت عبء حمله ، وقال ان هذا الموضوع مهم لأجل رواية توضع فيها كل هذه الأفكار لأنها خلاصة ثورة اجتماعية كبرى وأن هذا الموضوع يعجبه ويجول فى خاطره منذ زمن طويل ٠

٢٣ ينـــاير

حكى لى اسكندر مكاريوس فى محل الأمريكين قصة المقطم فقال لى ان فى الحياة البشرية الحقيقية مآس أفظع مما نراه فى السينما ، فخالى الدكتور فارس نمر الذى أنعموا عليه برتبة باشا وهنأته أكبر رجل شرير على سطح الأرض ، **كره جميع المصريين عند جميع الشوام وظلمنا يمينا وشمالا وقلبه خال من الايمان والانسانية ،** فقد ظلم أبى شاهين مكاريوس صـــاحب فكرة المقطم وعمل حيلا شيطانية هو وصروف على ظلمه وجعل نصيبه الربع بدلا من الثلث وكان أبى دائما يحتج ومات من الحزن ٠ وظلم أخى سليم فقد أعطاه مائتين وأربعين جنيها للعلاج ، فلما مات احتسبها من مرتبه ولم يجعلوا له مكتبا فى المقطم مع أنه قد عمل كل حياته فى انهاضه ؛ والمحرر جميل فهمى انتحر من البؤس وجاءت امرأته تطلب مصاريف دفنه فرفض الدكتور نمر فجمعها لها عمال المطبعة ٠

وأساء الى كل انسان احتك به واجتهد أن يأكل حقوقه وقد أكلها بالفعل ٠ وقد اقتنى ٧٠٠٠ سبعة آلاف فدان وبعضها أطيان يعقوب صروف نفسه ، ضحك عليه حتى اشتراها منه وجرد أسرة صديقه وشريكه من الملك العقارى وان ثمنها على الأقل ٧٠٠٠٠٠ سبعمائة ألف جنيه وأن ايراده لا يقل فى العام عن عشرة آلاف جنيه

وأنه نموذج للبخل واللؤم والخيانة لأصدقائه وأقاربه وأنه أعظم ممثل للأنانية والغدر والشح فى العصر الحديث •

وشكوى مكاريوس الآن تدور حول أن فارس نمر باشا (!!) هو وخليل ثابت (زوج أخت مكاريوس) يدسون لينزعوا نصيب مكاريوس واخوته من المقطم ليستولى عليه فى النهاية خليل ثابت ، وأن هذا هو السبب فى اهمال المقطم فى الوقت الحاضر ليسقط ايراده ويسترده نمر بأرخص ثمن من عائلة مكاريوس مع أن نمرا يستفيد من المطبعة ومن ايراداته الخاصة •

وقال لى مكاريوس ما نصه « اننى شامى ومحب للانجليز وهذا الرجل خالى ولكننى لم أدهش ولم أغضب ولم أحتقر عملا من أعمال الحكومة أو الأمة المصرية مثل منح لقب باشا لهذا الرجل الذى **قضى حياته فى خيانة مصر ومقاومة حريتها والحط من قدر أبطالها مثل مصطفى كامل ، فأى مثال سيىء يعطى للخونة والأشرار فى المستقبل من نفس هذه الأمة التى نالوا منها وشتموها ؟ » •**

ثم قال بعد ذلك انه اذا كان البرنس محمد على (رئيس مجلس الوصاية) هو الذى صنع ذلك فقد وصم تاريخ حياته الى الأبد •

وقال انه عندما عين خليل ثابت عضوا فى مجلس الشيوخ هاج نمر وماج وأحضره وقال له بدون أن يهنئه « من الذى أعطاك هذه الوظيفة وكيف تم ذلك بدون علمى ؟ » • فقال له خليل ثابت : وماذا يهمك أنت يا باشا ؟ • أنا لم أعرف ولكنك أنت نلتها قبلى ولعلك لست مبسوطا لأجل ذلك ولكن تعيينى فى المجلس ليس غلطتى •

وقد علم كريم ثابت بهذا الحديث فهاج وماج وسب وشتم ويظهر أن هذا من أهم أسباب خروجه على المقطم واشـــتغاله فى جريدة المصرى ·

٢٧ ينــــاير

ـ أرسلت اليوم خطابا للنحاس باشا أطلب فيه تسهيل الحج لى فى هذا العام ·

ـ قابلت اليوم مصطفى القشاشى حسب وعدنا واطلعته على ملخص الفيلم « الحب والواجب » أو « يقظة الضمير » التى انتحلها ادمون تويما لنفسه فاقتنع خصوصا عند رؤية عبارة اللعب والطفل · وفيما يلى ما قاله لى :

انه اتصل بعبد الحليم محمود أحد أعضاء الشركة فقال له اننا أخذنا تعهدا على تويما بأنه مسئول فى حالة ظهور أنه سرق هذا الفيلم من أى مؤلف وأنهم استدعوا تويما وسألوه فأكد لهم أن الموضوعين مختلفان كل الاختلاف (أى موضوعى وموضـــوعه) · وهنا قال القشاشى فمن أين له معرفة موضوعك ان لم يكن قد اطلع عليه · فقالوا له ان الشركة لا تريد أن توجد بين لطفى جمعه وبينها علاقة قانونية ، فرد عليهم القشاشى بأن لطفى اذا رفع عليكم قضية فأنتم تدخلون فيها تويما وما يحكم به ضدكم للطفى يحكم به على تويما لكم فقالوا اننا مستعدون للقائه ونشرب القهوة معه فى بنك مصر فى أى وقت شاء ·

ثم قال لى القشاشى اننى استوضحت الأمر تماما وأرجو أن ترسل الخطابين الى تويما ومطران واننى مستعد لنشر كل ما تريد نشره فى المجلة وهذا واجب على لك · ورسم الخطة الآتية :

مقابلة عبد الله أباظة وارســـال الخطابين ومقــابلة مطران شخصيا ونشر الخطابين ثم الفيلم ثم تحليل الفيلمين وأخيرا رفع القضية ·

ثم قابلنى مصطفى الصباحى وعنوانه كوكب الشرق شارع الوابور سيدى زين العابدين نمره ٥ وحكيت له فجزم بأن مطران مشترك مع تويما بالأدلة الآتية :

١ ــ أن خليل مطران اطلع على الرواية الأصلية التمثيلية وبقيت عنده سنة وأكثر وقال لك انها مقبولة وأنك سترى ثمرات مجهودك على المسرح ·

٢ ــ أنه اطلع على السناريو الذى أرسلته الى بنك مصر وعليه ختم الشركة ·

٣ ــ أنه بشرك بالنجاح عنه فى التليفون وفى المقابلة التى تمت فى سبتمبر سنة ١٩٣٦ ·

٤ ــ أنه قدم الفيلم الذى انتحله وادعاه تويما الى أم كلثوم وقال لها انه « كويس وفوق الكويس » ·

٥ ــ أنه سمح لرجال فرقته بالتمثيل فيه ·

٦ ــ أن الفيلم نشر فى جميع الجرائد ولا يمكن أن مطران لم يطلع عليــه ·

٧ ــ أن تويما يد مطران اليمنى فى الفرقة القومية ·

أما الأدلة على تويما فهى :

١ ـ ادعاؤه أنها ترجمه عن الفرنسوى ولم يبرز الأصل وقد قال هذا القشاشى كما قاله لى بحضور نقولا حداد ٠

٢ ـ أنه بادر باعطائى نسخة من البروجرام ٠

٣ ـ أنه طلب منى رواية للمسرح أمام طاهر حقى مع أنه كان يعلم أن روايتى مضى لها سنة عند مطران أى فى متناول يده وقد قرأهـــا ٠

أما سبب عدم تمثيل روايتى بواسطة مطران فهو خوف مطران من ظهور موضـــوعى بعد الفيلم أو قبله ، فيقارن الناس وتظهر الحقيقة ، فخنق مطران روايتى ولذا حمدت الله على أننى سحبتها ولم يحرقوها أو ينكروها ٠

وقال الصباحى ان مطران خاننى شخصيا فلم يعطنى مبـــلغ ١٢ جنيها أجر كتابة مقالات أسبوعية فى كوكب الشرق والبلاغ والأهرام مدحا فى الروايات التى مثلت وهذا المبلغ من ضمن مبلغ آخر لأجل الدعاية ٠

الخميس ٢٨ ينـــاير

ـ فكرت فى تأليف رسالة صغيرة موضوعها « الاشتراكية فى الاسلام » أو الاشتراكية الدينية التى تنطوى على التكافل والتعاون والتراحم والعدل الاجتماعى ٠

– أرسلت خطابا الى حضرة صاحب المقام الرفيع النحاس باشا أطلب فيه قبول هديتى الى مشروع الدفاع الوطنى وهو خمسمائة نسخة من كتابى فلاسفة الاسلام ثمنها مائة وخمسون جنيها ، واقترحت عليه تسهيل سفرى الى الحج لأداء الفريضة ٠

– حفلة احياء ذكرى حافظ ابراهيم :

كانت لجنة رثاء حافظ ابراهيم بطرف جعفر ولى قد كتبت الى لأشترك فى اللجنة ٠ واليوم قصدت جمعية الشبان المسلمين لحضور الحفلة فوجدت شبان الحقوق يحاولون التثقف وفيهم من لا بأس بهم كالذى بحث فى شعر حافظ وميله للبؤس ، وكلمة فريد وجدى لا بأس بها ، أما رئيس الجماعة حمادة الناحل فمشروع خطيب ويمكنه أن يثير الجماهير الساذجة ٠

٣٠ ينـــاير

– كتب صحفى انجليزى فى الديلى هيرالد عبارة كانت تتردد فى نفسى منذ عشرات السنين وهى أن العالم مخدوع فى أن حكومة سويسرا حكومة حرة ، وعدد الكاتب مظالم سياسية خفية كاضطهاد الصحفيين وتلفيق القضايا للاشتراكيين (برتونى سنة ١٩٠٩) ومضـــايقة أحرار الفكر ومؤازرة روسيا القيصرية (واســبليف) وايطاليا (حرب الحبشة) ٠

فاتخاذ جمعية الأمم مقرا لها فى هذه المدينة الظالمة مسألة فيها نظر ٠ فهى التى أقامت محاكمة سرفيه (ميشيل) مكتشف الدورة الدموية وتحكم كالفن فى حكمها دينيا ومدنيا وبوليسها أسوأ

بوليس وحكومتها أخبث حكومة والخلاصة فان نفاقها يلائم نفاق جمعية الأمم التى اختارتها مقرا ٠

ـ يفكر الشـوام فى احياء ذكرى أحمد فارس الشدياق ٠ لقد بدأ الشرق ينهض ويحيى ذكرى رجاله ٠

ـ ان سومرست ماجوم هو وحـده الذى فهم المرأة باعتبار انسانى وعالجها فى كل أحوالها وحكم عليها حتى جعلها وهى أم تتواطأ على قتل ولدها المريض الميئوس منه لتخلصه من عذاب الحب والألم ، والمرأة فى نظره دائما خاضعة للحاجة الجنسية وهى التى تحركها وهو يغض الطرف عن تأثير الطبيعة فى تكوينها وحاجاتها ٠

وأحب أن أكتب له خطابا وأتصل به وأن أكتب تمجيدا لأنه الكاتب الوحيد الذى يوافقنى ، دع عنك توماس هاردى فهو الآخر كذلك ولكنه غامض ومحتشم ومتردد ٠

أول فبراير سنة ١٩٣٧

ـ فى الساعة الرابعة بعد الظهر قابلت خليل مطران فجأة بباب جريدة الأهرام فقلت له : أجر وعافية ، فقد سمعت بمرضك وترددت بمنزلك لعبادتك ٠

فقال : أهلا وسهلا بالصديق الحبيب ، أنا شاكر لك فضلك وان لم يخبرنى أحد بحضورك ، وقد قضيت أربعين يوما طريحا فى الفراش وآسفاه على أن هذه الحوادث السـيئة لا تقع الا مع الأحباب وهكذا شاءت الأقدار ٠ أحب أن أحضر اليك لأجلس معك مجلسا لطيفا ٠

فقلت : بأى خصوص يا أستاذ ؟

قال : بخصوص خطابك الذى وصل الى ولم أرد عليه لعجزى بسبب المرض ، فانى الآن لا أستطيع أن أكتب شيئا ، والآن أقضى أســوأ الليــالى فى حياتى ، فلا أنام بل أرق وضيق فى التنفس ولا أهضم شيئا من الطعام ، فاذا أكلت « لبن زبادى » أو خضارا مسلوقا أعود كالمرأة الحامل والليل طويل طويل يا أستاذ !

فقلت : لا بأس عليك ٠

قال : وأنا أخرج نادرا « للتشميس » وأجلس عند الطرابيشى الذى على قمة الشارع أمام النقابة الزراعية لأكون قريبا اذا طلبنى أحــد ٠

فقلت : والى أين ذاهب الآن يا أستاذ ٠

قال : أنا ذاهب لمقابلة الموسيو اميل فابر فانه نازل فى فندق متروبوليتان ولم أتمكن من الذهاب لاستقباله كما أشاعوا أننى ذهبت الى اسكندرية بل عينت له بعض الموظفين فى الفرقة القومية ليعطوه المعلومات التى يطلبها وأنا أقابله فى الفندق من حين الى آخر وهذه هى المقابلة الثالثة ، فأنا تحت أمرك فى أى يوم تضرب لى تليفون فى النقابة الزراعية فأحضر اليك فى عربة مقفلة « ليموزين » فنجلس مجلسا لطيفا نتحادث فيه ونصفى كل شيىء ٠

وكان خليل مطران يتكلم بصوت واطى ولم يستطع أن يرفع وجهه أو عينيه فى وجهى ولم يجرؤ أن ينظر الى وجها لوجه en face ، وكان محنى الرأس ، محنى الظهر وأذناه متدليتان بحالة مؤلمة ٠

وقد هممت أن أقول له قولا موجعا وهو يصعد فى تعب مصطنع أو حقيقى سلم فندق متروبوليتان ولكن أشـــفقت عليه ولم أشأ لأن جميع شخصه ومسلكه كان يدل على أنه مذنب مريب ويكاد يقول « خذونى » ، بل يطلب الرحمة ، فأمهلته الى أن أخاطبه بعد يومين لأدعوه لهذا المجلس الذى يصفه « باللطف » ٠

ــ خاطبنى رجل يدعى الاشتغال بالسياسة الخارجية وفهمها فقال :

ان انجلترا تتدهور وتنحل بالأدلة الآتية :

١ ــ قانون وستمنستر الذى فكك أوصال الامبراطورية ٠

٢ ــ استقلال ايرلندا ٠

٣ ــ ميل كندا الى الانضمام الى الولايات المتحدة الأمريكية ٠

٤ ــ انتصار ايطاليا فى حربها مع الحبشة ٠

٥ ــ انهزام انجلترا أمام ايطاليا فى البحر الأبيض ٠

٦ ــ دستور الهند ٠

٧ ــ معاهدة الجنتلمان بين ايطاليا وانجلترا عن البحر الأبيض ٠

٨ ــ معاهدة مصر وانجلترا سنة ١٩٣٦ ، وان كانت ضــد مصر الا أنها تقهقر بريطانى ٠

٩ ـ رغبة ايرلندا فى ادخال (...) (١) معها .

١٠ـ عزل ملك الانجليز ادوار الثامن وهو أقوى ملك بعد فيكتوريا .

١١ـ انحطاط مستوى رجال السياسة وظهور أمثال بولدوين وهور وايدن وأمثالهم .

٤ فبراير

ـ عندما قابلنى مطران يوم أول فبراير سنة ١٩٣٧ كان يعلم أنه سيسافر الى اسكندرية مع الفرقة القومية ومع اميل فابر ولذا سيغيب جملة أيام ، فطلب منى أن أخاطبه فى التليفون ليزوغ ويمضى الوقت المناسب للعمل ، واذن فقد تكلم معى ووعد بسوء نية ثابتة لا شك فيها .

١٢ فبراير

صلاة الجمعة مع الملك فاروق :

دعيت الى ذلك فى جامع مصر الجديدة الذى بنته الأوقاف ، فذهبت عند الساعة الحادية عشر والنصف وكان الجمهور مكتظا وراقنى رؤية الأطفال والبنات من المدارس المسيحية فى انتظاره بباب المسجد ، ودخلت فاذا المسجد ينقسم الى قسمين فى وسطهما ممر ، الأول للمدعوين وهو القريب من المحراب والثانى فيه عامة المصلين ، ووراء الأولين وأمام الآخرين صف من جنود الحرس الملكى وضباطهم وهؤلاء لم يصلوا طبعا .

(١) كلمة تقرأ « استر » ولعلها استراليا .

وفى الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق حضر الملك يتقدمه عدد عظيم جدا من ضباط الحرس ثم ظهر نحيفا أشقر أحمر أزرق العينين يتكلف الهدوء وكان مصننا للخطبة وكان منظر العلماء يدعو الى الدهشة وهم يتحشرون ويتزاحمون ، وفى أثناء خروجه ودخوله هجم عليه عنصر الأعيان لا سيما الشباب منهم ، مصفقين وهاتفين ، وعند خروجه ارتمى على قدميه رجل بائس فقبض عليه وفتشوه وسلموه لمأمور القسم ، ثم خلع الملك على الخطيب والامام شالات كشمير قيل لى انهم يبيعونها فى خان الخليلى بثمن بخس ٠

١٤ فبراير

ـ تكلم معى مصطفى الشوربجى فقال ان اختباره دله على أن النساء ثلاث :

١ ـ لك وهى البكر لأنها تنطبع بطابعك ٠

٢ ـ عليك وهى التى رزقت من زوجها الأول فتأخذ ما لك لولدها ٠

٣ ـ لا لك ولا عليك وهى الثيب التى لم ترزق ولدا ٠ والثانية والثالثة لا تنطبعان بطابع الزوج الجديد ٠

أما الغنية والمتعلمة والفقيرة ، فتقول الغنية انتظر حتى أجلس أنا أولا وتقول المتعلمة اسمع لما أقول أنا أولا ٠ أما الفقيرة فتقول حاضر يا سيدى وهى الفضلى بينهن !!

ـ روى لى أصدقاء الشيخ سيد عبد السلام الذين عرفوه قبل حاله أنه كان مقرئا ذا مقام وصوت جميل جدا وكان شديد الأناقة

والهندام الحسن وبدأ حاله بهذيانه ثم باع ثيابه فى سوق المؤيد بأربعين قرشا وهى تساوى أربعين جنيها ثم جذب فأدخله أبوه الشيخ عبد السلام مستشفى الأمراض العقلية ثم أخرجه فصار يقلد مشاهير القراء ولا سيما الشيخ ندا وسكر ، وكان يتطور ويهيج أثناء حياة أخيه ووالده ثم هدأ وثبت وصار على أحسن حال ، أما كراماته فهى المكاشفة وخدمة أحبابه برفع « الحملات » عنهم وشفاء مرضاهم بأمر الله سبحانه وتعالى ، ويحرص الشيخ على أن يظهر « كرامات » للمنكرين أو المتشككين ، وهو دقيق فى كلامه وحسـابه وعفيف اللسان واليد وخفيف الروح جدا وتنفذ ارادته دائما بالحسنى أو بالشدة ٠

ـ جلست جلسة خاصـة مع حامد العلايلى بمناسبة قضيته ضد اللوزى وقال لى حامد أنت (١) « Sublime » ومخاص ، وسيان عندى أن أكسب القضية أو أخسرها ، فما دمت كسبت الثقة وأنك رجل الحق والصدق والشرف والوفاء والتضحية وقد لمست فيك هذه الخصال منذ كنت تخدم القضية الوطنية مع المرحوم محمد فريد فى مؤتمرات الحزب الوطنى فى جنيف وباريس وبروكسل ، وقال لى ان زوجته قالت له فى غيبتى أنت مقصر فى حق لطفى بك وسوف ترى اخلاصه وشرفه ٠ وقال ان ابنته « دودو » أصيبت بقطع جسيم فى قدمها وأن « بولا » بلغت أشدها وتطلب الزواج ولا تجده وأن خدمه يصرخون من علاقته الجديدة بصاحبه عبد العزيز اسماعيل الذى صارت له امتيازات ٠

وقالت الزوجة أمام حامد : كلما أرى غلظة زوجى أسأل نفسى كما كان يفعل أبى شوقى أين تعليم اكسفورد ؟ ٠

---

(١) يعنى سام أو رفيع أو مهيب ٠

وقالت بولا العلايلى (تصغير اقبال) وهى ذاهبة الى الجمكانة (سبق الخيل) سأذهب بثيابى العادية ، فكل الناس عندى سواء الى أن أجد خطيبا . وقال العلايلى عندما رأى صورة نظام حيدر آباده فى الجريدة « الرجل ماشى زى الجن بقوة المال فان ايراده أكثر من مليون جنيه فى السنة ، صحيح أن البلاشفة معذورون ، رجل ايراده هكذا ، وألوف بل ملايين لا يجدون القوت الضرورى » .

١٥ فبراير ..

قابلت بدار المقتطف فؤاد صروف فقال لى ان العالم الآن فى حالة جنون وأن داء المدنية لا شفاء له ، وكان نجيب هاشم حاضرا فحمل على البلاشفة بمناسبة مقالة « حنا خباز » فى المقتطف ، فحياه فؤاد قائلا « تحية يا أعظم الرأسماليين ! » . وحضر على محمود طه المهندس الشاعر وأظهر أنه يفهم مسألة الجنس ويعالجها فى شعره وأنه تأثر ببودلير وفيرلين وكل شعراء Decadence ثم ذكر مقالا نشر فى جريدة العروبة وصف فيه كاتبه ليلة غرامية فى باريس بكل صراحة فى الألفاظ أو المعانى حتى علاقة الفراش ! .

وحضر يعقوب فام وهو أجرد أمرد كهل كأنه طواشى قديم من عهد الفراعنة وهو يكتب فى التربية ولا سيما المسائل الفرويدية لأنه لم يتزوج ، وأسمعنا على محمود طه من شعره المنثور .

الجمعة ١٩ فبراير

بعد صلاة الجمعة فى مسجد بعلواية باب الخلق مع حسين فهمى – قابلت حامد العلايلى الساعة الواحدة فى قهوة بار اللواء وصحبته الى داره وتغدينا معا . ثم سافرنا بالسيارة الساعة الثانية

الى عزبته فى برمبال الجديدة ، ووصلنا داره الساعة السابعة والنصف مساء ورأيت وجوه الفلاحين الذين أحبهم لولا مسخهم بالتمليق لمولاهم • وأفرد لى العلايلى غرفة بالدور العلوى ، وكان الوجع فى ضرسى شديدا ولكننى قاومت وتحملته وعكفت على الصيام وقراءة كتاب مارى انطوانيت تأليف ستيفان زفيج ، وفى الصباح لقيت مضيفى على مائدة الفطور ، ثم خرجت لوضع خطاب فى البريد فمررت بالبحر الصغير وعبرت على سفينة محطمة وسلم أعوج من الحجر الزلج ، وقابلنى رحل من البر الثانى « كفر علام » فجبهنى بأن حامد بك متقلب فى السياسة وأن البلد كلها وفدية وأن الانتماء للوفد عقيدة ، فأكدت له تقديرى للوفد •

وفى الليل يقضى حامد بك السهرة فى ملاعبة بعض القرويين بالقمار (كتشينة البصرة) ويربح منهم قروشا و « شلنات » وهم فقراء ويقضى نهاره فى تشذيب بعض الأشجار •

ورئيس الدار الشيخ عبد المجيد ، والشيخ محمد أبو عبده خولى أو ناظر عزبة الوقف الخيرى البالغ مساحتها ٧٠٠ فدان والشربينى هو الطباخ والسفرجى والكرارجى والساقى تعاونه بركة أخت زوجته •

وفى صباح يوم العيد ٢١ فبراير كان قلبى متحرقا على أننى لم أتمكن من الحج فى هذا العام وعلى بعدى عن أولادى •

ثم ذهبنا لتعزية السعيد رمضان القاضى بمصر لوفاة والدته فلم نجده فقابلنا أخاه • ثم زرنا الشيخ محمد أبو حفنى عمدة كفر علام والتف حولنا عشرات من الأشخاص وتحدثنا فى كل شىء •

وفى صباح يوم ٢٢ فبراير ذهبت مع محمد حفنى والشيخ شبانة ــ وهو محام شرعى شقيق محمود مبارك ــ الى ميت النصارى لزيارة الشيخ سيد أبو حلاوة أحد الأولياء فوجدناه فى المنصورة وأضافنا الشيخ حافظ أبو سرايا وانصرفنا عند الغروب بعد أن رأينا الشيخ محمد صالح عمدة ميت الولى وهو نوع غريب من الفلاحين يتكلم الفرنسوى من القرن الماضى وله نوادر لطيفة ، وسألنى أبو سرايا عن « أطيانى » فابتسمت ، والرجل لا يتخيل أن مثلى لا تكون له جملة عزب وأباعد !!

وألطف نكتة أن عمدة ميت الخولى ألح على دعوتنا الى بيته لشرب القهوة بصفة جدية ، فلما علم بوصول العربة التى تعيدنا الى منزلنا قال بالفرنسية لى ! .... Dieux est grand, sait pas d'argent يعنى لقد علم الله بعجزه عن تقديم القهوة فبعث بالمركبة لتنقلنا وتنقذه ، وكان مضحكا للغاية ! .

وفى الساعة السابعة ألحوا فى زيارة الحاج لطفى وأخيه الحاج زكى (؟!) عمدة ميت عاصم ولهما قصر على النسق الايطالى ، فوصلنا الى الدار الساعة التاسعة مساء واجتمعت بالفلاحين ودارت أحاديث مختلفة ، وكان أكثرهم اهتماما بحديثى هم الذين لهم مصالح يرجوننى فيها .

لقد سأمت الاقامة بالريف وفقدت شهيتى وتولانى الأرق ، فخرجت يوم ٢٣ فبراير للغيط راكبا فرسا ومعى بعض الخدم للمرور بالأطيان التى يملكها العلايلى وهى ٣٠٠ فدان غير أطيان الوقف ومقدارها ٧٠٠ فدان ثم عدت غروبا وحضر أهل كفر علام لتوديعى وتحدثنا طويلا .

وفى الليل لعب حامد بك البصرة مع عبده أبو وفا شريكه فى المقامرة وكان أبو وفا يستعين على حامد باستحضار الأولياء والجن ويقول : يا أبو سريع ! يا قروع ! يا خلعس (كذا) .

وفى يوم ٢٤ فبراير شددت رحلى وقصدت الى ميت النصارى للشيخ سيد أبو حلاوة فودعنى عشرات الأشخاص على المحطة وكان الزحام شديدا بمناسبة مولد السادات بدكرنس .

وصلت الى البلدة ومشيت الى دار أبو سرايا فصحبنى الى دار الشيخ فنفر منا فى أول أمره ثم قبلنا ودعالى وانصرفنا الساعة الواحدة وركبت القطار الى المطرية ولم نجد « لنشا » فركبنا سفينة شراعية الى بورسعيد وكانت الليلة قمرية جميلة للغاية وقد أزعجنا أثناء الرحلة الشيخ صالح الخريبى وهو قصاص دينى وراوية أمى من أغرب الأنواع وقد تكلم أكثر من أربع ساعات بدون انقطاع !

وصلت بورسعيد الساعة الثامنة مساء ولاحظت أن البلد قائم قاعد للزينة لاستقبال الملك فاروق .

وفى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٧ صليت الجمعة فى المسجد التوفيقى وكانت البلدة فى حالة زينة عجيبة لأن الملك يحضر غدا ليبحر الى أوربا حيث يقضى فيها خمسة أشهر .

وفى المســـاء توجهت الى المحطة ولم آكل طول اقامتى فى بورسعيد سوى مرة واحدة خبزا وجبنا وفاكهة . ووصلت القاهرة نصف ليلة الجمعة .

٢٧ فبراير

مما يدل على روح هذا العصر التعيس مونولوج المدعو يوسف حسنى فى الاذاعة واسمها « الدنيا هى هى » وهو مونولوج يدل على الضجر السائد والملل من الحياة والوقاحة Cynisme ، كقوله : « الدنيا هىهى والشغلة هىهى والماهية هىهى والبوسة هىهى والنومة هىهى !! » • وهذا المخلوق يشبه صورة هزلية مشوهة من ماجول Magol (١) ، ولكن أخص ما أخذ عنه خناثته ، أما الفن فدون الوسط •

٢٨ فبراير

ـ الشيخ « قلق » منجم غريب الشكل يجلس أمام مسجد بيبرس الذى يخلو فيه الشيخ البغدادى ويقيم فى حانوت عطار ليس فيه الا أحقاق قديمة فارغة ويتناول نقودا أقلها خمسة قروش ولا حد للأكثر ، ويكتب فى ورقة من أسفل الى أعلا رموزا وأرقاما ثم يتكلم • ويقول الكثيرون انه يصدق فى ذكر أسماء الغـائبين وتحذير المستفتى أو تطمينه • وقد حذر حامد العلايلى من جملة ناس كما طمأنه عن ناس كثيرين ، ويدعى العلايلى أن الرجل ذكر أصدقاء بذكر أسماء وحوادث •

والرجل فى الخامسة والستين من عمره أسمر الوجه ضخم البدن غليظ التقاطيع عامى التعليم ميال الى طريقة الكهان فى السجع السقيم ويخلط كثيرا ويكثر من كلمات مبهمة مثل « مانوفه » أى جيدة ، وقد رأيته يدجل على العلايلى فعلا فى حادثة شقاق بنته مع ابن صدقى ثم طلاقها ، فأعطاه بيضة وأوراقا تحرق ••• الخ ودفع

---

(١) انظر ما كتبه لطفى جمعة عن ماجول فى كتابه « فى الأدب والنقد » ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م •

العلايلي ثمنها جنيها مصريا • وعندي أن العلايلي كالنســــاء في معتقداته •

ـ ان محمد على طاهر كان خادمــا للانجليز في أيام الحرب العظمى الأولى وكان بوابا على باب جريدة الكوكب التى رأس تحريرها الدكتور عبد الرحمن شهبندر وهى جريدة ضــــد الترك في أنحاء العــالم • وقد سمعت محمد على طاهر يتكلم في السياسة الدولية ويطعن في الترك بمناسبة لواء الاسكندرونة (يناير سنة ١٩٣٧) في جمع من الشوام السذج ، وغايته جمع نقود باسم عمل حركة للجنة الدفاع عن الشوام والفلسطينيين ولبنان ••• الخ ، فعجبت لأن هؤلاء قوم ضرب الفرنسيون بلادهم وهتكوا أعراض بناتهم ومع ذلك انتهوا بمؤازرتهم على تركيا وساعدوا على خراب الدولة العثمانية فتأمل !!

ـ كتبت مقالة عن كثرة الملاهي التى يعلن عنها في الجرائد وعدم وجود اجتماعات علمية •

ـ كتبت خطابا بقصــد السعي لمقابلة ماسينيون المستشرق الفرنسي المهتم بأخبار الحلاج واطلاعه على التصوف المصرى الحديث • كما كتبت خطابا الى كليلاند لتنظيم نوع جديد من المحاضرات يقصد بها الى الثقافة العليا واعطاء جداول بعناوين كتب تجب قراءتهـا بهدف تثقيف وتنوير الشباب •

ـ أرسلت خطابا الى حضرة صاحب المقام الرفيع النحاس باشا أطلب فيه قبول هديتي لمشروع الدفاع الوطني وهو خمسمائة نسخة من كتابي تاريخ فلاسفة الاسلام ثمنها مائة وخمسون جنيها •

ـ تحرير مقالة عن نشر الجرائم في الصحف والتشنيع فيها على الطريقة الجديدة وأنها تكون الرأى العام تكوينا سيئا كالقسوة على المتهمين الذين قد يكونون أبرياء •

ان وظيفة الصحافة هي الحث على أعمال تؤدى حقيقة الى محاربة الجريمة والرذيلة مثل الدعوة لعقد مؤتمر من المتعلمين والعقلاء ورجال الاصلاح الاجتماعى ، وأن أوربا وأمريكا فيها جرائم أشنع مما نرى فى مصر وفيها زعماء دوليون للجرائم ٠

ـ أقرأ فى هذه الأيام كتابا عن النبى صلى الله عليه وسلم للسير أرنولد جاء فيه أن « جريمه » و « كايتانى » قالا ان محمدا بعث للعرب فقط وأن القرآن خال من أى اشـــارة الى أنه نبى للعالم (؟ !) ٠ وهذه الفكرة التى أذاعها المستشرقون هى فكرة تعصبية ودينية من جهتهم ، لأنهم سلموا بنبوته وصدقه وبعثه للعرب فقط ، فلو قالوا للعالمين لأرغموا على الاسلام ٠ ولكن هذه الفكرة من السهل أن يرد عليها بشيىء واحد وهو أن القرآن قال انه جاء أيضا للجن وهم عالم خفى فمن باب أولى أن يكون لجميع البشر ، وفيه نصوص للذين يعلمون ويتدبرون ويعقلون ويتفكرون ، وبالطبع ليس العقل والتدبر والذكاء مقصورا على العرب فقط ، فالدعوة بالدخول فى الاسلام لكل أهل الكتاب ، لأن فكرة المستشرقين الخبيثة ترمى الى ما يأتى : أن محمدا سـلم بالتوراة والانجيل واحترم أصحابهما نصح العرب لأنهم مشركون وثنيون ٠ ولكن فات المستشرقين أن العرب كان فبهم نصارى ويهود أى أصحاب كتاب ٠ واذا كان محمد جاء للعرب فقط فلماذا حارب فى حياته الروم وتحدى الفرس ثم حاربهم المسلمون ٠

ويقول المستشرقون ان مسألة الوفود الذين ذهبوا للملوك فى حياة النبى موضوعة بعد وفاته ٠ وأنا أسلم بأن على خطب هؤلاء الوفود صبغة الانتحال وهذا للأســـف ناشيء من أن المؤرخين والأدباء فى الاسلام لا يتحرون ما قيل ولكنهم يفرغون المعانى فى قوالبهم فتتشابه ثم يسوقون أسماء بدون تحقيق ، ولكن هجرة المسـلمين الى الحبشة

كان من ورائها دعوة النجاشي للاسلام بطريقة غير مباشرة عندما تليت عليه سورة مريم • ولا شك في ارسال بعثة لمصر عقبها اهداء مارية الى النبى وطبيب وبغلة أنجبت مارية ابراهيم ، وتودد المصريين للعظماء بالهدايا معروف من قديم الزمان •

ـ كذلك أقرأ هذه الأيام كتاب تاريخ لينين تأليف أورسندوفسكى Orsendowski الذى استعرته من دار الكتب فى سنة ١٩٣٧ وهو كتاب فظيع لا أدرى ان كان له أم عليه ، ولكن أدرى أن الصورة عن لينين التى تركها المؤلف فى ذهنى تدل على ان هذا الرجل كان شيطانا فى جسم انسان ، فان مناظر الدماء والقتل ونبش القبور وانتهاك المحارم التى رآها وسكت عليها ووصفها بأنها « غيظ المنتصب فى أول أيام غضبه » شىء لا يقبله قلب انسان عادى • طبعا قد يلتمسون له أعذارا ولكنه شىء يتقزز منه الذوق والعقل ، ولم أشعر بألم من قراءة كتاب الا مرتين ، الأولى تيريز راكان لاميل زولا وهذا الكتاب عن لينين • انه وصف حقيقى ولذا فهو مر وفظيع • وأهم ما قرأته فى ترجمة هذا الشيطان الذى وصفه أنصاره بأنه (١)

le plus humain parmi les humains

أنه كان صبورا جدا وقادرا على ضبط نفسه وكبح جماح عواطفه حتى فى أقسى الأوقات التى يصيبه فيها أشد الألم والبلاء وهذه موهبة مدهشة ولكنها صادرة عن شيطان ولا يقدر عليها ملك •

ـ قابلت سليم قبعين وهو شخصية غريبة وأصله معلم قديم فى المدرسة العبيدية وصاحب مجلة الاخاء ومطبعة وأديب يترجم عن الروسية وهو فى الستين من عمره • هذا الرجل قابلنى وقال انه لا يقرأ الا مطبوعات الروس البيض الواردة من باريس وبرلين ، وهو يعتقد أن لينين مختل الشعور ولكنه نجح فى قلب نظام الحياة والحكم

(١) من معانى كلمة Parmi بين أناس أشراف •

فى روسيا ، وقرأ عنه فى كتاب أنه كان داهية فى الذكاء ولا يعيب عليه الا الحاده ولو لم يكن ملحــدا لكان من خيرة النــاس (؟!) . ولا يعتقد قبعين أن القيصرية تعود الى روسيا ولكنه يعتقد أن العهد البلشفى سوف يزول لأن الأغلبية ساخطة من مظالم ستالين (كذا) وأن مظالمه تفوق مظالم القيصر ، لأن القيصر على الأقل لم يقتل أصحابه بل حارب أعداءه .

ـ ان أعمال موظفى الحكومة الآن عبارة عن توزيع اختصاصات وهروب من المسئوليات وانشغال بال بعلاوات ودرجـــات وكادر . والموظفون هم وحدهم الطبقة الميســـورة التى لا تحمل هما للرزق ولا خوف المستقبل ، فصار منهم ملاك والارستقراطية والرأسماليون بعد أن كانوا طبقة بائسة فى الصف الأخير من الأمة يقومون بالخدمة العامة مقابل جعل مقبول معقول ، فصاروا الآن سادتها .

٤ مارس سنة ١٩٣٧

زرت الشيخ البغدادى وكان هاشا باشا يقلب الشاى عندما دخلت عليه ، فتكلم عن مظالم الحكام وظلمهم وجبروتهـــم وبخلهم وضرب مثلا بالسلطان عبد الحميد والخديو عباس حلمى وقال لقد خرجا من ملكهم أذلاء صـــاغرين وحتى لم يصلوا الى حقوق الأفراد العاديين ، وقال ان عبد الحميد أراد أن يكون كالاله . ثم انتقل الى الكلام على الترك فوصفهم بكل ذميم فى الحكم والظلم وقلة الايمان الا نادرا . ثم تكلم عن الدنيا وعدم أهميتها عند الله وعند العارفين ، فقال ان ابراهيم ابن آدهم ترك الملك وخرج الى الجبل والوحدة والعمل وحضرت له أمه فأراها كرامة وهى طاعة الحيوان فى البر والبحر له ، وهذه لطيفة سليمانية . ثم تكلم عن الولاية فقال الموهبة فى النبوة والولاية كسبية بهم القلب وتعذيب الجسم واذلال اللحم

والعصب والباب مفتوح للجميع . وقال ان الدنيا جيفة وطلابها كلاب أولها عمارة وآخرها خراب .

ولم أسمع منه عبارة تدل على فهمه حقيقة حالى فقد كان كلامه لى كما لو كنت من أرباب الأموال أو المتمسكين بالدنيا ولكنه بشرنى بشرى حسنة وقال لى ايمانك حسن ان شاء الله . ثم تكلم عن حافظ الشيرازى وأنه كان يلبس اللباد فزار وزيرا تركيا بحضور الوزراء فى يوم التشريفة فجلس بجوار صاحبه بحالته فسأله الوزراء عنه فقال هو حافظ الشيرازى ، فقال حافظ ان الجواد الأصيل ظهره مجروح تحت البردعة والحمير (يقصد الوزراء) أعناقها موضوعة فى أطواق الذهب (يقصد قلادات الزينة) فطأطأوا رؤسهم وتدلت آذانهم وبدوا فعلا كالحمير ! ، ولما عرفوا اسمه تهافتوا عليه لتحيته .

وعندما صب لى الشيخ البغدادى الشاى قال لى اشرب يا أخى واطرب . ثم سألنى عن محل سكنى وحييته وصليت العصر وانصرفت .

٦ مارس

ـ حفلة تأبين حافظ ابراهيم :

حضرت الحفلة بنفسى فى الأوبرا فى الساعة السادسة فاذا المسرح حافل بحرافيش لا عدد لهم ووراءهم ستار والجمهور عراميش . وكان الذى يقدم الخطباء أحمد ربيع المصرى وقد خطب على زكى العرابى باشا وزير المعارف وابراهيم دسوقى أباظة ، ولم يبد على الخطب أنها كانت موضع بحث أو دراسة أو تمحيص ولكن لأجل الشهرة والحصول على الصيت واعادة أبيات المرحوم حافظ ،

ومن أغرب ما فيها انه اشتغل بالمحاماة فى طنطا فى أول أمرها وأمره قبل سنة ١٨٩٠ ثم ترك المحاماة واشتغل بالحربية وسافر الى السودان • وكانت القصائد والخطب رثة لاسيما قارىء ناب عن شاعر السودان فكان يلحن و « يتقصح » ويلعب حواجبه فأسكتوه • وكانت قصيدة أحمد الزين قوية ضد الأخلاق الحاضرة وهى بائية ومنها « فنفساك لم تخلق لسخر الألاعب » ومنها أيضا « اذا كان بالتهريج نيل المراتب » ومنها « اذا الشعب بالاهمال أرسب عاليا ، فلا بدع أن يعلو به كل راسب » وكانت لها صبغة سياسية ولكنه هاجم الشعر الحديث ، أما شعر الكاشف فكان سخيفا وكذلك شعر أمين الغريب الشاعر السورى فهو مهوش وكان كلامه غير مفهوم ولعله مترجم من كتب أمريكية لم يفهمها وترجمها ترجمة حرفية •

وفى النهاية قامت مظاهرة لمحمد محمود باشا وخطب فيهم فقال انه مريض ولولا اجلاله لحافظ ما غادر سريره ، وهو شديد الاعجاب بخطبة أخيه التى قال فيها **ان حافظ ابراهيم لم يكن ينعى بؤس نفسه بل كان ينعى بؤس وطنه** وضحك كثيرا عندما قال كرد على أعطيت حافظا طبقا من « كل واشكر » • وهو صنف من الحلوى وقلت له « كل واشكر » فقال الباشا « هذه نكتة شامية » !

بالجملة فان الحفلة كانت تسودها الفوضى وخير شعرائها من شرق الأردن •

٧ مارس

حضور ادوار لامير الى مصر :

ــ وصل الأستاذ لامير يوم الأربعاء الماضى وقابلته فى فندق شبرد الساعة الخامسة فى دعوة الدكتور السنهورى وعانقته وحييت

زوجته التى ألحت عليها الشيخوخة على سابق جمالها ، أما الرجل فلا يزال بنشاطه وشبابه وزاد مرونة ونقـــاء فكر ووضـوحا وهى سيما العلماء وشيمتهم ، وكان الاحتفال جميلا جدا ولم يحضر من الأقدمين الا عزيز ميرهم صـــادق فهمى وعبد الســلام ذهنى ، وقال له صادق فهمى « احتراماتى Mes respects » • وكانـــت الغالبيـــة أجانب وبعض المصريين المشهورين كوزراء المعـــارف والمواصـــلات وكانوا (١) Very awkward ، وحضر لطفى السيد وعلى ابراهيم باشا وقد اعتذر له لامبير ليكمل حديثا ضافيا يعطيه لجريدة الجهاد عن الماضى والحاضر قيـــل انه ينشر غـدا ٨ مارس سنة ١٩٣٧ وأخذت له جملة صور •

وعلمت أنه مقيم فى كونتننتال لمدة شهر ونصف يلقى خلالها حوالى ١١ محاضرة فى القانون المقارن ، بغايته من حضوره انشاء معهد أو قسم فى كلية الحقوق لتدريس هذا الفرع من العلم الحديث الذى خدمه فى ليون أثنـــاء الحرب وبعـــدها ، وقال انه مسرور ومندهش وشاكر للمصريين على حفاوتهم به •

حياة بأكملها عادت الى ذاكرتى عندما رأيته ! ، وقد قال لى : لقد عجزنا كلانا ولكن أنا أكثر • وهو هو بحالته لم يتغير مثل كل العظماء والجلال يحوط زوجته الكريمة •

وقد رأيت بعض الشـــباب الجديد وهم جامدون ومتقنون اللياقة ، ورأيت بعض بنات من طالبات الحقوق وعجبت لغياب رجال أمثال مصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى واسماعيل كامل ممن خدمهم لامبير خدمات جزيلة •

---

(١) من معانى كلمة awkward مزعج ، مقلق ، مشوش •

ـ دهشت لحالة النفاق التى تجلت في شخصية أنطون جميل رئيس تحرير جريدة الأهرام من غرور وادعاء ، فهو يتكلم بتهزيء ومراوغة وقد حق له ذلك فهو غنى ولا أهل له ورئيس تحرير جريدة كبرى وعضو مجلس الشيوخ ، وبعض هذا لا كله لا يحصل الا فى البلاد التعسة التى تظلم بنيها وتحقرهم وتعظم الأجانب وتقدسهم وتعليهم على ظهورها وان هذا من أغرب الأمور ٠

وانني اذا قارنت بين هذا الرجل الذى أطغته النعمة بالمأسوف عليه داوود بركات أو خليل ثابت فانهما أفضل منه بمراحل أو على الأقل أقدر على المحافظة على المظاهر ، ولعله من عينة فارس نمر كما وصفه ابن أخته مكاريوس فيما سبق ، وهو خليط من دجال ومن آمن مطمئن يتقاضى أموال الحكومة والصحافة ولا ينفق حتى على شهواته وقد أتته الدنيا بكل محاسنها ٠

ـ قال الشيخ سيد عبد السلام فى دار عبده الشناوى ان الله خلق أولا أهل الطاعة والاستقامة ثم خلق النبى من نوره ثم خلق بقية الخلق وأنزل العلم وليس العلم هو الرسوم أو علوم اللغة أو أحكام الشريعة ، بل العلم هو الذى يوهب للعالم المتحقق (يريد الولى) ٠ وقال ان العالم عندما يكبر يزيد عقله ويتسع والجاهل عندما يكبر يخرف ويضيق عقله لأن العلم يغذى العالم ٠ وقال دعاء هو « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » مع الصمدية وقال انه يغذى القلب ويريح وينفع ٠

ـ قابلت فيلكس فارس (١) فى حفلة حافظ ابراهيم وكنت أحب أن أراه من سنة ١٩٢٧ قال لى أنا شاعر فى أوقات والشعر لا يليق لكل الظروف وأنا أترجم لنيتشه « هكذا تكلم زاراتوسترا »

(١) عن علاقة لطفى جمعة بفيلكس فارس ، انظر كتاب « محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٤٣٣ ـ ٤٤٠ ٠

والموسيه « اعتراف فتى العصر » . أنا ثائر قديم وكنت أعمل مع الفرنسيين فى سوريا الى أن وصلت الى درجة لم أتمكن أن أتعاون معهم فقالوا أنت لا تنفعنا ، وقال أنا لا أطيق أن ألطخ يدى بدماء أهل وطنى ، وقد هاجرت الى مصر لا طالبا رزقا ولكن لأفر بنفسى من جو ظالم وأنا الآن أعمل مترجما فى المجلس البلدى باسكندرية وقد ألفت كتابا فى تاريخ وطنى وأهمية العروبة فلم يقدره الذين كتبته لأجلهم ، وأنا الآن عمرى ٥٢ سنة ثم قال ان عيوب نيتشه ترجع الى أن أباه كان مصابا بالزهرى ، وفى كتابه ارتفـــاع واسفاف .
وفيلكس رجل شرقى جميل الصورة حلو الحديث شديد الألفة .

٩ مارس

ـ حضرت جلسة محكمة الجنايات بمناسبة قضية أحمد حسين فقابلت فيها بعض الوجوه المألوفة والأغلبية من الحاضرين من حزب مصر الفتاة وكان جو التهريج والحدة سائدا .

ومن العجب تغير الرأى ضد الوفد على هذه الصورة مع أنه هو الحزب الأكبر وحزب الأغلبية فى هذا البلد . وكان الزحام شديدا وقال أحدهم ان أحمد حسين يمتاز بفضيلة واحدة هى « الغرور » ، والحقيقة أن هذا الشخص الأجنبى لا يعجبنى فيه شىء وأجده من أكثر الناس غرورا .

وقد حكم بمصادرة عدد واحد من جريدة الضياء وتخلى عنه عبد الحميد حمدى كعادته وكان قد قبض من المصاريف السرية .

ـ وصف الحاج براون فى كتابه « بونابرت فى مصر » الثورة الأولى التى قام بها أهل القاهرة على نابليون فقال انهم ظلوا أيقاظا وراء متاريسهم لا ينامون فى ليل أو نهار ولا يلتمسون الراحـــة

ولا يتناوبون المراقبة والحراسة ، فقضوا أربعا وعشرين ساعة رابضين مرابطين راصدين وراء المتاريس مفتوحى العيون لا يغفون لأن حداثة عهدهم بالثورة المسلحة على جيش منظم أوهمتهم أن النوم والأكل من المطالب التى لا سبيل اليها فى حرب أو ثورة ، وقد حفظوا فى هذه الثورة الأولى درسهم فلم يركبهم مثل هذا الوهم فى ثورتهم الثانية على جيش نابليون ·

وهذه حادثة سيكولوجية مصرية عجيبة ·

٩ مارس

قابلت محمد محمود باشا وهو رجل مهذب لطيف المعشر أنيس العشرة ولكنه مريض جدا يتنفس بصعوبة ويتكلم بصعوبة وتشوبه صفرة فاقعة وفى بياض عينيه أثر لليرقان وهو عليل جدا ولعله مصاب فى كبده وفى رئتيه ولا يمكن تقدير سنه لصغر وجهه وحلاوة طبعه وترقرق عينيه بماء التشبث بالحياة وشعره أسود فاحم وهو دقيق الفهم ·

ويضرب الباشا الأمثال بحامد العلايلى فى تقلب الآراء · وفى الحقيقة فان العلايلى أشد الناس سذاجة ، فقد جاءنى ذات يوم يمدح حزب مصر الفتاة الجديد ويثنى على المدعو أحمد حسين ويعجب به ويدعى أنه مؤمن بمبدئه وأن له مستقبلا ظاهرا ، وهذا اللون من التقلب قد تعودته منه ، فهو صديق لكل أعداء الوفد ، وهذا اللون من الرجال كلون حميه المرحوم أحمد شوقى ، فقد وافق شن طبقه · والعلايلى يزور أحمد حسين ويتكلم اليه ويدعى أن العظماء يزورونه وأنه يحب تعضيده فلم أجاوبه على كلامه لأننى أعلم مقدار ذبذبته وتحامله على الوفد فى غير قصد مع أنه كان قد تشيع للوفد

حينا فى أيام الائتلاف سنة ١٩٣٢ أيام وزارة صدقى وقبل انشقاقه على محمد محمود باشا • فيا لخيبة آمال هذه البلاد بهذا الرجل وامثـــاله !

١٠ مارس

قابلت محمد على علوبة باشا فى محكمة الأزبكية مع القـاضى أبـو بكر فابتدرنى علوبة بقوله هل ألفت لنـا كتـابا جديدا بعـد « حياة الشرق » ؟ الحقيقة أننى كلما أراك أشعر بأنك ضحية وأنك مظلوم وأنا أشعر بأن الظلم واقع على شخصى وأخجل عند رؤيتك من مواجهتك لأننى أشعر أحيانا كأننى ظالمك • فقال له القاضى باسما : لماذا يا باشا ؟ • قال :يسود العدل عندما يدعى الأستاذ لطفى الى المكان الذى يليق به من مناصب الدولة بدون سعى بل لمجرد الاعتراف بكفايته ، ويكون الظلم كلما طال الاغضـــاء عنه وعدم الانتفاع به •

وهذا الكلام المعسول لم يخدعنى ولم يحزنى لأنى فى غـــاية القناعة والسرور •

الجمعة ١٢ مارس

شهدت فيلم « ليلى بنت الصحراء » تمثيل الســـيدة بهيجة حافظ فلم أجدها فنانة فى شىء سوى اشرافها على العمل •

وقد تأثرت من غناء حياة محمد لقطعة من الشعر القديم وأعادها ابراهيم حمودة منها :

ليت للبراق عينـــا فترى   ما ألاقى من عنـــاء وبـــلى

ومنها أيضـــا :

قيـدوني غللوني ضربـــوا ملمس العفة مني بالعصـــا

وقد بكيت طويلا عند سماع هذه القصيدة القديمة من ديوان « ليلى العفيفة » ، ولعل شعوري بآلام دفينة وظروفا أخرى اقتضى هذا البكاء .

من ١٢ ـ ٢٠ مارس سنة ١٩٣٧

عن جبران خليل جبران :

قرأت في أسبوع واحد كتـــاب فيلكس فارس « على المنبر » وكتاب ميخائيل نعيمة عن « جبران خليل جبران » ففهمت أن فارس تصدى للدفاع عن ذكرى جبران دفاعـــا مصطنعا وان كان حـــارا ومجتهدا فيه تحت لواء « اذكروا حسنات موتاكم » وأن الوفاء كان يقتضى كذا وكذا ولا يصح كذا وكذا . ولكن نعيمة أراد أن يعطى صورة صادقة مخلصة لجبان صاحبه العقلية والروحية وقد نجح الى حد كبير .

وبالطبع هو في كتابه لايجـــارى لطول عشرته لجبران ولقوة فكره أكثر من فارس ، وفارس صديق لجبران قصير المدة ولم يفهم روح جبران ولا أخلاقه كما فهمها نعيمة الذى عرفه وعجمه حتى فهمه وأدركه .

ويلخص رأيي في أن جبران لم يكن نبيا ولا وليا ولا حتى نصف درويش كما زعم عباس العقاد ، بل كل أدبه وعلمه وتصوفه نوعا من « الزعبرة » الأرثوذكسية مرتكنة الى المصادر الآتية :

١ ـ الانجيل والتوراة وما يتبعهما ٠

٢ ـ الشاعر المصور وليام بليك William Blake الذى قلده جبران مع تقصير كثير ٠

٣ ـ نيتشه فى كتاب « هكذا تحدث زارا ذوسترا » ٠

٤ ـ تاريخ حياته وأسرته والوسط الأمريكى الذى عاش فيه ٠

وفى نظرى ان نجاح جبران فى أمريكا مبالغ فيه ولعله عند الأمريكان لبساطتهم كمصور ساذج ٠ أما أنه كاتب فلا أعتبره شيئا ، فكل أسلوبه الحق أقول لكم ٠٠ وهكذا ٠ وهو يقلد أسلوب أنبياء بنى اسرائيل ٠

ان أمين ريحانى ـ وهو أقدم من جبران اذ كان كاتبا من سنة ١٩٠٣ ـ وفرح أنطون وجبران يكادون يكملون بعضهم بعضا ، وان كان الريحانى أقلهم تدينا ونقصا ، وفرح أكثرهم عفة وبؤسا ، وجبران أشدهم مكرا وأتقنهم فنا ٠

أما أحبهم الى نفسى فلا أحد وان كان الريحانى أخفهم ظلا ٠

١٧ مارس

ـ من أغرب الوقائع مجاهرة أربعة من الجبهة الوطنية (محمد محمود وصدقى ويحيى وحلمى) بالانفصال عن الوفد عندما

دعاهم النحاس باشا ليبدوا رأيهم فى مسألة الامتيازات الأجنبية فردوا برفض الحضور ، وهو انسحاب من الميدان ردا على احتقار الباشا صاحب المقام الرفيع لهم مدة عشرة أشهر ، فلم يريدوا أن يكونوا مسئولين معه الى النهاية وهم مع ذلك عليهم الغرم وليس لهم غنم ما . ولكن الخطابات المتبادلة بين الفريقين لم تنشر وأظنها تنشر بعد قليل .

والناس تعلق أهمية كبيرة على مؤتمر مونترو ويدعى بعضهم أن عمر هذه الوزارة الوفدية محدد بالنجاح أو الفشل فيه ، « النصر بره وبعيد !! » فانه لا أمل لمصر بدونها !!

ـ مقارنة بين اعتدال الانجليز وظلم الطليان :

عندما ضربت قنبلة فى كنيسة فى أديس أبابا ، قتل الطليان انتقاما للجنرال جرازيانى ـ الذى لم يمت بعد ـ أكثر من سبعة آلاف حبشى غير المنازل التى خربوها وأحرقوها ، وظهرت تصريحات خطيرة فى مجلس اللوردات والنواب الانجليز . ونتذكر أنه عندما قتل السردار لى ستاك فى مصر (نوفمبر سنة ١٩٢٤) غيلة لم يتحرك جندى انجليزى واحد وقدم المتهمون للمحاكمة ونالوا أقصى العقوبة بحسب القانون المصرى ، وكانوا فعلا هم الفاعلين ، فلم يقع ظلم ولا قتل ولا نهب ولا قسوة وحشية . فما أعظم الفرق بين الانجليزى والايطالى وان كان كل منهما شر وبلاء !

ـ أقاموا احتفالات كبيرة لموسولينى فى طرابلس الغرب وتقدم منافق كبير يدعى الامارة وسلمه ما دعاه كذبا « سيف الاسلام » ، ففضحته الجرائد وقالوا ان الأمير المزيف تركى الأصل وآلة فى يد الطليان وأن الأمير الحقيقى من آل السنوسى ، وتبلغ نفقات السيف ألفى جنيه فتأمل !!

وقد تكلم موسوليني بتمسدفه المعهود فقال انه سيخدم الاسلام ويمدن أفريقيا .

١٩ مارس سنة ١٩٣٧

ـ ذكرى ١٩ مارس :

هل اسمه آذار ؟ ما أجمل اسمه !

في ١٩ مارس سنة ١٩١٠ التقيت بها (١) في مدينة جنيف بيي لانسي (بنسيون راسين) فكان يوما من أيام القضاء والقدر . فعشنا وسعدنا وتعبنا وتلذذنا وتألمنا الى سنة ١٩١٢ ، وكان سبب تعارفنا حامد العلايلي الذي وصفته في رواية « قلب المرأة » تحت شخصية « جودياس » في صفة وغد الرواية Vilain . وكان ذلك في يوليو سنة ١٩٠٨ في لوزان حيث قضيت من ٥ الى ١٥ أغسطس ولم يعرف حامد شيئا عن هذه العلاقة .

وفي هذا اليوم بعد حوالي ثلاثين عاما مرت وتحقق كثير مما تكهنت لي به في الحياة ـ لا أعلم ان كانت لا تزال من أهل هذه الدنيا . وآخر ما وصلني عنها في سنة ١٩٢٨ بعد صمت دام ست عشرة سنة . وها هي تسع سنوات أخرى .

أخبرتني في سنة ١٩٠٨ أنها في الثلاثين من عمرها وأنها من مواليد سنة ١٨٧٨ ، فكانت اذ ذاك تكبرني بثماني سنين ، ولكنها كانت لي أختا وصديقة وحبيبة ، وقد لعب الدهر بعقلها وعصفت الأهواء بقلبها فافترقنا في يوليو سنة ١٩١٢ في فيلا سيلفيا بفيفي سنة ١٩١٢ . وقد أوحت الى أحسن ما أنتجت في عملي .

---

(١) يقصد لطفي جمعة السيدة الأديبة الروسية أوجستا دامانسكي .
انظر كتاب لطفي جمعة « تذكار الصبا ، ذكرى ١٩ مارس » . عالم الكتب ، ١٩٩٩ .

وها أنا ذا أرى وجه جودياس فى نفس هذا التاريخ فأذكرها وأسجل الذكرى بابتداء كتاب جديد « ليالى الروح المهتدى » ٠

سلام عليها وعلى روحها وذكرياتها وآسفا !!

ـ قابلت حامد العلايلى فى بار اللواء الساعة الخامسة بعد الظهر وقد أقبلت عليه الدنيا فسدد ديونه ولا يظهر الفقر الا أمامى لأجل أن لان يدفع لى أتعابا ، وذهبت معه الى السينما رويال وشهدنا رواية الشرق والغرب لجورج أرليس فأبدع ٠ وقد أذكرتنى مناسبة هذا التاريخ (١٩ مارس) بذكريات غريبة كان للعلايلى فيها شأن ٠

ـ موضوعات لليالى الروح المهتدى :

١ ـ الملحدة الحمراء ٠

٢ ـ المعرفـــة ٠

٣ ـ أبو شادى الشاعر الطبيب ٠

٤ ـ عودة بعثـة الأزهر من الهند لأنهم عـــادوا يسـخرون من المنبوذين ٠

٥ ـ القاضى القاتــل ٠

٦ ـ خذ الحياة كما تجىء ٠

٧ ـ كيف نجح طه حسين (لأنه شتم الأمة وسب دينها واحتقرها)٠

٨ ـ الأفعى المطيبة (زينب) (١) ٠

---

(١) لم أعثر ضمن أوراق لطفى جمعة على شىء مما كتبه من كتـاب « ليالى الروح المهتدى » (ر٠ل٠ج) ٠

ـ من أخطاء المعارضة وطيشها أنها وصلت ضد الوفد اقمتها عندما تظاهر الطلبة ضد جريدة البلاغ وحطموا أبوابه ونوافذه وحاولوا تعطيله بالقوة . والجرائد حافلة بالأخبار والصور .

ومن المؤلم أن يحدث هذا قبيل سفر الوفد الى مؤتمر مونتريه للمفاوضة فى الغاء الامتيازات الأجنبية . فواسفاه على مصر !

٢٠ مارس

نشرت الأهرام اليوم بالصفحة (٥) صورة غريبة لم أكن رأيتها من قبل فيها لامبير وأسرته وفريد بك وبعض أقطاب السياسة الفرنسية مأخوذة فى ليون سنة ١٩٠٩ عقيب مؤتمر جنيف وعليها مقالة شرح حسنة ، وفيها صورتى ملتحيا وكنت اذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمرى .

٢٢ مارس

توجهت الساعة الخامسة بعد الظهر الى الجامعة الأمريكية لاجتماع لصالح السلم العام ، فوجدت توفيق دوس عائدا من حفلة، وابتدأت فتكلمت فى اظهار فوائد السلم وتطاحن المبادىء فى أسبانيا .

الثلاثاء ٢٣ مارس

ـ موعد اجتماع المؤلفين المسرحيين مع زكى طليمات بالأمريكين (فشل أهل الكهف وسر المنتحرة لتوفيق الحكيم) .

ـ موعد الساعة الثانية عشر مع الدكتور أحمد ماهر .

١٤ ابريل سنة ١٩٣٧

هل أدب الأمم يمثل حقيقة حياتها وفكرتها ولا سيما الأدب المسرحى ؟

ها هــم الفرنسيون قد تغلغلوا فى فهم المرأة ، حبها وقلبها وخيـانتها وخداعها ولا يدور بحثهم الا حــول هذا وذاك الا فى النــــدرى •

وهؤلاء الانجليز لهم مسـائل أخرى ، المجد والعظمة والمال والضحك والبكى فى حدود الفضيلة والأسرة واذا شذ واحد أهلكوه ، ولذا لم يسـتطع توماس هاردى أن يتكلم الا حذارا وأمامه أمثال أوسكار وايلد • ولكن رجالا مثل موجام استجدوا وتجرأوا ، ولكنه هو أيضا حصر نفسه فى دائرة المستعمرات •

أما الروس فهمهم فى التفكير السياسى والفلسفى ، والطليان فى تأملات أشبه بالقضاء والقدر وهى روح شرقية غامضة مترددة ، والألمان يرمون الى ما هو أعلى ، الحكمة الكبرى وسـياسة الدولة والمنظمة • والأمريكان شاغلهم المقعد والمقيم المال والجريمة وهكذا •

لقد حصر الفرنسيون أنفسـهم فى دائرة ضـيقة ، فشغلوا بفلسفة البطن والفرج وما تحتهما ، ولم يصعدوا فوق ذلك ولا جروا بعده ، حب وخيانة وسلوى وشوق وحنين وموت فى سبيل الهوى ، ولعلهم أصدق الناس فى درس أهم مظاهر الحياة المادية •

٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٧

وزارة الوفد الرابعة ماتت بهدوء مع السنة الحالية وفى آخر أيامها وذهبت غير مأسوف عليها •

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
٧ ـ حب الحكمة ، ما الفلسفة ، وما غرضها .	٤٦٥
٨ ـ الفيلسوف التعلق بتراحم الرجال ، حب الخير والحق والعدل والجمال وحب الانسانية ، عدم انطواء الفيلسوف ، موهبة حب الحكمة ، المال والشهرة والشهوات ، قوة العقل والارادة عند الفيلسوف . اعتزاز الفيلسوف بشخصيته	٤٦٨
٩ ـ محاولة البحث عن فيلسوف يمثل الفلاسفة ومذهب يمثل مذهبهم	٤٧٤
١٠ـ حقيقة الفلسفة	٤٧٧
١١ـ أصل الخير والشر وسبب شقاء الانسان فى الحياة ومحنة الروح بالحياة ، وحدة الفكر الفلسفى ، هل الفلسفة علم	٤٨٢
١٢ـ أسئلة فلسفية	٤٨٧
١٣ـ الاعتزال والتصوف ، الأفكار الفلسفية بين النظرية والتنفيذ ، الفلسفة لا تورث . .	٤٨٩
الزواج	٤٩٧
من يوميات سنة ١٩١٧	٥١٤
من يوميات سنة ١٩٢٢	٥١٦

الموضـوع	الصـفحة

صـــدر من هذه السلسلة :

١ ـ **مصطفى كامل فى محكمة التاريخ .**
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ **على ماهـــر .**
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ **ثورة يوليو والطبقة العاملة :**
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ **التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة .**
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ **غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى .**
د . علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ .**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ **صـلاح الدين الأيوبى .**
د . عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ـ **رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية .**
د. على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ **صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل .**
د . محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ **توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية .**
محمود فوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ **مائة شخصية مصرية وشخصية .**
شكرى القاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ **هدى شعراوى وعصر التنوير .**
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ **أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية .**
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ **مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيــة .**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ **المستشرقون والتاريخ الاسلامى .**
د. على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ **فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) .**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ **القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى .**
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ **الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية .**
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ **مصر القديمة وقصة توحيد القطرين .**
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ **دراســات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسـلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى .**
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ **التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ٠**

د٠ توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ **نظرات فى تاريخ مصر ٠**

جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ **التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، أمام التصوف فى مصر : الشعرانى ٠**

د٠ توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ٠**

د٠ نجوى كامل ، ١٩٨٩

٢٥ ـ **المجتمع الاســــلامى والغرب ،**

تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،**

د٠ سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ١ ،**

تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ **فتح العرب لمصر ، ج ٢ ٠**

تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٩ ـ **مصر فى عصر الاخشيديين ،**

د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ **الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩

٣١ ـ **خمسون شخصية مصرية وشخصية ،**
شـــكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ **مصر وقضـــايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضـــاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،**
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩ .

٣٤ ـ **تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،**
د. يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ **اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ **المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،**
تاليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،**
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ **فصول من تاريـــخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،**
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠ .

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،
د٠ جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د٠ عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د٠ رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني ،
د ٠ محمد عفيفي ، ١٩٩١

٤٥ ـ الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تاليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د ٠ حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ٠
ترجمة : د ٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د ٠ لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،
د ٠ زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،
د ٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ،**
د ٠ سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ **تاريخ المدارس في مصر الاسلامية ،**
(ابحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، في ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د ٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ **مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، في القرن الثامن عشر ،**
د ٠ الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسه ٠**
د ٠ محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ **الأقباط في مصر في العصر العثماني ،**
د ٠ محمد عفيفي ، ١٩٩٢

٥٥ ـ **الحروب الصليبية ج ٢ ،**
تاليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د ٠ حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ **المجتمع الريفى في عصر محمد على : دراسة عن اقليم المنوفيـة ،**
د ٠ حلمى احمد شلبى : ١٩٩٢

٥٧ ـ **مصر الاسلامية وأهل الذمة ،**
د ٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ **أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة .**
د ٠ ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ **الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمصير الى التأميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،**
د ٠ عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د · عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،**
تأليف : د· سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور · وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د· عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣ ·

٦٤ ـ **مصر وحقوق الانســـان ، بين الحقيقة والافتراء دراســة وثائقية ،**
د · محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ـ **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩١٧)**
ســـهام نصـــار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى**
د · نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر : د · عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ الحروب الصليبية ج ٣ ،
تأليف : وليم الصـــورى ، ترجمـــة وتعليق : د · حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ ـ **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١)**،
د · محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ـ **اهل الذمة فى الاسـلام** ،
تاليف : أ· س· ترتون ، ترجمة وتعليق : د· حسن حبشى.
ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ **مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦)** ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د · عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ)** ،
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ **تاريخ جامعة القاهرة** ،
د · رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى**
د · سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ **اهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول** ،
د · سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ **دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتـلال البريطانى)** ،
د · سعيد اسماعيل على ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحروب الصليبية ، ج ٤** ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتعليق : د · حسن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩)** ،
نعمات أحمد عتمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د ٠ السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر اكتوبر ،**
د ٠ رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،**
د ٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،**
احمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،**
د ٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ **تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،**
د ٠ أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ **مذكرات اللورد كلين ، ج ٢ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د ٠ عبد الرؤوف احمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ **التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،
د ٠ عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د ٠ نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمـــة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨) ،
د ٠ لبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ٠ ج ٢ ،
د ٠ سـهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ مصر وافريقيا ٠٠ الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهـد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د ٠ عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ٠
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د ٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،
د ٠ ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د ٠ محمد سـيد محمد

٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،
د ٠ سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة .
أ٠ د٠ عبد العزيز صالح ، أ٠ د٠ جمال مختار ،
أ٠ د٠ محمد ابراهيم بكر ، أ٠ د٠ ابراهيم نصحى ،
أ٠ د٠ فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ٠ د ٠ عبد العظيم رمضان

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء / عبد الحميد كفافى ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ ،
د٠ تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،
د ٠ على بركات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) ،
د ٠ فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ١٩٨٧) ،
د ٠ أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، ج ٢ ،
د ٠ سليمان صالح

١٠٧ ـ الأصولية الاسلامية فى العصر الحديث ،
تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال

١٠٨ ـ مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النقاش

١٠٩ ـ مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النقاش

١١٠ ـ مصادرة الأملاك في الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ١ ،
د • البيومي اسماعيل الشربيني

١١١ ـ مصادرة الأملاك في الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ٢ ،
د • البيومي اسماعيل الشربيني

١١ ـ اسماعيل باشا صدقي ،
د • محمد محمد الجوادي

١١٣ ـ الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ،
د • اسماعيل عز الدين

١١٤ ـ دراسات اجتماعية في تاريخ مصر ،
احمد رشدي صالح

١١٥ ـ مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا

١١٦ ـ اديب اسحق (عاشق الحرية) ،
علاء الدين وحيد

١١٧ ـ تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى

١١٨ ـ النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك ،
د • البيومي اسماعيل

١١٩ ـ النقابات في مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصري الحديث
لويس جرجس

١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ٢ (١٩١٤ ـ ١٩٢٤)
د. ماجدة محمد حمود

١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى للدارندلى
بقلم / عزت حسن افندى الدار ندلى
ترجمة / جمال سعيد عبد الغنى

١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية (فى ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د. محاسن محمد الوقاد

١٣٦ ـ أوراق يوسف صديق تقديم / د. عبد العظيم رمضان

١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٣٨ ـ الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر
السيد يوسف

١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين
محمد قابيل

١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر
فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ طارق عبد العاطى غنيم .

١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك
لطفى أحمد نصار .

١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ ٤
أحمد شفيق باشا .

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق.م.
د. منيرة محمد الهمشرى .

١٤٤ ـ كشـــوف مصر الأفريقية
في عهـــد الخـــديوى اسماعيـــل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ـ
د٠ عبد العليم خلاف ٠

١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر
فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) ـ
د ٠ منيرة محمد الهمشرى ٠

١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية
د٠ أحمد عبد الرازق

١٤٧ ـ حسن البنا [متى ٠٠ كيف ٠٠ ولماذا ؟)
د٠ رفعت الســـعيد

١٤٨ ـ القديس مرقس وتاسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د٠ سمير فوزى
ترجمة / نســـيم مجلى

١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى

١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها) ٠
د٠ سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
تأليف / السيد يوسف

١٥٢ ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د ٠ محاسن محمد الوقاد

١٥٣ ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د ٠ علية عبد السميع الجنزورى

١٥٤ ـ **هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الاسلامية فى العصور الوسطى**
د . علية عبد السميع الجنزورى

١٥٥ ـ **عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر (١٨٠٥ ـ ١٨٨٣)**
د . عبد الحميد البطريق

١٥٦ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث فى العصر الاسلامى**
د . سمير يحيى الجمال

١٥٧ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع فى العصر الاسلامى والحديث**
د . سمير يحيى الجمال

١٥٨ ـ **نائب السلطنة المملوكية فى مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)**
د . **محمد عبد الغنى الأشقر**

١٥٩ ـ **حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجزء الأول**
د . محمد فريد حشيش

١٦٠ ـ **حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجز الثانى**
د . محمد فريد حشيش

١٦١ ـ **السيف والنار فى السودان تأليف سلاطين باشا**

١٦٢ ـ **السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣)**
د . **تمام همام تمام**

١٦٣ ـ مصر والحملة الفرنسية

المستشار/ محمد سعيد العشماوى

١٦٤ ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ

(اعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة « ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ »)

اعداد / د· عبد العظيم رمضان ·

١٦٥ ـ التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر

سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ ـ مذكرات معتقل سياسى

صفحة من تاريخ مصر

السـيد يوسف

١٦٧ ـ الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط

منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة الأخشيدية

د· صفى على محمد

١٦٨ ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات

يسرى عبد الغنى

١٦٦ ـ مدن مصر الصناعية فى العصر الإسـلامى الى نهاية عصر الفاطميين

(٢١ ـ ٥٦٧ هـ/٦٤٢ ـ ١١٧١ م)

د· صفى على محمد عبد الله

١٧٠ ـ القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك

(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)

مجدى عبد الرشيد بحر

١٧١ ـ **تاريخ الجالية الأرمنية فى مصر**
القرن التاسع عشر
محمـد رفعت

١٧٢ ـ **تاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية جـ١**
(من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى)
د ٠ فاطمة مصطفى عامر

١٧٣ ـ **تاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية جـ٢**
د ٠ فاطمة مصطفى عامر

١٧٤ ـ **مصر وليبيا (فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق٠م**
د ٠ أحمد عبد الحليم دراز

١٧٥ ـ **محمد توفيق نسيم ودوره فى الحياة السياسية**
عادل ابراهيم الطويل

١٧٦ ـ **الملاحة النيلية فى مصر العثمانية**
(١٥١٧ ـ ١٧٩٨ م)
د ٠ عبد الحميد حامد سليمان

١٧٧ ـ **سياسة مصر العسكرية ازاء حروب الشرق الأوسط**
لواء / د ٠ صلاح سالم

١٧٨ ـ **العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى**
فى القرن الثامن عشر
د ٠ سحر على حنفى

١٧٩ ـ **دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر**
(١٥٦٤ ـ ١٦٠٩ م)
د ٠ عفاف مسعد السيد العبد

١٨٠ ـ الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس
بقلم / د . عبد العظيم رمضان

١٨١ ـ الحرب الصليبية الثالثة جـ١
صلاح الدين وريتشارد
ترجمة وتعليق وتحقيق / د . حسن حبشى

١٨٢ ـ الحرب الصليبية الثالثة جـ ٢
صلاح الدين وريتشـــارد
ترجمة وتعليق وتحقيق / د . حسن حبشى

١٨٣ ـ شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفى جمعة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٩٣ / ٢٠٠٠

ISBN - - 977 — 01 — 6651 — 0